المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

رحلة الحجاج إلى الأرض المقدسة

تأليف: مارك توين

ترجمة وتقديم: عبد الباقى بركات

2007

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2007
- رحلة الحجاج إلى الأرض المقدسة
- مارك توين
- عبد الباقى بركات
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:
The Innocents Abroad Roughing It
By: Mark Twain

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

رحلة الحجّاج إلى الأرض المقدّسة

تأليف : مارك توين
ترجمة وتقديم : عبد الباقي بركات



2013

رحلة الحجّاج إلى
الأرض المقدّسة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توين، مارك
رحلة الحجاج إلى الأرض المقدسة / تأليف : مارك توين،
ترجمة وتقديم : عبد الباقى بركات
ط١، القاهرة - المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٣
٥٩٦ ص ، ٢٤ سم
١ - العالم - وصف ورحلات
(أ) بركات ، عبد الباقى (مترجم)
(ب) العنوان ٩١٠،٤

رقم الإيداع ١٩٣٩٥ / ٢٠١١
الترقيم الدولى I.S.B.N 978 977 704-826 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم المترجم

مارك توين، اسمه الحقيقيّ صامويل لانجورن كليمنز . ولد في ٣٠ نوفمبر عام ١٨٣٥ لأحد التّجار في فلوريدا، ميسوري، وترتيبه السّادس بين سبعة أبناء. انتقل أبوه وهو في سنّ الرابعة إلى هانيبال ميسوري، وهو ميناء يقع على نهر المسيسبي، وقد ألهمته كتابة رائعتيه "مغامرات هاكلبري فن"، و"مغامرات توم سوير"، إخراج بقيّة أعماله بأسلوبه السّاخر نفسه. كانت ميسوري في ذلك الوقت تشتهر بمدينة العبيد (إشارة إلى تجارة الرّفيق في تلك الفترة)، وعرف عن توين مناقشة أوضاعهم في كتاباته والدفاع عنهم. أقام في هذه المدينة ما يعرف "بالمؤسّسة الاجتماعيّة للعبيد"، وهي التي سيتناولها في أغلب كتاباته باعتبارها موضعًا رئيسًا بعد ذلك.

مات أبوه عام ١٨٤٧، وهو في سنّ الحادية عشر . تدرّب توين في العام التالي من وفاة أبيه، على حرفة الطبّاعة، وبدأ عام ١٨٥٥ العمل منضّدا لحروف الطّباعة، وكاتبا للمقالات في الصّحف وللصور الأدبيّة السّاخرة. كتب في صحيفة هانيبال. وهي الصّحيفة التي كان يملكها أخوه أوريون. ترك العمل في صحيفة هانيبال. وهو في الثّامنة عشرة من عمره، وعمل مطبعيًا في نيويورك سيتي، وفيلادلفيا، وسانت لويس . التحق بالنّقابة. وكان يرتاد في المساء المكتبات العامة ليزود نفسه بالمعارف، وليتعرّف على مجال الثقافة الرّحب. الذى يفوق كثيرا ما حصّله في المدارس العامة . عاد توين إلى ميسوري وهو في الثانية والعشرين من عمره .

أوعز ربّان إحدى السّفن، إليه في أثناء رحلة له إلى نيوأورليانز جنوب ميسوري، بالالتحاق بوظيفة ربّان لإحدى البواخر، بمقابل مجز يبدأ من مائتين وخمسين دولارا في الشهر ويقدر الآن بمائة وخمسة وخمسين ألفا . تطلّب ذلك منه أن يلمّ بالكثير من أحوال النّهر. وكيفية

رسو السفن بمئات الموانئ وأراض الغابات الواقعة على ضفافه. قام توين بدراسة متأنيّة لألفي ميل من نهر المسيسبي، لأكثر من عامين، قبل أن يتسلم العمل عام ١٨٥٩ .

لقي أخوه هنري مصرعه بعد أن كان توين قد طلب منه اللّحاق به والعمل على السّفينة التي كان يعمل ربّانا عليها. وقد لقي حتفه خلال فترة تدرّبه بعد تحطّم السفينة في بنسلفينيا. وكان توين قد رأى مصرع أخيه في حلم قبل ذلك بشهر واحد.

دفعه هذا الحادث إلى الاهتمام بعد ذلك بعلم التّخاطر وهو أحد فروع علم النّفس، وكان أحد مؤسّسي جمعية علوم الغيبيّات . واصل توين العمل ربّان سفينة حتّى بدء اندلاع الحرب الأهليّة الأمريكيّة عام ١٨٦١ والتي توقّفت إبّانها حركة السّفن عبر المسيسبي .

كتب توين بعد ذلك صورة أدبية بعنوان "التّاريخ الخاص "لم تلق رواجا. ادّعى خلالها أنّه قد التحق وأصدقاؤه بالاتّحاد الفيدرالي متطوعين في أثناء الحرب الأهلية. لأسبوعين قبل أن يتمّ تسريح فرقتهم . من أهمّ أعمال توين "ضفدع مقاطعة كالافاري الوثّاب الشّهير" وصدرت عام ١٨٧٦. ونشرها في جريدة النيويورك صنداي تحت عنوان "جيم سمايلي وضفدعه الوثّاب" إذ ساهمت في ذيوع صيته باعتباره كاتبا ساخرا. وهو أهم ما تميّزت به كتاباته التّالية بعد تركه العمل ربّانا . كتب بعد ذلك كتابه "رحلة الحجّاج إلى الأرض المقدّسة". وعنوان الكتاب الأصلي "رحلة الأبرياء إلى الخارج". وهو يسجّل لرحلة قام بها مارك توين مع مجموعة من الحجّاج أغلبهم من الكهول. إلى الأرض المقدّسة على سفينة تسمى "الكويكر سيتي"، مرورا ببعض بلاد أوروبا وآسيا وانتهاء بفلسطين. ثم العودة إلى نيويورك مجددا. ويقع الكتاب في أكثر من خمسمانة صفحة. سجّل خلالها كلّ مشاهداته في البلاد الأوروبية التي زارها و البلاد العربية وبخاصّة بلاد الشّام التي كانت في ذلك الوقت تشمل (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين) وتسجيل أحوال أهلها في تلك الفترة من حيث العادات والتقاليد والمناخ والتضاريس وإدارة العثمانيين لها مع بدء انهيار الدّولة العثمانيّة (الرجل المريض في تلك الفترة). و يهمنّا في هذا السّياق تذكير القارئ العزيز بأنّ الكتاب. قد نشر للمرّة الأولي في يوليو ١٨٦٩. أي أنّه قد مضي على نشره نحو المائة والأربعين عاما. وإذا كان الكتاب يتضمّن تحاملا على العرب والمسلمين من وجهة نظر عربية وإسلامية، فعلينا أن نذكّر أنفسنا بأنّ المسلمين قد تعرضّوا لقرون للنّقد والتجريح بعد زوال دولهم وانهيار حضارتهم. والفارق بين حال الأوّلين منهم. وحالنا. أنّهم كانوا يردّون على تلك

الحملات. بتفوقهم الحضاري، ونشرهم الثقافة الإسلامية عبر أقطار الأرض والتعامل مع الشعوب كما أمر الإسلام بالحسني، وليس بالصراخ والعويل، وإساءة الظنّ. حتّى هانت علينا أنفسنا، وأهاننا الآخرون، لأننا لم نضف للحضارة الإنسانية في أجيالنا هذه شيئا يمكن ذكره. وأكبر دليل على السّماحة في التاريخ الإسلاميّ استقبال الرسول عليه الصّلاة والسّلام وفد نجران في المدينة، وحسن وفادتهم، رغم تمسّكهم بعقيدتهم، ورفضهم الاعتراف بالدّين الجديد. ولست أدري إن كان أستاذنا العقّاد رحمه الله، قد قرأ كتابنا هذا أم لا، لكن ما أذكره أنّه كان يتبادل الرسائل مع ليو تولستوي فى شأن الإسلام. وقد أنصفه في بعض كتاباته فالعلاقة بينهما كانت البيان بالبيان والحجّة بالحجّة.

كتب مارك توين عام ١٨٧٢ رواية بعنوان " إخشوشن ". تتناول جزءا من سيرة "سام كليمنز الذاتية" وهو صديق له. وكتبها بعد تركه العمل ربّانا على السفينة، وكتب رواية أخرى بالاشتراك مع تشارلز دودلي وارنر بعنوان "عصر المظاهر الزّائفة أو عصر الزّيف". دحض خلالها الفساد السياسي في الولايات المتّحدة وتراكم الثّراء لدى البعض، في الفترة من عام ١٨٦٩ حتّى ١٨٧٠ وما تلي ذلك. صدر له عن دار النّشر الأمريكية في عام ١٨٧٥، مجموعة قصص قصيرة ولوحات أدبيّة تحت عنوان " القديم والحديث ". ألّف عام ١٨٦٧ "مغامرات توم سوير" وتعدّ من أعماله الهامّة الشهيرة، وقد لاقت قبولا كبيرا لدي الكتّاب الكبار والنّقاد على حد سواء. وتحكي عن فترة دراسته بالمدرسة وتناول فيها زملاء الدراسة "هاك فن". "وتوم سوير" بأسلوبه السّاخر الرّشيق. من بين رحلاته الخمس التّي قام بها إلى سويسرا وفرنسا وألمانيا كتب توين رواية "جولة في الخارج" وفيها تناول القارّة الأوروبيّة وما حوت من عجائب وغرائب بأسلوبه الساخر. وصل به إلى التهكّم المرير لما رأى في تلك البلاد من مشاهد وما وقع له من أحداث. ساعدت مارك توين كثرة تّرحاله و عمله ربّانا على ظهر سفينة. في كتابة الكثير من كتبه من بينها، كتابه "الحياة على نهر المسيسبّي". لكن كتابه "مغامرات هاكلبري فن" الذى لاقي قبولا كبيرا من الجمهور والنّقاد، والذى ألّفه عام ١٨٨٤. فيعد أهمّ عمل كتبه مارك توين و تحكي عن شابّ وجد نفسه ذات يوم يطفو فوق مياه النّهر على رافدة خشبيّة، بصحبة عبد هارب. فيواجهان سويا المخاطر. وتتناول الرّواية الفترة التي سبقت الحرب الأهليّة الأمريكيّة، وهي الفترة التالية للفترة التي كانت تجري خلالها تجارة على قدم وساق. ويقول أرنست

هيمنجواي الكاتب الأمريكي الشّهير عن هذه الرّواية: " يندرج الأدب الأمريكي الحديث من كتاب واحد يسمّى " هاكلبري فين" ، فهو أفضل ما لدينا من كتب، وتنطلق منه أعمال السّرد الرّوائيّ الأمريكي، ولم يبزّه في هذا أحد، أو ينشر ما يفضله في الأدب الأمريكي حتّى الآن " . كتب أيضا رواية " يانكي من كونيكتكت في بلاط الملك آرثر "عام ١٨٨٨، بطل هذه الرواية يدعى "هانك مورجان، وهو يعمل في أحد المصانع الأمريكيّة، يصاب يوما في رأسه إثر مشاجرة فيفقد الوعي، وتتوالى أحداث الرواية، بعد أن يستردّ وعيه.

يكتب مارك توين بعد ذلك روايتيه "آدم وحوّاء " عام ١٨٩٣، ورواية "ذكريات خاصّة عن جان دارك" ، وهناك روايات أخرى ومقالات وصور أدبيّة ألّفها مارك توين تعز على الذّكر في هذه العجالة .

قيل إنّ مارك توين وقع في حبّ أخت صديقه تشارلز لانجدون بمجرّد أن رأى صورتها الفوتوغرافيّة . التقى الاثنان عام ١٨٦٨ وخطبها في السنة التالية على اللقاء، وتزوّجا عام ١٨٧٠ في ألميرا، نيويورك . كانت زوجته من أسرة ثريّة متحرّرة. التقى بواسطتها من القادة المتحرّرين من التقاليد القديمة، وعلماء الاجتماع وعتاة الملحدين، ونشطاء الحركات النّسائيّة، والنشطاء في المطالبة بحقوق الإنسان. عاش الاثنان في بافلو، نيويورك في الفترة من ١٨٦٩ حتّى ١٨٧١ . كان مارك توين مساهما في ملكيّة صحيفة "بافلو إكسبريس"، وعمل بها محررا وكاتبا. مات ابنهما لانجدون بمرض الدفتريا وعمره تسعة عشر شهرا .

انتقل توين بعائلته إلى هاتفورد عام ١٨٧١، حيث ولدت له زوجته أوليفيا ثلاث بنات، سوزي، وكلارا، وجين. استمرّ الزّواج أربعة وثلاثين عاما، وتوفيت زوجته عام ١٩٠٤. كتب توين أهم أعماله في أثناء إقامته في هارتفورد، ومنها "مغامرات توم سوير" ، و "الأمير والمعدم" ، و "حياة على نهر المسيسبي" . و "مغامرات هاكلبري فن" ، و "يانكي من كونيكتيكت في بلاط الملك آرثر" .

سافر إلى أوروبا للمرة الثّانية، في رحلة سجّلها كتابة في روايته " جولة في الخارج" ، ومكث في هايدلبرج بألمانيا في الفترة من ٦ مايو حتى ٢٣ يوليو ١٨٧٨ . ثمّ زار لندن .

كان محبًا للعلوم والبحوث العلمية، وكان صديقا مقربا للعالم نيكولاتسلا، وقضى الاثنان فترة طويلة في مختبر تسلا، وظهر توين بشخصه في فيلم علمي قصير .

حقق مارك توين ثروة كبيرة من كتاباته، لكنّه بددا جزءا كبيرا منها في أعمال استثمارية فاشلة، وأضاع أغلبها في ابتكارات علميّة جديدة لم يكتب لها النّجاح. مثل ابتكاره آلة تنسيق الحروف المطبعية، خسر أيضا أموالا في إنشاء دار نشر تحمل اسمه، حققت الدار نجاحا في البداية، من خلال نشر أعمال أوليسيس، وس.جرانت، ثم أغلقت بعد ذلك بعد أن حققت خسارة كبيرة . تعرّض مارك توين للإفلاس، فساعده صديق جديد له على جمع محاضراته وكتاباته، حتى يتعافى ماليًا . في عام ١٨٩٣ كوّن صداقة مع رجل الأعمال هنري هايلستون روجر، رئيس شركة ستاندارد أويل، الذّي بدأ مساعدته في الخروج من أزمته المالية بإشهار إفلاسه في البداية ثم تحويل حقوق نشر أعماله إلى زوجته أوليفيا، وذلك لمنع الدّائنين من الحجز على ممتلكاته .

تعهّد روجر بعد ذلك شئون توين المالية وسدد كلّ ديونه . بدأ توين بعد ها رحلة حول العالم، كان يلقي خلالها المحاضرات، وفي صيف ١٩٠٠ استضافه مالك لإحدى الصّحف وهو دوليس هيل هاوس، وعاد بعد ذلك إلى الولايات المتحدة بعد أن حقق من المال ما يكفي سداد ديونه ومؤنة الحياة.

مرّ توين بحالة اكتئاب شديد، وكان ذلك عام ١٨٦٩. بعد وفاة ابنته سوزي بالتهاب سحائي، وعمق كثيرا من أحزانه وفاة زوجته أوليفيا عام ١٩٠٤. ووفاة ابنته جين عام ١٩٠٩. مات صديقه المقرّب هنري روجرز في العام نفسه موتا فجائيًا. منح توين شهادة الدكتوراه في الآداب عام ١٩٠٧. ومات بأزمة قلبيّة في ٢١ . ٤ .١٩١٠ ودفن في مقبرة زوجته في ألميرا، نيويورك .

برع توين في ارتجال الكتابة بلغة رجل الشارع، وساعد ذلك في شيوع أسلوبه الجديد في الأدب الأمريكي، وصار سمة مميزة له . صودرت بعض أعماله لأسباب عديدة استخدم العامّة لفظ نيجر "**nigger**" لتكراره في كتابات مارك توين و يعني "زنجيّ" .

قيل بأنّ الإدارات الأمريكيّة المتعاقبة من خلال أجهزتها المختلفة بخاصّة جهاز السي. آي. إيه. اعتمدت هذا الكتاب مرجعا، في معاملاتها مع شعوب الشرق الأوسط، وحكوماته. ولو سلمنا بهذا الطّرح فلا بدّ أيضا من تسليمنا بأنّ مارك توين، كان أحد النّاشطين في انتقاد السّياسة الإمبرياليّة التي تبنّتها الإدارارت الأمريكيّة تجاه شعوب العالم . ففي حين طغت شهرة مارك توين باعتباره كاتبًا على مساهماته في نقد مجتمعه. فإن لمارك توين باع طويل في نقد النهج السّياسي، الذى سلكته الولايات المتحدة بعد انتهاء الحـرب الأهليّة. فمن خلال نقوذ عائلة زوجته، استطاع مارك توين الاتّصال بالقوى التقـدّميّة داخل أمريكا، وكان توين متمسّكا، إبّان الحرب الأهليّة بموقفه المحايد من تلك السياسة، إلاّ إن آراءه مع تقدّمه في العمر، صارت أكثر راديكاليّة . بدأ مارك توين بتأييده التّدخل الأمريكي في الفلبين، وكان في تلك الفترة مدافعا لا يشق له غبار عن الأمبرياليّة، ثم تحوّل بعد ذلك إلى عداء سافر لها، وبخاصّة لدي احتلالها الفلبين، ويتضح ذلك من كلمات التأييد في قوله: "أريد أن يمضي النسر الإمريكي مجلجلا بصوته فوق الباسيفيكي، فلماذا لا ينشر أجنحته فوق الفلبين ؟".

ثم بانظر إلى التحوّل في موقفه السياسي في إحدى خطبه الشّهيرة إبان تصدّيه للإمبرياليّة. "لقد ذهبنا إلى هناك بهدف الغـزو، وليس للإصـلاح ونشـر الديمقراطيّة ". ولا حظ عزيزي القارئ: أن هذا كان يحدث أواخر القرن قبل الماضي .

ظلّ توين بعد عودته من أوروبا عام ١٩٠١ حتّى وفاته عام ١٩١٠. يشغل منصب نائب رئيس "الرّابطة الأمريكية لمناهضة الاستعمار"، والتي كانت تضمّ الآف من الأعضاء. كان ضدّ أعمال قمع الشّعوب والتعسّف والظّلم، وسلب مواردها، وتصدّى لتجارة جلب الرقيق من أفريقيا، وناقش ذلك من خلال منظمات المطالبة بحقوق الإنسان، التي كانت قد بدأت تنتشر خلال تلك الفترة :

"أنا في صفّ الثّوار دائما، فما من ثورة إلاّ وقامت لدفع الظّلم والعبوديّة والتعسّف الممارس ضدّ الشّعوب". أيّد توين الحركات النسائية، بل كان خطيبا مفوّها في الدّفاع عن حقوق المرأة، وكان لخطابه عن حقّ المرأة في التّصويت في الانتخابات، صدي واسعا، ويعد

الأشهر في هذا المجال . كما آيّد توين الحركات العمالية، في خطبة شهيرة قال : من الظالمون؟ هم تلك القلّة : الملك، وصاحب رأس المال، وحفنة من النّظار والمشرفين . ومن المظلومون؟ هم الكثرة : شعوب الأرض، وأصحاب القيم، والعمّال، الذّين يصنعون الخبز ليتناوله أصحاب الأيدي النّاعمة والكسالى".

وكان أيضا ضدّ المنظّمات الدّينية المتطرّفة، والبعثات التبشيريّة إلى كلّ من أفريقيًا وآسيا بخاصّة الصين، وتصدّي للحركة التبشيريّة التي كان يقوم عليها ويليام سكوت آمنت (١٨٥٨ . ١٩٠٩) والتي كانت تمهد لاستعمار الدّول تحت غطاء تبشيريّ . في هذا السّياق كتب مارك توين عبارته الشّهيرة "لو أن المسيح كان بيننا الآن، فالشّيء الوحيد الذّي كان سيفعله هو ألاّ يكون مسيحيًا"، وهو يقصد بذلك استخدام الدّين لأغراض سياسيّة، كما يحدث في أيّامنا هذه . أخفت عائلته بعد وفاته بعض أعماله التّي تتصدّي للآراء والمعتقدات التقليديّة، وتراجعت ابنته مؤخّرا كلارا عن موقفها بعد أن تناولتها الدعاية السوفيتيّة بالنّقد بسبب هذا المنع.

يميّز مارك توين أسلوبه الساخر، والذى لم يسبقه إليه كاتب أمريكي وقد قال ويليم فولكنر الأديب الأمريكي الشّهير عن مارك توين إنّه " أبو الأدب الأمريكي". وظّف توين أسلوبه السّاخر في نقد المجتمع سواء في داخل الولايات المتحدة أو خارجها، وساعده على ذلك اتصاله بعلماء الاجتماع، والسّياسيّين، والمتخصصين في كل العلوم، وساعدته أيضا كثرة اطّلاعه وكثرة ترحاله في الداخل والخارج، ومعرفته بأحوال الشّعوب، ومعتقداتها، وحياتها المعيشية .

لم يسلم أحد من قلم مارك توين السّاخر، فهو يطرح الأفكار ويفنّدها، حتّى تظنّ أنّه يتبناها ويروّج لها، فيباغتك بمعول، يحطم ما بني فوقه أو روّج له، فتصبح أنت بين دهشة وذهول، وتكتشف في النّهاية، وقوفه متهكما وساخرا فوق أطلال وبقايا، لأنّ البناء كان في الأصل على وشك الانهيار، والكاتب يدعو إلى العمل على وضع أسس جديدة لبناء، يراه الأنسق والأفضل. ولكن لو عاش مارك توين أيّامنا هذه فما عساه يقول، بعد اقتسام الكعكة العربيّة بين الدّول الاستعمارية الكبرى (سايكس بيكو)، وهو الذّى تناول حكم العثماني للدّول العربية تحت مسمّى الخلافة الإسلاميّة بالنقد والتجريح بل وتمنى

لروسيًا أن تغزو تركيًا وألاّ تقف كل من إنجلترا وفرنسا ضد ذلك، وماذا كان سيفعل وهو يرى العرب بعد تخلصهم من الحكم العثماني ووقوعهم بين براثن قوى استعماريّة غاشمة، أضافت إلى ما كان يعانيه العرب من فقر وجهل ومرض المزيد والمزيد. هل كان سيتصّدي لإنجلترا وفرنسا بعد تقسيم الكعكة فيما بينهما وبين الدّول الاستعمارية الأخرى، وهو الذى وقف مناهضا احتلال بلاده للفلبين؟ أم كان سيبقي على اعتباره العرب هنودا حمرا، في ملبسهم وعاداتهم وتقاليدهم، وماذا لو عاش اليوم ورأى الغزو الأمريكي لفيتنام، ثم احتلالها العراق وأفغانستان، والتهام فسطين من قبل اليهوديّ "المتجوّل" كما أطلق عليه، وقد تحوّل إلى صهيونيّ سفّاح، تحت غطاء أمريكيّ يمدّه بالمال والسّلاح، ويزوّده بأسلحة الدّمار الشامل. ويؤيّده في كلّ المحافل الدّولية بأسلوب مهين أطلق عليه "الفيتو"، واستغلّته إسرائيل غطاء في القمع وممارسة أبشع أنواع التفرقة العنصرية، ومحو كل ما يمت لفلسطين بصلة، والاعتداء على المقدّسات الدينيّة، مسيحيّة كانت أو إسلاميّة .

أم هي عقدة التّاريخ لدي الأمريكيين، حتّى تظنّ أن هناك ثأرا مبيّتا بينهم وبينه، وظهر ذلك جليًا في تغاضي مارك توين، عن كون هذه المنطقة، منهلا للثقافات، ومهبطا للرسالات السماوية، وإرثا حضاريا على مدار التّاريخ. اعتبرها عقدة، فمستشار الأمن القومي الأمريكي "هنري كيسنجر"، حين بدأ رحلاته المكوكية لحل الصراع في الشرق الأوسط " الذى لم يحل حتى الآن"، قال لمستقبليه بالمصرية الدارجة: " اللي فات مات"، ولم يطق سماع شيء عن صراع يضرب في جذور التّاريخ وعن أرض اغتصبت من أهلها في وضح النّهار شيء، وهناك أمثلة أخرى كثيرة . فهل هي عقدة التّاريخ أم ماذا ؟ لا سيّما أن كثيرا من الباحثين، الذين تناولوا هذا الكتاب بالنقد، يؤكّدون أن مارك توين ليس عالما في التّاريخ حتى يسخر من شعوب التاريخ، ومسقط رأس التاريخ ومرتعه .

حاول مارك توين في كتابه هذا التأكيد على أن القدس ليست مملكة الجنّة، كما سبق أن روّج الصّليبيّون لاستلاب حقّ سكانها الأصليين ولم يفلحوا في ذلك. وذكر أن فلسطين شأنها شأن أيّ بلد آخر له تضاريسه الخاصّة به وسكان يأهلونه، فلا هي فردوس أرضيّ، أو هي سلة فاكهة العالم، أو أرض حبلى بالكنوز أو المعادن النفيسة أو حتّى الرّخيصة. بل

هي بلد المقدّسات، جعلها الله لأهلها الأصليين عبر القرون. ولم يعد بها الدّخلاء والمحتلون ومغتصبو حقوق الغير . بقي أن نذكر في هذا السّياق أن الكتاب يقع في أكثر من خمسمائة صفحة، ويبدأ الكاتب رحلة الحجاج من ميناء نيويورك حتّى فلسطين، ثمّ العودة.

أما عنوان الكتاب فهو بالإنجليزيّة "The innocents abroad" أي رحلة الأبرياء، ومرادف اللفظة الأولى في الإنجليزية (الأبرياء، السذج، الحمقى)، وأظنّ أن ذلك تم تعمّده مارك توين، بخاصّة أنّه أغضب بكتابه هذا مرافقيه في الرّحلة حين نشر أوّل فصوله في مقال بصحيفة الهيرالد نيويورك، إذ كانوا أوّل من تناولهم بالنقد المرير بل وبالتهكم والسخرية، ووصفهم في الكتاب بالسّذج والجهلاء . ذكرت هذا لأدلّل على أسلوبه السّاخر حتّى في اختياره عناوين كتبه . برع توين أيضا في كتابة الصّور الأدبيّة من خلال مشاهداته في الدّول التي زارها. "حين كنت في سوريًا، عند منابع الأردن (كانت الشّام كلها بلدا واحدا يضم سوريا ولبنان وفلسطين والأردن)، أبدى جمل ونحن ننصب الخيام، اهتماما بمعطفي الملقى على الأرض، فتفحصه بعين مدقّقة، وظهرت لديه رغبة شديدة بامتلاك مثيل له، وبعد فشله في التوصل إلى معرفة أنّه نوع من الثّياب، بدأ يتأملّه باعتباره صنفا من الطعام. وضع قدمه فوقه ورفع كمّه بأسنانه، وبدأ يلوكه في فمه، ويبتلعه تدريجيًا، وقد أغمض عينيه في انجذاب صوفيّ، وكأنّه لم يذق في حياته معطفا من قبل " .

قال المسيح لتلاميذه : " أهذه هي الأبنية العظيمة ؟ لن يترك حجر على حجر لا ينقضّ. بل كلّ شيء سيقع ". ووقع كلّ شيء بالفعل من أوّل هيكل سليمان الذى أبيد بالفعل قبل المسيح بخمسمائة وستة وثمانين عاما: " كان الرّبانيون من اليهود يقولون إنه (ما اجتمع نفر من اليهود لدراسة التوراة، إلاّ نزلت عليهم الشّكيناه أي وجود الله وحضوره على الأرض). ويقوم اليهود بدراسة هذه الشريعة أي القوانين المتعلّقة بالمعبد وإعادة المعبد الخيالي في أخيلتهم .

ويقول (ديوكاسيوس) وهو مورّخ روماني. إنّه حين استولى الرّومان على خمسين قلعة، ودمّروا ٩٨٥ قرية، وقتلوا ٨٥٠٠٠٠ جنديّ يهودي، كان من لقوا حتفهم جوعا أو بالطّاعون أو بالحرائق لا يستطيع إحصاءهم أحد ". كما أن بيت اليهوديّ قد صار بعد تدمير أورشليم عام ٧٠ بديلا عن المعبد المفقود .

أسوق هذه العبارات هنا، وهي التي سجّلها المؤرخون الحقيقيّون. للرد على السيّد برنارد لويس الذى جعل من كتاب مارك توين "تكأة" يؤكّد بها أن المسجد الأقصى قد بني من جدار الهيكل، بالرّخام المبرقش، وكأنّ الرخام المبرقش لم يكن يوجد إلاّ في جدار الهيكل، والذى سوّيت به الأرض قبل بناء المسجد بألف عام على الأقّل، حتّى إن الصهاينة الآن قد عجزوا عجزا تامًا عن استخراج شقفة واحدة تؤكّد ذلك. ولكن من قال إنّ مارك توين كان مؤرّخا متخصصًا يعتمد عليه، وهو يعترف على نفسه بذلك في كتابه. ثم أليس هو الذى شكّك في هذا الكتاب في كلّ الآثار الدّينية المسيحيّة الموجودة في القدس، وفي مقدّمتها الصّلبان الثلاثة ثم الكهوف ومكان الصّلب بل قال إنّ القبر المقدس هو المكان الذى يستشعر هو بأصالته ؟ وسبق أن قلنا إنّ مارك توين كاتب ساخر، وإذا استشهد الصهاينة به في موضوع الهيكل المزعوم، فلم لم يستشهدوا به في حديثه عن اليهوديّ الذى حكم الله عليه بأن يهيم على وجهه في شتى بقاع الأرض وألاّ يطأ أرض فلسطين إلاّ كلّ خمسين عاما . إنّ كل الحوارات التي دارت على شبكة الإنترنت، أكدّت سواء من محبّي السّامية أو مناهضيها أن توين، ليس بمؤرّخ محلّ ثقة .

كما إنّ كل المساجد في تلك الفترة كانت تبنى بالرّخام المبرقش، فهل بنيت في كلّ بلاد الإسلام من جدار مزعوم ؟ وهل السيّد توين كان متخصّصا في فنون المعمار ؟ انظر إليه وقد سفّه الرّواد القدامى في فنون النّحت والتّصوير، كما أن الرّجل يعترف منذ البداية، بأنّه ليس ناقدا فنيّا، وليس له باع في مثل هذه الأمور، ولكنّه قام رغم ذلك بسلخ هؤلاء في قبورهم، نقدا لبعدهم الاجتماعي، وخضوعهم إلى كل ما كان يطلبه منهم أولي الأمر، أمراء كانوا، أو أصحاب سطوة ونفوذ، أو البعد النّفسي، الذّي جعلهم لا ينقلون الواقع كما هو. ونقول أيضا للصهاينة في هذا السيّاق، تأمّلوا كم ورد اسم فلسطين في كتاب توين ؟ وإن كلّ ما أحزنه إهمالها على يد الأتراك وقد كرههم، كرهه أصحاب إمبراطورية بدأت في زمانه تغرب عنها الشمس بل وسميت بالرجل المريض، فقام بخلط الإسلامي بالتاريخيّ بالسياسي، بالموروث والعادة بالتراث والفكر والعلوم وكل شيء حتى جعلها نموذجا للتخلّف والانحطاط .

يبقى الآن الرجوع إلى الفترة التي صدر فيها الكتاب، وكيف استقبله جمهور القرّاء، لكننا قبل ذلك، يجب أن نلّم بالمناخ الذى كتب فيه الكتاب. أقصد المناخ الاجتماعي

والسياسي. جاء صدور الكتاب، بعد الحرب الأهلية الأمريكيّة، وقد شهدت هذه الفترة تبدّلا شاملا في الفكر والمعتقد والمنحى، بخاصّة أن أوروبا كانت قد بدأت ثورتها الصّناعية قبل ذلك، وشهدت بدورها، أحداثا وروادا قادوا حركة التنوير، كما إنّ تلك الفترة أيضا قد بدأ فيها الانطلاق نحو الآفاق العلميّة الرّحبة بعد تراجع دور الكنيسة وتدخّلها غير المبرّر في كلّ شئون الحياة بلا موجب، إبّان موقفها من جاليليو، ما أفسح المجال لاكتشاف سبل كثيرة للاتصال، كان على رأسها التلغراف واللاسلكي، فضلا عن حدوث تطور علمي كبير في كلّ المجالات، سواء في العلوم أو الرياضيات أو الطب، وحتّى في مجال الأدب، إذ نرى أن ناتانييل هووثورن في روايته الحرف القرمزي - ترجمة مترجم هذا الكتاب - لم يجد مانعًا إلاّ في أضيق الحدود لتناول البيوريتان في روايته بالقدح، وانتقاده أوضاعهم الاجتماعية ومنحاهم الديني، رغم انتماء أجداده المذهبي إليهم، وكذلك نجد مارك توين وقد خالط عن طريق أهل زوجته كثيرا من العلماء والمخترعين والملحدين، وأصحاب الرأى والفكر، وكان جديدا على الأمريكان، أن يظهر بينهم أديب، ينتقد حياتهم الاجتماعية، بل والسيّاسية والنفسية بتهكم وسخرية، فبعد تجربة البيوريتان المتشددين دينيا والوافدين أصلاً من أوروبا إبان اضطهادهم هناك، واتخاذهم نيوإجلاند في أحراش أمريكا موطنا ومقاما، لم يكن يحلم أحد بظهور كاتب أمريكيّ ساخر، كان رفاقه الحجاج في الرحلة، هم أوّل الغاضبين لوصفه إياهم بالسذج، واتهامه إياهم بالإصرار على سلوك الطّريق الأصعب إلى أورشليم كما ورد بالكتاب المقدّس حرفيا وليس بروح النص. وكان أول رد فعل بعد صدور الكتاب أن ردّ أحد رجال الدّين الكتاب إلى موزّعه، قائلا : "إنّ رجلا يذرف دمعا على قبر آدم، لحري بأن يوصف بالحمق".

صدر مقال بتاريخ ٨ أكتوبر ١٨٧٠ يتضمن نقدا صريحا لكتاب مارك توين، فيتهمه بالإسفاف والمبالغة والكذب في جريدة "أدفيرتايزر"، ليرد عليه مارك توين في ملحق السبت.

يوضح بعض ما ورد بمقال النّاقد الآتي :

" يدعي الكاتب أنه ارتياده دكّانا للحلاقة في باريس، وكانت أوّل أدوات التّعذيب، موسيًا خلع جلد بشرته من جذورها، ما رفعه عن كرسيّه، ألا يبالغ الرّجل في قصة كهذه؟ وكيف له أن يتأبّط في إفسس حمارا، ثم يحمله؟ ويذكر أنه حين ضايقه المتسوّلون في

فلورنسا، ابتلع أحدهم بدافع الثأر لنفسه؟ ليس في هذا كله شيء من الواقع؟ ثم تأمّل هذا الذي يقدّم بالبنط العريض، برنامجا مسرحيًا، نشره الكوليسيوم، منذ ثمانية عشر قرنا، عثر كاتبنا عليه بين النفايات القديمة، فهل هو برنامج من فولاذ فيكتب له البقاء حتى الآن؟ ولو كان حتى من الفولاذ، أيقدّر له أن يبقى كلّ هذه القرون ؟ كما يزعم أن شابا غضًا بين ركّاب السفينة، كان يصبّر نفسه بين الوجبات بالصّابون والحبال القديمة فيقوم بالتهامها التهاما. أقول إنّه إن كانت هذه الأكاذيب ممّا يؤسف له، فسذاجة الكاتب وجهله يدفعان المرء إلى حرق الكتاب، وازدراء كاتبه" .

ويردّ توين ردًا موجزا في ملحق السّبت خلال الفترة نفسها، بقوله: "أجل لقد تعمّدت فيه الطّرافة، وهذا كلّه من عنديّاتي".

لا يزال هذا الكتاب منذ صدوره في العام ١٨٦٩ وحتّى الآن يثير لغطا كبيرا بين أصل تلك الثّقافات التي تناولها، وليس أدلّ على ذلك، من الحوار الذى يجري على قدم وساق بين أهلها على الإنترنت. لم يفزع الأوروبيون مما ورد عنهم به من نقد وسخرية، وبخاصّة الإيطاليون واليونان، والسبب ببساطة أنهم قد ساهموا مع غيرهم فيما وصلت إليه الحضارة الآن، أي إن لسان حالهم منذ نشر الكتاب وحتى الآن "قل ما تشاء فقد أدلينابدلونا"، لكنّ الطّامة الكبرى أنهما أصحاب تاريخ مجيد وحضارة قديمة ومارك توين يقلل من شأن التّاريخ، فتاريخ بلد الرجل لا يكاد يذكر بين تاريخ الأمم القديمة، وهنا مربط الفرس، ما جعل رجلا مثل فوكوياما ينفض يده من الأمر كلّه ويقول بـ "نهاية التاريخ" فهل للتاريخ نهاية حيث لا ينقطع عن تسجيل الأحداث الكبرى حتى بعد أن حققت أمريكا مأربها وصارت إمبراطورية. لكن العرب المسلمين، سيغضبون وتأخذهم العزّة بالعزّة، حين يصفهم الكتاب بالوثنية والكفر والجهل، وحاشاى أن أذكر البقيّة، ولو أنهم قرأوا سرفانتس في دون كيخوتا، تلك القصة الأكثر شيوعا، أو قرأوا بعض ما كتبه عنهم وعن دينهم مؤرّخو الحملات الصّليبية، وكتّابها لأقشعرت أبدانهم، فماذا إذن ؟

يقول د. أحمد زويل: "أتمنّى آن أرى بعيني منتجا عربيًا عالميًا واحدا يغزو الأسواق، وقس على قول زويل كلّ مناحي الحضارة والإسهام فيها، وهو أبلغ رد على القادحين. هذا هو رأى الرجل في العرب المسلمين والمسيحيين سواء بسواء، بعد أن أمدّه الأدلاّء

العرب والمسلمون بذخيرة من الأكاذيب والأضاليل والأباطيل، في الدّين والتاريخ والثقافة، لكسب ودّه فتحوّلت تلك في عينه والآخرين إلى حقائق، استفاد منها الصهاينة، واحتلوا أغلى ما لدى العرب والمسلمين من تراث، قبل احتلال أغلى وأقدس أراضيهم، بعد أن رأى بعينه الجهل والنفاق والجذام والتسوّل، وسجله بقلمه. تماما كالذى رآه في أوروبا وتناوله بالنقد والسخرية.

عبد الباقي بركات

المراجع التي اعتمدها المترجم في كتابة المقدمة

* Mark Twain (Frank Baldanza).
* Mark Twain (Minni M. Brashear and Robert Rodney The Mark Twain Papers and Project of the Bancrof Library, University of California Berkeley .
* Elmira College Center For Mark Twian Studies.
* R. Kent Rasmussen , ed . The Quotable Mark. Twain .
* Mark Twain Henry Nash Smith Editor.
* Essays by Mark Twain at Quotidiana.

* كتاب القدس، كارين أرمسترونج، ترجمة د. محمذد عناني، د. فاطمة نصر .

* السّامية ومناهضوها، برنارد لويس .

* Reviews of new books. A book of travels.
* By Mark Twain .London : Hotten , publisher.1870

HYPERLINK "http://etext.virginia.edu/railton/innocent/galaxy.html" http://etext.virginia.edu/railton/innocent/galaxy.html

مقدّمة لمؤلّف الكتاب مارك توين

يسجّـل هـذا الكتاب أحداث رحلة ترفيهية طـويلة. فإذا كان يسجل لوقائع بعثة علميّة جليلة، لأحيط بالجديّة والعمق والغموض الباعث على الإثارة، بما يتلاءم كثيرا وأعمال من هذا النوع، فضلا عن قدر كبير من الجـاذبية . لكن رغـم أن الكتاب يتناول رحـلة ترفيـهـيّة؛ فإنه يسعي إلى هدف بعينه، حيث يرشد القارئ، إلى ما يرجح مشاهدته من مواقع مهمّة في أوروبًا والشّرق، شريطة أن يشاهدها بعينه هو، وليس بعيون من سافروا قبله إلى تلك الأقطار . أسوق هنا ذريعة متواضعة، مبينا لأيّ شخص ما يجدر مشاهدته من مواقع مهمّة، فيما وراء المحيط، وذلك ما تفعله كتب أخرى، فإن كنت أهلا لأداء هذا العمل، فهذا يكفي.

إنّني لن أقدم دفاعا عن أي من الرحلات من هذا الطّراز الأدبيّ المعروف بتسجيل الترحال كتابة، ما قد يجلب عليّ المتاعب، لأنّني أعتقد أنني أرى الأشياء بعين محايدة، وإنني على يقين من التزامي جانب الصّدق على الأقلّ، سواء وعيت ذلك من عدمه.

استخدمت في كتابي هذا أجزاءً من رسائل، كتبتها لصحيفة الديلي ألترا كاليفورنيا التي تصدر في سان فرانسيسكو، وقد تنازل ملاّك تلك الصّحيفة عن حقوقهم وأجازوا لي نشرها بما يلزم. ضمّنته أيضا أجزاءً من رسائل كتبتها إلى صحيفتي نيويورك تريبيون، ونيويورك هيرالد .

سان فرانسيسكو ـ ١٨٦٩

الكاتب

الفصل الأوّل

دار حديث بين الأمريكيين لشهور، بشأن ما أعلن في كلّ الصّحف الأمريكيّة عن رحلة سياحيّة كبيرة إلى أوروبا والأرض المقدّسة. كان الأمر يحمل على الجدّة. قياسا بما أعلن من قبل عن رَحلات سياحيّة فريدة، فشدّت هذه قدرا من الاهتمام تتميز به الطرف الجديدة. وضع في الحسبان أن تكون هذه الرحلة ترفيهيّة بكلّ المقاييس. فبدلا من شحن المتنزهين، فوق معديّة بخاريّة كئيبة، بصحبة شباب وشابات حسناوات، جاءوا بما طاب من كعك وفطائر محلاّة، والإبحار على مياه جدول متوار منعزل، و حلولهم بمرجة معشبة، تجشّم الركاب عناء يوم طويل من أيّام الصّيف، وفرحتهم بما خطر في أذهانهم من انطباع، بأن هذا نموذجا للمتعة، وبدلا من ذلك كلّه، روعي في هذه الرّحلة أن يبحر المسافرون على سفينة بخاريّة ضخمة، ترفرف فوقها الأعلام، وبها مدفع يدوّي بالطّلقات، ويستمتعون بعطلة سنويّة فريدة، فيما وراء المحيط اللّجيّ، وفي أجواء مغايرة، وفي كثير من الأوطان المعروفة في التّاريخ! سيتسنّي لهؤلاء السفر لشهور عدّة في المحيط الأطلنطيّ المنسّم. وفي البحر الأبيض الذى لا تنقطع عنه الشّمس، وسيتاح لهم التّجوّل على ظهر السّفينة طوال النّهار، حيث يطلقون الضّحكات ويصخبون، ويقرأون الروايات، ويقرضون الأشعار في مختلاهم المزوّد بمداخن لصرف العوادم، أو يشاهدون قندين البحر، وأسماك التونة من أي ركن في السّفينة، ويورن بأعينهم سمك القرش والحوت، وحيوانات الأعماق المفترسة والحيوانات النّادرة الأخرى، وفي المساء يمكنهم الرّقص والغناء في الهواء الطّلق، على مكان مرتفع على ظهر السّفينة، فوق حلبة رقص ممتدّة من جهة لأخرى، تسترها القبّة السّماويّة، وتضاء بنور القمر والنّجوم، لا أضواء المصابيح الذّابلة، ويمارسون الرقص ويتنزّهون، ويدخّنون التّبغ، ويغنّون، ويتغزلون بعبارات الحبّ، ويتأملون في صفحة السّماء بحثا في الكواكب السيّارة دونما حاجة إلى مسبار ضخم طال ما برموا به. كما يتسنّى لهم مشاهدة سفن الأساطيل العشرين وعادات وأزياء شعوب أخرى، تأهل مدن نصف الكرة الأرضيّة،

ويمكنهم إقامة العلاقات، ومحاورة الملوك والأمراء وكبار الشّخصيّات والأساقفة المعمَدين في الأمبراطوريّات الكبرى .

كانت فكرة جريئة، تفتّقت عن ذهن عبقريّ .أما وقد نجح الإعلان عنها، فذلك لإنّها لا تفتقر إلى : الأصالة الواضحة، والتفوّق، وأسلوب الجذب، وضخامة المشروع الذّي حفّز على الإعلان عنه في كلّ الأرجاء. ثمّ وصوله إلى كلّ بيت في الوطن، فمن ذا يستطيع قراءة برنامج رحلة كهذه ثمّ لا يصبو إلى المشاركة فيها ؟ سأدرج برنامج الرّحلة النّحو التّالي، بعد أن صار أشبه بخريطة تفصيليّة من حيث دقته. لا قبل لعنوان آخر أن يفضل هذا العنوان :

رحلة سياحيّة إلى الأرض المقدّسة، والكرايميّة، واليونان والمناطق المتوسّطيّة المهمّة بروكلين، الأوّل من فبراير عام ١٨٦٧ .

سيقوم الموّقع أدناه بتنظيم الرّحلة الموضّحة بعاليه، خلال الفترة القادمة، ويتعهد بتنفيذ برنامج الرّحلة كما يلي :

توجد هنا و تحت تصرّفه، باخرة من الطراز الأوّل، تتسع لعدد مائة وخمسين راكب قمرة على الأقلّ، ممّن يقع عليهم الاختيار. سيختار من بينهم جماعة، لا تزيد عددا على سعة ثلاثة أرباع السّفينة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّ هذه الجماعة المختارة يسهل انتقاؤها من المناطق المجاورة، من أصدقاء مقرّبين أو معارف .

ستّجهّز السفينة بما يلزم من وسائل للترويح، وتشمل مكتبة وآلات موسيقيّة ويرافق السّفينة طبيب بارع.

تسلك السّفينة لدى خروجها من ميناء نيويورك في الأوّل من يونيو، طريقا وسطا خال من العواصف، عبر الأطلنطي، مارّا بمجموعة الآزور، وتبلغ سان ميشيل في عشرة أيّام، والإقامة فيها ليوم أو اثنين، للاستمتاع بما فيها من أشجار الفاكهة والمناظر الطّبيعيّة، ثمّ الوصول إلى جبل طارق. خلال ثلاثة أو أربعة أيّام.

نقضي هناك يوما أو اثنين، في مشاهدة الحصون السّريّة الرّائعة، ويتاح بكل أريحيّة زيارة صالات المعارض الفنيّة، نصل بعدها من جبل طارق إلى مارسيليا في ثلاثة أيّام، مرورا بإسبانيا وفرنسا. تتوفّر هناك فسحة من الوقت ليس فقط لمشاهدة معالم المدينة التي أسّست قبل ميلاد المسيح بستّمائة عام بل أيضا لزيارة باريس في أثناء المعرض الكبير المقام هناك، ومدينة ليون الواقعة وسط المرتفعات الجبليّة، والتي يمكن منها في نهار مشرق، مشاهدة جبل بلانك وجبال الألب بكلّ وضوح . أمّا من تتوفّر لديهم رغبة في مدّ فترة الإقامة في باريس، سيتاح لهم ذلك ويمكنهم مرورا بسويسرا اللّحاق بالسّفينة في جنوا .

تستغرق المسافة من مارسيليا إلى جنوا سفر ليلة . سيتاح للمسافرين خلالها مشاهدة مدينة القصور العظيمة، وزيارة المكان الّذي شهد ميلاد كولومبس، على بعد اثني عشر ميلا وقطع طريق بديع، أقامه نابليون الأوّل. من هذا المكان يمكن القيام برحلات سياحيّة إلى ميلانو، وبحيرة كومو، ماجيوري، أو إلى ميلانو، وفيرونا الشّهيرة بحصونها الضّخمة، وبادوا، والبندقيّة. ولو رغب المسافرون زيارة بارما الشّهيرة بلوحات الكوريجيو الجصّية وبولونيا، فيمكنهم الذّهاب إلى فلورنسا بالقطار، واللّحاق بالسّفينة في ليجهورن، وبهذا يتم قضاء ثلاثة أسابيع بين أشهر مدن الفنّ الإيطاليّة .

تستغرق الرّحلة من جنوا إلى ليجهورن ليلة واحدة، وتخصّص هذه الفترة لزيارة فلورنسا بما تحوي من قصور ومتاحف، وزيارة بيزا وكاتدرائيّتها والبرج المائل، ولوكّا وحماماتها، والمسرح الرّوماني المدرّج، وفلورنسا وهي الأبعد مسافة، كون القطار يقطع إليها مسافة ستّة وثلاثين ميلا .

يقطع القطار المسافة من ليجهورن إلى نابولي في زمن قدره ستّة وثلاثين ساعة (ويلبّي في سيفيتا فيتشيا طلب من يرغب منهم في الذّهاب إلى روما) ويقطع الطّريق بمحاذاة السّاحل، قرب كابريرا، وإلبا، وكورسيكا .تجري ترتيبات لاستخدام ربان على ظهر إحدى السفن من ليجهورن إلى كابريرا، ستوجّه دعوة لزيارة بيت غاريبالدي لو سمح الوقت.

. . يمكن بالقطار زيارة روما، والهيركولانيوم، وبومبي، وقبر فيرجيل، وتحتمل زيارة آثار بايستام، فضلا عن زيارة الأماكن المتاخمة لنابولي السّاحرة .

يعقب ذلك في الأهميّة باليرمو، أجمل مدن صقليّة، والتي نصلها خلال ليلة واحدة من نابولي. سنقضي يوما كاملا هناك ثمّ نغادرها بالمساء، ونتوجّه بعد ذلك إلى أثينا .

نبحر بطول ساحل صقلية الشماليّ، مرورا بمجموعة جزر أيالون، المواجهة لإسترومبولي وفولكانيا، وكلاهما من البراكين النّشطة، وعبر مضايق ميسينا، وعلى جانب منها تقع سيكلاً، وتقع شاريبدس على الجانب الآخر، بطول السّاحل الشّرقي لصقليّة، وأمام جبل أثينا، بامتداد جنوب السّاحل الإيطاليّ، وغرب وجنوب السّاحل اليونانيّ، أمام كريت العريقة، وصولا إلى خليج أثينا، ودخول ميناء بيريه، سنصل إلى أثينا خلال يومين ونصف أو ثلاثة أيّام بعد البقاء هناك لفترة قصيرة سنعبر خليج سلاميس، ونقضي يوما في كورنثا، ونواصل رحلتنا من هناك إلى القسطنطينيّة، بالطّريق المارّ بالأرخبيل اليونانيّ، وبالدّردنيل، وبحر مرمرة، ومدخل القرن الذهبيّ، وصولا إليه من أثينا في ثمانية وأربعين ساعة .

بعد مغادرة القسطنطينيّة، سنسلك الطّريق المارّ بالبسفور الجميل، عبر البحر الأسود حتّى إسطنبول، وبالاكلافا، في رحلة تستغرق نحو الأربع وعشرين ساعة. ننتوي البقاء هناك ليومين، نزور خلالهما المرافئ والحصون وساحة معركة الكرايميّة، ثمّ العودة من هناك مرورا بالبسفور. ثمّ الوصول إلى القسطنطينيّة لإصطحاب من فضّلوا البقاء هناك، ثم التوجّه عبر بحر مرمرة والدّردنيل، بمحاذاة سواحل طروادة القديمة وليديا في آسيا، إلى سميرنا التّي سنصلها خلال يومين أو يومين ونصف اليوم، من القسطنطينيّة . سنمكث فيها لفترة تسمح بفرصة زيارة إفسوس التي تبعد خمسين ميلا نقطعها بالقطار .

نسلك من سميرنا إلى الأرض المقدّسة، الطّريق المارّ بالأرخبيل اليونانيّ، المتاخم لجزيرة باتموس، بطول السّاحل الآسيوي، وبامفيليا القديمة، وجزيرة قبرص. نصل بيروت في ثلاثة أيّام، ويمنح وقت في بيروت لزيارة دمشق، تتجه السّفينة بعد ذلك إلى يوبا، ومن يوبّا وأورشليم، ونهر الأردنّ، إلى بحيرة طبريّة، والنّاصرة، وبيت هاني، وبيت لحم، وباقي الأماكن الأخرى الهامّة، في الأرض المقدّسة والتي نتمكن من زيارتها، ومن يفضّل القيام من هناك بجولة عبر المدينة ثم العبور منها إلى دمشق، والجليل، وكفر ناحوم، والسّامرة، بطول ساحل الأردنّ، وبحيرة طبريّة، ويمكنه بعد ذلك اللّحاق بالسّفينة.

يعقب مغادرة يوبًا زيارة الإسكندريّة التّي سنصلها خلال أربع وعشرين ساعة من هناك. من بين المواقع المقرّر زيارتها في الإسكندريّة الأثر الباقي من قصر القيصر، وعمود بومبي (السّواري)، ومسلّة كليوباترا، والمقابر الأثريّة القديمة، وآثار الإسكندريّة القديمة. تستغرق المسافة التي تقطع بالقطار من الإسكندريّة إلى القاهرة بضع ساعات، وتبلغ مائة وثلاثين ميلا، وفيها يمكن زيارة موقع ممفيس القديمة، ومخازن الغلال التّي أقامها يوسف، والأهرامات .

في طريق العودة إلى الوطن، سنقوم بزيارة قصيرة لمالطا، وكاجلياري في سردينيا، وبارما في (مايوركا)، وكلّ الموانئ المهمّة، بما فيها من مناظر طبيعيّة خلاّبة، وما تعجّ به من أشجار الفاكهة .

نقضي في تلك الأماكن يوما أو اثنين، ثم نغادر بارما في المساء، ونصل إلى فالنسيا بإسبانيا، صباح اليوم التّالي. نقضي فيها بضعة أيّام، فهي أجمل المدن الإسبانيّة .

نواصل من فالنسيا، طريق العودة، فنعرّج بطول السّاحل الإسبانيّ، وعلى بعد ميل أو اثنين على كلّ من إليكانت، وكارتينيا، وفالوس وملقا، ونصل إلى جبل طارق، خلال أربع وعشرين ساعة .

نقيم يوما واحدا هناك، ونواصل الرّحلة إلى الماديرا، التي نصلها في ثلاثة أيّام.

يضيف القبّطان ماريات المعلومة التّالية :

"لا أعرف موقعا آخر في العالم يحظي بكثير من الإعجاب والبهجة، عند زيارته المرة الأولى كالماديرا ". سنبقي هناك ليوم أو اثنين، يمكن لو سمح الوقت، المرور بالجزر هناك، وربّما نمرّ بهضبة سيزيف، ثمّ نسلك الطّريق الجنوبي، والأطلنطي. عبر طرق التّجارة الممتدّة نحو شرق الشّمال، حيث يتوقّع اعتدال الطّقس وصفائه، و هدوءَ البحر.

نقوم بزيارة قصيرة لبرمودا، التّي نعرج إليها مباشرة في طريق العودة، ونصلها بعد عشرة أيّام، من مغادرتنا الماديرا، ونقوم بالجزء الأخير من رحلة العودة في ثلاثة أيّام، بعد قضاء مدّة قصيرة مع أصدقائنا البرموديين .

تعتبر السّفينة دوما دارا لنا يأوي إليها المسافرون، فإن تعرّضوا لمرض، وجدوا أنفسهم محاطين بالأصدقاء الأوفياء، فيلقوا منهم الرّعاية والعطف.ولو تصادف انتشار أيّ وباء معد في أيّ من الموانئ السّابق ذكرها، سيستبدل بآخر لا يقلّ عنه أهميّة .

تحدّد سعر التّذكرة للراكب بألف ومائتين وخمسين دولارا نقدا للبالغين. وقد وضع نظام لاختيار الغرف ومقاعد الجلوس على الطّاولات، طبقا لأولويّة الحجز على الرّحلة، ولا يتمّ الحجز إلاّ بسداد مقدّم لا يقلّ عن عشرة في المائة من قيمة التّذكرة، تسدّد نقدا للخزينة،

يمكن للرّكاب البقاء على ظهر السّفينة في الموانئ إن أرادوا، دون تحمّل نفقات إضافيّة، كما إنّ ركوب الزّوارق يكون على نفقة السّفينة .

يجب سداد باقي القيمة الكليّة لتذكرة الرّكوب، لدى الإعلان عن الانتهاء من ترتيبات بدء الرّحلة في الموعد المحدّد لها .

يجب أن تتمّ الموافقة على طلبات الحجز، من قبل اللّجنة قبل إصدار التّذاكر، ويجري ذلك كما هو موضّح في نهاية الإعلان .

يسمح بحمل الأشياء المهمّة والنفيسة الخاصّة بالركاب على ظهر السفينة مجّانا ودون دفع رسوم .

تحصّل قيمة خمسة دولارات عن كلّ يوم رسمًا حال سفرهم بالبرّ، إلى مختلف الأماكن التي يرغب الرّاكب مغادرة السّفينة إليها، لعدّة أيّام في المرّة الواحدة .

يمكن مدّ زمن الرحلة، واستبدال الطّرق المذكورة آنفا حسب اختيار غالبية الرّكاب.

شاس .سي .دونكـــان

١١٧ وول ستريت . نيويورك

آر. آر . جي ****** المدير المالي

لجنة تلقّي الطّلـــبات.

جي . تي . هـ . برتبة .****** آر .آر .جي . برتبة . ****** سي سي دونكان

لجنة الاختيـــــار.

الكابتن . دبليو .دبليو .إسّ ****** المشرف على قائمة وكلاء الضّمان.

سي. دبليو .سي . ****** المهندس الاستشاري التّابع الممثّل للولايات المتّحدة وكندا .

جي. تي . إتش برتبة ******

سي. سي. دونكان .

تنبيه: تمّ خصّيصا لهذه الرّحلة استئجار السفينة الرائعة والتّي تدار بالآلات البخارية واسمها "الكويكر سيتي"، ومغادرة ميناء نيويورك في الثّامن من يونيو. وقد حرّرت رسائل من قبل الحكومة توصي المجموعة المسافرة التزام جادة الكياسة خارج البلاد.

ماذا ينقص برنامجا كهذا يتوفر فيه عنصر جذب على هذا النّحو ؟ لا ينقصه بالطّبع، ما يجعل عاقلا يقدم على كشف هذا النّقص. باريس، إنجلترا، سويسرا، إيطاليا، غاريبالدي! الأرخبيل اليوناني! فيزوف! سميرنا ! الأرض المقدّسة ! مصر وأصدقاؤنا البرموديّون! الحرص على انضمام الرّاغبين من أوروبا إلى هذه الرّحلة، وتجنّب الإصابة بالأوبئة، وركوب الزّوارق مجّانا، وطبيب مرافق للسّفينة، والدوران حول الكرة الأرضيّة لو اجتمعت لدي الحجّاج رغبة في ذلك. ستتوخّي الشّركة الحزم في اختيارالركاب، من قبل لجنة محايدة هي "لجنة تلقّي الطّلبات ". توخّت الشّركة الدقّة في اختيار السفينة من قبل لجنة صارمة هي "لجنة اختيار السّفينة". لا قبل لطبيعة البشر بصدّ تلك المغريات المدهشة. هرعت إلى مكتب المدير المالي، وأودعت القيمة المحدّدة، وهي نسبة العشرة بالمائة. وسرّني وجود عشرة مقاعد شاغرة . كنت أ تحاشى الوقوع تحت أيّ اختبار شخصي

جادّ، حول مقومات شخصيّتي، من قبل لجنة لا تعرف المهادنة كتلك، لكنّني اتصلت بمن خطر لي من أصحاب الحلّ والعقد، ممن يرجّح على الأقلّ معرفة أيّ شيء عنّي.

صدر بعد ذلك بوقت قصيرة برنامج إضافيّ، جاء به الحرص على اصطحاب جماعة بلايموث للتراتيل الدّينيّة، على السّفينة، فسدّدت على الفور بقيّة قيمة التّذكرة .

قدّم لي إيصالا بالسّداد، وبذا تمّت الموافقة عليّ انضمامي رسميًا وصرت حسب الأصول المتّبعة أحد المشاركين في الرّحلة . طغي شعوري بالسّعادة على كل شيء، مع بعض فتور كوني خضعت للاختيار، ذلك إذا قورن هذا الفتور بحدث عظيم كهذا.

أفاد البرنامج الإضافيّ أيضا، بأنّ الرّكّاب سيزوّدوا بآلات موسيقيّة خفيفة، بغرض التسلية فى أثناء وجودهم بالسّفينة، وسروج للخيل للتنقّل داخل سوريّا، وعوينات سميكة خضراء، ومظلّات، وسواتر واقية في مصر، وألبسة ضروريّة لاستخدامها في رحلة الحجّ الشّاقّة داخل الأرض المقدّسة. ورغم أنّ مكتبة السّفينة تضمّ عددا وافرا من الكتب لمـن يـرغب في القراءة، يصبح من الأفضل لو تزوّد كلّ راكب ببعض كتب الرّحلات الإرشاديّة، وبإنجيل، وبعض الأعمال الأدبيّة الخاصّة بالرّحلات. أدرج في قائمة ملحقة، ما تتضمنّه المكتبة خاصّة، من كتب عن الأرض المقدّسة، بخاصّة أنّها الجزءَ الأهم في الرّحلة، وأنّها هدف الرحلة الرئيس .

تقرّر أن يكون القسّ الموقّر هنري وارد فيشر، مرافقا للرّحلة، لكنّ إلتزامات طارئة، جعلته يعدل عن الفكرة . نبين أنّ الأفضل كان استثناء ركّاب آخرين، عن طيب خاطر . كان من المقرّر أنّ يكون الفريق شيرمان ضمن أفراد الطّاقم، لكنّ الحرب الهنديّة أجبرته على البقاء فوق السّهول . أدرج اسم ممثلة شهيرة ضمن قوائم الحجز، لكنّ طارئا ما منعها من القدوم . لم يعد لدينا للأسف أحد من المشاهير، بعد تراجع "بوتوماك"، عازف الطبلة.

لدينا مع ذلك مجموعة من المدافع الخاصّة بوحدات الأسطول، وفقا لما ورد بالإعلان، لاستخدامها في رّدّ التحيّات الملكيّة الصّادرة إلينا، وهناك وثيقة معتمدة من وزير البحريّة، كانت قد أعدّت للترحيب بالجنرال شيرمان وضيوفه في فنادق ومخيّمات العالم القديم، ولا تزال في حوزتنا، وأظن أنّ ذلك قد حدث رغم أنّ الوثيقة والمدافع، كانا في ذاتهما يفتقران إلى الفعاليّة. يطرح ذلك كلّه سؤالا هو: أليس لدينا برنامجا يغري، بباريسه، وإسطنبوله، وسميرناه، وأورشليمه، ويرشوه (بلدة بفلسطين)، وأصدقاء برموديين؟ فمـاذا ينقص بعد ذلك ؟

الفصل الثّاني

قمت طوال الشّهر التّالي، وقت كانت تسمح الظّروف، بزيارة قصيرة، للمبني رقم ١١٧ وول ستريت، لأستفسر عمّا جدّ بالسّفينة من إضافات، وإعادة تجهيزها، وعمن أضيف إليها من الرّكاب، وعدد من قرّرت اللّجنة عدم إدراجهم ضمن قائمة الرّكّاب بمرور الأيام، وعما اعتراهم من أسى عقب ذلك. سررت أنهم بسبيل توفير آلة طبع صغيرة في السّفينة، لنحرّر بأنفسنا صحيفة يوميّة، وبما توفر لنا في الرحلة من آلات موسيقية كآلة البيانو، وأرغنّ للقاعة، وميلوديون (آلة نفخ صغيرة)، وكلّها بحالة جيدّة. شعرت بزهو لدى علمي بأنّ ثلاثة من مرافقينا، من كبار قساوسة البروتسانت، فضلا عن ثمانية من الأطبّاء، وستّ أو ثماني سيّدات، وبعضا من كبار قادة الجيش والبحريّة من ذوي الرّتب الكبيرة، وزمرة من الأساتذة من كلّ التخصّصات، وأحد السّادة الممثّلين لحكومة الولايات المتّحدة إلى أوروبا، وآسيا وأفريقيا، يدّوي اسمه كالرّعد وسط عاصفة هوجاء. كنت حريصا على تقبّل المستوى الأدنى في تلك السّفينة، بسبب بنود الاختيار العجيبة التي تنفرد بأن يكون المرور من سمّ خياط تلك اللّجنة مرهونا بموافقتها على انضمامي. ووطّنت نفسي على توقّع ظهور قادة البحريّة والجيش بمظهر مهيب، وأنّه حريّ بي لهذا السّبب، الرّكون إلى تلك المنزلة، لكنّني أعلن صراحة أنّني لست مستعدًا للوقوع تحت هذه المفرمة.

وقعت تحت تلك الكتلة الصخرية كشيء بال لا وزن له. وقلت إنّه إذا كان لا بدّ من سفر ذلك الحاكم بأمره على سفينتنا، وواعجباه لاعتقادي بضرورة ذلك ـ في الوقت الذى ارتأت الولايات المتحدة ضرورة إرسال شخصّية ضخمة بهذا الحجم عبر المحيط، فقد كان من الأنسب والأوفر لها، تقطيعه إربا وتوزيع أشلائه فوق عربات اليد على سفن عدّة .

آه، لو علمت في حينه، بأنّه مجرّد مخلوق كسائر المخلوقات، وأنّ مهمّته لم تكن تزيد شأنا على جمع البذور، والبطاطا النّادرة حلوة الطّعم والكرنب الناضج، والضّفادع

الأمريكيّة المميّزة، جمع ذلك كله لأحفور بائس، عقيم، سّاذج، متعفّن، بائد، زعيم لطائفة الحدّادين، لو علمت ذلك في حينه لانشرح صدري كثيرا .

نعمت لشهر تاريخيّ حافلا بالسعادة، حين وجدت نفسي لمرّة واحدة في حياتي طرفا في نشاط شعبيّ كبير. كان كلّ فرد ذاهبا إلى أوروبّا وأنا بدوري ذاهب إلى أوروبّا. والكل ذاهبون لمشاهدة معرض باريس الشّهير، وأنا بدوري مسافر لمشاهدة معرض باريس الشّهير. كانت الخطوط الملاحيّة تحمل الأمريكيّين من مختلف موانئ البلد بمعدّل أربعة أو خمسة آلاف في الأسبوع الواحد، على الإجمال. ولو التقيت بعشرة أفراد خلال ذلك الأسبوع، ممّن لن يسافروا قريبا إلى أوروبّا، فإنني الآن أجد أنه يصعب عليّ الآن تذكّرهم جيّدا. تجوّلت كثيرا في أنحاء المدينة مع شابّ يدعى بلاشر، حجز له مكانا على رحلة السفينة. كان شخصا طيّب القلب ودودا، قليل الخبرة بالحياة، ولكنّه كان ممّن يضعون مياه النّهر على النّار. كان يحمل رأيا أكثر تطرفا في هذا الخروج الجماعيّ إلى أوروبا، لدرجة اعتباره أنّ البلد بقدّه وقديده بسبيله إلى الهجرة إلى فرنسا. عرجنا يوما على حانوت في برودواي، حيث اشترى منديلا، ولم يكن لدى البائع من نقد لردّ بقية القيمة ، فاستردّ ما قدمه إليه، وقال السيّد ب . :

"لا عليك، سأعطيك المبلغ في باريس".

"لكنّني لست ذاهبا إلى باريس".

"كيف، ماذا تقصد ؟".

"قلت إنّني لا أزمع الذّهاب إلى باريس".

"لن تذهب إلى باريس! لن تذ .... لا بأس، ما وجهتك إذن ؟".

"لن أرحل إلى مكان البتّة".

"ألن تذهب إلى أيّ مكان، أيّا كان ؟ أيّ مكان على وجه البسيطة غير هذا المكان؟".

"لا مكان على الإطلاق سأذهب إليه غير هذا المكان ـ فأنا باق هنا طوال الصّيف".

أخذ رفيقي ما اشتراه، وخرج من الحانوت دون أن ينبس بكلمة. وسار في الطّريق وعلى وجهه ما يشي بجرح مشاعره . قطع صمته، بعد أن قطعنا شوطا من الطّريق. واحتدّ قائلا :

"أرى أنّ هذا محض هراء. هذا ما أراه !"

تهيّأت السّفينة بمرور الأيّام لاستقبال الرّكاب. عرّفني شابّ مهذّب بأنّه شريكي في الغرفة، وجدته شابّا ذكيّا يتمتّع بروح المرح، وحب الآخرين، تجتمع فيه سمات النّخوة والحلم ورقّة الحسّ، وما دماثة الخلق . ويصعب على راكب على سفينة "الكويكر سيتي" محاجة ما ذكرت من مناقب .

اخترنا الغرفة المواجهة للدفّة، في الجانب الأيمن أسفل السّفينة. ضمّت الغرفة سريرين، ومصباحا ذابلا ضوؤه، وحوضا للاغتسال، وسحّارة مبطّنة بوثار سميك، تستخدم أريكة للجلوس، وخزينة لحفظ الثياب. ورغم كلّ ما حوت من أثاث، تبقى فيها جزء شاغر حولنا لكنّه لا يكفي لحركة هرّة، أو يسمح لها حتّى بالحركة . ورغم ذلك كانت الغرفة فسيحة، باعتبارها قمرة في سفينة، وتقبّلناها على حالها. تحدّد إبحار السّفينة، أوّل سبت من يونيو .

وصلت إلى السّفينة بعد ظهيرة السّبت الموعود بقليل، وصعدت إلى ظهرها. عمّت الفوضى والجلبة كلّ شيء.(سبق أن رأيت مثل هذا من قبل في مكان ما) . عجّ رصيف الميناء بالبشر، وعربات الشّحن، وتوافد الرّكّاب، سراعا إلى ظهر السّفينة، وازدحمت الأماكن كلّها بالحاويات وحقائب السّفر، وأفواج المسافرين، وقد تزيّوا بألبسة السّفر الخشنة، وهم يموجون تحت وابل من المطر. وعلى وجوههم شارات الكآبة والكرب، شأن دجاج منهمك في طرح ريشه القديم . ارتفع العلم إلى أعلى لكنّه بدا هو الآخر بسبب صاري السّفينة، رهلا، فاتر الهمّة، خال من الجاذبيّة. كان المشهد برمّته ينحو إلى كثير من الكآبة والقنوط! تلك رحلة ترفيهيّة، وما من أحد يعترض على ذلك، كما أنّ البرنامج الموضوع لها يؤكّد ذلك، وأنّها سمّيت بالبنط العريض كذلك. لكنّها تفتقر إلى سمة واحدة تشير إلى كونها كذلك.

علا في النّهاية صوت دويّ يشير إلى بدء التحرّك. علا فوق الضّجيج والقعقعة والصّراخ وهسهسة البخار! حدثت هرولة مباغتة على جانب من السفينة، وهرولة على

رصيـف المـيـنـاء مــن قبل المــودّعــين، وفــورة مــن الالآت المحرّكة، ها قد بدأنا رحلتنا السّيا ....حــيّة ! تصاعد من الحشد المودع المتقاطر على رصيف الميناء، هتافان رقيقان، رددناهما بدورنا برقّة أكبر، وبذل العلم جهدا ليرفرف، لكنّه أخفق في المحاولة. ولم يصدر دويّ للمدافع، فقد كانت خالية من الذّخيرة .

أبحرنا إلى موضع انطلاق السّفينة، ووصلنا المرسي . استمرّ هطول المطر، ليس ذلك فحسب، بل كان الجوّ عاصفا. أدركنا الآن أنّنا أمام بحر مضطرب، وأنّ علينا الانتظار في الميناء الساكن حتّى تتوقّف العاصفة. جاء ركّاب السفينة من خمس عشرة ولاية. وقلة منهم سبق لهم ركوب البحر، وتبين أن ذلك لن يدفعهم إلى مواجهة عاصفة هوجاء، حيث صعوبة الحركة على ظهر السفينة وهي تمخر عباب البحر. رحل الزورقان المرافقان لنا بحلول المساء، وعليهما رفقة مرح وشراب من شباب نيويورك، بعد أن اصطحبونا في السفينة للوداع، على سبيل الواجب والعرف القديم، وصرنا بمفردنا فوق الأعماق. عمق يبلغ سبع قامات (القامة تعادل سبعة أقدام) وسرعان ما أوينا إلى سافلة السفينة. صعدنا من ثمّ إلى السطح تحت المطر الرهيب، وكانت هذه متعة بالقوّة الجبرية.

أحسسنا بالطّمأنينة، عند سماع رنين جرس الدّعوة إلى الصّلاة. كان من الضروري في أيّة رحلة ترفيهيّة أخرى، أن تخصص ليلة السّبت الأولى للرّقص ولعب الورق، لكنّي أشير في ذلك إلى عقليّة خلت من التعصّب، حين تدرك أن ما يناسبنا، المشاركة في وسائل اللهو المعروفة، مراعين قدر ما واجهناه من مشقّة، وقلق . إذ كنا سنجتمع معا لنتصاخب لأمسية واحدة، وليس لإقامة ما يشير إلى إحتفالية كبري .

لازمتني مع ذلك مشاعر الابتهاج بالبحر، وقضيت تلك اللّيلة في قمرتي، يميلني تلاطم موج البحر العاتي، ويهدهدني همس الموج المنكسر على الشّاطئ البعيد، وسرعان ما نفضت عنّي تجارب اليوم الرّهيبة، وهواجس المستقبل المؤلمة .

الفصل الثّالث

قضت السّفينة يوم الأحد بأكمله على المرساة، وهدأت العاصفة كثيرا من غلوائها، لكن البحر لم يهدأ. ظل يراكم تلاله المزبدة عاليا في الهواء، وذلك ما استطعنا رؤيته بوضوح بالنّظارات المكبّرة. لم يكن صّوابا بدء رحلة سياحيّة في يوم أحد، لأننا لم نقو على تعريض بطوننا غير الخبيرة ببحر لا يرحم كهذا. وكان علينا البقاء حيث كنا حتّى يوم الاثنين، وذلك ما حدث بالفعل. لكننا أدّينا تراتيل كنسيّة، وصلوات جماعيّة، ولم يكن حالنا هذا يختلف عما يمكن أن نكون عليه في أي مكان آخر .

بكّرت بالاستيقاظ صبيحة ذلك اليوم، كما بادرت بالتوجّه لتناول طعام الإفطار. شعرت برغبة تلقائية في إلقاء نظرة تأمّل كاملة محايدة إلى الركّاب، ونحن على مائدة الإفطار، بخاصّة أنّهم قد تخلّوا بالطبع عما يعتريهم من القلق النّفسيّ، وهي لحظة قليلا ما يحياها البشر. دهشت لرؤية كثيرين منهم من كبار السّن، وحري بي هنا الإشادة بهم كأشخاص أجلاّء. إنّ نظرة واحدة إلى خطوط الشّيب في رءوسهم، تدفع المرء إلى الظنّ بأنّ الشّيب قد طغى على المكان كلّه . لكنّ الأمر لم يكن بهذه الصّورة . إذ تواجد بينهم نثار من عدد لا بأس به من الشّباب، ونثار من السّيّدات ممّن لا تميّزهم سنّ محدّدة كونهم بالفعل ليسوا شبابا، أو كهولا بالمطلق.

رفعوا المرساة في اليوم التّالي، وبدأنا نمخر عباب البحر. شعرنا بسعادة غامرة بعد كل هذا التأجيل المملّ والبطيء. تصوّرت أنّه لم يسبق للجوّ أن كان بمثل هذا الصّفاء، والشّمس بهذا الإشراق، والبحر بهذا الجمال. اقتنعت في تلك اللّحظة بأنّ الرّحلة وما فيها، قد جعل من أجل الترفيه فحسب. زال كلّ ما كان عالقا في نفسي من أدران، وأظنّ أنّه وقد غابت أمريكا عن ناظريّ، فقد حل محلها الآن شعور بمحبّة. تسع هذا المحيط اللّجيّ، وقد علا موجه وتلاطم من حولنا. وددت حينها التّعبير عن مشاعري، وودت أن يعلو صوتي

بالغـناء، لكنّنـي لـم أكـن ألمّ بشيء من الغناء، لذلك طرحت الفكرة جانبا، مع أن ذلك قد لا يحدث أضرارا بالسفينة .

كان الجوّ صحوا مشرقا، لكن البحر ظلّ على عنفوانه . لا يستطيع المرء الآن التريّض على سطح السّفينة دون أن يجازف بحياته، اتخذ دقل السّفينة في لحظة، هدفا معاد له نحو الشّمس في كبد السّماء، وسعي في اللّحظة التّالية إلى اصطياد قرش من قاع المحيط. كم كان غريبا، أن يشعر المرء بأن مؤخّر السفينة يغوص من تحته بسرعة في الماء، ثم ترى مقدمها، وهو يزحف صعودا إلى أعلى وسط الغيوم! كان سبيل النّجاة الوحيد في ذلك اليوم، التشبثّ بأحد الحواجز والتعلّق به، فالسّير على سطح السّفينة كان ترفا محفوفا بالمخاطر .

أفلتُّ لحسن طالعي، من الإصابة بدوار البحر، ما أشعرني بالزّهو. لم أكن دوما أستطيع الإفلات منه من قبل. ولو أن هناك سببا واحدا، يدفع إنسانا إلى الشعور بغرور طاغ وغير مألوف، فذلك بترك الأمر لمعدته تتصرّف حسب هواها في أوّل يوم له بالبحر. في الوقت الذي يكون كل رفاقه قد أصيبوا بدوار البحر . تدثّر أحفور موقّر بشال حتّى ذقنه، ودثّر نفسه بأربطة كالتي تلفّ مومياء، وسرعان ما ظهر أمام الباب التّالي لمقر الإيواء على ظهر السّفينة، ثم ألقى به ميلان السّفينة رأسا بين ذراعيّ .

"صباح الخير، سيّدي، يا له من يوم صحو" .

وضع ذراعه على بطنه وقال : "وي، وي" ، ومضى في طريقه مترنّحا من ثمّ. وألقى بنفسه فوق كوّة تسمح بمرور الضّوء داخل السّفينة.

تلا ذلك في التوّ ظهور شيخ وقور من الباب نفسه، في حالة هلع شديد. قلت له: "مهلا سيّدي، لا داعي للعجلة، فهذا سيّدي يوم صحو" .

وضع بدوره يده على بطنه وقال : "وي، وي " ومضى متمايلا .

بعد وهلة دفع الباب نفسه بموقّر آخر، ناشبا مخالبه في الهواء طلبا للعون، وقلت له : "نهار سعيد سيّدي، إنّه ليوم صالح للتريّض. كنت بسبيلك إلى قول ـ" .

"وي، وي".

توقّعت هذا . توقّعته هذا في كلّ الأحوال. توقّفت هناك وأصابني وابل من الشيوخ الموقّرين، ربّما لساعة من الزّمن، وكان كل ما فزت به من الجميع، "وي، وي"!

مضيت بعدها إلى حال سبيلي، منشغل البال. قلت في نفسي، إنّني أحبّ هذه الرحلة، وهي حافلة بالمتعة، وركّابها ليسوا بالثراثرة، بل ما زالوا يحافظون على حسن المعاشرة والتوادّ. وإنّني أحبّ أيضا أولئك الشّيوخ، لكنّهم دأبوا كثير ا على ترديد هذه الـ"وي،وي".

إنّني أقدر ظروفهم، فهم يعانون دوار البحر. وأنا سعيد بذلك، فنحن جميعا نحب رؤية المصابين بدوار البحر في الوقت الذّي نكون نحن خلوا من الإصابة به. يعد لعب الورق، تحت أضواء الكبائن، وقت اضطراب الطّقس، على ظهر السّفينة، والتمشية فوق مؤخّر السّفينة وتحت ضوء القمر، وتدخين التّبغ على منصّة الصّاري الأمامي حين لا تكون هناك خشية من ارتقائها، يعد ترويحًا للنّفس، لكنّ تلك الوسائل قاصرة ومعتادة إذا ما قيست ببهجة مرأى أناس يعانون ويلات دوار البحر .

ألمت بأخبار كثيرة في فترة ما بعد الظهيرة . في إحدى المرّات وأنا في طريقي إلى مقدّم السّفينة، حيث مؤخّرها متجّها إلى عنان السّماء، أدخّن سيجارا، وأنفث دخانه بارتياح، إلاّ ورفع أحدهم عقيرته: "ويحك، لا يشير ما تفعله إلى شعور بالمسؤوليّة. اقرأ اللافتة الموضوعة هناك، لا تدخين للتّبغ، عند ماكينة الآلات".

تلك القبطان دونكان، رئيس البعثة. مضيت في طريقي طبعا، فوجدت منظارا طويلا يسمح باختلاس نظرة من خلاله، وضع على طاولة في غرفة مخصّصة لذلك على ظهر السّفينة، خلف غرفة مشغّل الدّفة، وقد وردت حينئذ معلومة، بأنّ سفينة تقف هناك على مسافة من سفينتنا :

"أجل، أجل، قف مكانك، لا تقترب، تخلّص منها".

تخلّصت من السّيجار، وسألت عامل النّظافة:

"من ذلك القرصان ذو السّبلات على رأسه، ذلك الزاعق هناك ؟ ".

"ذلك هو القبطان بريسلي، الضّابط المتنفّذ بالسّفينة ... أمير البحر".

سرت من ثمّ وئيدا، رغبة منّي في سلوك ما يفضل التّدخين، وشرعت في نقش الحاجز بمديتي . قال أحدهم وفي صوته ما يشي بكثير من اللّمز".

"قل لي يا صديقي ألا تعرف شيئا أفضل من نجر السّفينة كلّها وتفكيكها إلى قطع، بطريقتك هذه ؟ حريّ بك أن تبحث عمّا يفيد ".

عدت أدراجي إلى عامل النّظافة وسألته :

"ترى من ذلك النّقمة المتحرّكة، بادي الملق، المتأنق الواقف هناك ؟".

"إنّه الكابتن ل، ورتبته ****، وهو مالك السّفينة، و أحد القادة البارزين".

مررت في طريقي بغرفة قائد الدّفة على ميمنة السّفينة، وعثرت على آلة قياس أبعاد الأجرام السّماويّة، موضوعة على طاولة مخصّصة لها . قلت في نفسي آنئذ: "إنّهم يلتقطون عبر هذا الجهاز صورا للشّمس، ويجدر بي تصوير السّفينة التي تقف هناك به . قرّبته من عيني بعض الشّيء، حتّى لمس أحدهم كتفي قائلا باستياء :

"إنّي لقمين يا سّيد فلان بأن أطلب منك أن تدع هذا الشّيء لي ، ولو وددت الاطّلاع على كيفية تصوير الشّمس، سأجيبك على الفور بالرفض، لكنني لا أميل إلى الثقة في تعامل أحد وهذا الجهاز. ولو وددت إيضاحا لذلك فأنا رهن إشارتك السيد".

رحل عني استجابة لنداء وجّه إليه من الجهة الأخرى. قصدت عامل النّظافة وقلت له:
"من تلك الغوريللا ذات الأرجل العنكبوتية ولها سحنة منافق".

"ذلك يا سيّدي هو الكابتن جويز، وكيل الرّبان".

"حسنا. ذلك يخالف تماما ماسمعته من قبل. أتظنّ ... وأسألك كإنسان وأخ، هل تظنّ أنّه يمكنني إلقاء حجر، في أيّ اتّجاه بعينه دون أن أحدث إصابة بأحد ربابنة هذه السّفينة ؟".

"إنني أجهل الآن مثل هذا الأمر يا سيّدي، وأظنّ الأرجح، أن تمضي إلى هذه الجهة، وتوجّه ضربة لرئيس الورديّة، لأنّه يقف هناك دون عمل".

هبطت إلى أسفل منشغل البال، ومصابا بشيء من الأسي، تأمّلت لو أنّ خمسة من الطهاة بوسعهم إتلاف حساء، فما الذي يمكن ألاّ يفعله خمسة ربابنة برحلة سياحيّة.

الفصل الرّابع

بِرباطة جأش ولأسبوع أو أكثر كنّا ننزع كلّ الأماكن، دون أن نحدث تداخلا يذكر في سلطة الرّبابنة. سرعان ما تعلّم ركّاب السّفينة كيفية التكيّف مع ما استجدّ من أحوال، وصارت الحياة في السّفينة تقارب حياة الإيواء في الثّكنات، من حيث الترتيب والأنظمة المتبّعة. لا أعني أنّها بلغت حدّ رتابة النّظم الموضوعة ، حيث لم تكن كذلك على الإطلاق. ولكن كان هناك ما يشوب الحياة ذاتها من رتابة. بدأ الرّكاب بعد وقت قصير كما هو الحال دائما في السفر بالبحر، يستوعبون المصطلحات التي يتعامل البحّارة بها فيما بينهم، وغمرهم شعور وكأنّهم لم يغادروا الوطن بعد. يرمز بدقّ الجرس سبع رنّات إلى الساعة السّادسة والنّصف، و يعرف ذلك الحجّاج القادمون من نيوإنجلاند والجنوب والمسيسبي. وثمانية رنّات تعني السّاعة الثانية أو الرّابعة، وأن القبطان لن يدخل خطّ الطّول في التّاسعة، بل يقصد بذلك دخوله "بدقتي جرس"، كما عرفوا فيما بينهم مصطلحات مثل "الكابينة الخلفيّة" الكابينة الأماميّة، "الميناء وميمنة السّفينة"، و"أعلى مقدّمها".

رنّ الجرس سبع رنّات، ما يعني أنّ الإفطار في الثّامنة، ولن يحضره رغم ذلك أحد من المصابين بدوار البحر في ذلك الوقت. سار الرفاق بعد ذلك وكل يتأبّط ذراع الآخر، بأسفل وأعلى المكان المخصّص للتنزّه على ظهر السّفينة، مستمتعين بنهار من أيّام الصّيف المشرقة، وسار المصابون بدوار البحر وئيدا، واتّخذوا لهم صناديق الالآت ملاذا. وتناولوا شايهم الدّاكن وشطائر الخبز، وبدوا في حالة متردّيَة. تعددت مظاهر التّسلية والخدمات منذ الحادية عشرة حتّى ميعاد الغداء، ومنه إلى موعد الوجبة الأساسية في السّادسة مساء. استنفذ بعض هذا الوقت في القراءة، وكثير منه في تدخين التّبغ والحياكة، رغم أن ذلك لم تمارسه كل المجموعات الأخرى. فهناك من كان يتابع ويفتن بالأسماك المفترسة في الأعماق، أو ينعم النّظر إلى السفن الأخرى من خلال عدسات مكبّرة بعد أن نوّه إلى ذلك. زاد على ذلك

أن الجميع قد لفت انتباههم أنّ الرّاية قد علت وتمايلت ثلاث مرات بوقار، ردًا على تحيّة وجهت لنا من أولئك الغرباء على السّفن الأخرى، ولم ينقطع بعض السّادة الأجلاّء عن لعب البوكر والدّاما والدّومينو في غرفة التّدخين، لا سيّما الدّومينو لأنّها لعبة ترويح عن النّفس ولا تحوطها الشّبهات، وقد مارست لعبة بلياردو الخيّالة قدّام (وهو اصطلاح بحريّ) قنان الدّجاج، وحظائر الماشية بأسفل السّفينة .

تعرف بلياردو الخيالة بأنّها لعبة مسليّة . تحمل ممارستها على النّشاط والمهارة، كما إنّها تدفع إلى التّسلية، والتدبّر، حيث تمزج بين لعبة الحجلة، واللّعب بعصاة خشبيّة على لوحة مسطّحة، (يلقى بأقراص خشبيّة أو قطع معدنيّة فوق اللّوحة، نحو نقاط محدّدة فيها). تخطط بالطّبشور لوحة مسطحة كالتي تمارس فوقها لعبة الحجلة إلى مربعات، ويرقّم كلّ مربّع فيها. تقف على بعد ثلاث أو أربع خطوات، وأمامك أقراص خشبيّة على الأرض، تدفع بهذه الأقراص بضربة إرسال قويّة إلى الأمام . فإن توقّف القرص على خطّ الطّبشور، لا تحتسب نقاط لك، وإن توقّف في المرّبع السّابع يحتسب سبع نقاط لك، ويحسب خمس نقاط إن توقّف القرص فوق المرّبع الخامس، ودواليك. يحسب مجمّع نقاط اللعبة بالمائة نقطة، ويمكن لأربعة أفراد أن يمارسونها في وقت واحد. قد توصف اللّعبة بالبسّاطة الشّديدة، فهي تؤدّي على أرضيّة ثابتة، لكنّها كانت تتطلّب منّا إتقانا، فقد كان علينا أن نأخذ في اعتبارنا ميلان السّفينة ذات اليمين وذات الشّمال، وغلب على كلّ منا أن يتحسب لميل السفينة يمنة فيأتي الأمر بعكس توقّعه، وتكون النّتيجة أنّ يخطأ القرص وجهته بياردتين أو ثلاث، فيشعر البعض بإحباط بينما ينطلق البعض الآخر في عاصفة من الضّحك . كان على الرّكاب بالطبع لدي هطول المطر، اللجوء إلى مقرّ الإيواء أو إلى القمرات على الأقلّ، والانصراف إلى ممارسة الألعاب المسليّة، والقراءة والتطلّع من النّوافذ إلى تلاطم الموج المعتاد بالسّفينة، أو تبادل الحديث في قيل وقال .

أعدّ العشاء في السّابعة مساء، تلته ساعة تريّض على ظهر السّفينة سمع بعده رنين الجرس، فتجمّعت الغالبيّة في الكابينة الخلفيّة العليا، وهي بهو مجهّز، طوله خمسون أو ستّون قدما، يتّسع لاستقبال المصلّين. (أطلق الحمقى على هذا البهو، الكنيس: أي مكان تجمع اليهود للصلاة). تضمّنت الأدعية ترنيمتين فحسب، أداهما فريق بلايموث للإنشاد، ثم صلاة قصيرة. واستغراق تأمليّ كامل استمرّ خمس عشرة دقيقة. صاحب التّرتيل،

عزف أرغنّ القاعة، ومكّن سكون البحر العازف من الجلوس إلى الآلة، دون أن يهتزّ في مقعده .

تحوّل الكنيس بعد الصّلاة إلى مدرسة للكتابة. لم يسبق أن شوهد مثيلا لتلك الحالة على سفينة من قبل . اتّخذ عشرون أو ثلاثون سيّدا موقّرا وسيّدة، مقاعد لهم خلف طاولات العشاء الممتدّة على جانبي القاعة، وتوزعوا بين أطرافها، وظلّوا لساعتين أو ثلاث، يمارسون الكتابة في دفاتر اليوميّات بهمّة ونشاط، وممّا يؤسف له أنّ كتاباتهم الغزيرة تلك، لم تكن إلاّ بالقدر نفسه من الرّكاكة والتدنّي، وينطبق ذلك على الغالبية.

أشكّ في قدرة حاجّ واحد من بين هذا الحشد من الحجّاج، على عرض مائة صفحة جيدة من يوميات العشرين الأولى من رحلة "الكويكر سيتي"، وأؤكد بحقّ أنّه لن يستطيع عشرة من أفراد المجموعات عرض عشرين صفحة تضم مسافة العشرين ألف ميل الأولى من الرحلة! وحري بالمرء في بعض الأوقات، أن يزداد طموحا للاحتفاظ بسجلّ صادق يتضمن منجزاته بين دفتّي كتاب، ويعكف على هذا العمل، بما يؤكد فكرة أنّ الأفضل لتزجية فراغه تسجيل يومياته يوما بيوم، وإشعاره بالبهجة. لكنّه لو يعش واحدا وعشرين يوما فحسب، سيكتشف أنّ تلك الطّبائع النّادرة كالعزيمة والصّبر والإخلاص في أداء الواجب، وثبات العزيمة فربمّا يتطلّع إلى إنجاز عمل ضخم، كاحتفاظه بسجّلّ لكتابة اليوميات.

اعتاد صديق نجيب، يدعي جاك، اتسم بالملاحة وحسن الإدراك في كل الوجوه، حملته ساقان تثيران دهشة النّاظر ، حيث الطّول والاستقامة والنّحالة، دأب في همّة ونشاط بالغين تسجيل الأحداث اليوميّة، على قول :

"أوه، إنّني أحرز تقدّما يا صديقي. (كان يميل في بعض كلماته إلى استخدام العاميّة في مرح) دوّنت بالأمس عشر صفحات في يوميّاتي، ودوّنت تسعا قبل الأمس فأيّة. واثنتي عشرة في اللّيلة السّابقة. فأيّة متعة تلك !".

"وما وجدت صالحا للكتابة؟".

"أوه، كلّ شيء، خطّ العرض، خطّ الطّول، خطّ الزّوال في كلّ يوم، وقدر ما قطعنا من أميال في الساعات الأربع والعشرين الماضية، ومرّات فوزي في لعبة الدّومينو، وبلياردو الفرسان، والحيتان وأسماك القرش، والدّلافين، ومضمون العظة الدّينيّة، وأيّام الأحد، (وذلك سيكون ذلك لافتا كما تعلم، بعد العودة إلى الوطن) وأكتب عن السّفن التّي رددنا لها تحيّتها، والبلد الذى تنتمي إليه، واتّجاه الرّيح. وحالة البحر، في اضطرابه أو هدوئه، والشّراع الذّي تحمله سفينتنا، (رغم أننا لا نحمل أيّ شراع)، وكيف أنّنا دوما نسير بعكس اتّجاه الرّيح، ولست أعرف لذلك سببا؟ وعدد ما رواه "مولت" من أكاذيب، أوه، كلّ شيء! لقد أعددت لكلّ شيء، أخبرني أبي بأنّ أحتفظ بسجلّ لكتابة اليوميّات، ولن يقبل أبي ألف دولار مقابلا له، حين أفرغ منه".

"كلاّ، يا جاك فإنها ستجاوز الألف دولار حين تفرغ من كتابتها".

" أتعتقد ذلك؟ حقيقة، أنت بالفعل تظن ذلك، أليس كذلك ؟".

"بلى، ستبلغ لدى انتهائك منها، ما يقارب الألف دولار كحدّ أدنى . وربّما تساوي أكثرمن ذلك."

"حسنا، أكاد بدوري أعتقد ذلك، لأنّها لن تكون يوميّات عادية".

لكن سرعان ما أصبح الأمر باعثا بشدة على الأسي بـ" يوميّات متواضعة ". قلت ذات ليلة ونحن في باريس، بعد يوم شاقّ من جولات المشاهدة

"سأذهب الآن يا جاك، سأغشي المقاهي لبعض الوقت، حتى يتسنّي لك أيّها الصّديق الصّدوق فرصة كتابة يومياتك".

غاب عن محيّاه الوهج، وقال :

"لا بأس، لا عليك، لن أواصل بعد الآن كتابة تلك اليوميّات. فـذلك جـدّ مملّ. أتدرك ذلك – أظنّ أنّني انتهيت من كتابة أربعة آلاف صفحة. لم آت فيها على ذكر فرنسا البتّة. فكّرت في البداية أنني حين أرحل عن فرنسا، سأستهلّ بعد ذلك الكتابة عنها . لكن ذلك لن يتحقّق لي. أليس كذلك ؟ سيبادرني محافظ الولاية بقوله مرحي يا هذا، ألم تر شيئا في فرنسا؟ .

وأنت تعرف أنّ القطّة لا تعرف قتالا. ظننت أوّل الأمر، أنني سأنسخ معلومات عن فرنسا من كتاب دليل السّائح، مثلما فعل العجوز "بادجر"، المقيم بالقمرة الأماميّة، والذى يكتب الآن كتابا، بل كتب منه أكثر من ثلاثمائة صفحة أوه، أعتقد أن كتابة اليوميات لن تحقّق لي نفعا أتعتقد هذا ؟ إنها لا تعود على بغير القلق ، أليس كذلك ؟".

" أجل، فاليوميّات المعيبة لن تحقّق الغرض منها، أمّا اليوميّات التّى يتوخى فيها الجودة، فتستحقّ الألف دولار، بعد أن تفرغ من كتابتها ".

لم تزد خبرته عن خبرة من بلغوا سن الرشد من الكادحين أعضاء مدرسة الكتابة اللّيلية في الكابين . لو رغبت في إيلام شابّ في مقتبل العمر، فاعهد إليه بكتابة يوميّاته كلّ عام .

اضطلع كثير من الخيّرين، بمواصلة بث مشاعر الرّضا والبهجة بين المسافرين. تشكّلت جماعة من الركّاب، للقاء معا في مدرسة الكتابة بعد أداء الصّلوات، والقراءة بصوت مرتفع عن البلدان التي كنا على وشك الوصول إليها، والنقاش حول ما ورد عنها من معلومات . جاء مصوّر الرّحلة بما يحتفظ به من صور فيلميّة، وعرض أمامنا آلة العرض السّحرية الأنيقة.

كلّها تقريبا لقطات لمشاهد أجنبية، عدا صورة أو اثنتين صوّرتا داخل الوطن . أخبرنا بأنّه سيبدأ العرض في القمرة الخلفيّة بعد رنتي جرس (التّاسعة مساء)، وبيّن للرّكاب كيفية وصولهم إلى المكان المحدّد، وسار كلّ شيء حسب ما اتفق، لكن بالصدفة البحتة كانت الصورة الأولى التي احترقت فوق الكنفاه، هي الخاصّة بجبّانة جرينوود .

رقصنا ليالٍ عديدة تحت ظلّة بأعلى السّفينة تحت ضوء النّجوم. وأعددنا ما يليق مظهرا بصالة عرض مكشوفة، بإدلاء عدد من مصابيح إضاءة السفينة حتى الدعامات. ارتجلت موسيقانا عزفا انفعاليا محكما، من آلة الميلوديون، التي تعاني ربوا شعبيًا، ولهاثا، وكان حريا أن تتمتع أنغامه بالقوة، صاحبته آلة الكلارينيت الشّاكية من اضطراب بسيط في مقام الجواب، ناهيك عن مقام القرار الشجيّ، وأكورديونا أكل الدّهر منه وشرب، يعاني من تسريب هوائيّ في جزء منه، وفاق زفيره صراخه. لم تخطر ببالي عبارات كتلك حتّى اللحظة. وقد فاق الرقص الموسيقي سوءا برغم ذلك كلّه . فحين مالت السّفينة صوب اليمين، مال الرّاقصون ميلا شديدا، وانقلبوا في كتلة واحدة إلى الحاجز الحديديّ، وإن

مالت يسارا، مالوا بدورهم يسرة، ليحدث انسجاما في الحالتين . تقلقل راقصو الفالس، في التفافهم نحو خمس عشرة ثانية، وانقلبوا إلى السور الحديديّ، وكأنّهم على وشك القفز إلى البحر . تفوّقت رقصة فرجينيا على ما شهدته من قبل من رقصات، على ظهر "الكويكر سيتي "، وذلك لتميّزها بالأصالة. إذ حفلت بإعجاب المشاهدين، كما حفلت بالفرص الضائعة، وبمرّات مفاداة شريك الراقص بشقّ الأنفس. توقفنا آخر الأمر عن الرقص. احتفل الركاب بعيد ميلاد إحدى السيّدات، بشطائر الخبز، وتبادل الخطب، وإلقاء قصيدة شعر، إلخ . مررنا بتجربة تدعو إلى السخرية كما يحدث على السّفن الأخرى المبحرة. اتّهم أحد الموظّفين على السّفينة بسرقة معطف، من قاعة المناسبات رقم ١٠. عين قاض لهذا الغرض، وكتبة للجلسة أيضا، وحاجب، وأفراد شرطة، وعمد، ومحام عن الحكومة، وآخر عن المدّعي عليه، واختير محلّفون، بعد دفوع كثيرة بعدم الاختصاص، حيث كان الشّهود أغبياء، ولم يأخذ بشهاداتهم، كما هو حال الشّهود دائما، تبادل الطّرفان الدّفوع، ووصل الجدل حدّ الشّراسة، والتميّز والقبول، أحيلت القضيّة للحكم فيها، وتوصّل القاضي إلى قرار غريب وأصدر حكما مثيرا للسّخريّة .

مارسنا أمسيات عديدة داخل الكبائن، لعبة المحاكاة بتحزير مشاهد تمثيليّة أو مسرحيّة، شارك فيها السيّدات والسادة، وحققنا ما رغبناه من متعة من كلّ ما مارسناه من ألعاب.

أجريت محاولة لتنظيم مجموعات للمناظرات لكنّها باءت بالفشل، وذلك للافتقار إلى وجود مواهب خطابيّة .

يمكنني بكلّ أريحية، التأكيد على أنّنا حقّقنا لأنفسنا المتعة المرجوّة، وكان ذلك في حدود الكياسة والرصّانة . نادرا ما استخدمنا البيانو في العزف، بل استخدمنا آلتي الفلوت والكلارينيت معا، وأدينا ما تيسر من ألحان جميلة، ولكنّا كنا دوما نردد الألحان المعروفة نفسها، وكنت أشعر بسعادة غامرة حين أتذكرها، وأشكّ في أن تغيب عن بالي أبدا. لم نمارس اللّعب على الأرغن والميلوديون سوي في التراتيل الدينية، لكنّي هنا على أن أقدح زناد فكري: فالشّابّ آلبرت، لم يكن يذكر لحنا لأغنية يقول مقطع منها : " أوه، كم كان جميلا لسبب أو آخر، أن تعرف أنّه اسم على مسمى (لم أذكر عنوان الأغنية، لكنّها

كانت مليئة بلواعج الشجن، وحافلة بالعاطفة). عزف آلبرت هذا اللّحن كثيرا دون انقطاع، حتّى ألزمناه بأن يرحم نفسه. لم يشد أحدنا بغناء منفرد على ظهر السفينة تحت ضوء القمر. لم يكن الغناء الجماعيّ في الكنيسة الصغيرة، والتّراتيل، بالطقوس الدينية الرفيعة جيدة الأداء. تحمّلت الأمر قدر استطاعتي، ثمّ رضخت بعد ذلك وشاركت فيه، وحاولت تطويره، وتحفيز السيّد جورج أيضا على الانضمام إلينا، وأتى ذلك بفشل ذريع، فصوت جورج كان متقلّبا، يطلق عقيرته، لو أدّي مقطعا شجيًا، ، فيروّع الجميع، ولو أدي صوت الجواب يقوقئ قوقأة مزعجة. كان جورج أيضا غير ملمّ بالمقامات اللّحنيّة، و أعاقه ذلك في الأداء. قلت له :

" الآن يا جورج، لا ترتجل، فهذا يشي بأنانيّة كبيرة، ولفت للأنظار. واصل الأداء كالآخرين حتّى النّهاية. هذه جملة لحنية جيّدة، ولا يسعك تحويلها، ارتجل بها فحسب ".

" وي، إنّني أحاول تطويرها، وأغنّي كما يغنيّ الآخرون، بالضبط كما ورد بالنّوتة الموسيقية ".

ظنّ ذلك بالفعل، ولا يلومنّ إلاّ نفسه، ولأنه لا يساير أصوات الآخرين، يصاب بتشنّج في عضلات الفكّ.

كان من بين بعض الرّجعيين، من نسبوا عدم توقّف الريح المعاكسة إلى ترتيلنا الجماعيّ، وصرّح أولئك علنا بأنّه قد أطلق لنا الحبل على الجرّار، لمواصلة ذلك الأداء الرديء، حتّى إذا كان في أحسن أحواله، وكان يضاعف من الجرم السّماح لجورج بالمشاركة في الغناء، حيث كان يصعد مباشرة إلى صفحة السماء. وذكر هؤلاء أنّ جماعة المنشدين سيواصلون سعيهم المضني لتحقيق الانسجام بين الأصوات، حتى يأتي اليوم الذّى تخفّف فيه العاصفة من غلواء، قد يؤدي إلى غرق السفينة.

أثيرت الهمهمات حتّى في أثناء أداء التّراتيل الدّينيّة. ذكر الضّابط التنفيذي. أنّ الحجّاج يفتقرون إلى محبّة الله وحبّ الإنسان لأخيه الإنسان.

"ها هم أولاء يصلّون كلّ ليلة ساعة سماع رنين الجرس ثماني رنات، من أجل أن تهبّ ريح مواتية، وهم يعلمون كما أعلم أنّ هذه السّفينة هي الوحيدة المتّجهة شرقا في هذا الوقت من العام، وأن عددا كبيرا من السّفن يتجه غربا، فالرّيح المواتية لنا، معاكسة لهم، وأنّ الله يرسل الريح المواتية لسفن كثيرة، وتريد تلك الجماعة منه أن يحوّل وجهتها حسب هواهم، ويحوّل اتّجاه السفينة بالطّريقة نفسها! ليس في هذا رجاحة عقل، أو حجّة مقنعة، وليس أيضا من المسيحيّة الحقّة، ومحبّة البشر في شيء . كفّوا عن مثل هذا العبث".

الفصل الخامس

يقول البحّارة "استأسر بكلّ ما حوت "نعمنا من الرّحلة بعشرة أيّام سارة مرّت منذ مغادرتنا ميناء نيويورك حتّى جزرالآزور، ليس لأنها مرت سريعا، لقصر المسافة التّي لم تزد عن عشرين ألف ميل، بل لأنّ متعتها الحقيقية، أنّنا قضيناها في عرض البحر . صحيح أنّ الريّاح المعاكسة كانت لنا بالمرصاد طيلة الوقت، واجهنا خلالها عواصف عديدة ، دفعت بنصف عدد الرّكاب إلى ملازمة الفراش بداعي المرض، ما جعل السّفينة تعيش حالة من الكآبة والوحشة، وسيتذكر من خاضوا غمار العواصف على ظهر السّفينة، مميلا إيّاهم يمنة ويسرة، ومباغتا بوابل كثيف من الرّذاذ، علا بين فينة وأخرى في الهواء من مقدّم السّفينة العاصف ، ثم زحف على السفينة كوابل من مطر رعديّ، لكنّنا نعمنا أغلب الوقت بطقس صيفيّ بديع، وليال فاق صفاؤها ساعات الضّحي . عشنا ظاهرة اكتمال القمر في المكان نفسه والسّاعة نفسها في كلّ لّيلة . لم نفهم أوّل الأمر هذه الظّاهرة الفريدة من القمر، لكنّنا تبيّنا تلك الظاهرة فيما بعد حين تأملنا أننا نتقدّم عن الوقت الأصليّ عشرين دقيقة كلّ يوم، حيث نتجّه شرقا بسرعة كبيرة. فنتقدّم بسرعة تواكب سرعة دوران القمر . بذا يكون القمر قد صار عرجونا قديما لمن خلّفناهم وراءنا من الأهل. لكنّه لدي يسوعيين مثلنا يبقى ثابتا في مكانه، وسيبقى كذلك طيلة الوقت .

شعر السيّد الشابّ بلاشر، القادم من أقصي الغرب، والتّي تعدّ هذه الرحلة هي الرّحلة الأولى له، شعر بعظيم قلق، جرّاء تغيير التوقيت على السّفينة. كان أوّل الأمر الجديدة، حيث اعتاد أن يخرجها من جيبه بسرعة حين يسمع رنّات الجرس الثمانية عند الظّهيرة، ولكنه تفحصها بعد فترة قصيرة، كأنّه يشكّ في دورانها. صعد إلى ظهر السّفينة وكان قد مرّ على مغادرتنا نيويورك سبعة أيّام وقال بعزم أكيد :

- "هذا غشّ".

"أيّ غشّ؟".

"عجبا، لهذه السّاعة . اشتريتها من إلينوي، ودفعت مائة وخمسين دولارا ثمنا لها، وظننتها ساعة جيّدة، أقسم بجورج، أنّها كانت ونحن على البرّ تعمل بشكل جيّد، لكنّها بصورة ما لم تواصل انتظامها هنا، ربّما أصيبت بدوار البحر. تقدّم الوقت، بعد انتظامها حتّى الحادية عشر والنّصف، ثم بغتة، تبدأ تأخيره . قمت بتقديم هذه الآلة البطيئة مرة بعد الأخرى، حتّى دفعت بالمؤشر دورة كاملة، لكنّ ذلك لم يحقّق أي نتيجة، إنّها تتقدّم على أيّ ساعة في السّفينة، ولا تنقطع قعقعتها حتّى الظهيرة، لكن تلك الرّنّات الثماني تتقدمها دوما بعشر دقائق . إنّني الآن في حيرة من أمري. إنها تفعل ما يحلو لها، وتمضي إلى حيث تشاء، لكن ذلك لن يفيدها في شيء . أتعلم الآن أنّه لا قبل لساعة في السّفينة أن تتفوق عليها، ولكن إلام يشير هذا؟ إنّك حين تسمع تلك الدّقات الثّماني ستجد أنها متأخرة عنها بالفعل، عشر دقائق ".

كان توقيت السّفينة يتقدّم ساعة كل ثلاثة أيّام، وهذا الشّخص يحاول أن يدفع ساعته للحاق بتوقيت السفينة . لكنّه كما ذكر، قد دفع بمؤشّرها إلى تخطّي ذلك التّوقيت، فدارت السّاعة " على هواها "، أسقط في يده وهو يري السّفينة تحققّ سَبقا . بعثنا به إلى القبْطان، وشرح له لغز تّوقيت السّفينة، وهدّأ قلقه في النّهاية . طرح هذا الشّاب قبل رحيلنا العديد والعديد من الأسئلة، دارت كلّها حول دوار البحر، مستفسرا عن أعراضه، وكيف يكون حال الشخص عند الإصابة به. وها قد عثر على ضالّته .

رأينا الكثير من أسماك القرش المعروفة، وسمك التّوتوج، والدّلافين، وكل المجموعات السّمكية الضّخمة التّي أضافتها السّفن البرتغالية إلى القائمة المعروفة بغرائب البحر . كان بعضها أبيض اللّون، والبعض الآخر قرمزيّ لامع . تعد الحيوانات المسمّاة بالنّوتية مجرد شبكة شفّافة من الهلام، تتمدد لتستنشق الهواء، وتتدلى منها حبال زاهية اللّون على هيئة قدم واحدة أو قدمين لتحتفظ بثباتها في الماء. بدت هذه الحيوانات كبحّار ماهر، واكتسبت حنكة البحار. فهي تثني شراعها حين تشعر بقدوم عاصفة، وتلفّه كاملا وتمضي إلى الأعماق حين تهبّ ريح هوجاء . اعتادت أنّ تحتفظ ببلل شراعها، وتهيئته للسّباحة في الماء، وذلك بقلبه على الظهر وغمره فيه لفترة قصيرة. يقول رجال البحر إنّ حيوان

النوتيّ لا يوجد إلاّ في هذه البحار، بين الدّرجتين الموازيتين لخطّ العرض ٣٥، ٤٥. أيقظونا في الثّالثة صباحا من يوم الواحد والعشرين من يونيو، ونبّهوا إلى أنّ جزر الآزور على مرمي البصر. لم تكن جزر آزور الثّالثة صباحا في شيء. لكنّ مدعٍ عامّ قد حضر، وحضر آخر بعده، وتلاه ثالث، ولأنني ظننت في النهاية، أنّ تشدّد الجنرال في هذا الأمر لن يدع أحدنا ينعم بالسكينة، نهضت من فراشي في هذه السّاعة المبكّرة، واتجهت إلى أعلى السّفينة. كانت السّاعة قد بلغت الخامسة والنّصف، وكان صباحا عاصفا رطبا. ربض الركّاب حول المداخن، واحتموا خلف مراوح التّهوية، وتدثّر الكلّ بملابس الشّتاء، وغشيهم الكرب والنّعاس، في جوّ عاصف مشبّع بالرّذاذ.

ظهرت أمامنا جزيرة فلوريس. بدت مجرد كتلة هائلة من الوحل، برزت من بين السّديم، ولكن بزغت الشّمس باقترابنا منها، وأضفت عليها جمالا، مساحات شاسعة من المزارع الخضراء والمروج، برزت فوق الأرض على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم، اختلطت شواشيّها العالية بالغيوم، وقطعتها ضلوعا شديدة الانحدار، واخترقتها أودية ضيّقة، واختطتها تلال حادة الأطراف شديدة الانحدار، وانتشرت بأعلاها طبقات سميكة من الصّخور تحوّلت تلقائيا إلى أسوار وقلاع، وظهر من بين قطع الغيوم ضوء الشّمس البازغ، ولوّن إحدى الذّري، وأحد المنحدرات، وواد صغير أعزل بأشرطة من نار، وظلّل ما بينها بنطق من ظلال حالكة. تلك رحلة الشفق القادم من القطب المتجمّد الشّماليّ، إلى الأراضي الحارة.

جلنا بأطارف ثلثي الجزيرة، لمسافة أربعة أميال من الشّاطئ، وتطلّب الأمر الاستعانة بالنظارات المكبّرة التي كانت على السّفينة، لحل خلاف دار حول المواقع المطحلبة، أيكا كانت أم عشبا، وما إذا كانت القرى البيضاء المتاخمة للبحر، قرى حقيقيّة أم مجرّد شواهد قبور متجاورة. خلصنا أخيرا إلى البحر، وتوجّهنا إلى سان ميجويل، وعادت فلوريس في هذه اللّحظة قبّة من وحل، وتوارت خلف غلالة السّديم، حتّى تلاشت عن الأنظار، لكنّه طاب للكثيرين من الركاب المصابين بدوار، أن يروها مجدّدا تلالا خضراء، فابتهج الجميع كونها بدت لهم بهذه الصورة، ولم يقتنعوا بأن تكون على نحو مغاير، جراء حكمهم الخاطئ في الصّباح الباكر.

كان علينا تغيير خطّتنا بالتوجه إلى سان ميجويل، بسبب هبوب عاصفة وقت الظّهيرة، جنحت بالسّفينة وأمالتها، ما جعل الحكمة تحتّم البحث عن مكان نأوي إليه. لذا توجّهنا إلى أقرب جزر المجموعة، وهي جزيرة فايال، (التي نطقها الناس في – أول. نبرا للمقطع الأول منها). رسونا عند مكلأ هورتا المفتوح ، بعد نصف ميل من السّاحل . يأهل المدينة ما بين ثمانية وعشرة آلاف نسمة . ترقد دورها البيضاء في سكينة في كنف مساحات شاسعة، من النّباتات الخضراء النّضرة، ما لا يتوفّر من جمال وجاذبيّة في قرية أخرى. تقع وسط سلسلة متحدّرة من التّلال الخضراء، يتراوح ارتفاعها بين الثّلاثمائة والسّبعمائة قدم، مستصلحة بعناية فائقة حتّى نراها، و لم يترك فيها شبر لم يستصلح، قسّمت كل مزرعة فيها وكلّ آكر إلى مربّعات صغيرة، محوّطة بأسوار من الحجارة، لحماية مانما من نتاجها من هبوب عواصف عاتية تجتاح المكان . تقسّم مئات المربّعات الخضراء بأسوار مقامة باللا السّوداء، ما يجعل التّلال أشبه برقاع الشّطرنج الكبيرة .

تتبع الجزر دولة البرتغال، ويحمل كلّ شيء في جزيرة فايال الطّابع البرتغاليّ، ولا تحمل أيّ طابع سواه. صعد إلى السفينة من أجنابها حشد من النّوتية البرتغاليين داكني البشرة، معروف عنهم اللجج والإفك، وازدراء البشر، والإيماء إلى بعضهم بعضاً واللمز، وضعوا في آذانهم حلقانا نحاسية، واتفق معهم كثيرون، على نقلنا إلى السّاحل، مقابل مبلغ كبير، من عملات من الفضة خاصة بأيّ بلد آخر . خرجنا إلى البرّ، تحت أسوار حصن صغير، مزود ببطاريّات مدافع زنة خمسة وثلاثين رطلا من البارود، اعتبرته هورتا، أكثر مؤسّساتها الحربيّة منعة، لكنّنا لو رصدناه من أحد أبراجنا الحربيّة على السفينة، لخبأوه في المدينة، في مكان ريثما يمكنهم العودة إليه وجلبه مجددا لو تطلب الأمر. طغت الشّراسة على الجماعة الواقفة فوق الجسر، رجالا ونساء وصبية وبنات، بدوا شعثا رثّي الثياب، حفاة الأقدام، اتخذوا التسوّل حرفة بالسّليقة أوبالدربة ثم الاحتراف . تتبّعونا زرافات خلال التجول في فايال، ولم ينصرفوا، حين طردناهم. سرنا وسط الطّريق الرئيس، وقد أحاط بنا أولئك الهوامّ من كلّ جانب، وتفرّسونا بأعينهم، وكانت كلّ لحظة تمرّ، تدفعهم جميعا إلى إلقاء نظرة فاحصة على الموكبّ، كما يفعل الصبية في إحدى، وهم يتابعون فيلا في حملة إعلانيّة من شارع إلى شارع . أشبع غروري كثيرا كوني جزءا رئيسا من هذا الحدث المثير. رأينا في أماكن متفرّقة على مداخل البيوت، نسوة اعتمرن قلنسوات

برتغاليّة على أحدث الطرز، مكونة من قطعة زرقاء سميكة من القماش، ملحقة بمعطف من نفس القماش، تعدّ مثالا فريدا للقبح . تبدو مرتفعة لأعلى، مشرعة من كلّ اتّجاه، غائرة العمق، تصلح خيمة سيرك، تغور رأس المرْأة فيها، لتشبه تلك الكمبوشة التي يجلس فيها الملقّن على خشبة مسرح الأوبرا . افتقر تماما هذا الكبّود البشع، كما يسمونه إلى شيء ولو ضئيل من الزينة، بل كان مجرّد كتلة مشرعة، عارية من الجمال، لونها أزرق قاتم منفّر، لا قبل لامرأة أن تواجه به، ريحا سرعتها ثماني درجات، وعليها في ظرف كهذا أن تتجه عكس الرّيح ولا تواجهها . يسود الكبّود المشهد العام في كلّ الجزر، وسيبقى كذلك لألف سنة قادمة، لكنّ كلّ جزيرة تصنع كبابيدها بما يميّزها عن الأخرىات، ليستطيع العابر، معرفة الجزيرة التّي تنتسب السيّدة إليها .

تعرف البرتغال بوفرة وحدات النّقد، وتعرف بالفيس (وتنطق ريس). فالدّولار الواحد بألف ريس، وتحسب كلّ المعاملات المالية على أساس قيمة الريس. لم نكن نعلم بهذا، إلى أن اكتشفناه من خلال "بلاشر" . عبّر بلاشر عن قدر سعادته وامتنانه بأنّه يقف فوق أرض بلد آخر ينعم بالاستقرار، وأبدي رغبة في الاحتفال بذلك الحدث، وذكر أيضا أنّه بلد ينعم أيضا برخص أسعاره، و قد تعهّد بدعوتنا إلى مأدبة طعام. دعا تسعة منّا، وتناولنا غداء ممتازا في أحد الفنادق الكبيرة . قدّم المسئول بالفندق قائمة الحساب وسط حالة من المرح والبهجة، أحدثها تبغ وخمر جيّدان، وإسهاب في سرد النوادر والأقاصيص، وقدّم صاحب الفندق قائمة الحساب . لمحها بلاشر، فتغيرت ملامحه، رماها بنظرة أخرى، كي يتأكد من أنّ مداركه لم تغرّر به، قرأ مشتملاتها بصوت مرتفع، تشوبه حشرجة، و تحوّل تورّد خدّيه إلى شحوب :

"عشر وجبات غداء بقيمة ٦٠٠٠ ريس ! هذا خراب وإفلاس"

" خمسة وعشرون سيجارا بسعر الواحد ١٠٠ ريس بقيمة ٢٥٠٠ ريس! أيا أمّي المقدّسة ".

" إحدى عشر زجاجة نبيذ قيمة الزّجاجة ١٢٠٠ ريس، بإجماليّ ١٣٠٠٠ ريس! كن لنا عونا " .

" القيمة الإجماليّة واحد وعشرون ألفا وسبعمائة ريسا ! "أيا موسى النبي الصّابر على العناء ! لا أملك في السفينة ما يكفي سداد تلك القائمة ! ارحلوا أيّها الشّباب ودعوني لمصابي، فأنا كتلة إفلاس !".

أعتقد أنهم بدوا أكثر من رأيتهم شحوبا في حياتي . لم يستطع أحدهم أن ينبس ببنت شفة . بد ا الأمر وكأنّ كلاً منهم قد أسقط في يده . هبطت زجاجات النّبيذ وئيدا فوق الطاولة، وظلت محتوياتها كاملة لم تمس. وسقط السّيجار لا إراديّا من بين أصابع أصيبت بالوهن. فتّش كلّ منّا في عين الآخر، فلم يعثر فيها على شعاع من أمل، أو عزم . كسر آخر الأمر حاجز الصّمت . واستقر على محيّا بلاشر ظلّ من حل ميئوس منه، بدا كسحابة عابرة، نهض من مكانه وقال :

" لن أقبل مطلقا بمثل هذا الغشّ المنحطّ الرّخيص يا رجل، هاك يا سيد مائتين وخمسين دولارا، وهي كلّ ما تحصله، أما أنا فسوف أخوض بحرا من الدّماء قبل أن أدفع لك سنتا آخر ". ارتفعت معنويّاتنا، وأسقط في يد المسئول، ذلك على الأقل ما ظنناه. ووقع الرّجل في حيرة من أمره، رغم أنّه لم يفهم كلمة واحدة ممّا خوطب به . تنقل بصره سريعا مرات عديدة ما بين كومة القطع الذهبية الصّغيرة الملقاة أمامه، ووجه بلاشر، ثم انصرف عنا. بدا الأمر وكأنّه كان حريّا به الذهاب إلى مواطن أمريكي، لأنّه حين عاد إلينا أبرز قائمة الحساب بعد أن ترجمت، بحيث يستطيع مسيحيّ فهمها، وكانت على النّحو التّالي :

" عشر وجبات غداء بقيمة ٦٠٠٠ ريس أي ما يعادل ٦ دولارات "

" خمسة وعشرون سيجارا بقيمة ٢٥٠٠ ريس و يعادل ٢,٥ دولارا" .

" إحدى عشر زجاجة نبيذ بقيمة ١٣٢٠٠ أي ما يعادل ١٣,٢٠٠دولارا "

القيمة الإجماليّة بالرّيس ٢١٧٠٠ وتعادل ٢١,٧٠٠دولارا "

عاد انشراح الصّدور إلينا مجدّدا، بدعوة أخرى من بلاشر على الغداء. أمر لنا فيها بمزيد من المرطّبات .

الفصل السّادس

أعتقد أنّنا نجهل في أمريكا الكثير عن جزر الآزور . فلا يوجد من خارج جماعتنا من يعرف عنها النذر اليسير. ولم يكن من بينهم مَن قرأ عن معظم البلاد الأخرى، ومن لديه معلومات عن جزر الآزور سوى أنّها مجموعة من تسع أو عشر جزر صغيرة، تقع على مسافة من الأطلنطيّ، على نصف المسافة ما بين جبل طارق ونيويورك تقريبا، وهذا كلّ ما يعرفونه عنها. يدفعني هذا كلّه، إلى كتابة بعض حقائق واضحة لا لبس فيها في هذا الشأن.

يبدو أن هذا المجتمع برتغاليّ النّزعة بكلّ المقاييس، حيث تسوده البطالة والفقر والركود والكسل . يتولى إدارة البلاد حاكم مدنيّ، يعيّنه الملك، فضلا عن الحاكم العسكريّ، ويستطيع أن يفرض هيمنته الكاملة عليها، وأن يعزل الحكومة المدنيّة، وقت يشاء. تضمّ الجزر من السكان نحو المائتي ألف نسمة، وكلّهم تقريبا برتغاليون . وقد قدّر لهذا البلد الاستقرار والثّبات، حيث كان عمره يقدر بمائة عام حين اكتشف كولومبس أمريكا . القمح محصوله الرّئيس، ويعملون على زيادة محصوله وطحنه، كما فعل الأجداد. يقلّبون التربة بحدوة مزوّدة بقضيب حديديّ، عريض بعض الشّيء، ويجر الرّجال والنسّاء مسالفهم الهزيلة، وتستخدم طواحين هواء صغيرة في طحن الغلال بمعدّل ثماني بوشلات في اليوم الواحد (تعادل البوشلة الواحدة اثنين وثلاثين لترا ونصف اللّتر) . هناك ناظر زراعة مساعد لمدّ المطحنة بالغلال، وناظر عام لمراقبته والحيلولة دون خلود الآخر إلى النّعاس . يقومون عند تقلّب الرّياح بربط بعض الحمير، وإدارة النصف العلوي للمطحنة بالكامل حتّى تكون ريش المروحة في الوضع المناسب، بدلا من تركها في حالة الثبات . تتحرّك ريش المروحة بدلا من الطّاحونة . يقوم ثور بفصل الحنطة عن السّنابل، على النّمط الذي ساد في عصر العماليق . يفتقر البلد إلى عربة تسير على عجلات، فيحملون الأشياء فوق رءوسهم، وعلى ظهور الحمير، أو على عربة يد من أماليد الشجر، عجلاتها كتل صماء تدور على محور، كما تفتقر البلد إلى جرّافة حديثة، أو ماكينة لتذرية الحنطة. باءت

كلّ المحاولات لتحقيق ذلك بالفشل . فالبرتغاليّ الكاثوليكيّ الطيّب، الذى يشير بالصّليب، ويصلّي لله ليقيه شرّ خروجه عن الديّن، يصبو إلى تعلّم أكثر مما تعلّمه أبوه . يتّسم طقس هذا البلد بالاعتدال فلا جليد يكسوه ولا صقيع، لم أر في المدينة أيّة مداخن . ينام الجميع من رجال ونساء وأطفال في غرفة واحدة مع الحمير . لا يعرفون النّظافة وتتغشّاهم الهوام، وهم على ذلك جدّ سعداء .

يمارس النّاس على الأجانب الغشّ والكذب، ويحيون في جهل مطبق، ولا يوقّرون موتاهم . وتوضّح السّمة الأخيرة مدي تميّزهم بعض الشّيء عن الحمير التي يلتهمونها وينامون معها . البرتغاليون الوحيون في المخيّم، الذين ظهروا بمظهر حسن، وعددهم ستّة أفراد، من أسر ميسورة الحال، وكذلك الرّهبان اليسوعيون، وقلة من جنود الحامية العسكريّة، ويتراوح أجر العامل بين عشرين وأربعة وعشرين سنتا، وهذا أجر العمّال الأكفّاء، العاملين على الماكينات، ويمكن حصولهم على الضعف كحدّ أقصى. تحسب تلك القيمة بالرّيس، ما يعادل ألف ريس للدولار، ما يشعرهم بالغني والقناعة. اعتادوا في الجزر زراعة الكرم الجيّد، وتصنع منه خمور ممتازة، تصدّر إلى الخارج. لكن آفة التهمت محصول الكرم الجيّد، منذ خمسة عشر عاما، وبذلك توقّفت صناعة الخمور . ولكون الجزر كلها ذات طبيعة بركانيّة، كان لا بدّ من أن تتمتع تربتها بخصوبة عالية، ويكاد يكون كلّ قدم من أرضها خاضعا للاستصلاح، وينتج محصولين أو ثلاثة من نوع مختلف في العام الواحد. لا يصدّر منها سوى البرتقال، إلى إنجلترا بخاصّة . لا يفد أحد لزيارة الجزيرة، ولا يخرج منها أحد، ولا علم لأهل جزيرة فايال بأخبار العالم، وحاجتهم إلى العلم بها. ترف لا يعرفونه. سألني برتغاليّا عادي الذّكاء، إن كانت حربنا الأهلية (الأمريكية) قد إنتهت ؟ لأنّه كما ذكر، قد سمع ذلك من أحد أصدقائه، أو ورد بباله شيء بهذا الخصوص! حين قدّم أحد ركّاب السفينة، لواحد من ضبّاط الحامية، نسخا من صحف التّريبيون والهيرالد والتايمز، بهت لعثوره بعد صبر على أخبار عن لشبونة، أكثر من التي كان يتلقاها كلّ شهر، من الباخرة الشّهرية الصّغيرة، وقيل له إنّها تصل بطريق كابل البرق، و قد علم منذ عشر سنوات بمدّ كابل لكنّه ظنّ أنّهم لم يفلحوا في مدّه.

يحدث في مجتمعات كهذه ترويج لدجل اليسوعيين . زرنا كاتدرائيّة، يسوعيّة عمرها مائتي عام تقريبا، وعثرنا فيها على قطعة من الصليب الحقيقيّ، الذّي صلب فوقه مخلّصنا .

احتفظت القطعة بالصّلابة واللّمعان وكانت بحالة ممتازة، وكأنّ الكارثة الرّهيبة، لم تحدث في كالفاري إلاّ بالأمس. وليس منذ ثمانية عشر قرنا . لكنّ حسني النية هؤلاء يصدقون قطعة من الخشب دون أن يتزعزع إيمانهم بصحتها.

يوجد في كنيسة صغيرة داخل الكاتدرائية مذبح واجهاته من الفضّة الخالصة. يعتبرونها على الأقلّ كذلك . ولكنّني أعتقد أنّها قد تزن المائتين في الطّن الواحد. (حسب قياس أصحاب مناجم الفضّة) أمامه قنديل صغير لا ينقطع اشتعاله. أوقفت سيدة متديّنة مالا. قصرته بعد وفاتها لإقامة قدّاسات عدّة في الكنيسة، كي تنعم الروح في قبرها بالسكينة. وأوصت بأن يظلّ هذا القنديل مضاء باللّيل والنّهار دون انقطاع. حدث ذلك قبل رحيلها كما ذكرت . كان المصباح ضئيل الحجم. ذابل الضّوء. وأظنّه ما كان يضرها في شيء، لو أخمد ضوئه إلى الأبد .

كان مذبح الكاتدرائية. وثلاثة أو أربعة مذابح أخرى أصغر منه. يضم كمّا صرفا من البهرج الرخيص والحلّي الزائفة . يتضمن أشكالا لبعض تلامذة المسيح. تعرّضت هياكلهم للكسر والبلي والإهمال. إذ كانوا وقوفا حول ثقوب الزخارف والزّركشة. لم يترك لبعضهم أنوفا للتنفس. كما أصيبوا جميعا بالعاهات وشوّهوا، وكانت أولى بهم مستشفى وليست كاتدرئيّة .

تغطّت حوائط الهيكل بالبورسلين. وصورت كلها بشخصيّات يقاربون حجمهم الطّبيعيّ. وتوخّي في تصويرهم الدّقة. وألبسوهم ثيابا عجيبة تعود إلى مائتي عام . تنسب هذه الرّسوم إلى تاريخ ما أو شيء أو شخص ما. لكنّ أيّا منّا لا يجد سبيلا يعينه للتحقق من ذلك. لعلّ الأب الشّيخ النّائم في سكينة تحت حجر والمؤرخة وفاته بالعام ١٦٨٦، ينبؤنا بذلك لو قام من برزخه. لكنّه لم يفعل .

التقينا فرقة من الحمير الصّغيرة لدي وصولنا وسط المدينة. جهزت كلها للركوب. يمكنني الزّعم بتميّز سروجها. كان السرج الواحد حصانا خشبيّا. موثرا بحشيّة صغيرة. وغطّي هذا الجهاز نصف الحمار. افتقرت الحمير إلى الركب (جمع ركاب). ولم يكن هناك داع لركائز كتلك - كان الأولى استخدام مثل هذا السّرج. لاعتلاء طاولة طعام - كانت هناك ركيزة عريضة بارزة عند مفصل ركبة الرّاكب . إحتشدت حولنا شرذمة

من المكارية البرتغاليين، الشعث المسمّلين. يعرضون بهائمهم لقاء نصف دولار في السّاعة، وهو سعر مغالي فيه حتّى للغريب عن البلدة، فسعر السّوق ستّة عشر سنتا . ركب ستّة منّا موجة العناد، وتمادوا في المهانة، ما جعلنا مشهدا ملفتا للمارّة في الطرقات العامّة في مدينة يأهلها عشرة آلاف نسمة .

بدأ تحرّكنا، ولم يكن هنا علاقة بسير على القدمين أو امتطاء، أو عدو بل شتات في كل الأنحاء وذعر، وتوقّع لكلّ الاحتمالات، أو سير حسبما اتّفق . خصص لكّل حمار مكاريّ، يسير جواره دستة متطّوعين، يلهبون ظهور الحمير بمناخس طويلة، كما يوخزونها بأحذيتهم المدبّبة، ويشيّعونها بهتاف متواصل "سيكي ياه"، ويحدثون من الجلبة والصّخب أسوأ مما تحدثه مصحّة عقليّة . سار كلّ هؤلاء الأوغاد على القدمين، لكنّ ذلك لا يهمّ ، لأنهم أهل لذلك، إذ يمكنهم استباق أيّ حمار، وتجاوزه قدرة على التحمّل . كان الجميع يشكلون موكبا يستحقّ المشاهدة على الطّبيعة، وجذبنا أينما ذهبنا أنظار الجماهير المحتشدة في البلكونات .

احتار بلاشر في أمر حماره، وأعيته الحيل . طفق الحمار يعدو في خطوط حلزونيّة عبر الطّريق، تلاحقه البقيّة، فرك بلاشر في العربات، وزوايا البيوت، وهناك أسوار عالية كانت تحدّ الطريق من الجانبين، فيمسح الحمار به الجدار ثم يتحول إلى الجدار الآخر . لم يلتزم ولو لمرّة واحدة جادّة الطّريق، ووصل الحمار آخر الأمر إلى الدار التي شهدت مولده، وانطلق إلى فنائها، حاكا ببلاشر مدخل الدار . قال بلاشر للمكاريّ بعد أن عاود ركوب الحمار: " رويدك، حسبك، اعلم إنّك من الآن فصاعدا ستلتزم البطء في السير " . لكنّ الرّجل لا يعرف الإنجليزية، فقال بتلقائيّة: "سيكي ياه "، وانطلق الحمار كقذيفة مدفع . دار بغتة بمنعطف على الطّريق، فانكبّ بلاتشر على أم رأسه، فتعثر كلّ حمار بالآخر، وتراكم الركب كلّه وسار كومة واحدة . لم يأت ذلك كلّه بضرر . فسقطة من فوق حمار واحد أقل ضررا من دحرجة من على أريكة. وقفت الحمير كلّها في المكان نفسه بعد الكارثة، تترقّب حلّ السّرج، وعدلها مجددًا، ثم تثبيتها فوق الحمير، من قبل المكاريّة . كان بلاشر في فورة غضبه، وكل مرة يوشك فيها على السّباب، ويفتح فاه، تفعل البهيمة مثله، وتفتح فاها هي الأخرى، وتطلق سلسلة من نهيق، يحجب ما عداه من أصوات .

استمتعنا بالانطلاق وسط تلال منسّمة، وعبر أودية صغيرة بادية الحسن . كانت تجربة ركوب الحمير تحمل لنا الطّرافة والجدّة، وأمدتنا بالحيويّة والنّشاط، وهي تعادل مائة مرّة الكثير من مشاهد البهجة المبتذلة والعتيقة في وطننا الأمّ .

أعدت الطّرق هنا إحدى العجائب ولعلّ ذلك خيرا . فهذه جزيرة تضمّ حفنة من البشر تقدر خمسة وعشرين ألف نسمة فحسب، فيها من الطرق ما تفتقر إليه الولايات المتحدة خارج السّنترال بارك . فأنت أينما توجهت طريقا عامّا توفّر فيه الاستواء والنعومة، والصّلابة معا، رقّش باللافا السّوداء، وحفّت من الجانبين جانبيه بقنوات صغيرة، أتقن رصفها، بحصي أملس صغير، أو ضمّ بإحكام بعضه ببعض كما في برودواي . يكثر الحديث عن كيفية رصف شوارع نيويورك بنظام "روس "، ويعتبرون ذلك ابتكارا حديثا، رغم أنّهم يتبعون الأسلوب نفسه هنا في هذه الجزيرة النائية المطلة على البحر منذ مائتي عام. أتقن رصف كلّ طريق في هورتا، بقوالب "روس" الحجرية الصّلبة، ليبدو سطحها أشبه بأرضية في منزل من حيث الدقّة والصلابة، وليس معيبا بالحفر كما هو الحال في برودواي . يحد كلّ طريق بأسوار عالية، بنيت من اللافا الصّلبة، حتّى لا تتأثر بالبلي ولو بعد ألف عام، في هذا البلد الذّي لا يعرف الصّقيع . توخّي في بناء هذه الأسوار السّماكة، وهي في الغالب مطلية بماء الجير أو ملصقة بالجص، وقد غطيت بألواح بارزة قدت من الحجر. ظهرت من فوق الأسوار، أشجار البساتين، التي تدلّت أغصانها وعروشها إلى أسفل، لتحدث تباينا بين خضرتها النضرة، وطلاء الأسوار بالجير أو اللافا السّوداء، ليشكّل هذا التّباين منظرا رائعا . تمتدّ أحيانا الأشجار والكرم عبر هذه الدّروب الضّيقة، وبذا تحجب عنها الشّمس، فيبدو وكأنّك تسير عبر نفق . أقيمت كلّ أعمال الرّصف وبناء الطّرق والجسور من قبل الحكومة .

تقام الجسور على باع واحد، أي قنطرة واحدة، من حجر مصقول غير مزوّد بدعامات. قد سويّ سطحه بطبقة رقيقة من اللافا، وأنواع من البلّور الشّفاف المستخدم في أعمال الزّخرفة . كانت البلدة تعج بالأسوار في كلّ أنحائها، وتتسّم كلّها بالتّناسق والذّوق الرّفيع، وتتمتع تلك بالمتانة والقوة، ولا تخلو أيضا من روعة في طرز رصف الطّرق والأفاريز، على نحو من الدقّة والنعومة والصّلابة في آن . فإن بحثت عن طرق وشوارع، وواجهات للبيوت، قد خلت من كلّ ما له صلة بالقذارة أو الغبار والوحل والوسخ، فإنّك تجد ضالتك هنا في

هورتا وتجدها في فايال . لم يكن أفراد الطَبقة الدّنيا من الشّعب يهتمون بنظافتهم أو نظافة دورهم، ولكن ما إن كفوا عن ذلك حتّى تحقّق للبلدة معجزات في مجال النّظافة .

ـ عدنا آخر الأمر إلى حيث نقيم، بعد جولة لمسافة عشرة أميال، وفي أعقابنا المكارية المعاندين، سيرا على الأقدام عبر الشّارع الرّئيس، ونخسا للحمير حين ترجلنا عنها. وصراخا متواصلا بعبارة "سيكي ياه"، وترديدا لأغاني " فريق جون براون " بإنجليزيّة ركيكة .

حين ترجلنا من فوق ظهور الحمير، وبدأت الأمور تعود إلى مجراها الطّبيعيّ، كاد يخفّ ما كان بيننا والمكارية من صراخ وتنابذ بالألقاب وسبّ ومشاجرة . وسيطالب أحدهم بدولار في السّاعة أجرة الحمار، ونصف دولار آخر مقابل نخسه، وربع مقابل المساعدة في النّخس ، كما تقدّم أربعة عشر دليلا، بقوائم للمطالبة بمقابل إرشادنا للطّرق عبر المدينة ومعالمها، واصطخب كلّ ضال منهم، وفاق صاحبه نعنيفا وإسرافا في الإيماء واللّمز. دفعنا أجرة دليل واحد، وأجرة مكاريّ فقط لكلّ حمار .

بدت الجبال الواقعة على الجزيرة شاهقة الارتفاع . أبحرنا بطول ساحل جزيرة بيكو، بأسفل هرم يزخر بالنّبات الأخضر، ارتفع بمنحدر واحد متّسق من المكان الذى نقف عليه إلى ارتفاع يقدّر بسبعة آلاف وستمائة وثلاثة عشر قدما، ودفع بقمّته إلى السّحب البيضاء كجزيرة طافية فوق الضّباب!

حصلنا طبعا من جزر الآزور هذه، على البرتقال، والليمون والتّين والبرقوق ..إلخ. لكنّني سأتوقّف الآن، فلست هنا بصدد كتابة تقارير عن براءة الاختراعات.

نحن الآن في الطّريق إلى جبل طارق، وسنصل إلى هناك في ظرف خمسة أو ستة أيّام، من وقت مغادرتنا الآزور .

الفصل السّابع

قضينا أسبوعا وسط بحر مضطرب عات، ووقوع إصابات بدوار البحر، وكبائن خلت من شاغليها، ومؤخر سفينة موحش يغشاه رذاذ، أصرّ على ألا يترك حتّى المداخن دون أن يغشاها بطبقة ملحيّة بيضاء حتّى قممها. مر أسبوع نمضي نهاره في قوارب النّجاة وأماكن الإيواء على ظهر السّفينة، وفرائصنا ترتعد من الصقيع، ونلجأ ليلا إلى لعب الدومينو وسط الصخب، وننفث سحب دّخان التّبغ الخانقة في غرفة التّدخين .

كانت الليلة السّابعة من هذا الأسبوع أكثر لياليه اضطرابا. إذ خلت من صوت الرعد أو أصوا ت مدوية أخرى. إلاّ صوت مقدم السّفينة الهدّار، وعصف الرّياح الشّديد بحبال السّفينة، وتلاطم مياه البحر المضطرب. بل ارتفعت السّفينة وكأنّها تصّاعد إلى عنان السّماء، ثم توقّفت لحظة مرّت كقرن من الزّمان. وهبطت مجدّدا بقوّة رهيبة، كأنّها قادمة من الجحيم. تشبّع كلّ مكان على ظهر السّفينة بطبقات الرّذاذ المنهمر، وغشيت حلكة الظّلام الأرجاء . كان يبدّد الظلمة بين فينة وأخرى وميض البرق. يغشاه بخطّ أحمر ناريّ. فيكشف عن عالم مضطرب من المياه، لا سابق له. ويحوّل بضوئه الحبال المعتمة، إلى لون فضّي لامع، فيرسم على وجوه الجميع بريقا شاحبا .

لفّ الرّعب ركّاب السّفينة، ممن اعتادوا تجنب اللّيالي العاصفة، والتعرض للرذاذ. اعتقدوا أنّ السّفينة لن يدوم بقاؤها حتّى اللّيل، وأنّ وقوفهم في الخارج وسط عاصفة هوجاء، ومواجهة خطر قد تهدّدهم، أقلّ ضررا من البقاء في القمرات المقبرة، تحت القناديل الذّابلة، والتّفكير في صور الرّعب الماثلة، فوق المحيط . فبقاؤهم خارج الكبائن سيمكّنهم من رؤية السّفينة وهي تصارع قبضة العاصفة الهوجاء، وسماع هزيم الرّياح، ومواجهة الرّذاذ المنهمر، ومتابعة الصّورة الرهيبة في ظهور البرق، وقد صاروا أسري ولع شديد لا يسعهم مقاومته. وهكذا كان اختيارهم البقاء خارج الكبائن . كانت ليلة رهيبة بل كانت أكثر الليالي التي مررنا رعبا .

هرع الجميع إلى سطح السّفينة في السّابعة من صبح يوم جميل، الثلاثين من يونيو، مع ورود أخبار سارّة بأنّ البرّ قد بدا على مرمي البصر! كان عزيزا على النّفس، أن نري العائلة البحرية على سطح المياه مجدّدا، ورغم ما ارتسم من شعور بالسعادة على كل الوجوه، فإنه كان يواري في بعضه، ما أحدثه هبوب العواصف من أهوال. لكن سرعان ما انقشعت عن الأعين غشاوتها، ببريق البهجة، وتورد الوجنات مجدّدا بعد أن طالها الشّحوب، بمجيء صباح مشرق طلق، ليبثّ أسباب القوّة والنشاط في أجساد هدّها دوار البحر، وليس ذلك بحسب، بل أثر في بثّ القوة في عضد الكادحين، رؤية اليابسة المباركة مجدّدا، ليذكّرهم بأن الوطن الأمّ، كان شاغلهم الأول .

بدا أنّنا بعد ساعة، قد تخطّينا مضايق جبل طارق، ولاحت عن يميننا هضاب أفريقيا العالية والمشوبة بصفرة، بسفوحها المتوارية في زرقة السّديم، وذراها التي تلفّها الغيوم، وهذا نفسه ما ورد في الكتاب المقدّس " السّحب والظّلمة تغشي الأرض " أظنّ أنّها أبلغ ما ينطبق على تلك البقعة من أفريقيا بخاصّة من عبارات . وظهر عن يسارنا قباب إسبانيا المضلّعة بالجرانيت . تبلغ سعة المضيق ثلاثة عشر ميلا فحسب، بأضيق قطاع فيه .

كان مشهد الأبراج الحجريّة القديمة النّادر، والذّي بدا بطول السّاحل الإسباني، خلال فترات قصيرة متباعدة، يميل إلى الطّابع المراكشيّ، وقد تأمّلناه مليّا فيما بعد، واستشرفناه بصورة أفضل من تلك . درج المراكشيون الأوغاد في الأزمنة القديمة، على الإبحار بطول السّاحل الإسباني في قواربهم، حتّى لاحت لهم فرصة مواتية لاستعراض أنفسهم، فقاموا بالانقضاض والاستيلاء على إحدى القري الإسبانيّة، وحملوا في طريق عـودتهم كل ما استطاعوا حمله من حسناوات القرية . أتي هذا العمل أكله وذاع في الآفاق . أقام الإسبان أبراج المـراقبـة هذه، فوق التّلال، لتعينهم على مراقبة الطّامعين من المراكشيّين بصفة دائمة . بدت الصّورة رائعة في عيون آخرين، ضجروا ببحر لا يستقرّ على حال، وسرعان ما طغت مشاعر البهجة على السّفينة كلّها . بالانبهار بذري تعتمر السّحاب، وأراض خفيضة تسدر في عتمة السّديم، ثم برزت بغتة صورة أرقّ من سابقاتها، وجذبت عيوننا كمغناطيس، كانت لسقينة مهيبة بأشرعة تعلوها أشرعة، حتّى صارت كلها كتلة ضخمة مشرعة بفعل الرياح، تقدمت بسرعة على المياه كطائر ضخم . نسينا تماما أفريقيا وإسبانيا، كانت التحيّات كلها للوافد الجميل . وبينما كان الجميع يحدّقون فيها،

مرقت شامخة بجوارنا، ترفرف بنجومها وخطوطها مع النّسيم. وبأسرع من أيّ تصوّر، لاحت المناديل والقبّعات، وانطلقت مجدّدا مشاعر البهجة ! كانت جميلة في السّابق، ورائعة اليوم. أدرك كثيرون منا للمرة الأولى الفرق بين اعتيادهم رؤية علم بلادهم في الدّاخل، ورؤيته خارج الوطن. إنك إن تره، ستري صورة الوطن الحقيقيّة، وتري كلّ أطيافه، وتشعر برجفة تحرّك مياه نهر راكدة .

قاربنا الوصول إلى أعمدة هيركوليس الشّهيرة، ووصلنا بالفعل إلى الهضبة الأفريقيّة المعروفة بـ"هضبة القرد " وهي كتلة جبليّة ضخمة قديمة، اختطّت قمّتها سلسلة من حيد جرانيتيّة . أمّا الهضبة الأخرى، فهي صخرة جبل طارق الهائلة. اعتبر القدماء أعمدة هيركوليس، هي رأس الملاحة البحريّة، وآخر مكان في العالم. لم يكن لدي القدامي وفرة من المعلومات، وحتّى الأنبياء الّذين سطروا كتابا بعد آخر، ورسالة تلو أخرى، لم يشيروا البتّة إلى وجود قارّة عظيمة، على الجهة التّي نبحر عندها، وأظنّ أنّهم كانوا بالضّرورة يعلمون بها .

ظهرت لنا لبضع لحظات كتلة هائلة من الصّخر مستقلة بذاتها، توسّطت عرض المضيق، واغتسلت كل أرجائها بمياه البحر، وبرزت لنا شامخة، و لم نكن بحاجة إلى هراء رحالة جوّال، ليخبرنا بأنّ ذلك هو جبل طارق. يستحيل أن نجد كتلتين بهذا الحجم في بلد واحد .

يبلغ جبل طارق من الطّول نحو الميل ونصف الميل. وحريّ ذكر الارتفاع الذّي يتراوح بين ١٤٠٠ – ١٥٠٠ قدم، ويبلغ عرض سفحه، ربع الميل . يظهر من البحر جانبا منه وطرفا، ليبدو طالعا من البحر في خطّ عمودي، أما طرفه الآخر فليس باستقامة الأول . يهبط جانبه الآخر بانحدار شديد، حيث يواجه جيشا كاملا صعوبة بالغة في ارتقائه . تقع مدينة جبل طارق المسوّرة على سفح هذا المنحدر، أو بالأحري تحتلّ المدينة جزءا من هذا المنحدر. تري في كلّ الأنحاء سواء من جانب الهضبة، وعلى الجرف المتاخم للبحر أو فوق المرتفعات، تري جبل طارق وقد تغطّي بأبنية حجريّة، وعجّ بالمدافع في كلّ اتجاه . ما يجعل المشهد لافتا، زاخرا بالحركة، فيختلف في ذلك عن أيّ موقع آخر، تتأمل جبل طارق منه. يمتدّ داخل البحر على أطراف قطاع ضيّق مسطّح من الأرض. ويذكّر بكتلة من الطّمي على

سطح حصباء. يضمّ الإنجليز إليهم بضع مئات من الياردات. من هذه الأرض المسّطحة عند سفحه، وتمتد "الأرض المحايدة"، عبر قطاع من الأطلنطيّ حتّى البحر المتوسّط لمسافة ربع ميل، وتقدّر بمائتي أو ثلاثمائة ياردة مربّعة، وهي مشاع لكلا الطّرفين .

" أتذهبون إلى فرنسا عبر باريس ؟" تردّد ذلك السؤال، نهار السفينة وليلها وبطول المسافة من فايال إلى جبل طارق، وظننّت أنّي لن أسأم من سماع كلمات كهذه تتردد مجددا بالرّتابة نفسها، أو ازداد سأما من الرّد عليها بـ"لا أدري". في اللحظة الأخيرة اتّخذ ستّة أو سبعة منّا قرارا نهائيا في الوقت المناسب بالعزم على الذهاب، وقد ذهبوا بالفعل ، وغشيني في الحال شعور بالارتياح؛ فقد فات كثيرا أوان اتخاذ قرار الآن، ويسعني الآن اتخاذ القرار على راحتي بعدم الذهاب. لا أشك في أن يكون عقلي من الثخانة، بحيث يستغرق الأمر أسبوعا أحيانا حتّى اتّخذ قرارا .

و انظر كيف تكرر المنغصات ذاتها . لم ينقض وقت طويل على إزاحة الهمّ الإسباني عن كواهلنا، حتّى جاء الأدلاّء السياحيين بهمّ جديد، من تكرار مملّ لحكاية قديمة لا تلقى من المرء اهتماما من الوهلة الأولى

" يطلق على تلك الهضبة العالية التّي هناك " كرسيّ الملكة "، ويحكى أن إحدى ملكات إسبانيا وضعت لها كرسيّا هناك، وقت أن كانت القوّات الفرنسيّة والإسبانيّة يحاصران جبل طارق، وقيل إنّها لن تتزحزح عن مكانها إلاّ إذا أنزلت القوّات الإنجليزيّة علمها من فوق الحصن . فإن لم يكن الإنجليز من الشجاعة، بحيث ينزلون العلم لساعات من النّهار، فلن تحنث بقسمها، أو تواجه الموت في المكان نفسه ".

امتطينا حميرا وبغالا ومضينا في دروب ضيّقة شديدة التحدّر، وخضنا دهاليز سريّة فجّرها الإنجليز في بطن الصّخر، على هيئة أنفاق واسعة كأنفاق السّكة الحديديّة، وعلى مسافات قصيرة تفصل بينها، ظهرت من خلال فتحات في الصخر مدافع ضخمة، تشرف على البحر وتكشّر عن أنيابها، وتتحرّك بحريّة من خلال فتحات الإطلاق على ارتفاع خمسمائة أو ستمائة قدم فوق المحيط . يبلغ طول هذا النّفق ميلا أو نحو ذلك، وقد استنفذ هذا بالضّرورة الكثير من المال والجهد الحثيث . تشرف مدافع المنصّة على شبه الجزيرة وموانئ كلا البحرين. وأعتقد أنه كان من الخير ألاّ يكونا هناك. حيث يصّعب على

جيش من الجيوش. تسلّق الحائط الصّخري العموديّ بأيّة وسيلة . ورغم هذا فإنّ فجوات إطلاق النّار العالية يمكنها استشراف مناظر رائعة للبحر. تمكنّا من إلقاء نظرة استشرافية سريعة من مكان بعينه لصخرة بارزة عميقة، يؤدّي تجويفها غرفة كبيرة مجهزة بمدفع ضخم، ذات منافذ لإطلاق النّار، على أحد التّلال القريبة، قال أحد الجنود :

" يطلق على هذه الهضبة الظاهرة هناك، " كرسيّ الملكة " وسميّت كذلك لأنّه حدث ذات يوم ، أن وضعت إحدى ملكات إسبانيا، مقعدها هناك، في أثناء حصار القوّات الفرنسيّة والإسبانيّة لجبل طارق، وقالت إنّها لن تتزحزح من مكانها قبل أن ينزل العلم الإنجليزيّ من فوق الحصن . وإذا لم يكن الإنجليز من الكياسة بحيث يأتي يوم ينزلون فيه العلم لبضع ساعات، فإنها لن تتراجع عن قسمها أو تموت في المكان نفسها" .

توقّفنا فترة طويلة بأعلى مكان في جبل طارق، وليس من شكّ أنّ يدرك البغال الإعياء، ومن حقّهم أن يخلدوا إلى الرّاحة. كان الطّريق الحربيّ مرصوفا لكن أغلبه كان أكثر انحدارا. بدت الصورة رائعة من حيد الجبل الضيّق، وقدبدت [illegible]ن من هناك قوارب ورقيّة صغيرة، وتحوّلت بالمناظير المكبّرة إلى سفن ضخمة . ذكروا أن السّفن الأخرى كانت تبعد عنّا بمسافة خمسين ميلا، وربّما ستّين. ولا تري بالعين المجردة، ويمكننا رؤيتها بوضوح بالمناظير المكبّرة . نظرنا إلى السّفح، على جانب من الجبل، وشاهدنا عددا هائلا من بطّاريّات المدفعيّة، على الجانب المؤدي مباشرة إلى البحر .

غشيني دليل فضوليّ يعمل لجماعة أخرى، بينما أنا مستند إلى أحد الاستحكامات، لأنعم ببعض الرّاحة، وأبرد رأسي الحار بالنسيم العليل وقال :

" سنيور، هذه الهضبة التّي هناك، يطلقون عليها كرسيّ الملكة-" .

" حنانيك يا سيّد، فأنا يتيم ولا حيلة لي في بلد غريب، فحذاري، ثمّ حذاري، أن تؤذني بمزيد من تلك القصّة الخرافيّة القديمة اليوم " .

استخدمت هنا اللّهجة الزاجرة، وأعد بألاّ أفعلها مجدّدا، ولكن لم يكن لدى المرء طاقة بتحمل تلك الاستثارة. وإنك إ ن تعرضت لمضايقة على هذا النّحو، وأنت تستشرف منظرا طبيعيا رائعا يجمع أفريقيا وإسبانيا ويترامي البحر الأبيض تحت قدميك. ورغبت أن تنعم

النَظر وتستمع وأن تتزوَد من الجمال في صمت، فلن يسعك لحظتها إلاّ التعنيف بلهجة أشدّ من تلك التي استخدمتها .

تعرض جبل طارق مرّات عديدة من الحصار الطّويل، استمرت إحداها ما يقارب السنوات الأربع. (وقد تم فضّه في النّهاية) . استولى عليه الإنجليز، وحدهم، بخدعة حربية. والمدهش أنّه ما حلم أحد من قبل، بإنجاز مهمة مستحيلة كالاستيلاء عليه بالقوّة، رغم السعي إلى ذلك أكثر من مرّة.

كان المكان في قبضة المراكشيّين على مدار ألف ومائتي عام، ولا يزال لهم حصن قديم يطلّ برأسه حتّى الآن منذ ذلك التّاريخ القديم، يطلّ عابسا وسط المدينة، بعد أن افترشت الطّحالب أسواره، وانتشرت على جنباته، آثار ما أطلق من قذائف، في أثناء المعارك، ومرات الحصار التّي طواها النّسيان الآن، اكتشف منذ فترة طولية حجرة سريّة تقع داخل الصّخرة الواقعة خلفه . ضمّت سيفا ظهرت براعة صّنعته، وقليل من الدّروع القديمة، لم يتمّ تحديد تواريخها الضّاربة في القدم، ويفترض رجوعها إلى عصر الرّومان .

عثر على درع رومانيّ وآثار رومانيّة مختلفة داخل كهف في البحر يقع على أطراف جبل طارق، ويذكر التّاريخ أنّ الرومان قد استولوا على هذا الجزء من البلدة، ما يناهز أوائل المسيحية، ويبدو أنّ هذه الأشياء هي ما تؤكّد الرّواية .

يوجد في ذلك الكهف أيضا عظام بشرية مغطاة بطبقة كلسية شديدة الصلابة والسمك، وقد أرتأي أهل الحكمة أن أصحابها، لم يعيشوا عصر الطّوفان فحسب، بل عاشوا قبل ذلك بعشرة آلاف عام . لعلهم على صواب، ويمكن تقبل دعواهم ، ولكن ما دام أولئك العقلاء لم يستطيعوا إضافة المزيد في هذا الشّأن، فإنّ ما ادّعوه قد مرّ مرور الكرام. عثر في هذا الكهف أيضا على هياكل بشرية، وحفريات لحيوانات موجودة على نطاق واسع في كل أنحاء أفريقيا. وليس في الذاكرة أو الروايات القديمة ما يشير إلى ما يؤكد وجودها في أيّ جزء من إسبانيا، خلا هذه القمّة المعزولة من جبل طارق! هناك رأى مفاده أنّ النّفق الواصل بين جبل طارق وأفريقيا كان يوما ضمن اليابسة. وأنّ المضيق المنخفض والواقع في المنطقة المحايدة، والذّي يصل بين جبل طارق والتّلال الإسبانيّة من خلفه كان بحرا يوما ما، وأنّ وجود تلك الحيوانات فوق جبل طارق (بعد تحوّلها إلى حفريّات، ويحتمل

وجود الكثير منها) قد تعرَضت بالطَبع للانقراض، حين وقع ذلك التحوّل الكبير . تمتلأ التّلال الأفريقيّة المواجهة للنّفق بالقردة، وهناك قردة الآن على هضبة الجبل (جبل طارق) وسوف تبقى هناك، ولكن ينعدم وجودها في إسبانيا ! وذلك أمر يستحقّ البحث.

توجد إحدى الثّكنات العسكريّة الإنجليزيّة، في جبل طارق. يتراوح قوام أفرادها بين ستّة وسبعة آلاف رجل، ترى كثيرين منهم باللّباس الأحمر الزاهي، والأحمر والأزرق، والألبسة الدّاخليّة النّاصعة، والزّي الغريب الذي يلبسه سكّان المرتفعات الإسكتلنديون، الذى يعرّي السّاق إلى ما فوق الرّكبة، وتري النّجلاوات من الفتيات الإسبانيات، قادمات من سان روكوي، والحسان المراكشيّات المبرقعات (وأظنهن مليحات)، قادمات عن طريقه، وكذا التّجار المراكشيين القادمين من فاس، وقد اعتمروا العمامة، وتمنطقوا بالأحزمة، ولبسوا السّراويل، وأولئك الهائمين على وجوههم من المحمّديين، الشّعث المهلهلين، حفاة الأقدام، والقادمين من تطوان، وطنجة بعضهم ببشرتهم السمراء والبعض الآخر تميل إلى الصّفرة، وآخرين يماثلون المداد الخالص في سواد البشرة، أمّا اليهود القادمون من كلّ حدب وصوب، فقد لبسوا الجبردين واعتمروا القلانس الضيّقة وانتعلوا الخفاف، وبدوا على الهيئة نفسها التي يظهرون بها في اللّوحات وعلى المسارح، ولا شكّ أنّ هذا هو حالهم منذ ثلاثة آلاف عام . يمكنك بسهولة أن تعرف أنّ قبيلة أفراد على شاكلتنا، (يستخدم الحجّاج هذا التّعبير بطريقة أو بأخرى، لأنّهم يسيرون زرافات، داخل هذه البلدان الأجنبيّة، بطريقة الهنديّ الذى يشعر بالاغتباط بذاته واستقلاليته)، قدموا من خمس أو ستّ عشرة ولاية، أمريكيّة، وأتيح لهم فرصة متابعة أحدث عرض متنقّل للأزياء .

يذكرني الحديث عن حجّاجنا، بأن واحدا أو اثنين منّا أحيانا ما كانا يصدّران القلق. لن أدرج رغم ذلك ضمن تلك القائمة ذلك "العالم ببواطن الأمور". ومفاد ذلك أن "العالم ببواطن الأمور" شيخ ساذج يتسم بالغباء، يلتهم وحده وجبة لأربعة أفراد ويبدو أكثر معرفة مما لدي الأكاديميّة الفرنسيّة بقدّها وقديدها من حقّ بالاطّلاع، لا يستخدم البتّة كلمة من مقطع واحد، إذا تمكن من التّفكير في كلمة أطول. و لا يعرف بكلّ الفرص المتاحة له مغزي لهذه الكلمات الطويلة التي يستخدمها. أوحتى يضعها حتّى في موضعها المناسب، ويدلي ببساطة تامة برأى يستعصي فهمه على أحد، ثم يؤكده وهو يغبط ذاته بشواهد من كتّاب لا وجود لهم، وحين يشعر بوقوعه في حيص بيص . يتسلل في النّهاية إلى جانب

آخر مما تستفسر عنه. زاعما أنّه حاضر الذّهن طيلة الوقت، و يردّ عليك بما حاججته به نفسه، بعبارات ضخمة لمجرّد المحاججّة، وينطق بها على نحو ما صدر منك. كأنّها لم تخرج إلاّ من شفتيه. تراه يقرأ فصلا من دليل الرّحلات، ثمّ يخلط الحقائق بعضها بعضا، مع تردّي ذاكرته، ويخلص من ثمّ إلى إلقاء تبعة ذلك كلّه على شخص بعينه. وكأنّ داء المعرفة قد أصاب عقله لسنين، وأنّه حصّل علومها جملة واحدة من صفوة من رحلوا عن الدّنيا من الكتّاب، ومن كتب نفذت نسخها من الأسواق. أشار هذا الصّباح بيده خارج النّافذة، قائلا :

" ألا ترى ذلك التلّ الرّابض هناك فوق السّاحل الأفريقيّ ؟ جدير بالذّكر أنّه أحد وسائد هيركويلز. وأن الوسادة الأخيرة متاخمة لها " .

" الأخيرة، يا له من لفظ طيّب، لكنّ الوسادتين ليسا على الجانب نفسه من المضيق ". (أدركت لحظتها أنّه قد خدع بجملة عابرة في كتاب الدليل) .

" حسنا، لا يعتدّ هنا برأيك أو رأيي . لأنّ بعض الكتّاب يبينون ذلك على هذا النّحو. وبعضهم على نحو مغاير . لم يرد شيئا بهذا الخصوص عن جيبون القديم، بتهربه من تتمتها، ولكن ها هو ذا رولا مبتون، ما تراه يقول ؟ عجيب لقوله بأنّهما لا يقعان على الجانب نفسه، وقول ترينكوليان، وسوباستر، وسيراكوس، ولانجومارجانبل " .

" أوه، ذلك صحيح، هذا يكفي . فإن كان لك باع في ابتكار كتّاب وشواهد، ولن أعقّب بالمزيد، ولندعهما يقعان على الجانب نفسه " .

لم نأبه بالعالم ببواطن الأمور، كما أننا نحبه، ويسعنا تحمّله بأريحيّة كبيرة، وكان لدينا على السّفينة شاعر وجاهل مغامر طيب القلب، وهذان مصدر قلق الجماعة . يقدّم أحدهما نسخا من مقاطعه الشعرية إلى القناصل والضّباط المساعدين وقباطنة السّفن، ومديري الفنادق، والعرب، والهولنديين، وكلّ من يستسلم للعذاب الأليم بكل ما تحمله الرّقة من معنى. يلقى شعره على ظهر السّفينة قبولا كبيرا، مع أنّه حين كتب كلمات قصيدة "أغنية للمحيط وسط العاصفة " في نصف ساعة فحسب، وكتب بعدها بنصف ساعة قصيدة " مناجاة للدّيك في قلب السّفينة "، قد اعتبر التنقل بين الأوزان العروضيّة. هبط عليه دون سابق إنذار، لكنّه حين يرسل فاتورة شعر مقفّى إلى حاكم فايال، وأخرى

إلى القائد العام لقوّاتها المسلحة، وآخرين من رجال الدّولة في جبل طارق، مع اطراءات من شاعر السّفينة الأوحد، فذلك ما لم يعهده الرّكّاب منه.

أمّا الشّخصيّة الأخرى التي ذكرتها، فهي لشّاب قليل الخبرة والذّكاء، يفتقر إلى الثّقافة والمعرفة، رغم أنّه يوما ما سيلمّ بذلك كلّه، لو جمع بين الأجوبة واستفساراته . عرف في السّفينة بـ "علامة الاستفهام " ، ومع ترددها مع تكرارها اختصر تعريفه إلى "الاستفهام " . زجّ بنفسه مرّتين طلبا للظّهور، أشاروا في فايال إلى أحد التّلال، وأخبروه بأنّ ارتفاعه يبلغ ثمانمائة قدم وطوله أحد عشر، وأخبروه بوجود نفق طوله ألفي قدم وارتفاعه ألف قدم، ممتدّا من بداية التلّ، إلى نهايته، فصدّق ذلك، وكرره على مسامع كلّ من التقى بهم، وبحث الأمر مع كلّ منهم، وقرأه لهم من مفكّرته، خرج بملحوظة مفيدة ألمح بها شيخ محنّك من الحجّاج بقوله :

" إنها في الحقيقة تعد ملاحظة جديرة ببعض الاهتمام، بشأن نفق فريد يبعد تماما عن قمّة الهضبة لمسافة تقارب مائتي قدم، يبرز أحد أطرافه من الهضبة لمسافة تسعمائة قدم " .

كان هنا في جبل طارق يحاصر، المثقّفين من الضبّاط البريطانيّين ويواصل إغاظتهم بالشأن الأمريكي في تبجّح، وبما تقدّمه أمريكا للعالم من عجائب، تحدّث إلى إحدهم عن زوج من المدافع نحملها على ظهر السفينة، وعن قدرتها على دكّ جبل طارق من البحر الأبيض .

يقوم في اللّحظة الرّاهنة ستّة منّا بنزهة خاصّة بتوصية منا، نقوم أيضا بحشر أكثر من نصف قائمة الرّكاب البيض للسّفر على ظهر إحدى البواخر الصّغيرة، إلى مدينة طنجة المراكشية القديمة، الواقعة في أفريقيا . لم نكن نرغب من ذلك كلّه سوى التّرفيه عن أنفسنا، لا قبل لأحد أن يفعل فير ذلك سيّما حين يخوض مياه بحر رقراق، ويتنسّم هواء على لا في قلّة الأرض المشرقة، فالقلق ليس له مقاما هنا، فنحن بمنأى عن قبضته .

وصل بنا الأمر إلى الإبحار دون أن نأبه بحصن مالاباط المحدق بنا (معقل الإمبراطور المراكشيّ) ودون أدني شعور بخشية منه، وضع الحصن كلّه تحت السّلاح، وبدا متوعّدا، ولم نأبه بذلك أيضا . تقدّم الحصن بأكمله ثمّ تراجع إلى حدود سورد المنيع، في مشهد مهيب، ولم نجفل منه البتّة .

أظنّنا حقيقة لا ندرك معنى الخوف. استفسرت عن اسم موقع حصن ملاباط العسكريّ. فذكروا اسم محمّد على بن سانكوم . قلت إنّه قد تبدو فكرة طيبة لو احتفظ بمزيد من المواقع العسكريّة لدعمه، لكنهم أجابوا بالنّفي، وقالوا إنّه لم يكن يهمّه سوى الإحتفاظ بالموقع ذاته، وكانت لديه القدرة على ذلك، لكنه لم يفعل، واحتفظ به عامين. وتلك بينة لا يمكن لأحد إنكارها، حيث لا يوجد ما يضارع الصّيت .

يلحّ عليّ ذلك بين فينة وأخرى، ذلك القفّاز الذّي اشتريته من جبل طارق اللّيلة الماضية. كنّا أنا و"دان" وطبيب السّفينة، نسير في الميدان الكبير، نصغي إلى الألحان الجميلة التي تؤدّيها الفرق العسكريّة، ونتأمل جمال وأناقة الإنجليزيات والإسبانيّات، حتّى التقينا في الطريق إلى المسرح في التّاسعة، بالجنرال، والقاضي، والعميد البحريّ، والبكباشي، ومبعوث الولايات المتّحدة إلى أوروبّا، وآسيا وأفريقيا، وكانوا في طريقهم إلى مقر النادي لتسجّيل ألقابهم العديدة، وإلغاء القائمة الخاصّة بأجرة سّفرهم ورّكوبهم، وأخبرونا بذهابهم إلى متجر تجزئة صغير يبيع مختلف السّلع، متاخم لدار القضاء، لشراء بعض القفّازات المصنوعة من جلد الشاة، وحدّثونا عن جمالها الآسر، واعتدال ثمنها . بدا لنا الذهاب إلى المسرح بقفاّزات من جلد الماعز سيحمل على التأنّق، واستملحنا الفكرة . قدّمت لي سيّدة في المتجر على جانب من الأناقة، زوجا من القفازات الزّرقاء . لم أكن أميل إلى اللّون الأزرق لكنّها ذكرت أنّ القفازات ستبدو بالغة الرّوعة في يدي. حرّكت تلك اللفتة مشاعري. استرقت نظرة إلى يدي، فبدت لي على نحو أو آخر عضوا متأنّقا . جربت قفازا في اليد اليسرى وانتابني بعض حياء .

ظهر بوضوح، صغر حجم القفاز في يدي. لكني شعرت بامتنان حين قالت :

"أوه، إنّه مناسب تماما ". أدركت مع ذلك نّقيض ما ذكرت.

بذلت جهدا في محاولة تجريبه مجددا لكنّ خاب أملي. قالت :

"آه ! أدرك ميلك ارتداء قفازت قيّمة من جلد الشاه. لكنّ بعض السّادة يتحرّجون كثيرا من ارتدائها ".

كانت ذلك آخر ما كنت أتوقّعه من اطراءات . إنّني لا دراية لي سوى ارتداء ما يصنع من جلد الغزال . بذلت محاولة جديدة، فتمزّق القفاز من أسفل الإبهام بداخل راحة اليد . حاولت إخفاء المزق . واصلت اطراءاتها، وواصلت بدوري محاولة إثبات جدارتي بهما أو الموت في سبيل ذلك .

" آه، يا لك من متمرّس!" (مزقة أخرى بأسفل ظاهر اليد) إنّه مناسب لك، فيدك صغيرة الحجم، ولست بحاجة إلى سداد مقابل، حال تشقّقه. (شقّ بطول وسط القفّاز)، أؤكّد دائما ذلك لدي من دأب من السّادة على لبس قفّازات من جلد الشاة . والفضل في ذلك يعود فحسب إلى طول ممارسة . (تهرّأ تماما كلّ ما كان بأسفل ظاهر القفّاز، كما يرتّد البحّارة، فضلا عن الخيط الفاصل بين الأصابع، ولم يبق منه سوي أشلاء مرعبة) .

شعرت بزهو كبير جرّا ء إدراك ما غاب عنّي . ووضعت القفّاز في يد الملاك . شعرت بغيظ واضطراب، لكنّني حافظت على مشاعر الانشراح. و كرهت من بقيّة الشّباب، إدراكهم تلك الحادثة المثيرة ضمن الأحداث . تمنيت لو أنّهم في يرشو (مدينة فلسطينية) الآن . شعرت بتدن بالغ وأنا أقول فرحا :

" إنّه يفي بالغرض، وهو مناسب لي تماما ، وأنا بدوري أحبّ قفّازا بهذا الشّكل، كلاّ لا عليك، يا سيّدتي، لا عليك، فإنني سألقي بالقفاز الآخر في الشّارع . فالطقس حار هنا ".

كان الجوّ حارّا . و المكان أكثر ما غشيت حرارة . دفعت قيمة القفّاز. وبينما أنا في طريقي إلى الخروج، و انحنائي بأدب جمّ، تأمّلت أنّني اكتشفت وميضا في عين المرأة، ينمّ عن سخرية دمثة، وحين خرجت إلى الشارع ونظرت من خلفي إليها وهي تضحك لسبب أو آخر، تهكّمت بنفسي ساخرا : أوه، مؤكّد أنّك تعرف كيفية ارتداء القفازات من جلد الشاة، أليس كذلك ؟ أنت غبي يغبط ذاته، مهيّؤ لدغدغة أحاسيسك، من أيّ امرأة. ترى في نفسها تجشّم عناء ذلك !".

ساءني صمت رفاقي الشّباب . قطعه "دان" بعد لحظة تأمّل بقوله

" بعض السّادة لايعرفون كيفية ارتداء قفّازات من جلد الشاة. والبعض الآخر خبير به ".

قال الطبيب (وأظنه يوجه حديثه للقمر) :

"من اليسير دوما تحري ذلك. لو أن أحد السادة كان على دراية بلبس قفازات من جلد الشاة ".

ناجي "دان" نفسه بعد وهلة. وقال :

" آه، ولا تتحقق الأناقة في ذلك ، إلاّ بممارسة جدّ طويلة".

" بلي. وقد لاحظت ذلك حقيقة حين يشدّ المرء قفازا من جلد الشاة وكأنه يسحب قطة من ذيلها خارج فتحة جحر، وهو عليم بلبس قفازات من جلد الشاة ، ثم إنه هو".

" هذا يكفي أيها الشباب، يكفي تماما! أظنك تعتقد بأنك ذكيّ. لكنني لا أظنّ ذلك ذلك. ولو ذهبت، وأبلغت أيّ أهل القيل والقال في السفينة بهذا، فلن أغفر لك ذلك. هذا كلّ ما في الأمر".

تركوني بمفردي. اعتدنا ترك أحدنا بمفرده للحيلولة دون استيائه من دعابة قد تسيء إليه. لكنهم قد اشتروا بدورهم لقفازات مثلي. وتخلصنا منها جميعا هذا صباح أمس. فقد كانت من الرداءة، والقبح. كما شابها بعض البقع الكبيرة الصفراء، ولم تعد تصلح للبس أو ظهور بها على الملأ . تسلينا بعدم إدراك تك الملاك الأنثي. لكننا لم نبخسها قدرها، لأنها قد فعلت ذلك من أجلنا .

طنجة ' قبيلة من الصناديد المراكشيين. تخوض في البحر اللجيّ. يحملنا أهلها على ظهورهم، للانتقال من القوارب الصغيرة إلى الساحل .

الفصل الثّامن

شيء رائع بحقّ! فليغنم من ذهب إلى إسبانيا بما فيها. أما بالنسبة لجماعتنا الصّغيرة فتلائمها كثيرا تلك الأراضي التّابعة للإمبراطور المراكشي. لأنّنا نهلنا حتّى الآن من إسبانيا الكثير، خلال وجودنا في جبل طارق . فطنجة هي المكان الذى طالما تشوقنا لرؤيته. وجدنا في أماكن أخرى من المشاهد، والأشخاص ما يلفت، بل غالبا ما حظينا بخليط من مشاهد وأناس ألفناهم كنا قد من قبل، لتفقد الطّرافة هنا زخمها. كنّا نتوق إلى شيء جديد تماما. لا تثار في جدّته الرّيب. جديد من قمّته إلى قاعه. ومن محيطه إلى مركزه، جديد في باطنه وظاهره. وفي كلّ ما يحيط به. ولا يقلّل شيء حوله من جدّته البتّة . لا يذكّرنا ببشر آخرين. أو بأرض أخرى تحت الشّمس. ومن العجيب أن عثرنا على ضالّتنا في طنجة . لم يسبق أن رأينا منها شيئا في غير اللّوحات. ولم يكن في الغالب في تلك اللّوحات، كما أنّنا لن نثق فيها بعد الآن، بعد أن دأبت على المبالغة، لكنّها قد تحفل بالكثير من سمات الغرابة والخيال عند تصويرها الواقع . ولكن تأمّل افتقارها إلى الاعتدال في تناول انفلات الطبيعة، وتناول الخيال. وقد لا تنقل أيضا نصف الحقيقة إنّ طنجة بلد غريب، ذلك لو افترضناها بلدا بالفعل. لأنّه لا يمكن العثور على شخصيّتها الحقيقيّة في أي كتاب عدا قصص ألف ليلة وليلة. لا وجود هنا لبيض البشرة فيمن يحيطوا بنا . هنا مدينة أحكم تطويقها وسدّت منافذها بجدار حجريّ ضخم، عمره يزيد على ألف عام . تتكوّن أغلب الدّور هنا من طابق أو اثنين. أقيمت على جدر سميكة من الحجارة. لصقت واجهاتها بالجصّ، وهي مربّعة كالصّناديق الكبيرة. ومسطّحة من الخارج كأرضياتها. وليس لها أفاريز، طليت كلها بماء الجير. احتشدت هذه المدينة بقبور بيضاء كالثّلج . أقيمت أبواب بيوتها على صورة قنطرة تميّزها عن غيرها. كتلك التي نراها في اللّوحات المركشيّة. وبلّطت أرضياتها ببلاط متعدّد الألوان على شكل المعيّن (الهندسيّ). داخل مربّعات خزفيّة مشرّبة بزخارف مختلفة الألوان. صنعت داخل أفران في فاس. وآجر أحمر اللون وكتل مستطيلة

من قرميد، لا يبليها مرور الزّمن، غرفها غير مجهّزة بأثاث (على نمط الدّور اليهوديّة، باستثناء قاعات الاستقبال الفسيحة (الدّيوان)، تلك التّي لا يمكن لإنسان أن يعرف أن المرور إلى داخل جدرانها المقدّسة محرم على أيّ كلب مسيحيّ . تتّخذ طرقاتها الطّابع الشّرقيّ، عرض بعضها ثلاثة أقدام وبعضها ستّ لكن اثنين منها فحسب يزيد عرضهما على اثني عشر قدما، ويمكن لشخص سدّها لو مدّ جسده . أليست هذه صورة من الشّرق ؟

يوجد هنا من الأشاوس من أهل البادية المراكشيّين، من يفاخر بتاريخ يعود إلى عصر الظّلام، ومن اليهود الذّين فر أسلافهم إلى هذا المكان منذ قرون عديدة، وهنا السّود الريفيّين من منطقة الرّيف القتلة بالنّشأة والقادمين من الجبال، وهنا الزّنوج القادمين من أنسال أصيلة، ممن يحملون بشرة موسى السّوداء، وأيضا الدّراويش المولويين، والمئات من ذوي الأصول العربيّة، ومن كافّة المشارب والنّحل، ممّن يحملون سيماء غريبة تلفت الأنظار .

كما أنّ ما يضعونه عليهم من ثياب، يخرج على كل مألوف . فهذا مراكشيّ مبرنز (من البرونز)، يعتمر عمامة ضخمة بيضاء، وسترة تثير حياكتها العجب، ونطاقا يجمع بين اللّونين القرمزيّ والذّهبي، تعدّدن طيّاته حول الوسط، وسروالا وصل إلى ما تحت ركبته بقليل، يضمّ بداخله من المتاع ما يقارب في الطول عشرين ياردة، وسيفا معقوفا مزخرفا وحيد الشّفرة، ولا يستر قصبة ساقه شيء، ولا يستر قدمه جورب، إلاّ خفّين صفراوين، وقد زوّد ببندقية، ينافي طولها المنطق والعقل، حيث إنه مجرد جندي، و ظننته إمبراطورا! هنا أيضا المعمّرون من المراكشيّين، ذوي اللّحي البيضاء المرسلة، والأردية البيضاء الطّويلة، والقلانس الفضفاضة، وهنا البدو بالبرانس المخطّطة والملحقة بالقلانس، وهنا الزّنوج والريفيون، حليقو الرّءوس، إلاّ من خصلة شعر مضفّرة طويلة خلف الأذن، مرفوعة إلى جانب من فروة الرأس، وهنا كل جماعات البربر، في ثياب عجيبة الألوان، وكلّها طاله الوضر بطريقة أو بأخرى . وهنا النسّوة المراكشيات اللاتي لفلفن أنفسهن من الرأس إلى القدم، في أردية بيضاء خشنة، ويعزي لهنّ أنّهن دون سائر النّساء، اللاتي تفردن بكشف عين واحدة فحسب، واللاتي لا ينظرن قطّ إلى بني جلدتهنّ، ولا يراهم هؤلاء في العلن، وهنا خمسة آلاف يهوديّ، في السترات الجبردينية الزّرقاء، تمنطقوا بأحزمة وفي أقدامهم الخفاف، ويعتمرون على مؤخر رءوسهم، قلانس صغيرة ضيّقة، وقد صفّفوا

شعورهم، وقصّروها من الجانبين على شاكلة أسلافهم الطنجيّين، الرّاحلين منذ ما لا أدريه من قرون. كان القد م والكاحل عاريان، والأنوف معقوفة تماما، ومنها ماقارب المعقوف. يقارب بعضهم بعضا في الشّبه كثيرا، لدرجة تجعل المرء يعتقد بانتمائهم كلّهم إلى عائلة واحدة. تتسم نساؤهم بالبدانة والملاحة في آن، ويبادلن المسيحي بابتسامة تنمّ عن انشراح جمّ.

فأيّ مدينة عتيقة هذه وعجيبة !

يبدو أن الضّحك والتندّر وتبادل القيل والقال وسط آثارها العتيقة من الوثنية بمكان. في حين كان حريّا بأبناء النبيّ سلامة القول وعفّة اللّسان . هنا جدار مهدّم كان موغلا في القدم، وقت اكتشف كولومبوس أمريكا، واستنهض بطرس الرّاهب، فرسان العصور الوسطى، للإعداد للقيام بالحملات الصّليبيّة، وشهد كذلك حصار شارلمان وأنصاره القلاع المسحورة، وحربه ضدّ الجنّ والعماليق، في عصور أساطير الأولين، كما شهد المسيح وتلاميذه، بعد أن ساحوا في الأرض، ووقفوا حيث يقف هذا الجدار اليوم حين دوّي صوت ممنون بالكلمات، كما ظلّ حيث هو وحيث باع النّاس واشتروا في طيبة القديمة .

قاتل هنا الفينيقيّون، وأهل قرطاجنة، والإنجليز، والمراكشيّون، والرّومان، قاتلوا جميعا للاستيلاء على طنجة، وكلهم كسبوا الحرب، وخسروها أيضا، هذا زنجيّ رث الملبس، شرقيّ السيّماء، من بقعة صحراويّة في قلب أفريقيّا. يملأ زقّه الجلديّ، بمياه ينبوع ملوّث كدر، أنشأه الرّومان منذ ألف ومائتي عام . وهناك قنطرة من جسر أقامه يوليوس قيصر، منذ ألف وتسعمائة عام . لعلّ أناسا وقفوا عند هذا الجسر، وشهدوا المخلّص وليدا بين يدي العذراء .

تجاور الجسر، بقايا ترسانة للسفن، كان يوليوس قيصر قد أمر بأن تجري صيانة سفن أساطيله بها وتحمّل تلك السفن بالحبوب، في أثناء غزوه بريطانيا، قبل ولادة المسيح بخمسين عاما .

هنا تحت النّجوم السّاكنة، تبدو هذه الطّرقات القديمة وكأنها محتشدة بأشباح من العصور السّحيقة . تقع عيني الآن على مكان، مقام فوقه نصب تذكاريّ، ذكر تفاصيله المؤرخون الرومان منذ ما لا يقلّ عن ألفي عام نقشت عليه عبارة

"نحن الكنعانيّون. نحن من طردنا من أرض كنعان. من قبل اللّص اليهوديّ يوشع".

طردهم يوشع من هناك فوفدوا إلى هذا المكان . لا يوجد هنا كثيرون من قبيلة اليهود، التّي فر أسلافها إلى هناك بعد غزوتهم الخاسرة ضدّ داود الملك، ولا يزال أحفادهم يقعون تحت أثر اللّعنة، ويلتزمون بوقوعهم تحتها.

ظلّ التّاريخ يذكر طنجة ثلاثة آلاف عام . كانت رغم ضآلة شأنها، مدينة، حين نزل إليها هيركوليس منذ أربعة آلاف عام، وهو يلبس فراء الأسد . التقى على هذه الطرقات أنيتوس، حاكم البلدة، وسحق جمجمته بهرّاوته . وتلك هي الطّريقة التّي كانت سائدة بين أشاوس تلك الأيّام . أقام أهل طنجة (وكان يطلق عليهم في تلك الأيّام الطّنجيز) في أكثر الأكواخ قماءة، واكتسوا جلود الحيوانات، وحملوا الهرّاوات، وكانوا بوهيميّي النزّعة، شأنهم في ذلك شأن حيوانات مفترسة، وكانوا يندفعون دوما لقتال بعضهم بعضًا . لكنّهم كانوا في الوقت نفسه يمتلكون من الثّروات ما يغنيهم عن الشّقوة والكدّ. كانوا يعيشون على نتاج الأرض ممّا تجود به الطّبيعة . وكان مقرّ إقامة ملك البلدة في البستان الذّي يعرف بـ"هيسبرايدس"، وهو يبعد عن هذا المكان سبعين ميلا، بانحدار نحو السّاحل . زال الآن عنها ما كان من زراعات كالتّفاح ذهبيّ اللون، والبرتقال ولم يتبقّ من ذلك شيء الآن.

يسلّم علماء الآثار بوجود شخصيّات مثل هيركوليس، في العصور القديمة، ويتّفقون على أنّه كان رجلا يتمتّع بالنّشاط والقوّة، وحب المغامرة، ولكنّهم يعتقدون أنّه كان أحد آلهة الخير والنّماء، لأنّ وجوده باعتباره بشرًا لا يتفق وطّبيعة البشريّة .

توجد فوق منخفض هنا، قاعدة سبارتل، ونرى فيها الكهف الشّهير بكهف هيركوليس، حيث أسر ذلك البطل لدى هزيمته ونفي من ريف طنجة. يزخر هذا الكهف بنقوش مكتوبة بلغات مندثرة. تجعلني أعتقد حقيقة بأنّ هيركوليس هذا لم يكن يقوي على كثرة التنقّل من مكان لآخر، ولم يحتفظ بدفتر يسجّل فيه يومياته .

تقع على بعد سفرة خمسة أيّام من هذا المكان أي مسافة مائتي ميل، إحدى المدن القديمة، لم يرد شيء عن تاريخها في الحوليّات التّاريخيّة، أو الرّوايات . كما أنّ ما فيها

من قناطر، وأعمدة وتماثيل، يبيّن أنّها أقيمت بأيدي أجناس من البشر كانت تتمتّع بقدر كبير من الوعي .

يقارب جحم المتجر أو الحانوت في طنجة، حجم حمّام عاديّ في بلد متحضّر . يجلس كل من التّاجر المسلم، والسّمكريّ والإسكافيّ، أو بائع الكعك المسكّر، على أرضيّة حانوته ممدّد السّاقين، ويناولك ما تريد شراءه ولا يبرح مكانه . تستطيع استئجار صفّ من عيون أبراج الحمام هذه، بخمسين دولارا في الشّهر الواحد . يحشد السّوق بسلال التّين، والبلح والبطّيخ، والمشمش، إلخ، يأتي بها روّاده وسط صفوف من البغال المحمّلة، لا يزيد طول الواحد على كلب نيوفاوند لاند . يزخر المشهد بالحيويّة والنّشاط والجاذبيّة، وتفوح منه رائحة محكمة الجنح. أقام تجّار العملات الأجنبيّة اليهود أوكارهم في أماكن متقاربة، تراهم طيلة اليوم لا يتوقّفون عن عدّ عملات النّقد البرونزيّة، ونقلها من أحد سلال الحبوب إلى سلة أخرى . وأظنهم في هذه الأيّام لا يحصون الكثير منها، لأنني لم أر منها سوى البالي والقديم الذي يعود تاريخه إلى أربعمائة أو خمسمائة عام ليست من الفئة الكبيرة. ذهب جاك لفك ما يعادل نابليونا، ليكون لديه من المال، ما يمكّنه من الاستفادة من رخص الأشياء السّائد في البلد، ورجع إلينا وقال إنّه نزح البنك نزحا، إذ اشترى أحد عشر كوارتا من العملات النّقدية، وأنّ مدير المنشأة خرج إلى الشّارع، لتكملة فرق حساب العملات". اشتريت أنا ما يقارب باينت من عملتهم بشلن واحد مع أنّي لا أحب الزهو بما لديّ من نقد، فأنا لا ألق بالا إلى الثّراء البتّة .

كان لدى المراكشييّن عملات معدنيّة وفضّيّة صغيرة الحجم، وهناك أيضا بعض السّبائك الفضّيّة الرّقيقة ما يعادل في القيمة دولارا للسّبيكة الواحدة، مع وجود ندرة في تلك السّبائك لدرجة أنّ فقراء العرب حين يرون واحدة، يلتمسون منك الظّفر بقبلة منها .

لديهم أيضا من العملات الذّهبيّة ما تعادل قيمته الدّولارين . يذكّرني ذلك بشيء. ذلك أنّه حين كانت مراكش في حالة حرب، كان السعاة ينقلون الرّسائل عبر المدينة، ويتقاضون عنها رسوم بريديّة كبيرة . وكانوا من آن لآخر يقعون في قبضة عصابات النهب. التّي كانت تستلب ما معهم من نقد . لذا فإنّ لاحترازهم من هذا الأمر، وما سبق من تجارب، كانوا بمجرّد جمعهم دولارين. يقومون باستبدالهما، بقطعة ذهبيّة واحدة من تلك . وحين

كان أولئك اللصوص يشرعون في مهاجمتهم، كانوا يبتلعون السبيكة على الفور. أتت تلك الخطة أكلها في البداية. لأنّ أحدا لم يشكّ في أمر هم، ولكنّ اللصوص بعد ذلك قدموا لحامل البريد الذكي الصادر إلى الولايات المتّحدة الأمريكية، دواء مقيئا، وجلسوا يراقبونه.

كان حاكم مراكش في ذلك الوقت رجلا ليّن العريكة، وكان ضبّاطه العظام يفوقونه في هذا، ولم يكن يطبّق هناك نظاما ضريبيًا ثابتا. ولكنه كان حين يريد جمع المال، كان يفرض جباية على الأثرياء، فإما السّداد أو الحبس. ومع ذلك تجاسر قلّة من المراكشيين على جمع الثروات. وكان ذلك ترفا محفوفا بمخاطر كبيرة. كان غرور أحد أولئك الأغنياء أحيانا يقودهم إلى التباهي بثروته، فكان الحاكم أو الباشا آجلا أو عاجلا يلفّق له تهمة، أو شيء من هذا القبيل، فيتحقق بذلك مقصده، فيصادر ممتلكاته. هناك في المملكة بالطّبع كثير من الأثرياء، لكنّهم خبّأوا أموالهم، ولبسوا رثّ الثّياب، وادّعوا الفاقة، ليقوم الحاكم بدوره من آن لآخر باعتقال من يشكّ في ارتكابه جرم الثّراء، ويضغط عليه بشتّى الطرق حتّى يجبره على الكشف عن خبيئته.

يحتمي اليهود والمراكشيون أحيانا بقناصل الدّول الأجنبيّة ليتمكنوا بذلك من إظهار ثرواتهم أمام الحاكم بسبب ما يتمتّعون به من حصانة.

الفصل التّاسع

كنّا على وشك التخلّص من بلاشر الطّائش من مغامرة ما بعد ظهيرة أمس من وصولنا إلى هذا المكان. ركبنا البغال والحمير فور وصولنا وتنقّلنا برعاية الرجل الكريم الوقور والجليل الحاجّ محمّد العمرتي، (عسى الله أن يكثر من عشيرته)، إذ صح بنا إلى مسجد مراكشيّ جميل، بمئذنة عالية، مزيّنة بمربّعات على شكلّ رقعة الدّاما، وبالخزف من شتي الألوان. وزيّن كلّ جزء من المبني، بالنّسق العمراني نفسه السّائد في مدينة الحمرا (الهمبرا) الإسبانية . أقدم بلاشر ببغلته على عبور بوّابة المسجد المشرعة، فصدر عن رفقة المخيّم، صياح ينبئ بحدوث مصيبة. "حسبك، حسبك" . أعقبه هتاف آخر من سيد إنجليزيّ انضمّ حديثا إلى المجموعة "توقّف حيث أنت" ، معنّفا المغامر. علمنا بعد ذلك بأنّ وضع قدم كلب مسيحيّ على عتبة مسجد مراكشيّ مقدّسة، يعتبر انتهاكا لحرمة المقدّسات، لا تفلح أيّ درجة من التطّهر، في جعله صالحا لصلاة المريد فيه مجدّدا كان بلاشر قد بادر بدخول المسجد، ولم يكن هناك شك في أنه كان سيتعرّض لمطاردة عبر طرقات المدينة، ثم يرجم بالحجارة، وأنه لن يمر وقت طويل حتّى يتعرّض مسيحيّ آخر للاغتيال دون رحمة لو ضبط داخل مسجد. ألقينا نظرة إلى الدّاخل على بلاطا المسجد الأنيقة المشرّبة بالزخارف اللّونيّة، وعلى روّاده وهم يؤدّون الوضوء أمام أحواض ينبجس منها الماء، ولم يسغ المراكشيون الموجودون في المكان نظراتنا حتّى ا للحظة.

توقّفت عن العمل ساعة برج أحد المساجد منذ بضع سنين، ساء ذلك كثيرا مراكشيو طنجة، فقد مر وقت طويل، على إبلال مريض رقيق الحاشية، بلاحول أو قوّة كالسّاعة. على يد أحد الفنيين المهرة. التقى أكابر المدينة في اجتماع أحيط بالسرّية، لبحث المشكلة التي هي سبب الاجتماع. قتلوا الأمر بحثا، ولم يتوصّلوا إلى حلّ، في آخر الأمر قام شيخ جليل من مكانه، ثم قال :

"أيا أبناء النبيّ، تعلمون أنّ كلبا برتغاليّا من السّاعاتية المسيحيين يدنّس بوجوده مدينة طنجة . وتعلمون أيضا أنّه في أثناء إقامة المسجد، كانت البغال والحمير، تحمل الحجارة والإسمنت، وتعبر عتبته المقدّسة، فابعثوا إذن في طلب كلب مسيحيّ يسير على أربع، ليخلع نعليه ويدخل المكان المقدس ويصلح أمر السّاعة، ودعوه بعد ذلك يمضي إلى حال سبيله كما يمضي حمار": لذا فإنّه لو حدث و ألقى بلاشر نظرة على المسجد من الدّاخل، لحيل بينه وبين انتمائه إلى الجنس البشريّ، ولجرّد من صفاته الإنسانية ذاتها. زرنا السّجن، واكتشفنا أنّ نزلاءه المساجين، يصنعون السّلال والحصر (وهذا الشكل الناجع من العقاب، يعدّ أحد مزايا التحضّر البشريّ). يعاقب القتل هنا بالإعدام. اقتيد منذ فترة قصيرة ثلاثة من القتلة إلى خارج أسوار المدينة، وأعدموا رميا بالرّصاص. تبلغ بنادق المراكشيّين من الرّداءة حدّا كبيرا، والأردأ منها رماة المراكشّيين، فهم يقومون في البداية برصّ القتلة البؤساء في صفّ طويل، كأي هدف للرمي، ثمّ يصوّبون عليهم البنادق، فيدفعونهم إلى التّواثب والقفز والرّوغان من الطّلقات، لنصف ساعة من الوقت، ويحدث ذلك كلّه قبل التّوصل إلى تحديد مركز الهدف.

يقطعون يد سارق الماشية اليمني، وساقه اليسري، ويدقّوهما بالمسامير، في ساحة السّوق عبرة للنّاس، لكنهم لا يتقنون قطع الأطراف، حيث يقطعون العضو إلى ما قبل العظام بقليل، ثم يكسرونه . قد يتعافى الجريح أحيانا من جرحه لكنّه في الغالب لا يبرأ منه. المراكشيون رغم ذلك يظهرون رابطي الجأش، إنّ هؤلاء المجرمين، يتحمّلون عملية القطع البشعة برباطة جأش يحسدون عليها دون أن يرمش لأحدهم جفن، ودون أن تهتزّ منه شعرة، أو يصدر تأوّها! فليس لعقاب من أيّ نوع أن يسلب اعتزاز المراكشيّ بشخصه، ولا لصرخة واحدة أن تنال من كرامته.

يعقد الزّواج هنا بالاتفاق بين أولياء أمور الزّوجين. فلا مبادلة للعواطف، ولا للّقاءات السّريّة، أو الرّكوب في الخلاء، أو خصام بين الأحبّة يعقبه تصالح. ولا لقاءات في الصّالات المفتوحة أو المغلقة، ولا شيء البتّة يسبق الزّواج. يقبل الشّابّ الفتاة التّي يختارها أبوه زوجة له، ويرفع بعد ذلك خمارها، فيراها للمرة الأولى. ولو قبلها زوجة بعد ذلك، يستبقيها لديه. لكنّه لو شكّ في عذريّتها، فإنّه يعيدها إلى بيت أبيها، ويفعل الشيء

ذاته إذا اكتشف إصابتها بمرض ما. ولو رفضت إنجاب الأطفال بعد فترة معقولة من زواجها به، تعود أيضا إلى بيت أبيها.

من يستطع من المحمّديين الزواج، يقترن بأكثر من زوجة، مع اعتقادي بأن القرآن لا يسمح بأكثر من أربع زوجات عدول، أمّا بقيّة هؤلاء فمحظيّات. لا يعرف حاكم مراكش عدد زوجاته، بل يظنّهنّ بلغن الخمسمائة حليلة. ولا بأس مع ذلك لو قاربن الدستة أو ما يعادلها بشكل أو آخر.

حتّى اليهود، المقيمين بالدّاخل، كانوا يعملون بتعدّد الزّوجات. حظيت بلمحة خاطفة لعديد من المراكشيّات، (فقد يسفرن عن وجوههنّ، لنيل إعجاب كلب مسيحيّ كونهن بشرا، في غير حضرة ذكر مراكشي)، وإنّني بصدد تقديم خالص إجلالي، للحكمة التّي دفعتهنّ إلى إخفاء تلك الدّمامة المروّعة.

تحمل النّسوة أطفالهن على الظهور، ككل من يعشن في ظلّ البدائية في العالم. يرزح كثير من الزّنوج تحت نير الرّقّ من قبل المراكشيّين. ولكن الجارية بمجرّد أن تصبح محظية لسيّدها، تتحرّر من الرّقّ، وبمجرّد قراءة العبد، السورة الأوّلى من القرآن (وهي تتضمّن أسس الشّريعة) لا يظلّ بعد ذلك في إسار الرقّ.

يحظون في طنجة بثلاثة أيّام عطلة أسبوعيّة. فعطلة المحمّديّن الجمعة، واليهود السّبت، والقناصل المسيحييّن الأحد. واليهود هم الأكثر تشددا في قضاء عطلاتهم. يذهب المراكشّي إلى المسجد يوم عطلته قرب الظّهيرة، كحضوره إليه في كلّ الأيام. يخلع حذاءه لدي الباب، ويؤدّي فريضة الوضوء، ثمّ يصلّي تحيّة المسجد. يتلو ذلك بالصّلاة المكتوبة ويعود مجدّدا إلى عمله. لكنّ اليهوديّ يغلق حانوته، ثم لا يمس أية عملات نقدية، نحاسيّة كانت أو برونزيّة قطّ، ثم يترب يده بشيء لا يقلّ قيمة عن الذّهب أو الفضّة. يحضر بعد ذلك خاشعا إلى الكنيس (المعبد اليهوديّ)، ولا يقوم بطهو شيء، ولا يستخدم النّار في أيّ شأن من شئون حياته، ويمتنع تماما عن ممارسة عمل أيّا كان.

يبلغ من يؤدّي فريضة الحجّ من المراكشييّن، منزلة رفيعة. يلقّبه النّاس بالهادجي (الحاجّ)، ويصير منذ ذلك الوقت شخصيّة ذات شأن. يفد المراكشيون إلى طنجة كلّ عام، ويجهّزون للسّفر إلى مكّة. يقطعون جانبا من الطّريق على بواخر إنجليزية. وتعتبر

دولارات العشرة أو الاثنا عشر قيمة الرحلة كلّها. يزوّدون أنفسهم بقدر من الزّاد، وحين يقصّر قسم الإمدادات في شيء يختصمونه لدي السلطات. (ينطقها جاك بأسلوبه الدّارج، الأثيم). لا يستحّمون في البرّ أو البحر منذ رحيلهم حتّى عودتهم، ويتروواح بقائهم في الخارج عادة ما بين خمسة إلى سبعة أشهر، لا يبدّلون ثيابهم طيلة تلك المدّة ولا يأهلون البتّة غرفة الاستقبال في بيوتهم لدى عودتهم .

كان على كثيرين من النبش بأسنانه وأظافر لوقت طويل، لجمع الدولارات العشرة تكاليف ركوب الباخرة، وحين يعود أحدهم يظلّ فيما بعد مفلسا. يمكن لقلّة من المراكشيين تكوين ثرواتهم مجدّدا في فترة قصيرة من العمر، بعد تبديد ما له على هذا النّحو. حتّى يقتصر شرف الحاج على السّادة من ذوي الأصول العريقة وذوي الأملاك أصدر الإمبراطور فرمانا، بأنّه لا يحقّ لأحد أداء فريضة الحجّ إلاّ للأرستقراطيّين الكبار، الذين حقّقوا ثروة تقدّر بمائة دولار نقديّة. ولكن تأمّل قدر ما يدفع الظّلم على الالتفاف حول القانون. يقوم تاجر العملة اليهوديّ مراعاة لتلك الظّروف، بإقراض الحاجّ، مائة دولار، لمدّة تضمن للحاج تحقيق مراده، ثمّ يستردّها منه قبل أن تبحر السّفينة من الميناء.

إسبانيا هي الدّولة الوحيدة التّي يخشاها المراكشيون . سبب ذلك أنّها ترسل بسفنها الحربيّة الكبيرة، ومدافعها الثّقيلة، لقلقلة استقرار هؤلاء المسلمين، في حين تبعث أمريكا ودول أخرى، بسفينة حربيّة منفرة، من آن لآخر. يتعلم المراكشيون شأنهم في ذلك شأن أي همج آخرين، مما يرونه بأعينهم، وليس ما يقرأون عنه أو يسمعون. إنّ لدينا أساطيل ضخمة في منطقة البحر الأبيض المتوسّط، لكنّها نادرا ما تقترب من الموانئ الأفريقية. للمراكشيين رأى متواضع في إنجلترا وفرنسا وأمريكا، لذلك يثقلون كاهل ممثليها بالإسراف بالرّوتين الحكوميّ، قبل أداء الحقوق العامة لهذه الدّول، وقل في ذلك ما شئت. ولكن بمجرّد أن يتقدّم السّفير الإسبانيّ بطلب، يلبّي على الفور، سواء كان يستحقّ الأداء أو العكس.

قام الإسبان بتأديب المراكشيّين منذ خمسة أو ستّة أعوام، بسبب قطاع من الأرض متنازع عليه، يقع على جبل طارق في الجزء المواجه لهم، فاستولوا على مدينة تطوان، توصّل الإسبان معهم إلى تسوية، أساسها زيادة مساحة الإقليم التّابع لها وتعويض

إسبانيا عن تكاليف الحرب التي قدرت وقتها بعشرين مليونا من الدولارات، دفعت نقدا، وكذلك التوقيع على معاهدة سلام. ثم ردت إليهم المدينة بعد ذلك. لكنّها لم تسلمها لهم قبل انتهاء الجنود الإسبان من التهام جميع الهررة. لم ينفذوا بنود التسوية، طالما ظلّت الهررة ترفض الاستسلام. وكان الإسبان مغرمون كثيرا بالهررة. وكان المراكشيون على النقيض، لأنّهم يعتبرون الهررة شيئا أقرب إلى القداسة. وبذا لمس الإسبان. موقع الحساسية لدي المراكشيين في تلك الفترة. أوغر مسلكهم الصريح في التهام كلّ الهررة التطوانيّة، صدور المراكشيين نحوهم، لدرجة أن خروج الإسبان من أراضيهم، اتّسم بالوداعة واللين. لا تنقطع العداوة حتّى الآن بين الإسبان والمراكشيين، كان لفرنسا سفير هنا، وقد أثار هذا السفير استياء أهل مراكش نحوه، بأسلوب جدّ بريء. إذ قام بقتل اثنين من الهررة المسلّحين (طنجة معبّأة بهم) وصنع من جلودهما بساطا لبهوه. وشكّل بساطه على هيئة دوائر، أمّا الدّائرة الأولى فكانت من هررة معمّرة بادية الشّحوب، ونيولها تشير إلى مركز الدّائرة، تعقبها دائرة من هررة صفراء، وتليهما دائرة من هررة سوداء وأخرى بيضاء اللون، ثم دائرة من خليط من كل الهررة، وانتهت كلهّا برقعة تحيط بمركز الدّائرة، وبها قططا متجانسة. كان ذلك عملا رائعا، لكنّ المراكشيين، يلعنون ذكر هذا السفير حتّى اليوم.

حين ذهبنا اليوم للقاء القنصل الأمريكي العامّ، لاحظت أنّ طاولة الوسط تزخر بكلّ ألعاب التّسلية المكنة في بهو البيت. ظننت أنّ ذلك يشير إلى شّعور بالعزلة وكان ظني في محلّه. فعائلة السفير الأمريكي هي العائلة الأمريكيّة الوحيدة في طنجة .يوجد هنا كثير من القناصل الأجانب، لكن تبادل الزّيارات ليس بالأمر الهيّن. لقد نأت طنجة بنفسها عن العالم، فما جدوي الزّيارات إذن، حيث لا يجد النّاس بالفعل ما يتحدّثون فيه؟ لا شيء البتّة. لذا فأسرة كلّ قنصل تلزم بيتها ولا تغادره، وتتسلّى بالمتاح لها من وسائل للتسلية. تشدّ طنجة انتباهك ليوم واحد فحسب، فهي سجن يبعث على الملل. ظلّ القنصل العام فيها لخمسة أعوام، وبلغ ضجره بها ما يكفيه قرنا من الزّمان، وهو بسبيله للعودة إلى الدّيار قريبا. تعكف عائلته على قراءة الرّسائل والصّحف عند وصولهما بالبريد، فتقرأ وتعاد قراءتها، مجدّدا ليومين أو ثلاثة، ويكرّر الحديث في شأن ماورد بها مرّات ومرّات. حتّى الملل. يقضون الوقت بعد ذلك في تناول الوجبات والشّراب والنّوم وركوب الخيل خارج

البيت على الطّريق القديم نفسه، ورؤية ذات الأشياء المضجرة، الّتي أمضت عقودا دون أن يتبدّل فيها شيء، ولا ينبسون خلال ذلك كلّه ببنت شفة. ويعد وصول بارجة إليهم، منحة مرسلة إليهم عن السّماء، " أوه، أيّة عزلة هذه أين مواطن الجمال الّتي كان يراها الحكماء في وجهك؟ ". إنّ ما أراه منفي بكلّ المقاييس، ولسوف أبادر باقتراح أقدمه للحكومة بأنّه إذا قتل أمريكيّ أخاه، وعجز القانون عن فرض العقوبة المستحقة عليه، فليعيّن قنصلا عامّا في طنجة.

سعدت بمشاهدة طنجة ثاني أقدم مدن العالم، لكنّي أظن أنني على استعداد لتوجيه تحية وداع لها.

سنتّجه هذا المساء رأسا إلى جبل طارق، ولا أشك في أنّ (الكويكر سيتي)، ستبحر من ذلك الميناء خلال الساعات الثمانية والأربعين القادمة.

الفصل العاشر

على ظهر سفينة "الكويكر سيتي"، وسط المحيط، قضينا الرّابع من يونيو بكامله. اتخذ اليوم بكلّ المعايير الصّبغة الشّرق أوسطيّة، في صفاء سمائها، ونسيم صيفها المنعش، وضياء شمسها الباهرة، المداعبة في نشوة مويجات البحر، عوضا عن تلال من زبده المتصاعد، بحر طغى من تحتنا بصفاء زرقته على كلّ ما رسب في نفوسنا من تبلّد في الأحاسيس، بما حمل من فتنة تسبي النّفوس.

ينعمون أيضا بلحظات غروب جميلة، قلّ أن تجدها في أغلب أصقاع الأرض. كان جبل طارق، ليلة رحيلنا عنه، صخرة صمّاء، تسبح في رقّة بالغة، ونعومة واستغراق في الغموض والخيال والسّحر، في سديم ناصع، حتّى إنّ "العالم ببواطن الأمور" ذلك الرّزين، الملهم، والدّجال الكبير، قد استنكف رنين جرس طعام العشاء، وركن إلى التعبّد!

قال: "حقيقة، إنّها رائعة الجمال، أليس كذلك. ألا تفتقر أراضينا لأشياء كهذه؟ أرى وقوع تلك الظواهر بسبب، عظم القابلية للانكسار، وربّما تزعمون، أنّ سببها ارتباط المجموعة الشّمسيّة الكبيرة، بالأنشطة البطيئة، في أقرب مكان من الشمس على كوكب المشترى. فما رأيكم؟".

قال دان وهو يغادر المكان: "أوه، إنّني ذاهب إلى الفراش".

"بلى، جميل قولك بالذهاب إلى الفراش، حين يأتي أحد ببينة لا يستطيع آخر محاججتها. إن أدان لا قبل له بمقارعتي ببينة. وهو يعرف هذا بدوره. فما قولك يا جاك؟"

"حسبك يا دكتور، لا تثر حفيظتي، بذلك الهراء. فأنا لم أفعل ما يسيئك. أليس كذلك؟ دعني إذن لحال سبيلي".

" لقد مضى هو الآخر بدوره، لابأس، لقد تحاشي هؤلاء أولئك المحنّك الكبير، والمحنّك أبلغ منهم جميعا، لعلّ الشّاعر "لارييت"، على غير قناعة باستدلالاتهما ؟ ".

ردّ الشّاعر بشيء ملتبس ثمّ مضي بدوره إلى الطّابق السّفليّ من السفينة .

" يثبت هذا بدوره عدم أهليته. لا بأس، لم أكن أتوقّع الخروج منه بشيء . ولم أر من الشّعراء من لهم دراية بشيء. سيذهب الآن إلى الطّابق السّفليّ. ويستخرج بالغربال، أربعة مقادير من أردأ الغلث، بشأن الصّخرة العتيقة، ثم يقدّم نتاجه لأحد القناصل أو الرّبابنة أو الزّنوج. أو لأوّل قادم يستطيع التّأثير عليه، أخشي أن يأخذ أحدهم بتلابيب هذا المجذوب البائس العجوز، فيخرج منه كلّ الهراء الشّعرهذا . ماذا يمنع إنسانا من التركيز في أشياء تحمل بعض القيمة؟ كان جيبون، وأبقراط، وساركوباجوس ، وكل فلاسفة العصور القديمة، كان كلّ هؤلاء يضعون الشّعراء في المنزلة الأدني ".

قلت له : " أنت الآن يا دكتور تأتي بأدلّة من عندك، وأنا بدوري سأتركك وأمضي. إنّني أستمتع دائما بحوارك رغم الإطناب الظاهر في مقاطع ألفاظك . فما تعرض من آراء فلسفية نقع عهدته عليك وحدك، لكنّك حين تبدأ في التحليق، وحين تبدأ دعمها بأدلّة استشهاديّة من وحي خيالك، تهتز ثقتي ولا شك". كان ذلك الأسلوب يطري الطّبيب. لأنّه كان يعتبر ذلك نوعا من الإقرار من جانبي بخشية محاجحته . كان يوغر صدور ركّاب السفينة دائما، بقضايا تستعصي على الفهم، يصوغها بأسلوب يعجز المرء عن فهمه، فيتحمّلون منه العذاب الأليم لدقيقة أو اثنتين، ويغادرون المكان من ثمّ .

كان يكتفي بهذا النّوع من الانتصار على نصف دستة من الخصوم، ليوم واحد فحسب . يقوم بعده دوما بدوريّة على ظهر السّفينة، يخفّ خلالها بتسليط أضواء كاشفة على كلّ القادمين، ويشعر بارتياح وسعادة غامرة !

أتحوّل الآن إلى موضوع آخر. فقد أعلن قصف مدفعينا الهمامين، عند طلوع النّهار عن حلول الرّابع من يوليو، وذلك لمن غادر فراشه . لكنّ كثيرين، قد علموا بذلك بعد ساعة من الروزنامة. ارتفعت كلّ الرّايات إلى عنان السّماء، عدا ستّة منها كان حريا أن تزيّن الأجزاء السّفلية من السفينة. وظهرت السّفينة بعد وقت قصير بمظهر احتفاليّ. عقدت

الاجتماعات فى أثناء الصَباح واجتمعت كلّ اللجان لوضـع الخطوط العريضة التي تنظم للاحتفاليّة. تجمّع فريق السفينة على سطح مؤخّرها تحت المظلّة، وأعـاق نشاط الرّاية المنجّمة ذات الخطوط، كلّ من آلتي الفلوت، والميلوديون المصدور، والكلارينيت المتهالك، ولحق بهم الكورال كي تطوى الراية بالكلية، وشاركهم جورج بصراخ نكأ به الجراح، بخاصّة عند القفلة اللّحنية، ثم ذبحها ولم يحزن أحد.

شيّعنا الجثمان بهتافات ثلاثة (هذه النّكتة ليست للتداول، ولا يمكنني اعتمادها) واتخذ الرئيس مجلسه خلف أحد صناديق التّلغراف، وفوقه كان يرفرف علم الدّولة، ثم أشار إلى الخطيب، الذّي نهض واقفا، وتلا إعلان الاستقلال القديم نفسه، الذى سبق أن تردّد على مسامعنا كثيرا، ولم نلق بالا لما يردّده، ودعا الرّئيس خطيب اليوم إلى ركن في مؤخّر السفينة فألقي الخطاب نفسه الذى يشيد بعظمتنا بين دول العالم، وهذا نؤمن به بالفعل ونصفّق له بحرارة.

عاد الكورال مجدّدا إلى الحلبة، بآلاته الباكية، وشنّ هجوما على كولومبيا الحبيبة، وحين لاح النّصر في الأفق، عاد جورج إلى الهجوم بقفلته اللحنية العقيمة والمرعبة، وتحقق النّصر للكورال بالطّبع. أعلن أحد القسس طقس منح البركة، وتفرّق الجمع الصّغير المحبّ لوطنه. مرّ الرّابع من يوليو بخير حال، وشد البحر المتوسّط انتباه الجميع.

ألقى أحد ربابنة السّفينة في أثناء وجبة العشاء بحماس. قصيدة شعريّة منمّقة، واحتسيت ثلاثة عشر نخبا متتاليا، مع سلال عدّة من الشّمبانيا. اتّسمت الخطب بالرّداءة، والمقت، وكلّها كانت كذلك دون استثناء إلاّ واحدة تقريبا. حيث ألقي القبّطان دونكان خطبة رائعة، وجعلها الاستثناء الوحيد، من حيث الجودة، بين ما ألقي من خطب في الأمسية، قال:

"السيّدات والسّادة، لعلنا جميعا نحيا، حتّى شيخوخة غضّة، وننعم بالرّخاء والسعادة. أيّها السّاقي، هاتنا سلّة أخرى من الشّمبانيا".

واعتبرت هذه الخطبة ثمرة جهد جهيد متمكّن بارع.

انتهت الاحتفالية، لو جاز لنا أن نطلق عليها ذلك. بحفلة راقصة أروع منها، في المكان المخصّص للتـريض على ظهر السّفينة، ورغم أننا لا نألف الرّقص على عـارضة مستوية، إلاّ إننا حقّقنا في ذلك سبقا مدهشا. لكنّ ذلك عامة عيدا قوميًا بهيجا.

دخلنا مع حلول مساء اليوم التّالي، الميناء الصّناعيّ الكبير لمدينة مارسيليا، ونظرنا إلى أشعّة شمس الغروب، تموّه بومضها الذهبيّ، قمم الأبراج والأسوار، وتغدق على ما يحيط بها من حياة نباتيّة ألقا رقيقا، ولمست بسحر آخر تلك الفيلات البيضاء المرقّشة للمنظر الطّبيعيّ الشامل هنا و هناك.

لم نستطع الهبوط إلى رصيف الميناء، لافتقاره إلى درج للصّعود، وشعرنا جراء ذلك بكدر شديد، لأنّنا رغبنا بشدّة زيارة فرنسا! بمجرّد حلول المساء، اتّفق ثلاثة من جماعتنا، مع أحد النّوتيّة، على السّماح باستخدام قاربه معبرًا، بخاصّة أنّ مؤخّره كان في اتّجاه سلّم السفينة، ومقدمه يلامس الرّصيف الممتد في البحر، عندما اقتربنا للعبور، حنث الرّجل بوعده بتوصيلنا إلى المرفأ . أخبرته بالفرنسيّة بأنّ كلّ ما نرغبه، السيّر فوق قاربه الخشبي، والعبور إلى الشّاطئ، وسألته عن سبب تراجعه عما وعدبه؟ فقال إنّه لا يفهم شيئا مما قلت . فأعدت عليه ما قلت. بدا وكأنّه لا يعرف من الفرنسيّة شيئا. حاول معه الطّبيب ولم يفهم شيئا. طلبت من هذا النوتيّ أن يفسّر مسلكه، ففعل ولم أفهم بدوري شيئا، فقال دان :

"الوصول إلى رصيف الممتد في البحر، أيّها الأحمق، ذلك هو ما نقصده بلوغه!".

حاولت بهدوء إقناع دان بأنّ من العبث الحديث إلى هذا الغريب بالإنجليزيّة، وأنّ الأفضل له أن يدعنا نتعامل نحن معه بالفرنسيّة، وألاّ يدع الغريب يشعر أمامنا بالدونية. فقال :

"لا بأس، استمروا ولا تشغلوا أنفسكم بي، فلست أقصد مقاطعتكم، ولكن ظنّي أنكم لو أردتم محادثته بفرنسيّتكم، فلن يعرف البتّة مقصدكم".

وبخناه بسبب عبارته الأخيرة تلك، وذكرنا أننا لم نكن نعرف بجهله فحسب، بل بتحامله أيضا، تحدّث الفرنسيّ مجدّدا فقال له الطّبيب :

"ها هو الرّجل يقول إنّه ذاهب إلى الدووين، أي الفندق، أوه، مؤكّد أنّنا لا نعرف اللّغة الفرنسيّة".

كان ذلك مفحما له، كما قد يردّد جاك. فقد أخرس ما قد يصدر عن ذلك العضو الساخط من انتقادات أخرى. أبحرنا مرورا بمقادم حادة لأسطول من السّفن التّجارية الضّخمة. وتوقفنا في النّهاية أمام مبنى حكوميّ، واقعا على رصيف ممتدّ في البحر بنيّ من الحجارة. كان من اليسير آنئذ، أن يرد ببالنا، أنّ الدووين، تعني دائرة الجمرك، وليس الفندق. ولم يناقش أحد الأمر رغم ما جري.

فتح الضّباط حقائبنا وأغلقوها فحسب بكياسة فرنسيّة آسرة، ورفضوا فحص جوازات السّفر، ثمّ سمحوا لنا بالخروج . عرجنا إلى أوّل مقهي التقيناه فدخلنا، قادتنا امرأة مسنّة إلى إحدى الطاولات، جلسنا وترقّبنا وصول من يقدم الطلبات، قال الطّبيب بفرنسيّة ركيكة :

"آتنا زجاجة من خمر".

ظهرت الحيرة على وجه السيّدة. ردّ الطبيب وهو يوضح ألفاظه بدقة

"آتنا زجاجة من خمر" ازدادت الحيرة على وجه السّيدة، فقلت:

"هناك خلل في مخارج ألفاظك يا دكتور، دعني أحاول معها، فما قلته أنت لم يأت بنتيجة، واشهد بنفسك".

"سيّدتي آتنا خمرا، وجبنا، وخبزا، فنحن جوعى، شرهون حتّى إلى المخلّل، الزّبد، هات ذلك كلّه الآن، لحم بقريّ، جرجير، شراب قرفة، لحم خنزير، حمام، أيّ شيء، ما يقيم أود مسيحيّ".

قالت المرأة: "عفوا، لم لا تتكلم الإنجليزيّة من البداية، فأنا لست على دراية بفرنسيّتك المزعجة!".

أفسدت سخريّة الرّفيق السّاخط طعام العشاء، وقمنا بوأدها بصمت مشحون بالغضب، وغادرنا المكان على وجه السّرعة. ها نحن في فرنسا الآن، في إحدى دور الإقامة، المقامة بالحجر، على الطراز المعماري القديم، يحيط كلّ ما يمت إلى مظاهر الحياة الفرنسيّة الفريدة بصلة، نرى أصحاب العادات واللّحى الغريبة من الفرنسيين، وحيث يؤكد لنا كلّ شيء على نحو تدريجيّ بأننا أخيرا ندرك تماما، أننا قد صرنا على الأرض الفرنسيّة،

نستلهم شخصيّتها إلى الحد الذّي ينسينا ما سواها، ويصل بنا إلى الإحساس بسعادة غامرة، لما يحيط بها من مظاهر بهيجة آسرة، ولنتأمّل تطفل ذلك المتطوّع المحتال في تلك اللحظة، على إنجليزيتها الرّكيكة، ليلقي بالمشهد الآسر أبراج الـرّياح! كان ذلك أمرا مثيرا للسّخط.

بدأنا بالاستفسار عن هذا الاتّجاه أو ذاك، لبلوغ وسط المدينة. وفشلنا في دفع أحد من الفرنسيين إلى فـهم مقصدنا تحديدا، وفشلنا أيضا في فهم ردودهم على استفساراتنا لكنهم لجأوا دوما للإشارة، وانحنينا لهم في أدب، وقلنا بالفرنسيّة "ميرسي، مونشير". وبذا حقّقنا نصرا مبينا على رفيقنا السّاخط. غالبا ما كان يسأل بعد ضجره بهذا النّصر: "ماذا يقول ذلك القرصان ؟".

"عجبا، إنه يخبرنا عن أيّ الطرق نسلك للوصول إلى الكازينو الكبير".

"أجل، ولكن ماذا كان يقول ؟".

"أوه، لا يهمّ ما قاله، فإنّنا نفهمه. هؤلاء النّاس متحضّرون، ليسوا كذلك النوتّي الغبيّ ؟".

"أتمنّى أن يكونوا على درجة من الوعي تمكّنهم من إخبار امرئ بالوجهة التّي يقصدها، لأنّنا لنصف السّاعة ندور في حلقة واحدة، وقد مررت بمتجر القعاقير نفسه هذا سبع مرّات".

أخبرناه أنّ ما يقوله مجرد افتراء بغيض (لكننا كنا نعلم أنّ الأمر على نحو مغير). بدا لنا أنّنا لن نصل إلى شيء بالمرور بهذا المتجر مجدّدا، رغم أنّنا لم ننقطع عن الاستفسار عن اتجاهات الطرق، لكنّنا وجدنا أنه حري بنا التّوقف عن التّفاهم بالإشارة، لو تطلعنا إلى الحدّ من شكوك هذا العضو المتذمّر.

وصلنا بعد مسيرة طويلة إلى الطريق العام الرئيس، عبر طرقات مرصوفة بالأسفلت، تحدّها صفوف من الوحدات السكنيّة، والتجارية الجديدة، المتسعة من الداخل، والمقامة من حجارة ضاربة إلى الصّفرة، يماثل كلّ منها الآخر، وتمتد لمسافة ميل بالتحديد، وكلّها جيّدة الإضاءة. ظهرت على جميع الأنحاء ألوان برّاقة، وأعمدة مضاءة بغاز الاشتعال،

واحتشدت جنبات الطَّريق، برجال ونساء بملابس زاهية، وحفلت الأماكن بالحركة السَّريعة والنَّشاط والحيويَّة، والبهجة والحوار، والضَّحك !

عثرنا على الفندق الكبير دو لوفر إتدي لا بيسك، وسجلّنا في الطّابق السّفلي أسماءنا وجنسياتنا، ومحلّ الميلاد، والوظائف التي نشغلها، وآخر مكان قدمنا منه، وحالتنا الاجتماعيّة، وآراءنا في فرنسا، وأعمارنا، ووجهتنا بعد الزيارة، وكثرة من البيانات على الوتيرة نفسها من الأهميّة، حيث يزوّد صاحب الفندق الشّرطة بهذه البيانات. استأجرنا مرشدا لنا، وشرعنا بعد ذلك في زيارة الأماكن السّياحية المهمة. دبّ فينا نشاط كبير في الليلة الأولى لنا على الأرض الفرنسيّة. لا أستطيع التفكير في نصف ما ارتدنا من أماكن، أو شاهدناه على وجه الخصوص، فلم نكن نميل البتّة إلى تمعن شيء أو تفحّصه البتة، لأننا شئنا إلقاء لمحات سريعة على الأشياء، ثم تركها، ومواصلة السّير! حلّقت فوقنا روح المدينة. جلسنا نهاية المطاف، داخل الكازينو الكبير، في ساعة متأخّرة، وأمرنا بمقادير كبيرة من الشّامبانيا. كان من اليسير أن نظهر في صورة أرستقراطيين يباهون بأنفسهم، طالما لن يجشم ذلك كثير عناء! عجّ المكان المبهر بنحو خمسمائة فرد. وأظنّ أنه رغم كون الجدران كلها تقريبا ملصقة بالمرايا، فإنّ ذلك يعني أن المرء لا يسعه بالفعل إلاّ أن يقول إنّها قد بلغت المائة ألف. جلس شباب نضر مفرط في التأنّق وسيّدات اكتسين بأحدث الأزياء، أزواجا وجماعات وسادة كبار السّن وسيّدات عجائز. جلس الجميع حول طاولات رخاميّة، يتناولون ما طاب ولذّ من وجبات العشاء، ويشربون الخمور ويضجّوا بحوار متداخل سريع، تحار في إدراكه العقول.

ظهرت فوق منصة في الطّرف الأقصي من القاعة، إحدى فرق الأوركسترا الكبيرة، وظهر من وقت لأخر عدد من الممّثلين والممثّلات، في ثياب غريبة مضحكة. أدّوا كما هائلا من الأغنيات، أثارت عاصفة من الضّحك مسايرا حركاتهم العجيبة، لكنّ جمهور المشاهدين لم ينقطع عن تبادل الثّرثرة، وشيّعهم بالسخريّة، دون أن ترتسم على الشفاه ولو بسمة واحدة، أو التّصفيق تحية لهم! كنت أظنّ أنّ الفرنسييّن لديهم قابلية للضّحك من أيّ شيء.

الفصل الحادي عشر

سرعان ما تأقلمنا بسهولة والجوّ المحيط. ألفنا التواجد في القاعات وغرف النّوم، بأرضيّاتها الحجريّة الخشنة، وافتقارها إلى بسط أو سجّاد، وإحداث دويا من دق كواحل المارين فوقها، بصورة حادة تقطع على المرء تفكيره. بدأنا نعتاد الهدوء، والنّظام، والتّعامل مع العاملين في خدمة الموائد، وهم يمرّون من حولنا هنا أو هناك، ويحومون من خلفك، أو على مقربة منك عجلى كالفراشات لإدراك تنفيذ المطلوب، وتلبيته فورا، مبدين امتنانا بالنّفحات المقدّمة إليهم، دون مراجعة لقيمتها، فالأدب ديدنهم، ولا يحيدون عنه قيد أنملة. ما شدّ انتباهنا أيضا أنّ النّادل في الفندق لم يظهر أية حماقة. بدأنا اعتياد حثّ الخطى عند دخول القاعة الرّئيسة، وسط حلقة مؤرّجة بعبير الزّهور، والأغصان المتشابكة، وجمع من السّادة يجلسون في الوسط، منهم من يقرأ الصّحف في سكينة، أو يدخّن التبغ. ألفنا الثّلج المجمّد اصطناعيّا، والموضوع في قوارير تقدّم مع باقي الطّلبات الأخرى، وذلك هو النوع الوحيد من الثّلج الذّي يقدّمونه هنا. اعتدنا كلّ هذه الأشياء، لكنّنا لم نألف أن نحمل معنا ما نحتاجه من الصابون للاغتسال، فقد بلغ بنا التّحضّر حدّا جعلنا نترفع عن حمل أمشاط وفرش لغسل الأسنان، لكنّ الجديد بالنّسبة لنا كان قرع الجرس لطلب قطعة صابون في كلّ مرة نتوجّه فيها للغسل، ما أشعرنا بكدر. لم نكن نعمل حسابا لذلك، إلاّ بمجرد غمر رءوسنا ووجوهنا بالماء، أو مجرّد انتباهنا إلى أنّنا في حوض الاستحمام المفرط في الطّول، يلي ذلك بالطّبع تكدير بسبب تلبية الطّلبات بعد فترة طويلة. يقوم هؤلاء المارسيليون بنظم التّراتيل، وصنع المسوح الرّهبانيّة، والصّابون المارسيلي لكافة أهل الأرض، لكنّهم لا يرتلّون ما نظموه من تراتيل، ولا يرتدون ما صنعوا من مسوح، ولا يغتسلون بصابون صنعوه بأيديهم.

تعلّمنا سلوك الطّريق الموصّل إلى "تابل دو أوتيل". وقد ران علينا صمت وسكينة ورضا تام. تناولنا حساء وترقّبنا وصول السمك لبضع دقائق، وبضع دقائق أخرى لاستبدال الصّحون، يعقبه تقديم لحم الشّواء، فترفع الصّحون مجدّدا، ويؤتى بالباذلاّء، وتبدّل فيؤتى بالعدس، ومن بعده فطائر الحلزون (أفضّل صغير الجراد)، وتبدّل الفطائر فيؤتى بالدّجاج المشويّ والسّلطة، تعقبهما فطيرة الفراولة، والآيس كريم، والتّين الأخضر، والكمّثرى والبرتقال، واللّوز الأخضر، بمشاركة القهوة في النهاية. هنا في فرنسا بالطبع كلّ أنواع الخمور.

أصبنا بعسر هضم من حمولة سّفينة كتلك، وكان علينا أن نلزم الغرف الباردة فترة طويلة، مع تدخين التّبغ، وقراءة الصّحف الفرنسيّة، التي تحمل في طريقة غريبة في سرد موضوع إخباري كامل بشكل مباشر حتّى تصل إلى لبّه، فتباغت بعبارة عرضيّة، تعزّ على الفهم، فينهار الموضوع برمّته. انهار ليلة أمس، جسر على بعض الفرنسيّين، فتحتشد صحف اليوم بأخبار الحادث، وتعجز أنت عن معرفة عدد من لاقوا حتفهم في الحادث، ومن أصيبوا بإصابات خطيرة، أو جرحوا أو من أصيبوا حتى بخدوش، وأنا على استعداد تامّ لتقديم أيّ شيء مقابل معرفة أية تفاصيل.

أزعجنا بعض الشّيء، ونحن على مائدة العشاء، سلوك أحد الأمريكيين، وقد انبرى يتحدث بصوت عال أجشّ، ويضحك بهستيريّة، في حين تعامل الآخرون معه بأدب جمّ وانضباط . طلب بتعال ظاهر خمرا، قال : "سيّدي إنني لا أتناول غدائي دون خمر!" . (وهذه فرية مثيرة للأسي) ثمّ نظر ليغنم من وجوه الجمع المحيط إشارات إعجاب يتوقّعها. تحدث كلّ هذه الخيلاء في بلد سرعان ما يتوقعون فيه حذف ثمن الحساء من قائمة الحساب، فضلا عن الخمر . في بلد يشاع فيه الخمر لدى كلّ طبقات المجتمع، شيوع الماء ! قال هذا: "سيّدي، إنني سيدّ بالنّشأة، أمريكي الأصل، وأريد أن يعرف الجميع ذلك ! ". ولم يشأ ذكر أنّه ينحدر من سلالة حمار "بالعاّم"، لكنّ الجميع كانوا يعرفون ذلك دون حاجة لذكره .

توقّفنا في "برادو"، ذلك الشّارع الرائع، الذّي يحدّ من الجانبين، بقصور النّبلاء، والأشجار الظّليلة السّامقة، وزرنا بيت بوركيه الرّيفيّ، ومتحفه النّادر. أرونا جبّانة مصغّرة هناك، هي نسخة من أوّل مقبرة حقيقيّة أقيمت في مارسيليا.

رقدت هياكل عظميّة مقلّدة صغيرة في مدافن مهدّمة، بجانبها أدوات للطهي، وتماثيل لآلهة محلّية. عثر على أصل تلك المقبرة، في شارع المدينة الرّئيس، منذ بضع سنين. وظلّت هناك في مكانها، بعمق لا يزيد على اثني عشر قدما تحت الأرض، لنحو ألفي وخمسمائة عام أو نحو ذلك. كان رومولوس هنا قبل أن يقوم ببناء روما، وفكّر في إقامة مدينة فوق هذا المكان، لكنّه صرف النّظر عن تنفيذ فكرته، ولعله كان على دراية تامة بهؤلاء الفينيقيّين، أولئك الذّين ظللنا نتمعن في هياكلهم العظميّة.

وجدنا في حدائق الحيوان الكبيرة، نماذج أظنّها لكل ماينتج العالم من حيوانات، وتشمل الجمل وحيد السّنام، والقرد المزيّن بخصلات الشّعر القرمزيّة والزّرقاء اللامعة.

وهو قرد ينعم بجمال آسر، وشاهدنا فرس النّهر القادم من النّيل، ونوع من الطيور الكبيرة طويل الساق، يشبه منقاره حقّ البارود، وله أجنحة مطبقة، كمعطف المناسبات. وقف هذا الكائن، مغمض العيني، ثمّ مال قليلا إلى الأمام، وبدا كأنه يضع يديه أسفل البطانة الخارجيّة لمعطفه. بدا من سيماء وشكل هذا الطّائر المتهالك، أصلع الرّأس، مهيض الجناح، بالغ القبح، بدا شيء من بلاهة مستكنة، وهدوء لا يضارى، واستعلاء، ورضا ذاتي يجلّ عن الوصف! بدا برأس غليظة، محاطة بالبثور، وحول الساقين قشور كثيرة، مع قناعة تامة بحاله، وركون إلى الاستكانة! بدا كأكثر المخلوقات إثارة للتندر. كان شيئا طيّبا سماع دان والطبيب يضحكان بعفوية نابعة من القلب، ضحكا لم نسمعه من ركّاب السفينة منذ إبحارها من أمريكا. كان هذا الطّائر مبعوثا من السّماء. واستحق هنا أن أوصف بالإجحــاف، إذا لـم أتناوله بالصّورة التي تليق به فـوق هذه الصّفحات. كانت جولة سارة، رغم أنّنا قضينا ساعة بجانب هذا الطّائر، و عرفنا كلّ شيء عنه. كنّا نستثيره من آن لآخر، فيفتح عينا واحدة ويبطّأ في غلقها مجدّدا، مصرّا على محاولة إظهار وقاره الشّديد، أو جديّته المتناهية، ولسان حاله يقول: "لا تطهّر السّماء دنسا بأيد دنّسة". لم نعرف اسمه، ولذا سمّيناه "الحاجّ"، وقال "دان":

"لا يرغب هذا الطائر الآن سوى جماعة بلايموث!".

كانت أنيس الفيل الضّخم هرّة أليفة، وكانت تتسلّق أرجله الخلفيّة، وتجلس على ظهره. وقد تجلس في هذا الوضع ومخالبها تحت صدرها، وتنام في الشّمس نصف فترة

الظّهيرة. تسبّب ذلك في البداية في مضايقة الفيل، فكان يمدّد جسده وينزلها. لكنّها كانت تعاود الارتقاء. أصرّت على ذلك حتّى قهرت تحامل الفيل، وصارا الآن صديقين لا يفترقان. تلهو الهرّة على ساق رفيقها الأماميّة، أو على خرطومه في الغالب، إلى أن تقترب الكلاب، فتنأى بنفسها عن الخطر وتصعد أعلى ظهره. قام الفيل مؤخّرا بسحق عدّة كلاب تسبّبوا في إزعاج رفيقته .

استأجرنا دليلا وقاربا بحريّا، وقمنا برحلة إلى إحدى الجزر الصّغيرة التّابعة للمرفأ لزيارة حصن دي إف .

لهذا الحصن القديم قصّة مؤلمة، إذ كان يستخدم سجنا للمجرمين السّياسيين، على مدار مائتي، أو ثلاثمائة عام. وقد حفرت جدران زنازنه بأسماء كثير من المعتقلين، قضوا أعمارهم فيها، ولم يخلّفوا ما يشير إلى وجودهم سوى، هذه النّقوش التّي حفروها بأظفارهم. أقصد هذه الأسماء! ويا لكثافتها! تراءى لنا أن أصحابها الراحلين منذ زمن، قد ملأوا الزّنازين المظلمة، والممرّات بأطيافهم. تباطأنا بعض الشّيء عند مرورنا بين زنزانة وأخرى، داخل أغوار الصّخر النّاري، و قد بدت تحت منسوب مياه البحر. انتشرت الأسماء في كلّ مكان. يشير بعضها إلى الدهماء، والبعض إلى النّبلاء والأمراء. عزل العامّة والأمراء والنّبلاء في مكان واحد، ولا يمكن نسيانهم. يمكنهم معاناة العزلة، والتبلّد، وأهوال الصمت، حيث لا صوت هناك يكسر الصّمت، لكنّهم لا يستطيعون تحمّل فكرة أن ينساهم البشر. ها هي ذي أسماء قد نبشت في زنزانة واحدة، يتسلّل إليها بصيص من ضوء، أقام بها إنسان طيلة سبعة وعشرين عاما، دون أن تقع عينه على وجه بشر، عاش حياة البؤس والقذارة، دون أنيس سوى أفكاره، المشحونة بالهموم، أيضا باليأس ولا شكّ. سواء خطر ببال سجّانه ضرورة، القدوم إلى زنزانته بقدوم اللّيل، عبر خويخة صغيرة أو لم يتذكر. لقد حفر هذا الرّجل في جدران محبسه، أشكالا تبدأ من أرضيّة الزّنزانة حتّى سقفها، فيها صور لبشر وحيوانات، بطريقة تستعصي على الفهم. كان عاما بعد عام يكدح في أداء هذه المهمّة التّي أخذها على عاتقه، وقت تحوّل فيه الرّضيع إلى الصبا، وإلى ريعان شبابه. وانتقل إلى المدرسة ثم الجامعة، وحصل على وظيفة، ووصل إلى مرحلة الرّجولة والنّضج، لتلتبس في ذهنه مرحلة الطّفولة، وتكاد تنحي بالقدم. ولكن من ذا يذكر ما مرّ من وقت على هذا السّجين؟ يمر الوقت سريعا أحيانا على أحدهما،

أمّا الآخر فالوقت لديه يسير حبوا دوما. قضى أحدهما لياليه الرّاقصة، كأنها دقائق معدودات وليست ساعات، ومرّت على الآخر تلك اللّيالي نفسها، ككّل ليالي السّجن، التي تمرّ ساعاتها ودقائقها على السجين، كأسابيع بطيئة مملة.

حفر سجين قضى خمسة عشر عاما في محبسه، مقاطع شعريّة وجملا نثريّة قصيرة على جدران زنزانته، وهي قصيرة بالفعل، لكنّها مليئة بالشّجن، لم يتحدّث خلالها عن نفسه، أو عن وضعه الصّعب، بل تحدّث فحسب عن المعبد الذّي تفر إليه روحه للتعبّد، والوطن، وما أقيم للأوثان من نّصب. لم تسعفه فرصة الحياة حتّى يراها هناك تبلغ سماكة هذه الجدران، ما يقارب سماكة بعض غرف النّوم العادية، أو نحو خمسة عشر قدما . رأينا الزّنازين المظلمة القميئة، التّي كان يقضي فيها اثنان من أبطال "ألكسندر دوماس" مدّة العقوبة، وهما بطلي "مونت كريستو". كتب" أبي" الشّجاع هنا، كتابا بدمه، بريشة طوّعت من قطعة من خاتم حديدي، وتحت ضوء مصباح، أعدّ من مزق من القماش، المغمور في شحم الطعام بعد تذويبه، وقد استخرجه مما كان يقدم له من طعام، وحفر من ثمّ داخل الجدار السّميك بأداة بسيطة، طوّعها بنفسه عن قطعة حديد ملفاة، أو من أداة من أدوات الطّعام، كتلك التي فك دانتي أغلاله بها، ومن المثير للأسى، أنّ أسابيع كثيرة من العمل المضني، لم تسفر في النّهاية عن شيء .

قادونا إلى الزّنزانة الكريهة التّي اعتقل فيها لفترة ذلك الملقّب بـ"القناع الحديدي". وكان شقيقا بائسا لملك من ملوك فرنسا الطّغاة، قبل أن يؤتى به إلى هنا لإخفاء لغز حياته الغريب عن العيان، داخل زنزانات سانت مارجريت . شدّ المكان الكثير من انتباهنا، بأكثر مما لو كنا نلم بما أحاط بشخصية القناع الحديدي من ملابسات، وبتاريخه، وسبب هذه العقوبة الغريبة التّي أجبر على تنفيذها، ذلك لغز بالفعل، وموضع الجاذبية في الحدث! ذلك اللّسان الصّامت وتلك القسمات الأسيرة، وذلك القلب المثقل بهموم مكبوتة، والصّدر الذّي طالما عذّب بسره الدفين، عرفت هذه الجدران الرطبة، ذلك الرّجل الذّي صارت قصّته كتابا مختوما إلى الأبد! وهكذا عم السّحر المكان.

الفصل الثّاني عشر

قطعنا بالقطار مسافة خمسمائة ميل في قلب فرنسا. وما أروعها من بلد! ويا لها من بستان! تترامي دون توقّف فراسخ من المروج الخضراء اليانعة، وتشذّب زوائد أغصانها وتروي كلّ يوم، ويسوي البستانيّ حشائشها. أماّ أسيجتها فكان لا بدّ من تسويرها وضبط أبعادها والحفاظ على تناسقها، بأرقي ما وصل إليه فنّ تجميل الحدائق. وكان لا بد من ترتيب أشجار الحور المهيبة في صفوف طولية مستقيمة، لتقسم المنظر الطّبيعي الشّامل إلى مربّعات على صورة رقعة الدّاما، وتحدّد التناسق في تخوم المروج العالية، بمقاييس محدّدة. كما كان لا بد للطّرق الرئيسة المغطّاة بالثّلوج، والتي تحظي بالنّعومة والنّظافة والاستقامة من أن تسوي بآلات الطّرق. فبأية وسيلة أخرى سوى تلك، تتحقق روعة كتلك وتناسقا وجمالا ؟ إنّها رائعة بالفعل. لم نر جدرانا حجريّة قميئة، أو حاجزا من أي نوع . خلا المكان من انتشار القمامة والبلي والقاذورات، وليس ثمّة ما يشي بفوضى أو إهمال. فكلّ شيء هنا يزخر بالجمال والنّظام، يفتن عين النّاظر.

ألقينا نظرة عجلى على نهر الرّون الهادر وسط ضفافه المعشبة، وتوارت بين الأزهار والشّجيرات، دور صغيرة، تنعم بالرّاحة والدّفء، داخل قرى مبنية بالآجر القديم ، وتظهر بينها بلون الطّحلب، كاتدرائيات من العصور الوسطى وهضاب ذوات أشجار وأيك، وتبرز من بين زروعها، أبراج اعترشها اللّبلاب، وبريجات لحصون يملكها إقطاعيون. وتراء ت في مخيّلاتنا لمحات من فردوس، وأخيلة من مدينة السّحر الأسطوريّة.

عرفنا في تلك اللّحظة بمقصد الشّاعر، حين غنّى لـ

"نضارة حقل أذرتك، وكرمك النّضر .

أيا فرنسا، أيّتها الأرض البهيجة" .

وهي أرض البهجة بالفعل. لا قبل لعبارة أخرى أن تفوق هذه العبارة. يقولون إنه لا يوجد مرادف لكلمة "وطن" في اللغة الفرنسيّة. حقًا ذلك باعتبار أنهم يستخدمون هذا المصطلح ذاته في تلك السمة اللافتة، فحريّ تدبّر أمرهم دون تلك الكلمة. دعونا لا نسرف في الحزن بسبب فرنسا "اللاوطن". لاحظت أنّه من النّادر تماما أن يتخلى الفرنسي خارج بلاده عن فكرة العودة إلى فرنسا، من وقت لآخر. ولست مستغربا ذلكم الآن.

لم نفتتن رغم ذلك بعربات السكة الحديدية الفرنسية. حجزنا في مقاعد الدّرجة الأولى، لا لرغبة في شدّ الأنظار بعمل لم يألفه النّاس في أوروبّا، بل لأنّنا كنا نريد أن نجعل رحلتنا أقصر بتلك الطريقة. يصعب إضفاء البهجة على السفر بالسكّة الحديديّة في أيّ بلد، فالسفر في ذاته ممل. ويعد ركوب عربات الجياد أكثر ترويحا. عبرت في إحدى المرات سهولا وبواد ومرتفعات في الغرب، بعربة تجرّها الجياد، بدءا من محطّة ميسوري حتّى كاليفورنيا، وكان عليّ منذ ذلك الحين أن أقارن كلّ جولات التنزه، بتلك العطلة النّادرة. نقطع ألفا ميل، في سفر بلا انقطاع، وقعقعة وصخب، باللّيل والنّهار، بلا كلل أو لحظة لالتقاط الأنفاس. تري طوال الأميال السّبعمائة الأولى، شبه جزيرة من الأراضي السهلة. يجاوز بساطها الأخضر أيّ بحر رقة ونعومة، وجسّدت ظلال السحب ما يتفق وعظمتها من أشكال وصور. لا توجد هنا سوى مشاهد الصّيف، فلا مجال لرغبة لدي أحد سوى الاستلقاء هناك لاستنشاق الهواء العليل، فوق أجولة البريد، والحلم بتدخين غليون للسكينة، ثم ماذا بعد هذا الإحساس بالرّضا والهدوء؟ إنّ الجلوس في مقدّمة العربة بجوار الحوذي وقبل أن تطلع شمس يوم من أيام الشّتاء، يعادل حياة مدينة كدًا وعناء، فضلا عن رؤية الجياد الستّة، تهرع قفزا تحت وقع طرقعة حادة من سوط لا يلمسها أصلا. ثم إمعان النّظر في مساحات زرقاء من عالم لا يعرف سادة سوانا، ومواجهة الرّيح برأس حاسر، والشعور بنبض بطيء، تتزايد سرعته، مطالبا بغير حقّ بملاحقة فورة إعصار محموم! يعقب هذه السبعمائة، ألفا وثلاثمائة ميل من القفار الصّحراويّة، ومنظر شامل لا حدود له يضمّ صورة تبعث على الحيرة، ومدنا بدت لنا متضائلة، وكاتدرائيات بذراها المدببة، وحصونا ضخمة، انتحلت صورة صّخور أزلية، وتجمّلت بألوان شمس الغروب القرمزية والذّهبيّة ومرتفقات شاهقة بين ذرى مكللّة بالغيوم، وثلوجا لا يدركها الذّوبان. حيث يهزم الرّعد، ويظهر البرق، و هبتّ على أقدامنا عاصفة هوجاء، وفوقنا سحب ممطرة. ألقت في وجوهنا مباشرة بمزق من راياتها.

لكنّ غاب عني الآن أني في فرنسا. و لا أعبر طريق الجنوب العظيم. ومرتفعات نهر "وند". وسط بقر الوحش. والجاموس. والهنود الحمر. على الطّريق الحربيّ. الأمر لا يتلاءم وضرورة إجراء مقارنات جد مجحفة بين رحلة مملّة على قضبان السكّة الحديديّة، ورحلة صيفية فاخرة عبر قارّة في عربة تجرّها الجياد .

ما قصدته من البداية أن السّفر بالقطار، رتيب مملّ، وقد ورد ببالي في الوقت نفسه، رحلة حجّ مملّة استغرقت خمسين ساعة، بين نيويورك وسانت لويس. لم تكن رحلتنا إلى باريس بطّبيعة الحال بالمملّة، لأنّ كلّ ما فيها من مشاهد وجولات كانت غريبة وطريفة، لكنّها وكما يزعم "دان "كانت حافلة بالمتناقضات.

قسّمت العربات إلى حجيرات يسع كلّ منها ثمانية أفراد، قسم كلّ منها إلى قسمين يسع الواحد أربعة أفراد، يجلس كلّ أربعة في مواجهة الآخرى، وثّرت المقاعد وظهورها وحشيت بوثار سميك، بقصد راحة الرّاكب. يمكنك تدخين التّبغ لو شئت. ولا وجود في العربات لباعة جائلين، كما أنك بمنأى عن أذى المزاحمين من مرافقي الرّكّاب ممّن لا موجب لوجودهم. كلّ شيء بعد ذلك يزخر بالروعة. لكنّ المحصّل يقيدك في مكانك، حين يبدأ القطار في الحركة، حيث لا ماء للشّرب في العربة، ولا أداة للتّدفئة في سفرة الّليل. ولو استدعى الأمر ركوب سكّير مشاكس، فإنك لن تستطيع إزاحة عشرين مقعدا من طريقه. أو دّخول عربة أخرى، يربو على ذلك كلّه حال كنت متعبا. ثمّ غلبك النّعاس. فلا منزع لك سوى أن تدخل في إغفاء متقطع، وأنت جالس، مثبت الساقين. فضلا عن حالة من البؤس لا قبل لك باحتمالها، تلازمك لليوم التّالي بعد أن تخدّر جسدك وشلّت حركته، وسوف تلحظ آنئذ افتقارهم إلى مشاعر الرحمة بالنّاس والرّأفة بهم. بتوفير عربة نوم واحدة في قطارات فرنسا قاطبة. إنّني أفضل النّظام الأمريكي، لأنّه يفتقر إلى الكثير من تلك "المتناقضات".

كلّ شيء في فرنسا يخضع للنّظام والانضباط. فالفرنسيون لا يرتكبون أخطاء. يرتدي فرد من ثلاثة، بزّة كاملة، وسواء أكان مارشالا للأمبراطوريّة. أم جونديّا. فإنّه على استعداد وبكلّ أريحيّة. للردّ على كلّ استفساراتك بأدب جمّ. لا يعتوره ملل. وهو على استعداد أيضا لمرافقتك إلى مكانك في العربة. ويدخلك إليه ليتيقّن من أنّك لن تضلّها. لن

تستطيع المرور إلى غرفة الانتظار في المحطّة، قبل حصولك على تذكرة الرّكوب، ولن تعبر باب الخروج الوحيد قبل وصول القطار إلى الرصيف ويهيأ لركوبك. لن تتحرّك القاطرة بعد الرّكوب حتى تفحص تذكرتك، وهذا الشّيء لصالحك بالطّبع . لأنّك لو ركبت في العربة الخطأ، ستسّلم إلى موظّف مهذّب، يضعك في مكانك الصّحيح، بأدب جمّ. تفحص تذكرتك وأنت على الطّريق من لآخر. فضلا تمتعك برعاية موظّفين حريصين على توفير سبل الرّاحة لك ورعايتك، بدلا من الحرص على ابتكار سبل تعكير صفوك، وازدرائك، وهو الطّابع المميّز في إدارة الملك المتوّج المغرور، مدير السّكك الحديديّة الأمريكيّة .

لكن أكثر تلك الإجراءات ملاءمة في السكّة الحديديّة الفرنسيّة، تحديد ثلاثين دقيقة لتناول وجبة العشاء! وليس خمس دقائق، تستهلك في ازدراد بعض العجائن المفتتّة والقهوة المعكرة، والبيض مجهول المصدر، ولحم البقر المطّاطيّ، وباذلاّء إعدادها لغز يملأ الجميع كآبة ونكدا، عدا ذلك الطّاهي مبتكرها! كان الأمر نّقيض ذلك، حيث جلسنا في سكينة، ونحن نمر بدايجون القديمة، تلك المدينة التي يسّهل جدا تهجّي حروفها، ويصّعب نطقها، إلاّ لو شئت تخفيفها بقولك ديميجون، تبادلنا أنخاب الرّاح البورجانديّة، والتهمنا مائدة كاملة تكفي طعام فندق، شملت فطائر الحلزون، وما طاب ولذّ من الفواكه، و سدّدنا قائمة الحساب البسيطة، وعدنا سعداء إلى أماكننا في القطار دون عبارة سبّ واحدة موجهة لإدارة السّكة الحديديّة. لقد كانت تجربة نادرة تستحق أن تبقى في الذّاكرة إلى الأبد.

يقولـون إنّهم لم يرتكبوا حوادث البتّة على هذه الطّرق، وأعتقد بصحّة ذلك. فقد مررنا لو أتـذكّر جيّدا، بطرق مخصّصة لعربات الجياد، أو عبر أنفاق ممتدّة تحتها، لكنّنا لم نعبرها البتُّة بأسلوب العربات نفسه. تبيَن لي كلّ ربع ميل نقطعه، أن رجلا يقف على الطّريق وفي يده هراوة وينتظر حتّى عبور القطار، ويشير بأنّ الطّريق آمن . كانت التّحويلة تتبدّل كلّ ميل، بجذب سلك معدنيّ ممتدّ فوق الأرض، بجوار القضيب، من محطّة لأخرى. كانت إشارات تعطى في أثناء النّهار وإشارات في أثناء اللّيل، لتحديد وضع التّحويلات وزمنها بصفة دائمة.

عجبت لكونهم لا يسجّلون حوادث في فرنسا على طريق السكّة الحديديّة. ولكن ما سبب ذلك؟ السبب أنّه إذا وقع حادث واحد، يدفع بأحدهم إلى حبل المشنقة![*] وربّما لا يشنق، وإنّما يعاقب على الأقلّ عقوبة مشدّدة حتّى يصبح الإهمال شيئا ترتعد منه فرائص موظّفي السّكة الحديدية. إنّ العبارة المضّللة والكارثيّة، والشّائعة لدى محلّفينا الرّحماء، وهي "لا يلام مسئول" يندر العمل بها في فرنسا. لو جاء الخطأ من مكتب المدير المسئول، فلا بدّ من معاقبة المسئول عنه، حتى وإن لم يثبت ضلوع مساعده فيه، وإن حدث الخطأ نفسه في الإدارة الهندسيّة، فالمهندس بالضّرورة مسئول عن إصلاحه.

يخبرنا بهذه الأمور، تلك الببّغاوات المسلية من قدامي الرحّالة، حاملي شعار "مررنا هنا من قبل"، و يعرفون فرنسا كما لا يعرفها لويس نابليون، ليس الآن ولا في المستقبل. يخبروننا بهذه الأشياء ونتقبل ذلك منهم على محمل الصّدق لأنّنا نعتبرهم أشياء مسلية قابلة للتصديق، ولأنّهم خير مثال وأهل للخضوع التّام للنّظام والقانون، المحيطين بنا في كلّ مكان.

لكننا نحبّ قدامي الرّحالة، ونحبّ أن نصغي إلى هذرهم، وبهتانهم وهرائهم. يمكننا التعرّف إليهم بمجرّد لقائنا بهم. تراهم يصّدون بعض مرهفي الحسّ، ولا يدلون دلوهم، حتّى يستطلعوا رأى كل على حدة، ويتأكدون من أنّه لم يسبق له السفر. عندها يفتحون صمام الضّبط، ويتركون العنان للاستعلاء، والتّهكم بالآخرين، والتكبّر عليهم، وسبّ اسم الحقيقة المقدّس! فهدفهم الرئيس والأخير، إخضاعك، وإشعارك بالدّونية والتّفاهة، وتصغيرك أمام هالاتهم الكونية! لن يدعوا لك شيئا تعرفه، كما يتهكّمون بأكثر آرائك براءة، ويضكحون بتبلّد من أحلامك النّادرة ببلاد غريبة، ويسفهون روايات أعمامك وعمّاتك في هذا السّياق، ويعتبرونها الأسوأ. ويقللون من شان أكثر كتّابك ثقة. ويهدمون التّماثيل الجميلة، التى نصبوها لك هم وجعلوا منها قبلة تعبّدك، بوحشية صادّ للمقدّسات لا يعرف الرّحمة! لكنّي ما زلت أحبّ قدامى الرّحالة، وذلك لبلههم الواضح، وقدرتهم الخارقة على

(*) يعملون هنا بمبدأ معاناة بريء واحد خير من معاناة خمسمائة.

التحمّل، وغرورهم الأبله حتّى الضّحك، وشدّة خصوبة أخيلتهم، وإثارتهم الهلع في نفوس الآخرين، وجاذبيّتهم، واحترافهم الكذب البيّن !

انطلقنا مرورا بـ"ليون، و" ساوني" (حيث شاهدنا سيّدة ليون وشغلنا قليلا بحسنها) وبفيلا فرانكا، وتونيري، وسنس المهيبة، ومولان، وفونتينيبلوا، وعشرات عن المدن الأخرى الجميلة، ناهيك عن مرورنا سريعا بمراغات الدّواب، والأسيجة المحطّمة، ومراعي البقر، ودور عارية من الطّلاء، وأوحال، كما لم تنقطع ملاحظاتنا لانتشار النّظافة، والنور، وذائقتهم العالية في الزخرفة والتجمّل، في محيط شجرة أو التفاف سياج. وما يلفت من طرق في أحسن صورها، خلت من حفر أو عيوب، أو حتّى مجرّد ميول على السطح. انطلقنا ساعة تلوّ الساعة في هذا اليوم الصيّفي المشرق، ودخلنا باقتراب حلول المساء، غابة من الزّهور العطرة والشّجيرات، قطعناها سريعا بالقطار، ما أثارنا وأدخل في قلوبنا البهجة، ونحن بين شكّ ويقين، في أنّنا مجرّد أداة يلهو بها حلم جميل، وما أعجب ما وجدنا أنفسنا، قد توقفنا في باريس العظيمة !

ما كان أروع من تلك الإجراءات المتّبعة في محطّتها الكبرى. فقد خلت من التّزاحم الشّديد، والاحتكاك بالآخرين والصّياح والسبّ، وفرض تقديم خدمات بصلف، من قبل مشاكسين من الحونيّة. وقف أهل تلك الطّائفة خارج المحطّة، وقفوا بجانب عرباتهم في هدوء، لا ينطقون بكلمة. تبيّن أن واحدا من هؤلاء، يقوم بمفرده على إدارة شئونهم. وقد استقبل الرّكاب بأدب جمّ، وقادهم إلى وسيلة التنقّل التّي يرغبونها. ثمّ أبلغ السّائق بمقصد الرّاكب. انتهت المسألة عند هذا الحدّ، بلا شكاية أثارها غلوّ في أجرة الرّكوب، أو لغط دار حول أي شيء . وخلال فترة وجيزة، كنّا ننطلق عبر شوارع باريس، تغمرنا البهجة ونحن نتعرّف على أسماء وشوارع بعينها، طالما علمنا بها من الكتب . بدا الأمر أشبه بلقاء صديق قديم، ونحن نقرأ لافتة على منعطف تحمل اسم شارع "روي دي ريفولي ". وتعرّفنا على قصر اللّوفر الفسيح، كما كنّا عرفناه من صورته، وحين مررنا بعمود يوليو، لم نكن بحاجة إلى من يخبرنا عنه، أو من يذكّرنا بأن الباستيل المروّع، كان قائما يوما مكان العمود، وكان مقبرة لآمال البشر وسعادتهم، ذلك السّجن، الذّي طوت زنازينه يوما، كثير من خيرة الشّباب، وقد تحوّلوا فيه إلى أرذل العمر، وأدرك بالهوان، كثيرا من الأرواح الطّاهرة، وحطّم كثيرا من القلوب الشّجاعة.

حجزنا غرفا في أحد الفنادق، أو حصلنا بالأحرى على ثلاثة أسرّة في إحدى الغرف، كي نبقى سويّا ولا يفارق أحدنا الآخر، وتوجّهنا بعد ذلك إلى أحد المطاعم، وقت إضاءة مصابيح الغاز في الشّوارع، وتناولنا عشاء طيّبا مرضيا. كان أمرا سارا تناولنا العشاء في مكان يخضع لترتيبات دقيقة، فقد حسن طهو الطّعام، وتعامل النّوادل معنا بأدب جمّ، وبدا القادمون والرّائحون من روّاده على صورة من التأنّق بتكثيف الشّارب، وطلاقة وسماحة الوجوه، وبدوا جميعا بطابعهم الفرنسي، الذى يدعو إلى الدهشة والعجب. طغت على المكان مشاعر البهجة والحركة والنّشاط. جلس مائتا فرد إلى طاولات صغيرة، على جانب الطّريق، يحتسون الخمور، ويرتشفون القهوة، واحتشدت الشّوارع بالعربات المضيئة، وبراغبي المتعة، وسرت في الجوّ أنغام الموسيقى تدفّقت الحياة أوالحركة من حولنا. وعم ضوء المصابيح المشتعلة بالغاز كلّ مكان.

شعرنا بعد تناول الغداء، وكأنّنا نرى ذات الطّابع الباريسيّ، المميّز، بالقدر الذّي نريد دون أن نتجشّم في ذلك كثير عناء، وتباطأنا عبر شوارع باريس المؤتلقة بالنّور. ورأينا كعكة التّرفيل المحلاّة بالخمر والمربّى والفاكهة والكريمة المخفوقة، تباع في حوانيت عدّة. ورأينا متاجر الصّاغة، ووضعنا الفرنسيين من باب الفراسة فحسب، في مواقف محرجة، بتوجيه استفسارات إليهم، بلكنة تختلف عن لكنتهم الأمّ، فأسقط في أيديهم، حتّي حوصروا، وأمطروا بمزيد من الاستفسارات، وأرعبوا بمسلكهم اللّغوي الرديء نفسه، وأسماء الفاعل فيها والمفعول .

لاحظنا أنّ لديهم في حوانيت الصّاغة معروضات، أشاروا إلى أنّها من الذّهب الخالص، وأشاروا إلى أخرى بـ "المقلّدة" . وتعجّبنا من إسراف في الصّدق يبلغ هذا الحدّ، واستطلّعنا الأمر. فأخبرونا بأنّه ما دام لا يعرفون النّاس التمييز بين الأصليّ والمقلّد، فإن الحكومة تجبر الصّاغة على تحليل ودمغ المشغولات الذّهبية بصفة رسميّة، بحسب درجة نقائها، أماّ الحليّ المقلّدة، فلا بدّ من أن يعلن عنها بما يشير إلى ذلك .أخبرونا أيضا بأنّ الصّاغة لا يجترأون على خرق هذا القانون، وما من أجنبيّ يقدم على الشّراء من متاجرهم، إلاّ يتبع معه هذا النظام بكل دقّة. إنّ فرنسا لبلد عظيم بحقّ!

قصدنا بعد ذلك دكّان حلاقة. كنت أصبو كثيرا في أوائل صباي، إلى الحلاقة يوما في حانوت حلاقة باريسيّ فخم. تخيّلت استلقائيّ بأريحيّة تامّة على كرسيّ معطوب وثير، تحيط بي اللّوحات التصويرية من كلّ جانب، فضلا عن الأثاث الفخيم، وتترامى فوقي الجدران الجصّيّة والأقواس المطليّة بماء الذّهب، و مجازات من الأعمدة الكورنثيّة، ممتدّة أمامي، وعطور العربي تخدّر أحاسيسي، ونبرة رتيبة كسلى، آتية من ضوضاء بعيدة عن المكان، تسلمني إلى النّعاس. وأستيقظ رغما عنّي بعد ساعة، فأجد على وجهي نعومة وجه الطّفل.

وأرفع يدي عند رحيلي، إلى رأس الحلاّق وأقول له :

"ليباركك الله يا بنّي ".

فتشنا لساعتين كل الأماكن، ولم نتمكن أعيننا من رؤية دكّان واحد للحلاقة. رأينا مجرّد ورش لصناعة الباروكات، مع كتل كثّة من الشّعر الجامد المقزّز، قد أحكم فوق رءوس قطاع طرق، صنعوا من الشّمع الملوّن، وتفرسوا المارّة بعيونهم الحجريّة خلف صناديق زجاجية، وأفزعوهم بسحنهم الشاحبة المخيفة. نأينا بأنفسنا عن قسمات تلك السّحن، لكننا توصلنا آخر الأمر، إلى أن صنّاع الباروكات، فضلا عن كونهم كذلك فإنّهم حلاقون بالضرورة، ما دمنا لم نعثر على ممثّل معتمد لتلك الطّائفة. دخلنا الحانوت واستوضحنا الأمر، وثبتت صحّة تحزيرنا.

أبديت رغبتي في الحلاقة. واستفسر الحلاّق عن مكان غرفتي، فقلت له: لا شأن للغرفة بذلك، فأنا أريد الحلاقة في حانوته. أبدى الطبيب رغبته في الحلاقة أيضا. دار لجج بين هذين الحلاّقين ! تحوّل إلى مداولة انفعالية، أعقبتها هرولة هنا أو هناك، ثم تجميع محموم لأمواس الحلاقة من أماكن خفية، وبحث دقيق عن صّابون.أعقب ذلك اقتيادنا إلى غرفة خلفيّة كئيبة مقززة بعض الشيء، بها مقعدين عاديين من مقاعد غرف الاستقبال، أجلسونا عليهما بمعاطفنا. ضاع أدراج الرياح حلمي القديم ... القديم، بالنّعيم.

جلست على المقعد، باستقامة سهم، يلفّني صمت وحزن وغم. أرغى صانع الباروكات الشرير وجهي بالصّابون لعشر دقائق، وانتهى إلى حشو فمي بكتلة من الرغاوي. مججت

الرغاوي المقرفة من فمي برغاء إنجليزي سليط، وقلت : "حذاري أيّها الغريب" شحذ هذا المجرم، موسيَه على ساق حذائه، وحوّم فوقي بدوره متوعدا لستّ ثوان مرعبة، ثمّ حطّ فوقي بجسده كملك الموت. خلعت أوّل كشطة من موسيّه بشرتي عن وجهي واقتلعتني من مكاني. انتابني هذيان وهياج، واستمتع بقيّة الشّباب بذلك. لم تكن لحاهم من الطّول أو الكثافة. دعونا ننزل الستار على هذا المشهد المرعب، ويكفى أنّنى قد أذعنت، وتحمّلت العذاب الأليم، بحلاقة على يد حلاّق فرنسي، وانهمرت دموع الكرب الحارّة على خديّ، لكنّي نجوت. أمسك السّفاح البدائي بطست به ماء وضعه تحت ذقني، ورش وجهي وصدري من الداخل بمحتوياته، وأسفل قفاي، متذرعا في خسّة بإزالة الصّابون والدّماء. جفف معالم وجهي بمنشفة، ثمّ بدأ يمشط شعري، فأمرته بألاّ يفعل . قلت بتهكّم غير صريح، بأنه يكفني سلخ جلدي فحسب، فانتهي الأمر بجزّ فروة رأسي جزّا. غادرت المكان، وأنا ألف وجهي بمنديلي، لن تراودني بعد ذلك مطلقا، رغبة في الحلم بحوانيت حلاقة باريسية فخمة. أعتقد بعد أن تبينت لي الحقيقة، أنّهم يفتقرون في باريس إلى حوانيت للحلاقة تستحق أن تحمل هذا الاسم، وأيضا إلى حلاّقين يحملون تلك الصّفة. إنّ من ينتحل صفة حلاق هنا، يأتي بأوعيته ومناشفه، وأدوات التعذيب، إلى محلّ إقامتك، ويحرص على سلخك داخل مسكنك. أجل، لقد عانيت الأمرين وتعذّبت هنا في باريس، ولكن لا عليكم، لأنه سيأتي اليوم الذّي أثأر فيه لنفسي ثأرا رهيبا. سيأتي يوم يأتي إلى غرفتي حلاق باريسيّ، وسيسمع منّي من الآن فصاعدا المزيد.

خففنا في الحادية عشر إلى التّوجّه للعب البليارد حال الإشارة إلى ذلك. ويا لبهجتنا بالبليارد . لعبنا البليارد في الآزور، بكرات لا تحمل صفة الاستدارة، وعلى طاولة قديمة، تقلّ نعومة عن رصيف حجريّ، قد أخنى عليها الدّهر بوثار هامد، وقماشة باهتة، وحواجز غير ظاهرة، جعلت الكرات ترسم زوايا عجيبة لا تثير شك اللاعب، وتحقق أرقاما بضربات إعجازية وغير مستهدفة أصلا. وكلها صائبة، ما زاد من دهشتنا تماما. لعبنا في جبل طارق، بكرات في حجم الجوز، على طاولة أشبه بميدان عام، وشعرنا في الحالتين بما رجّح استياءنا الشديد ونأي بنا عن وسائل للترفيه. توقّعنا أن نحقّق نجاحا هنا، وخاب توقّعنا. فبطانة حافة الطّاولة تعلو كثيرا عن مستوي الكرات، وقد حققنا بعض نجاح في لعبة الكرومة (لعبة في البليارد تحقّق الضربة الواحدة فيها إصابتين). كانت البطانة خشنة

تفتقر إلى الليونة، والعصَي معوجّة، ما جعل الأمر يتطلب في الضّربة الواحدة أن تتحسب للميول أو تتجنب الوقوع في الخطأ بوضع كلمة "إنجليزي" على الجانب الخطأ من الكرة. كان دان يسجّل لنا النقاط، في أثناء لعبي و الطّبيب. ومرّت ساعة لم يحقّق أيّنا نقاطا، فأدرك دان الملل، كونه ظل يعمل كمسجّل لنقاط لم نحرزها، غمرنا شعور بحرارة الجو واستياء وكدرا. سدّدنا قائمة حساب ضخمة، "ستّة سنتات"، واقترحنا القيام بنزهة لبعض الوقت، حال تيسّر لنا ذلك، وأنهينا اللّعب .

تحوّلنا إلى إحدى المقاهي الجميلة، وتناولنا العشاء، وتذوّقنا خمور البلدة، حيث نصحنا بها، ولم يصدر عنها صداع ولا نزف. وربما أتت رغم ذلك. بصّداع ونّزف، لو أننا احتسينا قدرا كبيرا من المدام.

قصدنا الآن غرفتنا الفسيحة في فندق دي لوفر الكبير. كي ننهي هذا اليوم في باريس بغبطة وانشراح، واعتلينا أسرّتنا الوثيرة، كي نقرأ وندخّن، ولكن وا أسفاه :

ما دعا إلى الأسي

في مدينة كبيرة مكدّسة

أنّنا دون غاز

لا غاز للقراءة. ولا شيء سوى شموع ذبل ضوئها، ما يدفع بالنفس إلى الإحساس بالأسى. سعينا إلى حلّ ألغاز الكتاب الفرنسي "دليل السّفر إلى باريس"، لوضع ترتيبات لجولات الغد، وتبادلنا حوارا متقطّعا، في محاولة يائسة لبحث ما واجهناه من مفارقات جائحة، في مشاهد اليوم وأحداثه. وانتهينا إلى تدخين التّبغ في استرخاء، وغشينا تثاءب وملل. وتقلب في الفراش، وساءلنا أنفسنا في حيرة، عما لو أننا فعلا وواقعا في باريس الشّهيرة، وانتقلنا نعاسا إلى ذلك الفراغ الغيبيّ الفسيح، الذّي يطلقون عليه سباتا.

الفصل الثّالث عشـر

نهضنا صباح اليوم التّالي، ولبسنا الثياب في العاشرة. توجّهنا إلى كوميشينير الفنـدق. ولست أعرف كنه هذا الكومشينير، لكنّه الرجل الذى قصدناه، أبلغنا بحاجتنا إلى دليل مرافق . ذكر أنّ المعرض الدولّي الكبير، قد جذب أفواجا من الإنجليز والأمريكيين، إلى باريس، ومحال الآن العثور على دليل خارج الخدمة، وذكر أنه دأب على إبقاء دستة من الأدلاء أو دستين، ليكونوا طوع بنانه، لكنّ ما لديه منهم الآن ثلاثة. أرسل في طلبهم. بدا أحدهم على صورة قرصان. فصرفناه من فورنا. تحدّث الآخر بنبرة قاطعة تكلّف فيها الابتسام، ما أثار استياءنا، وقال بإنجليزيّة سوقيّة ركيكة:

"لو وافق السّادة على منحي الشّرف الكبير، للعمل في خدمتهم. سأفرّجهم على كلّ ما يستحق المشاهدة في باري الجميلة. وإنني أتحدّث الإنجليزيّة بطلاقة تامّة".

كان خيرا له أن توقّف عند هذا الحدّ، فذلك ما حفظه عن ظهر قلب ليسمعنا إيّاه، دون أن يفوته شيء منه. لكنّ غروره، قاده إلى مواضع خفية في الإنجليزّية. وكانت المحاولة سببا في دماره. أوقع نفسه خلال عشر ثوان في أحبولة من أفعال لغوية مجزوءة و صياغة عبارات إنشائيّة نمطيّة لا رابط بينها، بحيث لا يقوى ذكاء بشر على الخروج منها بشيء ذي مغزي. تبيّن أنّه لا يتحدّث الإنجليزيّة بالطّلاقة التّي زعمها.

فرض الثّالث علينا حصارا. تزيّي زيّا بسيطا، يشي ببعض تأنّق. واعتمر قبّعة مخملية سامقة، قديمة بعض الشّيء، روعي تنظيفها بالفرشاة. وحمل عصا صغيرة من نبات الروطان بها مقبض معقوف، وساق عاجية صلبة. ولبس قفّازين من جلد الماعز حالتهما جيّدة. ثم تقدّم بخطى رشيقة، كهرّ يعبر شارعا موحلا. فوا عجبا، لما أبداه من كياسة وهدوء طبع، ذلك هو الاحترام بعينه! تحدّث بانضباط ورقّة، وكان إذا أقبل على الإدلاء بإفادة على عهدته الخاصّة، أو أبدي رأيا، حرص مسبّقا على وزنه بالدّراهم والسّكروبيات (وحدة وزن دقيقة). ووضع الجزء المعقوف من عصاته بين أسنانه الأماميّة.

اتّسمت افتتاحية حديث بالانضباط، من حيث بناء الجمل، والسياق، وقواعد اللّغة، والتشديد على الألفاظ ومقاطعها ومخارجها، وكلّ ما عدا ذلك. تحدّث بعدها بإيجاز وحرص. فتنّا به بل ازداد فرحنا به، واستأجرناه على الفور. لم نسأله عنما يطلب من مقابل. إن هذا الرّجل هو خادمنا وعبدنا الخانع، مع أنّه لا يزال سيّدا حراً. في حين كان أحد الاثنين الآخرين متصلفا جلفا، وكان الآخر قرصانا بالتنشئة. استفسرنا من رجلنا عن اسمه المعتمد، فسحب من كتاب الجيب الذّي يحتفظ به، بطاقة بيضاء وقدّمها لنا بتواضع جمّ :

أ.بيللفينجــــر

دليل سياحي، لباريس، فرنسا، ألمانيا

إسبانيا ..إلخ . إلخ

جرانـــــــد أوتيل دي لوفر

" يا للهول، بيللفنجر! " ردّني إلى بلادي كي أقضي فيها نحبي".

كان هذا تعليقا جانبيا من "دان". أيقظت خشونة الاسم الرهيب أيضا كلّ مسامعي. يستطيع أغلبنا أن يتعلّم السّماحة، والتّآلف في البدياة مع سّحنة تفرض علينا بصورة منفّرة. لكنّي أظنّ أن قلّة هي التي تتقبل لقبا صادما كهذا بأريحـيّة تامّة. كدت أحسّ بندم جرّاء استئجارنا الرّجل. فاسمه فوق كلّ احتمال. ورغم ذلك كلّه تقبلنا الأمر. فقد كنا نصبو إلى التّحرك بعد أن فاض بنا الكيل. اتّجه بيللفينجر نحو الباب واستدعى عربة، فقال الطّبيب:

"عجبا، إنّ الرجل مثل حانوت الحلاقة، وطاولة البليارد، والغرفة الخالية من الغاز، وربّما حكايات أخرى رائعة عن باريس. توقّعت أن أتعامل مع دليل، يحمل اسم هنري دي مونتجمري، أو أرمان دي لا شارتريه، أو لقبا يكون له وقع الصدى، في الرّسائل التّي نبعث بها إلى أهلنا القرويين في الوطن، ولكن أيخطر ببالك أنّ فرنسيًا يحمل اسم بيللفنجر! أوه، تعلم يا صديقي أن هذا لا يقبله عقل، ولن يأتي هذا بخير أبدا، ولن نقوى على نطق بيللفينجر، فهذا يشعرني بالغثيان، أطلقوا عليه لقبا جديدا: فماذا عسانا نطلق عليه؟ آليكسس دو كولينكورت؟".

اقترحت تسميته "ألفونس هنري جوستاف دي هوتيفيل".

قال دان: نسمّيه " فيرجوسون ".

كان ذلك رأيا طيّبا جمع بين الواقعيّة والجدّية. تحولنا دون نقاش، عن بيللفنجر. لقب بيللفنجر، وسميّناه فيرجوسون.

أعدّت برّوشة (عربة تجرّها الجياد) مكشوفة للرّكوب. صعد فيرجوسون، إلى جوار الحوذيّ، وهرولنا نحن لتناول الإفطار. وقف فيرجوسون حسب المتّبع، ينقل مطالبنا، ويجيب عن الاستفسارات. أشار هذا المراوغ الدّاهية إشارة عابرة بين آن وآخر، إلى أنّه سيذهب لتناول إفطاره بمجرد أن نفرغ من إفطارنا. علم بأنّنا لا نستطيع التحرّك من دونه، وأننا لا نستطيع التحرك هنا أو هناك، وأننا نترقّب وصوله. سألناه الجلوس، وتناول الإفطار معنا. فرجانا بانحناء متتابع، قبول اعتذاره. ذكر أنّ في هذا خروجا على العرف، وأنّه سيقعد على طاولة أخرى. أصدرنا إليه فرمانا بالجلوس معنا.

انتهى الدرس الأوّل عند هذا الحدّ. لم ينقطع منذ تلك اللّحظة شعور هذا الشّخص بالجوع والعطش، طيلة فترة مرافقته إيّانا. فما فاته مطعم قطّ، سواء أتاه مبكّرا أو في وقت متأخّر، وما فاته حانوت خمر إلا رنا إليه بعين فاسق. لم يكفّ عن الإيحاء شفاهة، عن التماس التّوقّف لتناول طعام أو شراب. حاول الجميع قدر استطاعتهم. شحنه بحمولة كاملة من الطّعام، بحيث لا يجد متّسعا في بطنه حتّى الليلة التّالية، وبؤنا بالفشل. فالرجل لم تكن لديه القدرة على كبح جماح شهيّة جائحة.

كان لديه أيضا ما يشي بمفارقة. فقد كان دوما يحثّنا على شراء أشياء. وكان يغرينا بحجج واهية، بدخول متاجر تبيع القمصان، وأخرى للأحذية، وثالثة للحياكة أو بيع القفّازات، ويغشى أيّ مكان تحت قبّة السّماء تهيأت فيه فرصة للشراء. لم يجرأ أحد على الظنّ باتّفاقه مع البائع على نسبة محتسبة له من المبيعات، ولم يستطع أيّنا بسذاجته المبروكة التّوصل إلى حقيقة في هذا الشان، حتّى صار هذا المسلك سلوكا معتادا منه وفوق الطّاقة. حدث أن وردت على لسان دان، رغبة في شراء ثلاثة قطع من الحرير يقدّمها هدايا لآخرين. ركز فيرجوسون عليه عينه الشّرهة في التّو واللّحظة. توقّفت العربة بعد عشرين دقيقة.

"ما الخطب ؟".

"هذا أفضل متجر حرير في باريس، فضلا عن أنّه الأشهر".

"ما بالك تأتي إلى هذا المكان، لقد طلبنا الذّهاب إلى قصر اللّوفر!".

"أرى أيّها السّادة، أنّ لديكم رغبة في شراء حرير".

" ليس مطلوبا منك يا فيرجوسون تحزيرا بالأصالة عنّا، ولا نريد أن نحمّلك فوق طاقتك. وسنتحمل نحن بعض أعباء اليوم وحرارته. ونسعى نحن إلى التحزير، حين يلحّ الأمر. فاسع بنا ". هكذا قال الطبيب.

توقّفت العربة مجدّدا بعد خمس عشرة دقيقة، أمام متجر حرير ثان. فقال الطّبيب: "آه، إنّه قصر اللّوفر، هذا جميل، مبني جميل! أيقيم الإمبراطور فيه الآن يا فيرجوسون".

"عجبا، يا دكتور! أنت تهزر، ليس هذا بقصر، حيث لم نكن لنتوقف في طريقنا إليه. ولكنّ طالما مررنا بهذا المتجر، حيث الحرير رائع ـــ".

" أجل، أدرك، أدرك ذلك. قصدت إخبارك بأنّنا لا نريد شراء حرائر اليوم، ولكن ذلك غاب عن بالي الذى جبل على النسيان. قصدت أيضا إخبارك برغبتنا في الذّهاب مباشرة إلى اللّوفر، لكنّي نسيت ذلك أيضا. ومع ذلك سنذهب إلى هناك الآن. أعتذر عن غفلتي الواضحة. فامض، بنا يا فيرجوسون".

عاودنا التوقّف بعد نصف ساعة، أمام متجر حرير ثالث. شعرنا باستياء شديد، لكنّ الطّبيب كان على عهده رقيق الحاشية والصّوت، حيث قال:

"أخيرا، يا لمهابة اللّوفر، ويا لصغره أيضا! يا لجمال طرازه، وسحر مقامه! إنّه مشيد، مبني مشيد ـــ".

"عذرا يا دكتور، فهذا ليس باللّوفر، .... إنّه ـــ".

"ماذا عساه إذن؟".

" عندي فكرة، قد واتتني الآن، بشأن حرير هذا المتجر ـ".

"أي فيرجوسون. يا لغفلتي. لقد قصدت بالكلّية إخبارك بأنّنا لا ترغب في شراء حرير اليوم، وقصدت أيضا إخبارك بأنّنا اشتقنا الآن. للذّهاب إلى قصر اللّوفر، لكنّ تلذذي بمتعة مشاهدتك، وأنت تلتهم أربع وجبات إفطار هذا الصّباح، أفعمتني بمشاعر البهجة لأنّني أغض الطّرف عن أهم شواغل العصر. وإنّنا رغم ذلك كلّه ماضون الآن إلى اللّوفر يا فيرجوسون".

"لكنّ يا دكتور (منفعلا) لن يستغرق سألك (ذلك) لحسة (لحظة). دقيقة واحدة فحسب! ليس مطلوبا من هذا السيد الشراء، طالما انعدمت لديه الرغبة في ذلك، ولكنّ ليتفرّج على الحرير فحسب، يتفرج على خامة الحرير الجميلة. (ثم بنبرة توسّل) مجرد دقيقة فحسب يا سيّدي ' ".

قال دان : "تبًا للأبله! لارغبة لي اليوم في الفرجة على أيّ حرير، ولا أرغب في رؤية شيء منه البتّة. هلمّ بنا ".

وقال الطّبيب: "لسنا الآن في طلب حرير، يا فيرجوسون. فقلوبنا تهفو، إلى اللّوفر. فهلمّ بنا ".

"لكن يا دكتور! إنها دقيقة فحسب، دقيقة واحدة فحسب. وسيسعفنا الوقت. هناك فسحة كاملة منه ' ليس هناك ما يشاهد الآن، فالوقت متأخر جدًا لا يتبقّى سوى عشر دقائق على الرابعة. واللّوفر يغلق أبوابه في الرّابعة. دقيقة قصيرة فحسب يا دكتور ' ".

يا لذلك الوغد المخادع! يخدعنا بتلك الخدعة الوضيعة بعد أربع وجبات إفطار، وجالون شمبانيا. لم نلق ذلك اليوم نظرة واحدة على ذخائر الفنون، تلك التّي لا تعدّ ولا تحصى في اللّوفر. لكنّ عزاءنا الوحيد الزّهيد، كان ما لحق بفيرجوسون من خزي، حيث لم يسّوق لقطعة واحدة من ثوب حريريّ. إنّني أكتب هذا الفصل لاقتناعي من جهة بصواب إساءتنا إلى هذا الدعيّ البارع بيلليفنجر، ولأبيّن من جهة أخرى، لكل من يقرأ ذلك من الأمريكيين، أن شئون سفرهم داما ما تقع رهن أدلاّء باريس، وحتى أوضّح صورتهم بين البشر. لا يحتاج الأمر إلى الظنّ بأننا بدونا أكثر حمقا وغفلة من بني جلدتنا كافة، ولسنا كذلك. الأدلاّء يخدعون ويحتالون على كلّ أمريكيّ يسافر إلى باريس للمرّة الأولى، ويرى معالمها بمفرده، أو ضمن مجموعة من أفراد قليلي الخبرة مثله. سأعاود زيارة باريس يوما

ما. وليحذر الأدلاّء مني آنئذ! سأزورها في لباس الهنود الحمر الخاص بي، وأحمل في يدي التّوماهوك (الفأس أو البلطة التي يستخدمها الهنود الحمر في الزّراعة والحرب).

أظنّنا لم نضلّ الطريق في باريس سوى مرّات قليلة. كنّا نذهب إلى الفراش كلّ ليلة، وقد أدركنا الإعياء. زرنا المعرض الدّولي الكبير بطبيعة الحال، فكلّ النّاس يفعلون ذلك. توجهنا إليه ثالث يوم لنا في باريس، وبقينا هناك ساعتين تقريبا، وتلك هي الزّيارة الأولى والأخيرة للمعرض. وإنه إحقاقا للحقّ، كان حريّا بالمرء، قضاءأسابيع في هذا الصرح الضّخم، بل قضاء شهور، كيّ نلمّ بفكرة جليّة عنه. كان المعرضا رائعا، لكنّ الكتل البشر المتحرّكة من كلّ أنحاء العالم، تلك التي شاهدناها، كانت الأروع. اكتشفت أنّني لو قضيت شهرا هناك، سأجد نفسي متأملا البشر بأكثر من مشاهدة المعروضات، المكدّسة بكل مكان في المعرض. لفتتني بعض الشّيء لوحات قديمة جذّابة من فنون التّطريز، من القرن الثّالث، لكن جماعة من العرب، مرّوا بنا، شدّت وجوههم الجهمة وأزياؤهم الغريبة انتباهي عنها.

رأيت بجعة فضيّة، أبدت في حركتها رشاقة لافتة، وشعّ من عينيها ذكاء حادّ، رأيتها تسبح في انسيابيّة وهدوء، وكأنّها قد ولدت في مستنقع، وليس في حانوت جواهري، رأيتها تستولي على سمكة فضّيّة تحت الماء، وترفع رأسها، وتؤدّي بدقّة واعتياديّة حركة ابتلاع السمكة في جوفها، ولكن لحظة هبوطها إلى الحلق، اقترب منّي بعض المتوشّمين، من سكّان البحر الجنوبيّ، فأذعنت لصورهم العجيبة. عثرت للتوّ على مسدّس دوّار يعود إلى مئات السّنين، بدا من غرابته كأنّه حديث العهد، لكنّني في اللحظة نفسها سمعت أنّ إمبراطورة فرنسا كانت داخل جزء آخر من المبني، وسرعان ما ظهرت لتتحقق من صورتها في عيون الشّعب. سمعنا ألحانا عسكريّة، ورأينا عددا من الجنود يتقدمون بخطي سريعة ودبّ في الناس نشاط كبير. واستعلمنا الأمر، فعلمنا أنّ سلطان تركيا، وإمبراطور فرنسا، سيستعرضان قوات عسكرية تقدّر بخمسة وعشرين ألف فرد في آرك دي إتوال. غادرنا المكان من فورنا. كان شوقي إلى رؤية هؤلاء يفوق رغبتي في مشاهدة ألف معرض.

ذهبنا إلى المكان، واتخذنا موضعا لنا، في أرض فضاء مواجهة لمنزل السّفير الأمريكي. أقام أحد المتفرّجين رافدة من برميلين، وقطاعا خشبيا، واستأجرنا أماكن، للمشاهدة من فوقه. وصل إلينا صوت الموسيقي من مكان بعيد، وظهر بعدها مباشرة عمود من الغبار.

يتحرّك في اتّجاهنا ببطء، أعقبه ظهور ألوان متطايرة في الجوّ ودوّي كبير للموسيقي العسكرية، وصل إلى الشّارع طابور منتظم من فرقة الخيّالة، يمشي بخطى رشيقة. جاء بعد ذلك طابور طويل من سلاح المدفعيّة، تلاهم مزيد من الخيالة، بلباس عسكري رائع، وأعقبهم قائد الإمبراطوية المعظّم نابليون الثّالث، وبصحبته عبد العزيز. رفعت الحشود البشريّة قبّعاتها وهتفت، وضجّت النوافذ وأسطح البيوت بعاصفة بيضاء من المناديل الملوّحة، واختلط هتاف الملوحين، بهتاف تلك الكتل البشرية الواقفة تحتهم على الطّريق. وكان مشهدا يضجّ بالإثارة والحركة.

أما أكثر ما لفتني فيه، فكان الشّخصيتين الرئيستين. فهل حدثت من قبل مفارقة كتلك أمام جمع من البشر حتّى تلك اللّحظة؟ حيث يظهر نابليون بلباسه العسكريّ، ضخم الجثّة، قصير القامة، كثّ الشارب، مغضن البشرة، وبعين نصف مغمضة، وسيماء تشي بمكر ودهاء وحيطة، ويردّ هتاف الحشود المدوي بانحناء رقيق، ينظر إلى كلّ شخص وكلّ شيء ببصر ثاقب، من أسفل حافّة قبّعته الخفيضة، كأنّه يفعل ذلك ليستيقن من أنّ تلك الهتافات نابعة فعلا من قلوب الحاضرين.

أمّا عبد العزيز، فهو سيّد بني عثمان لا مراء، ظهر بثياب أوروبيّة خضراء قاتمة، تكاد تخلو من أية زينة، أو ما يشير إلى مكانة، من أنواط أو شارات أو نياشين، واعتمر طربوشا تركيّا أحمر، وبدا بدينا قصير القامة، وأسمر البشرة، أسود اللّحية والمقلة، أحمقا، يفتقر إلى الجاذبية، ويدل مظهره العام بشكل أو آخر أو بأخرى، بأنّه لو أمسك ساطورا في يده، ووضع عليه مريلة بيضاء، فلن يصاب أحد بدهشة لو سمعه يقول. "لدينا اليوم شرائح من الضأن المشويّ، أم ترى آتيك شريحة طازجة من لحم البقر؟".

كان نابليون الثّالث يمثّل أرقي الحضارات، حداثة وتقدّما وازدهارا، وكان عبد العزيز، يمثّل شعبا، يتخذ القذارة والحمق والجهل والتخلّف والإيمان بالخرافة، مسلكا وثقافة، ولديه حكومة تنعم عليه بثلاث خصال هي الطّغيان، والنّهب، وسفك الدّماء، وهنا في باريس الجميلة وتحت قوس النّصر تتمّ مصافحة بين القرن الأوّل الميلادي، والقرن التّاسع عشر.

ها هو نابليون الثالث، محاط بآلاف المهللين، وبموكب من جيش عظيم، وعاصمة بهيّة. ويصحبه الأمراء والملوك، وهو الرّجل الذي شيّع بالغمز واللمز. ونعت بالوغد، رغم حلمه طوال الوقت بتاج وإمبراطورية، والرجل الذي طرد إلى المنفي، ليحمل أحلامه معه. وينضمّ في أمريكا إلى الرابطة المشتركة للأمم، وتقدّم من خلالها بثبات، لتحقيق ماراهن عليه. لكنّه ظل في مخيلته جالسا على عرشه، وواجه كلّ المخاطر كي يسافر إلى أمّه المحتضرة وهي على فراش الموت. وحزن لأنّها لم تكتب لها الحياة، حتّى يراها. وقت كان ينضو عنه ثوبه الخشن، ويلبس رداء الملك الأرجواني، ويحتفظ بلقب الحارس الأمين. وقد حقّق من قبل وبخطي مضنية منصب شرطيّ لندن العموميّ، لكنّه حلم بقدوم اللّيلة التّي يطأ بقدميه فيها، أروقة، التويليري، وهو الرّجل الذّي قدم القليل من اللّوحات الجصّيّة على الجدران الجداريّة في أستراسبورج. ورأى نسره البائس الهزيل غافلا عن اتّخاده عبرة له وهو صاحبه، رافضا أن يحطّ على كتفه. وألقى ببيان تردد صداه على أسماع المعارضين، كان قد أعده بكل دّقة، وجد نفسه أسيرا، وموضع سخرية ظرفاء مغمورين، واستياء لا يتراجع من قبل الكافة. ولكنهّ كسابق عهده قد حلم بالتّتويج ومواكب المجد. وهو يقبع في زنازين "هام " و ظل كسابق عهده يضع الخطّط ويتدبرها ويتطلّع إلى نصر مأمول، وسلطة مرجوّة، زعيما لفرنسا آخر المطاف! لقد استقبل القائد العام، الّذي تحيط به الجيوش الهادرة، بالترحيب بدويّ المدافع، وهو يعتلي عرشه، ويلوّح لمن بهروا، بصولجان إمبراطورية عظيمة! فمن ذا يروي عجائب الخيال؟ ومن ذا يثرثر بمنجزات علاء الدّين العابرة، وسحر بلاد العرب؟

أمّا السّلطان التّركي، سيّد إمبراطوريّة بني عثمان، فقد ولي عرش أمّة، تفشّى فيها أو يكاد، الجهل والغباء والضعف، اتّخذ أهلها عبيدا خانعين، وتزعّم إحدى الممالك الشّاسعة، مع أنّه ألعوبة في يد رئيس وزرائه، وولدا مطيعا لأمّ مستبدّة، وهو الرّجل الذّي يعتلي عرشا، ويحرّك بإشارة منه الأساطيل والجيوش، ويملك في يده حياة أو موت الملايين من البشر، والذى يخلد الآن إلى سبات، ويتخم بالطّعام، ويعبث بثمانمائة من المحظيات، ولو أتخم بنوم وطعام ولهو، واستيقظ وأخذ وأمسك الزّمام، وتوعد بأن يمارس مهامه كسلطان، يفتن وبمحض إرادته، من الدّاهية فؤاد باشا، بخطّة طموح تعد لإقامة قصر جديد، أو تدشين بارجة جديدة، ويفتن أكثر بدمية جديدة، شأنه في ذلك شأن أي طفل

مشاكس، مأرّق، وهو الرجل الذى يري شعبه يسرق ويظلم من جباة المال فاقدي الضمائر، ولا ينطق بكلمة واحدة تقيل عثار شعبه، ثم يؤمن بالأمثال السّائدة والجنّ وقصص ألف ليلة وليلة ومغامراتها، ولا يلتفت إلى أعاجيب السّحرة الجدد الكبار، لأنّه يأنف سكّتهم الحديدية العجيبة، والبواخر والتلغراف، ويرى أنّ ما حقّقه محمّد على العظيم في مصر عبثا، وأنّ من الأفضل تجاهله، وليس محاكاته، وهو الرّجل الذّي وجد إمبراطوريته، بقعة سوداء فوق الأرض، يغشـاهـا انحلال وفاقة وبؤس، وتزداد جهلا وجريمة ووحشية بصورة مخزية. وسوف يبدد ما عاشه من الزمن سدى، ثمّ يكون نهبا للتّراب والدّود، ويتركها على تلك الحال.

ازداد النشاط التّجاري في عهد نابليون الثّالث في عشرة أعوام، إلى الحد الذّي يصعب حصره في أرقام محدّدة. أعاد بناء باريس، وأعاد تقريبا بناء كلّ مدينة في المملكة.

كان يمنع استخدام طريق عام لفترة من الوقت، ويقدر قيمة ما نشأ عن ذلك من أضرار ويسددها. ثم يعيد إقامته على نحو سليم. يشتري المضاربون الأرض من ثم ويبيعونها، وتمنح الحكومة المالك الأصليّ الخيارا لأوّل في قبول أو رفض السعر الذى تطرحه، قبل أن يسمح للمضارب بالشرّاء. ولكن يأتي في مقدّمة هذا كلّه، أنّ الإمبراطور قد أمسك في يده بسلطة تصريف شئون الإمبراطورية الفرنسية وجعلها بلدا حرّا نوعا ما، لشعب لا يسعى إلى حدّ كبير إلى التدخّل في شئون الحكومة. لم يسبق فرنسا بلد في العالم في تأمين حياة الأفراد وممتلكاتهم، فالفرد فيها ينعم بحرّيته حيث يمضي، ولكن غير مسموح له بالمطلق بالتدخّل في شئون الآخرين أو إضرارهم.

أمّا السلطان، فيمكن لفرد واحد في بلده صنع كمين في أي مكان، والقبض على دستة من الرجال الأشدّاء في ليلة واحدة.

لقد أسقطت القيود في عهد المغامر البارز نابليون الثالث، ملاك القوّة الحارس، المثابر والمناور، أمّا عبد العزيز السّلطان الضّعيف، فهو أكثر الملائكة حرصا على الجهل، والتعصّب الأعمي، والركود، والمتواني أمام الزّحف القادم نحوه.

رأينا موكبا رائعا، يضم الجنديّ العجوز المجرّم ذا الشّارب الأبيض، كانروبرت، مارشال فرنسا، ورأينا ذلك كله، وطالعناه بأعيننا عدنا إلى مقرّنا راضين بما رأيناه.

الفصل الرّابع عشـر

ذهبنا لزيارة كاتدرائيّة نوتردام. يدهشني أحيانا تأمّل قدر ما نعرفه من أشياء، وما نتمتع به من ذكاء. عرفنا على الفور المبني بنّي اللون الضّخم والقوطيّ القديم، كما تصوّره اللّوحات. وقفنا على مسافة قصيرة منه، ثمّ انتقلنا من موقع للمشاهدة إلى موقع آخر، وتطلعنا طويلا إلى أبراجه المربّعة الشاهقة، وواجهته الرائعة، وقد تحلّقها عدد كبير، من التماثيل الحجرية المشوّهة لرهبان يرنون إلى أسفل من مواضعهم في هدوء، على مدار عصور مضت. وقف بطريرك أورشليم بينهم، زمن الفروسيّة والبطولة في العصور القديمة، وألقى عظة بشأن الحملة الصّليبيّة الثّالثة، منذ أكثر من ستّمائة سنة.. منذ ذلك الحين وقفوا هناك وتابعوا في هدوء بأبصارهم أكثر المشاهد إثارة، في المهرجانات الكبرى، وما أثار أحزان باريس أو أتراحها من أحداث ضخمة. رأى هؤلاء الكهول المشوهون، جدع الأنوف، رأوا الكثير والكثير من مواكب الفرسان ذوي الدّروع، وهم عائدون من الأرض المقدّسة إلى أرض الوطن، وسمعوا الأجراس تدق من فوقهم معلنة عن مصرع القدّيس بارتلوميو، ورأوا فيما بعد السّفاح الذى أعقب ذلك، ورأوا عصر الإرهاب، ومذبحة الثّورة، وخلع أحد الملوك، ومراسم تتويج اثنين من أسرة نابليون، وطقوس تعميد الأمير الشّاب، الذّي يقودها على رأس فرقة من العبيد في التويليري في هذه الآونة، وقد يبقون في أماكنهم هذه، حتّى يشهدوا زوال حكم أسرة نابليون، ورايات الجمهورية العظمي وهي ترفرف على أطلالها القديمة. أتمنّى لو ينطق هؤلاء الكبار، ليتمكنوا من سرد رواية تستحق الإصغاء.

يقولون إن المعبد الوثنيّ، أقيم في عهد الرّومان منذ ثمانية عشر قرنا، حيث تقع كنيسة نوتردام الآن، لا تزال بقاياه محتفظا بها في باريس، وأنّ كنيسة مسيحيّة احتلت مكانه ما يقارب القرن الثالث الميلاديّ، وأقيمت مكانه كنيسة أخرى في القرن الخامس الميلاديّ، أمّا

أساسات هذه الكاتدرائيّة فوضعت في عام ألف ومائة ميلادية تقريبا. وقد يتأمل المرء قدر ما أحيطت به الأرض منذ تلك الفترة، من قداسة بكلّ المقاييس. يتخذ جزء من هذا المبني سمة البناء على الطرز القديمة في الأزمنة السّالفة. أقام جان سان بيير هذه الكاتدرائيّة، وهو دوق بورجاندي، ليريح ضميره، بعد اغتياله دوق أورليانز.

فوا أواه على فوات أزمنة عظيمة كتلك! يمحو فيها القاتل عاره، ويخفّف من ندمه بقرميده، وملاطه وإقامة ملحق بكنيسة من الكنائس، كي ينعم برقاد آمن بعد رحيله.

قسّمت مداخل الواجهة الغربيّة الكبيرة، بأعمدة مربّعة. قاموا عام ١٨٥٢، بإزالة أوسطها، خلال الاحتفالات بعيد الشّكر، وإعادة هيكلة السّلطة السّياسيّة، لكنّهم سرعان ما ألحّ الأمر بإعادة تقييم تلك الحركة، وضرورة إعادة الوضع إلى ما كان عليه، وتمّ لهم ذلك.

بطأنا من السير في المداخل الكبيرة، لساعة أو اثنتين، نتفحص النّوافذ الزّجاجيّة القرمزيّة، والمزيّنة بصور الرّهبان والشّهداء، بألوانها الصّفراء، والزرقاء والقرمزية، في محاولة للاستمتّاع بالنّظر إلى اللّوحات الضّخمة، التّي تعزّ عن الحصر، داخل الكنائس الصّغيرة، وسمح لنا بعد ذلك بدخول الموهف (غرفة المقدّسات، وملابس الكهنة)، ومشاهدة المسوح الكهنوتية القديمة، التّي لبسها البابا حين توّج نابليون الأوّل، وعربة من الذّهب الخالص، وأدوات من الفضّة استخدمت في المواكب العامّة الضّخمة، والطّقوس الكنسيّة، وبعض مسامير من الصّليب الحقيقيّ، وفلقة من الصّليب ذاته، وجزء من إكليل الشّوك، رأينا بالفعل قطعة كبيرة من الصّليب الحقيقيّ، في كنيسة في الآزور، ولكن دون مسامير. وأرونا أيضا رداء به آثار دماء، كان يرتديه رئيس أساقفة باريس، بعد أن كشف عن شخصيّته الحقيقيّة، وواجه ببسالة حالة العصيان المدنيّ، عام ١٨٤٨، عند تخطّيه المتاريس، ورفعه غصن الزّيتون، رمز السّلام عاليا، أملا في وقف المذبحة. كلّفه عمله النّبيل حياته. فقد أردي قتيلا بالرصاص. وأرونا صورة لوجهه، صوّرت له إثر مقتله، والرّصاصة التّي أزهقت روحه، والفقرتين اللتّين استقرّت بهما. لهؤلاء النّاس ذائقة فريدة، في جمع الآثار الدينية. أخبرنا فيرجوسون بأنّ الصّليب الفضّيّ الّذي وضعه رئيس الأساقفة الطيّب، على مشدّه قد تمّ الاستيلاء عليه وألقي به في نهر السّين، ليبقي عالقا بالأوحال، لخمسة عشر عاما، وقد ظهر ملاك لراهب من الرهبان، وأخبره بمكانه، فيغوص في الماء ويعثر عليه، وهو الآن معروض في نوتردام، ليكون أمام أعين فاحصة مهتمّة بالآثار، ولا علاقة لها بالمعجزات.

ذهبنا بعد ذلك لزيارة المورج (مكان عرض الجثث المجهولة للباحثين، ولمن يهتمون بشأنها، ويا له من مشهد مروّع، لمن فارقوا الحياة، في ظروف غامضة، ليجعلوا من رحيلهم لغزا مجهولا، توقّفنا أمام شبّاك حديديّ صغير ننظر داخل غرفة، علّقت بكلّ أرجائها ما خفّ من ثياب الموتى، من قمصان وبلوزات من القماش الخشن، مبلّلة بالماء، وثياب رقيقة لنسّاء وأطفال، وثياب نبلاء ملطخة باللّون الأحمر، وبها طعنات، وقبعة منسحقة ومخضّبة بالدّماء. يرقد فوق حجر مسطّح أحد الغرقى، وقد جرد من ثيابه، وانتفخ جثمانه، وتأرجن، كان قابضا بيده على شظية من فرع شجيرة مكسور، بقبضة يبّسها الموت، بحيث لا يقوى بشر على تحريرها من يده، وهي شاهد أبكم، على ما بذل من محاولة يائسة وأخيرة، لإنقاذ من قدّر له أن يكون بمنأي عن أيّ عون. تدفّق تيار مائي. دون انقطاع، على هذا الوجه مجهول الهوية. علمنا أنّ الجثّة والثّيا ب، قد سجّيا هناك، ليتعرّف عليهما الأصدقاء، لكننا ظللنا في شكّ من أن يميل أحد إلى التعرف على الجسد المسجّي هناك، أو حتى يحزن لفقده. زاد انشغالنا وحيرتنا، لأنّه منذ أربعين عاما وحين كانت "أمّ هذا الشّيء المسجّي تدلّله على ركبتيها "، وتقبّله وتهدهده، وتتباهي ممتنّة أمام النّاس وهي تحمله بين يديها. سألنا أنفسنا إن كان قد طرأ ببالها ما سيواجهه من نهاية مروّعة. شعرت ببعض خشية من احتمال قدوم أحد أقارب القتيل هذا، أكان أمّا أو أخا أو زوجة أو أبّا كان، ونحن وقوف هناك، لكنّ شيئا من هذا لم يحدث. فقد قدم رجال ونساء، بعضهم تطلّع إليه باهتمام، حيث وضعوا رءوسهم فوق الحواجز. وألقى آخرون نظرات عجلى، ثمّ أشاحوا بوجوههم عنه، وقد جلّلها الحزن. أظنّ أنّ أناسا، يحيون على هذا القدر الكبير من الإثارة، ويواظبون على حضور معارض المورج، هم شأن أولئك الذين يرتادون العروض المسرحيّة كلّ ليلة. حين كان أحد هؤلاء يلقي نظرة ويمضي في طريقة، كان لا يسعني إلاّ التفكير في ـــ

"عجبا، هذا لا يشبع نهمك. فأنت في حاجة إلى طرف في خصومة، أصيب في رأسه بطلق ناريّ.

ذهبنا ذات ليلة إلى جاردن مابيل (حديقة مملكة الجنّ) الشّهيرة، لكننّا لم نبق بها سوى فترة قصيرة. كنا نرغب في مشاهدة لونا خاصا من الحياة في باريس، رغم أنّنا ذهبنا في الليلة الماضية إلى مكان توفرت فيه وسائل التسلية نفسها، في إحدى الحدائق الكبيرة في حيّ أزنييري. توجّهنا بحلول المساء إلى محطّة القطارت وجاءنا فيرجوسون بتذاكر ركوب

عربة الدّرجة الثّانية، لم أر من قبل مثل هذا الزحام الكبير، ولكنه غير مصحوب بصخب، أو فوضى أو مشاكسات. علمنا بأنّ بعض من ركبن القطار، كنّ من الشابات المشبوهات، لكنا لم نتأكّد من حقيقة الأخريات.

احتفظت النّسوة والفتيات المرافقات لنا في العربة، على التزام الحشمة والكياسة، طوال الطّريق، إلاّ إنهنّ كنّ يدخنّ التبغ. سدّدنا لدى وصولنا الحديقة الواقعة في آزنييري، رسم الدّخول، وكان فرنكا أو اثنين، واتّجهنا فيها إلى مكان حافل بالمزهريات، وقطع صغيرة من الأرض، افترشها العشب، وصفوف طولية متعرجة من شجيرات الزّينة، ومعترش علوي من نّبات تفرّق هنا أو هناك، قد أعدّ لتناول المرطّبات تحته.

تنزّهنا في الحديقة عبر مجازات متعرجة تفترشها الحصباء، وإلى جوارنا جمعا من الفتيات والشّباب، ثمّ ظهر أمامنا بغتة أحد المعابد المقبّبة، دقّت زخارفه، وسطعت من أرجائه أضواء الغاز المشتعل، تساقطت فوقنا تساقط أشعة الشّمس. ظهر بجوار المعبد بيت ضخم فسيح، أضيئت واجهته الفسيحة بالطّريقة نفسها، ورفرف فوق سقفه، علم أمريكا، المرصّع بالنّجوم، قلت :

"عجبا، علام هذا؟ تكاد أنفاسي تحتبس".

ذكر فيرجوسون، أنّ مالك البيت أمريكي. نيويوركيّ. يعارض بشدّة إقامة حديقة مملكة الجنّ.

كانت جموع من شتّى المشارب والأعمار، يمرحون في الحديقة، أو يجلسون في الهواء الطّلق، أمام سارية العلم والمعبد، يشربون النبيذ، والقهوة أو يدخّنون التّبغ. لم يكن الرقص قد بدأ بعد. ذكر فيرجوسون، أنّهم كانوا يعدّون لإقامة أحد العروض هناك. وكان بلودين الشّهير بسبيله إلى تقديم أحد عروضه على حبل البهلوان، واتجهنا إلى جزء آخر من الحديقة. تلاحم البشر هناك. وحدث أن ارتكبت خطأ، قد يرتكبه أيّ حمار، ليس إنسانا عاقلا، وأرى أنّني أرتكبه كلّ يوم. وجدت نفسي مباشرة أمام سيّدة شابّة فقلت:

"انظر إلى هذه يا دان، أليست جميلة؟".

"أشكرك كثيرا يا سيّدي لأمانتك في إطراءك الواضح، ما يجاوز شكري لك على الدّعاية الهائلة التّي بدأت بها". قال ذلك بإنجليزيّة خالصة.

قمنا بجولة في الحديقة لكنّ معنويّاتي كانت منهارة إلى حدّ كبير. ولم أشعر خلال هذه الجولة براحة البتّة لبعض الوقت. فلماذا يبلغ أناس حدا من الغباء، يجعلهم يظنّون أنهم الأجانب الوحيدون في هذا البلد، بين حشد يقدّر بعشرة آلاف شخص؟

لكنّ بلودين قد ظهر على الفور. ظهر فوق سلك ممتدّ، من مكان بعيد فوق بحر مموّج بالقبّعات والمناديل الملوحة، ظهر وسط أضواء الألعاب الناريّة بالمئات، وقد انطلقت إلى حيث يقف، حتّى جعلته يبدو كحشرة بالغة الضّآلة. وضع زانته في وضع التّوازن، ثم. قطع الحبل سيرا حتّى آخره، بطول مائتي قدم أو ثلاثمائة،. عاد وأمسك برجل، ورفعه معه على الحبل، وتقدم به إلى نصف المسافة، ورقص رقصة الجيج السّريعة، أعقبها أداء بمفرده لبعض حركات التّوازن، والتّمارين الرّياضيّة بالغة الخطورة لجذب إعجاب الجمهور، وأنهاها بتثبّيت جسده بعدد كبير من الشّموع الرّومانيّة، (أنبوب يخرج أسهما وكرات تصدر شررا وهي نوع من الألعاب النّاريّة)، ولعبة دولاب النّار، وأشكال من السّهام، وأشكال أفعوانية، في ألوان براّقة شتّى، وكلّها في حالة اشتعال، وسار مجدّدا، فوق حبله وسط هالة مبهرة من الضوء، أنارت الحديقة كلّها، وأضاءت وجوه البشر، وكأنّها من حريق هائل في ليلة ظلماء.

بدأت الحفلة الرّاقصة، فتوجّهنا إلى المعبد. كان في الدّاخل بهو كبير لتقديم المشروبات، أحاطت بأرجائه قاعة دائريّة فسيحة أعدت حلبة للراقصين. أسندت ظهري إلى جدار في المعبد، ووقفت مترقّبا. وضع عشرون مقعدا طويلا، وبدأ عزف الألحان، وضعت يدي على وجهي، لأواري حيائي. لكنّني رأيتهم من بين الأصابع، يؤدّون رقصة "الكان الكان" الشّهيرة. خطت إلى الأمام برشاقة واضحة فتاة أنيقة ضمن المجموعة الرّاقصة، لتواجه أحد السادة في الجانب الآخر، ثمّ عاودت الرّجوع بخطي منتظمة إلى الخلف، وهي ترفع بيديها من الجانبين طرفي ثوبها بخفّة رفعتهما كثيرا، ورقصت ببراعة تامّة رقصة الجيج، التي زخرت بنشاط وسرعة لم أشهدهما من قبل في أية رقصة جيج أخرى، ثمّ ظلّت رافعة ثوبها، وتقدّمت في خفّة ورشاقة إلى منتصف الحلبة، لتواجه مراقصها حتّى كادت تطيح

بأنفه عن غير عمد، وكان يمكن أن يحدث لو أنه علا بجسده سبعة أقدام بمستواها نفسه. ومن لطف الأقدار، أن عمره لم يتجاوز السّتة أعوام.

تلك هي "الكان كان"، وأصولها الرّقص الصاخب الجموح، والشّرس، والمنطلق إلى حيث شئت، لاستعراض حركتك الجسدية، بقدر ما يمكنك، وأن تطفر عاليا لو كنت من الجنس الآخر، كما يحلو لك أيضا، . لا يهم في ذلك نوع الجنس الذّي تنتمي إليه.

يتحاشون هنا تعبير "هذا غلوّ"، لأنّ الحاضرين من كبار السنّ من المتزمتين، قد تقبّلوا ذلك بأريحية، وكان الحاضرون منهم كثرا، وأظنّ أنّ قواعد السّلوك الفرنسيّة، تخلو من كلّ ما يدفع إلى التدقيق في توافه الأشياء.

خطوت جانبا، وطالعت فقرة كاملة من رقص "الكان كان". حيث الصّياح، والاحتكاك والألحان الصّاخبة، واختلاط محيّر تداخلت خلاله الصّور وتطافرت، مع اهتزاز، وجذب لثياب زاهية الألوان، ورءوس مهتزّة، وأذرع محلّقة في الهواء، وومض بريق ربلات في جوارب بيضاء، وخفاف جميلة تطير في الهواء، ثم يأتي في النّهاية، دور انطلاقة الختام الكبرى، يصاحبها قصف، وصخب رهيب، وانفلات جامح! يا إلهي. لا يرى مثيلا لهذا على وجه الأرض، مذ رأى "تام" ساكن الكوخ الرّعديد، الشيطان، والسّحرة في طقوسهم السرّيّة، الزاخرة بالعربدة، في تلك اللّيلة العاصفة، في "كنيسة "اللّوواي المسكونة".

زرنا اللّوفر حال عدمنا الرغبة في شراء حرير، وتأمّلنا ما أفرد فيه من مساحات شاسعة لعرض لوحات كبار الرّواد. حظي بعضها بالجمال، ووشي البعض الآخر بخصال الخنوع والإذعان، التي توفرت لدى أولئك الرّواد العظام، حتّى إنّنا لم نستمتع كثيرا بلوحاتهم. تبين لنا ما تقدّمه هذه الأعمال إلى كبار السادة في ذلك العصر من ملق ممجوج، وهذا أكثر ما لاحظته فيها، وذلك في الفتنة اللّونية، أو فيما تستوحى من تعبيرات. يربو على ذلك امتنانهم بالهبات التي منحت لهم، بل يبدو لي أنّ أولئك الفنّانين تجاوزوا كثيرا شعورهم بالامتنان، وتحوّله إلى عبادة لسادتهم. ولو كان هناك عذرا مقبولا في عبادة البشر للبشر، فتعالوا لنسامح رأوبين وإخوته عما كلّ ما اقترفوه مع يوسف.

جلنا بالطّبع في الـ "بوي دي بولون". تلك الحديقة الشّاسعة، والتّي تعج بالغابات والبحيرات والمساقط المائية، والطّرقات الفسيحة. احتشدت الحديقة بآلاف من عربات

الرَحلات، وضجّ المشهد بالنشاط والحركة. شملت عربات الرّكوب الممتلئة عن آخرها بالآباء والأمّهات، والأطفال، والعربات المكشوفة، والعربات الجميلة نصف المكشوفة، وتضمّ السيّدات المعروفات بسوء السمعة، وكان من بين المتنزّهين دوق ودوقات، وقد اتّخذ الخدم المتأنّقين بثيابهم المميزة، أماكنهم خلفها واتّخذ أمثالهم من الغرباء أماكنهم فوق ستّة من الجياد واكتسوا بما يبعث على المهابة ويثير الإعجاب بثياب من كلّ الأشكال والأنواع والألوان الزرقاء والفضّية والخضراء والمذهّبة، والحمراء والسّوداء، واعتراني بعض الشّيء شغف في أن أكون واحدا من هؤلاء. فيا لروعتها من ثياب.

تقدم الإمبراطور الجميع، وفاق بطلعته الجميع. استبقته حاشيته من السّادة، فوق ظهور الجياد، وقد بدوا بحللهم المزركشة، وركب الجياد التي تجر غربته (التّي بدت في مكان بالجوار منفصلة عن آلاف من مثيلاتها) أشخاص بدت فيهم الأبّهة والنّبل، فضلا عن ثيابهم الرسميّة الأنيقة. أفسح الكلّ له الطّريق، وانحنوا للإمبراطور وصديقه السّلطان، فمرّا بهم بخطي منتظمة، وتواريا عن الأنظار .

لن أصف بوي دي بولون بالتفصيل، لأنّني لن أقوى على ذلك، وهي ببساطة تنعم بالجمال، والرقيّ، والرّحابة، والجاذبية، وتتمتع بسحر المكان. لعل أحدهم الآن يذكر أن ذلك لوجودها في باريس، لكنّ انهيار جزء من عارضة، يذكّر المرء بأنّ الأمر لا يسير دوما على وتيرة واحدة. تحدّد تلك العارضة موضعا، لحدث وقع في القرن الرّابع عشر، إذ كمن شخص في هذا المكان لشاعر غنائيّ شهير، وقام باغتياله. وحدث أيضا في الحديقة نفسها أن قام ذلك الشّخص بمحاولة اغتيال القيصر الرّوسي في أواخر الربيع بمسدّسه. اخترقت الرّصاصة إحدى الأشجار. والذى أرشدنا إلى المكان هو فيرجوسون. قد تقطع في أمريكا شجرة مهمة كتلك، أو تذهب طي النسيان، بعد خمسة أعوام تالية للحدث، لكنها تحاط هنا بالاهتمام. سيقوم الأدلاّء بارشاد الزوّار إليها، لثمانمائة سنة قادمة، وحين يدركها البلى والسّقوط سيستبدلونها بأخرى ويواصلون سرد الرّواية القديمة نفسها، وبالسّياق نفسه.

الفصل الخامس عشـر

كانت زيارة بيري لانشير إحدى جولاتنا الأروع، وهي الجبّانة الوطنية الفرنسيّة، والمقام الشّريف لأفضل أبنائها وعظمائها، والمستودع الأخير لعشرات المشاهير فيها الرجال والنساء، والذين لم يولدوا بألقاب مورّثة، ولكنّهم حققوها لأنفسهم بما تميزوا به من قدرات ذاتية ونبوغ. كانت بطرقاتها المتعرّجة، وهياكلها المرمرية المصغّرة، ومهاجع موتاها، مدينة جميلة تصدر وميضها الأبيض، بين وقرة من النّبات الخضراء، والأزاهير النضرة. وما كان لمدينة البتّة أن تأهل مثلما تأهل هذه المدينة من البشر، أو تضمّ أسوارها من مساحات مترامية من الأراضي. قلّة من القصور فحسب في أيّة مدينة أخرى، تحمل مثل هذة الروعة في التّصميم، والرّقيّ في الفنّ، والإسراف في النّفقة، أو تحظى بما تزخر به هذه المدينة من روعة وجمال.

وقفنا داخل كنيسة القدّيس دينيس القديمة، أمام تماثيل رخاميّة، تمثّل ثلاثين جيلا من الملوك والملكات، رقود فوق المقابر، ما حرّك فينا مشاعر الرّهبة والغرابة، بدرع عجيب الشكل. وأزياء قديمة الطرز، ووجوه متحجّرة، وأياد تضامّت كفّا بكف في ضراعة معبّرة، وتلك صورة من عصر أوغل في القدم.

بدا من الغرابة بمكان أن نقف أمام الشيخ داجوبرت الأوّل، فضلا عن كلوفيس، وشارلمان، هذين البطلين الغامضين المتلازمين كظلين، والبطلين الأسطوريّين منذ ألف عام. لمست بإصبعي، وجوههم المغبرّة، فكان داجوبرت أكثرها جمودا. وقد مرّ على رحيله ألفا وستّمائة عام، ورقد كلوفيس في سلام بعد تفانيه في سبيل الدّعوة إلى المسيح. وسدر شارلمان حالما بأنصاره، الرونسيسفال العطشى للدماء، ولم يعرني التفاتا.

تترك تلك الأسماء الكبيرة في "بيري لاتشيز" أثرها في نَفس المرء، ولكن بشكل مختلف. فهناك ما يوحي دوما إلى عقله، أن قداسة هذا المكان تعزى إلى ملكية أنبل. ملكية العقل

والفؤاد. تبدو كل ملكة عقلية، وكلّ خصلة نبيلة من خصال البشر، وكل منصب رفيع احتله البشر، ممثلا هنا بلقب شهير. ومحصّلة ذلك خليط عجيب. هنا يرقد ديوفوس، وميسينا، وهما اللذان أشعلا كثيرا من المعارك المأساوية، وهنا أيضا ترقد راشيل، وقد حققت صيتا كبيرا في عالم التراجيديا، والتّمثيل على خشبة المسرح. ويرقد سيكارد واضع نظام تعليم الصّم والبكم، بعد أن أخلص قلبه لكل محبط، ووهب حياته، لما تؤدّيه دور البرّ من خدمات، ولا يبعد كثيرا عن هؤلاء، المارشال ناي، الذي يخلد الآن في قبره إلى السكينة، ذلك الذي لم تكن تشجيه، سوي دعوة الداعي إلى القتال، وهو الذي أنشأ المؤسّسة العامة للإضاءة بغاز الاشتعال. وكانت إحدى مآثره الأخرى، وضع خطة لتطوير زراعة الطّماطم، ونال عنها امتنان ملايين القرويّين الكادحين، وهو يرقد الآن بجوار أمير ماسيرانو، مع الملكات المنفيّات، وأمراء الهند البعيدة. يرقد هنا أيضا، كل من الكيميائي جي لوساك، والفلكي لابلاس، ولاري الجرّاح، ودي سيزي المحامي، ومعهم تالما، وبلليني، وروبيني، ودي بالزاك، وبومارشيه، وبيرينجر، وموليير، ولافونتين، وعشرات ممن أدركوا نبوغ الصّيت، واشتهرت أعمالهم وانتقلت إلى أماكن نائية لم يدركها العمران بعد. كتلك التي يسجّلها التّاريخ للملوك والأمراء، الرّاقدين في جبّانة القديس دينيس الرخامية.

ولكن من بين آلاف المقابر المقامة في بيري لاشيز، هناك مقبرة بعينها لم يطرقها رجل أو امراة، أو شباب من كلا الجنسين، إلاّ وقف يتأملها؛ لأنّ لدي كل من يزور هذه المقبرة فكرة ملتبسة، عن ساكنيها، ويدرك أنّها محاطة بهالة من الجلال، لكنّ واحدا فقط من بين عشرين ألفا، هو الذي يذكر بوضوح تفاصيل قصّة تلك المقبرة، وقصّة ساكنيها الرومانسيّة. إنّها مقبرة أبيلارد وهلويز، وهي التي تنحى بكثير من بالتوقير، وتحظى بالشّهرة وتناولها بالكتابة، والتغنّي بها، والبكاء فوقها طيلة سبعمائة عام، إنها تجاوز في ذلك أيّة مقبرة مسيحيّة أخرى، خلا قبر السيّد المخلّص. تثير تلك المقبرة لواعج كلّ الزّائرين، وتأمّلاتهم، فيغنم منها صغار الشّباب التّذكارات ويحملونها معهم، كما يزورها من صادف في حبّه فشلا من شباب الباريسيّين، والعذارى، وذلك للخروج من معاناتهم، وليذرفوا فوقها العبرات. ومن العجيب أن كل من اكتووا بنار العشق، يحجّون إلى هذا الضّريح، من البقاع النّائية، للبكاء والعويل، لما مروا به من محن وليطلبوا من الأرواح الطّاهرة لساكني هذه المقبرة رّثاء لهم، بعد أن تقرّبوا إليهم بباقات الزهور والبطاقات التذكاريّة.

فامض إلى هناك وقتما شئت، فسوف تجد من يذرف العبرات فوق هذه المقبرة بنشيج مسموع. وامض إليها وقتما تشاء، ستجدها منضَرة بباقات الزهور وبطاقات الذكرى. وامض أيضا وقتما تشاء، فستجد قطار حصباء قادما من مارسيليا، لسدّ ما نقص منها بيد المخرّبين، جامعي التّذكارات ممّن فسد وجدانهم.

فمن يعرف إذن قصّة آبيلارد وهلويز ؟

عدد لا يكاد يذكر من النّاس. يعرف الكلّ الاسمين، معرفة وثيقة، ولا تتجاوز معرفتهم ذلك. حصلت على تفاصيل هذه القصّة بجهد جهيد، وسأسرد تفاصيلها في هذا الفصل، ليعرف بها القرّاء من جهة، ولتوضيح أنّ العامة، قد أسرفوا بقدر لا بأس به فيما يشيع من رؤى، بصورة لا تحتمل.

قصّة أبيلارد وهلويز

ولدت هلويز منذ سبعمائة وستة وستين عاما. لم يعرف أحد شيئا بشأن والديها في تلك الفترة. عاشت مع عمّها، فولبرت، الّذي كان يعمل "مدفعا "في كاتدرائيّة باريس. ولست أدري إلام تشير كلمة "مدفع" هذه، لكنّه كان يحمل تلك الصّفة. والأرجح أنّه لم يكن يزيد عن كونه "مدفعا قاذفا"، من تلك التي تنصب فوق الجبال، والظاهر أنهم لم تكن لديهم مدافع ثقيلة في تلك الأيام. بيت القصيد إذن، أنّ هلويز عاشت مع عمّها المدفع في سعادة، وقضت أغلب طفولتها في دير آرجينتويل. لم أسمع من قبل بهذا الدّير. ولنفرض أنّه كان هناك دير بهذا الاسم. عاشت بعد حياتها في الدّير مع عمّها المدفع الشّيخ، أو ابن المدفع، فالأمر سيّان، كما تورد الوقائع، وعلّمها الكتابة والتّحدّث باللاتينيّة، التي كانت لغة الأدب والمجتمع المتحضّر في تلك الفترة.

حدث في الوقت نفسه أن وفد بيير أبيلارد إلى باريس، وكان قد حقّق صيتا كبيرا باعتباره خطيبا مفوها وعالما بالبيان واللّغة، أتى للبحث عن مدرسة لتعليم البيان في باريس. أحدثت أصالة مبادئه، وبلاغة بيانه، ومتانة بنيانه، وحسن سيمائه، أثرها العميق. رأى هلويز

فأسره شبابها الغضّ، وجمالها وشخصيّتها القويّة. كتب رسالة إليها، فوافته بالرد. عاود الكتابة إليها فردّت رسالته مجدّدا. وقع في هواها وصبا إلى التعرّف عليها لمشافهتها.

كانت مدرسته متاخمة لبيت فولبرت. طلبت هي من فولبرت أن يسمح له بالزيارة. وجدها الشّيخ الطيّب وحلقة الوصل بينهما، فرصة نادرة كي تتشرّب ابنة أخيه التي طالما أحبها، المعارف من هذا الرّجل، وذلك لن يكلّفه سنتا واحد، وذلك هو فولبرت البخيل.

لم يذكر لنا كاتب واحد الاسم الأول لفولبرت، ومع ذلك فاسم جورج. وفولبرت يفي بالغرض، ولنتركه كما ورد في السياق. طلب من أبيلارد أن يقوم بتعليمها.

سرّ أبيلارد كثيرا بهذه الفرصة. زارها مرّات عدّة وطال مكوثه هناك، تبين أولى الجمل في إحدى رسائله، أنّه ما جاء تحت سقف هذا البيت الآمن، إلاّ كآثم شرير، بهدف غواية فتاة بريئة، أحسنت الظنّ به. أورد هنا. نص هذه الرّسالة:

"إنّني لا أستطيع التوقف عن الشعوربالحيرة من سذاجة فولبرت، إذ أدهشني كثيرا، تركه الحمل في قبضة ذئب جائع. سلّمنا أنا وهلويز نفسينا بذريعة الدرس، للعشق بالكليّة، أما العزلة التي يطلبها العشق فقد وفرتها الدروس لنا. كانت الكتب أمامنا مفتوحة، ولكن حديثنا في الحب غلب الفلسفة، وسبقت قبلات الشّفاه منّا الكلمات".

وهكذا أغوى الوغد أبيلارد ربيبة مضيفه وابنة أخيه، وهومنشرح الصّدر بالثّقة الخالصة التي منحت إيّاه والتي اعتبرها بسبب انحلاله بالفطرة، سذاجة تستحقّ السخرية. قلبت باريس في الأمر، فوصل الخبر إلى أسماع فولبرت، لكنّه رفض تصديقه. لم يقو على تصديق أن يبلغ إنسان هذا الحدّ من الفساد، فيستغلّ قدسية حماية وأمان. كفلتهما واجبات الضّيافة، ويجعلهما وسيلة لتنفيذ جرم كذاك. لكنّه حين سمع الدهماء في الطّرقات ينشدون أغنيات عشق أبيلارد وهلويز، وضح الأمر له، لأن أغنيات العشق لا تندرج أبدا ضمن علوم الفلسفة والبيان.

قام بطرد أبيلارد من بيته، فعاد أبيلارد واصطحب هلويز سرّا إلى باليس في بريطانيا، موطنه الأصليّ. حملت هناك بعد ذلك بوقت قصير، في طفل سمّى لشدّة جماله إسطرولاب – ويليام. ج. أثار هروب الفتاة سخط فولبرت، فألحت عليه رغبة الانتقام، لكنّه خشى أن

يشرع في تنفيذها، فيكون المقابل ثأرا من هلويز ذاتها، لأنّه ظلّ على حبه الشّديد لها. عرض أبيلارد في نهاية المطاف الزّواج منها، ولكن بشرط مهين. وهو ضرورة إحاطة هذه الزّيجة بالسّريّة التّامّة، حتّى تظل سمعته مصانة باعتباره رجل دين. ولا تمس بسوء(في حين تبقى سمعتها كسابق عهدها في الحضيض). رأى فولبرت في هذا العرض فرصة سانحة له، ووافق على العرض. فهو بذلك سيتمكّن من رؤية طرفي الزّواج، وعليه بعد ها خيانة ثقة الرّجل الذّي علّمه لعبة الخيانة، فيقوم بإفشاء السّر، ويكون بهذا قد محا بعض ما لحق به عار، لكنّ ابنة الأخ ارتابت في الأمر، ورفضت فكرة الزواج في البداية، وأوهمت نفسها بأنّ فولبرت سيكشف السّر لإنقاذها، وفضلا عن ذلك كانت تنعدم لديها الرغبة في إسقاط، حبيب نابه مثله، يحظى بتقدير النّاس وتوقيرهم، حقّق في مهنته ما كان يتطلّع إليه من مكانة. كان ذلك الحبّ نبيلا صادقا من جانب واحد، تميّزت به نفس هلويز العفيفة، لكنّ ذلك لم يكن صوابا من جانبها.

استسلمت للأمر الواقع، وتمّ الزّواج سرّا. وعجبا لفولبرت! الذى كان حريّا أن يندمل جرح قلبه في النهاية، وآن تخلد النفس الأبيّة المعذبة أخيرا إلى السّكينة، وأن يرفع رّأسه المنكسة من جديد. أعلن فولبرت زّواج الاثنين، في المدينة وفي الأماكن التّي كان يرتادها الصّفوة، وانشرح صدره لأنّه محا بذلك العار عن أسرته. لكن وا أسفاه. أنكر أبيلارد الزّيجة! وأنكرتها هلويز! ولعلّ النّاس، لمعرفتهم السّابقة بالأحداث، قد صدّقوا فولبرت، بأن أبيلارد هو الذّي ينكر من جانبه تلك الزّيجة، ولكنّ لطبع الأنانية المتأصّل أبيلارد، فرض على الفتاة إنكار الزيجة، وسخر النّاس من فولبرت المسكين، حتّى حدّ الازدراء. أصيب مدفع كاتدرائيّة باريس القديم بالانسداد مجدّدا، وزال آخر أمل لإصلاح سمعة بيته الخرب. فماذا بعد! أوحى له طبع البشر بالثّأر، وتمّ له ذلك، يقول الرّاوي:

"أفرادا متوحّشين استأجرهم فولبرت، انقضّوا في اللّيل على أبيلارد، وأحدثوا به تشوّهات فظيعة، تجلّ عن الوصف".

أسعى حثيثا إلى التعرّف على قبور أولئك المتوحّشين، وأعد بأنني سأذرف عليهم حين أعثر عليها أحرّ العبرات، وأضع فوقها باقات الزّهور والعبارات التّذكاريّة، وألتقط من فوقه بعض حصيات، كي أتذكّر أنّه مهما لحق بهم من وصم بالإجرام على مدار الزّمن،

فإنّ هؤلاء الأوغاد قد قدّموا بكلّ المقاييس صنيعا واحدا فحسب في عمرهم، رغم أنّ حرفيّة القوانين الصّارمة لم تتفق وهذا الصنيع دخلت هلويز ديرا من الأديرة، وودّعت العالم بما يحوي من مباهج إلى الأبد. لم نسمع على مدار اثنتى عشرة سنة، بابيلارد، كما لم نجد لاسمه ذكرا.

أصبحت بعد ذلك رئيسة لراهبات الأرجنتويل، وعاشت حياة العزلة التّامّة. تصادف يوما أن تلقّت خطابا منه، قصّ لها فيه ما وقع له. حزنت لذلك وكتبت له رسالة. ردّ رسالتها مخاطبا إيّاها بـ"أخته في المسيحيّة". تواصل تبادل الرّسائل بين الاثنين، خفّت هي إلى استخدام أسلوب يعبر عن عاطفة رصينة، واستخدم هو أسلوب خطيب مفوّه. أطارت العاطفة لبها، وأجزلت بعبارات منفلتة، فردّ عليها بمقال رصين مهذّب، قسّمه برءوس موضوعات، وعناوين فرعيّة ومقدّمات منطقيّة وحجج.

أمطرته بوابل من أرقّ ما يستلهمه الحبّ من مشاعر، فمنحها من قطب قلبه المتجمّد الشّماليّ، لقب "عروس المسيح". ويا له من وغد آثم.

كشف في الدير الذى تعمل به عن مخالفات مزرية بين الرّاهبات، تساهلا في توجيههن، فحلّه رئيس كنيسة القدّيس دينيس. كان أبيلارد في ذلك الوقت الرئيس الفعلى، للدّير التّابع لكنيسة القديسة جيلدا دي راي، وحين سمع بقصّة طرد هلويز وتشرّيدها، تحرّك في صدره شعور بالشفقة نحوها، (عجيب أن هذا الوجدان الطارئ عليه لم يعصف به)، فقام بتعيينها وجماعتها في كنيسة صغيرة، تابعة للباركليت (لقب الرّوح القدّس). وهي مؤسّسة دينيّة، كان قد أسسها هو من قبل. كان عليها في البداية تحمّل العناء والفاقة، ولكنّها اكتسبت الود والاحترام من خلال علاقاتها بأصدقاء لها من أصحاب النّفوذ، ثمّ أقامت ديرا للراهبات تحققّ له الازدهار والنّجاح. صارت محبّبة لدى رءوس الكنيسة، فضلا عن حب عامة النّاس لها، رغم ندرة ظهورها في المجتمع. سرعان ما حقّقت بشخصيتها القوية تقدّما ملحوظا في عملها، بتواصلها مع الآخرين، وسرعان ما تهاوت مكانة أبيلارد. قام البابا بتكريمها، بتنصّيبها رئيسة لجماعة الراهبات. أصبح أبيلاد المحنك، والذى كان يأتي على رأس حضور المناظرات في عصره، أصبح هلوعا متردّدا يفتقد الثّقة في قدراته. استدعى الأمر أن تطيح مصيبة كبرى بما تمتع به من مكانة رفيعة. احتلها بين المرموقين في مجاله،

وها قد وقعت بالفعل. أقنعه الملوك والأمراء، بمناظرة الراهب البارع بيرنارد وسحقه، فوقف في حضرة جمع من الملوك والمشاهير، وحين انتهى خصمه من خطابه. نظر حوله وتمتم باستهلال، لكنّ شجاعته تخلّت وطلاقة لسانه عنه قد تخلتا عنه، وأردف بحوار لا يليق بمثله، وجلس البطل المقهور في مكانه يرتعد.

مات لا يعرف بموته أحد، ودفن في كلوني عام ١١٤٤ ميلاديّة. نقلوا جثمانه فيما بعد إلى الباركليت، وحين توفيت هلويز بعده بعشرين عاما، دفنوها معه بناء على رغبتها الأخيرة. مات في سن متقدّمة، إذ ناهز الثّالثة والستين من عمره، وبعد أن مضى على دفن كليهما ثلاثمائة عام، أعيد نقلهما مجدّدا، في العام ١٨٠٠. وبعد ذلك بسبعة عشر عاما، استخرجت رفات الاثنين، لآخر مرّة، ونقلا إلى بيري لاشيز كي ينعما بالهدوء والسّكينة، ويأتي زمان يبعثان فيه وينعما فيه بالحياة والحركة.

لم تأت القصّة على آخر ما وقع لمدفع الجبل من أحداث. فلتدل بدلوك في هذا أيها القارئ، أمّا أنا فسوف أظلّ على الأقل أكن دوما كلّ احترام لذكرى مأساة خيانة الثقة التي قدمها هذا المدفع، وليتفطر قلبي حزنا، ورُوحي اضطرابا على المدفع الشّيخ، أملس الماسورة. ولينعم بالطّمأنينة والسّكينة حيث رقد.

تلك هي قصّة أبيلارد وهلويرز، وهي الرّواية التي ذرف بسببها لامارتين، أنهارا من الدّمع. لكنّ ذلك الرّجل لن يفلح قيد أنملة في دفع النّاس إلى التأثّر بأمر يدعو على الرثاء دون أن تفيض ضفافه بالدّموع. وحريّ أن يتحصّن بالسدود أو، الأحري أن يقيم الحواجز. فتلك القصّة لن تشدّ انتباه أحد على النحو الذى تسرد به، بما يزول عنها من إسراف في إثارة لواعج الشّجن إلى حدّ الملل، ما يؤدّي بنا إلى إضفاء القداسة على محبوبنتا الأثيرة، وعلى غويّ زنيم مثل بيير أبيلارد. لن تصدر منّي كلمة واحدة في حقّ الفتاة المسكينة المغرّر بها، ولن أحجب عن قبرها، أقلّ عبارات الإعجاب بساطة، تلك التي يقدّمها الغاوون من العذارى أو الشباب فوق قبرها، تخليدا لذكراها، لكنّني أحزن كثيرا، لأنّ الوقت والفرصة لم يسعفاني، كي أكتب أربعة أو خمسة فصول، أوضّح رأيي في صديقها، مؤسّس البراشوت هذا، أو البراكليت. أو أيّا كان اسم مؤسسته تلك.

لقد بدَت في جاهليَتي أطنانا من العواطف في حبّ ذلك المحتال الأثيم. وإنّي من الآن فصاعدا، سأحول بين مشاعري الرّقيقة، ومثل هذا الصنف من البشر، وأن أعيد فهمهم جيدا، وأعرف قدر ما أهدي لهم من إطراء باك من عدمه. أتمنّى الآن لو أستردّ عبارتي التّذكاريّة من فوق شاهد القبر، وباقة الفجل تلك التي وضعتها فوقه.

غالبا ما كنا نري خلف واجهات العرض في متاجر باريس عبارة تقول: "هنا نتحدث الإنجليزية". كما كنا نري مكتوبا في الواجهات في أمريكا لافتة تقول: "هنا نتحدّث الفرنسيّة". دائما ما كنا نفشي هذه الأماكن على الفور، وتلقينا معلومة مكتوبة بفرنسيّة صحيحة تفيد في ثبات، أنّ الموظف العامل بالتّرجمة لدي المنشأة، قد ذهب لتناول طعام الغداء، وأنّه سيعود خلال ساعة زمن، أترغب يا سيّدي في شراء شيء. استغربنا ذهاب هؤلاء الأشخاص لتناول الغداء، في تلك الأوقات الحرجة والمهمة، لأنّنا لن نزور منشأة في وقت يرجح فيه على أقلّ تقدير ذهاب مسيحي صالح في مهمة كتلك.

اتّضح أنّ تلك أكذوبة في الأساس، أحبولة للإيقاع بالمغفّلين، وفتاتا للإمساك بأفراخ الطّيور. لم يكن لديهم كاتب يغتال الإنجليزيّة. وتأكدوا من الإيقاع بهم بإبقائهم هناك حتى يقوموا بابتياع شيء منهم.

اكتشفنا خدعة فرنسيّة أخرى، في لافتة مماثلة تتضمّن هذا "هنا كلّ أنواع المشروبات الأمريكيّة، متقنة الإعداد". ظفرنا بخدمات أحد السّادة الخبراء في مصطلحات البار الأمريكي، وتعرضنا لألاعيب أحد هؤلاء المحتالين. تقدّم فرنسيّ يرتدي مريلة قصيرة بخطى رشيقة وانحناء بالغ، قال بالفرنسية: "ماذا يرغب السادة؟". لم أفهم ما عني بماذا يرغب السّادة، لكنّه تكلّم هكذا.

قال جنرالنا: "نريد ويسكي صرفا".

(نظر النّادل نظرة متفرّسة).

"لا بأس، لو كنت لا تعرف به، فهاتنا شامبانيا كوكتيل".

(نظرة محملقة واستهجان من النّادل).

"لا بأس، هاتنا عصير فواكه شيري كابلر".

أسقط في يد الفرنسيّ، فقد استعصى عليه فهم شيء من هذا كلّه.

"هاتنا شراب براندي سماش".

تراجع الفرنسيّ إلى الخلف مجدّدا، مستريبا ممّا قد يحدثه مطلبنا الأخير من سوء، فهزّ كتفيه ومدّ يديه معتذر.

تتبعه الجنرال، وحقق نصرا مؤزّرا. فهذا الأجنبيّ الجاهل لم يستطع أن يقدّم لنا، مجرد باقة سانتا كروز، أو جرعة. شراب، أو سياجا حجريّا أو حتّى زلزالاً.

تبيّن أنّه مجرّد محتال كبير.

ذكر أحد معارفي، في اليوم التّالي، أنّه كان ولا فخر، الزّائر الأمريكيّ الوحيد للمعرض، الّذي حظى فيه بشرف مصاحبة الحرس الإمبراطوريّ له. قلت له بصراحة لا تحتمل لبسا، بأنّني مندهش أن يكون شخصا على شاكلته، فارع الطّول، بارز الفكّ شاحب الوجنة، له صورة منفرة لشبح، قد انفرد بهذا السّبق. واستفسرت منه عن الملابسات هذا الحدث. فذكر أنّه ذهب لحضور عرض عسكري كبير، في ساحة مارس، منذ فترة قصيرة، وحين بدأ تزايد الحشود تدريجيا بمرور الوقت. لاحظ ساحة من الأرض الفضاء داخل الحاجز.

ترك العربة، ومضي إلى الدّاخل. كان هو الشّخص الوحيد الذى غشي المكان، وبذلك كانت لديه مساحة كبيرة فضاء. واستطاع لوسطية موقعه رؤية ما يجري على السّاحة من ترتيبات تدور على قدم وساق. كانت الألحان العسكرية تعزف من آن لآخر، وسرعان ما دخل من السور الحديدي إمبراطور فرنسا، وبرفقته. إمبراطور النّمسا، بصحبة حرس الشّرف الشهير، وتبيّن أنّهم لم يلحظوا وجوده، ولكن بإشارة واحدة، من قائد الحرس تقدّم نحوه ملازم شاب، يتبعه طابور من رجاله، وتوقّف ثم قدّم له التّحيّة العسكريّة، وخاطبه بصوت خفيض، بأنّه يأسف لإزعاج سيّد. وغريبا على البلد. لكن المكان مخصّص للملوك. نهض من مكانه على الفور هذا الشّبح القادم النيوجيرسيّ وانحنى وتقدّم باعتذار، وسارالضّابط إلى جانبه تتبعه فرقة الجنود، وبكلّ مظاهر الاحترام. تمت مرافقته حتّى عربته من قبل حرس الشّرف الإمبراطوريّ! قدّم الضّابط له مجددا التحيث العسكرية، وتراجع إلى الخلف، وردّ شبح نيوجيرسي التحية بانحناءة. وكان لديه من العقل ما جعله

يتظاهر بأنّه ببساطة كان مدعوا. لتلك الزّيارة القصيرة، لتسوية أمور خاصّة مع الأباطرة، وها قد أشار الآن إليهم بالتّحية، ثمّ غادر السّاحة.

تخيّل أنّ أحد فقراء الفرنسيين، قد اقتحم دون قصد منه ساحة مخصّصة لأفراد الطّبقة الفقيرة في أمريكا. ستقوم الشّرطة بترويعه، بدءًا بعاصفة من السّباب المقذع، وانتهاء ابضربه من قبلهم فردا فردا، إلى أن يغادر المكان. نحن نتفوّق كثيرا على الفرنسيّين في بعض أمور، لكنّهم يفوقوننا كثيرا في أمور أخرى.

نكتفي من باريس بذلك الآن، فقد أنجزنا بها ما كان مقرّرا. زرنا فيها قصور التويليري، وعمود نابليون، والماديلين، ومقبرة نابليون وهي إحدى العجائب، وكلّ الكنائس الكبرى والمتاحف، والمكتبات، والقصور الملكيّة، ومعارض اللّوحات والتّماثيل، والبانثيون (مدفن العظماء)، وشاهدنا حديقة النّباتات، والأوبرا، وسيرك الألعاب، والهيئة التشريعية (البرلمان)، وقاعات البليارد، والحلاّقين، والشّابات الفرنسيّات العاملات.

أجل. الشّابات العاملات! كدت أنسى ذكرهن. لأن ما يقال عنهن يعد أكذوبة كبرى، تختلف كثيرا عما تتضمنه من خيال. فهنّ دوما (ولندع كتاب الرّحلات يبيّن لنا ذلك. على درجة عظيمة من الحسن، والتأنّق والرّشاقة والبساطة، والنّظافة والرّقة، والتّفاني في العمل لدي المنشآت اللاتي يعملن بها، ودفع المشترين إلى الشّراء، بتلطّف منهن لا ينقطع، ثم إخلاصهن في الحيّ اللاّتيني لمن يعشقونهن من الطّلاب، وتمتعهن يوم الأحد بقضاء عطلاتهن في أحياء باريس، ثم آه، من سحرهن، وخلاعتهنّ اللذيذة.

أيّ عبث هذا! ظللت على مدار أربعة أو خمسة أيام أردّد:

"أسرع يا فيرجوسون. أليست تلك فتاة عاملة؟".

ولم ينقطع بدوره عن إجابتي بالنّفي.

أدرك أخيرا رغبتي في رؤية إحداهنّ، فأراني عشرات منهنّ. ظهرن بشعات الخلقة كبقيّة من ألفت رؤيتهن من الفرنسيّات تقريبا. اتسمن بكبر الأيدي والأقدام والأفواه، وفطس الأنوف، ولا يمكن إغفال نبت شّوارب لا يحسنّ حتّى تهذيبها. صففن شعورهنّ

بالكامل إلى الوراء، وبدا فيهنّ قبح الخلقة، والافتقار إلى الرّشاقة، وإنني أعرف بمجرّد النّظر إليهن، قدر نهمهنّ إلى البصل والثّوم.

وظنّي في مجمل القول أنّ وصفهن بالتدلّل على الآخرين، كان اطراءً لهن في الأساس.

مهلا، أيتها البغيّ. إنني أشفق الآن على ابن الحيّ اللاتيني. ذلك الطّالب المشرّد، بعد أن حسدته من قبل.

وهكذا يسقط، وثن آخر من أوثان صباي.

رأينا باريس كلّها، وغدا سنزور فرساي. سنشاهد بعد ذلك باريس لفترة قصيرة فحسب، بتجمّعنا مجدّدا، ثمّ نتوجّه رأسا إلى السّفينة، ويمكننا أيضا في هذه الأثناء إلقاء نظرة وداع على المدينة الجميلة. سنقطع آلاف الأميال، بعد رحيلنا عنها، ونزور كثيرا من المدن الكبرى، لكنّنا لن نجد في إحداهن سحر باريس نفسه. ذهب بعض من جماعتنا إلى إنجلترا، بغية القيام بجولة في أنحائها ثمّ اللّحاق بالسّفينة في ليجهورن، أو نابولي، بعد بضعة أسابيع من الآن .

كنّا قد أوشكنا على التوجّه إلى جنيف، لكنّنا خلصنا إلى العودة إلى مارسيليا، والذّهاب منها مباشرة إلى إيطاليا عن طريق جنوا.

سأنهي هذا الفصل بملحوظة، يسرّني إدراجها هنا. ويسرّني أيضا أنّ رفاقي قد تقبّلوها بشغف للتندّر بها، وفحواها أنّ. أملح امرأة في باريس، ولدت وترعرت في أمريكا.

أشعر الآن بأنّني أشبه بمن أصلح ما ساء من صيت، وألقى على شعار النّبالة الضبابيّ بريقا، بعمل جدّ فريد، انتهت في الساعة الحادية عشرة.

فلينزل السّتارة على لحنٍ جنائزي.

الفصل السّادس عشر

فرساي! إنّه رائع بحقّ! حدقٌ، تمعّن، حاول استكناه حقيقته، لتدرك أنه قطعة من الواقع، وأنّه ليس من جنّة عدن، لكنّ عقلك يذهب بددا، فيما يحيط بك من جمال، فتصبح، بين يقين وشكّ، تشعر بأنّك صورة مطابقة لحلم جميل. يثير هذا المشهد المرء كلحن عسكريّ! قصر مشيد، تمتدّ واجهته المزخرفة بناية بعد أخرى، فتبدو لك وكأنّها لن تنتهي البتّة، يقع أمامه متنزّه كبير، يمكن لجيوش الإمبراطورية تقديم عرض عسكريّ عليه، تحيط به تشكيلات عديدة من أنواع شتّى من الزّهور، وتماثيل ضخمة تكاد لا تحصى، وبدا. متفرّقا على المساحة الفسيحة، درج حجريّ فسيح، يصل ما بين المنتزه وأرض الحديقة، يمكن أن يقف فوقه جنود نظاميّون بأسلحتهم في وضع الثّبات وتتبقى مساحة خالية. وهناك ينابيع كثيرة، تدفّقت من تماثيلها البرونزية عبر الهواء أنّهار من المياه الرقراقة، وتمازجت مئات من الدفقات المقوّسة معا، في أشكال جميلة تجلّ عن الوصف، ومجازات صغيرة مفترشة بالعشب تفرّعت في كل اتّجاه، وامتدّت إلى مسافات متناهية البعد، أحيطت من الجانبين، بصفوف متلاحمة من الأشجار السامقة تلاقت أفرعها من أعلى، وشكّلت أقواسا بالدقّة والتناسق نفسهما اللذين نقشت بهما على الحجر، وبدت متناثرة هناك أو هناك ومضات، قادمة من البحيرات المحاطة بالآجام، مع قوارب مصغّرة تبحر على سطحها. سار أو عدا أو رقص في كلّ مكان، على درج القصر والمتنزه الكبير وحول الينابيع، وبين الأشجار، وبعيدا تحت الأقواس المقامة على الطّرقات الممتدّة، المئات بعد المئات من البشر في ثياب زاهية، وأضفوا على الصّورة الجميلة، ما يمكن أن تحتاج إليه من حركة ونشاط حتى تكتمل.

يستحقّ فرساي لمشاهدته قطع المسافات الطويلة. كلّ شيء فيه يميل إلى الضّخامة، وليس فيه مجال للضآلة، أو الدّونيّة. فالتماثيل كبيرة الحجم، والقصر بالغ الضّخامة، والحديقة وحدها بحجم إحدى المقاطعات، والطّرقات لا نهاية لها، وكل المساحات والأبعاد

المحيطة بفرساي، شاسعة. كنت أظنّ أنّ اللّوحات، تبالغ في تضخيم هذه الأبعاد والمقاييس، بما يجـاوز الحـدّ المعقول، وأنّهم قد أطنبوا في وصف فرساي، بما لم يحظ به مكان آخر في العالم.

أدرك الآن أنّ اللّوحات لم تتناول الأمر بالصّورة الواجبة، ولم يستطع مصوّر واحد تجسيد فرساي على لوحات الكنفاه، بجماله في الطبيعة. كنت أقلّل دوما من شأن لويس الرّابع عشر، لإنفاقه مائتى مليونا من الدولارات على إقامة هذه الحديقة الرائعة، في الوقت الذي يعاني بعض رعاياه صعوبة الحصول على رغيف الخبز. لكنّي أغفر له ذلك الآن. لقد اقتطع مساحة من الأرض يقدّر محيطها بستّمائة ميل، بدأ بإنشاء هذه الحديقة، وبناء هذا القصر، وشقّ طريقا إليه من باريس. استخدم. في إقامته ستة وثلاثين ألف عامل مياومة، وكان العمل يجري في ظروف غير ملائمة، حتّى إنّهم كانوا يتعرّضون غالبا للموت، وينقلون كلّ ليلة في عربات النّقل. تصف زوجة أحد النّبلاء هذا بالأمر "المزعج"، بل تشير بسذاجة واضحة إلى أنّه يبدو. أمرا لا يستحقّ القلق، في ظلّ حالة الاستقرار التّي ننعم بها ".

كنت دوما أسيء الظّنّ بأناس في الوطن، عرضوا شجيرات للزينة داخل أهرامات، وميادين، وأبراج وكلّ ما لا نألف من أماكن، وحين رأيت أنه قد اتّبع الأسلوب نفسه في هذه الحديقة العظيمة، بدأ. أشعر باستياء. لكنّني سرعان ما أدركت هدف ذلك والحكمة منه. إنّهم يسعون بذلك إلى تحقيق هدف عام. فنحن نشّوه دستة أشجار تالفة، داخل هياكل غريبة في مساحة صغيرة لا تزيد على مساحة غرفة استقبال، فينتج عن ذلك بالتّالي صور بشعة. لكنّ الأمر هنا يختلف لأنّهم يصفون مائتي ألف من أشجار الغابة السّامقة، ويرتبونها في صفّ مزدوج، ولا يتركوا جزءا من غصن ينمو فوق جذع، يبعد عن سطح الأرض الأرض، بقدر يقلّ عن ستّة أقدام، وتبدأ الأشجار من هذا المستوى في النموّ، وتمتد تدريجيا، حتّى تصل إلى مكان محدد بأعلاها، ويراعون في ذلك ما يسمح لأوراق النّبات بالنموّ، ويحددون في ذلك أقواسا غصنية بدقّة متناهية، فتصير الصّورة بالغة الحسن. تنسّق الأشجار في خمسين شكلا يختلف أحدها عن الآخر، لتحقّق عنصري التنوّع والجاذبيّة. تشكّل الأشجار التّي لا تقع على طريقين مشجّرين، كلها على نسق واحد، فلا ترهق العين إلى حد الملل. سأتحوّل عن هذا الآن، وأدع لآخرين أن يطّلعوا على ما اتبعه هؤلاء النّاس في هذا السبيل، لإنماء ما لا حصر من أشجار الغابات السّامقة، لتصل جذوعها إلى قدر محدد من السّماكة

(لنفترض أنّه يقدّر بقدم وثلثي القدم)، وكيفية إنمائها إلى قدر متساو في الارتفاع وتمتد لعدة أميال، وكيفية تقاربها من بعضها بعضًا بفواصل متساوية، وكيفية التحكّم في فرع كبير من شجرة كي ينمو من الموضع المحدّد له نفسه على كلّ شجرة، وتحديد امتداد كلّ قوس، وكيف تحتفظ كلّ بصورتها دون أن تتعرض لتغيير، وبالقدر نفسه من التناسق بها والروعة، على مدار الشّهور والأعوام، وحاولت من جانبي حلّ اللغز، وفشلت في ذلك.

سرنا عبر قاعة التماثيل الضّخمة، والمعارض المائة والخمسين للّوحات التصويرية داخل قصر فرساي، وشعرت بأنّه لا جدوى من البقاء هنا، إلاّ إذا تيسّر للمرء عام كامل يجول فيه حيث شاء. تصور كل هذه اللّوحات مشاهد لمعارك قتالية، عدا لوحة صغيرة واحدة من الكنفاه، من بين ما يصور كلّه انتصارات الفرنسييّن الكبري. جلنا أيضا عبر التّريانون (الجناح) الكبير، والتريانون الصّغير، وفيهما من الآثار التاريخية، ما يشير إلى بذخ الملوك، والأحداث المأساويّة ومخلّفات نابليون الأوّل وثلاثة من الملوك الرّاحلين، والعديد من الملكات. سبق لهؤلاء جميعا النوم في أحد هذه الأسرّة الفخمة، تلك التي لا يشغلها الآن أحد. انتصبت طاولة في غرفة الطّعام، جلس إليها لتناول طعامهما كلّ من لويس الرّابع عشر ومدام بومبادور، بمفردهما دون رفقة من أحد، وقد احتلّت الطّاولة مكانها فوق باب سرّي، كي تبهط من هذا الطّابق إلى طابق سفليّ، حال استلزم الأمر إخلاءها من الصّحون. بدا أثاث إحدى غرف التّريانون(الجناح) الصّغير، قائما في موضعه، كما تركته البائسة ماري أنطوانيت، حين قدم الغوغاء، ونقلوها والملك إلى باريس. ذهابا بلا رجعة. ظهرت أمامنا مباشرة، داخل إصطبلات الخيل، العربات الضّخمة، التّي لا يظهر من ألوانها سوى الذهبيّ، تلك التّي استخدمها السابقون من ملوك فرنسا في مناسبات بعينها، ولا تستخدم الآن، إلاّ إذا كان رأس الدّولة بسبيله إلى التّتويج، أو لتعميد أحد أطفال الأسرة المالكة. ظهرت معها زحّافات جليديّة جذابة، على هيئة أسود، وبجع، ونمور..... إلخ، كانت كلّها تتسم يوما بالجمال وهي تحمل رسوما مصوّرة، وأعمالا تمت بيد حرفيين مهرة، لكنّها قد اعتلاها الغبار الآن، وتعرّضت للبلى. لهذه الزحّافات قصّة. فحين فرغ لويس الرابع عشر من إقامة التريانون الكبير، أخبر مينتينون بأنّه أقام جنّة لها، واستفسر عن رغبتها في شيء آخر. حيث كان قد أفصح عن رغبته في أن يكون التريانون مكتملا من جميع الوجوه، ولا ينقصه شيء. فذكرت أنّها لا تفكّر في غير شيء واحد فحسب. هو الصّيف،

وجوّ فرنسا المعتدل، وأنّها تودّ أيضا زحّافة جليدية تسير بها في ظلال طرقات فرساي الوارفة!

جاء صباح اليوم التالي وقد وقد افترشت أميال من الطرقات المعشبة بكثافة بملح أبيض، وموكب من تلك الزّحافات البديعة، يترقّب وصول المحظيّة الأولى للملك، تتصدّر حاشية بلاط لم تشهد فرنسا مثيلا له، فسادا وانحلالا.

عدنا إلى باريس من فرساي الفخيم بقصوره الملحقة به، وتّماثيله وبساتينه وينابيعه، وزرنا ما تضمه من أماكن مهمة لافتة، مثل ضاحية فوبرج، وفيها حي القدّيس أنطوان، بشوارعه الضّيقة القصيرة، يسدّ طرقاته أطفال ينضحون بالقذارة. تلاحقهم نسوة وضرات ويصفعونهم، على الطّوابق الأولى من البيوت حجيرات صغيرة تنضح بالقذارة، بها متاجر (حيث تعد أكثر المشاريع ضخامة خزانة الثياب العالية ذات الأدراج)، وهناك حجيرات أخرى قميئة تباع فيها حلل كاملة مستعملة من الدرجة الثانية والثالثة، بأسعار قد تؤدّي بصاحب متجر لم يسرق باعته إلى الإفلاس. هناك حجيرات قميئة أخرى تعمل في البقالة، وتبيع بنصف البنس، والخمسة دولارا قد تشتري صاحب الحانوت ذاته، فضلا عن شهرة المحلّ. قد يقتل رجل على تلك الطّرقات القصيرة المتعرجة، ثم يلقي بجثّته في نهر السّين لقاء سبعة دولارات. أو بالأحرى قول إنه فوق طرقات أخرى، أو غالبيّتها، تعيش جماعات اللّورين.

يسير البؤس والفاقة جنبا إلى جنب، بصحبة الجريمة وممارسة الرذيلة. على طرقات هذا الحي المسمّى بسان أنطوان، وشواهد ذلك واضحة على الوجوه في كل مكان. يعيش من البشر هنا من يعمل في إثارة القلاقل. من السّهل هنا وفي أيّ وقت يمكن وقوع شيء كهذا، لأنهم دوما مهيأون لإثارتها. حيث يجدون لذّة كبيرة، في إقامة متراس، أو شجّ رقبة شخص أو إلقاء صديق في السّين. وأولئك الوحوش الأجلاف، هم الذين يقتحمون أروقة التويليري الرائعة، من آونة لأخرى، ثم يحتشدون داخل فرساي، حين يدفع بمساءلة ملك.

لكنّهم لن يقيموا متراسا بعد الآن، ولن يحطّموا رؤوس الجنود بحجارة الأرصفة. ذلك أنّ لويس نابليون قد تحوّط لذلك، ووضعه في الحسبان. أمر بإزالة الطرق المتعرجة وبناء أخرى مكانها باستقامة سهم، طرق يمكن لقذيفة مدفع اجتيازها من الطرف إلى

الطّرف الآخر، دون أن تواجه بعائق يفوق في مقاومته لحوم وعظام البشر، طرق لا تقدّم بناياتها الفخمة ملاجئ وملاذات للمتآمرين، والجياع من مثيري الشغب والسّاخطين. تتفرّع خمسة من تلك الطّرق الرئيسة الكبرى من محور كبير، أعدّ بعناية فائقة، تسّع فرقة من فرق المدفعيّة الثّقيلة.

اعتاد مثيرو الشّغب التجمهر هناك، ولكن حريّ بهم في المستقبل، اختيار مكان آخر يتجمهرون فيه. ها هو ذا نابليون الحصيف، يأمر برصف الطّرق بطبقة سميكة ملساء من الأسفلت والرّمل، ويبطل رصفها بالألواح الأسفلتيّة، ولم تعد هناك متاريس من الألواح الحجريّة، ولم تعد قوات صاحب الجلالة الملك، تتعرّض لهجوم بحصيات الرّصف الكبيرة. لا أقوى على وصل مشاعر الودّ بصديقي السّابق، نابليون الثّالث، وبخاصّة في الوقت الحاضر(*)، وذلك حين أرى في المخيلة ضحيّته الغافل ماكسيميليان، يرقد في مكسيكو كالأموات، تترقّب زوجته المصابة بمرض عقليّ في شغف، تترقب من نافذة في إحدى المصحّات العقلية في باريس، وصول ذلك الغائب الذّي لن يصل أبدا، لكنّي معجب بجرأته، وركونه إلى الاعتماد على ذاته في تدبير أموره، وحسن إدراكها.

(*) يوليو ١٨٦٧.

الفصل السابع عشر

كررنا الاستمتاع برحلة بحريّة ترفيهية. اكتشفنا أنّ سفينتنا في اللّيالي الثلاث السّابقة تخوض حربا. إذ وصل في اللّيلة الأولى إلى الرّصيف البحريّ، جماعة من البحّارة السكارى كانوا على ظهر سفينة بريطانيّة، وطلبوا دخول بحارينا في مباراة للملاكمة الحرّة، فقبل هؤلاء على الفور. اتجّهوا إلى الرّصيف معا، وحقّقوا عليهم كسبا في معركة كانت متكافئة. حملت قوة من رجال الشّرطة عددا من المصابين والجرحى من كلا الفريقين، واحتجزوهم لديهم حتى صباح اليوم التّالي. جاء البريطانيون مجدّدا إلى السفينة في اللّيلة التّالية، لاستئناف المباراة، لكن أوامر صدرت لرجالنا بالبقاء على ظهر السّفينة، والاحتجاب عن الأنظار. نفّذ رجالنا الأوامر، فاستبدّ الغضب بالفريق المهزوم، وزاد الأمر سوءا، ظنّهم أنّ رجالنا يخشون مواجهتهم. رحلوا في نهاية المطاف، بعد تهكمهم بنا، ورمينا بنعوت قبيحة. حضروا بعد ذلك في اللّيلة الثالثة، وأحدثوا من الصخب ما فاق المرتين السابقتين. وظهروا رائحين غادين فوق الرافدة الممتدة في البحر في تحدّ ظاهر لنا ورمي بالسّباب. ورمي الطّاقم بتهكّم الاذع بذيء، لاطاقة لبشر بتحمّله. أمر الضّابط المسئول رجالنا بالهبوط إلى البر، مع تعليمات مشدّدة بعدم الدخول في مباريات معهم. قام أفرادنا بهجوم مباغت على البريطانيّين، وحققوا نصرا مؤزّرا. ربّما لم آت على ذكر أنّهم لم يصوّروا في لوحا. المعارض الفرنسيّة، أيّة هزائم فرنسيّة.

كانت عودتنا إلى السفينة المحاطة بالسكينة، بمثابة العودة إلى البيت. أعقبناها بتدخين التّبغ، والاستلقاء، على أطراف السّفينة في الهواء الطّلق. وكان كثيرون من أفراد العائلة الكبيرة على سفر. افتقدنا وجوها مرحة، ألفنا رؤيتها على مائدة الغداء، وكانت هناك أماكن شاغرة بين مجموعات لعب الورق، ولم يتيسر شغل هذه الأماكن بسبب غيابهم. كان "مولت" في إنجلترا، و"جاك" في سويسرا، و"تشارلي. في إسبانيا. وغادرنا "بلاشر" دون

أن يدري أحد بوجهته. لكنّا عدنا إلى البحر مجدّدا، ولدينا النّجوم والبحر، لننعم فيهما النّظر، وبينهما الفضاء الفسيح.

في الوقت المحدد للوصول بدت الشّواطئ الإيطاليّة للعيان. بينما نحن وقوف، نرنو إليها من فوق. السفينة، في باكورة صباح من أيام الصيف المشرقة، بدت أمامنا من البحر مدينة جنوا العظيمة، تطرح ضياء الشمس من مئات من قصورها.

نحن نخلد الآن إلى الراحة هنا، أو الأرجح أنّنا كنا في هذا المكان نحاول أن نستريح لبعض الوقت، لكنّنا قطعنا شوطا كبيرا من تلك المرحلة.

إنني أفضّل البقاء في هذا المكان، والأفضل ألاّ أتجاوزه. فلعله يحقل بنسوة أوروبيّات يتمتعن بقدر أوفر من الجمال، لكنّي أشكّ ذلك. يأهل "جنوا "من البشر، مائة وعشرين ألف نسمة، أظن أن ثلثيهم على الأقلّ من النسّاء، وثلثي النساء جميلات. تتميزن بحسن الهندام، والجاذبيّة والرّشاقة، إلى حدّ بعيد، لكنّهن لسن بالملائكة، رغم ظنّي أنّ الملائكة لسن بالأنيقات. فالملائكة في اللوحات لا يظهرن بهذه الصّورة في أقلّ القليل، ولا يكتسين بغير الأجنحة. لكنّ أهل "جنوا" من النّسوة يتحلين بجانب كبير من الفتنة. فالشّابّات الصّغيرات في جنوا، يكتسين بثياب بيضاء ناصعة كالثلج، من الرأس حتّى أخمص القدم، مع أنّ كثيرات منهنّ يتقنّ تجميل أنفسهنّ. لا يعتمر تسعة أعشارهن، ما يغطّي رءوسهنّ، خلا شيء رقيق من الغطاء، ينسدل على ظهورهنّ، كسحابة بيضاء. كن يتميّزن بملاحة ملحوظة. فكثيرات منهنّ زرقاوات العيون، ولكنّ سوادها والبني القاتم قد اجتمعا في أغلبهنّ.

لسيّدات جنوا وسادتها، طريقة بديعة في النزهة في حديقة كبيرة، على ذروة هضبة في قلب المدينة، من السّادسة إلى التّاسعة مساء. يتم فيها تناول المثلّجات في حديقة مجاورة لساعة أو ساعتين. ذهبنا مساء يوم أحد إلى الحديقة، وكان هناك من الزوار ما يقارب ألفين، بخاصّة من السيّدات الشّابات والسّادة. اكتسي السّادة بأحدث الثياب الباريسية، وظهر وميض ملابس النساء من بين الأشجار، كندف الجديد المتساقطة. تحرك الجميع في أرجاء الحديقة في موكب حافل. عزفت فرق الموسيقى الألحان، وكذلك عزفت الينابيع، وأضاء الصّورة ضوء القمر ولمبات الغاز، وحفلت أيضا بالبهجة والنشاط. أمعنت النّظر في

وجه كـل عابرة طريق، وبدت لي ملاحة لم تقع عيني عليها من قبل. ولم أعرف رجلا يتمتّع بأهلية اتخاذ القرار يقوى على نية الزّواج من إحداهنّ، لأنّه سيقع في هوى أخرى قبل أن يقرر هذا .

لم أقدم قط على تدخين التّبغ الإيطاليّ. وما فعلت ذلك تحت أي ظرف، لأنّ فرائصي ترتعد من عاقبة فعله، لأنك لا تقوى على إلقاء عقب سيجارة في أي مكان هنا. إلا وانقضّ عليه، أحد المشرّدين في التوّ واللّحظة.

اعتدت تدخين التّبغ بكثرة، ولكن يجرح مشاعري، رؤيـة أحـد صائدي الأعقاب يترقّبني على قارعة الطريق بعيون نهمة،. يتحسّب زمن مشارفة سيجارتي على الانتهاء. ذكّرني ذلك كثيرا بالقائم على تجهيز الموتى في سان فرانسيسكو، قد ألف الذّهاب إلى فرش المحتضرين، وترقب ساعة الاحتضـار، حتى يتسلم الجثمان. لاحقنا أحد صائدي الأعقاب ليلة أمس في الحديقة، ولم يكن لدينا ما ندخنه. فكنّا لنيل رضاءه نتحرّك بعقب سيجـارة، قـد احتـرق نصـفهـا، فظـلّ يتابعها بعينيه بشغف ضار. لقد عتبرنا غنيمة مستباحة له، فهو صاحب حقّ اكتشافنا، بعد أن صرف عنّا آخرين من أهل المهنة، ممن تراءى لهم مشاركته فينا.

من المؤكد أنهم يقومون بمضـغ تلك الأعقاب، وتجفيفها ثم بيعها تبغا للتّدخين. فوجه رغبتك في التدخين إلى صنف آخر من أصناف التبغ الهندية.

تلقّب جنوا لقرون بـ"الفخمة"، أو "مدينة القصور". يؤكّد ذلك احتشادها بقصور تحفل في داخلها بالأبهة والترف، لكنّها من خارجها، تعاني الإهمال الشّديد، وتفتقر إلى مظاهر الرّقيّ المعماريّ. سيعتبر لقب جنوا "الفخمة. في غير محلّه، لو وصفت به امرأة.

زرنا كثيرا من قصور جنوا، وكلها أبنية ضخمة سميكة الجدران، تتسم بضخامة درجها الحجري، وبلاط أرضياتها المرمري المطعم بالفسيفساء (يصوغون أحيانا أعمال الفسيفساء في أشكال معقدّة، منمنمة ببلّور صخريّ، أو ببعض شظايا الرّخام مثبّتة بمادة لاصقة)، وقاعات كبيرة حملت جدرانها لوحات من أعمال روبينز، وجويدو، وتيتيان، وبول فيرونيزي، إلخ، ولوحات لكبار أفراد العائلة المالكة للقصر. مزوّدين بخوذات مزينة بالريش، وسترات دروع جميلة، وسيّدات من الطّبقة الأرستقراطية، في أزياء أنيقة تعود

إلى عصـور مضت. لكنّ أهل القصر بالطّبع كانوا يمضون عطلة الصّيف في الرّيف، لعلّهم لا يعلمون بزيارتنا، كي يدعوننا إلى مائدة الغداء، لو كانوا بالدّار، وهكذا كانت كل القاعات الكبرى خالية، بما تضمّ من بلاط مبهر، ولوحات مرعبة تصور أجدادهم الرّاحلين، ورايات أكل الدّهر منها وشرب، يكسوها غبار القرو. الغاربة، إذ بدت مستسلمة لما ينضوي تحتها من أحزان وجمود. وانسحقت أرواحنا بعيدا، وفارقتنا مشاعر البهجة، ولم نبلغ بعد الطّابق الأخير، لأنّنا على عهدنا دوما نخشى الأشباح.

رافقنا في جولتنا داخل القصر، خادم هو الآخر له سحنة حانوتيّ لتجهيز الموتى، قدّم لنا برنامج الزّيارة، وأشار إلى لوحة كانت على رأس قائمة لوحات القاعة وقف فيها، بدا منتصب القامة، مشدودا، متصلبا، عبوسا، يرتدي الزّيّ الخاصّ بالخدم الذى شلّ من حركته حتّى تأهبنا لدّخول القاعة التالية، فتقدّم برأس مطرق، واتخذ وضعا كالذّي اتّخذه في السّابق ينمّ عن احترام ينطوي على سوء نية. أطلت في دّعاء بسقوط الأسّقف فوق كل العابسين من الخدم، كي أمكّن من التركيز في القصر واللّوحات.

كان يرافقنا أيضا فضلا أحد الأدّلاء، مثلما كان الحال في باريس، وليذهب كلّ الأدلاّء إلى الحجيم. ذكر هذا أنه أكثر الموهوبين إلماما باللّغات في جنوا، وأكثر من يتحدث الإنجليزيّة بطلاقة بالمدينة ومعه اثنين فحسب. قادنا إلى مسقط رأس كريستوفر كولومبوس، وبعد أن قضينا خمس عشرة دقيقة، في تأمّل صامت رهيب أمام البيت، ذكر أن هذا ليس مسقط رأس كولومبوس، بل بيت جدّته. وحين طلبنا توضيحا لمسلكه هذا، ردّ بإيطاليّة بربريّة (ركيكة) وهزّ كتفيه استهجانا فحسب. سأضيف المزيد بشأن هذا الدليل في فصل قادم، ولأظنّ أن كلّ ما أمدنا به، يمكن أن يبقى معنا لفترة طويلة.

لم يدم انقطاعي عن الكنسية كثيرا قبل الآن، سوى الأسابيع الماضية كلّها. يميل النّاس في هذه البلاد التي لها باع في التّاريخ، إلى فهم تردّدهم على الكنيسة، على أنه أمر من شئونهم الخاصّة. ويبدو أن هذا ينطبق على أهل جنوا بالذات. أظنّ أن المسافة بين الكنائس عبر البلدة تتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة ياردة. ينتشر في شوارع جنوا، نوع من القبّعات، شبيه بالجاروف، يعتمره رجال دين، تظهر فيهم بدانة، ويكتسون بمسوح طويلة. تدق عشرات من نواقيس الكنائس طوال اليوم تقريبا. يصادف المرء في طريقه بين فينة

وأخرى، أحد الإخوة من الرّهبان. الشّيوخ، برأس حليق، ومسوح طويلة خشنة، ونطاق مفتول وسبحة من الخرز. وقد انتعل خفّين أو حفت قدماه. يمارس هؤلاء الأجلاّء إيلام الجسد تكفيرا عن الذنوب، وأظنّهم يحرصون على التّكفير عن ذنوبهم طيلة حياتهم، شأنهم في ذلك شأن محترفي إحداث المجاعات، فكلّهم تميّزهم البدانة، وهدوء الخاطر وراحة البال.

تعتبر كنيسة سان لورنزو من بين ما عثرنا عليه من مواقع مهمة في جنوا. أقيمت على مساحة كبيرة، وتضمّ صفوفا من الأعمدة العالية، وأرغنا ضخما، وما تعرف به الكاتدرائيّات الكبيرة من مظاهر للترف، تتمثل في الزخارف المطلية بماء الذهب، واللّوحات، والأسقف المصوّرة بالجصّ، وأشياء من هذا القبيل، ولا يمكنني بطبيعة الحال وصف هذا كله تفصيلا، فذلك يتطلب أن تفرد له صفحات كثيرة. لكن الكاتدرائية تعد مكانا جاذبا للاهتمام.

ذكروا أنّ نصف مساحة الكاتدرائية، الذى يبدأ من الباب الخارجيّ حتّى منتصف الطّريق المؤديّ إلى المذبح، كان قبل ميلاد المسيح، كنيسا يهوديّا، ولم تجر عليه أيّة تعديلات منذ ذلك الحين. شككنا في الرواية، بل فعلنا ذلك رغما عنّا، وكان الأفضل تصديقها، فظاهر المكان يؤكّد تاريخه القديم.

شدّت انتباهنا داخل الكادرائية، كنيسة صغيرة، تسمّى "كنيسة يوحنّا المعمدان"، لا يسمحوا بدخولها إلاّ للنساء يوما واحدا في العام، وذلك بسبب يكنونه حتى الآن من كراهية لجنس الرّجال، لأنّ قتل القديس إنما قتل كان ليشفي غليل هيرودس. يوجد في هذا المصلّي (الكنيسة الصّغيرة)، وعاء من الرّخام، ذكروا أنّه يحفظ بداخله رماد القديس يوحنّا، بعد أن كان في أسره مقيدا بسلسلة حديديّة، ذكروا أنّها تلك التّي كان مكبّلا بها. لم تواتنا رغبة في تكذيب تلك الرّوايات، ونحن لم يكن لها يقينا في داخلنا، لأننا من جانب نستطيع. تحطيم تلك السّلسلة كما فعل القديس يوحنّا من قبل، ومن جانب آخر، أننا قد رأينا رماده في كنيسة أخرى. ولم نستطع دفع أنفسنا إلى الإعتقاد بأنّ للقديس يوحنّا رمادين في مكانين مختلفين.

أشاروا أيضا إلى لوحة للسيّدة العذراء، رسمها القدّيس لوقا، ولم يكن بها نصف شحوب لوحات روبينز أو قدمها. لم نكفّ قطّ عن إعجابنا بتواضع لوقا الرّسول: لأنه لم يذكر ولو مرة واحدة ضمن كتاباته، أنّه كان يستطيع رسم اللّوحات.

ولكن أليس في مثل هذا الأثر الديني بعض مبالغة؟ فنحن نجد في كلّ كنيسة قديمة نزورها، قطعة من الصّليب الحقيقيّ، وبعض ما حمل من مسامير. إنّني لا أحرص على إثبات صحّة ما أدعيه، ولكنّي أعتقد بأنّنا قد رأينا من قبل ما يعادل كيلوجراما من تلك المسامير. يأتي بعد ذلك إكليل الغار (أو تاج العروش كما أطلق جند هيرودس من اليهود عليه بداعي السخرية)، فلديهم جزء منه في كنيسة القدّيسة شابيل في باريس، وجزء آخر في نوتردام. أمّا بالنسبة لعظام القدّيس دانيال، فإنّني أشعر بالفعل أنّنا رأينا منها ما يكفي لمطابقتها به لو استلزم الأمر.

ما قصدت من ذلك سوى الكتابة عن الكنائس. لكنّي سأظل في حيرة من الأمر برمته. أستطيع القول بأنّ كنيسة البشارة، عبارة عن غابة من الأعمدة الجميلة، والتّماثيل، والقوالب المعماريّة المموّهة بالذّهب، ولوحات يكاد يعزّ حصرها، ولكن ذلك لا يقدّ مأبدا فكرة شاملة عن ماهية هذا الشيء، وما الذى يرمي إليه. فعائلة واحدة هي التي أقامت المبنى كلّه، وتبقت لديها بعد ذلك أموال. وهنا يكمن السرّ. إنّ لدينا فكرة مسبّقة، مفادها أنّ سكّ عملة واحدة يمكن أن يطيل أمد الإنفاق.

يعيش النّاس هنا، في أقصي ما يمكن لإنسان تخيّله من بيوت من حيث الضّخامة والمتانة والسعة والارتفاع والكآبة. قد يثير كلّ منها "فاصلا من الضحك المتواصل حتّى السخرية". تبلغ واجهة البيت مائة قدم، والارتفاع مائة تقريبا. تصعد ثلاث درجات من السلم قبل أن تجد ما يشير إلى سكناه. كلّ شيء في هذه البيوت، أقيم من حجارة، هي الأضخم بين سائر أنواع الحجارة، ويشمل ذلك الدرّج، والطّوابق، وأرفف المواقد، والمصاطب، وكلها من الحجارة. تبلغ سماكة الجدران ما بين أربعة أقدام إلى خمسة. وتبلغ سعة الشّوارع أربعة أقدام أو خمسة أو ثمانية، وتشبه اللّولب في التوائه. تمضي عبر شقوق معتمة كهذه، وتنظر إلى أعلى، فتري السّماء أشبه بشريط رفيع من الضوء، يترامى في البعد أعلاك، حيث توشك قمم البيوت العالية على جانبي الشّارع على الانحناء معا.. تشعر وكأنّك في قاع هاوية سحيقة، والعالم يقع يترامى من فوقك. تتلفّت حولك، هنا أو هناك وقد التبس عليك الأمر، فتجدك قد تفوقت جهلا بالاتجاهات الصحيحة على ضرير. ثم لا تقوى أن تقنع نفسك، بأن الذى تقف فوقه، شارعا بالفعل، وأنّ الدور الضّخمة التي أمامك واقعا محسوسا، حتى تقع عينك على إحدى الجميلات المتأنّقات، تراها وقد أطلّت.

من أحد هذه الأوكار المظلمة البادية كلها كالزنازين، من الأرض حتّى منتصف طريق الصعود إلى السّماء، فتتعجب من أنّ فراشة بهذا القدر من الفتنة، يمكن أن تخرج من قشرة منفّرة كتلك. كانت الحكمة من ضيق الشّوارع، وضخامة البيوت وبنيتها الحجريّة، وسماكة جدرانها، أن يتمكّن الناس من الإحساس بالبرودة في هذا الجوّ الخانق. وإنهم يتسمون بالبرود وسيبقون. وجدت وأنا أتأمل هذا، رجالا يعتمرون القبّعات، ولهم بشرة داكنة السّمرة، أمّا النساء فلا يغطّي رءوسهن، سوي غطاء رأس شفيف، يشبه شبكة العنكبوت، وذلك أيضا يخفّف من الحرارة بوجه عام،. هو أمر محيّر، أليس كذلك.

يفترض إقامة عائلة واحدة في كلّ قصر من قصور جنوا، ويحملني الظّن إلى أنّ كلّ منها يضمّ مائة فرد. هؤلاء هم البقيّة الباقية من عظمة جنوا أيّام ازدهارها. كانت جنوا تقيم نشاطا تجاريا كبيرا، وذات نفوذ بحريّ لقرون عديدة مضت. ورغم أن هذه الدور والقصور الرخامية على هذا النحو من الرسوخ، فإنها تبدو من الخارج في أحوال كثيرة بلونها القرنفليّ القاتم، وتجدها مصوّرة بدءا من البلاط حتّى الأفاريز، بمشاهد لمعارك جنوا الحربية، وجوبيتر وكيوبيد الرهيبين، وكلّ الصّور الجماليّة المعروفة في الأساطير الإغريقية.

وتكون النتيجة غير مبشّرة، حال ترك اللون عرضة لعوامل الزّمن والطّقس، والتقشّر والترميمات. لم تتسم بالجاذبية في اللوحة، ملامح كلّ من كيوبيد أجدع الأنف، وجوبيتر الأعور، وفينوس بصدرها المقشور. ذكّرتني هذه الجدران المصوّرة، بعربة طويلة ملصقة بلافتات إعلانية، كانت تسير خلف عربة أخرى تضمّ فريق السيرك، وتطوف بأنحاء إحدى القرى. لم أقرأ أو أسمع بواجهات بيوت في أيّة مدينة أوروبيّة تصوّر بالجصّ على هذا النّحو.

لم أستطع استيعاب أن تقع جنوا وسط آثار قديمة. نادرا ما شاهدنا من قبل، تلك القناطر الضّخمة، وقواعد الأساسات الهائلة التّي ترفع تلك الأبنية الشّاهقة الرحبة. ومؤكد أن هذه الكتل الهائلة من الحجر يمكن أن يدركها البلى عليها عليها هذه الأبنية. أو تتعرض للانهيار جدرانا على هذا النحو تبلغ قدرا من السّماكة يعادل ارتفاع مدخل بيت أمريكيّ عادي.

تمتعت كلَ من جمهوريتي جنوا، وبيزا بنفوذ كبير في الماضي، وعلاقات تجاريّة قويّة مع كل من القسطنطينية وسوريًا. وكانت مستودعاتهما مقرًا للسلَع الغالية القادمة من بلاد الشَرق، في طريقها من هناك إلى كلّ أنحاء أوروبًا. كانتا دولتين صغيرتين محاربتين، وتحدّتا في تلك الأيام حكومات تهيمن عليهما الآن، كما تهيمن الجبال على ركام التّلال. استولي السّاراكيّون على جنوا، ونهبوها منذ تسعمائة عام، ولكن أقامت جنوا بيزا في القرن الذّي أعقبها فيما بينهما، تحالفا عسكريا، وحاصرتا المستعمرات السّاراكيّة، فيكلَ من سردينيا وجزر الباليارك، وصمدتا بعزم وإصرار، وأبقتا على ما كان لهما من بأس، حيث احتلتا مكانتهما الواجبة على مدار أربعين عاما. خرجتا في نهاية المعارك، ظافرتين، وقسمتا أسلاب الحرب بالتّساوي، بين أفراد عائلات النّبلاء الكبيرة. لا تزال سلالات من تلك العائلات التليدة تقيم في قصور جنوا، ويحملون في ملامحهم شبها بالفرسان عابسي الوجوه المعلقة لوحاتهم في أبهائهم الكبيرة، وبالملامح الجمالية المصورة، البادية على الشّفاه المقَطبَة، والعيون المرحة، التّي تحوَل أصحابها الأصليين إلى رماد، منذ قرون سابقة قد طواها النّسيان .

نسب الفندق الذّي نقيم فيه إلى أحد أولئك الإخوة الكبار، من جماعة فرسان الصّليب في العصور الصّليبيّة، وكان حرّاسه لابسو الدروع يوما، ساهرين داخل أبراجه الضخمة، تدوّي أصداء كواحلهم الحديديّة في أرجاء قاعاته ودهاليزه لكنّ مجد جنوا قد تهاوي في أنشطة تجاريّة ضئيلة الشّأن، كأعمال النقش على المعادن، وزخرفته بالتثقيب. يقولون إنّ لكل مدينة أوروبية ما يميّزها عن غيرها، وأنّ ما يميّز جنوا هذه الأعمال الزخرفية الدّقيقة. يتسّلم الصاغة الفضّة في قوالب معدنيّة، ثم يصوغونها في أشكال شتّى تتوفر فيها الدقّة والتناسق. يصنعون من قشور الفضّة وأسلاكها الرّفيعة، فروع أشجار، وتصوّر المشغولات المبتكرة، تموّج الجليد على لوح نافذة زجاجي، وقد عرض لنا معبدا فضّيا مصغّرا، صنع من الفضّة اللامعة، بأعمدته المخدّدة، وأحرفه اليونانيّة الضّخمة، وتناسق أسقفه المعمّدة، وبرجه وهياكله وأجراسه، ووفرة زخارفه ونقوشه، في تحفة فنيّة لا نظير لها، توخيّ في إخراجها دقة لافتة، ويحفل المبنى كله بكل سمات الجمال.

نتأهّب الآن لمغادرة، الممرات الضّيقة لهذا الكهف الرّخامي القديم رغم أنّنا لم نشعر في الحقيقة بملل منه. تصلح كلمة كهف في سياق كهذا، لو تحدّثنا عن جنوا تحت النّجوم. في

منتصف اللّيل ونحن نتلمّس طريقنا، عبر الأزقّة المظلمة التّي يسمّونها "الشّوارع"، حيث لم يكن يظهر عليها أثر لطارق ليل سوانا، كانت تظهر لنا أضواء من مسافة بعيدة، وفي أماكن متفرّقة، ثمّ تختفي عن ناظرينا بطريقة غامضة، وبدت الدّور القريبة منا وكأنّها تصاعد شيئا فشيئا إلى السّماء، لم تغادر مخيّلتي في تلك اللحظة، صورة كهف في الوطن، توثّقت معرفتي به، وبممراته العالية، وصمته ووحشته، وظلمته الحالكة، ورجع أصدائه المرعبة، وأضوائه الشحيحة، وفوق ذلك كله، كشفه المباغت لشقوق متشعبة، ودهاليز لم نكن نتوقع وجودها.

لم نكن لنملّ مواكب لا نهاية لها لا حصر، حافلة بمثيري البهجة ممن يتحاورون حول الأحداث المثيرة، والمحتشدين في أبهاء جنوا وشوارعها طوال النّهار، وبالرّهبان، بمسوحهم الخشنة، وبنبيذ الآستي، الذي وضع الطبيب، المسمى بـ"العالم ببواطن الأمور"، بلباقته المعتادة، لفظا "معاكسا"، هو "المثير للغثيان"، لأنّه دوما يقابل الشّيء بنقيضه. وكان علينا مع ذلك أن نسير حذوه.

كان آخر ما شاهدناه جبّانة (أعدّت لتضم ستين ألف جثّة. سنظلّ نذكرها، بعد نسياننا القصور بالضّرورة. وهي رواق ضخم مزوّد بأعمدة رخاميّة ضخمة، تترامى حوله مساحة مربّعة من الأرض الفضاء، عبّدت أرضيتها الفسيحة بألواح من الرّخام، وعلى كلّ لوح منها نقشا، فكلّ لوح يواري تحته جثمانا. يجد السّائر في الممر، على الجانبين، شواهد قبور، ومقابر، وصورا منحوتة تمثل أشخاصا، وقد حظيت بالجمال والروعة. كانت النّقوش حديثة العهد، تتميّز ببياضها النّاصع، وبدّقة أطرها الخارجية، وخلوّ صورها من عيوب أو تشوّهات، واعتبرنا هؤلاء من أصحب المكانة، الذين من صورهم، بدوا يتمتّعون بجمال يفوق كثيرا أصحاب التّماثيل المحطّمة، المشّوهة، التي أخرجوها من بين ما تبقي من فنون قديمة ثم قاموا بعرضها في متاحف باريس كي يشيّعها النّاس بالوقار.

نتأهب الآن للذهاب إلى ميلانو، بعد أن تزودنا بسجائر التّبغ، وما سواها من مستلزمات الحياة.

الفصل الثّامن عشــر

حثثنا السّير طوال النّهار عبر منطقة الريف الجبلية، حيث أشرقت الشّمس على ذراها، وبرقّشت منحدراتها فيلات جميلة، واقعة وسط حدئق غناء وأراض مشجّرة، ووهاد غائرة تستمتع بالفيء والجوّ الرّطب، وبدت لنا على هذا النّحو من الجاذبية، فكنّا والطّير محلّقين في طبقة الجوّ العليا شديدة الحرارة والرّطوبة في آن .

كانت أمامنا رغم ذلك أنفاق، نجفّف بداخلها ما تصبب منّ عرق. قضينا في أحدها بعض الوقت، وسرنا فيها مدّة عشرين دقيقة، بسرعة تقدّر بخمسة وثلاثين ميلا في السّاعة.

مررنا بساحة معركة مارينجو، الواقعة خلف أليساندريا.

أشرفنا على دخول ميلانو عند الغسق، والتقطنا نظرات عجلى من المدينة، ومن خلفها قمم الجبال الزّرقاء. لكنّنا لم ننشغل بهذه الأشياء، فهي لا تهمّنا في شيء، بعد نفاذ صبرنا، وتوقنا لرؤية الكاتدرائيّة الشّهيرة. تفسّحنا في كلّ اتّجاه، وكلّ ما يحيط بنا، ولم نكن بحاجة إلى دليل يرشدنا إليها، وما كانت لدينا رغبة في استعانة بأحد، لأننا كنا سنعرفها حتّى لو كانت في الصّحراء الكبرى.

ظهرت آخر الأمر، غابة من أوراق النبّات الإبرية الجميلة، وامضة في أشعة الشّمس الضّاربة إلى الحمرة، وظهرت لنا وئيدا فوق مستوى أسطح البيوت الخفيضة، كما يري المرء أحيانا في الأفق البعيد كتلة مقببّة من العتام، مموهة بماء الذّهب، تسمق وحدها فوق هدير موج البحر، إنّها الكاتدرائيّة! ها قد عرفناها على الفور.

ظلت تلك التحفة المعمارية، طيلة نصف تلك اللّيلة، والنّهار الذّي أعقبها، موضع اهتمامنا الوحيد.

ما أعجبها! وهي على هذا النّحو من الضّخامة والشّموخ والسّعة، فضلا التناسق والرّوعة والأبّهة. إنّها عالم بذاته من كتلة صلبة ثقيلة الوزن، رغم ظهورها في رقّة ضوء القمر، مجرّد طيف خيال، من رسوم يشكّلها الصّقيع، تمحوها نفثة من زفير! كم توخيت الدّقة لضبط زواياها الحادة، ووكثرة أبراجها الصّاعدة إلى السّماء، وسخاء ظلالها على سطحها النّاصع! إنّها خيال صرف! آية إعجازية، ترنيمة تردّد في الحجر، وقصيدة قد صيغت في الرّخام!

أينما تولّي وجهك صوب الكاتدرائية، تلحظ سمتا الجلال والجمال! وأينما وقفت في ميلانو، تظهر لك كاتدرائيّة ميلانو على مسافة سبعة أميال، داخل البلدة، وحين تقف أمامها مباشرة، فلا قبل لشيء آخر أن يشدّ انتباهك بالكلية. ولو سدّدت بصرك في أي اتجاه، فلا بد من أن يتحول إليها على الفور، ولا حيلة لك في ذلك. إنها مقصدك الأوّل حين تنهض من فراشك في الصّباح، وهي آخر ما ترنو إليه ببصرك في اللّيل. جدير بالفعل أن تكون هذه الكاتدرائية اسمي ابتكار حققّه عقل إنسان.

ذهبنا إلى هناك في التّاسعة صباحا، ووقفنا أمام هذا الطّود المرمريّ الهائل. زخرفت أطر الباب الأوسط من أبوابها الخمسة، بمنمنمات على شكل طيور بارزة، وثمار، وحيوانات، وحشرات، نقشت ببراعة فائقة على الرّخام، لتبدو كأنّها كائنات تضجّ بالحركة والحياة، وبأشكال أخرى لا حصر لها، ورسوم بالغة التعقيد، ويسع الإنسان تمعنها أسبوعا كاملا، دون أن يملّ ما تحمل من جاذبية. تجد فوق البرج الكبير العالي فوق عدد لا بأس به من الأبراج، وداخل تلك الأبراج، وفوق الأبواب والنّوافذ، وفي الأماكن المنعزلة والأركان، وفي كلّ مكان تجد مشكاة أو مقعد في محيط المبنى الضخم من القمة إلى القاعدة، وتجد تمثالا من الرخام، وكل تمثال بذاته يستحقّ التأمل. قام تلاميذ العمالقة أمثال رافاييل، أنجلو، كانوفا، وكل من ابتدعوا فنّ التّصوير والرسم، قام تلامذتهم بنحت تماثيل لهم. تلحظ في وجه كلّ منهم بلاغة التّعبير.. التناسق في أوضاع كلّ منهم. ترتفع من أعلى سطح الكنيسة السامق في عنان السّماء، سلسلة متدرّجة الارتفاع من الأبراج المحاطة بالزّخارف الشّباكية والنّقوش، ويرى المرء عبر نقوشها القوطية صورة خلفيّة للسماء، ويشمخ أوسطها البرج الأوسط كالصاري الرئيس، في سفينة شراعيّة ضخمة، وسط أسطول من السّفن التّجاريّة .

رغبنا الصّعود أعلى الكاتدرائيّة. قادنا القائم على محفوظات الكنيسة، إلى سلّم رخامي (كان بالطّبع من أنقى وأنصع أنواع الرّخام في العالم. ينعدم في بنيته أي وجود لحجر أو قرميد أو خشب)، طلب منّا صعود مائة واثنتين وثمانين درجة، والتوقف هناك حتّى يلحق بنا. لم نكن بحاجة إلى طلب بالتوقّف، لأنّ ذلك كان سيحدث حتما تحت أيّة ظروف، حيث شعرنا بإنهاك شديد عند وصولنا. وها هو ذا السطح. وهنا صفوف طويلة من الأبراج، تنطلق إلى أعلى بدءا من بلاطه الرّخامي المسطّح، تبدو طويلة جدّا وهي قريبة، لكنّها تبدأ في الصّغر من بعد، كأنابيب الأرغنّ. يمكننا الآن إدراك أن التمثال المقام فوق كلّ برج منها، كان في حجم رجل طويل، مع أنّها بدت لنا من الشّارع دمى، ويمكننا أيضا إدراك أنّه من داخل كل من هذه الأبراج المجوّفة، ومن ستّة عشر إلى واحد وثلاثين تمثالا مرمريا جميلا، قد استشرفت العالم من تحتنا.

امتدّت سلسلة لا حصر لها من العوارض الرخامية الضّخمة، بدءا من الحوافّ البارزة من السّقف حتّى أطرافه، كتلك الدعامات الخشبية الطّولية والعرضية التي تقام بها البواخر. وانتظم من طرف كلّ دّعامة إلى طرفها الآخر. صفّ من النقوش النادرة من الثّمار والأزهار، يظهر فيها تميّز كل نوع عن الآخر واستقلاله بذاته. تشكلّت كلّها من خمسة عشر ألف صنف. تبدو هذه الصّفوف على مسافات متقاربة من بعضها بعضًا، كتلك الروابط بين قضبان السكك الحديديّة، ويشكّل اختلاط البراعم والثّمار معا في هذا البستان المرمريّ، لوحة تأسر عين النّاظر.

هبطنا الدّرج، ودخلنا الكاتدرائية. قسّمت صفوف طويلة من الأعمدة المخدّدة، كنصب تذكارية ضخمة، قسّمت مبني الكاتدرائيّة، إلى ممرّات طوليّة رحبة. تساقطت بكثافة على البلاط المزخرف بالرسوم، حمرة خفيفة، من النّوافذ الملّونة التي تعلوها. أعرف أنّ الكنيسة بالغة الضّخامة، ولكنّي لا أستطيع التأكّد تماما من قدر ضخامتها، حتّى لاحظت، أنّ الواقفين أسفلنا على مسافة بعيدة بجوار المذبح بدوا كصبية صغار، وبدوا كأنهم يتحركون زحفا بأكثر من كونهم سائرين. سرنا وئيدا ونحن نتفرس النوافذ العليا الضخمة باعيننا النّوافذ، تلك التي تزخر بالصور الوضيئة الملوّنة.. تصوّر حياة المخلص وأتباعه. كانت بعض هذه اللّوحات من الفسيفساء، ومن حرفية الصّنعة قد تلاصقت آلاف الجزيئات الزخرفية الدّقيقة من الزّجاج الملوّن أو الحجارة الدّقيقة. بحيث يتوفر في العمل

الدقّة والكمال والنّعومة. أحصينا ستين لوحا من الزّجاج في نافذة واحدة، وقد تحقق إنجاز أعمال الزخرفة الرّائع في كلّ منها، نتيجة النبوغ والعمل الدءوب.

قادنا الدّليل إلى قطعة من تمثال، وذكر اعتقاده بسقوطها من يد تمثال فيدياس، في الوقت الذى يستعصى على أيّ فنّان آخر في أيّ عصر، نسخ شخصيّة بدقّة الملامح نفسها. كان التّمثال لرجل دون بشرة تمّت بكل عرق فيها، أو شريان أو عضلة أو وتر أو نسيج للبشر بصلة، أو تجسّد ذلك في تفاصيله الدقيقة. بدا الأمر طبيعيا، فقد ظهر كأنه كان يعاني من هموم. كان الأرجح أن يظهر على هذه الصورة من يعاني أمرا من البشر، ذلك إن لم يكن منشغلا بأمور أخرى. كان هذا الشّيء مثيرا للتقزّز، وكان في الوقت نفسه يثير الإعجاب في بعضه بصورة ما. لقد حزنت كثيرا لرؤيته، لأنّني سأظلّ أراه منذ الآن بصفة دائمة. وسوف أحلم به أحيانا. سأحلم بأنه يضع ذراعيه النحيلتين على رأس سريري، وأنّه ينظر إليّ نظرات الموتي، سأحلم، بمشاركته إيّاي الفراش وسط الأغطية، وأنه مسّني بعضلاته البارزة، وساقيه الباردتين، المعروقتين.

يصعب نسيان الأمور المنفّرة. أتذكّر أيضا أنّني يوما هربت من المدرسة وأنا لم أزل صبيًا بعد، وفي وقت متأخّر من اللّيل، قرّرت القفز من نافذة مكتب أبي، والنّوم على إحدى الأرائك، لأنّني توجّست من العودة إلى البيت، والتّعرّض للضرب بالعصا. حين بدأت عيني اعتياد الظلمة، حسبت أنّني أرى شيئا طويلا غامضا لا معلم له، ممّددا على أرض الغرفة. سرت في بدني قشعريرة، التفت إليه وتمعنته لدقائق، بدت لي ساعات. تبين لي أن ضوء القمر الوئيد لن يصل إليه ليكشف عنه. أدرت وجهي إلى الجدار، وبدأت العدّ حتّى العشرين، كي أغلب ما ينتابني من هلع. نظرت مجدّدا فإذا بالمربّع الشّاحب قد اقترب بعض الشيء. شحت بوجهي مجدّدا، وعددت حتّى الخمسين، فوجدته يكاد يلامسني، عاودت الإشاحة بوجهي عنه، وعددت حتى المائة، التفتّ مواجها إيّاه، وفرائصي ترتعد فرقا. هذه يد بشريّة بيضاء ترقد في ضوء القمر. شعرت بانسحاق شديد، وضيق مباغت في التنفّس! وشعرت ..... لا داعي، فأنا لا أقوى على وصف ما شعرت به. حين عدت إلى نفسي، أشحت بوجهي ناحية الجدار.

لكن صبيا مثلي في هذه السنّ لن يقوى على البقاء في مثل هذا الوضع، ويد مجهولة ترقد خلفه. قمت مجدّدا بالعد، ورأيت أنّ الذّراع قد انكشفت عن آخرها. واريت عيني بيدي وعددت مجددا، حتّى وصل الأمر إلى أنني، لم أعد قادرا على مواصلة العدّ، ثم ظهر وجه رجل اكتسي بالشّحوب، وتدلت زوايا فكّيه، واستقرّت عيناه في محجريهما وتجمدت. نهضت من رقادي وجلست القرفصاء، وحملقت في الجثّة حتّى زحف ضوء القمر تدريجيا إلى الصّدر العاري، خطّا بعد خطّ وبوصة بعد أخرى، متجاوزا حلمة الصّدر، إلى أن كشف الضّوء عن طعنة قاتلة.

فررت من المكان، ولا أقول إنّي فررت على عجل، بل يكفني أنني قد فررت بالفعل، عن طريق النّافذة، وقد حملت إطارها معي. لم أكن في حاجة إلى الإطار، ولكنّ حمله كان أسهل من تركه، لذا. حملته. لم أكن أشعر برعب، بل بقلق كبير.

عوقبت لدي عودتي إلى البيت بالعصا، بل تلذّذت بالعقاب.

بدا الأمر حافلا بالمسرات. فذلك الرّجل قد طعن، بعد ظهيرة ذلك اليوم، بالقرب من المكتب، فحملوه إلى الدّاخل للعلاج. لكنّه عاش بعد ذلك ساعة فحسب. وقدّر لي أن أرقد معه في غرفة واحدة، ولوقت طويل، وإنني منذ تلك اللّحظة .... في أحلامي.

نحن الآن بسبيل الهبوط إلى السّرداب، الواقع تحت مذبح كاتدرائيّة ميلانو الكبير، لحضور عظة دينية مؤثّرة، تخرج من شفتين صامتتين، ويدين توقّفتا عن الإشارة والحركة ثلاثمائة عام.

وقف الراهب الصّالح وسط الزنزانة الصغيرة، ورفع شمعته. هذا المستقر الأخير، لرجل صالح ودود، محبّ للخير، رجل أنفق حياته كلها في إعانة الفقراء، ودعم المحبطين، وعيادة المرضى، وتخفيف كرب المكروبين، حيثما كانوا في الزّمان والمكان. قلبه دوما مفتوح لهم، وكذلك كيس نقوده ويده المعطاءة. يكاد يري وجهه الكريم في مخيّلة إنسان، حيث يسعى في سكينة، بين وجوه من ميلانو مضها القلق. وقت اكتساح الطّاعون المدينة، شجاعا حين جبن النّاس، وشفوقا، إذا زالت الشفقة من قلوب أناس، تسيطر عليهم غريزة حبّ الذات، بعد أن أصابهم الهلع بالجنون، وكان مواس للجميع وقائما للصّلاة

بينهم، وداعما لهم باليد والمال والفكر، وقت أن هجر الآباء أبناءهم، والأصدقاء خلاّنهم، وفرّ الأخ من أخته، وهي تردد مناشدتها على مسامعه.

ذلك هو القدّيس الصّالح تشارلز بوريميو، أسقف ميلانو. تزايد حبّ الناس له. وأتاه الأمراء بأموال لا تحصى. وقفنا بمقبرته، وعلى مقربة منا، التابوت الحجري المضاء بشموع يتسّاقط قطرها. غطّيت جدرانها بنقوش بارزة بعض الشيء. تمثّل مشاهد في حياته، صيغت من الفضّة الخالصة. اكتسى الرّاهب إزارا قصيرا أبيض، فوق رداءه الأسود وأشار بعلامة الصّليب، ثمّ انحني في وقار، وبدأ يدير بتؤدة إحدى الرّوافع. تكوّن الضّريح من جزأين منفصلين، أحدهما علويّ حر الحركة، والآخر غائر بأسفله. كشف عن تابوت صغير من بلور صخري شفيف كالهواء. يرقد الجثمان بداخله، وقد اكتسى بمسوح عظيمة، موشّاة بالذّهب، ومرصّعة بجواهر نفيسة تتلألأ. تحوّلت الرأس المتحللّة بمرور الزمن إلى القتام، وانكمشت البشرة المتيبسة إلى العظام وزالت العينان، وظهرت فتحة في الجبهة، وأخرى في الوجنة، وافترّت الشّفتان الغليظتان، عما يشي بابتسامة باهتة.

لبس هذا الوجه المخيف، وما حمله من غبرة وبلى، وتكشيرة تنمّ عن ازدراء لبس تاجا، تكثّف رصعه بماسات متلألأة، وعلى الصّدر صلبان، وصولجانات من ذهب خالص، مطعّمة بالماس والزّمرد.

كم بدت تفاهة هذا الزخرف الزائل، ورخصه في حضرة وجلال ورهبة الموت! تصوّر وقوف كل من ميلتون، وشيكسبير، وواشنطون الموقرين، أمام امرئ، بحليّ من الزجاج، والأقراط النحاسيّة، ومشغولات من المعدن الرقيق، يتخذها أولئك الهائمون على وجوههم في السّهول والبوادي زينة لهم.

ألقى الراحل بارتلوميو عظته البليغة، ومفادها: أنتم، يا من توقّرون الحياة الدّنيا، ويا من تصبون إلى نيل الألقاب في الدّنيا، والغنى الزّائل والشهرة الفانية، تأمّلوا قدرها!

تراءى لنا رجل على هذا القدر الكبير من الصّلاح، والطّيبة والنّقاء، كان جديرا بالرّقاد قرير العين، ساكن الفؤاد، في قبر منزّها عن أعين فضوليّ تتفحصه، وقد صدّق بأن بإمكانية أن يكون بدوره على هذا النحو، ولكن ربما أخطأت الحكمة في هذا المضمار.

في أثناء صعودنا مجدّدا إلى الطّابق الأوّل للكنيسة، تطوّع راهب باصطحابنا، لرؤية زخائر الكنيسة. فماذا بعد؟ بلغت قيمة تأثيث، غرفة الموتى الضيّقة التي زرناها للتوّ. ما يعادل وحده ستة ملايين من الفرنكات، بوحدات من الأوقيّات والقراريط، دون أن يضاف إلى ذلك بنس واحد من التكاليف الصّناعية العالية. سرنا في أثره، وولجنا غرفة كبيرة، مليئة بخزائن خشبيّة تشبه خزانات الثياب. فتحها فنظرت بداخلها، وضاعت من ذاكرتي الزّكائب المليئة بسبائك الذّهب الخام، التي تخضع في دوائر نيفادا المختصّة للاختبار. كانت هناك تماثيل لراهبات وأساقفة، أكبر من حجمهم الطّبيعي، مصاغة من الفضّة الخالصة، يزن كل منها ما يتراوح بين ثمانمائة ألف حتّى مليون فرنك. كانوا يحملون في أيديهم كتبا مرصّعة بالجواهر، تقدّر بثمانين ألفا، وهناك نقوش قليلة البروز، تزن ستّمائة رطلا، صيغت من الفضّة الخالصة، وصلبانا وصولجانات، وشمعدانات، بارتفاع ستة أو ثمانية أقدام، وكلّها من الذّهب الخالص، مرصّعة بالأحجار الكريمة، وكافّة أنواع الكئوس والمزهريّات، وأشياء مماثلة، تعادلها في القيمة والوزن. ذلك. قصر علاء الدّين. بلغت قيمة ما تضمّه الكاتدرائية من نفائس بالوزن العادي، دون احتساب تكاليف التشغيل، خمسين مليون فرنك. لو قدّر لي حيازة هذه الأشياء لفترة قصيرة، أخشى ارتفاع سعر سوق الأساقفة الفضّيين خلال فترة قصيرة، بسبب ندرتهم الكبيرة. في كاتدرائيّة ميلانو.

كشف لنا الرّهبان عن إصبعين للقدّيس بولس، وإصبع واحد للقديس بطرس، وعظمة ليهوذا الإسخريوطي (كانت حالكة السواد)، وعظاما لآخرين من تلاميذ المسيح، وأثرا لوجه المخلّص مطبوعا على منديل. وكان الأثر الذى يحمل القيمة الأكبر بين هؤلاء، حجرا من القبر المقدّس، وجزءا من إكليل الغار (لديهم في نوتردام إكليلا كاملا). وشظية من الرّداء الأرجواني، الذى كان يرتديه المسيح، ومسامير من الصّليب ولوحة لوجه العذراء والطّفل، تلك اللوحة التي رسمها القديس لوقا بيده، وهي اللوحة الثانية التيّ نراها للعذراء بريشة القديس لوقا. تحمل هذه الأثار المقدّسة كلها مرّة في العام، ويطاف بها في موكب حافل في شوارع ميلانو.

أود الكشف عن بعض التّفاصيل الخاصّة بكاتدرائية ميلانو العظيمة. يبلغ طول مبنى الكاتدرائية خمسمائة قدم، وعرضه مائة وثمانين قدما، ويبلغ ارتفاع الدّرج ما يقارب أربعمائة قدم. تضمّ من التماثيل الرّخامية ما يقدّر عدده بسبعة آلاف ومائة وثمانية وأربعين

تمثالا، ويزيد العدد ثلاثة آلاف أخرى، لو أنها مكتملة. فضلا عن ذلك فإنها تشمل من النقوش البارزة عدد ألف وخمسائة نقش، ومن الأبراج مائة وستّة وثلاثين برجا، سيضاف إليها فيما بعد واحد وعشرين آخرون. يعتلي كل برج منها تمثال يبلغ ارتفاعه، ستّة أقدام، ونصف القدم. كان كل ما يحيط بالكنيسة من الرّخام، وكلّه قد جيء به من محتجر واحد، ووهب كله للمقر الأسقفي، خصيصا لهذا الغرض، ذلك منذ قرون. لم يبق بعد ذلك سوى احتساب تكاليف صنعتها، وتظل هي الأكبر، إذ تبلغ ستّمائة وثمانية وأربعين مليونا من الفرنكات (ما يربو على مئات الملايين من الدّولارات)، وقد قدّرت على أساس أنّ العمل سيستغرق مائة وعشرين عاما حتّى يكتمل بناء الكاتدرائيّة بالكامل. رأينا تمثالا قد وضع بالأمس فقط في مشكاته، برفقة آخر لم يغادر مكانه خلال الأربعمائة عام الأخيرة حسب قولهم. توجد أربع درجات من سلم يؤدّي إلى دَرج السلم الرئيس، تكلّفت كلّ منها مائة ألف دولار، مزينة بأربعمائة وثمانية تمثالا. قام بتصميم هذا الصّرح العظيم المعماريّ الكبير ماركو كومبيوني، منذ ما يربو على الخمسمائة عام، واستغرق وضع التصميمات وخطّة العمل، ستّة وأربعين عاما كي يجهز للقائمين على التنفيذ. رحل عن الدّنيا، وقت أن بدأ العمل فيه أي منذ ما يقلّ قليلا عن الخمسمائة عام، ولم يكن الجيل الثالث من بعد. قد عاش ليري تتمّة بنائها.

يفضّل رؤية مبنى الكاتدرائية في ضوء القمر، لكون أجزائه القديمة التي أكلحها الزمن، يصنع تناقضا كئيبا، مع أجزائه الأحدث والأنصع. يبدو هذا المبنى مترامي الأبعاد بسبب ارتفاعه الشّاهق، وربّما يزول هذا الانطباع مع اعتياد مشاهدته.

يقولون إنّ كاتدرائيّة ميلانو، تأتي في المرتبة الثّانية بعد كاتدرائية القدّيس بطرس في روما، ولا أستطيع إدراك كيفية أن يحتل المرتبة الثّانية شيء صنعته يد إنسان.

ودّعنا الكاتدرائيّة، ربّما للمرة الأخيرة. لا ريب أنه سيأتي اليوم الذى تتعرض فيه لضياع بريقها من الذّاكرة، لندرك بين شكّ ويقين، أنّنا قد رأيناها في حلم جميل ولم نرها قط بعين يقظة.

الفصل التّاسع عشر

"دو يو ويس زو هوت كان بي؟".

ذلك ما طرحه الدّليل من استفسار، خلال تمعننا الأحصنة البرونزيّة، الواقعة بأعلى "قوس السّلام". ومعني ذلك. هل ترغبون في الذّهاب إلى هناك. أقدّم ذلك كنموذج لإنجليزية الدّليل. يزيد هؤلاء من ضغوط الحياة على السّائح. فلا ضابط البتّة لانفلات ألسنتهم. يتحدّثون دون توقّف، وهذا نموذج لما يستخدمونه من حديث ويدور على ألسنة السوقة، ويستعصي على الاستنباط ذاته فهم ما يقولون. ولو تسني لهم مجرد تعريفك بقطعة فنّية، أو قبر جليلة، أو سجن، أو ساحة معركة سمت بها ذكريات عالقة، أو أحداث تاريخية مجيدة، أو مأثورات دينية، ثمّ تنحوا جانبا، وظلوا بعيدا لعشر دقائق، تاركينك بمفردك تفكر في الأمر، فلا بأس عليهم لو فعلوا ذلك. لكنّهم يقطعون عليك كلّ خيال، وكلّ تسلسل مطلوب للأفكار، بثرثرتهم المملّة. حدث أحيانا في أثناء وقوفي أمام تمثال قديم شدّ انتباهي، ثمّ ورد ببالي أنني شاهدته منذ سنوات عدة في اللوحات خلال درس الجغرافيا بالمدرسة، ثم خطر ببالي أيضا أنّني مستعد لأن أهب كلّ ما أملك، كي يختفي هذا البغاء البشريّ الواقف بجواري بغتة ويتركني أتمعن، وأتأمّل وأظهر إعجابي.

كلا، إننا لا نرغب " المضيّ إلى هناك ". ذلك لأننا وددنا الذّهاب إلى "لاسكالا" وأظنّهم يسموّنها "أكبر مسارح الدّنيا"، وهو ما فعلنا. بعفوية. شغل المكان مساحة شاسعة، لسبع تجمّعات منفصلة ومميّزة من البشر، ستّ حلقات كبيرة، وخشبة مسرح ضخمة.

أبدينا رغبة في الذّهاب إلى مكتبة آمبروسيان، وقد زرناها بالفعل. شاهدنا مخطوطة لـ"فيرجيل"، مذيّلة بحاشية مكتوبة بيد "بترارك". ذلك السيّد الذّي وقع في هوي لورا وهي حليلة شخص آخر، وبثها حياته كلّها، عشقا بدّد أهمّ أطوار عمره. كانت عاطفة مشبوبة، بل قرارا غير حكيم. لأنها شهّرت بطرفي العلاقة، وفجّرت ينبوعا من الرثاء لحاليهما.

لا يزال يتدفّق في صــدور الأحبّة حتّى اليوم. ولكن من فكّر أن يذكر كلمة إنصاف في حق زوج لورا؟ ومن كتب فيه شعرا؟ لا أحد. كيف يخطر ببالك قبوله بوضع قد تقبّله النّاس بأريحية كبيرة ؟

وكيف تقبّل أمر ملاحقة آخر لزوجته في كلّ مكان، وجعل اسمها كلمة ذاع صيتها على كلّ فاه في إيطاليا مبيدا للثوم في إيطاليا، مع مقاطع من شعره تتغزّل في حاجبيها الآسرين؟ لقد حققّ الحبيبان صيتا وتعاطفا من الناس، ولم يحقّق الزوج من ذلك شيئا. وهذا يعد مثالا يتفق على نحو خاص مع ما يطلق عليه، العدالة الشّعرية. هذا كلّه جدّ عظيم، ولكنّه لا ينسجم ورأيي في الحقّوق. يحمل هذا الموقف تحيّزا لطرف واحد، وهذا في ذاته إحجاف كبير. فلندع النّاس لأهوائهم. يهيمون في لورا وبترارك، أمّا بالنسبة لي، فإنّني سأواصل نرف العبرات، على هذا المنسيّ الأعزل.

رأينا أيضا رسالة خطّية، كتبتها "لوكريزيا بورجيا. وهي سيّدة دائما ما أكننت لها أسمي آيات الاحترام، لقدراتها المسرحية النادرة، مصاغة بوفرة في أقداح من الذّهب الخالص، وضعت داخل أوعية خشبيّة مطلية بالذهب، ولتميّزها الكبير بصوت أوبرالي مثير للدهشة، من أعلى طبقات الجواب، ولسهولة أدائها للّحن السّداسيّ الجنائزي، الذّي تنتظم به طقوس الجنازة. رأينا شعرة صفراء خشنة من رأس لوكريزيا، وأثار ذلك فيّ لواعج كثيرة، لكننّا الآن والحمد لله أحياء نرزق. رأينا في هذه المكتبة نفسها، بعض لوحات لمايكل أنجلو، وليوناردو دافينشي. ويتهجّونها هنا "فينسي"وينطقونها "فينشي". احتفظنا لأنفسنا بآرائنا في هذه اللّوحات.

قادونا إلى مبنى آخر، لمشاهدة اللّوحات الجصّيّة، التّي تمثّل بعض الأسود، والحيوانات الأخرى، وهي تجرّ مركبات بعجلات أربع، وبدت بارزة خارج الجدار، فظنناها تماثيل. لقد وظّف الفنّان هنا دهائه في الإيهام، بتصويره الغبار فوق ظهور الكائنات، وكأنّ سقوط الغبار عليها، قد تمّ بصورة طبيعيّة، ومتّفقة مع الحدث. يتّسم هذا الشّخص بالذّكاء، ذلك لو أنّ ذكاءه ينحصر في تضليل الغرباء.

رأينا في مكان آخر مدرجا رومانيّا ضخما، يشرف على أرض فسيحة مسطّحة، لا تزال مقاعده الحجرية بحالة جيّدة. صار الآن بعد تجديده، مكانا ينعم بالأمان، وليس عرضا

لمباراة بين الوحوش وشهداء المسيحيين، على مائدة الغداء. يستخدمه الميلانيون لبعض الوقت حلبة للسّباق، ويغمرونه في أوقات أخرى بالمياه. ويقيمون عليه سباقا لليخوت. قصّ علينا الدليل كلّ هذه الحكايات، ورأى أنّه سيتعذّر عليه المخاطرة بالسعي لاختلاق الأكاذيب، وهو يرى أن بإمكانه قول الصّدق بالإنجليزيّة دون أن يصيبه ذلك بتشنّج في عضلات فكّه.

رأينا في مكان آخر، نوعا من أشجار الصّيف، وأمامها سياج. قلنا إن ذلك لا يحرك شعورا بالجذب، عاودنا النّظر من بين جذوع الشجرة. فرأينا بستانا ممتدّ بلا نهاية، وشجيرات وغيضة يفترشها العشب. ألحت علينا رغبة في التّوجّه إلى هناك، لنستريح لكنّنا لم نتمكّن من ذلك.

لم يكن هذا سوى إيهام آخر، في لوحة صورها فنّانٌ ساذج، أظهر بعض ما تيسر في قلبه من إشفاق بجماعة مضّها الملل. لقد اكتملت في اللوحة كل عناصر الإيهام، فكلّ من كان في الحديقة لم يتصوّر أنّ هذا من الخيال، كما ظننا في البداية أنّنا نشتمّ عبق زهورها.

بحلول الفجر ركبنا إحدى العربات، وسرنا في الطرقات الوارفة، بنوع مختلف من الزهو. احتسينا نبيذا ومثلجات بعد طعام الغداء، في حديقة غناء، وسط كثير من المتنزّهين. عزفت فرق الموسيقى ألحانا رائعة، واحتفت الأنظار بمرأى الزهور والأشجار، وبدا المشهد حافلا بالحيوية، وظهر الجميع بالمظهر الحسن ودماثة الخلق، ورقّقت السيّدات من شواربهنّ، وتأنّقن في ملبسهن، لكنّهن كنّ مفرطات البدانة.

اتّجهنا إلى إحدى المقاهي، ولعبنا البليارد، لساعة زمن، وأحرزت ستّ نقاط أو سبع، بدفع كرة الطّبيب إلى زاوية الطّاولة، وأحرز هو من النّقاط الكثير، بدفع كرتي، وأوشكنا معا إحراز نقاط بالكرومة، ضربة بالكرة تحقق إصابتين في آن. لكنّنا لم نفلح. فقد كانت الطاولة من النوع الأوروبيّ المألوف، حيث خمدت بطانتها وبلغ ارتفاعها ضعف ارتفاع الكرات، وكانت العصيّ بحالة متردّية. لم نر أحدا يمارس لعبة الكرة الثّلاثية الفرنسية، وأشكّ لو أنّ لعبة في فرنسا تحمل هذا الاسم، وأن هناك مختلا يلعبها على طاولة أوروبية كهذه. كان علينا التوقّف عن اللّعب، لأنّ دان، قد غلبه النّعاس، لخمس عشرة دقيقة، في أثناء قيامه بالعّد، ولم ينتبه إلى تسجيل النّقاط التّي أحرزناها.

سرنا فيما بعد صعودا وهبوطا، في أكثر الشوارع شهرة، مستمتعين، بسكينة الآخرين، آملين في تصدير بعض هذه السّكينة، لأسواقنا الهائجة المائجة والمستنزفة للطاقة في بلادنا. يكمن في هذه السّكينة، سحر الحياة في أوروبا. فنحن في أمريكا في عجلة مستدامة من أمرنا، وليس في هذا بأس، ولكنّنا حين ينتهي اليوم، نستغرق بقيّته، في حساب الأرباح والخسائر، ونخطّط للغد، ونحمل معنا إلى الفراش هموم عمل اليوم، ونقلّبها ذات اليمين وذات الشّمال، في وقت يجدر بنا إخلاد أجسادنا وعقولنا المكدودة للنّوم. فنحن نبدّد طاقاتنا في تلك الانفعالات، ونعرّض أنفسنا للموت في سنّ مبكّرة، أو نهوى إلى منحدر أرذل العمر، في فترة يطلقون عليها في أوروبّا، ربيع العمر.

فلو حدث وطاب استنبات (آكرا) من الأرض الزراعية، وحسن نتاجه، فيجدر بنا أن نوفر له فترة لا يستخدم فيها لموسم كامل، ولا نترك لإنسان فرصة عبور قارّة في المركبة نفسها التّي بدأ بها رحلته، فالمركبة يجب أنّ تستقر في مكان على السّهول حتّى تبرد حرارة ماكينتها بضعة أيّام، وحين يستهلك موسىّ الحلاقة لفترة طويلة ويثلم، فللحلاق أن يتوقف عن استخدامه لبضعة أسابيع ليعاود حدّته مرّة أخرى. إنّنا نولي اهتماما كبيرا بأمور تافهة، ولا نعتني بأنفسنا.

فما عسانا نفعل ونحن نتمتع بكامل عافيتنا وحيويتنا، وما عسانا نفعل كأمّة من المفكرين، لو كنا من آن لآخر، ننهل قسطا من الراحة فحسب، ونعاود تجديد نشاطنا وحيويتنا!

إنّني أحسد هؤلاء الأوروبيين على الراحة التي يغتنموها لأنفسهم. فإذا انتهى عمل اليوم، نسوا ما دار خلاله. يذهب بعضهم برفقة الزّوجة والأولاد، إلى حانة تقدم الجعة، ويجلسون بتأدب وهدوء، يشربون قدحا أو اثنين من أنواع شتى من الجعة، ويستمعون إلى الموسيقى، بينما يتنزه آخرون في الشّوارع، ويستقلّ البعض العربات، ويحتشد سواهم في أوّل المساء في الميادين الكبيرة الحافلة بالزّينة، للتمتع بمشاهدة المناظر الجميلة، وبأريج الزّهور، وسماع ألحان الفرق العسكريّة. فلا تخلو مدينة أوروبيّة من فرقة عسكريّة موسيقية رائعة، حاضرة في كل المناسبات، يجلس أيضا بعض الجمهور في الهواء الطّلق، أمام مقاصف المشروبات، لتناول المرطّبات، وشرب ما لا يضر الأطفال من

المشروبات الباردة الأخـرى، ويذهبون إلى الفراش في وقت مبكّر بعض الشّيء، فينامون ملء الجفون. تراهم دوما يتمتعون بالرزانة والنّظام والبهجة وراحة البال، والإقبال على الحياة، وما فيها من نعم لا تحصى. لن ترى بينهم مخمورا واحدا. كان التغيير الذّي طرأ على مجموعتنا ملفتا. إذ تخلّينا بمرور الأيام عن همومنا، وسرت فينا روح الهدوء، ما واكب الجوّ السّائد حولنا، وسلوك البشر، وسرعان ما اتفقنا وجادة الرصانة والحكمة. بدأنا ندرك معني الحياة.

قصدنا حمّاما عامّا في ميلانو. وضعوا ثلاثة منّا في حوض واحد للتحمّم، لكننا لم نقبل ذلك. فكلّ منّا يحمل مزرعة إيطاليّة على ظهره. كان يمكن أن نشعر بأننا أثرياء، لو قمنا بصفة رسميّة بمسح شامل للأراضي وسوّرناها بسياج. اخترنا أن يكون لنا حمامات ثلاثة واسعة، تلاءمت أحواضها مع منزلة الأرسقراط، ملاّك العقارات الأصلية، ويتباهون هنا بذلك المستوى الاجتماعيّ. اكتشفنا بعد خلع الثياب، واستهللنا بالغطسة الأولى في الأحواض، ثم اكتشفنا ذلك الهاجس المروّع، الذى نغّص علينا حياتنا، في كثير من مدن وقرى إيطاليا وإسبانيا، ألا وهو افتقارنا إلى الصّابون. ناديت، فردّت ندائي امراة، فانتهزت بالكاد فرصة إلقاء جسدي على الباب، حيث أوشكت على الدّخول في اللّحظة التّالية. قلت:

"حذاري، يا امـرأة، ابتعدي من هنا، ارحلي الآن، وإلاّ جعلتك تندمين. فأنا رجل لا حول لي ولا قوّة، لكنّني أحافظ على شرفي. حين تتعرض حياتي للخطر".

كان لا بد من أن تلقي الكلمات في نفسها الهلع، لأنّها هرولت بمغادرة المكان. علا هتاف "دان" في الجوّ:

"عجبا، آتونا صابونا، لم لا تفعلون؟".

جاء الرّدّ بالإيطاليّة، فاستطرد "دان":

"صابون – أتفهمون ما قلت، صابون. هذا مطلبي، صابون. ص.ا.ب.و.ن. صابون، ص.ا.ب.و.ن .صابون .ص.ا.ب.و. ن. أسرعوا! لا أعرف أيّها الأيرلنديون، كيف تتهجّوا الكلمة. لكنّني في طلبه. فتهجّوها حتّى تعرفوننا بكم، بل انطقوها فحسب. إنني أتجمّد من البرد".

سمعت الطبيب يقول بعد نفاذ صبر:

"كم مرّة ذكرنا لك أن الغرباء لا يعرفون الإنجليزية؟ لم لا ترجع الأمر إلينا؟ لم لا تخبرنا بطلبك، وتتركنا نستفسر بدورنا عنه بلغة هذا البلد؟ سيوفّر ذك علينا قدرا كبيرا من المهانة، بسبب جهلك الملوم. سأستهلّ بالحديث إلى هذا بلغة بلده. أنت، يا هذا، كوسبيتو! كوربو دي باكو. ساكرامنتو. سولفيرينو. صابون، يا ابن المدفع! لو تتركنا يا "دان" ننوب في الحديث أصالة عنك، فلن تفضح أبدا سوقيّة جهلك!".

لم تشأ تلك الطلاقة الواضحة في الإيطاليّة، أن تأتينا بالصابون على عجل، ولكن كان هناك سبب وجيه وراء ذلك كلّه. فالمؤسسة خلت من الصنف بالكلّية. وكنت أفترض من البداية افتقارها إيّاه. تطلب الأمر أن يرسلوا في طلب الصنف، من مكان ناء بالبلدة، وبحثوا قبل عثورهم عليه في النهاية، في أماكن عدّة وهذا ما أفادوا به. كان علينا الانتظار لعشرين أو ثلاثين دقيقة. حدث الشيء ذاته مساء أمس، في أحد الفنادق. وأعتقد أن تلك الظروف قد ساعدتني على الكشف عن العلّة. يعرف الإنجليز كيفية توفير وسائل الرّاحة في ترحالهم، ويحملون الصّابون معهم. أما الآخرون من الأجانب فلا يتعاملون والصّنف.

كان علينا دائما في كلّ فندق نرتاده، وعند تأهبنا لتناول الغداء أن نبعث في اللّحظة الأخيرة في طلب صابون، فيدرجونه ضمن قائمة الحساب، مع إضافة الشّموع والنّثريات الأخرى.

يصنعون في مارسيليا نصف كمية صابون الحمامَ العجيب، الذى نستهلكه في أمريكا، لكنّ المارسيليين لديهم مجرّد فكرة زائفة ملتبسة عن استخدامه، عرفوها من كتب الرّحلات، كما اكتسبوا فكرة خاطئة عن القمصان النّظيفة، وعن مميّزات الغوريلا، وأمور أخرى تبعث على العجب. يذكّرني هذا برسالة بلاشر الوجيزة إلى صاحب فندق في باريس، وكانت على النّحو التّالي:

"المونشير صاحب الفندق. سيّدي لم لا توفّر بعض السافون في غرفك؟ أتظنّني سأسرقه؟ طالبتني بالأمس بقيمة بعض الشّموع، ولم يكن لدي سوى واحدة، كما طلبت أيضا قيمة الثّلج، ولم أحصل على شيء منه. إنّك تلعب معي كلّ صباح لعبة جديدة،

بشكل أو بآخر. لكنك لن تستطيع مرتين الاحتيال عليّ مرّ في مسألة السّافون هذه. فالسّافون ضروريّ جدًا لأيّ إنسان عدا الفرنسيّ. فإمّا أن تعفني من الحساب، أو أتسبب لك في مشكلة. سلام.

توقيع

بـــلاشــر

اعترضت على إرساله رّسالة كهذه، لأنّها تدفع إلى خلط لأمور. لن يستطيع صاحب الفندق فهمها، لكن بلاشر ذكر أنّه ظنّ أن الرجل الكبير يمكنه قراءة الفرنسيّة الواردة بالرسالة، ويستطيع أيضا التّعامل مع بقيّتها.

كانت فرنسيّة بلاشر سيّئة للغاية، لكنها لم تتفوق في السوء على الإنجليزية التي نراها على اللافتات الإيطالية كلّ يوم. انظر مثلا إلى اللوحة المطبوعة على سواحل بحيرة كومو.

تنبيه

ننوه هذا إلى أن الفندق هذا، يعد أفضل وأفخم الفنادق الإيطالية، ويقع على أفضل مكان من البحيرة، ويتمتع بأفضل مشهد قريب من فيلا ميلزي، حتى ملك بلجيكا، وسيربللوني. وتوسعات أجريت في الفندق هذا، ونقدّم كلّ الخدمات بأسعار معقولة، لكلّ الأجانب السادة، الرّاغبين في قضاء عطلاتهم، على بحيرة كومو.

ما قولك في نموذج كهذا؟ توجد في الفندق الجميل، كنيسة صغيرة، خصص لها قسّ إنجليزيّ، ليعظ زوّار الفندق، القادمين من إنجلترا وأمريكا، وتلك المعلومة أيضا مقدّمة بأنجليزية ركيكة، على نسق اللافتات السّابق الإشارة إليها. أتظنّ بعد ذلك أنّ هذا اللّغوي المغامر، الذى دبّج هذا التّنويه، لديه من المعرفة ما يقدّمه لرجل الدّين قبل أن يرسل للطّبع؟

تجسد في ميلانو، وفي ظلّ تدهور أحوال الكنيسة، الحالة السيئة التي ظهرت عليها أشهر لوحة في العالم "العشاء الأخير" من أعمال ليوناردو دافينشي. نحن لسنا نقّادا معصومين للوحات التّصويريّة لكنّنا بطبيعة الحال، ذهبنا إلى هناك لمشاهدة هذه اللّوحة العظيمة، التّي وضعها روّاد الفنّ في عصرها، في أسمى منزله، وجعلت الأشهر في فنون

الرواية والغناء من حيث التناول. كان أوّل ما كدر صفونا، إعلانا معبقا بإنجليزيّة فوّاحة، فاشتمّ لو تفضلت قليلا من أريجه:

"بارتولوميو (ذلك هو الشّخص الأوّل على جانب اليد الشمال عند المتفرج)، مرتاب وشاكّ بشأن ما يظنّ لسمعه، وبناء على الذى، فإنه يريد أن يتأكد بنفسه عند المسيح وليس بواسطة آخرين".

ممتاز، أليس كذلك. ثم يوصف بطرس "بالمجادل والمتوعّد بشأن يهوذا الإسخريوطى". هذه الفقرة تذكّر بالصورة آنفة الذكر. رسمت هذه اللّوحة على جدار مهدّم، حين كانت الكنيسة الصّغيرة على ما أظنّ، ملحقة بالكنيسة الأمّ، في العصور القديمة، وطال التّشوّه والبلى كلّ معالمها، وبهتت ألوانها، وشاهت بمرور الزّمن، وقد شرعت خيول نابليون بركل سيقان حواريّ المسيح، حين كانت موضوعة في إصطبلات الخيل منذ نصف قرن من الزّمان.

عرفت اللّوحة على الفور، حيث صوّرت، المخلّص جالسا، وقد أطرق برأسه، وسط مائدة خشنة الملمس، عليها صحون تناثرت منها ثمار الفواكه، وستة من تلاميذه، على الجانب الآخر من المائدة بمسوحهم الطّويلة، يتحدّثون إلى بعضهم بعضا. ظلت اللّوحة تنسخ وتصّور بالحفر، لقرون ثلاثة. ربما لا يوجد من الأحياء من حاول رسم عشاء المخلّص الأخير، بشكل مغاير. ويبدو أنّ النّاس قد استقروا على معتقد واحد لزمن طويل. باستحالة أن تتفوق عبقرية إنسان أيّا كان على إبداع دافينشي. أعتقد أنّ الرسّامين سيواصلون نسخ اللّوحة طالما ظلّ الأصل ماثلا أمامهم، فالغرفة زاخرة بحوامل الرسم، متاحة أمام كثير من الفنّانين، لنسخ اللّوحة العظيمة على لوحات الكنفاه الخاصّة بهم. تناثر حول اللّوحة خمسون نسخة منها، مطبوعة على المعدن أو منحوتة في الصخر. لم أستطع التوقّف عن التمعّن في كيفية تفوّق النّسخ على الأصل، بعيني غير الخبيرة.

إنك أينما تجد عملا لرافائيل، أو روبينز، أو مايكل أنجلو، أو كاراتشي، أو دافينشي، (تلك الأعمال التّي نشاهدها كلّ يوم)، تراها قد نسخت من قبل فنانين، وتجد النسخ دوما أجمل من الأصول. ربّما كانت الأصول وهي حديثة العهد، على قدر كبير من الجمال لكنّها لم تعد كذلك الآن.

يبلغ طول لوحة العشاء الأخير "ثلاثين قدما"، وارتفاعها عشرة أقدام، أو اثنتي عشرة، وشخوصها بحجمهم الطّبيعي على الأقلّ، وهي تعدّ أكبر لوحة في أوروبّا كلّها.

كلحت ألوان اللّوحة بفعل الزّمن، وشاهت وجوه شخوصها وبهتت، وأوشكت ملامحهم على الزوال، لقد شحب لون الشّعر تماما فوق الجدار، وزال عن العيون نبض الحياة، ولم تبق سوى الأوضاع الجسدية لشخوص اللّوحة.

يفد النّاس إلى هنا من كلّ أرجاء العالم، وها هم يعظّمون قدر اللّوحة الأصل، فيشخصون أمامها محتبسي الأنفاس، فاغري الشفاه، وحين يتكلمون، فلا يدور ذلك إلاّ عن جذلهم المباغت بها:

"أوه، رائعة".

"أيّ ملمح هذا!".

"يا لأبهة هذا الوضع الجسديّ".

"يا لتلك العظمـة".

"لقد خلت من أيّ عيب".

"ما لألوانها نظير".

"يا للمشاعر".

"ويا لدقّة تلك اللّمسة".

"أيّ سموّ في الفكر".

"تلك هي اللّوحة، لوحة بحقّ".

لا يسعني إلاّ أن أحسد هؤلاء، أحسد فيهم إعجابهم الصادق، لو صدق بحقّ، وفرحهم بها، لو نبع من القلب فحسب، ولا أكنّ لأحدهم حقدا. لكنّ لسان حال ما يلحّ بخاطري من تساءل، دعواه أنه كيف يتسنّى لهؤلاء رؤية ما ليس ظاهرا في اللّوحة؟ وما ظنّك بشخص

نظر إلى كليوباترا هرمة عمياء درداء هزمة ثم دعا قائلا: "هذا جمال يجلّ عن الوصف، أيّة روح تلك، أيّة ملامح؟". وما ظنّك بإنسان رنا إلى لحظة غروب معتمة يلفّها الضّباب، ثم زعم قائلا: " أيّ تعبير هذا، وأيّ صفاء لونيّ"، وما رأيك بإنسان تأمّل قفرا من جذال وهتف: "أوه يا روحي، ويا لقلبي النّابض، ويا لها من غابة وقور".

ربّما يدفعك الظّنّ إلى أنّ أولئك يتمتعون بذكاء فذ، يجعلهم يكشفون عن أشياء قد أخنى عليها الدّهر. ذلك ما ظننته نفسه، في أثناء وقوفي أمام لوحة العشاء الأخير، وإصغائي إلى أناس، كانوا يتناجون في عجائب الدّنيا، وفي محاسن وكوامل، فارقت اللّوحة وتولّت عنها مدبرة، قبل مولدهم بمائة عام. يمكننا تصور ما كان من جمال في وجه معمّر، وتخيّل غابة لو رأينا فيها أجذالا من الشّجر، ولكن تستحيل علينا رؤية الغابة لعدم وجودها أصلا. إنّني على استعداد أن أصدّق أنّ عين الفنّان المحترف، يمكن أن تستقر على لوحة العشاء الأخير، وتستحدث رونقا من مجرّد لمحة جماليّة بارقة فيها، وتضيف لونا قد بهت عنها تماما، وتعيد ما زال منها من ملامح، في بقعة أو لون، وأن يضيف ذلك في لوحة الكنفاه الخالية، كي يجد في النهاية نبض الحياة. المشاعر والحيوية قد دبّ في شخوصها، أجل، وبكلّ ما كان يحمل جمالها من روعة، كانت تتمتع بها لحظة تصويرها. لكنّني لا أستطيع تحقيق تلك المعجزة. فهل للآخرين من الزّوار ممّن لم تصدق مشاعرهم، الاضطلاع بهذا الشّأن. أمّ أنّ سعادتهم تنحصر في تصوّرهم ذلك فحسب؟

لقد اقتنعت بعد قراءاتي الكثيرة عن لوحة العشاء الأخير بأنها كانت ذات يوم. معجزة فنّية بحقّ، ولكنّ ذلك كان منذ ثلاثمائة عام.

يحيّرني أناس يتحدّثون بعفوية مطلقة عما تتمتع به اللّوحة من عناصر "التّعبير"، و"الإحساس" و"الأثر اللّونيّ" و"الظّلال". وكلّ ما في الفنّ من تقنيات مكتسبة ومتاحة، تربط كلها بين استعراض تحاور كهذا وبين اللّوحات. لا يوجد فرد من بين سبعمائة، يمكنه الإفصاح، عما يعبّر به وجه أحد شخوص اللّوحة. ولا يوجد فرد بين خمسمائة يستطيع دخول إحدى قاعات المحاكم، ويكون على يقين من أنّه لن يظلم باللوم محلّفا بريئا لم يأت بضرر، لحساب قاتل شرير في قضية ما. ناهيك عن أولئك الذين يتناولون سمات اللوحة المميزة بالحديث، ويواصلون شرح عنصر التّعبيرية فيها. هناك رواية قديمة، تحكي

عن الممثل مـاتيوس، ذلك الّذي كان يوما يحظي بقدرة هائلة على التحكّم في ملامح وجهه للتّعبير عن الانفعالات الشعورية، الكامنة في الشّخصيّة المؤدّاة. ذكر أنّه يمكن للوجه كشف ما يعتمل في صدر إنسان، ويتفوّق في هذا الأمر على التّعبير باللّسان.

كان يقول للآخرين: " انظروا إلى وجهي، عمّ يعبّر؟".

"قنوط!".

"هراء، إنّه يعبّر عن خلود إلى السكينة، إلام يرمي هذا التّعبير؟".

"غضب عارم".

"هراء. هذا شّعور بالرّعب! وهذا؟".

"بلاهة!".

"غباء! إنّها ضراوة مكبوتة! وهذا أيضا؟".

"غبطة!".

"ويحكم! يمكن لأيّ حمار أن يدرك ما في هذا التعبير من وحشّية ظاهرة".

ذلك هو التّعبير بملامح الوجه! لأنّ من يتظاهر بفهمه في برود، أناس يظنون بأنفسهم الجرأة، لو تظاهروا بتفسير الكتابة الهيروغليفيّة على مسلاّت الأقصر، وبإنهم قادرون على ذلك قدرتهم على تلك. لقد سمعت رأيين نقديين ينمان عن حدة في الذكاء، في شأن لوحة موريللو "الحبل الطّاهر أو(دون دنس)" (وهي موجودة الآن في متحف سيفيل). قال أحدهما:

"عجبا لوجه العذراء المليء بنشوة فرح مكتمل، لا تضاهيه على الأرض نزعة أخرى إلى الفرح".

بينما قال الآخر:

"عجبا لذلك الوجه الجميل الحافل بعبارات الخشوع والمناشدة، وكأنّ لسان حاله يردّد بعبارات واضحة: إنّي في خشية ورهبة، إنّني لا أستحقّ. بل إنّني أشرف على الهلاك، فثبّت خادمتك".

يمكن للقارئ مشاهدة اللّوحة في أيّ غرفة استقبال، ويستطيع التعرف على تفاصيلها بسهولة. حيث تقف العذراء (يعتقد بعضنا أنّها بالفعل هي الشّابة الوحيدة الجميلة الّتي صورت من قبل في أعمال الرّوّاد القدامي) في هلال قمر جديد، وفي حشد من الملائكة، يطوّفون حولها، والمزيد منهم قادمين في الطّريق، وقد تشابكت يداها على صدرها، ويهبط نور من الأعالي على وجهها الضّارع إلى السّماء. لعلّ القارئ يرغب، في أن يسلّي نفسه، بمحاولة تحديد أيّ الرجلين كان على صواب، بشأن ملامح وجه العذراء، أو أيهما بالفعل قد عبر عنها التعبير الصحيح.

إنّ العارفين بروّاد الفنّ القدامى، سيدركون قدر الضّرر الذى لحق بلوحة العشاء الأخير، حين أقول إن المشاهد لا يمكنه بالفعل أن يفرّق الآن، بين الحواريين، اليهوديّ منهم والإيطالي. إنّ هؤلاء الرّسامين القدامي لم ينجحوا قط في تجريد أنفسهم من سماتهم القوميّة. لقد صوّر الرّسامون القدامى، عذارى إيطاليّات، وصوّر الهولنديّون عذارى هولنديّات، وعذارى الرسّامين الفرنسيين، فرنسيّات، ولم يشأ أيّهم أن يضع في وجه المادونا. السيّدة العذراء. ذلك الشّيء المتخيل الدالّ على صورة اليهود، سواء ألتقيت بهم في نيويورك، أو في القسطنطينيّة، أو باريس أو أورشليم، أو في الإمبراطوريّة المراكشيّة. رأيت يوما في جزر الساندويتش لوحة بريشة ألمانيّ نابه، في صحيفة أمريكيّة مصوّرة، تصوّر السيّد ديفيز في أدائه فقرة غنائيّة أو ما شابه. حلّق فوقه شبح واشنطون، في موقف التحذير، وفي الخلفيّة، فرقة مبهمة من الجنود في زي جنود حرب الاستقلال، يعرجون، وحفت أقدامهم، إلاّ من رباط وضعوه في عاصفة ثلجيّة هوجاء، كان ذلك بالطّبع يشير إلى فالي فورج. بدت في اللّوحة دقّة النّسخ، وهناك أيضا فرق بين الاثنين في موضع. اكتشفت ذلك الفرق بعد طول تمعّن، ذلك أنّ جميع الجنود الواقفين في الظّلال كانوا ألمانا! حنانيك أيها القارئ، فديفيز ألمانيّ! وحتّى الشّبح المحوّم فوقه كان بدوره ألمانيًا! لقد وظّف الفنّان جنسه في اللوحة عن غير قصد. إنّني في حقيقة الأمر مشوّش الفكر بشأن يوحنّا المعمدان، واللّوحات التّي تصوّره. تقبلت الأمر مؤخّرا في فرنسا وكأنني فرنسيّ. ووجدته في هذه اللّوحة إيطاليّ

لا محالة. فماذا بعد؟ هل يستطيع الفنّانون تحويل يوحنّا المعمدان إلى إسباني من مدريد، أو أيرلندي من دبلن؟

استقلينا إحدى البروشات (العربات)، وقطعنا بها ميلين خارج ميلانو، لزيارة "رجع الصّدي. واللفظ هنا على عهدة الدّليل. اتّسم الطريق بالنّعومة، وحفّ من الجانبين بالأشجار، والحقول والغياض، والهواء المنعش، والمؤرّج بعبق الزّهور. هتفن وشيعننا بالصخب، جماعات من بنات الرّيف الحسناوات، وجعلننا مثار لهوهنّ وسرّني ذلك كثيرا. لقد تأكّدت لي فكرة، بقيت في ذهني لوقت طويل. كنت أظنّ دوما أن من قرأت عنهن في دواوين الشّعر من الرّيفيّات الحالمات، بما يحملن من عطن ووضر، محض خداع وفي غير حاجة إلى بينّة.

سعدنا بالجولة كثيرا. وقد خفّفت مشاعر البهجة تلك، من الزّيارات المملّة للمعارض والمعالم السّياحيّة.

لفنا شعور بالقلق، بسبب ذلك الصّدي العجيب، الذّي لم يكفّ الدّليل عن التحدّث بشأنه. فقد بدأنا نعتاد ذكاء في إطراء عجائب، تأكّد لنا في كلّ مرّة أنّها ليست كذلك البتّة. وهكذا سعدنا بحق، حين اكتشافنا في النهاية، أن الدليل قد أخفق حتّى في تقدير أهميّة ما يطرح من أمور.

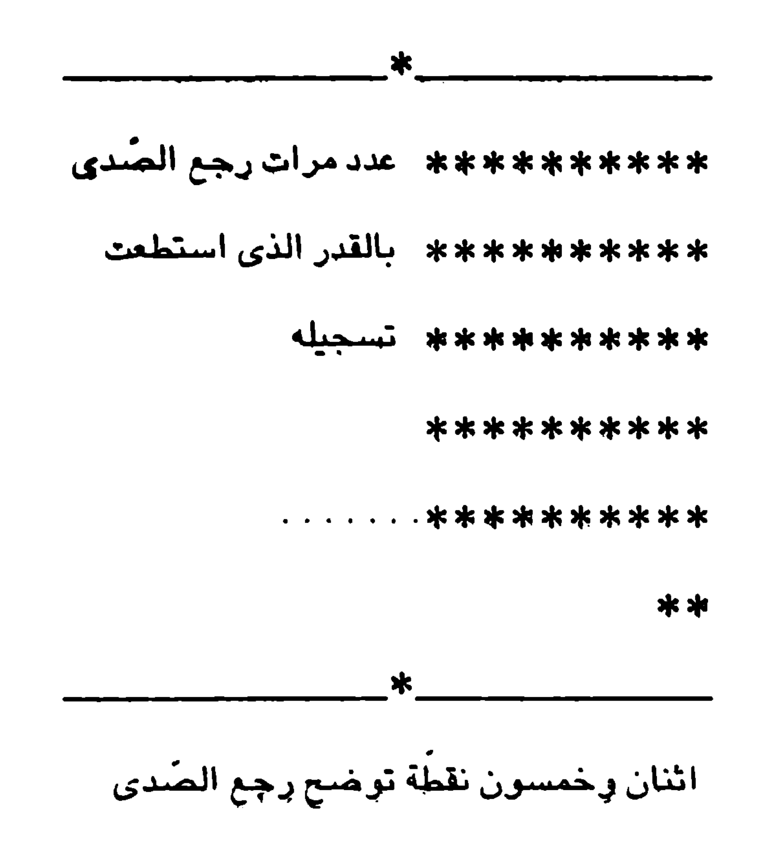
وصلنا إلى مجمّع سكنّي، آيل للسّقوط، يقال له بالاتزيو سيمونيتي، مقام بكتل حجريّة ضخمة، تشغله عائلة إيطاليّة معدمة. اقتادتنا شابّة إيطاليّة في مقتبل العمر، حسنة الصّورة، إلى شرفة في الطّابق الثّاني، تطل على فناء أحيط من أجنابه الثلاثة، بمبان عالية. أطلّت الفتاة برأسها من النّافذة وهتفت بصوت مرتفع.

تردّد صدي صوتها مرّات، فاقت ما أمكنّا حصره. تناولت بوقا ونفخت فيه نفخة واحدة، سريعة قويّة. رجع صّداها مردّدا : "ها!".

"ها! ـــــ ها!ـــ ها! ـــ ها!ها ـ ها!ـ ها!ه. ا. ا. ا. ا. ا!".

بلغ الصّدي ما يمكن تخيّل حده الأقصى من الضحك الهستيري المدوّي. ضحك متواصل نابع من القلب يفيض بهجة، يغري آخرين برغبة المشاركة فيه، وما لأحد قدرة على مقاومتها.

أمسكت الفتاة ببندقيّة، وأطلقت عيارا ناريًا. فتأهّبنا لحصر رجع الصّدي العجيب، الذّي طبّق في الآفاق. لم نستطع أن نعد: واحدا، اثنين، ثلاثة، لسرعتها الشديدة، ولكننا استطعنا تسجيل، النقاط في دفاترنا، بالقلم الرّصاص، بالسّرعة التّي تكفي بالكاد، تسجيل تقرير سريع بالنّتيجة. هذا كشف تسجيلي بالنّقاط، لم أتمكّن من مواصلة تسجيله، وهذا كلّ ما سجّلت.



اثنان وخمسون نقطة توضح رجع الصّدى

سجّلت هنا اثنين وخمسين رجعا واضحا للصّدى، كل على حدة. تقدّم بعدها مزيد من رجع الصّدى، على كلّ ما سجّلت. سجّل الطّبيب أربعة وخمسين رجعا، وتجاوزه الرّجع بعد ذلك أيضا. لم نستطع بعد ذلك تسجيل كلّ اهتزاز صوتّي، فقد خلص رجع الصّدى، إلى قعقعة صوتيّة جامحة لا تتوقّف كتلك التي تصدر عن خفير قائم بالحراسة.

يرجح أن يكون هذا هو الصّدي الأغرب في العالم.

عرض الطّبيب بطريقة مرحة تقبيل الفتاة. لكنّه تراجع خطوة إلى الوراء. حين قالت الفتاة. إنّه يجب أولاً أن يدفع فرنكا لقاء ذلك؛ منعه فرط كياسة مبتذلة. من التخلي

عن عرضه. فدفع الفرنك وقبّل الفتاة. اتسمت الفتاة بالحكمة. إذ ذكرت أن الحصول على فرنك شيء طيّب، ولا تعنيها قبلة عابرة في شيء، ما دام في جعبتها مليون قبلة. أراد رفيقنا من ثمّ، وهو يحظي تخطيطه بالدّهاء. أراد أن يستحوذ على البضاعة كلّها لكنّه كان يعاني عجزا ماليا حال بينه وبين تحقيق ذلك.

الفصل العشـرون

غادرناميلانو بالقطار. ونأينا عن الكاتدرائيّة، ستّة أو سبعة أميال. ظهر أمامنا لمسافة عشرين ميلا عدد من السّلاسل الجبليةّ المترامية، تكسو قممها الثّلوج، وهي أبرز ما في الصّورة. حفل هذا المشهد المتتابع خارج عربة القطار، بالحقول وبيوت المزارعين أمّا داخلها، فحفل بقزم ضخم الرّأس وامرأة ذات شارب. لم يكن هذان الأخيران، أعضاء في سيرك متنقل، ولكنها للأسف تظهر ما يشيع في إيطاليا من دمامة، ونساء ذوات لافتان.

عبرنا لمسافة قصيرة، بتلال أخاذة غير مأهولة، تتسم بالإنحدار الشّديد والشكل المخروطيّ. يكسوها من الخضرة أيك وشجر. وتظهر في مواضع متفرقة منها جرف هارية، وتسمق باتّجاه السّحب المسوقة بالرّياح، أبنية وحصون مهدّمة. تناولنا غداءنا في مدينة كومو الواقعة على رأس البحيرة، وركبنا سفينة بخاريّة صغيرة، وقمنا بعد الظهيرة، بنزهة إلى مكان يقال له. بيللاجيو.

أتانا في أثناء سيرنا على شاطئ البحر رهط من رجال الشّرطة، (يعتمرون قبّعات، ويرتدون زيّا ملفتا، وربّما يفوق في ذلك زيّ رجال القوّات المسلحة الأمريكية)، وأدخلونا زنزانة ضيّقة من الحجر، حشرونا داخلها. كان لدينا قائمة بأسماء من يرافقوننا من الرّكاب، ولكن ربّما كانت غرفتهم أفضل، فنحن لا ضوء لدينا ولا نوافذ ولا منفذ. للتهوية، بل كانت الغرفة مطبقة خانقة، فضلا عن أننا قد حشرنا فيها حشرا. إنها فوّهة كلكتا المظلمة، مع فارق بسيط. ارتفع في الحال دخان حول أقدامنا، أطلق عطنا فاح من كلّ جيف الأرض، وكلّ ما يمكن تخيّله من فساد وعطن. بقينا داخلها خمس دقائق، وكان من العسير بعد خروجنا تحديد أكثرنا عطنا.

أطلقت تلك الحثالة على مسلكهم "تبخيرنا"، وصار مصطلحا مألوفا. لقد بخّرونا لوقاية أنفسهم شرّ الإصابة بالكوليرا، مع أننا لم نكن قادمين من مرفأ منكوب بالوباء،

بعد أن خلّفنا الكوليرا بعيدا وراءنا. كان عليهم مع ذلك عزل الأوبئة بطريقة أو بأخرى، والتبخير، أقلّ كلفة من الصّابون. كان بعض أفراد الطّبقة الدّنيا، يفضّلون الموت على الاغتسال، لكنّ تبخير الأجانب، لا يحدث بهم ألما. هم بدورهم ليسوا بحاجة إلى تبخير.

لأنّ عاداتهم تجعله بلا ضرورة يحملون معهم ما يقيهم، ويتصبّبون عرقا، ويبخرون الناس طوال اليوم. أثق في تواضعي، كوني مسيحيّا قويما. أسعي دوما إلى فعل الصّواب، وأعرف بوجوب الصلاة من أجل من يستخفّون بي، رغم ما في ذلك من صعوبة. سأحاول أن أصّلي من أجل. ذوي الأسنان التي تطحن حشو المكرونة، والمبخّرين.

يقع الفندق الذّي نقيم به، على حافّة مياه البحيرة، (أو حديقته الأمامية على الأقل)، حيث يسهل التّجوال بين أشجارها، وتدخين التّبغ، والرنوّ إلى مسافات بعيدة، في اتجاه سويسرا، وجبال الألب، والشّعور برغبة كسلى، في الإمساك عن المشاهدة، وهبوط درج السّلم، والتسبّح في مياه البحيرة، ثم ركوب قارب صغير جميل، والإبحار به في الهواء الطّلق تحت ضوء النّجوم، والاستلقاء على ظهر القارب والإصغاء إلى أصوات ضحكات تأتي من بعيد، وشدو بالغناء وأنغام رقيقة من ناي وجيتارة، تفد طافية فوق المياه، من الجنادل البهيجة، واختتام الأمسية ببليارد صاخب، على تلك الطّاولات نفسها، القديمة اللعينة. اشتملت أحداث اليوم، إقامة مأدبة صغيرة، في غرفتنا الفسيحة عند منتصف اللّيل، انتهت بتدخين التّبغ، في شرفتها المطلّة على مياه البحيرة، والحدائق والمرتفعات الجبليّة. تلا ذلك ذهاب إلى الفراش، برءوس متعبة، أنهكتها مشاهد من بانوراما مجنونة. تداخلت فيها مشاهد من فرنسا وإيطاليا، ومن السّفينة والبحر والوطن، في فوضى ملغزة ونظام مضطرب. تلاشت وجوه مألوفة لنا ومدن وأمواج عاتية، وتناهت إلى حالة من السكينة التّامة، والإحساس بالأمن، والقدرة على النّسيان.

أعقبها كوابيس مزعجة.

إفطار في الصّباح يليه توجّه إلى البحيرة.

لم يرق لي الأمس بوجه عام. ظننت أنّ بحيرة تاهوي تفضل تلك البحيرة كثيرا، وحريّ بي رغم ذلك الاعتراف الآن، بأنّ رأيي بشأن هذا الأمر قد شابه بعض الخطأ، مع أنني لم أشتطّ في ذلك كثيرا. كانت لديّ فكرة دائمة بأنّ بحيرة كومو عبارة عن حوض بحريّ

بالغ السَعة، شأنها في ذلك شأن بحيرة تاهوي، ومحاطة بسلسلسة جبلية شاهقة. لم يكن في ذلك بأس، فالجبال موجودة بالفعل، ولكنّ البحيرة في ذاتها ليست حوضا بحريًا. فهي متعرّجة تماما شأنها في ذلك شأن أيّ غدير. ولا تزيد في السَعة على ربع إلى ثلثي سعة المسيسبي. لا توجد على أي من جانبيها ياردة واحدة من الأراضي الخفيضة، وليس هناك سوى سلسلسة لا حصر لها من المرتفعات الجبلية، تباغتك بظهورها من حافة المياه، وتصل إلى ارتفاعات تتراوح بين ألف وألفي قدم. اكتست منحدراتها بالاخضرار، وتبرز البيوت الواقعة عليها كنقاط بيضاء بين محيط من النباتات الخضراء، ربضت على قمم جبليّة جميلة الصَورة على ارتفاع ألف قدم فوق من الأرض.

تستقر ولعدّة أميال على المياه بشكل منتظم، وبمحاذاة الشّاطئ، دور جميلة يملكها إقطاعيون، محاطة بالبساتين والخمائل، يقع بعضها في أركان منعزلة صنعتها الطّبيعة من جرف اعترشها الكرم، وما من وافد إليها أو مغادر لها سوى القوارب. لبعض هذه البيوت، درج رحب، يؤدّي مباشرة إلى مياه البحيرة. مزوّدا بدرابزين من الصخر الجلمود، مزينا بالتماثيل، ومزخرفا بسيقان الكرم، والزهور زاهية الألوان، وكلها أشبه بستارة إسدال في مسرح لا يعوزها سوى الجيد الحسان، الهيفاوات، والشّباب المتأنق بأربطة العنق الحريريّة، يرددون الألحان في جندول جميل يرسو في ترقّب على مياه البحيرة.

من المشاهد الرّائعة الجذّابة على بحيرة كومو، ذلك الحشد من البيوت والبساتين، المتجمّع في شواطئها وفي جانب من هضبتها الجبليّة. تبدو غاية في التّناسق والهدوء، ويكاد المرء يعتقد عند حلول المساء، وحين يخلد كلّ شيء إلى النعاس، ويهفو رنين نواقيس العشاء، متسللا إلى صفحة المياه، يكاد المرء يصدّق أنّ ذلك لا يتوفر في مكان آخر خلا بحيرة كومو، ذلك الفردوس الذّي ينعم بالأمن والسَكينة.

الآن أطل من نافذة الغرفة هنا في بيللاجيو، على مشهد يقع على الجانب الآخر من البحيرة، وكأنّه آية من آيات الجمال. يرتفع جرف ممعج مثقّب، إلى مسافة ألف وثمانمائة قدم وتربض على بقعة مسطّحة من نصف جداره العلويّ، كنيسة مغطّاة بالجليد، لا يزيد حجمها على صندوق المارتيني، كما يظهر عند أطارف الجرف، عدد لا بأس به من بساتين البرتقال والخمائل، بعثت وميضا صادرا من البيوت البيضاء المتوارية فيها، ويظهر في

مقدّمة الصّورة، ثلاثة أو أربعة جنادل تسير وئيدا، على صفحة المياه، وظهرت على مرآة البحيرة العاكسة، هضبة وكنيسة صغيرة، ودور، وغياض، وقوارب للريفييّن، كلها جليّة واضحة بحيث يتعذّر على المرء التمييز بين الواقع في المشهد، والخيال.

تتسم كلّ جوانب هذه اللّوحة بالصفاء. وعلى بعد ميل، قنن جبلية مريشة بغياض، بعيدة داخل البحيرة، تزجج قصرها في الأعماق الزرقاء، وفي منتصف المجري المائي، يشقّ أحد القوارب صفحة المياه الوامضة، ويخلّف وراءه خطّا طويلا، كشعاع من الضوء، وقد احتجبت المرتفعات الخلفية في أفق أرجوانيّ حالم، وبدت بعيدا في الاتّجاه المقابل كتلة متراكمة من قباب ومنحدرات وارفة خضراء، وأودية تعترض البحيرة، وهنا تتشكل بالفعل مساحة مترامية، تضفي على المشهد فتنة، فقد اختلطت فوق لوحة الكنفاه العريضة، الشّمس والغيوم وطبقات الجوّ العليا، معا في جلوة من ألف لون، تتنقّل فوق سطحها الساعة بعد الأخرى، أضواء رقيقة، وظلال، فتضاعفها جمالا، بدا أنّ السّماء عكست صورته وحدها. كان هذا ولا مراء، أبهج مشهد طالعته أنظارنا.

شدت أنظارنا لوحات الأمس الطّبيعيّة بصورة لافتة. انعكست على صفحة البحيرة من الجانب الآخر، صور الجرف، والأشجار والدّور البيضاء، بوضوح ملفت، وغمر وجه البحيرة العريض، دفق من نور قادم من نافذة بعيدة. ظهرت قريبة على هذا الجانب من البحيرة، قصور مشيدة، أضاءها نور القمر، وومضت بين نماء وافر من الخضرة الخابية تحت ظلال الجرف الشاهق الذى يعلوها، فبدت قاتمة معيبة، وكلّ ملمح في المشهد الغريب عند حافّة البحيرة يتكرّر بكل تفاصيله.

تباطأنا في جولة اليوم على الطّريق، مرورا بإحدى العجائب، لبستان، في عزبة يملكها أحد الدّوق، ولكنّي أرى من وجهة نظري، أنه قد بولغ في وصفها. أشكّ أنّ تكون المكان نفسه الذى خدع به ابن البستانيّ سيّدة ليون، لكني على غير يقين من ذلك. ولعلّك تكون قد سمعت هذه الفقرة في مكان ما :

"واد عميق،

عزلته تلال الألب عن العالم الفجّ،

بقرب بحيرة رقراقة تحفّها ثمار فاكهة ذهبية،

ونبات الآس يهمس قائلا:

إنها أكثر السّماوات صفاء، ورقّة ونعومة،

خلا ندرة من ظلال تراوح مكانها،

وقصر ترتفع أسواره المرمريّة إلى عنان السماء،

لتمضي منه عريشة لامعة من خضرة وارفة، تصدح بشدو الأطيار،

هذا في مجمله رائع، عدا ما يتعلّق بصفاء البحيرة. لا شكّ أنّها أكثر صفاء من كثير من البحيرات الكبرى، ولكن المهمّ هو قدر قتامة مياهها إذا قورنت بصفاء بحيرة تاهوي العجيب! أخصّ بالذكر السّاحل الشمالي من تاهوي، حيث يمكن للمرء، عدّ حراشف سمكة السلامون المنقطة، وهي على عمق من البحيرة يقدّر بمائة وثمانين قدما. لقد حاولت هنا الظّفر بإجراء مثل هذا البيان الإحصائي مقابل بارة، ولكني فشلت. لذا أتعهد بالتفاوض حوله مع احتساب صغر المسافة بقدر خمسين بالمائة. وبهذه النسبة أجتذب الزبائن وقد يتمتع القارئ بالشروط نفسها، على أن تكون المسافة المقدرة تسعين قدما وليست مائة وثمانين.

ولكن تذكر أن تلك شروطا ملزمة، وبسعر بيع العمدة. تمسكت بألاّ أتزحزح قيد أنملة، عن الحقّ الأصيل بإنسان، بأن يسمح له في هذه المياه المكبرة للأشياء إلى حدودها القصوى، بإحصاء قشور ذلك النّوع من سمكة السلامون من الحجم الكبير، تلك الواقفة هناك في أعماق البحيرة على بعد مائة وثمانين قدما (يمكنك رؤية كلّ حصاة في الأعماق) ويمكنك أيضا إحصاء حافظة أوراق تملأ كرّاجة. يتحدث النّاس كثيرا عن خليج أكابولكو المكسيكيّ، لكنّني بتجربتي الشّخصيّة، أعرف أنّه لا يمكنهم مقارنته بهاتين البحيرتين اللتين، سقتهما في الحديث، فقد قمت بصيد سمك السّلامون، في بحيرة تاهوي، وعلى عمق واحد فيها يقدّر بأربعة وثمانين قدما، ورأيت السمكة تفتح خياشيمها وتغلقها، ونادرا ما رأيت سمك السّلامون نفسه على تلك المسافة على البرّ.

حين أستعيد ذلك في نفسي، وأذكر ذلك البحر العظيم، راقدا بين الذري الجليديّة، على ارتفاع ستّة آلاف قدم فوق المحيط، تزداد قناعتي مجدّدا بأنّ كومو ربما تكون الوحيدة التّي تبدو كمن يظهر الوّد بشيء من التجمل الرخيص بطلعتها المهيبة.

يلحق بالهيئة التشريعيّة وبال وكرب، لأنها توافق عاما بعد الآخر على أن تحتفظ بحيرة تاهوي بلقب لا يحمل رنينا. تاهوي! أي غريب على الأذن هذا الاسم! يفتقر إلى الإيحاء، بمياه بلورية، وشواطئ جذابة، أو تفوق. يليق لقب تاهوي ببحر في الغيوم، بحر ذو سمت يؤكد هدوءه الوقور، في أثناء هبوب العواصف الهوجاء، بحر تحرس عزلته السامية بنطاق تفرضه قننه الحارسة، حيث ترتفع جباهها الثّلجية إلى مسافة تسعة آلاف قدم عن الأرض، بحر تهفو القلوب إلى كل سمت فيه، فكلّ ما فيه جميل، وما ينفرد به من مهابة يشير إلى وجود الربّ.

يعني لفظ تاهوي، الجندب (صغير الجراد)، ويعني أيضا حساء الجنادب، وهو لفظ هنديّ (أحمر)، فضلا عن كونه يذكرنا بالهنود الحمر. يزعمون أنه يلقب (بي. يوتي)، وربما يعني الخنجر القاتل. إنني على قناعة تامة بأن أولئك القتلة، هم من أطلق عليها هذا الاسم، أولئك الأوغاد السّفلة، من يشوون ذويهم من الموتى، ويمزجون شحوم البشر، ورماد العظام، بالقطران، ويلطّخون بها رءوسهم وجباههم وآذانهم، ثم يموءون كالقطط حول التّلال، ويسمون ذلك حدادا. تلك القبيلة هي من أطلق ذلك اللّقب على البحيرة.

هناك من يزعم بأنّ "تاهوي" تعني "لبحيرة الفضّية ". أو "المياه الصّافية. أو "ورقة نبات ساقطة ". كل هذا رائع. وهي أيضا تعني حساء الجندب، وهو طبق قبيلة السّفاحين المفضل، فضلا عن أنّها تسمى بالـ "بي. يوتي. . لا يجدر بالنّاس في هذه الأزمنة المعاصرة، مجرد التحدث في شعر الهنود الحمر، فهو يخلو من أية جاذبية، عدا ما يحفظه هنود قبيلة فينيمور كوبر. لكن تلك قبيلة منقرضة وليس لها وجود. إنني أعرف الهنديّ النبيل حق المعرفة، وسبق أن أقمت مع الهنود في الخيام، وكنت معهم دوما، وهم يتأهّبون للقتال، وشاركتهم في قنص ......الجراد، وفي سرقة الماشية، وقمت بجولات معهم، وسلخت فرو رءوسهم، ودعوتهم لتناول الإفطار. وسوف أسرّ بالتهام الجنسَ الهنديّ الأحمر كلّه لو سنحت الفرصة لي.

لكننّي أميل تدريجيًا إلى أن أكون شخصا غير أهل بالثقة. لذلك سوف أعود إلى مقارناتي بين البحيرات. لو أن هنا أناسا يحرصون على قول الحقيقة، فإن بحيرة كومو تقل في العمق عن تاهوي. يقولون إنّ كومو تبلغ من العمق، ما يعادل الألف والثمانمائة قدم، من هذا المكان، لكنها تبدو غير داكنة الزرقة لتأكّد لنا صحّة ذلك. يبلغ عمق تاهوي من أوسطها ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين قدما، وذلك بقياس المدينة الجيولوجية. ويقولون إنّ القنّة المواجهة لهذه المدينة يبلغ ارتفاعها، خمسة آلاف قدم، لكنني على يقين من أنّ ثلاثة آلاف من هذه الخمسة، محض اختلاق. يبلغ عرض البحيرة هنا ميلا واحدا، وتظل البحيرة بهذه السّعة من هذا الموضع حتّى طرفها الشّمالي. وهي مسافة تبلغ ستّة عشر ميلا، ومن هنا حتّى طرفها الجنوبيّ، ولنقل خمسة عشر ميلا، لا يزيد عرضها على نصف الميل، في أيّ مكان بطول هذه المسافة حسبما أعتقد. يسمع المرء كثيرا بأن مرتفعاتها المكسوّة بالثّلوج، تظهر من حين لآخر فحسب، وعلى مسافة منها جبال الألب.

ما يحمل على الغرابة. أنّ سطح كومو يفتقر إلى غطاء رقيق من الجليد، مع أنّ بحيرات أخرى تقع في محيط تلك المرتفعات نفسها وفي مناخ أقلّ حرارة أو أكثر. يتجمد سطحها في فصل الشّتاء.

من الأمور السّارة أن تلتقي بأحد رفاقك في السفينة، في هذه الأماكن النّائية، وتقارن معه ما سجّلت من ملاحظات. عثرنا هناك على رفيق، وهو محارب قديم يسعى إلى القيام بمغامرات مأمونة العواقب، في هذه البلاد المشرقة[*] .

(*) الكولونيل جي .هيرون فوستر، محرر في صحيفة بيتسبورج، وهو سيد جدير بالاحترام. تألمت بعد عودتي إلى الوطن بوقت قصير، في أثناء إعداد هذه الصّفحات للجريدة لرحيله. مارك توين .

الفصل الحادي والعشرون

قمنا على إحدى البواخر برحلة إلى لاجو دي ليكو، وسط قفار جبلية، وقرى صغيرة، وفيلات، وهبطنا نا في مدينة ليكو. ذكروا أن الطّريق إلى مدينة بيرجامو القديمة يستغرق ساعتين بالعربة، وأننا سنصل هناك في وقت يقارب موعد قيام القطار. ركبنا بروشة (عربة) مكشوفة مع حوذيّ صخّاب جموح، وبدأ السّير بنا. كان الأمر يبعث على البهجة، فقد تيسرت لدينا عربة سريعة، وطريقا معبّدا. بدت عن يسارنا، منحدرات عالية. وعن اليمين "لاجو دي ليكو"، والأ مطار تنهمر علينا من آن لآخر. قبل بدء بالتحرك، أخرج الحوذيّ، عقب سيجار بطول بوصة ووضعه في فمه. ظننت لحمله إيّاه هكذا فترة طويلة، أنه يترقّب أن يبرَ مسيحيّ بإشعاله له. قدّمت السيجار الذّي أشعلته للتوّ، فوضعه في فمه وأعاد عقبه إلى جيبه! لم أر من قبل أكثر من ذلك أنسا! لم أر على الأقلّ، من يفوقه أنسا، رغم قصر التعارف.

رأينا إيطاليا من الداخل. البيوت من الحجارة الضّخمة، ولم يكن أغلبها بحالة جيدة. سيطر الخمول على الفلاحين وأبنائهم، وطفقت الحمير والدّواجن تمرح في البيوت في غرف الاستقبال والنّوم بأريحية مطلقة، دون أن يمنعها أحد وكان كل من لقيناهم من الحونية، يركبون عربات متباطئة، متوجهين إلى السّوق، ومستلقين تحت الشّمس فوق بضائعهم، يغطّون في النّوم. تراءي لي أننا نتوقّف كلّ ثلاثمائة أو اربعمائة ياردة أمام قبر أو آخر لأحد القدّيسين، رفعت له صورة قميئة داخل صليب ضخم، أو على لوح حجري على جانب الطّريق، وظهرت لوحات غريبة تصوّر المخلّص. صوّرته وقد شدّ على الصّليب، وتغيّرت ملامحه من وقع الآلام، وما أحدثه إكليل الشّوك من جروح، ومن ألم وخز الإبر في جنبه، والأيدي المشّوهة والقدمين، والجسد المعذّب بالسّوط، وأنهار الدمّ المتدفّقة بعرض كفّه! كان حريا بي الظنّ بأن مثل هذا المشهد الدّمويَ الرّهيب، قد يخرج الأطفال عن أطوارهم الطّبيعية لما يحمل من رعب. ظهرت إضافات أخرى إلى اللّوحات زادت من تأثيرها

الرّوحيّ. رتبت بعناية أدوات معدنية وخشبية حقيقية وضعت في مكان ظاهر حول الصّورة، تتكون من حفنة من المسامير، ومطرقة لدقّها، وقطعة إسفنج، وسندانا، وكأسا من الخلّ، وسلما لارتقاء الصّليب، وحربة كتلك التي وخز بها جنب المخلّص. صنع إكليل الشّوك من أشواك حقيقيّة، وثبّت في الجبهة المقدّسة بمسمار. يصوّر كلّمن المخلّص والعذراء، في بعض اللّوحات المعروضة في الكنائس الإيطاليّة، وفي اللوحات التّي رسمها الرّوّاد القدامي، وهما يعتمران تيجانا من الذّهب، موضوعة بالجبهة ومثبتة بمسامير. ورغم تنافر تلك الأدوات والموادّ: فإنّها أحدثت فينا أثر الجذب.

في مكان أو آخر، وجدنا على واجهات الفنادق الصّغيرة والمنتشرة على الطّريق، صوّرت رسوما من الجصّ تتسم بالخشونة والضخامة، لشهداء يعانون الألم، كأولئك الذّين رأيناهم على الأضرحة. صوّروا على هذا النّحو من البشاعة حتّى لا ينمحي أي قدر من آلامهم. صرنا وسط المقرّ الأساس للكهانة ومركزها الرئيس، حيث مظاهر الدعة، والفاقة والخمول، والشعور بالانتشاء، والرّكون إلى الجهل. فضلا عن الخرافة والفساد وما لا يمكن تصوّره من توافه بلا حصر. ذكرنا بتأثّر أنّ هذا النوع من الحياة. يتفق تماما وهؤلاء النّاس، فدعوهم في لهوهم يلعبون ويشاركون في ذلك أقرانهم من البهائم، ولا يحول بينهم وبين ذلك شيء، لا سمح الله. لم نشعر البتة بما يوغر صدورنا نحو مبخرينا للوقاية من الأوبئة.

جلنا بمدن قديمة، كانت أكثر غرابة، ودعوة إلى السّخرية، ما يعوق أيّ تصور، حيث استسلمت لموروثات قديمة، وسدرت في الحلم بعصور ضاربة في القدم، ولم تلق بالا البتّة لما يطرأ على العالم المحيط بها من تحوّلات. كما لا تبالي أيضا بحركته أو سكونه. ليس ثمّة ما يفعلونه، سوى التهام الطّعام، والنّوم، ثمّ النّوم وتناول الطّعام، غير آبهين بشيء إلا في القليل، إذا استنهضهم صديق من سباتهم، فليس ثمة ما يقلقهم، أو عالم من حولهم يأبهون به. هؤلاء أناس ليسوا جديرين بأي احترام، أو قيمة تذكر في الحياة، كما يفتقرون إلى معرفة أو فطنة أوذكاء، ويحيون طيلة حياتهم. وقد وقر في صدورهم اطمئنان تستعصي على الفهم' كيف تسنّى لهؤلاء الزعم بنخوة الرجولة وهم قانعين بحياة على هذا النّحو، من رضا عن ذواتهم وانحطاط ؟

مررنا سريعا بعدد من الحصون القديمة المتبقية من العصور الوسطى، تكثف اكتساؤها بعريش النّبات، وقد علق براياتها الخضراء المرفرفة على الأبـراج، والبريجات، وحيث رفرفت يوما راية الصليبيين القدامى. أشار الحوذّي إلى أحد هذه الحصون القديمة، وقال (سأضطلع هنا بالتّرجمة):

"أترون ذلك الخطّاف الكبير، البارز من الجدار، تحت النّافذة العليا، الواقع في ذلك البرج المهدّم؟".

قلنا أننّا لا نستطيع رؤيته من هذه المسافة، ولكن لم يكن هناك ريبا من وجوده في المكان الذى أشار إليه فقال:

"لهذا الخطّاف الحديديّ قصّة قديمة، وقعت منذ ما يقارب السّبعمائة عام، فهذا الحصن كان ملكا للنّبيل لويجي جينارو جيودو ألفونسو، كونت جنوا ــ "

قال "دان" : "وبما ذا يلقب بعد؟".

"لا يلـقّب بغير هـذا اللقـب، ومـا ذكـرت سـوى لقبـه الذى يحملـه. كان ذلك الرّجل ابن ــ".

"يا لهما من أبوين بائسين، بل وفيين، كلّ هذا لا بأس به، لا تلتفت إلى الأمور الخاصّة، أكمل القصّة".

الأسـطورة

حسنا، أمّا بعد، فقد كان النّاس جميعا، في تلك الفترة يشتعلون حماسا بشأن القبر المقدّس. وكان كلّ الإقطاعيين الكبار في أوروبّا، يرهنون أراضيهم ومجوهراتهم، لتجهيز أنفسهم رجال حرب، حتى يستطيعوا اللحاق بالقوّات المسيحيّة الكبرى، ويحظوا بشرف الاشتراك خوض الحروب المقدّسة الشّهيرة. أعدّ الكونت لويجي المال كبقية الإقطاعيين، نهض صباح يوم رطب من سبتمبر، وتسلّح ببلطة حربيّة، وباب حصن من الحديد المطوع، وبندقية قديمة منذرة بالثّبور، وانطلق فوق جواده بدرع السّاق، وتروس برجه

المحصّن. برفقة أعظم فرقة عسكريّة في إيطاليا من قطّاع الطرق المسيحيين. وأخذ معه سيفه "الإكسكاليبور". ودّعته كونتيسته الجميلة وأختها الشّابة، بأحر العبرات، من بين أسوار الحصن المهدّمة بالمنجنيق وأعمدته،. انطلق يعدو سعيد الفؤاد.

أغار على أحد جيرانه من البارونات، وأكمل الغارة بغنم عظيم. سوّى بعد ذلك الحصن بالأرض، وقتل أفراد أسرة البارون، عن آخرهم، ومضى في طريقه. كان هؤلا. رّجالا لا يشقّ لهم غبار في أزمنة الفروسيّة العظيمة، فواحسرتاه على ما مضى منها ولم يعد.

ذاع صيت الكونت لويجي، في الأرض المقدّسة، إذ خاض غمار مائة من المعارك، بل كان حسن تدبّره للأمور ينجيه دوما من موت محقّق، مع إصابته في أغلبها بجروح قاتلة. أكلح وجهه تعرّضه الدائم في جوّ سوريًا اللافح، وعاني فيها السغب والعطش، واعتقل في السّجون وأوهنه المرض، في مصحّات الطّاعون البشعة. انشغل باله كثيرا بأحبّائه في الوطن، وبأحوالهم عامّة. لكنّ لسان حال قلبه أخبره بأن تقرّ عينه، متسائلا: ألا يقوم أخوك على شئونهم الحياتية في الدّيار؟".

مضت وولّت أربعون عاما، وتحقّق النّصر في المعركة الكبري، وتولّي جودفري حكم أورشليم، ورفعت الجيوش المسيحيّة راية الصّليب فوق القبر المقدّس. أوشك الفجر على المجيء، وتقدّم خمسون من المهرّجين من هذا الحصن، مهلهلين في أسمال، وكانوا يشعرون بإنهاك شديد، فقد أتوا سيرا على الأقدام، وكان ما علا ثيابهم من غبرة ووضر يشير إلى أنهم قدموا من مسافة بعيدة. استوقفوا فلاّحا واستفسروا منه عن مكان مناسب يقدّم لهم طعاما وفراشا على سبيل الضّيافة، وسبيل برّ المسيحيّ بأخيه، وأن ضيافة دار برّ بهم، لحرية لو تهيّأت الظروف بأن تقابل بوجه سمح و" ذكروا أنّ هذا العرض من جانبهم لا يحمل من السّمات ما يمسّ إحساس ذوي الذّوق الرفيع".

قال الفلاّح: " شيء جميل، وهذا مدعاة رضا إلهكم، وأفضل أن ترحلوا بعيدا عن هذا المكان، من أن تمضوا بسيرك ألعابكم إلى هذا الحصن الكائن هناك".

تعجّب كبير الرّهبان: عجبا لك، يا سيّد، فسّر لنا قولك السّفيه هذا، وإلاّ أصبح أمرك عسرا وحقّ امرأتك".

"رويدك أيها الحاوي الطيّب. أنا لم أفه بغير الحقيقة، نابعة من القلب، ويشهد سان باولو على ما قلت. فأنتم ستلقون هناك، الكونت الشرس ليوناردو، معاقرا شرابه، ومعرّجا على أسوار الحصن العليا، وسيلقي بكم جميعا من فوقها. واحسرتاه على ما فات من زمن، فالسّيد الطّيب لويجي لم يعد يحكم البلدة، في أيّامنا البائسة هذه".

"السّيد الطّيّب لويجي؟".

"أجل هو، من سواه إذن زاد فضل حضرتك. استمتّع الفقراء على أيامه بالخير الوفير، بعد أن اضطهد الأغنياء، ولم تكن الضّرائب في ذلك الحين معروفة لدينا.. ووهب كثيرون من آباء الكنيسة الفضل الكثير، وفد السّياح إلى البلد وغادروها، دون تدخّل في شئونهم، وكان يمكن لأيّ قادم إلى الدّيار أن يضيّف في دور مخصّصة للضّيافة، ويأكل أيضا خبزه ويشرب خمره. ولكن وا أسفا. على الزمن الذّي ركب فيه الكونت فرسه منذ اثنين وأربعين عاما، وذهب للدّفاع عن الصّليب، المقدّس، وقد مضت السّنون، ولم نسمع خلالها كلمة عنه أو أتتنا إشارة منه، يقول النّاس أن عظامه الآن ثاوية من غير سوء. في أرض فلسطين".

"وماذا يحدث الآن".

"يرحمنا الله الآن. فالذّي يحكم من الحصن، الملعون ليوناردو، الذّي يبتزّ الضّرائب من الفقراء، ويسرق السّياح المارّين ببابه. ويسرف في العداوة والقتل. ويقضي لياليه في عربدة ومجون، ويشوي آباء الكنيسة على سفّود مطبخه، ويستمتع بذلك ويسمّيه تزجية للوقت.

طوال هذه الأعوام الثّلاثين. لم تقع عين أحد في هذه البلدة على الكونتيسة لويجي، ودار همس كثير بأنّها تذوي في زنازين الحصن. بسبب رفضها الزّواج من ليوناردو، بدعوى أنّ زوجها. لم يزل على قيد الحياة، وأنها قد تموت قبل أن ينحل ارتباطها به. فضلاً عن أنّه يدور همس. بأنّ ابنتها سجينة هي الأخرى. كلاّ أيّها الحواة الطيّبون، التمسوا وفادة لكم في مكان آخر. فالأفضل أن تهلكوا على أحد الطرق. من أن يلقي بكم من فوق هذا البرج الشّاهق. أرجو لكم يوما طيبًا".

"وداعا، وليحفظك الله أيّها الخادم المهذّب".

لكنّهم بعد أن تناسوا تحذيرات الفلاّح. توجّه الحواة إلى الحصن مباشرة.

وصلت أخبار إلى الكونت ليوناردو بشأن فرقة من الحواة، في طلب السماح باستضافتهم في الحصن.

"حسنا، تخلّصوا منهم بالطّريقة المعتادة، انتظروا! إنني لأريدهم. اسمحوا لهم بالقدوم إليّ. وألقوهم بعد ذلك من أسوار الحصن، أو ... كم لديكم من الرّهبان هنا؟".

"حصيلة اليوم لا تكاد تذكر، سيّدي الكبير، هناك رئيس دير أحد الأديرة ودستة من الرّهبان المعوزين !".

تبًا وجحيما، أتزول هذه المقاطعة من الوجود؟ آتوني بالحواة، ثمّ قوموا بشيّهم بعد ذلك ..... بصحبة الرّهبان!

دخل المهرجون ذوو الأردية، معتمرو القلانس، واتّخذ ليوناردو مكانا على رأس مجلسه الاستشاريّ. انتظم في صف على جانبي القاعة ما يقارب المائة رجل مدججين بالسّلاح.

قال الكونت: "أيّها الأشرار، ماذا لديكم لكسب وفادتي، يا من تنحتون الصّخر لكسب قوتكم".

"سيّدي القويّ، المهاب، إنّ الجماهير الحاشدة تشيع أعمالنا المتواضعة، بالهتاف والتصفيق. وقد حرصنا على أن يكون بيننا، أوجولينو، الخبير البارع، ورودولفو صاحب الكفاءة الشّهير، ورودريجو الموهوب الماهر، وما ادّخرنا في تدبير ذلك جهودا أو نفقة ــ".

"ويحكم، ماذا في جعبتك. كفاك ثرثرة".

"حسنا، سيّديّ، لقد برعنا في أداء الحركات البهلوانيّة، ورفع الأثقال، والتشقلب على الحبال، وفوق الأرض، وفي الهواء، ذلك ما سألتني سموّك بشأنه، وإنّني هنا متأهب للإعلان عن ذلك بأسلوب زامبيللايرو العجيب والمسليّ بحقّ".

"أسكته. أكتم أنفاسه. أيا جماعة باخوس (إله الخمر)، أكلب أنا كي عليَ بتجديف منمّق كهذا؟ ولكن حسبك! لوكريشيا، إيزايبل، ودواليك! تأمّلوا أيها السّادة هذه السيدة، هذه البغيّ المنتحبة! سأقترن بها، خلال ساعة، وسوف تجفف الأخرى. أو تطعم النسور. أمّا أنتم أيّها الصّعاليك فستتوجون الزيّجة بألعابكم المسليّة. أحضروا الرّاهب!".

انطلقت المرأة نحو كبير المهرجين، وهتفت به:

"آه، أغثني، أغثني من قدر، يفوق الموت سوءا! تأمّل هذه العين الباكية، وهذه الوجنات الشّاحبة، وهذا الجسد الهزيل! انظر إلى ما أحدث الشّيطان من ويل، وليتحرّك قلبك شفقة! تأمّل جيّدا هذه الشّابة، والحظ جسدها الزاوي، وخطاها المتثاقة، ووجنتها الزابلة، حيث كان حريًا بالشّباب أن يضج سعادة ونضارة بالسمات. اصغ إلى ذلك وترفق. إن هذا المتوحش شقيق لزوجي. وكان يجدر به أن يكون لنا وقاء من كل الشّرور، لكنّه اعتقلنا داخل غرف قميئة، داخل أبراجه الحصينة، على مدار ثلاثين عاما. فبأيّة جريرة؟ لن أنقض عهد زوجي لأرتبط بآخر، ولن أتخلّى عن حبّي القويّ لزوجي. الذى يحارب مع جيوش الصّليب، في الأرض المقدّسة (لأنه لم يمت). وما زلت حليلة له! أغثنا! آه، أغث مناشديك المضطهدين!".

خرّت على قدميه، وضمت إليها ركبتيه.

صاح ليوناردو السفاح: " ها!ها!ها! قم بعملك أيّها الرّاهب!". ثم قام بسحب المرأة المنتحبة ممن التجأت إليه. وقال: "انطقي للمرة الأخيرة. أتكونين لي؟ لأنني أقسم بإلهي، أن يكون نطقك بالرفض، آخر أنفاسك فوق البسيطة!".

"البتة".

"فلتموتي، إذن!". أخرج السّيف من غمده.

وبأسرع ممّا يخطر ببال، أو يومض برق، اختفت مسوح خمسون راهبا، وظهر خمسون فارسا، في دروع محكمة، وبرق وميض خمسين سيفا باترا في الهواء، برقت فوق رءوس المقاتلين، وأبرق ما فيها جميعا وأشرسها سيفه "الإكسكاليبور". وقد علا في الهواء وهوى بضربة واحدة على سيف ليوناردو السّفاح فأسقطه من يده.

"مرحي! ها هو لويجي حتى الإنقاذ!".

"هذا ليوناردو! سقط المتاع!".

"واه، ربّاه، وا ربّاه، زوجي".

" يا ربّاه، وا ربّاه، حليلتي!"

" أبتاه!".

"درّتي النفيسة!". [مشهد مسرحي مؤثّر].

قيدّ الكونت لويجي، يدي أخيه وساقيه. وجعل الفرسان المهرة القادمين من فلسطين، من تقطيع لحوم الجنود الرعاديد إلى هبر، وشرائح تسليتهم الكبرى. وتحققّ النّصر، وعمت الفرحة الأرجاء. وتزوّج كلّ الفرسان بالابنة. فرح! تبادل الأنخاب! خاتمة!

"ولكن ماذا فعلوا بالأخ الخائن؟".

"عجبت لك، لا شيء، لقد علّقوه من ذقنه في ذلك الخطّاف الحديديّ، الذّي ذكرت".

"كيف؟".

"مرّروه من اللّغد إلى الحنك من الداخل!".

"أتركوه هناك؟".

"لعامين؟".

"ياه، هل، هل مات؟".

"منذ ستّمائة وخمسون عاما، أو نحو ذلك".

"أسطورة حلوة، كذبة بيضاء، حثّ السّير".

وصلنا إلى المدينة القديمة الحصينة الجميلة، التّي يقال لها بيرجامو. ذائعة الصيت في التّاريخ، وانتظرنا ثلاثة أرباع السّاعة حتّى بدأ تحرّك القطار. يأهل المكان ثلاثون

أو أربعون ألف نسمة، والمكان معروف بمسقط رأس المهرّج. حين اكتشفنا ذلك، اتخذت الأسطورة التي رواها السّائق بعدا جديدا في نظرنا.

استرحنا واستعدنا نشاطنا، وركبنا القطار وقد شملتنا السّعادة والرّضا. لن أتوقف هنا للحديث عن روعة لاجو دي جاردي، وحصنها الشّامخ، الذي يحفظ في صدره الحجريّ، أسرار عصر ترامي في القدم حتّى إنّ الرّوايات الدينية القديمة لم ترجع إليه، في مشهد لهضبتها الضّخمة، التي تشرف على ما حولها من مشاهد طبيعية، أو تنتبه إلى بادوا القديمة أو فيرونا المتشامخة، ولا سلسلة من النتاج الأدبيّ والفنّي والمقاطع الشعرية المركبة، وشرفاتها الشّهيرة ومقبرتي روميو وجولييت، لكننا هرعنا إلى المدينة البحريّة القديمة، عروس الأدرياتيكي الأرملة. كانت رحلة جد طويلة. لكننا بحلول المساء، وحين جلسنا في صمت، غير عارفين بالمكان، خلودا إلى حالة تأملية، تعقب في الغالب حوارا عاصفا، هتف أحدهم: "إنها فينيسيا".

كان يقينا أن تقبع مدينة كبيرة، طفوا فوق بحر ساكن، تبعد فرسخا، بما يقع عليها من أبراج حصون، وقباب، وأبراج كنائس ناعسة في سديم ذهبيّ بلون الشّفق.

الفصل الثّاني والعشـرون

فينيسيا، تلك الجمهوريّة العظيمة الشّامخة،الصامدة على مدار ما يقارب ألف وأربعمائة عام، والتّي استحقّت جيوشها إطراء العالم على أينما وحيثما توجّهت لساحات القتال، والتي أوشكت أساطيلها على أن تستحوذ على كلّ البحار، والتّي بيضّت بأشرعة أساطيلها التّجارية، كلّ البحار النائية، وتكدّست روافدها بالبضائع القادمة من كل حدب وصوب، قد سقطت الآن فريسة الإهمال والاضمحلال الرّهيب. منذ ستّمائة عام كانت فينسيا الحاكم التجاريّ المطلق، وكان سوقها مركزا تجاريا عظيما، ومقّرا لتوزيع أكداس من تجارة الشرق، الموزعة على كلّ بلاد الغرب. ترى فينسيا اليوم، وقد خلت أرصفة روافد موانيها، وخوت متاجرها، واختفت أساطيلها التجارية، ولم تعد جيوشها وأساطيلها سوى ذكريات. باد مجدها، وترقد بأرصفة موانيها الكبيرةالمتهالكة، والقصور المحيطة بها، وسط بحيراتها الضّحلة، منبوذة شاردة يشيّعها العالم بالنّسيان. كانت فينيسيا أيّام عزها تستحوذ وحدها على تجارة نصف الكرة الأرضيّة، وكان تنذر بالويل والتبور أمما بإشارة من إصبعها القويّ، فصارت الأدنى بين أمم الأرض، بائع الخرز للنساء، والدّمى الصغيرة، والحليّ الرخيصة لطلاّب المدارس وطالباتها.

تفتقر أم الجمهوريّات العظيمة إلى حتى ما يجعلها موضوعا للثرثرة. أو لأحاديث السّائحين العابرة. أن يثار سحر حبّ قديم يصورها لنا برويّة من بعيد وكأنها وسط غلالة رقيقة من السديم ليحجب عزلتها وخرابها عن أنظارنا، يعدّ انتهاكا لبعض الحرمات. وحريّ بالمرء حقّا أن ينأى بنفسه عن فاقتها وذلّها وأسمالها. ولا ينشغل إلاّ بها، وبحالها الّذي كان، حين أغرقت أسطول شارلمان، وحين قهرت فريديريك بارباروسا، وحين رفرفت راياتها الظّافرة، فوق أسوار القسطنطينية.

وصلنا إلى فينيسيا، في الثامنة مساء، ودخلنا نعش فندق آوروبّا الكبير. كان بكل المقاييس أشبه بالنّعش منه بشيء آخر. مع أننا لو تحدّثنا عن إمكانياته نجده يصلح جندولا. هذا جندول فينيسيا التّاريخيّ. القارب المسحور الذّي شقّ به الفرسان العظام في الأزمنة القديمة، مياه القنوات المؤتلقة بنور القمر، ورأوا أسمى معاني الحبّ في نظرات حنوّ رقيقة من الأرسقراطيات، وحيث يلامس سائق الجندول في صداره الحريريّ، أوتار جيتاره، ويشدو بما يتيسر للجندوليين فحسب من شدو! إنّه الجندول، والجنادلي المليح! الأول قارب طويل قديم كالح، أكل منه الزمان وشرب، مثبّت في وسطه نعش أسود، أمّا الثّاني فحقير، ابن أزقّة، حافي القدمين، كشف عن بعض أجزاء جسده، وكان الأحرى به حجبها عن العيان. دار بمنعطف ودفع بنعشه داخل قناية مظلمة، تقع بين صفّين ممتدين من الأبنية الشّاهقة المهجورة، ترى الجناديّ الخليع يشرع في الغناء على الفور، بما يخطر بباله من حكاوي قديمة تخص ببني جلدته. تحمّلت ذلك منه لفترة قصيرة. ثم قلت له:

« حسبك، رودريجو جونزاليس ما يكل أنجلو، فاني حاجّ، غريب عن هذه الدّيار، لكنّني لن أترك مشاعري نهب أيّ من هذا المواء، ولو واصلته. فإنّ أحدنا بدوره، سيلقي بنفسه في الماء. يكفي أن ماشعرت به نحو فينسيا في الماضي، قد ذهب بددا فضلا عما كان لدي أفكار بشأن الجندول والجنادلي. المليح. أرى ألاّ تواصل أسلوب الغناء المدمر بعد الآن، أما أنا فسأتقبّل على مضض ذلك النّعش، وتستطيع أن ترفع بأرىحية راية الهدنة، لكنّني في هذا السّياق أشير إلى قسم مغلّظ أسود، بأنّك إن تعد مجدّدا إلى الغناء، فسيلقي بك في الماء لدى سماعي أي نباح آخر».

بدأت أشعر أنّ فينيسيا القديمة، مدينة الطّرب والتّاريخ قد ولّت إلى الأبد. لكنّني قد تعجّلت كثيرا. لأننا أبحرنا خلال بضع دقائق، إلى القناة الكبرى، فظهرت فينيسيا شامخة رقيقة في نور القمر، فينيسيا الشّعر وقصص الحبّ والغرام، بدت لنا خارجة للتو من صفحة المياه، في صفوف مترامية من القصور الرخامية، والجنادل تهرع زاحفة هنا أو هناك، وتختفي بغتة خلف بوّابات وأزقّة لا تخطئها عين، وقد ألقت جسور حجرية ضخمة بظلالها على الموج المشعّ بالنور. دبّت الحركة والنّشاط في كلّ الأرجاء، فضلا عما ران على الأشياء من سكينة وغموض، ما يشي بجولات العشّاق السّريّة، واحتجابهم بين ظلال خفيّة، تحت

نور القمر، وبدت مقارّ الجمهورية القديمة، كما لو كانت مجبرة، على رؤية جولات كهذه في لحظة كتلك. أتى شدو الألحان، طافيا فوق المياه، واكتملت بذلك صورة فينيسيا.

كانت لوحة جميلة على الطّبيعة، اتّسمت بالرّقة والخيال والجمال.

ولكن ما الفرق بين فينيسيا هذه، وفينيسيا منتصف اللّيل؟ لا شيء. أقيم مهرجان كبير، للاحتفال بذكرى أحد القدّيسين، قد ساعد في مكافحة وباء الكوليرا، منذ ثلاثمائة عام، بعد أن هجر أهل فينيسيا بيوتهم، وركبوا في البحر. ولم يكن ذلك بالأمر الشّائع لديهم، حيث لم يكن الفينيسيون يدركون قدر حاجتهم الفورية إلى خدمات الرّاهب مجددا، وقت بدء انتشار الكوليرا في كلّ مكان. وهكذا تجمّع في مساحة كبيرة، ولنقدّرها بعرض يعادل ثلث ميل، وبطول ميلين، تجمّع ألفا جندول وعلّق في كل، من قنديلين إلى عشرة أو عشرين قنديلا ملوّنا، ومن أربعة ركّاب حتّى دّستة. تجمّعت هذه الأضواء الملّونة حتّى شوهدت من أبعد مكان تصل إليه العين، على هيئة بستان فسيح، من أزهار تحمل كل الألوان، عدا أنّ براعم الزهور هذه لم تثبت في مكان واحد، بل كانت تزحف طواعية على سطح الماء هنا وهناك، تتداخل معا، وتغريك في محاولات مربكة، بأن تتابّع حركتها السّريعة. تصدر من هذا المكان أو ذلك ألوان حمراء وخضراء وزرقاء براقة، من إحدى الألعاب النّارية. تشقّ طريقها بعيدا، لتضيء بقوّة كل ما حولها من قوارب. رفع كل جندول يسبح، بجانبنا أشكالا من أهلّة، وإهرامات ودوائر لقناديل ملوّنة علقت به، فأضاء. تحتها وجوه شباب وحسناوات مؤرّجات بأزكى العطور، كان هذا الجندول في ذاته لوحة، كما إنّ انعكاسات تلك الأضواء، على بعدها، ورشاقتها، ووفرتها، وتعدّد ألوانها، وتموّجها وانحرافها بفعل الموج، كانت بدورها لوحة جميلة آسرة. لدى الكثيرين من شباب وشابات فينيسيا جنادلهم الخاصّة، قد برعوا في تجميلها. يتناولون فيها عشاءهم، ويأتون إليها في حلل السّهرة، (الفراك)، ويجلس فيها الغلمان بأربطة العنق البيضاء، يترقّبون، ويعدّون طاولاتهم وكأنّهم يعدون مأدبة عرس. يأتون معهم بمصابيح كرويّة الشكل غالية الثمن، ربّما أتوا بها من غرف الاستقبال في بيوتهم، وجاءوا بأشرطة الزينة، والسّتائر الحريريّة، من المكان نفسه حسب ظنّي. يجيئون أيضا بآلات البيانو والجيتار، ويعزفون ويغنون الأغاني الأوبرالية، في حين، يحتشد حولهم راكبو الجنادل العامة المضاءة بالمصابيح الورقيّة، والقادمة من الأحياء والأزقة الخلفية، يتفرجون عليهم وينصتون لألحانهم.

تصدح الألحان في الأرجاء، من فرق الغناء والعازفين، ومن الفرق النّحاسيّة، وآلات النّفخ وما سواها. شدت الألحان من كلّ جانب، وطوّقتني بروعتها وجمالها، حتّى بهرني جمال الصّورة وحيويتها، وشدوت بلحن خفيض منفرد. حين لاحظت ابتعاد الجنادل الأخرى عنّا، واستعداد الجندول الذّي نركبه للرسوّ على جانب الطريق، توقفت فورا رغم ذلك عن الغناء.

كان المهرجان رائعا. استمرّ احتفالهم طوال تلك اللّيلة، وما استمتعت قط بأفضل منه حتى أشرف على نهايته.

أيّة مدينة قديمة وعجيبة ملكة الأدرياتيكي هذه! شوارع ضيّقة، وقصور رخاميّة فسيحة معتمة، أكلحتها وأفسدتها كآبة القرون، إذ غمرت المياه قطاعا كبيرا منها، فلا أثر فيها لأرض جافة، أو طرق جانبيّة تستحقّ الذكر، ولو رغبت في الذّهاب إلى كنيسة أو مسرح أو مطعم، فعليك بالسّعي في طلب جندول. حريّ بها أن تكون مدينة للمقعدين، لإنسان لا يستخدم هنا قدميه البتّة.

بدا المكان ليوم أو يومين، شبيها إلى حدّ كبير، بمدينة أمريكيّة مغمورة بالمياه مثل أركنساس، فمياهها الجارية تغمر دون انقطاع عتبات بيوتها، بينما لا تبرح مجموعة القوارب تلك مكانها تحت الشّرفات، أو تنزلق في أزّقتها أو طرقها الجانبية أو خارج المدينة، حتّى إنني لا يغيب عن بالي بأن ما يحرك الساكن هنا مباغتة طوفان مباغت، يليه هبوط مياه النهر بضعة أسابيع، فتظهر عتبات البيوت موحلة برواسبه، وتمتلأ الطرقات بالقمامة.

قيل في نهار فينيسيا المشرق قليل من الشّعر، ولكنها في نور قمر معطاء، ترى قصورها الكالحة قد عادت إلى نصاعتها مجدّدا، وتوارت في الظلال تماثيلها المشوهة، لتبدو المدينة وكأنّها قد أعيد تتويجها، على ما كان لها من مجد منذ خمسمائة عام. يسهل إذن أن يتخيل إنسان، ازدحام هذه القنايات الصّامتة، بالشّباب المتأنّق والشّابات، وكذلك شيلوك بثوبه المخيط وخفافه، وهو يخاطر بإقراض السّفن التّجارية الكبيرة بالمال، تلك التي تمارس العمل في قطاع التّجارة الفينيسيّة، ومعها عطيل وديدمونة، وإياجو ورودريجو، والأسّاطيل الشّهيرة، والجيوش المظفّرة، العائدة من وطيس المعارك. رأينا فينيسيا في ضياء الشّمس الدافقة، موهنة منبوذة معدمة، خلت من أي نشاط تجاري، قد أدركها النسيان وصغر

شانها بالكليّة. ولكن يستحيل في نور القمر أن ينبثق حولها مجدّدا، مجد ألف وأربعمائة عام، كي تعود الأعظم بين أمم الأرض:

« ها هي ذي في البحر، مدينة جليلة،

يغمر مدّ البحر طرقاتها الضّيقة والفسيحة،

ثم ينحسر عنها، وعشب البحر المالح،

يتشبّث بقصورها المرمريّة،

لا أثر لطارق، ولا تطرق بواباتها

خطي عابرة! يقع الطّريق على البحر،

محتجبا، ومن الأرض مضينا،

رأسا إلى المدينة العائمة، منقادين إليها

منزلقين على دروبها، كأنّنا في حلم،

يلفّنا الصّمت والسّكينة، مارين، بقباب عدّة،

شبيهة بالمساجد، وبالعديد من الأروقة الفخمة ذات العمد،

اصطفّت التماثيل عبر الأفق اللازوردي،

ومرورا بحشد كبير، من مقار ملوك التجارة القدامى

يفوق ما يباهي به الشّرق،

ورغم تهدّم واجهات بعضها بمرور الزّمن،

ورغم زوال ثرائها من الدّاخل:

فإنّها لم تزل مؤتلقة بأكثر صور الفنّ ثراء،

فبماذا يبدأ المرء من معالم فينيسيا؟ جسر التنهّدات طبعا، تليه الكنيسة وميدان القدّيس مرقص الكبير، والجياد البرونزيّة، وأسد القدّيس مرقس الشّهير.

أردنا التوجّه إلى جسر التنهّدات، لكنّنا بدأنا بمقر الدّوقية، وهو المبنى الذى استفاضت روايات القدامى وأشعارهم في تجسيده، وكلّت أبصارنا من تمعّن قاعة مجلس الشّيوخ في الجمهورية القديمة، وتمعّن آكرات من اللّوحات التّاريخيّة، للفنانين، تينتوريتو، وبول فيرونيزي، لكنّنا لم نعجب نحن وبقيّة الأجانب، سوى بمربّع فارغ أسود اللّون يقع وسط اللّوحات المعروضة. ظهر في صفّ طويل، ممتدّ بمحيط القاعة، لوحات تصوّر كبار القضاة الفينسيّين، (وقد بدوا بمظهرهم الوقور، ولحاهم البيضاء المرسلة، حيث كان ينتخب واحد لرئاسة المجلس، من بين ثلاثمائة نائب، وكان يختار من بينهم عادة، القاضي الأكبر سنّا)، ألحق بكل من هذه اللّوحات نقش بارز، يطري مآثر صاحب اللّوحة، حتّى وصلنا إلى المكان الّذ. يفترض أن تشغله لوحة مارينو فاليرو، فوجدناه شاغرا ومجللاً بالسّواد، عدا أنّه كان يحمل نقشا بارزا، يذكر أنّ الخائن قد مات بسبب جرمه. بدا من الغبن الاحتفاظ بهذا النقش المجحف، الذى لا يزال حتى هذه اللحظة بارزا على الجدران، بتبجح، بعد أن ثوى البائس المعذّب في قبره بخمسمائة عام.

برز بأعلى محيط السّلم الكبير، ذلك المكان الذّي أطيح فيه برأس مارينو فاليرو، كما إنّه المكان الذّي كان يشهد تتويج كبار القضاة في الأزمنة القديمة، برز شقّان صغيران في الجدار الحجريّ، فتحتان صغيرتان، لا ينتبه إليهما أحد، رغم كونهما يشيران إلى تكشيرة أسدين عن أنيابهما! زال رأسا الأسدين (حطمهما الفرنسيّون إبّان احتلالهم فينيسيا) لكنّ يبدو أن هذه تمثل حلقيهما، بعد أن استقرّت فيهما التّهمة المجهولة، التّي وجّهت له سرّا في جنح الظّلام من قبل خصم، دفع بكثير من الأبرياء إلى السّير على جسر التنهّدات، والهبوط منه إلى السّجن، الذّي لم يدخله أحد ولديه أمل في رؤية الشّمس مجدّدا. حدث هذا في العصور القديمة، إبّان انفراد الكنيسة بحكم فينيسيا. لم يكن لعامّة الشّعب صوت يسمع أو يصرّح به. كان عدد الآباء في الكنيسة يقدّر بألف وخسمائة يختار من بينهم أعضاء مجلس الشّيوخ أي ثلاثمائة عضو، ويختار هؤلاء من بينهم قاض واحد لرئاسة المجلس، وعشرة أعضاء للمجلس الاستشاري، ويختار العشرة بالتّصويت غير المعلن، ثمّ يختار العشرة من بينهم مجلسا استشاريا، مكونا من ثلاثة. كان هؤلاء بعد ذلك يتجسّسون لحساب الحكومة.

وكان كل جاسوس يحظى بدوره، بحماية خاصّة، وقد بدأ الناس في فينيسيا يتهامسون فيما بينهم، ولا يثق أحدهم في جاره، وفي أخيه أيضا. لم يكن أحد يعلم بهويّة أعضاء مجلس الثّلاثة الاستشاريَ، أو حتى بمجلس الشّيوخ، أو بالقاضي الأكبر ذاته، كان أعضاء هيئة المحكمة الرهيبة تلك، يخلون إلى إحدى الغرف ويتناجون بينهم، وهم مقنّعين، يستخفون في معاطف فضفاضة، مرسلة من الرأس إلى القدم، ولا يعرفون حتّى هويّة بعضهم بعضًا، إلاّ بالصوت، وكان يسند إليهم إصدار الأحكام، في الجرائم السّياسيّة المخلة بالشّرف، وليس لأحكامهم استئناف أو نقض. كانت إشارة واحدة إلى الجلاّد تفي بالغرض: فيساق التّعيس إلى إحدى القاعات، ومنها إلى جسر التنهدات المغطّي، ويعبر إلى الزّنزانة ليلقي حتفه من ثمّ. لا قبل لسجين أن برؤية أحد طوال مراحل تنقله تلك غير سجانه. وكان في تلك الأيام، إذا وقع أحد من الناس في خصومة مع آخر، فأنجع ما يفعله للنيل منه، دسّ ورقة موجهة إلى مجلس الثّلاثة، في فم الأسد المكشّر عن أنيابه، مفادها أنّ هذا الرّجل (الخصم) يتآمر ضدّ الحكومة. فإذا لم يعثر أولئك الأشرار على أدلّة ضدّه، فهناك إمكانيّة أخرى للإيقاع به. هي اتهامه بأنه خائن ليئم، ولا قبل لأحد بالتصدّي لألاعيبه التآمريّة. لم يكن القضاة أو الجلاّدون المقنّعون، بما لديهم من سلطات مطلقة في ذلك العصر البغيض، لم يكونوا يميلون إلى استعمال اللين، مع أناس، لا يزالون في الواقع دائرة الاتهام، فيعفوا بذلك من العقاب.

سرنا عبر قاعة مجلس العشرة الاستشاري، ودخلنا مباشرة إلى وكر الثّلاثة اللّعين.

لم تبرح مكانها تلك الطّاولة التي كان يلتفّ أولئك حولها، والأماكن التّي كان يقف عليها في السّابق، أعضاء محكمة التفتيش المقنّعون، كما يقف الجلاّدون، بقامة مشدودة، يلفّهم الوجوم والصّمت، يترقّبون صدور الأوامر، لتنفيذها على الفور، دون أن ينبسوا بكلمة واحدة، وهم في ذلك أشبه بآلات لا تكفّ عن الدّوران. تواءمت الرّسوم الجصّية الظّاهرة على الجدران، وبشاعة المكان. أما أبهاء القصر الأخرى، وأروقته، وحجراته الفسيحة والمعدة للمناسبات، وكذلك الجدران والأسقف، فقد ازدانت كلّها بالأواني الذّهبيّة، وزخرفت بالنّقوش الدّقيقة، وزهت باللّوحات الفنّيّة، التّي تصوّر انتصارات الفينيسيين في المعارك الحربيّة، وصورهم وهم حضور في قاعات قصور خارج فينيسيا، كما سمت بلوحات العذراء، ومخلّص البشرية، وأصحاب القداسة، والمبشّرين بإنجيل السلام على الأرض، ولكن هنا مع المفارقة الرهيبة، خلا المكان إلاّ من صور الموت والعذاب الأليم! وما من وجه

لبشر، إلا رازح تحت عذاب لا ينتهي بغير دم مراق، أو جراح مثخنة، ومشوّهة بآلام جسديّة رهيبة، سلبتها نبض الحياة!

ليس بين القصر المشيد والسّجن المعتم سوى خطوة، يوشك أن يقطعها المرء قفزا، عبر قناة ضيّقة تفصل بينهما. يوصل بينهما جسر التّنهّدات، المقام بالحجارة الضّخمة حتّى الطّابق الثّاني، وهو جسر يمر فوق القناة.. بعد عبوره لن تقع عليك عين بشر! قسّم طوليًا. سار عبر أحد قسميه أولئك الذين تلقّوا أحكاما، في تلك العصور القديمة، وتقدّم عبر الآخر مجللين بالأسى أولئك التّعساء ممّن قدّر لهم أولئك الثّلاثة، البقاء في البؤس، والتماس العفو سفها في الزنازين، أو مواجهة المجهول والموت المباغت. مروا بنا بمكان أسفل سطح المياه، على ضوء المشاعل، إلى زنازين رطبة سميكة، أزهقت فيها أرواح كثيرين من آباء الكنيسة العظام، لطول ما عانوا من بؤس وعزلة، دون ضوء أو هواء نقيّ أو كتب، عراة الأجساد، لا يصففّون شعورهم أو يحلقونها، وتغشى الهوام أجسادهم، منهم من تعطّل لسانه لطول صمته، حيث لا يبادله أحد الحديث، وما عاد يحسب ما مضى من أيامه ولياليه، بل صارت حياته كلّها ليلة واحدة لا تنتهي، وبعد أن نأى عنه صوت يبعث في النفس الأمل، حيث توارى في صمت مقبر، وما عاد مذكورا من قبل أصدقاء لم يكن لهم حيلة في أمره، فصار قدره سرّا مجهولا إلى الأبد، ليفقد ذاكرته في النّهاية، ويجهل سبب وكيفية مجيئه إلى هذا المكان، ملتهما رغيف الخبز، ومتجرع المياه التي تدفع بها إليه أيد خفيّة، ولم تعد تعبأ نفسه المنهكة بآمال ومخاوف وشكوك، وتعلّق بأمل في الحريّة، فكف عن نبش استغاثاته ومناشداته على الجدران، والتي لن تفع عليها عين أحد، ويسلم نفسه بعد ذلك إلى حالة من اللاّمبالاة لا يبرأ منها، وإلى بله صبياني، وجنون. لو قدّر لتلك الجدران المصمتة، النّطق، لروت الكثير والكثير، من هذه القصص المأساويّة.

تفرّجنا في أحد الدّهاليز الضّيقة القصيرة، والقريبة من المكان نفسه، على كيفية إحضار السجين، بعد بقائه في الزنازين حتى ينساه الجميع إلاّ مضطهدوه، من قبل جلاّديه المقنّعين فيخنق، أو يوضع في أجولة محاكة، وينقل عبر نافذة صغيرة إلى أحد القوارب، في ليلة ظلماء، ويأخذ إلى مكان بعيد، حيث يلقى به في المياه.

اعتادوا هنا عرض أجهزة التّعذيب أمام الزّوار. تلك كان يستخدمها الأعضاء الثّلاثة في إجبار المتّهم على النّطق بالأسرار. وهي أدوات مقزّزة. تسحق بها الأطراف، وأخرى يثبّت فيها المتّهم، دون حراك، خلال تقاطر الماء فوق رأسه نقطة بعد أخرى، حتّى يصل التّعذيب إلى ما لا يتحمّله بشر. وهناك أداة ميكانيكيّة رهيبة، تطوّق فيها رأس السّجين كمحارة، ويضغط عليها بطريقة لولبيّة، وقد حملت هذه الآلة آثار ما أريق من دماء على أطرافها، منذ زمن طويل. وفي طرف منها بروز. كان يضع الجلاّد مرفقه فوقه ويميل أذنه ليسمع أنّات المتّهم في داخلها.

ذهبنا بعد ذلك طبعا، لزيارة أثر فينيسا الدّيني الجليل، الذّي شاهت أرضيّاته وتهدمت بفعل خطى الزوار من عامّة الناس، والآباء الدينيين على مدار ألف سنة مضت. هذا الأثر العظيم هو كاتدرائيّة القدّيس مرقس. أقيمت كلّها بنوع نادر من الرخام، وارد من بلاد الشّرق، ولا شيء فيها من خامات محليّة. تجعل الرّوايات الديّنية القديمة من المدينة مثار جذب أكثر السّائحين لا مبالاة، وهذا وقد جذبتني لهذا السبب وليس سواه. لا أستطيع أن أبدي إشادة بأعمال الفسيفساء الرديء فيها، وبمعمارها البيزنطي المنفّر. أو بأعمدتها الخمسمائة غريبة الشكل، والتّي جيء بها من محتجرات نائية. فقد أصاب البلى كلّ ما تضمه الكنيسة، بعد أن تآكلت فيها كلّ قوالب الحجارة، وشاهت من أيدي وأكتاف المتنطعين، الذّين تخلّفوا للعبادة في المكان لقرون مضت، ورحلوا إلى حيث ألقت، كلاّ، بل أقصد رحيلهم فحسب.

ترقد تحت المذبح رفات القدّيس مرقس، ومتّى، ولوقا ويوحنّا أيضا، ذلك كلّ ما عرفته. تعظّم فينيسيا من شأن تلك الآثار الدّينية، على ما عداها من آثار على وجه البسيطة.

ظلّ مرقس، قديسها الشّفيع على مدار ألف وأربعمائة عام. ويبدو أنّ كل ما في المدينة قد لقب بهذا الاسم، للإشارة إليه بطريقة أو بأخرى. أولقب نفسه به صاحب صفقة، يسعى إلى التماس شيء من وقار بالطنطنة باسمه. يبدو لي الأمر على هذا النّحو، فالصّلة الطيبة بالقدّيس مرقس، تأتي على رأس مطامح الفينيسيّين. يقولون إنّ القدّيس مرقس، كان له أسد أليف، اعتاد أن يصحبه معه أينما حلّ، وكان ذلك ضروريا في أيّ مكان يذهب إليه. كان حام له، وصديقا وأمين مكتبة. وهكذا كان أسد القديس مرقس المجنح، وبين براثنه إنجيل مفتوح، هو الرمز المحتفى به في المدينة القديمة الكبرى. يلقي الأسد بظلّه من العمود الأقدم

في فينيسيا، في ميدان القدّيس مرقس الكبير، يلقي بظله على جموع المواطنين الأحرار. تحته، وهكذا ظلّ لقرون عدّة. ينتشر الأسد المجنّح عبر أرجاء المدينة، فحيثما وجد الأسد فلا نذير بسوء.

قضى القدّيس مرقس نحبه في مدينة الإسكندريّة المصريّة. وقد استشهد هناك، مع أن هذا لا صلة له بما أعرفه في الأسطورة القديمة. حلم راهب، إبّان إقامة مدينة فينيسيا، ولنقل نحو سنة أربعمائة وخمسين ميلادية، (ذلك أنّ فينيسيا أصغر عمرا من أيّة مدينة إيطاليّة أخرى)، حلم الراهب بملاك يخبره، بأنه حتّى يكون لفينيسيا شأن بين الأمم، فلا بدّ من عودة رفاة القدّيس مرقس إليها، ولا بدّ من الاستيلاء على الجثمان، وإحضاره إلى المدينة، وإقامة مدينة عظيمة فوقه، ولو سمح الفينيسيون بنقل جثمانه من مقامه الجديد، فستمحى فينيسيا من فوق الأرض. أفشى الرّاهب حلمه، فتأهّبت فينيسيا منذ ذلك الوقت، للاستيلاء على جثمان القدّيس مرقس. سعت بحملة تلو أخرى، وفشلت. وظلّت لأربعمائة عام لا تتراجع عن هدفها، لكن الهدف قد تحقق بخدعة بارعة، في العام ثمانمائة الميلادي، أو يزيد قليلا. تنكّر قائد حملة فينيسيّ وغيّر من صورته، ثم سرق العظام، وقام بتفريقها عن بعضها بعضا، وحزمها في قوارب معبّأة بشحوم الخنزير، التّي تستخدم في الطهو. تنصّ عقيدة محمّد على تحريم وكراهة كلّ ما يمت للحم الخنزير بصلة، لذلك فإنّه بمجرد أن وقف هذا المسيحيّ أمام الضّباط عند بوّابات المدينة، ألقوا على السّلال النفيسة نظرة عابرة ثم أشاحوا بأنوفهم بعيدا عن الشّحم المحرّم، وتركوه يمضي لحال سبيله. تمّ إحراق العظام في سراديب الكاتدرائيّة الكبيرة، وحدث ذلك بعد طول ترقّب لنقل العظام دام أعواما كثيرة، وبهذا تكون فينيسيا قد احتفظت، بما لها من شأن ومكانة. وهناك في فينيسيا حتّى وقتنا هذا، من يعتقد بأنّه إذا لم يتمّ الإستيلاء على الجثمان وإحضاره، لزالت فينيسيا من الوجود كالحلم، وتوارت منشآتها إلى أبد الآبدين في بحر النّسيان.

الفصل الثّالث والعشـرون

يشبه جندول فينسيا، من حيث الرشاقة والانطلاق وحركة انزلاقه، الأفعي. يبلغ طوله عشرين أو ثلاثين قدما، ويشبه الكنو (زورق طويل) من حيث الضيق والعمق، ويشبه في انعطاف مقدمه وزحف مؤخره إلى أعلى سطح المياه، رأسي هلال مع اعتدال سرعة انعطافه بعض الشيء.

زيّنت مقدّمته بمشط معدني، ألحق ببلطة محذرة القوارب العابرة، بشقها إلى نصفين، لو دعي الدّاعي، لكنّ ذلك لا يحدث البتّة. يطلي الجندول باللّون الأسود، لأنّ الجنادل في عصر فينيسيا الزاهر، كانت تتمتع كلّها بدرجة كبيرة من الجمال، فأصدر مجلس شيوخها قرارا، بالكفّ عن ذلك التبذّل، وأن تستبدل ألوانها بالأسود القاتم الوقور. ولو تبينت الحقيقة، لوضح ولا شك أن الأغنياء، قد ازدادوا تعاطفا مع أسلوب إبداء الآباء الدينيين فرض هيمنتهم على القناة الكبري (فينيسيا)، وتطلّب الأمر بعض الزّجر. إنّ توقير الماضي وما يحاط به قداسة ووقار، وتقاليد يدأبون الآن على العمل بأسلوبها المتخلّف، حيث لم يعد هناك لم تعد تتمتع بقوة الإلزام. فلتبق الوضع كما هو. فذلك لون الحداد. وفينيسيا في حالة حداد. مؤخر القارب مجهّز هناك والجنادلي واقف فوقه. يستخدم مجدافا واحدا براحة يد طويلة، كي يبلغ في وقفته تلك ما يقارب وضع الثبات. للجندول وتد خشبيّ ارتفاعه قدم ونصف القدم، وله شقّان صغيران أو قوسان في أحد جنبيه، وشقّ في الجانب الآخر، يبرز من الحافّة العليا على ميمنته. حين يسحب الجنادلي المجداف أمام الوتد الخشبيّ، ويحوله مجدافه على فترات إلى الجانب الآخر من الوتد، أو يضعه بأحد الشّقوق، ويحدث ذلك بحسب اتّجاه القارب، ولكن قد استعصى كثيرا على فهمي طوال الوقت، التوصل إلى كيفية رجوعه إلى الخلف لو استدعى الأمر، وانطلاقه إلى الأمام، وميله بغتة على منعطف يقابله على الطريق، ثمّ كيفية تثبيته المجداف في ذلك الحيّز الضئيل. إنّني أخشى أن يجاوز اهتمامي بمهارة الجنادلي العجيب، تمعّني تلك القصور القديمة التي نمرّ بها. فها هو الجندول يدور من وقت

لآخر بمنعطف ضيّق، ويتفادى الارتطام بجندول آخر في مسافة ضئيلة، لا تكاد تذكر، حتّى جعلني أشعر في داخلي بانسحاق، كما يردّد الأطفال، وكما يحدث لإنسان يمس مرفقه عجلة من عربة تجرّها الجياد مسًا رقيقا. لكنّ الجنادلي يضع كلّ هذه الأمور في حسبانه بحرص بالغ، ويمضي رائحا غاديا كالسّهم، وسط فوضى من القوارب المزاحمة له على الطريق، بثقة قائد محنّك لإحدى وسائل النقل.

إنّه لا يرتكب خطأ واحدًا.

لم نحظ بغير نظرات عجلى إلى أبواب البيوت الخارجية، ونحن نقطع القنوات الكبرى طفوا سريعا أحيانا، وتظاهرنا مجددا في الأزّقة المهجورة داخل الضّواحي، بوقار رافق صّمتا، وساير بدوره عطن المياه وأسنها، ودبق العشب، وبيوت خالية، وخلود عام في المكان إلى حالة من الموات، لننقلب إلى حالة من التأمّل الوقور.

يظهر الجنادلي على هيئة وغد مليح، حيث لا يكتسي بطاقم من السّاتان، أو يعتمر قبّعة مريّشة، أو كساء ضيّق من سندس. تراه ممشوق القامة، رشيق الحركه مع المرونة، وكل ما يصدر عنه ينمّ عن خفّة في الحركة. حين يعلو كلّ قاربه الطّويل، وبنيته السّليمة من مكانهما المرتفع في مؤخرّة الجندول، يتجهان بسرعة نحو سماء الغروب، ويصنعان لوحة تحمل في عين السّائح فرادة. جاذّبية.

جلسنا في قمرة، مجهّزة بحجم صندوق عربة النقل، ومزوّدة بستائر مسدلة، قمنا في داخلها بالقراءة وتدخين التّبغ، والنّظر إلى القوارب المارّة بنا خارج القمرة، وإلى البيوت والجسور، والنّاس، وكان استمتاعنا بتلك اللّحظة، يفوق جلوسنا في عربة في بلادنا، تنخعنا فوق بلاطات حجريّة مبدورة بالحصى. وهذه هي أرق وأروع وسيلة انتقال عرفناها في حياتنا.

ولكن يبدو غريبا، بل بالغ الغرابة، أن نرى قاربا يؤدي الدور نفسه المنوط بعربة تجرها الجياد. رأينا رجال أعمال يعبرون مداخل البيوت ويستقلّون الجنادل، بدلا من العربة، ويذهبون به إلى المدينة لعقد الصّفقات.

نرى الشّابات يقفن على الرّواق. ويتضاحكن ويودعن بعضهن بالقبلات. ويحرّكن مراوحهن، ويبادرن بعضهن بقول: أراك قريبا، وكنّا في شوق إليك يفوق تصوّرك. تموت أمي شوقا لرؤياك، بعد انتقالنا إلى البيت الجديد، ويا له من بيت. إنّه متاخم لمكتب البريد والكنيسة، وجمعيّة الشّبان المسيحييّن. نحن نمارس الصّيد، وأنشطة أخرى، ونجري مسابقات في السّباحة، لا بد من زيارتنا فالمسافة ليست بعيدة مطلقا، ولو مررت بكاتدرائيّة القديس مرقس. ثم عبرت جسر التنهّدات، وجئت إلى الزّقاق، واقتربت من كنيسة سانتا ماريّا، للراهبات، وقطعت القناة الكبرى، فلن يكون أمامك ثمّة مجرى مائي، زورينا إذن يا سالي ماريّا، وداعا!» يعقب ذلك أن تقطع قليلا من الخطى الرّشيقة على الدرج، وتقفز إلى الجندول ثمّ تهمس لنفسها قائلة: «لا مرحبا بك، يا سقط المتاع. آمل ألاّ تفعلي». وتخف مسرعة، حول المنعطف، فتوصد الأخرى باب البيت الخارجيّ، وتقول. ها قد زال الوباء، لكنّي أظنّ أنّه حري بي. زيارة هذه المغرورة المملّة!». لا يختلف البشر في طباعهم في شيء، وفي أيّ مكان في العالم. نري شابّا حيّيا نابها، مهذّب الشّارب، غزير الشّعر، حسن الملبس، يهرع إلى بيت أبيها، فيطلب من الجنادليّ. انتظاره بجوار سور البيت، ثم يصعد الدّرج في توجس، ويقابل السيّد ربّ الأسرة، على عتبة الباب الداخلي وجها لوجه! يصغي إليه وهو يسأل عن اسم الشّارع الواقع فيه، البنك البريطانيّ الجديد، وكأنّ ذلك مقصده من القدوم. ثم يثب بعد إلى قاربه وينطلق به، وقلبه الرّعديد في حذائه! تراه من ثمّ مختلسا النّظر حول المنعطف مجدّدا. من خلال فرجة في الستارة تكشف مباشرة، جندول السيّد ربّ الأسرة، وقد غاب عن الأنظار، فتهرع حبيبته سوزان إليه من بيتها. وعبارات الحبّ على شفتيها. وتنطلق معه عبر دروب المياه باتّجاه الرّيالتو.

نري السيّدات وقد توجّهن إلى الأسواق بصورتهن المألوفة. يتنقلن سريعا من شارع لشارع، ومن حانوت لآخر. بالصورة التّقليديّة القديمة نفسها. باستثناء أنّهن يغادرن الجندول وليس العربة الخاصّة، ذلك الذّي وقف لساعتين يترقبهن. عند صف من الحجارة قائما على الطّريق. يترقبهن حيث طلبن من شباب الباعة المهذّبين، جرّ أطنان وأطنان من الحرير، والمخمل اللامع قديم الطراز، وأشياء أخرى من هذا القبيل. ويشترين من ثمّ لفافة من الدّبابيس، وينطلقن بالجندول إلى مكان آخر. لبحث بقيّة طلباتهن الكارثية. في متجر آخر. يرسلن دوما بمشترواتهن، إلى البيوت. بالأسلوب القديم الشّيق نفسه. تتفق طباع

البشر في أشياء كثيرة. في ذلك شبه كبير بما يحدث في وطننا العزيز. حين ترى فينيسيّة تدخل متجرا وتشتري شريطا أزرق بما قيمته عشرة سنتات، وترسله إلى البيت في صندل. أجل، فهذه سمات عابرة من طباع البشر، تدفع المرء إلى البكاء، في هذه البلاد الغريبة النائية.

نرى الصّبية الصغار والفتيات، يخرجون للنّزهة في الجندول، وبصحبتهم مربّياتهم. ونري أسرا محافظة، تصطحب معها الكتب الدّينية والمسابح، يدخلون إلى الجندول وقد تحلّوا بأفضل الثياب في أيّام الأحد، ويبحرون به إلى الكنيسة. ونرى عند منتصف اللّيل، المسرح وهو يغلق أبوابه ويدفع بروّاده من الشّباب المرح، والشّابات الحسناوات، ونصغي إلى هتافات الجنادليّة، ونجد الجميع يجدون صعوبة في مغادرة الجندول، ثم نرى حشدا من القوارب السّوداء تتحرك بين دروب مقمرة قد توزعت في الأنحاء، واختفت في الطرقات الفرعية، ثمّ نسمع ضحكات مكتومة وهتافات وداع، تفد محلقة من بعيد، ونبقى نحن بعد رحيل الرّكب، بمفردنا في قضاء فسيح من المياه الرّقراقة، والأبنية الشاهقة، والظّلال القاتمة، والوجوه المتحجّرة الغريبة، منسلّة في ضوء القمر، والجسور العتيقة، والقوارب الرّاسية على الطريق. يخيّم فوق ذلك كلّه سكون خفّي، وطمأنينة، يتلائما تماما وهذه الفينيسيا الحالمة العجوز.

ظهرنا في كلّ مكان زرناه بالجندول بالمظهر اللائق، واشترينا من المتاجر سبحا وصورا فوتوغرافيّة، وثقابا شمعية من ميدان القدّيس مرقس الكبير. توحي الملحوظة الأخيرة إليّ باستطراد في هذا الأمر، فكلّ امرئ يقصد هذا الميدان في المساء، حيث تؤدّى الفرق العسكرية الألحان في الوسط، ويتنزّه فيه من الرفاق ما يعزّ على الحصر من سادة وسيّدات، وتعرّج جماعات منهم على الكاتدرائيّة القديمة، وتحت العمود الشّامخ، المنصّب على قمّته أسد القدّيس مرقس المجنّح، ثم يتوجهون إلى حيث ترسو القوارب، بينما لا ينقطع وصول جماعات صغيرة أخرى، تفرغهم الجنادل، لينضموا إلى الحشد الكبير. يجلس وسط المتنزّهين وعابري الطرق، المئات والمئات من البشر إلى طاولات صغيرة، يدخّنون التّبغ، أو يتناولون الجرانيتا (بنت عمّ الآبس كريم اللّصق)، وآخرون يجلسون على الطرق الفرعيّة، يتأهّبون لما كان يفعله الآخرون. أضيئت حوانيت بالطّابق الأول تقع على صفّ طويل من الأبنية المحيطة بالميدان الكبير من جوانبه الثلاثة، بإضاءة قوية، وضج الجوّ بالألحان، وأصوات المرح، وصّور ذلك كلّه، في أصفى وأجمل وأبهج، لوحة يتمنى رؤيتها

إنسان. استمتعنا بكلّ تفاصيلها، بدت شابّات كثيرات على قدر كبير من الملاحة والتأنّق وحسن الذّوق. نتعلم بالتّدريج الخروج على الآداب العامّة بإلحاحنا على تفرّس وجوههنّ، دون أن يغمض لنا رمش.

لم يكن ذلك عن مسلك اعتدناه، وإنما هي عادة أهل البلدة، ويذكر البعض أنّ الفتيات يحببن ذلك. ونحن بدورنا نرغب في الاطّلاع على كلّ شاذّ وغريب، نراه في مختلف الأقطار، كي نبهر به وندهش أهلينا في الوطن لدي عودتنا. كنّا نرغب في إثارة حفيظة أصدقاء لنا، ليس لهم دربة بأساليبنا الأجنبية الغريبة، التّي يصعب أن نتخلص منها. لفت كثيرا ما تناولته للتو، انتباه ركّابنا لا يعرف القارئ المهذب كيف صار مغفلا من طراز فريد، حتى يسافر إلى الخارج. أتحدّث الآن بالطبع بفرض، أنّ القارئ المهذّب لم يسبق له السفر خارج البلاد، وهو بالتّالي ليس بالفعل مغفلا من طراز فريد. أما إذا كان الأمر على النقيض، فإنّني ألتمس منه العذر وأشد على يده بحرارة على زمالته إيّاي، وأعتبره أخا. وسأنشرح دوما، بلقاء مغفّل حين أفرغ من أسفاري.

دعني في هذا السّياق أشير إلى أحوال الأمريكيين في إيطاليا، ممن نسوا بالفعل لغتهم الأمّ في ثلاثة شهور، ونسوها أيضا في فرنسا. فقد عجزوا بالفعل عن كتابة عناوينهم بالإنجليزيّة، في سجلّ الفندق.

أقدّم ما يؤكّد ذلك، بعد أن نسخته حرفيّا بالفرنسية، من سجلّ أحد الفنادق بمدينة إيطاليّة:

جون.ب. هوايتكومب	إتاتس يونيس
وم.ل. إينسوورث،	ترافيللير (أظنه يعني رحّالا. إتاتس يونيس
جورج ب.مورتون	إت فيل آميريكيو
تويد.ب. ويليامز	إت تروا آمي فيل دي بوسطن آميريكيو
جي إلسوورث بيكر	تيت دي سوت دي فرانس بلاس دي نيسانس.
	آميريكيو ديستنسيون لاجراند بريتان

إنني أهيم بهؤلاء البشر تروي إحدى السيّدات من ركّاب السفينة عن مواطن من بني جلدتها، قضى في باريس ثمانية أسابيع، ثمّ عاد إلى وطنه، فخاطب صديق مقرّب له واسمه هيربرت، خاطبه بـ «إيربير» واعتذر له رغم ذلك قائلا: «بون يا روحي، لهذا الإزعاج. فليس لي حيلة في الأمر، لأنني يا عزيزي قد اعتد. نّطق الفرنسيّة، حتّى إنني لا أستطيع (بلكنة فرنسية) بالفعل التخّلص منها، وأؤكّد لك أنّ هذا يقلقني». لقد رضي هذا الأبله المهرّج واسمه جوردون على نفسه، أن يتلقي التحيّة في الشارع ثلاث مرات، دون أن يعبأ بردّها، ثم يقدّم بعد ذلك ألف إعتذار، بأنّه ازداد تعوّدا بأن ينادي بـ« مسيو جور رر دونج. مع قائمة مسهبة لحرف الرّاء، لقد نسي اسمه الصّحيح بالفعل! وضع وردة في عروة سترته، وقدّم التحية الفرنسية وأصدر طرقعتين من يده أمام وجهه، ونطق باريس في محادثاته العاديّة بيرري حمل أغلفة الرّسائل وعليها طوابع بريد دول اجنبية، مبرزا إيّاها من جيب قميصه، وقد هذّب شاربا ولحية رفيعة، وفعل من الأشياء ما يوحي لخياله الأثير والمدين له بالفضل، بأنّه شبيه بلويس نابليون، وأنّه يشكر بروح الامتنان دون موجب. تلك المنشأة البسيطة التي كانت وراء هذا العمل الكبير، وشكر من أشرف على هندامه، لتركه على حالته الأولى، ثم مضى مستمتعا بحياته القصيرة، بالوتيرة نفسها وكأنّه قد سوّي هكذا وأحسنت صورته، بيد خالق الكون العظيم.

تخيل أيّها القارئ العزيز، مواطنينا من آل هوايتكامب، وإنسوورث، ووليامز، وهم يسجّلون أسماءهم بفرنسيّة ركيكة، في سجلاّت فندق في بلد أجنبيّ! إنّنا نسخر من الإنجليز لتمسّكهم الشّديد بأساليب حياتهم، وتقاليدهم الوطنيّة، لكننا ننظر إليهم أيضا بعين التسّامح الجم، ونحن خارج الوطن، ومن الأمور الفجّة، أن ترى أمريكيًا، يفرض هويّته الوطنية عنوة في بلد أجنبيّ، ويثير الأسى، أن تراه، وقد جعل من نفسه شيئا باهتا بلا ملامح تحدد ذكرا كان أو أنثى، سمكا كان أو لحما أو طيرا، وذلك حال المتفرنس البائس المخنث التّعيس!

سأذكر موقعا فحسب من بين قائمة الكنائس والمتاحف، وأشياء مماثلة، زرناها في فينيسيا، إنّه لكنيسة سانتا ماريا دي فريري (كنيسة القدّيسة مريم للراهبات). عمرها بحسب اعتقادي، خمسمائة عام، وهي مقامة على ألف ومائتي دعامة. يرقد فيها جثمان كانوفا، وقلب تايتيان، تحت نصب تذكارية فخمة. توفي تايتيان عن عمر يناهز المائة عام.

وكان الطّاعون الذى قضى على خمسين ألف نفس، يجتاح البلدة في تلك الفترة. يؤكد ما كان يحظى به هذا الفنّان من تقدير، أن سمحت الحكومة بإقامة جنازة شعبيّة له وحده فحسب، في تلك الفترة الحافلة بالرّعب والموت.

يوجد أيضا في تلك الكنيسة، نصب تذكاريّ، لكبير القضاة فوسكاري، ذلك الذّي تردّد اسمه كثيرا، في شعر لورد بايرون.

ويعدّ من التّحف النّادرة في هذه الكنيسة، نصب القاضي جيوفاني، من حيث أسلوب الزخرفة الخاصّ بالقبور. يبلغ ارتفاع النّصب، ثمانون قدما، وله واجهة تشبه الهياكل الوثنية العجيبة. يقف أمامه أربعة من النّوبيّين (تماثيل. سوادهم كاللّيل، اكتسوا بألبسة رخاميّة بيضاء، وحفت أقدامهم السّوداء، وظهرت من خلال مزق في الأكمام والبناطيل، بشرة سوداء مرمرية لامعة. اتّسم الفنّان هنا بالغباء كما اتسمت لوحاته الجنائزيّة بالقماءة. يوجد اثنان من الهياكل العظميّة من البرونز، يحملان لوحات مكتوبة. وتنّينان هائلان، يشيران إلى أكلة لحوم البشر. وربض فوق كلّ هذه المتنافرات كبير قضاة فينيسيا الرّاحل.

تضمّ مقارّ الرّهبان الملحقة بهذه الكنيسة أرشيف فينيسيا الحكومي. لم نلق نظرة عليها، لكنّ قيل إنّها تضمّ ما يقدّر بملايين الوثائق الرّسميّة. «إنّها سّجلات قرون لأكثر حكومة عرفها التّاريخ، يقظة وانتباها ونزوعا، وقد سجّل فيها كلّ ما لم يكن يصرّح به في العلن»، تكاد تملأ ثلاث غرف. من بينها مخطوطات لما يقارب ألفي أسرة، وراهب ودير. يوجد في هذا المكان تاريخ فينيسيا السّريّ لألف عام، بما يحوي من مآمرات، ومحاكمات سريّة، واغتيالات، ومهام كلف بها جواسيس مأجورين، وقتلة تحت الأقنعة، غذاء معدّا لعالم الظلام، والقصص التّاريخيّة الغامضة.

أظنّنا قد شاهدنا فينيسيا كلّها. شاهدنا في هذه الكنائس القديمة، عددا كبيرا من الزّخارف الدّينية المقدّسة المتقنة والنّفيسة، بما لم نكن نحلم برؤيته من قبل. وقفنا في الضوء الورع الخافت، المحيط بهذه المقدّسات القديمة، ووسط صفوف طويلة من الآثار القديمة والتّماثيل المتبقية من مجد فينيسيا الغارب. وتبيّن لنا أنّنا نعود بذلك إلى ماض جليل، ونطالع المشاهد ونخالط أناسا، من زّمن قديم. لا أعرف غير هذه وسيلة يمكن استخدامها

للتعبير عن تلك المشاعر. ظلّ جزء منّا باق في القرن التّاسع عشر، بينما بدا الآخر، وبصورة غامضة يمضي بين أشباح القرن العاشر.

شاهدنا اللّوحات الشّهيرة حتّى كلّت أبصارنا من كثرتها. ما أفقدنا جاذبيتها. وما أعجب أن تضم فينيسيا ألف ومائتي لوحة من أعمال بالما الأصغر، وألف وخمسمائة من أعمال تينتوريتو! وتأمّل وجود أعمال تايتيان وفنانين آخرين بالقدر نفسه. رأينا لوحة تايتيان الشّهيرة قابيل (قايين) وهابيل، وداود وجولياه، وقربان إبراهيم. ورأينا لوحة تنتوريتو المسّماة بالمسخ، والتي يبلغ طولها خمسة وسبعين قدما. ولا أعرف قدرا لارتفاعها، وقد ظننتها جدّ عريضة.

شاهدنا ما يكفي وزيادة من لوحات الشّهداء، والقديسين. وما يعيد تخليق عالم بأسره. ولا يفترض مني الإقرار بذلك، لكنني أصرّ عليه، في وقت لا تتاح فرصا في أمريكا للإلمام بآراء نقدية في الفنون، حيث أعجز تماما عن تطلع إلى الإلمام بها في أوروبا في بضعة أسابيع عابرة، رغم قدرتي على تحصيل بعضها بالقدر الذى يسمح به الوقت، وتوضح لي مشاهدتي أحد هؤلاء الشّهداء، وكأنني رأيتهم جميعا. إنّهم من أسرة يشبه كل فرد فيها الآخر. فلباسهم سواء، يشمل ذلك مسوح الرّهبان الخشنة وخفافهم، ورءوسهم الصّلعاء، وطريقة الوقوف، والكل دون استثناء، يتطلعون إلى السّماء بوجوه، يخبرني آل إينسوورث، وآل مورتون وآل وليامز(*)، وأحفادهم بأنّها لوحات حافلة بالتعبير. إننّي لا أرى أثرا ماديًا ملموسا في هذه اللّوحات المتخيّلة، يجعلني قادرا على التحقق منه كي أراه نابضا بالحياة. ولو أن تايتيان العظيم، قد وهب النبوءة فحسب، وتجاوز شهيدا، ومضى ذاهبا إلى إنجلترا وصوّر لوحة لشيكسبير، ولو في صورة شاب، ننحوها الآن جميعا بالثقة فإنّ العالم من أوّله حتّى آخر جيل فيه، سيغفر له الشّهيد الضائع في العراف المنقذ. أعتقد. أنّ الأجيال القادمة ستصفح عن شهيد واحد آخر، من أجل لوحة تاريخية عظيمة تمثّل عصر تايتيان، الذى صوره بريشته، كتلك اللوحة التي تصوّر كولومبوس في أثناء عودته مكبّلا بالأغلال، بعد اكتشافه عالما مثلا. لقد صوّر الرّواد القدامى بعض اللّوحات الفينيسيّة، لن نملّ النّظر

(*) عائلات أمريكية عريقة.

إليها، مع أنها تصوّر كبار قضاة فينيسيا الرّاحلين وهم يقدمون أنفسهم تقديما رسميا للعذراء مريم، في بقاع خلف السّحب، تتعارض كما بدا لنا بأسلوب فجّ مع دواعي الحشمة واللّياقة.

ولكن ليس لأناس ممن على شاكلتنا من الغفل والتبسط في المسائل الفنّيّة، أن تضيع بحوثهم بين الشّهداء والرهبان المصورين سدى. حيث بذلنا جهدا كبيرا كي نتعلم، وحقّقنا بعض النّجاح، وبرعنا في بعض أشياء، قد تبدو تافهة في نظر الخبير، لكنّها بعثت فينا شعورا بالرضا، وشعرنا بما يشعر به آخرون على قلّته قد سبقونا إلماما بها وعلما، وأننّا نودّ أيضا لو أتيح لنا نشرها للعلن. فنحن حين نرى راهبا يتجّول بصحبة أسد وينظر في ورع إلى السّماء، نعرف على الفور أنّه القدّيس مرقس.وحين نرى راهبا، ومعه كتاب وريشة، ينظر بورع نحو السّماء، ويحاول التّفكّر في كلمة، نعرف أنّه القدّيس متّى.

وحين نرى راهبا جالسا فوق صخرة، يتأمّل السّماء بورع، وبجواره جمجمة إنسان، وليس معه أمتعة، نعرف أنّه القدّيس يرومي، لأننا نعرف أنّه يرتحل في خفّة كحقيبة سفر. ولو رأينا من ينظر إلى السّماء، في تقى، غير آبه بما أصاب جسده من سهام، نعرف أنّه القدّيس سباستيان. وحين نري رهبانا، آخرين يتطلعون إلى السّماء في تقى، لا تميّزهم علامة، لا يقطع سؤالنا عن هويّتهم. نفعل ذلك دوما، لأننا نتواضع رغبة في التعلم. لقد رأينا من القديس جيرومي، ألف وخمسمائة، ومن القدّيس مرقس ألفين ومائتين، ومن القديس متّى ألف وستمائة، ومن القديس سباستيان ستّين ألفا. ومن القديسين المعترف بهم، ممن لاتحددهم علامات، أربعة ملايين، وإننا نشعر بحماسة لدى اعتقادنا أنّه بمجرد رؤيتنا المزيد من هذه اللّوحات الكثيرة، واكتسابنا خبرة أكبر، سيبدأ في الإحساس بأهميّتها كلّ متنوّر من بني جلدتنا قادم من أمريكا.

إنّ ما يسبّب لي الآن الشّعور بألم حقيقيّ، التحدّث بذلك الأسلوب الذّي يشي بإغفال ما للرّوّاد القدامى وللشهداء منهم من مكانة، لأنّ رفقة السفينة الطيبين، يجلونهم كليّة وبوازع من ضمائرهم، لأنّهم قادرون بطريقة أو بأخرى على التمييز بين الجيّد والرديّ، وقد نصحوني حرصا ولمصلحتي الخاصّة، بألاّ أصرح لأحد بحقيقة افتقاري إلى ملكة تقييم الأعمال وإلى الحسّ النّقدي، إنّني أؤمن بأنّ ما أكتبه، وما أنا بسبيلي إلى كتابته، سيثير حفيظتهم، وإنّني جدّ حزين لهذا، لدرجة أنّني قطعت على نفسي وعدا بأن أخفي رعناء

مشاعري في صدري. ولكن وا أسفاه! لإنني لن أستطيع البتّة أنّ أبرّ بما وعدت به. إننّي لا ألوم نفسي على هذا الفشل، لأن الخطأ يكمن بالضّرورة في تركيبتي العضويّة. ويرجّح أنّ ذلك القدر الهائل من الفراغ لديّ، قد منح لأحد أعضائي حرية الحركة التي تمكنّني من قطع الوعود، وأنّ العضو الذّي سيمكنني بالضّرورة من تنفيذها كان يشغل حيزا ضيقا من ذلك الفراغ. لكنّني لا أيأس من ذلك، فأنا لا أحب في الأشياء البين بين. كما أنني أتمتّع بملكة نبوغ واحدة تفضل اثنتين تتمتعان بقدرات عادية. ومن المؤكّد أنّني عمدت إلى صيانة ذلك الوعد، لكننّني أرى أني لا أستطيع البرّ به. يستحيل أن ترحل عبر إيطاليا دون أن تتحدث عن اللّوحات، فهل أستطيع رؤيتها بعيون آخرين.

إنني إذا لم أقدّر اللّوحات العظيمة المنتشرة أمامي في حياتي المعيشة حق قدرها، وأقدر مملكة الرّواد القدامى جميعا الكبري الطّبيعة، فيجب عليّ أن أخلص إلى اعتقاد بأنّني لا أحمل في داخلى تقديرا لعظم شأن الجمال أيًا كان نوعه.

يخال إليّ بأنّني حينما أباهي باعتقادي بأنّني ولمرّة واحدة قد اكتشفت لوحة قديمة تحمل سمة الجمال وتستحق إطراءها من كلّ الوجوه، فإنّ ما تقدمه لي من متعة لدليل قاطع على أنّها ليست باللوحة الجميلة ولا تستحقّ الإشادة بها على أي نحو. وقد حدث الشّيء ذاته مرّات عديدة في فينيسيا تعزّ على الذّكر. كان الدّليل كلّ مرّة على حدّة يمحق حماسي المفرط بهذا التّعليق:

« تفتقر هذه اللوحة إلى الجودة، فهي من عصر النّهضة».

لا أدري ماذا يعيب عصر النّهضة، وكنت من جانبي لا أكفّ عن ترديد.

«بلي، رأىك الصواب. وقد فاتني أن ألحظ ذلك من قبل».

لم أقو على تحمّل أن أظهر جهلي أمام زنجيّ راهب في محراب الفنّ، درج من سلالة أحد العبيد في جنوب كارولاينا. لكنّ الذى كان يحدث أيضا في الغالب، وإرضاء لذاتي، أن أردد باستياء: «هي تفتقر إلى الجودة، لأنّها تنتمي إلى عصر النّهضة»، ثم أقول في نهاية المطاف :

«ومن عساه يكون عصر النّهضة هذا ومن أين جاء ومن سمح له بحشو عقل الجمهورية، بلوحاته المنفّرة».

أفادنا الرجل في التوّ واللحظة بأن عصر النّهضة هذا هو «الرينيسانس» وليس بشر سويّا، وأنّ الرينيسانس مصطلح استخدم، للدّلالة على أنّه لم يعد في الإمكان سوى إصلاح عيوب القديم في الفن وتجديده. ذكر لنا الدّليل أنّه بعد تايتيان، وغيره من الرواد القدامى، بدأ الفنّ يتراجع عما كان قد حقّقه من مكانة، ثم بدأ ينهض مجدّدا شيئا ما، وظهر بغتة نوع من الرسّامين الهابطين، صورت بريشتهم هذه اللّوحات المتواضعة، قلت بانفعال اللّحظة: «إن رغبتي في السّموّ بالفن قد تراجعت خمسمائة عام». فلوحات عصر النّهضة تكفيني تماما، مع أنّ ما يسرّني بالفعل أنّ مدارسها، كانت إلى حد كبير في حوزة مصوّرين حقيقيين، ولم تنغمس كليّة في تصوير الشّهداء. كان دليلنا الذي تحدثت عنه، الوحيد الملم بكلّ الأشياء. إذ ولد في ساوث كارولينا، سليل أبوين من العبيد، قد وفدوا إلى فينيسيا، وهو لم يزل بعد طفلا، ثم نشأ وترعرع هنا. نال حظّا لا بأس به من التعليم، فهو يقرأ ويكتب ويتحدّث الإنجليزيّة، والإيطاليّة والفرنسيّة بطلاقة، وهو متعبّد في محراب الفنّ، وملم بكلّ مناحيه، فهو يحفظ تاريخ فينيسيا عن ظهر قلب، ولا يملّ التحدّث في لوحاتها التّصويريّة. بدا أنيق الملبس، وأظنّه يفضلنا أناقة، يتمتّع بأدب جمّ. يشتهر الزّنوج في فينيسيا بدماثة الخلق، شأنهم شأن البيض، لذلك لا يبدي أحدهم رغبة في العودة إلى موطنه الأصليّ. وهو صائب في رأيي.

أجريت حلاقة أخرى هنا. كنت جالسا للكتابة في الغرفة الأمامية، فترة ما بعد الظّهيرة، أحاول لملمة شتات فكري، وأحجم عن النّظر خارج النّافذة، نحو البحيرة، كما كنت أقوم على قدر استطاعتي أقاوم جمال الطّقس في الخارج، مع جدّية في مقاومة الخمول والرّكون إلى الدّعة. بعث الشّباب في طلب حلاّق، واستفسروا عن رغبتي في الحلاقة، تذكّرت ما لقيت من معاناة في جنوا وميلانو وكومو، وكوني لست مستعدا لتجشّم المزيد على الأرض الإيطاليّة. قلت لهم: «رفقا بي، لو تفضّلتم».

عدت إلى الكتابة، وبدأ الحلاّق بالطّبيب، وسمعته يقول:

«هذه أيسر حلاقة لي منذ مغادرتنا السّفينة».

أردف على الفور بقوله:

«عجبا، يا» دان، «يمكن أن يخلد امرؤ إلى النعاس، والرّجل يحلق له».

اتّخذ «دان» مجلسه لدى الحلاق ثم قال:

«عجبت لتايتيان هذا، فهو أفضل روّاد الفنّ القدامى».

واصلت الكتابة، فأردف «دان» بقوله:

«تلك هي المتعة الحقيقيّة يا دكتور. فلا يقارن حلاّق السفينة بمثل هذا الحلاق».

كانت لحيتي الخشنة مصدر إزعاج كبير لي، وتتعاظم إغراء الحلاّق وهو يسنّ محلقه، ووجدتني أقول:

«مهلا، فأنا الآخر أرغب الحلاقة».

جلست على الكرسيّ، وأغمضت عيني. صبّن الرّجل وجهي بالصّابون، وتناول محلقه، وخدشني، خدشة كادت توقع بي في نوبة تشنّجية. قفزت من الكرسيّ، والطبيب و«دان» يجفّفان الدّم عنهما ويضحكان.

قلت تلك خدعة وضيعة مخزية.

ذكروا لي أنّ ألم الحلاقة، فاق أيّ ألم واجهاه من قبل، ولم يتحمّلوا تفويت فرصة موافقتي.

كان أمرا مخزيًا. لم يكن هناك من سبيل لمنع حدوثه، حيث السّلخ قد بدأ بالفعل، ولا بدّ من نهاية له. تساقطت العبرات مع كلّ خمشة موسّي، وصحبها أحرّ اللّعنات. وبدا الحلاّق مرتبكا، لأنّه كان يريق الدماء في كلّ مرة ينتابه ارتباكا. فـــاقت هـــذه المتعـة في رأيي كـل ما استمتع به الشباب مذ غادروا أرض الوطن.

شاهدنا برج الأجراس المستقلّ عن كاتدرائية القديس مرقس، وأيضا بيت بايرون، وبالبي عالم الجغرافيا، وقصور دوق فينيسيا القديمة، وكبار قضاتها، ورأينا أحفادهم المخنثين، يباهون بنبالة الطّراز الفرنسيّ القديم، في ميدان القديس مرقس الكبير، ويلتهمون الآيس كريم، ويجرعون الرّخيص من الرّاح، بدلا من أن يتزيوا بدروع القتال، ويدمّروا

الجيوش والأساطيل، كما فعل أسلافهم في عصور مجد الفينيسيين. لم نر أثرا لقتلة مأجورين، بخناجرهم السّامة، ولا للمقنّعين، أو للمهرجانات الكبرى، لكنّنا رأينا فخر فينيسيا القديم، تلك الجياد البرونزية، القبيحة، التي تصورها لوحات الأساطير. فهنيئا لفينيسيا اعتزازها بالجياد، فهذا كلّ رصيدها من الجياد. يقال إن أهل هذه المدينة الغريبة، لم يروا في حياتهم حصانا حيّا، ولا أشكّ في صحّة هذا كلية. كنّا نزمع الرّحيل في الغد، بعد أن حقّقنا رغباتنا كلها، ثمّ مغادرة سيّدة الجمهوريات الجليلة، كي تحشد سفنها البائدة، وتقود جيوشها الوهميّة، وتدرك مجدّدا في أحلامها، ما اشتهرت به قديما من مجد.

الفصل الرّابع والعشــرون

وصل بعض ركّاب «الكويك سيتي» إلى فينيسيا، قدوما من سويسرا، ومن بعض البلاد الأخرى، قبل أن نغادرها، مع ترقّب وصول آخرين كلّ يوم إليها. ولم نسمع باحدهم، قد تعرّض لداء، أو أصيب بجرح.

كنّا نشعر ببعض التعب من كثرة ما شاهدناه، لذا قطعنا بالقطار شوطا كبيرا من البلد دون أن نأبه بتوقفه. دونت بعض ملاحظات. لم أعثر في دفتر يوميّاتي على شيء يتعلق ببولونيا، عدا أنّنا قد وصلناها في فترة مواتية، ولم نجد فيها مناطق مراقبة، رغم شهرة البلدة الكبيرة بها.

استيقظت بيسوتيا، ولكن في حالة عابرة من النشاط.

سرّرنا بفلورنسا لفترة قصيرة. وأظنّنا قد أعجبنا بتمثال داود الضّخم، المقام بالميدن الكبير، وبمجموعة النّصب، التي يطلقون عليها «اغتصاب السابابينيات»، وجلنا وسط مجموعة لا حصر لها من اللّوحات والتّماثيل المعروضة في معارض، «بيتي»، «أوفيتزي». أسجّل هذه العبارة بالطّبع دفاعا عن النفس فلتتوقف عند هذا الحد. لا أستطيع أن أستريح بدعوي زيارتي فلورنسا، وقطع أميال مهلكة بين معارضها الفنّية. حاولنا بكسل الإلمام بشيء عن جويلفز، وجابلاينز، وآخرين من السفّاحين التّاريخيين، ممن يسهمون بكثير من أعمال القتل والمشاجرات في تاريخ فلورنسا، لكنّ الموضوع في ذاته قد خلا من الجاذبيّة. أخذنا بمشاهد السّلاسل الجبليّة الرّائعة خلال جولتنا القصيرة. عبر طريق للسكّة الحديدية، الممتد عبر لثلاثة أميال النفق، حتّى مائة ياردة في ضوء النّهار. وقد انعدمت لدينا الرغبة في التآلف مع فلورنسا. شاهدنا مكانا يقع على مكان خارج المدينة، حيث سمح هؤلاء بأن تثوى عظام جاليليو. في أرض لم تخصص قطّ لدفن الموتي. وظلت لفترة طويلة هناك، وذلك بسبب كشفه العظيم، الذّي شدّ انتباه العالم، والذى اعتبرته الكنيسة هرطقة. ونعرف

أنّه بعد مرور وقت طويل، قد اعترف العالم بصحّة نظريّته، وتصدّر اسمه قائمة العظماء. وظلّوا على هذا الحال حتّى نخرت عظامه. لقد عشنا لنرى رماده في مقام سام، في كنيسة كروز، وندين بذلك لمجتمع حرّ وليس لفلورنسا وحكّامها. رأينا في تلك الكنيسة أيضا مقبرة «دانتي» لكننا سررنا حين علمنا أنّها لا تضمّ جثمانه، ذلك أنّ المدينة الجاحدة التي سبق أن عرّضته للاضطهاد والنّفي، كان عليها أن تدفع الكثير كي تفخر بوجوده هناك، لكنّها لن تتمكن البتة من نيل هذا الشّرف الرفيع.

خير لفلورنسا التّداوي بالأعشاب الطبيّة. فلتزرع أعشابا طبيّة، ولتقم فوقها نصبا تذكاريّة ضخمة، لتظهر قدر عرفانها، بعد أن لعقت اليد التّي بطشت بها.

تلك فلورنسا المتسامحة! تمتلئ فيها متاجر الصّاغة بالعاملين في شغل الفسيفساء، وتعدّ في فنون تركيب الفسيفساء، الأرقى في العالم. تحبّ فلورنسا أن تذكر بذلك، لاعتزازها بتلك المكانة. ستظل تقوم فلورنسا على رعاية وتنمية ما يميزها عن غيرها. تدين فلورنسا بهذا للفنّانين، الذين يحققون لها هذه المكانة الرّفيعة ويملأون خزائنها، بالنّقد الأجنبيّ، لذلك تدعمهم بالمنح الحكوميّة، منحا حكوميّة، تخيّل قدر هذا العطاء. إنها تدرك أن أولئك الذّين يجمّعون هذه المنمنمات الجميلة، يموتون مبّكرا، لأنّ العمل في هذا المجال مقيدّ للحركة، ومرهق للأيدي والعقول، لذلك قرّرت لمن يبلغ منهم السّتين، معاشا حتّى وفاته! ولم أسمع أن أيّا منهم قد طالب بما خصّص له حتى الآن.

هناك رجل بلغ السّتين، بعد طول كفاح، بدأ يطالب بمعاشه، ولكن تبيّن حدوث خطّأ، في تاريخ ميلاده مدته عاما، لذلك صرف النّظر عن المطالبة بشيء حتّى أدركته المنيّة.

يقوم هؤلاء الفنّانون، بأخذ أجزاء صغيرة من الحجر أو الزجاج، لا تزيد في الحجم على خردلة، ويجمّعونها معا، فوق زرّ كمّ، أو زرّ يزين قميصا، بسلاسة متناهية، ما يساير تماما الظّلال اللّونيّة، الدّقيقة التّي تحملها القطع، حتى يتشكّل قزما مثلا، واقفا وفي يده ساق نبات، أو شوكة، أونبتة، أو بتلات كاملة، ظهرت فيها، رقّة اللّون وأصالته، وكأنّها من صنع الطّبيعة. يصورون أيضا حشرة زاهية أو فراشة، أو مدرّج أثري، داخل دائرة ضيّقة، في بروش، يحرصون فيه على الدقّة المتناهية والتناسق، حتّى يدفع ذلك إلى الاعتقاد، بأنّها مصوّرة بريشة أحد الرّواد.

رأيت طاولة صغيرة في مدرسة الفسيفساء الأولى في فلورنسا، قد رصّع في جزء ضئيل جدًا من سطح طاولة الوسط هذه، بعض الأحجار الكريمة اللامعة، ونضّد في الحجر الكريم، صورة مزمار، وفوّهة ناقوس، وعقد مفاتيح متشابك. لن تفوق أية لوحة في العالم، تلك اللّوحة رقة وحسنا. ولا قبل لظلّ لونيّ في أيّة لوحة أخرى التفوق على هذه اللّوحة كمالا، وليس لعمل فنّي من أيّ نوع، أن يفوق هذا المزمار الذى خلا من أيّ عيب، إنّ حصر هذا الكمّ من المنمنمات الدقيقة، قد يستنفذ ما للبشر في علم الحساب. لا أظنّ أنّ أحدا يمكنه بعينه المجردة، رؤية النطقة الفاصلة بين قطعتين دقيقيتين. ومؤكّد عجزه عن تحديدها. استغرق رجل واحد من العمل في سطح هذه الطّاولة عشر سنين، هذا ما ذكروه لنا، وقد عرضت للبيع بقيمة خمسة وثلاثين ألف دولار.

كنا وما زلنا في فلورنسا نتردد من وقت لآخر على كنيسة سانتا كروز، لإلقاء نظرة على مقابر كلّ من مايكل أنجلو، ورافاييل، وميكيافيللي (وأفترض دفنهم في الكنيسة، ولعلّهم يقرّون سجيًا في مكان آخر، ويؤجّرون مقابرهم لأفراد آخرين، وهو الأسلوب السّائد في إيطاليا) اعتدت في أوقات متفاوتة، الذّهاب والتوقف فوق الجسور، والرّنو إلى آرنو. يعرف أن آرنو يحظى بالاهتمام. وآرنو هذا مصرف تاريخيّ كبير، سعة المجرى فيه أربعة أقدام، وبعض الصّنادل الطّافية فوقه. لعله يصبح نهرا بحق، لو ضخوا إليه بعض الماء. الجميع هنا يعتبرونه نهرا، ويظنوه نهرا بحقّ، وأولئك هم أهل الشرّ والغدر من الفلورنسيين. إنهم في ذلك يتجاوزون حدود الوهم، ويبنون جسورا فوقه. ولا أدرك سببا كونهم على هذه الدّرجة الكبيرة من البراعة في المغالاة والتطرّف.

ما لرحلة تزخر بهذا القدر من المشقّة والقلق، ما يملأ النّفس بالتحامل المؤلم أحيانا؛ يمكنني دخول فلورنسا، بأمل قضاء شهر ممتع، فأجدها جميلة، وجذابة من كلّ الوجوه، لكنني لن أنشغل الآن بذلك الاعتقاد البتة، ولا بسفنها الصّغيرة المعبأة بالرّخام الأبيض حتى السطح، ولا بنسخ التماثيل الأوربية الشهيرة من حجر الألابستر. تأسر العين، حتّى أدهشتني كيفية استطاعة تشكيلها على هيئة أشباح متحجرة سوداء، كما في اللوحات ذاتها. تهت في فلورنسا ذات ليلة في التّاسعة، وبقيت أراوح تلك المتاهة داخل شوارع ضيّقة، وصفوفا طويلة من المباني الفسيحة التي تتشابه كلها، وظللت هكذا حتّى الثّالثة صباحا. كانت ليلة بهيجة، وكان النّاس في أوّلها يحتشدون في الطرقات. وكانت الأضواء الباهرة

تحيط بالأرجاء. ألفت بعد ذلك التّطواف بالأماكن المحيطة بالمجاري المائية والأنفاق، وقد حرك في داخلي مشاعر الدّهشة والإثارة، الدّوران حول منعطفات الطّرق، علّني أعثر على الفندق أو يظهر أمامي بغتة، ولم أجد في ذلك كلّه أية جدوى. ظل الحال كذلك حتّى شعرت بالإرهاق، بعد أن خلت الطّرقات حينها من طارق ليل، أو شرطيّ حتى. ظللت أسير حتّى نفذ صبري، ضاق صدري بكلّ شيء وشعرت بالحرارة والظمأ. وصلت في النّهاية إلى مكان لا أعرفه، بعذ أن تخطّى الوقت الواحدة صباحا، ووجدتني على غير توقع، على أبواب المدينة. عرفت في تلك اللّحظة إنني أبعد عن الفندق كثيرا. ظنّ الجنود أنّني أزمع مغادرة المدينة، فانتفضوا من أماكنهم، وسدّوا عليّ الطريق ببنادقهم الطّويلة، قلت (بالإ طاليّة):

«فندق أوروبا».

هذا كلّ ما عرفته من الإيطالية، ولم أكن حتّى متأكّدا ما إن كانت إيطالية تلك أم فرنسية. تطلّع الجنود إلى بعضهم بعضًا في بلاهة، والتفتوا إليّ، ثمّ هزوّا رءوسهم ووضعوني رهن الحجز. ذكرت لهم أنني أرغب في العودة إلى الفندق الذى أقيم به، لم يفهموا ما قلت. ساقوني إلى غرفة الحرس، وفتّشوني، لم يجدوا معي ما يدلّ أنّني أحرّض على فتنة أو تمرد. عثروا على قطعة صّابون (نحمله الآن معنا في كلّ مكان)، قدمتها لهم على سبيل الهديّة، لأراهم يتفحّصونها بغرابة شديدة. أعدت ذكر فندق أوروبا وأعادوا بدورهم هزّ رءوسهم، حتّى نهض آخر الأمر جنديّ، كان يجلس في ركن من أركان الغرفة مطأطئ الرأس، لا ينطق بشيء. ظننت وقوفه تكليفا من قائد الحرس باصطحابي بعد مغادرتي المكان. سرنا مائة أو مائة وخمسين ميلا، هكذا بدت لي المسافة، حتّى ضلّ بدوره الطريق. تنقّل بي من درب لآخر، ثمّ أسقط في يده أيضا، وأشار إليّ بأنّه سيمضي بقيّة النّهار، في البحث مجدّدا عن باب المدينة. استوقفني حينئذ ما يشير ظهور مبنى عن بعد، كان الفندق!

كان ممّا شرح صدري وجود جنديّ في البلد، يعرف واجبه بالتّحديد، لأنهم يقولون إنّ الشّرطة تقوم بنقل جنودها من مكان لآخر طوال الوقت، ومن الرّيف إلى المدينة، حتّى لا يطول تعرّفهم بالنّاس، فيهملون أداء واجباتهم، ويخطّطون مع أصدقائهم الجدد لعمل الدّسائس والمؤامرات. كانت تجاربي في فلورنسا غير سارّة بالفعل. وسأنتقل الآن إلى موضوع آخر.

صعدنا إلى بيزا أكبر برج في العالم، ذلك البرج المائل. ويعرف الجميع أنه يقارب في الارتفاع مائة وثمانين قدما، وأفترض جدلا أنّ مائة وثمانين قدما قد تصل إلى ما يقارب ارتفاع أربعة من الأبنية العادية موضوعة فوق بعضها بعضًا، يتكون كل منها من ثلاثة طوابق، وهو أقصى ما يمكن تخيله من ارتفاع هائل لبرج، على هذه الدرجة المتماثلة من السّماكة، حتّى لو كان عموديًا، ذلك رغم ميله إلى الخروج عن خطّه العمودي بثلاثة عشر قدما. يصل عمر البرج إلى سبعمائة عام، ولكن لا تخبرنا الروايات ولا التّاريخ عمّا إذا كان ميله أمرا قدّ أعدّ له مسبّقا من عدمه، أو عن كيفية استقراره على أحد جانبيه. ولم يرد أيضا ما إذا كان عموديًا وقت بنائه من عدمه. أقيم برج بيزا من الرّخام، يظهر فيه جمال البنية ودقة التناسق، تحيط بطوابقه أعمدة مخدّدة، بعضها من الرّخام وبعضها الآخر جرانيتي، كتب عليها بالحروف الكورنثيّة (اليونانيّة. وكانت الكتابة في بواكيره بارزة. زوذ البرج بجرس، وفي قمّته علّقت مجموعة من النواقيس القديمة. تغشى الظّلمة درجه الحلزونيّ، لكنّ المرء يمكنه التحقق من الجانب الذى يقف فوقه، بانتقاله تلقائيًا من أحد جوانب الدّرج إلى الجانب الآخر، عند صعوده البرج أو الهبوط منه. بليت بعض درجات البرج الحجريّ، في طرف منه فحسب بفعل خطى الصّاعدين والهابطين، وبليت الأخرى من الطرف الآخر، بينما بلي بعضها من الوسط. حين ينظر أحد من قمة البرج من الداخل إلى سفحه، فكأنه ينظر في بئر مائل على جانبه. يهبط حبل من وسط القمة، فيلامس الجدار، قبل وصوله إلى القاع. لا يشعر المرء لدى وقوفه بأعلى البرج أبدا بالارتياح البتة، وذلك حين ينظر إلى القاع من جانبه العلوي، ولكنك بالزحف على صدرك نحو حافّة الجانب السفلي، ومحاولة مدّ عنقك إلى مسافة تمكّنك من رؤية سفح البرج، فإنّك تشعر بخدر يسري في بدنك، يقنعك رغم ما قد تتمتع به من رباطة جأش، بأن المبنى بسبيله إلى السّقوط. تحرص طوال الوقت على ضبط توازنك، في ظلّ انطباع سخيف بأنّ البرج إذا لم يكن بسبيله إلى السّقوط، فإنّ وزنك الضّئيل بسبيله إلى الهبوط، ما دمت لم تتغلّب بمفردك على هذا الانطباع.

صارت «الدّيومو» منّا قريبة، وهي إحدى أجمل كاتدرائيّات أوروبا. يقدر عمرها بثمانمائة عام. أحيا مجدها التّليد رخاء بيزا الاقتصاديّ الكبير، وفي المكانة السياسية التي جعلت من بقائها مطلبا ملحّا، أو ممكنا بالأحرى. تفشّت الآن في محيطها الفاقة والتداعي

والانحطاط، ما ينقل إلينا انطباعا حقيقيا، بانّ بيزا كانت في السّابق أعظم ممّا يمكن للكتب أن تقدمها لنا.

يظهر المقرّ البابوي، على شكل مبنى دائريّ مهيب مترامي الأبعاد، أنفقت في إقامته أموال طائلة، وهو أقدم عمرا من برج بيزا المائل بأعوام قليلة. يتدلّى داخله قنديل، يذكر في انتظام اهتزازه، بجاليليو وفكرة البندول. بدت في ضآلة هذا الشيء غرابة أن يحقّق ما حقق من انتشار كبير في مجلات العلوم وآلية الحركة.

تخيّلت وأنا أتأمّل صورة البندول الموحي، عالما مجنونا من الإسطوانات تدور، وأولئك هم الكادحين من أبناء هذا الأب الشّيخ. بدا في سيماه ما ينمّ عن ذكاء، حيث يعلم بأنّه ليس مجرّد قنديل، بل بندولا حقيقيا، بندول يرتدي قناعا، لأغراض خفيّة، ابتكرها هو وليس سـواه، فضــلا عـن كونه ليس بندولا عاديًا، لكنّه البندول، الأصل، البندول الإبراهيميّ على الأرض.

للمقرّ البابوي أصداء مدويّة، تفوق كلّ ما عرفناه من الكتب. أطلق الدّليل نغمتان مدويتان، يفصل بينهما نصف أوكتاف (الأوكتاف ثماني وحدات في السّلم الموسيقي) فردّد صدي صّوته ألحانا جميلة، هي الأروع في خيال أيّ إنسان، الرّقة والتآلف والاتّساق. كانت أشبه بمجموعة لحنية متآلفة تعزفها أوتار أرغنّ في كنيسة، رقّق منها بعد المسافة حتّى تلاشت، ولعلّي أكون مبالغا في هذا، فإن كان الأمر كذلك فاللوم سمعي، وليس قلمي. إنّي أصف شيئا من الذّاكرة، سيظل أثره باق معي.

تجسّدت روح التعبّد الكنسيّ في الأزمنة القديمة تلك التي حرضت على منح ثقتها الكاملة، في مظاهرالعبادة الشّكلية، بأكثر من حرصها على صيانة القلب من المعتقدات الخاطئة، وكف الأيدي عن ارتكاب الآثام، والتّي آمنت بقوي تحمي أشياء تفتقر إلى الإدراك والحركة، اتخذت صفة القداسة لارتباطها بقدّسات حقيقية، تجسّد هذا كلّه بصورة لافتة في إحدى جبّانات بيزا. تقع المقابر على تربة جيء بها من الأرض المقدّسة منذ عهود. وكان البيزيون القدامي يعتبرون الدّفن في هذه الأرض، يحمل قدرة على تحقيق خلاصهم من الذّنوب، بأكثر مما يبيعهم كثير من القدّاسات (جمع قدّاس) في الكنيسة. وممّا يوهب من نذور في كثير من الشّموع إلى العذراء.

يعتقد أنّ عمر بيزا ثلاثة آلاف عام، وهي واحدة من بين اثنتي عشرة مدينة عظيمة، تابعة لإترووريا القديمة (بلاد غربيّ إيطاليا)، ذلك الاتحاد الذى ترك العديد من الآثار التّذكاريّة، التي تشهد على تقدّمها الكبير، وعلى تاريخ ضيئل في ذاته مدرك وملموس. قدّم لي أحد الأثريين البيزيين، آنية فخّارية قديمة كانوا يزرفون فيها الدّمع، أشار إلى أنّها أترعت بدموع لأربعة آلاف عام. عثر عليها بين آثار واحدة من أقدم المدن الإتروسكيّة. ذكر أنّه قد جيء بها من مقبرة واستخدمتها إحدى الأسر الفقيرة في زمن كانت أهرامات مصر فيه حديثة العهد، ودمشق لم تزل بعد قرية من القرى، وإبراهيم طفلا يثغو، وطروادة القديمة لم تكن قد ظهرت بعد، كي تزرف دمعا سال بسبب تمثال فقدته ربة بيت، حدّثتنا الآنية بلغتها الخاصة، وبأحزان فاقت الكلمات رقة، ومحا بيانها الصّامت ما ورد في سجل القرون الطّويل، برواية عن مقعد شاغر، وخطى عزيز غائب عن الدّيار، وغياب صوت جميل عن فرقة المنشدين، واختفاء صورة. رواية تقص علينا وكأنّها جديدة دائما، مرعبة، ومثيرة للقلق، ومخدّرة لمشاعرنا، ثمّ الحظ مدى قدمها وابتذالها. لا قبل لتاريخ تعرّض للتمحيص، القدرة على الإقناع بخرافات وغموض عصر خياليّ قديم، ماثلا أمامنا الآن. اكتسى لحم البشر، وانفعل كثيرا بمشاعرهم، كما فعلت هذه الآنيّة الصّماء، التي قدّت من فخّار.

عملت بيزا في العصور الوسطى بالنّظام الجمهوريّ، بحكومة شكّلت من داخلها وجيوش وأساطيل مستقلة، واقتصاد مزدهر. كانت إحدى القوي العسكريّة الكبري، وسجّل على راياتها كثير من الانتصارات الحربيّة في معاركها مع جنوا وتركيّا. يقال إنّ المدينة كان تعدادها ذات يوم، أربعمائة ألف نسمة، لكنّ الصّولجان قد أفلت الآن قبضتها، وزالت عنها الجيوش والأساطيل، وانهار اقتصادها. لقد غابت راياتها الحربية التي حملت غبرة قرون. كما زالت أسواقها التّجارية، وتقوقعت داخل أسوارها المهدّمة، وتراجع تعدادها السّكانيّ، إلى عشرين ألف. وليس لها الآن من شيء، وهو ليس بالشيء الكثير سوى أنها. المدينة الثانية بعد توسكاني.

وصلنا في الموعد المقرر، إلى لجهورن لمشاهدة ما كنا نرغبه منها، قبل حلول المساء بفترة طويلة وهو الوقت الذى تغلق فيه المدينة أبوابها. ثم عدنا إلى السّفينة مجدّدا.

شعرنا كما لو كنّا بعيدين عن بيوتنا لدهر. لم يسبق أن التفتنا قط من قبل إلى أنّ غرفنا الخاصة، مكانا هادئا نخلو فيه إلى أنفسنا، أو إلى ابتهاج كلّ منا حين يجلس ساعة الغداء على مقعده وفي قمرته الخاصّة، يتبادل في ودّ حديثا مع أصدقاء يتحدثون إليه بلسان واحد. أجل، فالسّعادة النّادرة، تكون فيما ينطقه المرء من كلمات، وفي إدراكه أن كلّ ما يقال مفهوما من الطّرف الآخر أيضا! سنستفيض الآن إسهابا في الحديث، لأنّه لا يوجد سوى عشرة ركّاب، من بين خمسة وستّين راكبا، فالآخرون يقومون بجولات خارج السّفينة. ويصعب الآن معرفة أماكنهم. لن نهبط الآن إلى شاطئ لجهورن للتّجول، فقد أتخمنا بمشاهدة المدن الإيطاليّة، والأفضل لنا الآن التنزّه على ظهر السفينة ومشاهدة المدينة من بعيد.

لم تدرك الحكومة الغبية أنّ سفينة بهذا الحجم، يمكنها عبور البحر اللّجيّ، دون أن يكون لها مأرب، سوى استجمام مجموعة من السّادة والسيّدات على رحلة سياحيّة. يبعد هذا في نظرهم عن أيّ احتمال، ويوضع موضع الشّبهات، ولا بدّ من أن يكون وراء هذا كلّه أمر بالغ الأهمية. لم يستطيعوا تفهّم الأمر، بل حقّروا من شأن مستندات السّفينة. توصلوا آخر الأمر إلى أنّنا نتبع إحدى المنظّمات المثيرة للقلاقل، وأننا قتلة، وغاريبالديون متنكرون. وضعوا زورقا حربيًا في حالة تأهّب قصوى، لمراقبة سفينتنا ليلا ونهارا، وأصدروا الأوامر إليه، بالتّعامل الفوريّ، مع أيّة حركة انفلات، تصدر عنا! تحيط بنا قوارب الشّرطة المكلّفة بمراقبتنا طيلة الوقت، وبأقصى ما يمنح للبحّار من حريّة تصل إلى ظهوره بقميص أحمر. بحيث يتتبع أفراد الشرطة، قارب الضّابط المنفذ على سفينتنا، من الشّاطئ حتّى السفينة ومن السفينة إلى الشّاطئ، ويراقبون مناوراته السّرية بعيون ساهرة. ويمكنهم اعتلاء قاربه أيضا إذا لم يكن يرتسم على وجهه، تعبير يشير إلى خفض حجم المجزرة المزمع قيامه بها، والحد من العصيان المسلح والعمل على تهدئته. قام بعض ركّابنا بالأمس بزيارة للجنرال غاريبالدي، للتعبير بحرارة عن مشاعر الصّداقة، ما أكّد من شكوك دامغة رمتنا بها الحكومة. إذ بلغ بهم الظّن أنّ زيارة وديّة، بمثابة غطاء لمؤامرة كبرى. التصق بنّا هؤلاء، وراقبونا خلال تسبّحنا في المياه، على جانب من السفينة. فهل يعتقدون أننا على صلة في عمق البحر بجماعات محظورة؟

قيل لنا إنّنا قد نتعرض للحجر الصّحيّ في نابولي. يفضل اثنان أو ثلاثة منا عدم الإقدام على تلك المخاطرة. لذلك فإننا حين نلنا قسطا من الرّاحة، عزمنا الذّهاب في باخرة فرنسيّة، إلى سيفيتا فيتشيا ومنها إلى روما، ثمّ إلى نابولي بالقطار. لأنّهم لا يضعون عربات القطار تحت الحجر الصحّي، ولا يستفسرون عن البلد الذى قدم الرّكاب منه.

الفصل الخامس والعشـرون

إنني لا أدرك الكثير والكثير من الأمور فيما يتعلّق بإيطاليا هذه، ولا أدرك على وجه الخصوص كيف يتأتّى لحكومة مفلسة، إقامة مثل تلك المحطّات الفخمة للسكك الحديدية، ومثل الطرق الرئيسة العجيبة تلك. وعجبا لتلك الأخيرة، التي تتمتع بصلابة الحجر، واستقامة الخطوط، ونعومة أرضية طابق، وبياض الثلج. حين يعجز المرء في الظلمة عن تمييز الأشياء، يظلّ قادرا على تمييز الطّرق الفرنسية والإيطاليّة البيضاء، وهي من النظافة ما يمكنك من تناول الطعام، دون مفرش للمائدة، فضلا عن عدم تحصيل رسوم عن استخدامها.

أمّا بالنّسبة للسكك الحديديّة، فليس لدينا مثيلا لها مثيلا. تزحف العربات بانسيابية طوال الطّريق، وكأنها في سباق. بدت المحطّات قصورا فخمة، مصقولة بالرّخام، ومزوّدة بأعمدة فخمة، من الحجر الضخم نفسه الواصل بينها من الطّرف حتى النهاية، وهناك عدد لا بأس به من الجدران والأسقف، أتقنت زخرفتها بالجصّ. زينت بواباتها الضّخمة بالتماثيل، وعبّدت أرضيّاتها الفسيحة بألواح من الرّخام المجلّى.

تستهويني هذه الأشياء بأكثر ممّا تشدّني مئات المتاحف الإيطاليّة، الحافلة بالكنوز والنّفائس، ذلك لسهولة فهمي لأولي، وعجزي عن تثمين الأخرى. أرى في هذه الطّرق الرئيسة، وفي السّكّة الحديدية، والمحطّات، وجادّات الطّرق الفسيحة، العامرة بالبيوت والأشجار على جانبيها، في فلورنسا وفي بقيّة المدن الإيطاليّة الأخرى في إيطاليا، أرى عبقريّة لويس نابليون، أو بالأحرى، الأعمال التّي قام رجل الدّولة هذا بتقليدها. لكنّ لويس كان متنبّها إلى ضرورة أن يتوفّر لفرنسا المال المخصّص لتلك الإصلاحات والمشاريع. إذ كان دائم الحرص على دعم مشاريعه، لأنّ ذلك دعما لفرنسا وحصانة لها من السّقوط. فازدهارها الماديّ حقيقة لا شكّ فيها. لكنّ الوضع هنا يختلف. فهذا البلد مفلس، ولا توجد مخصّصات

ماليّة حقيقيّة، لدعم هذه المشروعات الكبرى. وأن الإزدهـار الـذي قـد يشيرون إليه، ربما يكون شكليًا. خزانة الدّولة خاوية. وهم بهذا الأسلوب يعرّضونها للإفلاس بدلا من دعمها. لقد حقّقت إيطاليا أسمى رغباتها صدقا، وأصبحت دولة مستقلّة، وبهذا تكون قد ربحت «فيلا» في اللّوتاريّة (اليانصيب) السياسيّة. لم يكن لدى شعبها ما يقتات به. وبسبب حكومة تنقصها الخبرة، أغرقت نفسها في نمط من الإنفاق لا طائل من ورائه، وضيّعت ما لديها من أموال في يوم واحد أو بعض يوم. بدّدت مليارات الفرنكات، في بناء أسطول، لم تكن بحاجة إليه، وعندما بدأ استعمال الدّمية الجديدة، تعرّضت لدمار جاوز في آثاره ما وقع لطائرة جيلدروي الورقيّة، على رأي الحجاج.

بل تعرضت لريح سامّة لا تبقي ولا تذر. فمنذ عام، وحين أدركت إيطاليا أنّ انهيارا شاملا محدق بها، وأنّ عملتها النّقدية تساوي بالكاد ثمن طباعتها، وأنّ برلمانها قد أقدم على ردّ فعل مباغت، حيث ساهم في ترويع كبار رجال الدّولة، في ظلّ الظروف المتدنّية، قامت الحكومة بأسلوب ما بمصادرة ممتلكات الكنيسة! تلك التي تخضع لسطان الكهنة، وتقع في قبضتهم! يحدث هذا في بلد كان يتلمّس طريقه في ظلمة الخرافات الدّينيّة طيلة ألف وستّمائة عـام! وكان من حظّ إيطاليا أن حالة الغليان العام التي مرت بها، قد أدّت إلى تحطيم سجنها الكبير.

لا يسمّون ما يفعلونه بأملاك الكنيسة مصادرة، لأنّك ذلك بدوره قد يشير إلى استخدام العنف. لكنّ الواقع يقول بغير ذلك. فهناك آلاف الكنائس في إيطاليا، تضم ما لا حصر له من الذّخائر والنفائس، وتحتفظ بما لديها منها في أماكن سريّة، وكل كنيسة لها من يدعمها من المنّظمات الدّينية. وهناك من ممتلكات الكنيسة، ما يدرّ عليها، تقدر بمساحات هائلة من أخصب الأراضي الزّراعية، وأجود الغابات في إيطاليا. ريعا ضخما، لا تسدّد عنه للحكومة سنتا واحدا من ضرائب أو رسوم. تحتفظ الكنيسة لنفسها في بعض المقاطعات الكبيرة، بملكيّة كلّ الأراضي والأنهار، والغابات، والطّواحين والمصانع. ويقوم رجالها بالبيع والشراء، والتّصنيع، ولأنّهم لا يسدّدون عنها أية رسوم، فمن ذا يتطلع حتى إلى منافستهم.

وهكذا استولت الحكومة على ذلك كلّه، ولا شكّ أنها ستفعل ذلك أيضا بطريق فرض الأمر الواقع واستخدام الشدّة. كان لا بدّ من أن يتمّ إجراء ما لملء الخزانة الخاوية بالمال. ليس

هناك مصدر آخر في إيطاليا، سوى الثروات التي تحتفظ بها الكنيسة لنفسها. كذلك تنوي الحكومة اقتطاع جزء من الرّيع، الوارد من المزارع المملوكة للكنيسة ومن المصانع... إلخ، وتنوي أيضا ضمّ حيازة ممتلكات الكنيسة وإدارتها بنفسها، بطريقتها هي، وعلى مسئوليتها. ستترك المؤسسات التابعة للكنائس الكبيرة والأثيرة دون مساس في بعض المراحل، ولكن سيبقى عدد قليل من الرهبان لأداء الصّلاة وتقديم العظات فحسب في الكنائس الأخرى، وسوف يحال قلّة إلى التقاعد، فصارت بلا وزن أو نفوذ .

تأمّل بعض هذه الكنائس، وما تضمّ من زخارف، واحكم في خطأ أو صواب الحكومة فيما تفعله. ففي مدينة مثل فينيسيا، وتعدادها مائتي ألف نسمة، تضمّ كنائسها ألفا ومائتي راهب. يعلم الله عددهم قبل أن تقوم الحكومة بخفضه. طلبت كنيسة الجيزويت لإدارة شئونها، ستين راهبا، تقوم الحكومة على تلك الشئون الآن بخمسة أفراد، وطردت الآخرين من الخدمة. إنّ كلّ ما يحيط بتلك الكنيسة من فاقة وبؤس، في زيادة مطّردة. رفع اثنا عشر شخصا، وقوفا ببابها، قبّعاتهم وقلانسهم، وانحنت رءوسهم في تذلل، كما امتدّت أيد كثيرة، تتوسّل البنسات، بلسان أعجميّ لا نستطيع فهم عباراته، لكنّه توسّل أبكم، بعيون حزينة، وخدود شاحبة، وثياب مهلهلة، ليس بحاجة إلى تفسير. ولجنا بعد ذلك الأبواب الضّخمة وتبيّن أنّنا نقف أمام كنوز العالم! قدّت الأعمدة الضّخمة من كتل مستقلّة من المرمر، ورقشت من القمّة إلى القاعدة، بمائة شكل مركب، من الرخام الأخضر العتيق، وأقيمت المنابر من تلك القطع النادرة نفسها، تجسّدت ستائرها المدلاّة في طيات عديدة مصورة، يشبه نسيجها السميك، أعمال النّسج الدقيق على الأنوال. يأتلق المذبح الكبير، بتخريجات لامعة ودرابزين من الحجارة النّادرة، كحجر اليشب الأخضر، والرّخام المبرقش والمعروف بالأخضر العتيق، وأحجار نادرة أخرى لم نسمع بها إلاّ في القليل النّادر، وألواح من اللازورد النّفيس، أسرف في توزيعها في كلّ الأرجاء، دون ترتيب، ما يشي بأنّ الكنيسة ذاتها محتجرا تستخرج منه تلك النّفائس. بدا وسط كلّ هذه الأبّهة، أنّ ما جهّز به المذبح من ذهب خالص وفضّة، كان بهرجا رخيصا لا قيمة له. أنفق على السقف والأرضيّات أموال طائلة.

فما الجدوى إذن من ترك كل هذه النّفائس والطّنافس، فريسة للبلى، بينما يعزّ على نصف أفراد المجتمع بمرور الأيام، معرفة السّبيل إلى إبقاء الروح والجسد لحمة واحدة؛ ثمّ ما الحكمة من تعطيل مئات ومئات الملايين من الفرنكات، في بهرج كنسيّ لا طائل من ورائه.

عبر أرجاء إيطاليا كلّها، في الوقت الذّي تضاف على النّاس أعباء ضرائبيّة، يستخدم إيرادها في دعم حكومة ضعيفة ؟

أرى إيطاليا من بعيد على مدار خمسمائة عام، وقد حوّلت كل طاقاتها، وأموالها وصناعاتها، لإقامة صروح من الأبنية الشّامخة للكنيسة، وجوّعت نصف مواطنيها، في سبيل ذلك. وهي الآن معرض كبير للفاقة والأبّهة. في إحدى مدن أمريكا العادية تجتمع كلّ الكنائس كي تشتري بالكاد حليًا رخيصة لإحدى كاتدرائياتها المائة، النّفيس من الجواهر بالكاد. يمكن لإيطاليا أن تظهر لكلّ متسول في أمريكا مائة من عندها، وقس على ذلك ما لا حصر له من أسمال وهوام.

إنّ إيطاليا أعظم أمم الأرض، وأكثرها بؤسا.

انظر إلى ديومو فلورنسا الهائلة، تجدها كتلة ضخمة من الأبنية، ظلّت تستنزف جيوب مواطنيها على مدار خمسمائة عام، ولم تكد تفرغ بعد. أركع تعبّدا في محرابها شأن الجميع، ولكن حين يتجمّع حولي الأقذار من المتسولين، تبقي المفارقة حادّة، وتوحي بالكثير، فأقول في نفسي: «آه، يا أبناء إيطاليا التّاريخيّة، أماتت فيكم روح المغامرة، والاعتماد على الذّات وسّعي الحياة النّبيل بالكلّية؟ اللّعنة على ركونكم إلى الكسل، لم لا تسرقوا كنيستكم؟".

خصّص ثلاثمائة راهب لتلك الكاتدرائيّة، خلدوا إلى الطّمأنينة والدّعة. أمّا الآن وقد بلغ الغضب منّي مبلغا، يمكنني الغلو في ذلك، وأسبّ كلّ من يخطر ببالي. لديهم في فلورنسا صرح ضخم، أقاموه كضريح لسيّدنا ومخلّصنا، ويضمّ في الوقت ذاته رفات آل ميديتشي وأسرهم. هذا يعدّ تجديف ضمنّي، ولكنّه الواقع فحسب، ويعتبر خير مثال على انتهاك الحرمات. لقد تحلّلت جثامين أفراد عائلة ميديتشي، تلك العائلة الملعونة والبائدة، إنّهم طغاة فلورنسا المتجبرين، ولعنتها الأبديّة، لأكثر من مائتي عام. تحلّلت أجسادهم في دائرة من القبور باهظة التكلفة، وفي وسطها موقع القبر المقدّس الذى كان يزمع إقامته. تعرّضت البعثة المنوط بها الاستيلاء على القبر المقدس في أورشليم لصعوبة كبيرة، ولم تستطع تحقيق ذلك، وبدا المكان الفسيح شاغرا حتّى الآن. يقولون إنّ الضّريح الكبير، الذى كان مخصّصا للقبر المقدّس، لم يتحوّل إلى جبّانة تضمّ الأسرة إلاّ بعد فشل حملة أورشليم. لكنّي أعرف أنّك ستلتمس لى العذر، حين أؤكّد أن أولئك الميديتشيين، يقومون بدورهم

بأعمال النهب. إنّ ما لم يقترفوه من مفاسد في البرّ والبحر لا يستحقّ أن يذكر. من العجيب أن يجسّدوا ما لديهم من مواهب زهيدة قد طواها النّسيان، في اللّوحات الجصّيّة الضّخمة (شأن قضاة فينيسيا الكبار)، وتصوّر تلك اللّوحات المخلّص والعذراء، وباقات الزهور تلقي عليهم، من وراء السّحب، والرّب يحييّهما من فوق عرشه في السّماء! فمن الذّي قام بتصوير أشياء كهذه؟ تبّا، أتايتيان؟ أم تينتوريتو، أم بول فيرونيز، من عساه سوى تافه من هذا العالم المعروف بالرّواد القدامى؟

لقد عظّم أندريّا دل ساريو شأن أمرائه تعظيما يوفر ما نحوا به من سلوان أبدي، فتركوه يعاني الفاقة، هكذا قدّروه حقّ قدره. صوّر رافاييل أولئك الجهنّميين الأشرار، أمثال كاترين وماري ميديتشي، صورهما جالستين، في السّماء، تتحدّثان في ودّ إلى مريم العذراء والملائكة (ولا تأتيان على ذكر أصحاب السّمو)، ويسبّني أصدقائي بدورهم لتحاملي بعض الشيء على الرّواد القدامي، ولأنني أفشل أحيانا في كشف ما تبرز أعمالهم من جمال. إنّني لا أملك من أمري سوي مشاهدتها من آن لآخر، لكنّي أواصل احتجاجي على نفوس متدنية أوعزت إلى أولئك الرّوّاد القدامى، المتاجرة بمواهبهم العظيمة، مداهنة لمن كان يتربّص بهم من وحوش كأمراء الفرنسيّين، والفينيسيين والفلورنسيين، طوال مائتي عام، وكلهم في ذلك سواء.

قيل لى إنّ الرّواد القدامى ما فعلوا ذلك إلاّ بسبب الفاقة، ولكون الأمراء وأصحاب النّفوذ، كانوا هم الرّعاة الوحيدين للفنون. لو فضّل إنسان عظيم الموهبة، أن يمرّغ كرامته ورجولته في الوحل لقاء الخبز، على العيش في فاقة مع طهارة في نفس لم تدنّس، فالتماس العذر له في هذه الحالة مشروع. يمكن لدي أهل واشنطون، وولنجتون، التماس العذر لسارق ولعدم التزام المرأة العفّة أيضا.

لكنّي على نحو أو آخر، لا أستطيع محو ضريح آل ميديتشي من ذاكرتي. فهو يعادل كنيسة في الحجم، ويصلح بلاطه تماما لقصر ملك، وزينت قبّته الضخمة بلوحات الجصّ، أمّا جدرانه فبماذا زينت. أبالمرمر أم بلوحات الجصّ أم الخشب، والورق. كلاّ بل لصقت بالرّخام الأحمر، والأخضر العتيق، واليشب، والحجارة الوضيئة، والألابستر، ورصّعت بالماس والعقيق الأبيض، والمرجان الأحمر، واللازورد! زيّنت الجدران كلّها بهذا الكمّ من الأحجار الكريمة والنّادرة، وتآلفت كلّها في أشكال، وتراكيب متقنة، وأسرف في جلائها حتّى

التمعت كالمرايا الكبيرة، وانعكس ضوؤها الباهر. بدءا من قبّتها العالية. يوضع تاج أمام تمثال لأحد الرّاحلين من آل ميديتشي. مرصّعا بكمّ من الماس والزّمرّد، يكفي لشراء باخرة سياحيّة، أو يكاد. تلك هي الأشياء التّي ترمقها الحكومة بعين الشّر، ليصبح الحدث السّعيد في إيطاليا، دمج ذلك كله ضمن مدخلات الخزانة العامة. ورغم كلّ ما ذكرت. فإن متسولا يقترب منّي الآن، وسأتوجه بدوري إليه لمنازلته والقضاء عليه، وأعود إلى حيث كنت، لأكتب فصلا آخر عن السّباب.

بعد إساءتي مجبرا لليتيم الأعزل، وإبعاد أقرانه، وخلودي في النّهاية إلى السّكينة والتأمل، أشعر الآن بمزاج أكثر هدوءا. أشعر بعد التزامي الصّراحة التّامة بشأن الرّهبان والكنائس، بأنّ ما ذكرته يعد مطالب عادلة، لو أنّني أدرك صواب ما طالبت به. سمعت بأشياء كثيرة، تعزّز من مكانة الرّهبنة. لكنّ أكثر حدث تاريخي يخطر ببالي الآن، هو إخلاص من يستجدي الصّدقات من الرّهبان. ذلك الإخلاص للعقيدة الذّي ظهر واضحا في أثناء تفشّي وباء الكوليرا في إيطاليا، في العام الفائت. أتحدّث عن السّادة كبار الرّهبان. أعضاء جماعة الإخوة، أولئك الذّين يلبسون من المسوح الخشن. والكالح. ويعتمرون القلانس. يسيرون في هذا الجوّ الحارّ حفاة الأقدام. أظنّهم يعيشون على ما يقدّم لهم من صدقات. من طعام أو ملبس. ولا أشكّ في أنّهم يحبّون عقيدتهم. ويعانون في سبيلها الكثير. في أثناء تفشّي وباء الكوليرا. وتعرّض النّاس للموت، مع كلّ إشراقة صبح، وحين اهتم الجميع بشئونهم الخاصّة. وإيثار أنفسهم على الآخرين أيّا كانوا. وبعد أن جعل كل مواطن في البلد، همّه الوحيد النجاة بنفسه، تكاتف هؤلاء الرهبان معا، واتجهوا إلى رعاية المرضى. ودفن الموتى. كانت جهودهم النّبيلة تكلّف الكثيرين منهم حياتهم. التّي بذلوها عن طيب خاطر، وكانوا جديرين بذلك. يتطلّب الأمر كي يتحقق الخلاص لبعض الأرواح، تطبيق العقيدة بحذافيرها. ومناقشة التعاليم الصّغيرة فيها قبل الكبيرة، لكن من اليقين أنّ ما وقر في قلوب هؤلاء من برّ. وطهر وأثرة، سيخلّص أرواحهم رغم افتقارهم إلى صحيح العقيدة، الذى يتبعه مذهبنا(*).

(*) يتبع مارك توين المذهب البروتستنتي. (المترجم)

وفد معنا إلى هذا المكان في سيفيتا فيتشيا. أحد هؤلاء الصّعاليك السّمان حفاة الأقدام، في باخرة فرنسيّة صغيرة. كان في القمرة ستّة منا فحسب. وعرج هو على الدّرجة الأدنى في السفينة. كان المخبول ابن محكمة التّفتيش هذا، مصدر الحركة والنّشاط في السّفينة. رافق رئيس فريق البحّارة الموسيقي على بارجة فرنسيّة، في العزف على البيانو. وغنّي مشاركا إياه، غناء أوبراليًا. وجهزا سويًا ثيابا مسرحيّة مرتجلة، وقدّما لنا مشاهد، هزليّة رائعة، وأداء حركيًا مركّبا. تآلفنا وهذا الرّاهب المتسوّل العظيم، وأسهبنا في الحديث إلى بعضنا البعض، رغم أنّه لا يستطيع فهم ما قيل، ومؤكّد أنّه لن ينطق بكلمة واحدة نستطيع بدورنا تحزير معناها.

تعدّ سيفيتا فيتشيا، الوكر الأروع للقذارة، والهوام، الجهل، باستثناء جهنّم الأفريقيّة التّي يسمّونها طنجة، حيث تضارع هذه في كلّ شيء. يعيش النّاس هنا في أزقّة بعرض ياردتين، تفوح منها رائحة مميّزة، بل منفّرة، والأفضل ألاّ تكون تلك الأزقة أوسع ممّا هي عليه لأنّ لأنّها لو اتّسعت قليلا عن ذلك، فسوف تضمّ آخرين، ويتعرّض النّاس للهلاك. عبّدت أرض هذه الأزقّة بالحجارة، وافترشتها الهررة الميّتة، والأسمال البالية، وتفشّي فيها، عفن قشور الخضروات، وبقايا الجزم القديمة، الغارقة بمياه الأمطار، ويجلس النّاس حولها، فوق بقايا المقاعد ويستمتعون بذلك. هؤلاء النّاس كسالي بوجه عامّ، رغم أنّ لديهم قليلا من أوقات الفراغ، فهم لفترة واحدة يعملون ساعتين أو ثلاث، ولا يلتزمون الجدية في ذلك، ويتوقّفون من ثمّ لمطاردة الذّباب، وهذا لا يتطلب فطنة، لأنّ عليهم الإمساك بذبابة، فإن لم يظفروا بها فالمطاردة مستمرّة، هناك غيرها، والذّباب لديهم سواء، ولا محاباة لأحد منه، فما يظفروا بها مرغوبة لديهم.

لديهم أنواع أخرى من الحشرات، لكنّها لا تشعرهم بزّهو، فهم أناس يركنون كثيرا إلى راحة البال، والرّضا بالقليل، وما لديهم من أشياء كهذه يفوق ما لأيّ مجتمع آخر، ولكنهم لا يباهون بذلك.

يغشي الوضر وجوه هؤلاء، وأجسادهم وملابسهم، يثير حفيظتهم أن يروا أحدا، قد وضع عليه قميصا نظيفا، تقضي النّسوة نصف النّهار، في غسل الثّياب، في أحواض عامّة وضعت على الطّرقات، وقد تكون هذه الثياب لآخرين، أو لعلّهم يحتفظون بواحد للّبس.

وآخر للغسل، فهم لا يلبسون الثّياب مطلقا بعد غسلها. حين ينتهين من غسل الثّياب، يجلسن في الحارات، ويحتضنّ أشبالهنّ. يحتضنّ شبلا لفترة، بينما تحكّ الآخريات ظهورهن في عضادة الباب في سعادة غامرة.

تتبع هذه البلدة الولايات البابويّة، ولا يبدو أنّها تضمّ أيّة مدارس، وليس لديهم هنا سوى طاولة واحدة للبلياردو. يفتقر أهلها إلى التّعليم ويلتحق بالجيش بعض رجالها، بينما يعمل آخرون في مجال الرّهبنة، ويركن آخرون إلى العمل في مجال تصليح الأحذية وصناعتها. يعملون هنا كما هو الحال في تركيا بنظام الجوازات. وهذا ما يؤكّد تقدم الولايات البابويّة، شأنها في الحضارة شأن تركيا. تكفي هذه الحقيقة لإسكات ألسنة المفترين الحاقدين. حري بي ختم جوازي في فلورنسا للذّهاب إلى روما، ثمّ لا يسمح لي هنا بالوصول إلى الشّاطئ حتّى يفرغ شرطيّ من فحص جواز السفر على رصيف الميناء، وإعطائي تصريحا بالخروج. لن يتجاسروا حتّى على إعطائي جوازي في يدي، لاثنتي عشرة ساعة. فالظّاهر أنّني مثير لهلعهم. حيث ارتأوا أن الأفضل لي الركون إلى الهدوء.

يرجع اعتقادهم برغبتي الاستيلاء على المدينة، مع أنهم لا يعرفون عنّي سوى القليل. فتّشوا أمتعتي على رصيف الميناء. تناولوا إحدى نكاتي المسجّلة على مستند حكوميّ. قرأوها مرتين بتروّ، ثم قرأوها مقلوبة. تبيّن أنّها تمثّل لهم أهمية كبرى. مرّرها كلّ للآخر، وتأملها كلّ بدوره لوهلة، لكنّها استحوذت على الجميع.

لم تكن تلك نكتة شائعة. تهجّاها أخيرا ضابط البحريّة الآمر بتؤدة، وهزّ رأسه ثلاث مرّات أو أربع، وقال إنّه اعتبرها تحريضيّة. تلك هي المرّة الأولى التي أشعر فيها بنذير خطر. قلت على الفور أنّني سأشرح مضمون المستند، فتجمّعوا حولي. هكذا قمت بالشّرح والتّفسير والإيضاح، فانتبهوا لكلّ ما ذكرت ولكني كلّما تماديت في الشّرح، ازداد عجزهم عن الفهم، وحين توقّفت عن الشّرح في النّهاية، تبيّن أنّني لم أعد أفهم ما أقول. ذكروا أنّهم على يقين من أنّها وثيقة تحريضيّة، رقت إلى مستوى المساس بالحكومة. أوضحت برصانة أنّها ليست كذلك، لكنّهم هزوا رؤوسهم فحسب ولم يقتنعوا بما قلت. استغرقوا زمنا في التّشاور، ثمّ صادروها آخر الأمر. حزنت لذلك كثيرا، لأنني استغرقت وقتا في ابتكار الدّعابة، وزهوت كثيرا بها، وأظنّني الآن لن أراها مجدّدا. أعتقد أنها سيبعث بها لتدرج

ضمن الملفات الجنائيّة في روما، وسوف تعتبر أداة جهنميّة تحتمل الغموض، ستنفجر يوما كلغم وتبعثر البابا الطيّب أشلاء، لكنّ معجزة إلهيّة قد تدخّلت في الوقت المناسب. أعتقد أنّني طيلة فترة بقائي في روما، سأكون مطاردا في مكان آخر، لأنّهم يعتقدون أنّني شخصيّة خطيرة.

لا تطاق حرارة الجوّ في سيفيتا فيتشيا. ضاقت شوارعها كثيرا، وأقيمت بيوتها على نحو من التّلاحم والتكتّل والارتفاع، لدرء الحرارة، وهي المدينة الإيطاليّة الأولى التّي لم أر فيها قدّيسا حارسا. وأظنّ بخلوّها تماما منهم، خلا واحدا يصعد في مركبة من النّار ويمكنه تحمّل سخونة الطّقس.

لا شيء هنا يستحقّ المشاهدة. ليس لديهم حتّى كاتدرائيّة. تضمّ أحد عشر طنّا من الفضّة الخالصة، تقع في حوزة كبار الأساقفة في الغرفة السّريّة. كما أنّهم لن يفرّجوك على أيّ من الأبنية العتيقة ذات الأعوام السّبعة آلاف، أو أيّ من واقيات النّار البسيطة، وهي التّحف التي صنعها روبينز أو سيمبسون، أو تايتيان أو فيرجوسون. أو أي من أولئك، وليس لديهم شظايا معبّأة بالقديسين في قوارير، أو حتّى مسمارا من الصليب الحقيقيّ. نحن في طريقنا إلى روما الآن. فلا شيء هنا يستحقّ المشاهدة.

الفصل السّادس والعشرون

ما ذلك الشيء الذى يحقق أكبر قدر من السعادة؟ وأي حدث يفوق غيره في إشعار امرئ بالزّهو؟ إنه الاكتشاف! أي كشفك لمسار لم يطرقه من قبلك أحد، ورؤيتك ما لم تقع عليه عين أحد، واستنشاقك هواء نقيًا لم يستنشقه قبلك أحد. فابتكارك فكرة أي اكتشاف فكرة عظيمة، وقيمة فكرية، تقع مباشرة تحت تراب في حقل وطأته من قبلك عقول مكدودة. كشفك كوكبا جديدا، أو إيجاد وسيلة جديدة ينقل بها البرق رسائلك. الكمال هو أن تكون دوما في المقدّمة. أن تقول شيئا، تفعل شيئا، ترى شيئا، تسبق به الآخرين، وذلك يشعرك بسعادة غامرة تفوق كثيرا مشاعرك الاعتيادية، أو أية مشاعر أخرى، تكون السعادة خلالها أمرا عابرا وقتيا. هذا «مورس» والرسالة البرقية الأولى التي أتى بها خادمه، وفولتون عبر ذلك القرن الطّويل الحافل بالإثارة، حين وضع يده على صمام الغلق، وعجبا أن تحركت الباخرة، وجينر، حين شفى مريضه المصاب بميكروب البقر في مصحّة تعالج داء الجدري، وقد خرج منها معافى، و«هاو» الذي طرأ بفكره أنّ العين عبر مائة وعشرين جيلا، قد كلّت النّظر عبر الجانب الخطأ من الإبرة، ورائد الفنّ المغمور الذي عمل بأزميله، في عصور صارت الآن طيّ النّسيان، ثمّ تأمّل اللاوكون النهائي، و«داجويري» حين تحكّم في ضوء الشّمس، مسافرا في الأفق البعيد لطبع المناظر الطّبيعيّة السّاحرة، على لوحته المعدنيّة المتواضعة، وكولومبوس في غياهب «بنتا»، حين دلّى قبّعته فوق بحر أسطوريّ، ورنا بعينه إلى ما وراء العالم المجهول! عاش هؤلاء جميعا واقعهم، وأدركوا بالفعل معنى الرّيادة، وكثفوا أزمنة طويلة من عمر النّشوة في لحظة واحدة. ماذا تبقي لي في روما من مشاهد لم يرها آخرون قبلي؟ وماذا تبقى لأمسس ما لم يمس من قبلي، وماذا تبقّى لي كي أشعر وأتعلّم وأسمع وأستثار بما لم يفعله آخرون قبلي. ما الذي يمكنني الكشف عنه؟ لا شيء أيًا كان؟ فسحر السفر يموت لدى المرء هنا! ولكن إذا كنت روميًا فحسب!

ولو أضيف إلى ما لدي من خصال، لوهبت بلادة الرومان المحدثين، وإيمانهم بالخوارق، وجهلهم المطبق، وما سأكشف عنه من عوالم مذهلة فيها من العجائب ما ينبو عن الشّك. أجل، ولو كنت من أهل كامبانا، التّي تبعد عنا مسافة خمسة وعشرين ميلا، لشرعت إذن في الرحيل!

سأرحل إلى أمريكا وأرى وأتعلّم ثمّ أعود إلى كامبانا، وأقف أمام بني جلدتي، كمكتشف لا يشقّ له غبار وأقول ساعتئذ:

«شاهدت بلدا، خلا من كنيسة كبرى تبزّ الأخريات، وأناسا يكافحون من أجل العيش. رأيت حكومة تحمى من قبل قوّات أجنبيّة، بثمن أعلى ممّا يتطلّب بقاء الحكومة ذاتها. يستطيع العامّة من رجال ونساء قراءة الكتب، ولو أنّني تجاسرت على الظّن بأنكم ستصدّقون ذلك، لدفعت إلى القول باستطاعتهم الكتابة أيضا. رأيت النّاس في المدن يشربون شرابا لذيذا، صنع من الطّباشير والماء، ولكنّي لم أر قطّ قطعانا من الأغنام تساق هنا عبر شارع برودواي، وشارع بنسلفانيا، أو شارع مونتجمري، وتحلب ألبانها أمام عتبات البيوت. رأيت نوافذ زجاجيّة حقيقيّة حتّى في بيوت الطّبقة الدّنيا من الشّعب، ولم يكن بعضها مقاما بالحجر، أو بالآجر حتّى، وأقسم بحقّ أنّها مقامة بالخشب. قد تتعرض هذه الدّور أحيانا للحرق أو الاشتعال، فتنهار بالكليّة ولا يبق منها أثر. يمكنني ساعة احتضاري، أن أقر بذلك إحقاقا للحقّ. وبيّنة أن ذلك لا يحدث نادرا، أقرّ بأن لديهم ما يسمّى عربة إطفاء، تضخّ أنهارا من المياه، وهي دوما متأهّبة للانطلاق، ليلا أونهارا، إلى البيوت التّي يشبّ فيها الحريق. ستظنّون أنّ عربة واحدة تكفي لكنّ بعض المدن بها مائة عربة من هذه، ولديهم في الخدمة كثير من الرّجال، يعملون برواتب شهرية، لا لشيء سوى إطفاء الحرائق. هناك المئات بل الآلاف من المدارس يستطيع أيّ شخص الذّهاب إليها، وتلقّى من العلم ما يجاوز علم الرهبنة. لو مات غنيّ في هذا البلد العجيب، وهو آثم، يشيّع باللّعن، ولا يمكنه شراء الخلاص من ذنوبه بكلّ ماله. لا يعولّ النّاس هنا كثيرا أن يصبحوا أغنياء، بل إنّ طموحهم في تحقيق الثراء يفوق مطامح الآخرين في أنحاء أخرى من العالم، فكون المرء غنيّا في هذه البلاد، يعني أنه قد حقق مكانة رّفيعة، كاعتلائه منصب مشرّع، أو محافظ، أوجنرال، أو نائب في المجالس التشريعية، ولا يهم في ذلك أن يكون غبيّا أو

جاهلا. ففي إيطالياتنا الحبيبة يحتلّ النبلاء المناصب الكبري، حتّى لو كانوا أحيانا أغبياء بالنشأة. يقدّمون الهدايا الغالية، لصاحب الجاه والثراء ويدعونه إلى المآدب. وإلى احتساء الخمور المعتّقة، لكنه لو كان فقيرا معسرا، فسوف يطلبون منه أن يعمل بهذه العبارة «هوّن عليك». تغيّر المرأة ثوبها كلّ يوم تقريبا، والثوب جميل في العادة، لكنّه غريب الشكل، بحيث يتبدّل طرازه وشكله كل مائتي عام، ولو أنني أشتهي وصفي بالكاذب الكبير، لقلت إنّه يتغير دوما. لا ينمو الشّعر على رءوس الأمريكيات، بل يبتكره لهن صنّاع مهرة في الورش، ويصفّف ويجعد في أشكال فاضحة لا يقرّها الشّرع. يلبس النّاس النّظارات الطّبية لتسّهل لهم الرؤية، وهذا احتمال، وإلاّ فلا فائدة ترجي من لبسها، وفي أفواه البعض أسنان صنعت بيد رجل يدنس المقدّسات. تحمل ملابس الرجال هنا على تنافر مثير للضحك. لا يحملون هنا في أنشطتهم العادية البندقية المسكت عتيقة الطّراز، ولا الهرّاوة الطويلة المدبّبة، ولا يرتدون معاطف فضفاضة، مقلّمة باللون أخضر، ولا يعتمرون قبّعات ذات حوافّ من اللّباد الأسود، وليس لديهم وقاء جلديّ يصل حتى الرّكبة، كما أنّهم لا يلبسون سراويل طويلة من جلد الماعز مشرّبة من الأجناب، أو ينتعلون أحذية في نعالها مسامير مدبّبة الرءوس، أو يحملون في أيديهم مناخس ضخمة. إنّهم يعتمرون قلانس مخروطيّة يطلقون عليها «نيل كاج» ويلبسون معاطف سوداء قاتمة، وقمصانا تبرز ما عليها من وضر، ما يشي إلى أنّهم يبدّلونها مرّة في الشّهر، وأشياء أخرى منفّرة يسمّونها بنطلونات، ترفع إلى الكتف بحمّالات، وينتعلون أحذية طويلة السّاق، كئيبة المنظر أيضا، ولا تصلح للّبس. ورغم ظهورهم بهذا الزيّ العجيب، إلاّ أن هؤلاء قد ضحكوا من لباسي. الكتب شائعة في هذا البلد بحيث لا يدعو إلى الغرابة أن ترى أحدها، وكذلك الصّحف. لديهم هنا آلة ضخمة، تطبع تلك الأشياء، بالآلاف كلّ ساعة.

رأيت أناسا من عامة الشّعب هناك.... ليسوا رهبانا أو أمراء، قد امتلكوا الأرض الّتي يحرثونها ملكيّة خالصة. الأرض ليست مؤجّرة من قبل الكنيسة، أو النّبلاء، وإنّني مستعدّ للقسم على ذلك. يمكن في هذا البلد أن تتعرّض للسّقوط من شرفة في الطّابق الثّالث، ثلاث مرّات، ولا تهرس تحتك جنديّا أو راهبا، فقلّة هذا الصّنف من البشر ملحوظة.

ستلاحظ داخل المدن، أنّ لكلّ ستة أفراد في المدينة، جنديًا واحدا، وكثيرين مقابل كلّ واعظ أو راهب. يعامل اليهود هناك باعتباره بشرًا، وليسوا كالكلاب. يمكنهم العمل في المجال الذّي يفضّلون، ولهم أن يبيعوا من السّلع الجديد، لو شاءوا، ولهم أيضا امتلاك الصّيدليّات، وممارسة مهنة الطبّ وسط المسيحيين، ومصافحتهم والارتباط بصداقات معهم، وممارسة كلّ ما يقوم به البشر في علاقاتهم مع بعضهم بعضًا، فلا تفرض عليهم عزلة، في مكان بعينه من المدينة، ويستطيعون أيضا الإقامة في أجزاء من المدينة كالآخرين، ويقال أيضـا إنّ من حقّهم تملك شركات الأراضـي والعقارات، مع أنّني من جهتي أشكّ في ذلك. كما أنّه لا يفرض عليهم الهرولة عراة في الطّرقات، خلف البغال، لتسلية الحاضرين إبّان المهرجانات، ولا يساقون البتّة من قبل العسكر إلى دخول الكنيسة كلّ أحد، لمئات الأعوام كي يصغوا إلى حديث في عقيدتهم ذاتها وهي تسبّ. يحدث في ذلك البلد وفي أيّامنا هذه، أن يسمح لليهوديّ بالتّصويت في الانتخابات، وبأن يقيم الشّعائر، أجل، فهو يصعد إلى منبر الخطابة على الطّريق العامّ، ويعبّر عن رأيه في الحكومة، إذا لم تناسبه. هذا مدهش حقّا. فالعامّة هناك يدركون الكثير، حتّى إن لهم حتّى التجاوز في شكاياتهم إذا لم يحكموا بالطّريقة الصحيحة، وذلك حتى يبقوا على تواصلهم مع الحكومة ومساعدتها، ولو أن لديهم ما لدينا من تشريعات تقضي بسداد دولار واحد عن نتاج ثلاثة محاصيل من الغلال للحكومة كرسم ضريبيّ، لعملوا بهذا القانون، بدلا من سداد ثلاثة وثلاثين دولارا كرسوم ضريبية، عن كلّ مائة دولار ريع، ولن تتوقف شكايتهم حتى لو فرض عليهم دفع سبعة دولارات ككل، ويا لهم في هذا الأمر من شعب غريب! إنهم لا يعرفون متى يصبحون أثرياء. لا يتجوّل الرّهبان من أعضاء جماعة الإخوة ممن يتلقون الصدقات، بين الناس، وهم يحملون سلالا للتسوّل للكنيسة ومن أجل العيش. يختلف الوعّاظ في هذا البلد عن رهباننا المستجدين، لأنّ لديهم حلّتين للّبس أو ثلاث، وأنهم أحيانا ما يغتسلون. تفوق المرتفعات في هذا البلد مرتفعات الألب، هي مرتفعات كامبانا روما الواسعة، وطولها مائة ميل، وعرضها أربعين، وتعدّ صغيرة بالفعل لو قورنت بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، أمّا التيبر، نهرنا الشّهير الذى يمتد مجراه الهائل إلى نحو مائتي ميل، والذى يكاد يقع على مرمي حجر من روما، هذا النّهر لا يفوق نهر المسيسيبي الأمريكيّ عرضا أو طولا، أو حتّى أوهايو أو هدسون. النّاس في أمريكا أكثر حكمة بالطبع، يفوقون أجدادهم فيما حصّلوا من معارف. لا يحرثون الأرض

بعصا حادّة الطّرف، أو بكتلة من الخشب ذات زوايا ثلاث، تقلّب طبقة الأرض العلوية فحسب. أظنّنّا نفعل ذلك بسبب أن آباءنا قد درجوا على فعله منذ ثلاثة آلاف عام. لكن أولئك لا يوقّرون أجدادهم بالذى يستحقّونه من وقار. إنّهم يقلبون الأرض بمحراث مشرشر حادّ الشّفرة، يصل في الأرض إلى عمق خمس بوصات، ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل يقلّبون حبيبات التّربة بآلة ضخمة تقلّب في اليوم الواحد حقولا بكاملها. يمكنني الزّعم بأنهم يستخدمون أحيانا محراثا ضخما لتقليب الأرض يعمل بالوقود والبخار، يشقّ آكرا من التّربة في ساعة واحدة، لكنّي ألحظ في عينيك شكّا في كلّ ما ذكرت. فوا حسرتاه إذن على ما بلغه أسلوبي من تدنّي، فأنا. أحد المصنّفين في سرد الأكاذيب».

ظللنا طبعا نتردّد على كنيسة القدّيس بطرس العظيمة بانتظام. عرفت كلّ أبعادها. وعرفت حجم بنيتها الهائلة. عرفت أنّها تبلغ بالضّبط أبعاد مبنى الكابيتول في واشنطن من حيث الطّول، ولنقل سبعمائة وثلاثين قدما طولا، وثلاثمائة وستين عرضا، وهي بالتالي أكبر من الكابيتول مساحة. وعلمت أنّ الصّليب الموضوع بأعلى قبّتها، يبلغ ارتفاعه عن الأرض أربعمائة وثمانية وثلاثين قدما، ويزيد إرتفاعا على قبّة الكابيتول، بمائة قدم، أو مائة وعشرين. أما أنا فليس لي سوى بعد واحد فحسب. وددت الاقتراب من إنتاج فكرة صحيحة، عن احتمال ما ستظهر به الكنيسة في المستقبل، فإن لديّ فضولا لإدراك قدر ما قد أقع فيه من خطأ. وهاقد وقعت في خطأ كبير. لأنّ كنيسة القدّيس بطرس، لا تبدو قريبة في الحجم من الكابيتول ومؤكّد أنّها لا تصل إلى جزء من عشرين من جماله، من الخارج.

حين بلغنا باب الكنيسة، ووقفنا مباشرة داخلها، كان من المستحيل إدراك كبر حجم المبنى. وكان عليّ تحديد معلومات شاملة عنها بالأرقام، وكان لا بدّ لي من الرّجوع إلى ذاكرتي للبحث عن مثيلاتها. إنّ كنيسة القدّيس بطرس من الضّخامة بحيث يبلغ ارتفاعها وحجمها ما يعادل ضعف ارتفاع وحجم مبنى الكابيتول في واشنطن، لو وضع أحدهما فوق الآخر، ولو أن الكابيتول يزيد في العرض، أو بحجم بنايتين أو بنايتين ونصف تضمّان عددا من المباني العادية، لو وضعت أحدها فوق الأخرى، كانت كنيسة القديس بطرس بهذا القدر من الضّخامة، ولكنها لا ولن تبدو من الخارج كذلك. والمعضلة أنّ كلّ ما حولها من أبنية متماثل، وعلى هذا النّحو من الضّخامة، بحيث يفتقر إلى التّباين الذّي يمكن القياس عليه، ولا شيء هناك سوى البشر، مع أنّني لم ألحظ لهم وجودا، إذ بدوا حشرات

تسعى. وكانت تماثيل الأطفال، الذين يحملـون أوانـي الماء المقدّس، ضخمة بالقياس إلى منصات التماثيل، وكذلك لكلّ ما كان يحيط بهم. اتّسمت لوحات الفسيفساء الظّاهرة في قبّة الكنيسة بالكبر، إذ صنعت من آلاف مؤلّفة من المكعّبات الزّجاجية، تعادل الواحدة منها طرف إصبعي الأصغر، وقد بدت ملساء، لكنّ ألوانها خلت من ذائقة سليمة، كما كبر حجمها، بما أظهر أنها لا تتفق مع القبّة بالقياس. أقيم في طرف ناء أسفل الكنيسة (ظننت وقتها أنه الطّرف الأبعد، لكنني اكتشفت فيما بعد وقوعه في الوسط أسفل القبّة) أقيم ما يطلقون عليه البالدّاتشينو، وهو شكل هرمي، من البرونز، يشبه عارضة النّاموسيّة، كما كان من حيث الحجم يشبه هيكل سرير يتسم أعلاه بالضّخامة، وقد علمت الآن أنّه يفوق كثيرا شلاّلات نياجرا ارتفاعا. وضعت فوقه قبّة ضخمة فطساء من أعلى. لا يمكنني تحديد أبعاد الرّكائز الأربع أو قواعد الأعمدة، المنفصلة عن بعضها بعضًا بأبعاد متساوية في الكنيسة، ولا يمكنني احتساب أبعادها بإجراء مقارنات. أعلم أنّ واجهة كلّ منها يعادل طول واجهة دار كبيرة، أي خمسين أو ستين قدما، وأنّ ارتفاعها ضعف ارتفاع، بيت عادي من ثلاثة طوابق، لكنّها تبدو صغيرة من الخارج. حاولت بشتّى الطّرق دفع نفسي إلى الاعتقاد، بقدرتي على إقناع نفسي، بضخامة كنيسة القدّيس بطرس، لكنّ ذلك أتي بنتيجة لا تذكر. بدا أحد الحواريين بحجمه العادي، في لوحة فسيفسائيّة حيث صوّر جالسا يكتب بريشة من ستّة أقدام.

لكن النّاس بعد برهة، قد شدّوا انتباهي. إنّ الوقوف بباب كنيسة القدّيس بطرس، والنظر إلى الواقفين أسفل الطّرف الأقصى من مسافة بنايتين، قد فقدوا اهتمامهم، حيث أحيطوا بلوحات ضخمة وتماثيل، وتاهوا في مساحات شاسعة، ويبدون أكثر ضآلة مما لو وقفوا على بنايتين في الفضاء الفسيح. قدرت حجم رجل مرّ بي، وتابعته حتّى ابتعد إلى البالداتشينو ثم تجاوزه، فرأيته وقد تحوّل إلى صبيّ، ووقف بين حشد من الأقزام قد أحاطوا به، واختفى بعد ذلك عن ناظريّ. تجرى مؤخّرا أعمال زخرفية داخل الكنيسة، بمناسبة الاحتفاليّة الدّينيّة الكبرى، بذكرى القدّيس بطرس، وقد انشغل النّاس الآن بإزالة الزّهور والأوراق المطليّة بماء الذّهب من الجدران والأعمدة. نظرا لاستحالة بلوغ الدّرج الأماكن العالية، دلّى الرّجال أنفسهم من السّور الحديديّ، ومن تيجان الأعمدة بحبال طويلة، لأداء تلك الأعمال. يبلغ ارتفاع الشّرفة الخارجية العليا المحيطة بالقبّة من الدّاخل،

مائتين وأربعين قدما، أعلى طابق الكنيسة. قلّة ضئيلة من المتسلقين في أمريكا هم الذين يمكنهم بلوغ هذا الارتفاع. يصعد الزّوار في الغالب إلى هناك لينظروا من أعلى إلى داخل الكنيسة لأنّ المرء يكوّن فكرة أفضل عن بعض الأبعاد والارتفاعات من ذلك المكان. تدلّى أحد العمال ونحن وقوفا هناك، من تلك الشّرفة بطرف حبل طويل. لم أكن من قبل أظنّ أنه يمكن لإنسان، أقرب في الشبه كثيرا إلى العنكبوت. كان ضئيلا في الحجم، وبدا حبله مجرّد خيط. يمكنني وأنا أرقب صعوده لمسافة جد قصيرة، تصديق من ثم تلك الرّواية التي تقول بأنّ عشرة آلاف من المحاربين، قد ذهبوا إلى القدّيس بطرس ذات يوم، لحضور قدّاس، أتي الضابط قائدهم فيما بعد، ولم يعثر عليهم، ظنًا منه أنهم لم يصلوا. لكنّهم مع ذلك كانوا داخل الكنيسة، وكانوا جميعا في قطاع واحد منها. تجمّع ما يقارب الخمسين ألف شخص، في كنيسة القديس بطرس لسماع الإعلان عن نشر تعاليم العقيدة للتطهّر من الدنس. قدّر لذلك الطّابق من الكنيسة أن يسع عددا كبيرا من النّاس، وغاب عن ذاكرتي الرقم الصّحيح. لكنّ ذلك لا يهمّ لأنّه يقارب عددا هائلا.

في كنيسة القدّيس بطرس اثنا عشر عمودا، صغيرالحجم، جيء بها من هيكل سليمان. هناك أيضا ما شد انتباهي كثيرا، وهو وجود قطعة من الصّليب المقدّس وبعض مسامير منه، وجزء من إكليل الشّوك.

صعدنا بالطّبع إلى أعلى قبّة الكنيسة، وأفضينا بالتالي إلى داخل الكرة النّحاسيّة المطليّة بماء الذّهب، والتي تقع بأعلى القبّة. كان فيها متّسع لحشد صغير من البشر، أي نحو إثنا عشر شخصا، وكانت حارة خانقة كالموقد. أتى من قبلنا إلى هذا المكان بعض المغرمين بكتابة أسمائهم في أماكن بارزة، وأظنّهم مليونا أو مليونين. يمكن للشخص أن يرى من فوق قبّة كنيسة القدّيس بطرس، كل أثر تاريخيّ في روما، من أوّل حصن القدّيس أنجلو، حتّى الكوليسيوم (مدرج روما القديمة).

ويمكنه مشاهدة التّلال السبعة، التّي أقيمت فوقها روما، ونهر التّيبر وموقع الجسر الذّي استولى عليه هوريشيوس ببسالة الأقدمين، حين حاول لارس بورسينا، عبوره بجيشه الغازي. يستطيع أيضا أن يرى الموقع الذّي قاتل فوقه كلّ من هوراتي، وكيوراتي معركتهما الشهيرة. ويستطيع أن يشاهد كامبانا الخضراء الفسيحة، ممتدة نحو المرتفعات الجبليّة، وقد انتشرت فوقها قناطر وجسور من الأزمنة القديمة، ماثلة بصورتها الحيّة بين

الرّكام الضّارب في القدم، وهي التّي أتقنت فيها رقوش على هيئة أغصان الكرم، ويمكنه مشاهدة جبال الألب، والآبناين، وتلال سابابن. والبحر الأبيض بصفاء زرقته. يراه في منظر شامل، وتلمح فيه العين ذلك التنوّع والبعد والجمال، وما يحظى به من صيت عبر التّاريخ، يفوق أيّ مكان آخر في أوروبّا. تترامى تحت قدميه مدينة كانت يوما آهلة بأربعة ملايين نسمة، وبين أبنيتها المكتلة يظهر حطام الهياكل والأعمدة، وأقواس النّصر التي عرفت القياصرة وظهور فجر الرّومان، وتلاحمت معا بقوّة لا تلين، وأن يرى مصرفا في بنية ضخمة مقنطرة، تابعا لتلك المدينة الأقدم، المقامة هنا منذ مولد كل من رومولوس وريموس، أو قبل أن تخرج روما إلى الوجود. يقع في هذا الموضع أيضا طريق أبيان، ربما بدا كما كان في السّابق، حين سارت فوقه مواكب الأباطرة الظّافرين، في الأيّام الخوالي، تحمل الأسرى من الأمراء المصفّدين في الأغلال من كلّ أصقاع الأرض. لن يسعنا رؤية موكب المركبات الحربيّة الطويل، والدّارعين من الرّجال، وهم محمّلين بغنائم الحرب، بل يمكننا تخيّل. الموكب على هذه الصّورة. شاهدنا أشياء كثيرة مهمة من قبّة كنيسة القدّيس بطرس، وكان آخرها على مرمى حجر من أقدامنا، حيث استقرّت أعيننا على المبنى الذّي كان يوما مقرّا لمحكمة التّفتيش. كم تغيّر الزّمن بين القديم والحديث! نزع جهلاء روما منذ ثمانية عشر قرنا إلى وضع أفراد مسيحييّن في ساحة الكوليسيوم، هذا الظّاهر هناك، وأطلقوا عليهم الحيوانات المفترسة كعرض للمشاهدة والفرجة. وكان ذلك بمثابة عبرة للنّاس أيضا.وكان ذلك ليتعلموا كراهية وخشية الدين الجديد الذى يبشر به أتباع المسيح. مزّقت الحيوانات الضّحايا أشلاء، وجعلت من أولئك المساكين. أشلاء بغير معالم في طرفة عين، ولكن حين تولّى المسيحيّون السّلطة في البلاد، وحين صارت الكنيسة المقدّسة الأمّ، سيّدة على كلّ الدّيار، بينّت لهم خطأ أساليبهم باتّباع أساليب أخرى كثيرة، بل أساليبا تختلف كثيرا عن سابقاتها، قدّمتهم الكنيسة إلى محاكم التّفتيش البهيجة هذه، وأومأوا إلى المخلّص المبارك، الذى كان رحيما بالنّاس وعطوفا، وحثّوا البرابرة على حبّه، وفعلوا ما وسعهم في الدأب على حبّه وتمجيده، بدءا بخلع الإبهام عن مفصله باللّي، ونزع اللحم بكمّاشات مجمّرة، كي تعينهم على الطّقس البارد، ثمّ سلخهم وهم ينازعون الروح، وانتهاء بحرقهم على الملأ. وبهذه الأساليب أقنعوا أولئك البرابرة. فقد طبقت العقيدة الحقّة بالضبط كما درجت الكنيسة الأم على تطبيقها، برقّة بالغة. ذلك فضلا عن أسلوب الإقناع الذى تتبعه، بشكل يدعو إلى الإعجاب. هناك فرق كبير بين تقديم الأفراد طعاما للوحوش الضّارية، وبين

إثارة أرقّ المشاعر في إحدى محاكم التّفتيش. فأحدهما نظام يتبع مع برابرة فاسقون، أما الآخر فسار عليه متحضّرون تنويريون. ومن بالغ الأسف زوال محاكم التفتيش عاشقة الدعابة.

أفضّل ألاّ أقوم أنا بوصف كنيسة القدّيس بطرس. فقد حدث ذلك من قبل. ترقد رفات بطرس أحد تلامذة المخلّص، في سرداب يقع تحت البالداتشينو. وقفنا بوقار في ذلك المكان، كما فعلنا ذلك في سجن مامرتاين، حيث مكان أسره، وحيث هدى الجنود إلى الدّين الجديد، وحيث تذكر الرّواية القديمة، أنّه شقّ ينبوعا، من الماء كي يعمّدهم به، ولكنّ حين أرونا أثر وجه بطرس مطبوعا على صخرة مصقولة من جدار السّجن، وقالوا أنّه هو الذى فيها هذا الأثر بسقوطه فوقها، شككنا نحن في الرّواية. وحين أرانا راهب في كنيسة سان سباستيان، حجرا مستويا، به أثر قدمين كبيرين، وذكر أنّهما لبطرس، شككنا أيضا في قوله. هذه الأشياء لا تأثّر في أحد البتة. قال الرّاهب إنّ الملائكة حضرت وحرّرت بطرس من الأسر في اللّيل، وإنّه فرّ من روما، سالكا طريق أبيان. التقاه المخلّص، وطلب منه العودة، وفعل ما أمر به. ترك بطرس آثار قدميه تلك على الحجر الذّي وقف فوقه حينئذ. ولم يحدّدوا كيف تمّ الكشف عن هويّة صاحب أثر القدمين، حيث يصّعب عليهم رؤية اللقاء ليلا. كانت بصمة الوجه لرجل بحجمه الطّبيعيّ، أمّا أثر القدمين، فلرجل طوله عشرة أو اثني عشر قدما. وقد ضاعف ذلك شكّنا في الأمر.

كان حريّ زيارة فوروم، حيث تمّ اغتيال قيصر وحيث تقع الصّخرة التاربيانية أيضا.

رأينا في الكابيتول المجالد المحتضر. وأظنّ أن إعجابنا بذلك الفنّ، ربما لا يقل عن إعجابنا بالرواية المرعبة المنقوشة على الرّخام في الفاتيكان، وهي اللاوكون. والكوليسيوم من ثمّ.

كان الجميع يعرفون لوحة الكوليسيوم، كما يتعرفون في الحال على علبة القبّعات المزوّدة بشبّاكيّة وحلقة، مع بعض تآكل في أحد جنبيها. ولكونه معزولا تماما. فقد حظى باهتمام، يفوق ما تحظى به آثار روما التّاريخية الأخرى. حتّى البانثيون الجميل، (هيكل آلهة الرّومان القدامى) وموضع دفن عظمائهم، ذلك الذى ترقي الآن مذابحه الوثنية، الصليب، والذى ظهرت به فينوس في زخارف دينية رخيصة، وهي في ذلك مكرهة على أداء

هذا الـدّور، كما يحدث الآن تحديدا مع العذراء مريم، وهـذا البانثيون، قد أقيمت حوله الدور بصورتها المقززة، فضاع منه ما كان يحمل من مهابة. لكنّ الكوليسيوم، ملك الآثار الأوروبيّة، ما زال يحتفظ بتلك الذخيرة، وتلك الفرادة الجديرة بالملوك. تظهر الأعشاب والزّهور من قناطره الضّخمة، ومقاعده المستديرة، وتدلّت أغصان الكرم من بين جدرانه الشّاهقة. يرين صمت معبّر على هذا المبني الضّخم حيث ألف الرّجال والنّساء الاحتشاد في أيّام أخر. اتّخذت الفراشات لها موضعا بين ملكات الأناقة والجمال منذ ألف وثمانمائة عام، وجلست السّحالي تتشمّس، على مقعد الإمبراطور المقدّس. يحكي لنا الكوليسيوم بانفعال، أكثر ممّا يرويه التّاريخ المدوّن، قصّة ظهور روما العظيمة، وقصّة انهيارها. وهو الوجه الأمثل للحدثين. قد نشعر أنه يصّعب علينا ونحن نطوف بأنحاء روما اليوم، الإيمان بعظمتها وبملايين البشر الذّين كانوا يأهلونها، ولكنّ الدّليل القاطع والماثل أمامنا، يؤكّد أنّ الأمر قد استلزم أن يكون لها مسرحا مزوّدا بقاعة استقبال، تسع جلوس ثمانين ألف شخص، وقاعة تسع وقوف ألف شخص، وتقدّم لمواطنيها، ما يطلبونه من فقرات ترفيهيّة، فنرى بذلك أنّ الأمر ليس عصيًا على التصديق.

يربو طول الكوليسيوم على ألف وستمائة قدم، وعرضه سبعمائة، وارتفاعه مائة وخمسة وعشرين قدما، وهو بيضاويّ الشّكل.

نحن في أمريكا نستخدم المجرمين في أعمال مفيدة، في الوقت نفسه الذى يخضعون فيه لتنفيذ العقوبة عمّا اقترفوا من جرائم. نستخدمهم في أعمال الزراعة، ونحثهم على تحقيق دخل للحكومة، وذلك بصناعة البراميل، وإقامة الطّرق. وبذا نكون قد قرنّا العمل بالتّوبة عن ارتكاب الجريمة، وذلك عن طيب خاطر، لكنّهم في روما القديمة، قد قرنوا الواجب الدينيّ، بالمتعة. حين استلزم الأمر إزهاق أرواح أتباع الدّين الجديد الذين عرفوا بالمسيحيّن، ورأوا أن يكون هذا العمل مصدر دخل للحكومة، وعرضا مسليًا للجمهور. أحيانا ما كانوا يلقون، بأعضاء الطائفة المكروهة في ساحة الكوليسيوم ويطلقون عليهم الحيوانات المفترسة، فضلا عما كان يقدّم من فقرات لمصارعة الجالدين، وبقيّة العروض الأخرى. يقدّر عدد من استشهد من المسيحيين في هذا المكان بسبعين ألف نفس. ذلك ما جعل الكوليسيوم مكانا مقدّسا لدى أتباع المخلّص. وخيرا فعلوا، لأنّه لو قدّس قيد غلّ به قديس، أو قدّس أثر لقد. قدّيس على حجر تصادف أن وقف عليه، فأولى أن يكون هذا المكان الذّي أزهقت فوقه روح إنسان، مكانا مقدّسا.

كان هذا الكوليسيوم، على مدار سبعة أو ثمانية عشر ألف عام مضت، مسرحا لروما، وكانت روما في ذلك الوقت سيّدة العالم. قدّمت المهرجانات الكبرى هنا في حضور الإمبراطور، وأعضاء الحكومة الكبار، والنّبلاء، وعدد كبير من المواطنين، من الطبقة الأدنى. تصارع الجالدون مع بعضهم بعضًا، وأحيانا مع الأسري المحاربين، من شتّى البلاد. هذا مسرح روما العالمي، حيث كان أحد المتأنّقين من أصحاب المنزلة العليا، لا يستطيع بطريقة عرضية وغير مقصودة الإشارة إلى «مقصورتي الخاصّة في الكوليسيوم» لا يستطيع التحرّك في مقاعد الدرجة الأولى. حين رغب أحد التّجار، إثارة حفيظة تاجر البقالة المجاور له، حجز مقاعد خاصّة به في الصّف الأوّل، وأشاع ذلك بين النّاس. وحين رغب بائع الملبوسات العتيد، إحداث فساد وخراب مقصود، تجهّز بأحسن الثّياب، ودون أن يضع اعتبارا لأحد اصطحب شابّة مقترنة بآخر، إلى الكوليسيوم، وتمادى في وقاحته أمام النّاس، باتخامها بالمرطّبات خلال الفواصل، أو بالاقتراب من قفص المكلومين، واستثارتهم بعصاته المصنوعة من فكّ الحوت، بهدف بثّها ثقافته. لم يظهر معدنه الأصيل إلاّ حين وقف منتصبا أمام قاعدة عمود، وفتل شاربه غير آبه بالسّيدات الحضور، وحين شاهد مباريات المصارعة الدّامية من خلال عدسات الأوبرا المكبّرة بطول بوصتين. وعند إثارته ضغينة السّذج بانتقادات تشي باعتياده ارتياد الكوليسيوم، مرّات ومرّات، وقبل ظهوره بزمن طويل، وعندما هم بالانصراف متثاءبا في النهاية، قال:

« أي نجم هذا ! لقد تعامل بسيفه كقاطع طريق مبتدئ. قد يصلح للرّيف، لكنه لا يصلح أبدا للعاصمة ».

يا لسعادة من يقوم بتهريب السلع المحظورة، بحصوله على مقعد في الصّفوف الأماميّة في حفلة السّبت المسائيّة، وسرور البلطجي الروماني الشاب، آكل الفول السّوداني ومناوش المصارعين من الشّرفة العليا الغاصّة بالجلبة.

نالني الشّرف الرّفيع، بعثوري بين نفايات الكوليسيوم التّاريخيّ، على برنامج يوضح ما كان يدور بتلك المنشأة من أحداث، لا يزال يحتفظ برائحة شراب النّعناع، وقد ظهرت قضمة في أحد أطرافه، وكتبت في حاشيته هذه العبارات بلاتينية سليمة، وخطّ أنثويّ واضح:

«قابلني مساء الغد، على هضبة تاريبيـان، في تمام التاسعة. ستغيب أمّي عن البيت، وفي زيارة لصديقاتها في تلال سابابين».

يا للعجب، أين في أيامنا هذه، ذلك الشّباب السعيد، وأين تلك اليد الرّقيقة التّي اختطت هذه السّطور الجميلة! طوى كلّه في رماد وغبار السنين الألف والسبعمائة هذه!

ولنقرأ هذا البرنامج :

الكوليسيوم الرومانيّ

تنبيه خاصّ

مزايا جديدة! أسود جديدة! مصارعون جدد!

بيان بما استحـدث

مارشيللو فاليريان

لستّ ليـال فقـط

تتشرّف الإدارة بأن تقدّم للجمهور ما يفوق متعة كلّ ما يقدّم الآن وفي المستقبل، على أيّ مسرح. ولن ندّخر أيّ جهد في أن نجعل حفل الافتتاح جديرا بزبائننا الكرام، وستشعر الإدارة أنّ في ذلك تتـويجـا لمجهوداتها. وتتشرّف الإدارة بأن تعلن نجاحها في تقديم الفقرات التّالية.

كوكبة من المـواهب

لم يشاهد أفرادها في روما من قبل.

مبارزة بالسّيـــــف العريض

بين شابّين اثنين، ومجموعة من الهواة الواعدين، ضدّ مبارز بارثياني شهير وصل لتوه أسيرا من معسكر فيروس.

يلي ذلك عرض كبير

مبارزة ببلطة الحرب

بين فاليريان الشّهير (ويده مقيّدة خلف ظهره)، في مواجهة اثنين من العمالقة القساة وفدا للتو من بريطانيا.

تلى ذلك مبارزة لفاليريان الشّهير. لو ظلّ حيّا. بالسّيف العريض.

بيده اليسرى

مواجها سبعة من طلبة المرحلة الثّانية، وآخر مبتدئ، من كليّة المجالدين!

يلي ذلك سلسلة طويلة من العروض الرّائعة، يقدّم خلالها أرقى مواهب.

الإمبراطوريّة.

يليه الطّفل المعجزة الشّهير.

«الأخيليّ الصّغيـــر»

يصارع أربعة من أشبال النّمور، أعزلا دون سلاح، سوى حربة صغيرة!

السّفاح الكبيـــــر

سيقاتل ثلاثة عشر أسدا أفريقيا واثنين وعشرين من الأسرى البرابرة حتّى يقضي عليهم جميعا.

مكتب الحجز مفتوح من الآن

حجز شرفة أصحاب الملابس الرّسمية دولار واحد. والأطفال والخدم بنصف القيمة.

سيسند حفظ النّظام والحيلولة دون تخطّي الحيوانات للحواجز وإزعاج الجمهور. لقوّة من رجال الشّرطة.

تفتح الأبواب في السّابعة، ويبدأ العرض في الثّامنة، ولا وجود لمقاعد مجّانية حول الحلبة، ذلك بصورة قطعيّة.

ديودوروس، صحيفة العمل.

كان من دواعي التميّز والغبطة والامتنان، عثوري وسط نفايات الحلبة، على نسخة بالية ممزّقة، من صحيفة «العرض الرّوماني للمبارزة بالبلطة الحربيّة»، اليومية، متضمّنة مقالة نقديّة لهذا العرض. يعثر عليها في زمن متأخر لقرون عديدة، ليصبح خبرا من الأخبار، لذلك ترجمت هذه النسخة، ونشرتها هنا كي أبيّن أنّ هذا الأسلوب وذلك الإيجاز في صوغ النّقد الدّرامي، قد تغيّر عبر أزمنة طويلة تمر وئيدا، منذ أن وضع الموزّعون هذا الإعلان، جديدا طازجا، أمام العيان من أهل روما:

«موسم الافتتاح، كوليسيوم، رغم سوء الأحوال الجوية، حضر في اللّيلة الماضية عدد كبير من وجهاء المدينة، لمشاهدة الظهور الأوّل على مسارح العاصمة للممثل التّراجيدي الشّاب، الذّي نال استحسان الجمهور الكبير على مسارح الأقاليم. كان الحضور ستين ألف شخص، وكادت الطرقات أن تغلق بالفعل، يؤكّد ذلك امتلاء المدرّجات عن آخرها".

شرّف بالحضور في المقصورة الرئيسة صاحب الجلالة المعظّم، الإمبراطور أوريليوس، وشرف حضور هذا الافتتاح كثير من النّبلاء المعروفين، وجنرالات جيش الإمبراطوريّة، وكان من بينهم ولا يقلّ عنهم شأنا، النّبيل الشّابّ الملازم، الذّي لا يزال ما ناله من أكاليل النّصر، نضرا على جبينه. وسمع دويّ الترحيب به ما بعد نهر التّيبر!

تمثّل التحسينات الأخيرة وأعمال الزّخرفة، إضافة لجمال ورقّة الكوليسيوم. تمّ تزويد المقاعد الرّخاميّة الضّخمة بدثر جديدة، طالما ألفناها لزمن طويل. تستحقّ الإدارة الحالية امتنان الجمهور، فقد أعادت إلى الكوليسيوم ما يليق به من فخامة، وزخارف مموّهة بماء الذّهب، ودثر أنيقة، تلك التّي يذكر رواد الكوليسيوم القدامى اعتزاز روما بها.

كان مشهد الافتتاح في اللّيلة الماضية والخاصّ بالمبارزة بالسّيف البتّار، بالغ الرّوعة، وكان بين اثنين من الهواة، ومصارع بارثياني شهير. جيء به من السّجن مؤخّرا. تعامل أكبرهما مع سلاح المبارز الباراثيني الشّهير. برشاقة. نمّت عمّا يتمتع به من ذكاء،

نادر. تلا مراوغته بالهجوم، تسديد ضربة بارعة، أطاحت بخوذة البارثيني، قوبلت من وقت لآخر بهتاف جادّ. لم يكن موفّقا قط في ضربة بظاهر يده، لكنّها قوبلت من أقرانه الكثيرين بإعجاب لتعلّمهم إيّاها، لكنّه بمرور الوقت قادر على معالجة على هذا القصور. ورغم ذلك قد لقي حتفه.

عبرّت شقيقاته الحاضرات عن عميق حزنهن على مصرعه، وقد غادرت أمّه الكوليسيوم. أكمل الأصغر. المبارزة بحماس منقطع النّظير، وسط هتاف الجماهير. وحين سقط صريعا في النّهاية، شرعت أمّه المسّنة في العويل، وتناثر شعرها، وتساقطت عبراتها بغزارة ثمّ هوت مغشيّا عليها، وهي تتشبّث بدرابزين الحلبة. قام رجال الشّرطة على الفور بنقلها. ربما كان سلوك المرأة مقبولا في ظروف كتلك، لكننّا نرى وجوب التزام الوقار في هذه المواقف، فى أثناء العروض، فذلك الذى حدث لا يليق في حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور. قاتل السّجين البارثياني ببراعة وبسالة، وكان حريّا به أن يفعل ذلك، لأنّه كان يقاتل من أجل الظّفر بحياته وحريته. كان أبناؤه وزوجته من بين الحضور، لمساندته بتأييدهم، ولتذكيره بأنّ واجبه يحتم عليه أن يرى وطنه مجدّدا لو حقّق الفوز. حين سقط الآخر صريعا، بكت الزّوجة فرحا. لكنّ الفرح كان قصيرا، إذ اتّجه الأسير إليها وهو يترنّح، فأدركت أنّ حريته باتت على الأبو'ب، بعد طول ترقّب. لكنّ إصابته كانت قاتلة. انتهى الجزء الأول، بشكل نال امتنان الجميع، واستدعي المدير إلى المسرح، وردّ شاكرا على ما لقيه من تكريم، من خلال خطاب حافل بالدعابة والقفشات، وختمه بأمل مواصلة جهوده المتواضعة في تقديم التّسلية الهادفة، والمتعة، فتلقى من الجمهور الرّوماني. كلّ استحسان.

لقد ظهر النّجم الآن، وقوبل بهتاف مدوّ، وتلويح ستين ألف منديل في آن. يعدّ ماركوس مارسيلوس فاليريان (وهو اسم الشّهرة، واسمه الحقيقي سميث)، مثالا رائعا للتربية البدنيّة، وفنّانا ينحى بفرادة نادرة. يثير الإعجاب استخدامه بلطة القتال. ولا يضاري ميله إلى الدّعابة، من خلال حركاته الكوميديّة، التي تتراجع إلى أدنى مستوى مقابل مفاهيمه السّامية في حركاته التراجيديّة الجادّة. حين كانت بلطته، تدور دوراتها المحمومة، حول رءوس البرابرة الضّالين. كان جسده يتمايل معها، وتتبختر ساقاه. فلا يتمالك الحضور أنفسهم من الضّحك، ولكنّ حين كان سلاحه يطيح برأس أحدهم، ويشقّ في اللّحظة ذاتها جسد آخر نصفين. كانت حرارة هتافهم ترجّ المبنى، دليل إجماع الآراء على

زعامته للمحترفين. لو ارتكب خطأ واحدا (وإننا نأسف حتّى إلى التلميح بذلك) فسبب ذلك التفاته إلى النظّارة خلال أكثر لحظات العرض إثارة، وكأنه يبتغي بذلك إظهار إعجابهم. وما يعد أيضا خروجا عن اللّياقة، توقّفه والانحناء فى أثناء المبارزة لتلقّيه الورود. وقد تبيّن أنّه خلال مبارزة باليد اليسرى، كان يستغرق نصف الوقت، في النظر إلى الجمهور، بدلا من شقّ أجساد مبارزيه، وحين يقوم بذبح اليافعين من الشّباب، ويداعب ذلك المبتدئ، كان يتوقّف لإلتقاط باقة ورد، قبل سقوطها، على الأرض، ويقدّمها لخصمه، مع ضربة قاصمة منه تودي بهلاك الخصم. لا شك أنّ هذا العبث يناسب مباريات الأقاليم، ولا يتلاءم مع مجد وشرف العاصمة. إننا على ثقة تامّة، من أنّ صديقنا الشّاب، سيضع هذه الملاحظات موضع الاعتبار، فنحن لانبتغي من ذلك سوى صالحه فقط. يدرك من يعرفنا أنّه رغم توخّينا الصّرامة أحيانا، بشأن النّمور والشّهداء، فإننّا لا نقصد البتّة جرح مشاعر المصارعين.

أظهر الطّفل المعجزة الأعاجيب. إذ قهر أشبال النّمور الأربعة بسهولة، ولم يصب بأدنى أذى، سوى جرح في موضع من فروة رأسه. وقد أدى السفاح الكبير دوره كاملا بكل حذافيره، ما يظهر جدارته الكبرى في هذا العرض بالذات عن باقي مشاركاته الأخيرة.

أضفت عروض اللّيلة الماضية مزيدا من التكريم، ليس للإدارة فحسب بل للمدينة التي تدعم وسائل التّرفيه، البنّاءة والثقافيّة. سنلفت في هذا السّياق إلى أن صغار السّوقة بمسلك إلقاء الفول السّوداني، والكرات الورقيّة على النّمور، والهتاف بصيحات مثل «بيه، بيه» وإظهار استحسان أو استهجان بعبارات مثل «مرحى بالأسد» «إهجم أيّها المصارع، اركل، تكلّم، التفّ حول الأبله» ودواليك، ما يستدعي تعنيفهم، بخاصّة أن ذلك يحدث، في حضور الإمبراطور، وحريّ بالشّرطة الحيلولة دون إقدامهم على هذه التصرفات. حين دخل العمال الحلبة في الليلة الماضية، لإخلاء الجثث، هتف المتوحّشون الصّغار في أثناء العرض: «حثالة، حثالة. وهتفوا أيضا» «أوه ما أجمله من معطف» «لم لا تدثّرهم ببطانة» مع الانتباه إلى ما عدا ذلك من تعليقات ساخرة. تسبب كلّها في إزعاج الجمهور.

«تبدأ الحفلة النّهاريّة للفتية من صغار السنّ بعد الظّهيرة، وسيعرض فيها التهام النّمور عدّة بائسين، سنواصل عرضنا كلّ ليلة بانتظام، حتّى إشعار آخر. نقدم كلّ مساء فقرات جديدة. بكّروا بحضوركم عرض فاليريان غدا الثّلاثاء، وذلك إن بقي على قيد الأحياء».

لديّ بدوري نقد دراميّ حديث، وغالبا ما أدهشني أن ألحظ أن معرفتي بما فعله هاملت قد تجاوزت كثيرا معرفتي بما فعله فوريست. وأنّه يثلج صدري الآن أن أدرك أنّ إخوتي في العصور الغاربة قد عرفوا جيّدا كيف كان السّيف العريض في النّزال أجدر في النزال من المبارزين.

الفصل السّابع والعشرون

لو حقّ لإنسان أن يزهو بنفسه، وأن يشعر في داخله بالرضا، فمؤكّد أن أكون هذا الإنسان. ذلك لأنّني كتبت عن الكوليسيوم، والشّهداء والمصارعين والنّمور والأسود، ولم أستخدم قط عبارة «ذبح كي يستمتع بعطلة رومانية» فأنا الراشد الوحيد بين أحرار البيض، الذي أنجز هذا منذ ابتدع بيرون هذه العبارة.

تتردد ألف مرّة في الصحف عبارة «ذبح كي يستمتع بعطلة رومانية»، على مدار ألف وسبعمائة أو ثمانمائة عام، وما لبثت أن أصبحت مملة. رأيتها في كلّ ما كتب من كتب عن روما، وها هي مؤخّرا تذكّرني بالقاضي أوليفر. كان أوليفر محام شبّ. تخرّج من مدرسة الحقوق حديثا، وذهب إلى صحراء نيفادا، ليستهلّ عمله هناك. وجد أنّ الرّيف وأساليبنا المعيشية هناك، في ذلك الوقت المبكّر، ستكون مختلفة عن الحياة في نيو إنجلاند أو باريس. لبس قميصا صوفيّا وزوّد نفسه بمسّدس بحري، وتعود تناول شرائح خنزير وفاصوليا الرّيف، وقرّر أن يفعل في نيفادا ما يفعله النيفاديون. تقبّل أوليفر الوضع بأريحيّة. ورغم تعرّضه لكثير من المعاناة خلال رحلاته؛ فإنه لم يكن شكّاء البتّة. فلم يحدث أن شكا من شيء قط سوى مرة واحدة. اتّجه بصحبتي واثنين آخرين، إلى مناجم الفضّة الجديدة الواقعة، في مرتفعات همبولدت، لكي يتولى منصب قاضي إثبات صحّة الوصايا، أمّا نحن فكانت وجهتنا العمل بالمناجم. بلغت المسافة إلى هناك ما ئتي ميل، وكنا في آخر الشتاء. قمنا بشراء عربة يجرها حصانان، حمّلناها بألف وثمانمائة رطل من لحم الخنزير، والدّقيق والفاصوليا، والبارود، والمعاول والجواريف، وابتعنا فرسين هزيلين، تجعّد شعرهما بصور فجّة، وحفل جسداهما بمنعطفات تفوق منعطفات مسجد عمر. كانت الرّحلة مرعبة، لكنّ أوليفر، لم يتبرّم من شيء. جرّت الجياد العربة لميلين من المدينة، ثم أدركهما التّعب. قام ثلاثتنا بعد ذلك بدفع العربة لمسافة سبعة أميال، وتقدّم أوليفر وسحب الجياد خلفه من شكائم لجمها. تبرّمنا ولم يتبرّم أوليفر. جمدت الأرض من شدّة الرّطوبة، وجمدت بالتالي

ظهورنا، ثم غلبنا النّعاس. عصفت الرّيح بوجوهنا، ويبّست أنوفنا، ولم يتبرّم أوليفر. أمضينا خمسة أيّام ندفع العربة إلى الأمام، بلغنا مع برودة اللّيل الشديدة، أسوأ مراحل الرّحلة، وهي الميل الأربعين من الصّحراء، أو من الصّحاري الأمريكيّة الكبري، لوشـئت. ولا يزال الرّجل الوديع غير بارم بشيء. واصلنا الرّحيل في الثّامنة صباحا، نخوض رمالا لا قاع لها، ونكدح طوال النّهار، مرورا بألف عربة محطّمة، وعشرة آلاف هيكل عظميّ للثيران، وركام من العجلات يكفي تطويق نصب واشنطن التّذكاريّ من قاعدته حتّى قمّته، ولجم ثيران تكفي تطويق لونج أيلاند برمّتها، وجبّانات بشريّة، مع جفاف في حلوقنا، وظمأ، ونزف شفاه تأثّرت بالغبار الحمضيّ، فضلا عن الجوع وتفصد العرق، وشدّة الإنهاك، إنهاكا كان يجعل من الصّعب علينا الخلود إلى النّعاس، حين كنّا نسقط من الإعياء على الرّمل كل خمسين ياردة، حتى تلتقط الجياد أنفاسها، كل ذلك ولا أثر لشكاية من أوليفر، لا شيء من ذلك البتّة، عند الثّالثة من صبيحة اليوم التّالي، وحين أصبنا بإعياء، بلغ بنا حدّ الموت. استيقظنا لثلاث ليال فيما بعد في منتصف اللّيل، في واد ضيّق، والثلوج تتساقط على وجوهنا، وتعرضنا لخطر التجمّد الدّاهم، جهّزنا أطقم الجياد، ومضينا على الطريق حتّى الثّامنة صباحا دون توقّف، عبرنا الشّعاب، وأدركنا أننا نجونا. ولا شكاية. أوصلتنا رحلة خمسة عشر يوما من الإعياء والنصب إلى نهاية المائتي ميل، وقاضي التحقيقات لا يتبرّم قطّ ولا يشكو. تعجّبنا من أنّ شيئا لا يمكن أن يثير سخطه أو برمه. أقمنا بيتا في همبولدت. أقيم بهذه الطريقة. تقوم بحفر مربّع أسفل منحدر في الجبل، وتقيم عمودين، وتثبتهما بعارضتين علويتين. تمدّ ملاءة كبيرة قطنية، من نقطة التقاء الرّافدتين بالأرض على جانب التل، وهذا هو السّطح وواجهة البيت، أمّا الأجناب والخلفية، فهي الجدران التي بقيت إثر الحفر. أمّا المدخنة فقد أقيمت بسهولة، بفتح ركن بأعلى السّقف. كان أوليفر ذات ليلة يجلس بمفرده في هذه الحظيرة المعتمة، يكتب الأشعار على ضوء راكية من إشعال نبات أخضر، وكان مغرما، بجذب أبيات القصيد من داخله، أو دفعها إلى الخارج. بالنّفخ لو تعذّر الجذب. سمع صوت خطى حيوان تقترب من السّقف، وسقطت حصاة بجواره، أو اثنتين، وقطعة من الوحل من فتحة السقف. ازداد قلقه، وأخذ يردد بين فينة وأخرى. «هيّا، ابتعد عن هنا!»، لكنّه بعد فترة قصيرة، غلب أوليفر النّعاس حيث جلس، وسرعان ما سقط بغل من المدخنة! تطاير

شرر الحطب في كلّ اتّجاه، وارتدّ أوليفر إلى الخلف. استعاد بعد عشر ليال ما يكفي من الثقة لمواصلة كتابة الشّعر، غلبه النّعاس هذه المرّة أيضا فسقط من المدخنة بغل آخر، لكنّه سقط هذه المرّة حيث جلس أوليفر في الوسط. رفس البغل الشّمعة محاولا استعادة توازنه، وكسح في طريقه المطبخ كله، وأثار من الغبرة الكثير. أقضّت هذه الجلبة الكبيرة مضاجع أوليفر لكنّه لم يتذمّر. انتقل إلى بيت يقع على الجانب الآخر من الوادي، فقد لاحظ أنّ البغال لا تطرق هذا الجانب. في نحو الثّامنة من إحدى الأمسيات، كان جالسا يحاول إنهاء قصيدته، حتى تدحرج حجر إلى الدّاخل، وظهر من ثمّ حافر حيوان بأسفل الكنفاه، ثمّ بدا جزء من بقرة، ظهر بعده جزء آخر. ارتدّ إلى الوراء هلعا، ثمّ هتف: «ويحك! ويحك! توقّفي حيث أنت». قاومت البقرة في إصرار، وفقدت توازنها ثمّ هوت، ومعها تساقط الغبار والوحل، وقبل أن يتمكّن أوليفر من تحاشيها، سقطت البقرة بثقلها، فوق الطّاولة، وحطّمت كلّ ما في طريقها دون أن تستثني شيئا! وأظنّها المرّة الأولى في حياته، التّي أبدي فيها تبرّما من شيء. وعقب بقوله: «هذا شيء يدعو إلى الملل». ترك بعد ذلك وظيفته القضائيّة، وغادر مقاطعة هبمولدت.

صارت عبارة «ذبح كي يستمتع بعطلة رومانية»، عبارة مملّة بالنّسبة لي.

أريد في هذا السّياق ذكر كلمة واحدة بشأن مايكل أنجلو بوناروتي. لقد اعتدت مطالعة عبقريّة مايكل أنجلو بعين الوقار، فهو من برع في فن الشّعر، والتّصوير والنّحت، والبناء وبرع في كل أعماله. لكنّني لا أرغب في مايكل أنجلو معدا على مائدة الإفطار، أو الغداء أو لتناول الشّاي أو لما بين الوجبات. لقد صممَ الرجل كلّ شيء في جنوا، وفي ميلانو صمم تلامذته كلّ شيء، وصوّر هو بحيرة كومو في بودوا، وفيرونا والبندقيّة، وبولونيا، فمن سواه من الفنّانين قد ألقاه الأدلاّء على مسامعنا؟ لقد صوّر في فلورنسا كلّ شيء، وصمم فيها رسوم كلّ شيء تقريبا، أمّا الشيءالوحيد الذّي لم يقم بتصميمه، فهو القالب الحجريّ الذّي كان يجلس فوقه، وفرّجونا إيّاه.

صمّم كلّ ما في بيزا، عدا برج الرّماية القديم، وكانوا يمكن أن ينسبوه إليه، لو كان بعيدا تماما عن تعامده. صمّم في ليجهورن الجسور، وأنظمة دائرة جمرك سيفيتا فيتشيا. لكن الأمر هنا مروّع. فقد وضع أيضا تصميمات كنيسة القدّيس بطرس، وصمّم المقرّ البابويّ، والبانثيون، وزيّ جنود البابا، ونهر التّيبر والفاتيكان، والكوليسيوم، والكابيتول

وصخرة تاربيان، وقصر باربريني، وكنيسة يوحنا المعمدان، والكامبانا، وطريق أبيان. والتّلال السبعة، وحمّامات كاراكللا، وقناة كلوديان، ومجاري ماكسيما، وصمّم الملّ الأبدي، المدينة الخالدة، وإذا لم يكذب كلّ البشر والكتب، يكون الرجل هو من صوّر كل شيء فيها! قال «دان» للدليل، في يوم سواه: «حسبك! حسبك! حسبك! لا تتفوّه بالمزيد! إنّك تضخم الأمر برمّته قل إنّ الخالق قد خلق إيطاليا من خلال تصميمات مايكل أنجلو!».

لم أشعر بالمرّة بامتنان بالغ وسكينة وهدوء أو أنعم بطمأنينة، كما شعرت بالأمس، حين علمت أنّ مايكل أنّجلو قد قضى نحبه.

لكننّا انطلقنا وبصحبتنا الدّليل، الذى تقدّمنا وسط أميال من اللّوحات المعروضة، والنّقوش، داخل أروقة ودهاليز، الفاتيكان الممتدّة، وعبر أميال من لوحات ونقوش لعشرين قصرا أخرى، وتفرّجنا على اللّوحة الكبرى في كنيسة، سيساين الصّغيرة، والكثير من أعمال الجصّ التي تكفي لصق بأسرها، وكلّها من أعمال مايكل أنجلو! لذلك مارسنا مع الدليل لعبة فاز فيها كثير من الأدلاّء من قبل، على حسابنا، وذلك بتوجيه أسئلة بلهاء. فتلك المخلوقات لا ينتابها شكّ في شيء، ولا يعرفون شيئا عن تهكمهم بالغير.

فرّجنا الدليل على أحد النّصب ثمّ قال: «ستاتو برونزو (أي نصب من البرنز)»، فنظرنا بلا مبالاة نحو ما أشار إليه فسأل الطّبيب:

«ألا ترون، هذا من أعمال مايكل أنجلو؟».

«كلاّ لا أدري».

أرانا بعد ذلك الساحة الرّومانيّة القديمة، فيستفسر الطّبيب:

«مايكل أنجلو؟».

تفرّس فينا الدّليل :

«كلاّ، تلك قبل أن يولد بألف عام».

يشير إلى المسلّة المصريّة، فيعود السّؤال مجدّدا

«مايكل أنجلو؟»

«سيدي المحترم! هاسه (هذه) قبل أن يولد بألفي عام!».

ضجر كثيرا بما يبدو من جانبنا في نظره انفلاتا استفساريا، يشعره بخشية من شرحه أي شيء. حاول المسكين، شتّي الوسائل، دفع نفسه إلى الاعتقاد بقدرته على إمالتنا إلى إدراك أنّ مايكل أنجلو هو المسئول الوحيد عن ابتكار قطاع من العالم، لكنّه لم ينجح بصورة أو بأخرى. كان الأمــر يتــطلب أن تستريح عيون وعقول أنهكتهما كثرة المشاهدة والبحث، أو ندمغ نحن بالسذاجة التامة. لذلك كان لا بدّ من أن يواصل هذا الدّليل تحمّل تّبعة ذلك. فإذا لم يستمتع بهذه اللّعبة فليذهب إلى الجحيم، لأنّنا سنستمتع بها نحن.

يمكنني في هذا السّياق، أن أسجل باختصار فصلا كاملا خاصّا بأولئك الأدلاّء الأوروبييّن، المزعجين والمفروضين علينا فرضا. ود كثير من قلوبهم. لو استطاعوا المضي دون أن يصحبه دليل، ولكنّ لإدراك أحدهم عجزه عن تنفيذ ذلك، مال إلى أن يحقق من خلاله بعض أوجه التسلية كمكافأة، عمّا سببه مجتمعه من قلق. وقد حقّقنا بالفعل هذه الرّغبة الأخيرة، ولو استطاعت تجربتنا أن تحقق الجدوى لآخرين، فمرحبا بهم.

يعرف الأدلاّء الكثير عن إنجلترا إلى الحدّ الذّي يخلط الأمور ببعضها بعضًا، لدرجة قلب الأمور لدى المرء رأسا على عقب. يحفظ هؤلاء رواياتهم عن ظهر قلب، في تاريخ كلّ تمثال، ولوحة أو وكاتدرائيّة، وأي أثر مهم يصحبونك لمشاهدته. يعرفونه ويذكرونه كما تفعل الببّغاء، ولو تدخّلت في الحديث وألقيت بهم خارج السّياق، وجدتهم يتراجعون ويعاودون الرّواية من أولها. دأبوا طوال حياتهم على استخدام هذا الأسلوب لتعريف الأجانب بهذه الأشياء الغريبة، والإصغاء إلى آهات الإعجاب. من طباع البشر التلذّذ بإثارة الإعجاب. ما يدفع الصّغار إلى ترديد عبارة أشياء «رائعة»، ويرتكبون أمورا حمقاء، ويسعون بطرق أخرى إلى «لفت الأنظار» في حضور الآخرين. ما يسمح للأقاويل بالانتشار كالهشيم، ويكون قصب السّبق لما يروي من أخبار مفزعة. تأمّل إذن قدر أن يصبح ذلك ولعا لدى الدّليل، ويحقق كل يوم امتيازا، من عرض الأعاجيب للسائحين، ما يوقعهم في حالات انفعالية من الإعجاب! يعتاد ذلك حتّى يعجز بكلّ الاحتمالات عن معايشة مناخ أكثر واقعيّة. بعد اكتشافنا هذه الحقيقة، لم نظهر بعد ذلك أية انفعالات لا نبدي إعجابا بشيء ولم نعد

نظهر سوى ما يرين على وجوهنا من تبلّد، أو لا مبالاة تشي بغباء، أمام أروع ما يعرّفنا به الدّليل من معالم. لقد اكتشفنا نقطة الضّعف لديهم، وحققنا منذ تلك اللحظة انتصارات كبيرة.. جعلنا من أولئك أجلافا ولم نفقد إتزاننا البتّة.

يسأل الطّبيب، أسئلة عامة لأنّه يستطيع السّيطرة على ملامح وجهه، فيبدي ما يوحى بسّذاجته، ويظهر بلاهة، في نبرة صوته، ما لا يتفوق عليه أحد في ذلك. يفعله بتلقائيّة.

يتلذّذ أدلاّء جنوا، بالتأثير على أية جماعة أمريكيّة متجوّلة، فالأمريكيّون كثيرا ما يبدون استغرابهم، ويظهرون انفعالاتهم وتعاطفهم، أمام أيّ أثر تذكاريّ لكولمبوس، هناك تململ دليلنا قليلا وكأنّه ابتلع حشية زنبركيّة. امتلأ نشاطا، ونفاذ الصّبر. وقال:

« هيّا يا سادة، هيّا! سأريكم خطابا مكتوبا بخطّ كريستوفر كولمبو! كتبه بنفسه! كتبه بأم يده! هيّا!».

اقتادنا إلى دار الشّئون البلديّة. وبعد عبث. تحسّس محموم بمفاتيح في يده، وفض أقفال، فضّ أمامنا وثيقة قديمة، والتمعت عيناه، ثمّ طفر رقصا حولنا ونقر المخطوطة بإصبعه، وقال:

« هذا ما قلته لكم أيّها السّادة! أليس الأمر ما أقول! انظروا! هذا ما اخطّه كريستوفر كولومبو! هذا ما كتبه بنفسه!».

أظهرنا لا مبالاتنا، وعدم اهتمامنا بالأمر. في صمت مطبق تفحّص الطّبيب الوثيقة بتأنّ، ثم قال دون أن يبد اهتماما:

« إيه يا فيرجوسون، أليس، أليس الذّي ذكرته، اسم الشّخص الذى كتب هذا؟»

«كريستوفر كولومبو، ذلك العظيم كريستوفر كولومبو».

أجرى الطبيب على الوثيقة فحصا متأنّ آخر.

« أجل، كتبه بنفسه.... ولكن كيف؟».

«هو الذّي كتبه، كريستوفر كولمبو! كتب إيّاه بخطّ يده، كتبه بنفسه».

وضع الطبيب الوثيقة من ثمّ وقال :

« عجبا، لقد رأيت صبية في نيويورك، في الرّابعة عشر من أعمارهم فحسب، يستطيعون كتابة ما هو أفضل من هذا».

« لكنّ هاسا (هذا) العظيم خريستو.........».

« أنا لا آبه بهويّته! فهذا أسوأ ما رأيت من خطوط. لا تظنّ الآن أنك تستطيع التأثير علينا، لأننا غرباء. ولسنا من الحمق إلى هذا الحدّ. لو أنّ لديك نماذج من الخطوط تستحقّ الفرجة، فاعرضها أمامنا الآن! وان لم يكن فلنرحل من هنا».

رحلنا عن المكان. بدا أنّ الدّليل كان مأخوذا بما حدث، لكنه أقدم على مغامرة جديدة. فقد فكّر فيما ظنّ أنّه سيغلبنا به. قال :

«آه أيّها السّادة. هلمّوا معي، لأريكم تمثالا نصفيًا جميلا رائعا لكريستوفر كولومبو! تمثال، رائع، شامخ،عظيم!».

جاء بنا إلى التّمثال النّصفي الجميل وذلك لجماله فحسب. ارتدّ قفزا إلى الوراء، واتّخذ وضعا استعراضيًا :

«آه، انظروا أيّها السّادة، إنّه رائع، عظيم، قاعدة كريستوفر كولومبو، التّمثال النّصفيّ الجميل، والقاعدة الرّائعة!».

وضع الطبيب نظّارته على عينيه، مستغلاً فرصا كتلك :

« هه، ما اسم هذا الرّجل الذّي ذكرت؟».

«كريستوفر كولومبو، سالك (ذلك) العظيم كريستوفر كولومبو!».

«كريستوفر كولومبو، العظيم كريستوفر كولومبو، لا بأس في ذلك ولكن ما حرفته؟».

«اكتشف أمريكا، تبًا، لقد اكتشف أمريكا».

«اكتشف أمريكا. كلاّ. قد يصعب عليّ التعرف على رجل دولة كهذا».

نحن أيضا من أمريكا ذاتها، ولم نسمع شيئا عنه. كريستوفر كولومبو، أيّ اسم جميل، أقضي هذا الرّجل نحبه؟».

«أوه، كوربو دي باتشو! منذ ثلاثمائة عام!».

«وما سبب موته؟».

«لا أدري، وليس لي أن أعرف ذلك».

«بالجدري على ما أعتقد».

«لا أدري ياسيّد، إنا، لا أعرف سببا لوفاته».

«بالحصبة، ربّما ؟».

«لا أدري، يحتمل، ربّما، وأظنّه توفّي بسبب ما!».

«أبواه على قيد الحياة ؟».

«متسحيـ...ل!».

«آه، أيّهما التمثال النّصفي وأيهما القاعدة؟».

« يا سانتا ماريا! هاسا (هذا) التّمثال النّصفي، وهسه القاعدة!».

«أجل، أعرف، أعرف، جمع فوفّق، أتلك المرة الأولى التي يصنع له تمثال نصفيّ ؟».

تخطّت الدّليل تلك الدعابة، فالأدلاّء لا يعرفون ما تحمل دّعابة أمريكيّة من دهاء.

جعلنا من هذا الدّليل مصدر لهولنا. قضينا مجدّدا بالأمس ثلاث أو أربع ساعات في الفاتيكان، ذلك العالم المدهش بما يضمّ من تحف. كدنا في بعض الأحيان نظهر اهتماما، وإعجابا، لأنّه كان يصعب تجاهل تلك الأحاسيس بالكليّة. لكننا رغم ذلك حقّقنا ما خططنا لنا. لم يقلدنا أحد في تصرفاتنا تلك، داخل معارض الفاتيكان. أسقط في يد الدليل، ووقع في حيص بيص. سار وئيدا أو كاد، يفتش في تلك الأحداث الطّارئة، واستنفذ فينا كل ما عنده من نبوغ. لكنه فشل فشلا ذريعا، لأننا لم نظهر أمامه اهتماما بشيء البتّة، واحتفظ بداخله

حتى النّهاية، بما اعتبرها من جانبه إحدى عجائبه الكبرى، إنّها مومياء مصريّة ملكيّة، ربّما كانت أفضل مقتنيات العالم حفظا. اصطحبنا إلى هنا، وقد شعر هذه المرّة. بثقة بأنّ بعض حماسه القديم قد ردّ إليه :

«انظروا أيّها السّادة، مومياء، مومياء!».

عادت نّظارات الطبيب إلى موضعها العلوي بتؤدة وهدوء، كما حدث من قبل.

«آه، فيرجوسون، ما اسم الرّجل الذّي ذكرت حتى أتذكّره ؟».

« اسم؟ لا يحمل ... اسما! أقول مومياء! مومياء مصريّة!».

«أجل، أجل، أولد هنا ؟».

«كلاّ! هذه مومياء مصريّة!».

«آه، بالضّبط. أظنّه فرنسيًا؟».

«كلاّ! ليس فرنسيًا، أو رومانيًا! ولد في مصرتا!».

«ولد في مصرتا! لم أسمع بمصرتا هذه من قبل. أرجّح أنّها بلد أجنبيّ. مومياء... مومياء. أكان سمته الهدوء ورباطة الجأش، هل، آه، هل قضى نحبه؟».

«أوه، منذ أمد بعيد، ثلاثة آلاف عام!».

التفت إليه الطّبيب محتدًا.

« ويحك، ماذا تعني بمعلومة كهذه؟ تتلاعب بنا وكأننا من الصّبيّ. لأننا غرباء ونسعى إلى المعرفة! أنت تحاول أن تفرض علينا بغالك الرّخيصة العجفاء، وترعد وتزبد. إنني أشير هنا إلى ... إلى .. ما لو أنّ لديك جثّة حديثة العهد فاظهرها الآن، وإلاّ فإننّا، وقسما بجورج، سنلجأ إلى تحطّيم رأسك» .

جعلنا من هذا الأمر مصدر قلق كبير للفرنسيّ. ذلك رغم أنّه كان إلى حدّ ما يدير ظهره لنا، مع جهله للحقيقة. جاء هذا الصّباح إلى الفندق ليستفسر عن تأهبنا للخروج. وحاول

جاهدا أن يقدّم أوصافنا، كي يعرّف صاحب الفندق بهويّة من يبحث عنهم. توصّل بملاحظة عابرة منه إلى أننا جماعة من «المجاذيب». كانت الملاحظة بالغة الصّدق والبراءة، ارتقت إلى ما يباهي به دليل.

هناك عبارة. بعينها. ورت في السياق آنفا. لم تخطأ أبدا إثارة قرف هؤلاء الأدلاّء. نستخدمها دائما، حين ندفع إلى الظّن بأنّه لم يعد لدينا ما نقول. فبعد أن يستنفذوا حماسهم، في شرح واطراء جماليّات تمثال برونزيّ أو آخر أبتر السّاق، ننظر إليه ببلاهة وصمت يدوم لخمسة عشر، خمسة عشر دقيقة، أو بالقدر الذّي تستمرّ فيه مشاهدتنا، ثمّ نستفسر منه:

«أقضي نحبه؟».

تقهر هذه العبارة أكثرهم هدوءا. لا شأن لذلك بما يبحثون عنه، لاسيّما الدليل الجديد. كان فيرجوسوننا أكثر من عرفنا منهم، صبر وتلقائية وطول أناة. وسنأسف بالفعل على فراقه. سعدنا كثيرا بصحبته، كما أننا على يقين من ابتهاجه بنا، لكننا كنّا مطاردين بالوسائس.

زرنا سراديب الموتى. وكان ذلك أشبه بالنزول إلى قبو غائر العمق، وكان مجرد قبو لا آخر له. وحفرت على الجانبين كلّما مررت إلى الدّاخل، أرفف غائرة، يعمق يبدأمن ثلاثة أرفف إلى أربعة عشر، يسع الواحد جثّة واحدة. حفر على كلّ قبر تقريبا، أسماء ورموز مسيحيّة، وأدعية، أو جمل معبّرة عن أدعية دينيّة. تعود تواريخها بالطّبع إلى فجر المسيحيّة. كان المسيحيّون، يلجأون أحيانا إلى تلك التجاويف في باطن الأرض، فرارا من الاضطهاد. وكانوا يخرجون خلسة باللّيل، وللحصول على ما يقتاتون به، لكنهم كانوا يتوارون هنا خلال النّهار. ذكر لنا الرّاهب أن القدّيس سباستيان، أقام تحت الأرض لبعض الوقت، حين طورد، وخرج من مخبأه يوما، فتعرّف عليه بعض الحرّاس فأردوه قتيلا بالسّهام. مارس ستّة من البابوات ممن تولوا السّلطة منذ نحو ألف وستّمائة عام مارسوا مهامّهم البابويّة، وتشاوروا مع ذويهم من رجال الدّين في غلاّيات تحت الأرض. لم يظهر أحد البابوات فوق الأرض طوال سبعة عشر عاما، في الفترة من عام ٢٣٥ حتّى عام ٢٥٢ ميلاديّة. صعد خلال تلك الفترة أربعة منهم إلى منصب الرئاسة الأعلى، وظلّ كل

منهم يشغل هذا المنصب لعام أو نحو ذلك. توحي ضخامة الجبّانات تحت الأرض إلى أنها كانت تستخدم كأماكن للإيواء. قضى أحد البابوات مدّة رئاسته كلّها في سراديب الموتى، وكانت ثمانية أعوام. واكتشف وجود آخر فيها، قتل على الكرسي البابويّ. لم تكن هناك قناعة بمنصب البابا في تلك الأيّام. فقد ساد البلاد قلاقل كثيرة. يقدّر ما أقيم تحت روما من سراديب للموتى بمائة وستّين سردابا، يضم كلاًّ منها شبكة من الممرّات الضيّقة، يتداخل كلّ منها بالآخر، وقد أحيط كل ممر حتّى قمته بتجاويف تمتدّ حتّى آخره. يقدّر إحصاء دقيق، طول السراديب مجتمعة، ما يقدّر بتسعمائة ميل، وعدد القبور بسبعة ملايين قبر. لم نمرّ بكل ممرّات السراديب. وكانت لدينا رغبة شديدة في أن نفعل ذلك، ونتجاوز الإجراءات الضرورية لكنّ ضيق الوقت قد أجبرنا على التخلّي عن تلك الفكرة، لذلك لم يكن أمامنا سوى تلمّس طريقنا عبر متاهة كنيسة القديس كالليكتوس المعتمة، التّي تقع تحت كنيسة القديس سيباستيان. توجد في مختلف سراديب الموتى كنائس صغيرة شقّت بطريقة بدائية في الصّخور، واعتاد المسيحيّون الأوائل أداء طقوسهم الدّينية فيها، في ذبالة ضَوء معتم. فتأمل، قدّاسا وخطبة دينيّة يؤدّيان في عتمة كهوف كتلك.

ووري جثمان القدّيس سيسيليا، والقدّيس آجنس، وآخرين من أكثر الرّهبان صيتا في سراديب الموتي. اعتادوا البقاء في سردابي كلّ من القدّيس كاللكتوس، والقدّيس بريدجت، لساعات طوال في تأمّلات دينيّة، واعتاد القدّيس تشارلز بوروميو. قضاء ليالٍ بأكملها في صلوات هناك، وذلك أمر مثير للدّهشة.

«هنا حيث كان قلب القدّيس فيليب نيري يشتعل بحبّ الله، حتى إحراق رفاته».

عثرت على هذه العبارة الحزينة، في كتاب صدر في نيويورك عام ١٨٥٨. ألّفه الموقّر، ويليام نيليجان (حاصل على الدكتوراه في القانون، والعلوم من كليّة ترينيتي، دبلن، وعضو جمعية الأثريين، ببريطانيا العظمى). لذا فإنني أصدّق هذا، ولا يمكن أن أفعل العكس. وحـريّ بي في ظـروف غـير هـذه، أن أبتلي بفضول التعرف على ما يطلب فيليب هذا على العشاء.

إن هذا الكاتب يثير سذاجتي من وقت لآخر. فهو يتحدّث عن شخص زاره القدّيس جوزيف كلاسانتكيوس في بيته بروما، وقد توفي الراهب منذ مائتي عام. ويقول إنّ مريم العذراء قد ظهرت لهذا المقدّس، ثمّ يضيف:

«بعد ما يقارب قرنا من الزّمان من العثور على قلبه ولسانه سليمين. وحين أخرج جسده من قبره قبل الاعتراف به قدّيسا، حيث لا يزالان محتفظا بهما في صندوق زجاجيّ، وحيث قلبه لا يزال سليما بعد قرنين من الزّمان. وقد سقطت منه قطرات الدّم، حين أتت القوّات الفرنسيّة إلى روما، وحين وقع بيوس السّابع في الأسر».

قد لا يثير دهشة أحد أن يقرأ ذلك في كتاب كتبه أحد رهبان القرون الوسطي، بل سيبدو الأمر طبيعيًا ومقبولا. ولكن حين يؤكّد هذا وبكلّ جدّية، وفي منتصف القرن التّاسع عشر، رجل له كلّ هذه المكانة العلميّة، حاصل على الدكتوراه في القانون، وأخرى في العلوم، ويعدّ أحد علماء الآثار الكبار، فذلك هو ما يحمل على بالغ الغرابة. أما والأمر قد وقع على هذا النحو، فسوف يكون من دواعي سروري، أن أظل على موقفي من رفض تصديق رواية نيليجان، وتركه يعقّد الأمور كما يحبّ.

تتمتع سـذاجـة السـيّد العجوز والتّي لا يعتورها شك من بين يديها ومن خلفها، بقلّة وعي نادر بخاصّة في عهد التلّغراف والسّكّة الحديديّة. اصغ إليه وهو يتحدّث عن كنيسة آرا كويلي :

«يظهر في سقف الكنيسة، وبأعلى المذبح، نقش بارز يحمل عبارة ريجينا كويلي لايتير آلليلويا». زار روما وباء الطّاعون الرّهيب، في القرن السّادس عشر، حثّ جريجوري العظيم، شعبه على التّوبة والتطّهّر من الخطايا، وشكّل موكبا عامّا. يبدأ مساره من آرا كويل، حتّى كنيسة القدّيس أنجيلو، حيث سمعت الأصوات الملائكيّة تترنّم بهذه العبارات (وكان ذلك صبيحة عيد الفسح) : «ريجينا كويل لايتير. آلليلويا. كوا كويم ميرويستي بورتاري، آلليلويا! ريسريكسيت سيكت ديكسيت آلليلويا!» أجاب البابا وهو يحمل في يديه صورة العذراء، (التي كانت بأعلى المذبح الكبير، والتي يقال إن من قام برسمها هو القدّيس لوقا)، أجاب وبصحبته المبهورين من الخلق: «أورا برو نوبي دويم. آلليلويا!». شوهد في الوقت ذاته أحد الملائكة وقد وضع سيفا في غمده، وتوقّف الطّاعون في اليوم نفسه. هناك أربعة أحداث تالية تؤكّد هذه المعجزة: «الموكب السنوي الذّي يقام في الكنيسة الغربيّة في احتفالية القدّيس مرقس، تمثال القدّيس ميكائيل، يقام بأعلى سدّ أدريان. والذّي أطلق

عليه منذ ذلك الوقت حصن القدّيس آنجيلو. والتّرنيمة الجماعيّة روجينا كويلي(*). وهي من ترانيم الكنيسة الكاثوليكيّة خلال عيد الفسح ثم النّقش البارز المكتوب في الكنيسة».

(*) حروف الطّباعة المائلة من عندي. م.ت.

الفصل الثّامن والعشرون

كان طبيعيًا الانتقال من صور الرعب الحقيقية في دير كابوتشين، قادما من رياضة محاكم التّفتيش الدينية الدّامية، ومصارعي الكوليسيوم، ومقابر سراديب الموتي المظلمة. توقّفنا دقيقة في الكنيسة الصّغيرة، لنلقى نظرة إعجاب على لوحة القدّيس مايكل يقهر شيطانا، ولم أستطع من جمال اللّوحة الطّاغي إلاّ أن أنسبها إلى الرينيسانس (طراز فنّي تقليدي ظهر في عصر النّهضة) اللّعين، رغم أنّهم أخبرونا بأنّ أحد الرّواد، هو الذّي صوّرها، وبعدها هبطنا إلى الضّريح الكبير، أسفل الكنيسة.

رأينا هنا مشهدا مثيرا لذوي الحس المرهف. لا شك أن الروّاد قد استنفذوا كثيرا من الوقت في العمل في هذا المكان. قسّمت هذه الحجرة الكبيرة، إلى ستّة أقسام. زيّن كلّ منها بطراز من الزخارف فريد بذاته، وتشكّلت هذه الزّخارف بكلّ تفاصيلها بعظام بشريّة! هناك أقواس جميلة الشّكل، أقيمت كلّها من عظام الفخذ، وأهرام مرعبة من الجماجم، وهياكل معماريّة رائعة من كلّ الأنواع، أقيمت من كلّها من قصبة السّاق وعظام الأذرع، وزيّنت الجدران باللّوحات الجصّية، تجسدت فيها سيقان النّبات، بتشابك عظام العمود الفقري، وشكل فيها عريش النّبات الرّفيع، من الأعصاب والأوتار الرّفيعة، والأزهار من عظام الرّضف وأصابع القدم. كان كلّ جزء فيها من هيكل عظميّ بشري متماسك. ممثلا في هذه التّصميمات الدّقيقة (وأظنّها بدورها من صنع مايكل أنجلو) فقد توخّيت الدّقة في وضع لمساتها الأخيرة، وفي تفاصيلها الدّقيقة، ما دلّ على عشق الفنّان عمله، فضلا عن تسخير كلّ طاقاته وقدراته فيه. سألت الرّاهب الطّيب المرافق، عن أصحاب هذه الأعمال من الفنّانين، فقال: «إنّها من صنعنا، يشير إلى نفسه وإخوانه في الطّابق العلوي. أستطيع إدراك ما بدا على الرّاهب من زهو كبير، بمعرض لوحاته اللافت، ما جعلنا نسهب في الحديث معه، باهتمام لم نظهره للأدلاّء.

«من تقصد بالآخوة؟».

«نحن المقيمون في الطَابق الأعلى، إخوتي من طائفة الرهبان الكابوتشين..».

« كم عدد الرّاحلين من الرّهبان ممن ساهموا في تجهيز هذه القاعات الكبيرة الستّ ؟».

«هذه العظام لأربعة آلاف شخص!».

«هل استغرق هذا الرقم زمنا طويلا؟».

«قرونا، قرونا عديدة».

« لقد تمّ فصل الأجزاء عن بعضها بعضًا، الجماجم في حجرة، والسّيقان في أخرى والضلوع في ثالثة، سيمرّ هذا المكان بفترة عصيبة لن تطول، حين ينفخ في الصّور النّفخة الأخيرة. قد يقع بعض الإخوة هنا في خلط بين ساق مجهولة أو جمجمة لا يعرفونها، ويجدون أنفسهم في حيص بيص، بين عيون مفتوحة عن آخرها، أو مغلقة، بما لم يألفوه من قبل، وأظنّ أنه لن تتمكن من التعرف على كثير من أصحابها ؟».

«كلاّ، فأنا أعرف الكثيرين منهم».

وضع يده فوق جمجمة وقال: «هذه للأخ أنسلمو مات منذ ثلاثمائة عام. كان رجلا صالحا».

لمس أخرى «هذه للأخ ألكسندر، مات منذ مائتين وثمانين عاما. هذه للأخ كارلو، مات بعد ذلك بفترة» .

رفع بعد ذلك جمجمة، وأمسكها بيده، وبدا يتأملها، بطريقة حفار قبور، يحاور يوريكيًا (فرد من الأسرة الملكية الإنجليزية). قال:

« هذه للأخ توماس، الذّي كان من الأمراء الشباب، وسليل أسرة مرموقة، ترجع أصولها إلى عهود روما التليدة، ما يقارب ألفي عام مضت. أحب فتاة من المنزلة الأدنى، فنبذته أسرته، واضطهدت الفتاة أيضا. طردوها من روما، فبحث عنها في كل مكان، ولم يعثر لها على أثر. عاد وقدّم قلبه المحطوم قربانا، أمام مذبحنا، ووهب حياته في خدمة

الله. ولكن انظر ما حدث. توفي أبوه بعد ذلك بفترة قصيرة، وكذلك أمه، عادت الفتاة وقد امتلأت أملا، بحثت في كل مكان عن ذلك الذي اعتاد أن يرقّ لمرآها من خلال هذه الجمجمة الهزيلة، لكنّها لم تستطع العثور عليه. تعرفت عليه في الشارع في هذا الثوب الخشن الذى كان يلبسه، وعرفها. وحدث ذلك بعد فوات الأوان. سقط في مكانه على الأرض. خملوه من الأرض وصعدوا به إلى هنا. لم ينبس بكلمة واحدة بعد ذلك. توفي بعد أسبوع. يمكنك أن ترى لون شعره وقد بهت بعض الشيء، بفعل مزقة رفيعة لا تزال تعلق بفوده. «(تناول بيده عظمة الفخذ). إنّ عروق هذه الرقاقة ضمن ما يعلو رأسك من زخارف. كانت مفاصل لأصابعه، منذ مائتين وخمسين عاما».

كان الأسلوب الجادّ في سرده القصّة المؤثّرة والنابع من القلب، بوضعه بضع شقفات من الحبيب أمامنا وتسمية كلّ شقفة منها، على وتيرة واحدة الأداء الغريب والمروع، كأي أداء تمثيليّ شاهدته من قبل. حرت في أمري أأضحك أم أرتعد فرقا. توجد في أجسادنا أعصاب وعضلات، يبدو في وصف وظائفها، وأساليب عملها بأسماء فيسيولوجية مجرّدة وتقنيّات جراحيّة، شيء من انتهاك الحرمات، وقد أوحى إليّ حديث الرّاهب، بشيء من هذا القبيل. تخيّل جرّاحا، وهو يرفع بكلّابه أوتارا وعضلات، وأشياء كتلك، خارج المنظومة الجسديّة المعقّدة، ويعلّق على ذلك أمام العيان بقوله. «يهتزّ هذا الوتر الرّقيق الآن، اهتزازا ينتقل إلى هذه العضلة، يمر منها إلى المادّة اللّيفيّة وتتوزّع عناصر هذه المادّة بالحركة الكيميائية للدمّ، فيتّجه جزء إلى القلب، ويثير فيه ما يعرف بالانفعال. ويتجه بعضه من خلال هذا العصب إلى المخّ، فيوصل إليه أخبارا مهمة، ويزحف الجزء الثّالث عبر هذا الوريد، ويصل إلى العرق النابض، والمتّصل بالأوعية الحسّاسة والواقعة خلف العين. هكذا أبلغته جماعة الرهبان بوفاة أمه، بواسطة هذه العمليّات البسيطة والجميلة، لينخرط هو في البكاء. ويا للهول !».

استفسرت من الرّاهب لو أن كلّ الإخوة المقيمين بالطّابق الأعلى، كانوا يتوقّعون عرضهم على هذا النحو في هذا المكان بعد وفاتهم. فأجاب بلطف:

«لا بدّ لنا جميعا من الرّقاد هنا يوما ما».

لاحظ ما يمكن للمرء اعتياده، وتقبله فكرة أنّه لا بدّ من أن يأتي يوما، تفكّك فيه أوصاله، كآلة أو ساعة، أو بيت هجره صاحبه، ثم تدمج ضمن أهرامات، أوأقواس وتشكيلات جصّية مقززة، ثم لا يرمش بعد هذا كلّه لهذا الرّاهب جفن. ظننت لما بدا من ملامحه كمن يقلب في الأمر، بخيلاء تقترن برّضا ذّاتيّ، وبأن جمجمته ستشعر بطمأنينة، حين تعتلي كومة من الجماجم، وأن أضلعه ذاتها ستضيف سحرا إلى زخارف الجص، التّي ربما تفتقده في الوقت الرّاهن. يرقد هنا أو هناك، رهبان ران عليهم الجمود واليبوسة، في فراغات من الزّخارف، استلقوا فوق طبقات من العظام، وقد وضعت أجسادهم الضّامرة داخل مسوح سوداء، اعتاد المرء رؤيتها على الرّهبان. تفحّصنا أحدهم عن قرب، إذ تشابكت يداه الضّامرتان على صدره، والتصقت خصلتان ذابلتان من شعره بجمجمته. وكلحّت بشرته وضمرت، وغارت تماما في عظام الوجنة، وزادت من بروزها، وغارت العينان اليابستان في محجريهما، وبرزت المناخر بما يبعث على النفور، كما زال عنهما طرف الأنف، وذوت الشّفاه من فوق الأسنان الصفراء، وتناهت إلينا بمرور السنين. وتحجّرت على وجهه، ضحكة غريبة عمرها، مائة عام.

كانت الضحكة أكثر إحساسا بالمرح، بما لا يتخيله إنسان، بل كانت الأكثر فزعا أيضا. اعتقدت بلا ريب، أنّها لا بد من أن تكون أروع ما أطلق هذا الشيخ الكبير من دعابة، وهو يلفظ النفس الأخير، ولم يسعفه الوقت ليكمل الضحك من تلك الدعابة حتى الآن. أدركت الآن مدي قوة هذه الغريزة القديمة لدي رفقتنا من الشّباب، وقلت إنّه قد وجب علينا الإسراع بالتوجّه إلى كنيسة القدّيس بطرس، إذ كانوا يحاولون الكف عن السؤال : «هل قضي نحبه ؟».

يصيبني التفكير في الفاتيكان بالدوار، لضخامة ما يضمّه من تماثيل، ولوحات تصوّر غرائب عصور شتّى، ولأنّه يعجّ بعدد لا حصر له من أعمال الرّواد القدامي، بخاصّة في فنّ النّحت. لن أقدر على تناول الفاتيكان بالكتابة. وأظنّني لن أذكر ممّا رأيته سوى المومياوات، ولوحةَ التجلّي (تغيّر هيئة المسيح على الجبل) وهي من أعمال رافاييل، وأشياء أخرى لا أرى ضرورة لذكرها الآن. سأذكر لوحة التجلّي لأنها من ناحية قد خصصت لها غرفة مستقلّة، ولأنها من الناحية الأخرى معروفة لدى الجميع، بأنّها اللّوحة الزّيتيّة الأولى في العالم، ولأنّها ثالثا، تتسم بقدر وافر من الجمال. تتسم ألوانها بالوضوح والعمق، وقيل

إنّه راعى فيها الوضوح، وإثارة المشاعر، وحسن الصّبغة اللّونيّة، والنّفاذ إلى العمق، ويبلغ عرض اللّوحة أربعة أقدام ونصف القدم، وهي بالفعل لوحة تجذب انتباه المشاهد، لما تحمله من جمال وتعدّ جديرة بحق أن تكون ضمن كلاسيكيّات العصور الوسطى. كنت قد أشرت منذ فترة قصيرة إلى ما يوحي بفكرة ورجاء. ألا يحتمل أن يكون سبب كشفي عن مواضع الفتنة تلك في هذه اللّوحة، أنها تقع بمنأى عن فوضى المعارض العارمة. ثم هل من الممكن أن يحظى بالجمال، ما عداها من لوحات لو انفصل عن بعضه بعضًا. ولو وضعت هذه اللّوحة ضمن إعصار من اللوحات التي يراها المرء في المعارض الضخمة، الموجودة داخل القصور الرومانية، فهل أصدق في هذه الحالة ما تحمل من روعة؟ وإذا لم أكن حتّى الآن قد شاهدت سوى أحد الرّواد القدامى، في كلّ قصر، بدلا من آكرات وآكرات من الجدران والأسقف المكسوة كلها بالورق المزخرف، فهل يمكن أن يكون لي رأي تحضريّ آخر، وفي الرّواد القدامي يختلف عن رأيي الآن. حين كنت طالبا في المدرسة، في عمر يسمح لي بحمل مدية جديدة، لم أستطع أن أحدد أفضلها في واجهة العرض، ولم أكن أفكّر في الأفضل على وجه الخصوص، وهكذا اخترت واحدة بفؤاد منقبض. لكنّي حين تفحّصت ما اشتريت، ووعقدت مقارنة بينه وبين خناجر أخرى لامعة، دهشت لاكتشافي قدر جماله. تبدو قبّعاتي الجديدة أفضل خارج المتجر، ممّا هي داخله وسط قبّعات أخرى. بدأ يتضح لدي الآن، أن من الممكن أيكون ما أراه الآن يكتسي بالقبح في المعارض، يمكن في النهاية، أن يكتسي ثوب الجمال. وإننّي آمل بصدق، أن يكون الأمر بهذه الصورة لدى الآخرين، لكنه من المؤكد ألا يكون كذلك بالنسبة لي. ربما كان ذلك بسبب دأبي على التمتع بالذهاب إلى أكاديمية الفنون الجميلة في نيويورك. لأنّها لم تكن تضمّ سوى بضع مئات من اللّوحات، ولم أتخم بمشاهدتها عن آخرها. أفترض أنّ الأكاديميّة، كانت اللحمة والسداة في. صحراء الميل الأربعين»، وأنّ معرضا أوروبيًا، هو بمثابة، الوجبة الرديئة بين ثلاث عشرة وجبة، والمرء لن يبقى على شيء من وجبة واحدة، ولكنّ ثلاث عشرة وجبة كبيرة، ستضيع شهيّته ولن ترضي نهمه.

إنني على يقين رغم ذلك من شيء واحد، هو أن تاريخ روما المجيد يظلّ غير مصوّر في أعمال رافاييل، ومايكل أنجلو، وجويدو، وآخرين من الرّواد القدامى. لقد صوروا الكثير من العذاري، والبابوات، وأهوال الآخرة، كي يأهلوا الفردوس بالكاد. هذا كلّ ما صوروه.

«نيرون يتسلّي بحرق روما»، اغتيال القيصر، مشهد مؤثّر يصوّر مائة ألف من البشر، في وضع انحناء تأملي إلى الأمام في الكوليسيوم، وترى اثنين من الجالدين، يتباريان في أن يزهق أحدهما روح الآخر، ونمرا يقفز فوق شهيد راكع، هذه كلّها وآلاف غيرها من الموضوعات التي نقرأ عنها، يجب أن تطالع في الكتب فحسب وليس بين نفاية تركها الرواد القدامى لم تعد لدى قناعة بتقديمها للقراء.

لقد قاموا حقيقة ورغم كل ماذكرت، بتصويرمشهد تاريخيّ واحد، واحدا فحسب، ونقشوه أيضا على الرخام (يفوق ما سواه من مشاهد تاريخيّة عظيمة)، فما هو، ولماذا اختاروا تصويره. ذلك هو المشهد الذّي يصوّر الشيطان وهو يغتصب السّابّاينيات (فتيات روما في العهود القديمة)، وقد اختاروا ذلك المشهد لما يحوي من سيقان وصدور.

ومع ذلك أرى أنني أحب مشاهدة التماثيل واللّوحات أيضا، حتّى تلك التي تصور الرّهبان ينظرون في وجد إلى السّماء في، بينما ينظر آخرون إلى الأرض، في تأمّل،ورهبان يبحثون عن طعام يقيم أودهم، لذا فإنني سأتخلى عن طبع السّوء فيّ، وأظهر امتناني للحكومة البابوية، لبالغ حرصها، ودأبها الشديد على جمع وحفظ هذه الأشياء، ولسماحها لي، وأنا الغريب عن الدّيار، والخصم المستدام لها، بحرية الحركة والتجوّل بينها، دون مضايقة، لم يطلب منيّ سوى التصرف بحريّة وأريحيّة كما لو كنت في بيت صديق. إنّني أشكر الأب المقدّس، من أعماق قلبي، وأودّ له طول البقاء، وموفور السعادة.

كان البابوات دائما رعاة للفنّ وحفظة له، وذلك بالضّبط ما تفعله جمهوريتنا النّشطة الحديثة، في فرادتها بتشجيع ودعم التّطبيقات التّقنيّة في شتّى المجالات. يحفظون في الفاتيكان كلّ ما يتسم في الفن بجاذبية أو جمال، ويحتفظون في مكاتب الاختراع في بلادنا بكلّ ما هو مجد ومفيد، من تّقنيّات حديثة. حين يخترع أحد طرازا حديثا من طوق عنق جواد، أو أسلوبا حديثا ناجعا في التلّغراف، تمنحه حكومتنا براءة اختراع تقدّر بمنحة مالية كبيرة، وإذا اكتشف أحد أثرا قديما في الكامبانا، يقدّم له البابا مكافأة ماليّة كبيرة في شكل عملات ذهبيّة. يمكننا من خلال ذلك أن نحزر شخصيّة إنسان، من خلال تفحص شكل الأنف الذّي يحمله هذا الوجه. يعدّ الفاتيكان ومكتب براءات الاختراع أنفان حكوميان، يحملان من ملامحهما الكثير.

قادنا الدّليل إلى تمثال لجوبيتر (كبير آلهة الرّومان. في الفاتيكان. وذكر أنه بدا على صورة من البلى والتّلف، كآله للمشردين، حيث عثر عليه حديثا في الكامبانا، وسألنا عما نعتقد من قيمة مالية لتمثال جوبيتر؟ وسرعان ما أجبته بألمعيّة، باحتمال بلوغه قيمة أربعة دولارات، وربما أربعة ونصف، قال فيرجوسون: «مائة ألف دولار!» كما ذكر فيرجوسون، أنّ البابا لا يسمح البتّة، بأن يغادر أرضه عمل بهذه القيمة. تعيّن لجنة لفحص قيمة المكتشافات الأثرية من هذا النّوع، وتسدّد للمكتشف نصف القيمة المقدّرة، وتحتفظ الحكومة بعد ذلك بالأثر. ذكر أن تمثال جوبيتر هذا قد استخرج من حقل كان قد بيع بمبلغ ستّة وثلاثين ألف دولار، وهكذا اعتبر مالك الأرض الجديد أن أول حصاد للحقل، كان الأجود. لا أدري إن كان فيرجوسون في كل مرة يروي لنا، الحقيقة من عدمه، لكنني أظنّ أنه يفعل ذلك. أعلم أنّه قد تحدّدت رسوم تصديرية ضخمة، على كلّ اللّوحات التي رسمها الرّواد القدامي، وذلك للحيلولة دون تخفيض قيمة تلك اللّوحات في مزايدات خاصّة، وإنني أيضا على قناعة من صعوبة وجود أعمال أصليّة للرّواد القدامي في أمريكا، لأنّ أتفهها وأرخصها قيمة قدّر بسعر مزرعة جميلة. اقترحت شراء شيء زهيد من أعمال رافاييل لكنّ سعره كان يعادل ثمانين ألف دولار، وسيصل إلى المائة ألف بعد إضافة الرّسوم الجمركية، لذلك قررت تفحّصه فحسب دون شرائه.

أودّ هنا قبل أن أنسى، الإشارة إلى نقش بارز يحمل :

«المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض سلام المحبّة». لم يصادف التّوفيق كاتب هذه العبارة، غير أنّها تشي بنزعة كاثوليكية إنسانية. كتبت هذه العبارة بحروف مذهّبة، تحيط بأعلى المجموعة الفسيفسائيّة، على جانب من الـ سكالا سانتا بكنيسة القدّيس يوحنا المعمدان، أمّ وسيدة الكنائس الكاثوليكيّة قاطبة، وتصور تلك المجموعة، المخلّص، والقدّيس بطرس والبابا ليو والقدّيس سيلفستر وقسطنطين وشارلمان. يسلم بطرس فيها طيلسان البابويّة للبابا، والرّاية لشارلمان. ويسلّم المخلّص المفاتيح للقدّيس سيلفستر، والرّاية لقنسطنطين. لا ترفع صلاة للمخلّص، الذّي لا يحظي بأهمية كبيرة في أي مكان في روما، وقد نقشت عبارة تحت تلك العبارة تقول: «بارك بطرس، امنح قوّة للبابا ليو، ونصرا لتشارلز الملك»، ولا تقول: «كن شفيعا لنا عند المخلّص، لدي الآب، لننال هذا العطاء»، بل تقول: «بطرس أيّها المبارك، امنحنا إيّاها».

إنني فيما أذكر هنا جاد كلّ الجدية، ولا أتعمد هزلا أو إساءة أدب، ووفوق ذلك كلّه لا أتعمّد هرطقة، وأقرّ بناء على استنتاجي المتواضع، من واقع ما رأيت من أشياء، وما تردد على مسامعي، أنّ ترتيب الشّخصيّات المقدّسة في روما قائم على النّحو التّالي :

أولاً: أمّ الإله، أو العذراء مريم.

ثانيا: الربّ.

ثالثا: بطرس.

رابعا: نحو اثنا أو خمسة عشر بابا مطوّبا وشهيدا.

خامسا: المسيح يسوع المخلّص، (وتصوّره روما طفلا بين ذراعي أمّه).

لعلّني أكون مخطأ في حكمي هذا، (فرأيي خطأ في الغالب، كما هو الحال مع الآخرين). لكنّ ذلك رأيي الشّخصي، خطأ كان أم صوابا.

سأذكر في هذا السياق ما يبدو لي مثيرا للاستغراب. ذلك أنه لا توجد «كنائس باسم المسيح» في روما، ولا أستطيع العثور فيها على كنائس «للروح القدس»، وفي روما نحو أربعمائة كنيسة، قد سمّي ربعها تقريبا باسم المادونّا (العذراء. والقدّيس بطرس. سمّي الكثير منها باسم ماري، كي تتميز عن الأخريات بإضافة كلّ مقاطع الكلمات إليه، لو صحّ فهمي. لدينا هنا أيضا كنائس للقدّيس لويس، والقدّيس أوغسطين، والقدّيس آجنس، والقدّيس كاليكتوس، والقدّيس لورنزو في لوسينا، والقديس لورنزو في داماسو، والقديسة سيسليا، والقديس آثاناسيوس، والقدّيس فيليب نيري، والقدّيسة كاثرين، والقدّيس دومينيكو، وجمع من القدّيسين، الأقلّ رتبة، ممن لم يحققوا شهرة عالمية، ويأتي بعد ذلك بكثير، خارج قائمة الكنائس، مبرّتان خيريتان، أطلق اسم المخلّص على إحداهما، وسمّيت الأخرى بالرّوح القدس.

تجوّلنا أياما وليالي، بين أطلال وآثار وعجائب روما، وتشبّعنا بمرور الأيّام واللّيالي بغبار وشيخوخة خمسة وعشرين قرنا من الزمان، احتضنت خلالها هذه الآثار بالنّهار وحلمت بها في الليل، حتّى بدا أننا بدورنا قد بلينا، وأننا بسبلينا إلى الفناء والتّلاشي، وأنّنا معرضون في أيّة لحظة إلى وقوعنا غنيمة في يد أحد الأثريين، وأننا في حاجة إلى ترميمات

في السّيقان وإصلاحات في أنوف لم تعد تصلح لنا، وأنّ أسماءنا وتواريخ ميلادنا توضع بالخطأ، ثمّ نوضع بعد ذلك في الفاتيكان، ونكون عرضة لهوس الشّعراء، ونقش أسماء المخرّبين فوقنا إلى أبد الآبدين.

إنّ اتّباع الأسلوب المثاليّ في الكتابة عن روما بسبيله إلى التوقّف. وددت كتابة فصل يوضح حقيقة هذه المدينة العجيبة في كتاب دليل الرحلات، لكنني لا أستطيع ذلك لأنّني كنت أشعر طوال الوقت وكأنّي، صبيّ في حانوت لبيع الحلوى، حيث لك الاختيار من كل صنف، أما الآن فلا مجال للاختيار. انسقت يائسا خلف المئات من صفحات مخطوط دون أن أتوصّل إلى سبيل أبدأ به الكتابة. ولن أفعل ذلك مجدّدا البتّة. فجوازات سفرنا الآن تحت الفحص، ونحن نتأهبّ للذّهاب إلى نابولي.

الفصل التّاسع والعشرون

تخضع السّفينة هنا في مرفأ نابولي، تحت الحجر الصّحيّ. ظلّت راسية لبضعة أيّام وستظلّ كذلك أيّاما أخرى، حيث صادفنا سوء حظّ نحن القادمين من روما بالقطار. ليس مسموحا لأحد بالطّبع، بالخروج على ظهر السّفينة، أو مغادرته إلى السّاحل، وصارت السّفينة الآن سجنا لنا. يحتمل أن يقضي ركّاب السفينة أيّامهم اللاهبة، ينظرون إلى فيزوفيوس والمدينة الجميلة من تحت المظّلات، وهم يسبون. تأمّل أن هناك عشرة أيّام على هذا النحو، تزجية للوقت! نذهب كل يوم في قارب ونطلب منهم القدوم إلى الشّاطئ، فتهدأ نفوسهم. كنّا نقف على مسافة عشر خطوات من السّفينة ونطري لهم المدينة، ونحدّثهم عن قدر ما يقدم في فندقهم من خدمات تمتاز عما سواها في أوروبا، وما يتمتع به من هدوء، وعن كمّيات الآيس كريم الكبيرة التّي يقدّمها، والوقت الذّي أمضيناه تجولا بالبلدة وإبحارا إلى جزر الخليج. فتنشرح بذلك صدورهم.

صعود فيزوف

سأذكر لأيّام كثيرة قادمة، رحلتنا إلى فيزوفيوس، وذلك بسبب التجارب ارتياد أماكن تستحق المشاهدة، أما السبب الرئيس فيعود إلى ما عانيناه من مشاقّ. حظي اثنان أو ثلاثة منا ببث أنفسنا بالراحة. وسط مشهد حافل بالهدوء والجمال في جزيرة أسكيا. وهي جزيرة تبعد عن الميناء ثمانية عشر ميلا. وظللنا ليومين نطلق على هذا «استرخاء»، لكنني لا أذكر الآن كنه هذه الرّاحة، لأننا لدى عودتنا إلى نابولي لم نقو على النّوم لثماني وأربعين ساعة. تأهبنا للذّهاب إلى الفراش مبكّرين حين حل المساء، لنعوّض بعض ما افتقدناه من

رقاد، حتّى سمعنا بهذه البعثة الفيزوفيسية. تقرر أن يكون نحن الثمانية ضمن الجماعة وتأهبنا لمغادرة نابولي عند منتصف اللّيل. أعددنا بعض المؤن للرّحلة، واستأجرنا عربات نقل تقلّنا إلى «البشارة»،ثمّ التجول حول المدينة، لنظل على يقظتنا، حتّى الثّانية عشر. أسرعنا بالرّحيل، وخلال ساعة ونصف السّاعة، وصلنا إلى مدينة البشارة. تعدّ جزيرة البشارة، أسوأ مكان تحت الشمس. يتمدد الناس في مدن إيطاليا الأخرى على الطّرقات في هدوء، ويترقّبونك تبادرتهم بسؤال، وإلا أقدموا على فعل مشين، يعرّضهم لمساءلة قانونية، لكنّهم هنا في البشارة قد فقدوا ذرّة من حياء، يقومون من كرسيّ، بالإمساك بشال امرأة من، ويردونه لها لقاء بنس، ويفتحون لك باب العربة لقاء مقابل معلوم، كما يغلقونه بعد خروجك بمعلوم أيضا، ويساعدونك في إزالة غبار عالق بك لقاء سنتين، وينفضون ثيابك بالفرشاة فتعود أسوأ مما كانت لقاء سنتين، ويبتسمون لك بسنتين، وينحنون لك بابتسامة ملَق مع قبّعة في اليد بسنتين، ويبادرونك بأخبار مفادها «أنّ البغال بسبيلها إلى الوصول في الحال» لقاء سنتين، ثم عبارة «سيّدي، الجوّ اليوم مائل للدفء» مقابل سنتين، يصطحبونك لأربع ساعات صعودا، لقاء سنتين. وهكذا تسير أحوالهم. يسدّون عليك الطّريق، ويقلقونك، ويتحلّقون حولك، تفوح منهم رائحة العرق، والوسخ، ويكشف مظهرهم عن ضعة وازدراء وذلّ. لقد ضاقت بهم سبل الحصول على المال من أحطّ الأعمال منزلة. لم تتح لي فرصة الكشف عن شيء يتعلق بأفراد أصحاب الطّبقة العليا بنفسي، ولكنّني أرى من خلال ما سمعته عن افتقارهم إلى مثلب أو اثنين مما لدي الدهماء، وإحرازهم سبقا في مثلب أو اثنين آخرين هما الأسوأ. فما للنّاس يستجدون! وكثيرون منهم أيضا حسنى الملبس الهندام بصورة واضحة.

ذكرت أنّني ليس لي مآخذ على أفراد الطبقة العليا، من خلال متابعتي لهم بنفسي. لا بدّ من أن أتذكر ذلك! كنت قد نسيته. فما رأيته في ليلة أمس، من أكثرهم كياسة وتأنّقا، قد يستحي من فعله فيما أعتقد، أكثر أفراد الطبقة الدنيا وضاعة في المجتمع، خشية محقهم من الضواحي المسيحية كافة. تجمّعوا بالمئات بل بالآلاف، في مسرح سان كارلو الكبير، بأي قصد ترى؟ الجواب ببساطة للسخرية من سيدة عجوز، والتهكّم بها، ويزدرون ممثّلة كانوا يوقرونها ذات يوم، لكن جمالها قد عنها الآن، وفقد صوتها ما كان يتمتع به

من عذوبة. تحدّث الجميع بشأن العرض الكبير المزمع تقديمه. وذكروا أنّ المسرح سيمتلأ عن آخره، لأنّ السيدة فريتزوليني هي التّي ستشدو بالغناء. وقيل إنّها لا تستطيع الغناء الآن بشكل جيد ولكنّ النّاس أحبّوا رؤيتها فحسب. وبذا ذهبنا إلى هناك. في كل مرة تبدأ بالغناء، كانوا يتضاحكون ويسخرون، (كل الحاضرين في هذا المقرّ الضّخم. وبمجرد أن غادرت خشبة المسرح، هتفوا كي تعود مجدّدا. عادت إلى خشبة المسرح مرّة أو مرتين حتى خمس أو ستّ مرّات متتالية، وقوبلت بالاستهجان لدى ظهورها، ثم انهمر عليها الضحك والسّخرية حين وصلت إلى النهاية. طولب بعودتها في الحال. وأهينت مجدّدا! ويالقدر استمتاع الأنذال كرام النسب بذلك! استغرق السّادة في الضّحك والسيّدات حتّى سالت منهم العبرات وصفّقوا بحماس شديد. حين أوشكت العجوز المسكينة على الظّهور للمرّة السّادسة إذعانا لهم، وصبرا لا يلين، لتقابل بعاصفة من صيحات الاستهجان!

وكان هذا الظهور هو الأكثر ضراوة، وقسوة ووحشيّة. ربما تتغلب المطربة على جمهور من المشاكسين الأمريكيين، برباطة جأش، وهدوء لا يتزعزع (ذلك لاستجابتها المرّة تلو المرّة. وانحنت وابتسمت عن طيب خاطر، وقدّمت قدر ما استطاعت تقديمه من غناء، وعاودت الانحناء، في أثناء صيحات السّخرية والاستهجان، دون أن تفقد رصانتها، أو يتعكّر مزاجها) ومن المؤكّد في بلد آخر غير إيطاليا، كان لا بد من أن يوفّر لجنسها وضعفها، الحماية الكافية. لأنّها في غير حاجة لشيء سوى تلك الحماية. تأمل حمعا كهذا من ذوي النّفوس الضّعيفة، قد احتشدوا في ذلك المسرح ليلة أمس. وإذا استطاع المدير حشد مسرحه بأرواح من نابولي فحسب، دون أجساد، فإنّه لن يحصّل أقلّ من تسعين مليونا من الدّولارات. فأيّة سمات تلك التّي تدفع إنسانا إلى حثّ ثلاثة آلاف نذل على الاستهجان والسّخرية والضّحك من امرأة عجوز عزلاء، وإهانتها بتلك القسوة؟ لا يأتي هذا سوى شرير وضيع. تدفعني رؤية هذا الحدث إلى الاقتناع (ولا أريد أن أتجاوز ما رأيته بعيني) بأنّ أصحاب المنزلة العليا في نابولي. تتوفّر فيهم تلك السّمات ولا يمكنني الادّعاء بأنّهم لو كانوا على النّقيض، لصاروا بشرا أسوياء.

بقيّة صعود فيزوفيوس

يعتقدون في نابولي هذه بل ويؤيّدون إحدى أحطّ ما يعرف المرء من خزعبلات قديمة تنسب إلى الدّين. تلك هي معجزة سيولة دماء القدّيس جانواريوس. يحشد الرّهبان النّاس، مرتين في العام داخل الكاتدرئيّة، ويخرجون قنّينة، تحتوي على دم متخثّر، ثم يعرضون تحوّل الدم بالتدريج إلى دم سائل. تتكررّ هذه المهزلة السّخيفة طيلة ثمانية أيّام، في حين يمضي الرّهبان وسط الجموع ويجمعون المال مقابل العرض المقدّم. يتحوّل الدّم المتخثّر في اليوم الأوّل إلى دم سائل في مدة سبع وأربعين دقيقة، فتمتلأ الكنيسة عن آخرها، فيسمح الوقت لجامعي الأموال بالاحتيال على النّاس، تطرد بعد ذلك سرعة سيولة الدم، حيث تزداد سرعته تدريجيا بمرور الأيام، فتفرغ الدور من ساكنيها، حتى يسفر اليوم الثّامن عن العشرات فحسب، يحضرون حدوث المعجزة، حيث يسيل الدمّ في أربع دقائق.

اعتادوا أيضا إقامة موكب ضخم كلّ عام، من الرّهبان. المدنيين والجنود، وأصحاب المناصب العليا في الحكومة المحليّة، لحلق رأس مادونا مقلّدة، وهي تمثال ملوّن ومعدّ كدمية صانع القبّعات، حيث ينمو الشعر ينمو بمعجزة، أو يعاد نماءه كلّ اثنى عشر شهرا. اعتادوا إقامة موكب الحلق هذا، منذ خمس سنوات، واعتبر مصدرا كبيرا من مصادر دخل الكنيسة، التي احتفظت بملكية التّمثال الشهير، وكانت احتفاليّة حلق الرأس أمام العامّة تجرى، وتنفذّ دوما بالصّورة المثلى من حيث الرّونق وجمال العرض بأفضل الأساليب، لأنّه كلّما زاد الاهتمام بعنصر التشويق، تحقّق مزيد من الجذب فيتضخم الدخل بالتّالي. ولكن حدث مؤخّرا أن جاء يوم تداعى فيه شأن البابا وأعوانه في نابولي، فأوقفت الحكومة المحليّة عرض المادونا السّنوي.

لدينا إذن صنفان من النابوليّين وهما أسوأ من عرف بالاحتيال والدجل، صدّق ذلك نصف سكّان المدينة إخلاصا ووفاءا للعقيدة، والنصف الآخر منهم من صدق ذلك أو التزم إزاءهما الصّمت. وبذلك سلموا أنفسهم للدجل والإحتيال. إنني على قناعة تامّة من أنّ سكان نابولي كلهم، يعتقدون في هذه الخوارق المختلقة، وهم أولئك الذّين يطالبونك بسنتين، بين الفينة والفينة، ويلقونك بالانحناء، ويسبّون امراة عابرة. وأظنّهم أهل لذلك.

بقيّة صعود فيزوفيوس

يكرر لك أولئك النابوليين ما يطلبون منه مال، أربع مرّات، فلو مطلبهم من المرة الأولى، خجلوا من أنفسهم، حيث يعتبرون أنهم بذلك قد حققوا النّذر اليسير، فيسألونك المزيد، في اللّحظة والتوّ. ولو حققت مطلبهم مجددا، لصاحب تلقّيهم المال، بعض بذيء القول والإيماء. لا يستطيع المرء أن يشتري ويدفع سنتين، لقاء أصداف رخيصة دون إزعاج ومشاجرة. يكلّف ركوب عربة النقل هنا، فرنكا واحدا، لكن الحوذيّ دوما يطالبك بالمزيد، وهي القاعدة السائدة هنا، تحت ذريعة بعينها أو أخرى، وإذا حقّق مطلبه، طلب المزيد. يحكي أن غريبا استقلّ عربة، لمسافة محددة، تعريفة النقل نصف فرنك.

أعطاه الرّجل خمسة فرنكات على سبيل التجربة، فطلب أن يزيده. تلقّى منه نصفا آخر. وعاود الطّلب، فحصل على فرنك كامل، فطلب المزيد وقوبل هذه المرة بالرّفض. اهتاج الحوذّي، فووجه برفض آخر، فأثار جلبة، قال له الغريب. «لا عليك، رد لي الفرنكات السبعة، ويمكنني تدبير أموري من بعد». حين حصل على نقوده أعطى الحوذيّ نصف فرنك وطلب منه سنتين في التو، لشراء شراب. لعلّ ذلك يدفع إلى الظنّ بأنّني متحامل عليهم وغير منصف. ربّما أكون ذلك، لكنّني سوف أخجل من نفسي لو كنت غير ذلك.

بقيّة صعود فيزوفيوس

حقيقة وكما قلت من قبل، إننّا حصلنا على الجياد والبغال، بعد ساعة ونصف ساعة من المساومة، مع أهالي مدينة البشارة، وبدأنا صعود الجبل يغالبنا النّعاس، بصحبة عدد من الصّعاليك يتبع كلّ منهم بغلا، ويتظاهر في الوقت نفسه بدفعه إلى الأمام، وهو وا قف في مكانه، والبغل هو الذى يسحبه. لجأت أوّل الأمر إلى السير وئيدا، وساورني شعور بعدم اقتناعي بفكرة سداد فرنكات خمس لتابعي، لكي يشدّ بغلته إلى الوراء ويبطئ من تقدّمه أعلى التّلّ لذلك قمت بطرده. ومضيت بعد ذلك في طريقي مسرعا.

حظينا من نابولي بلوحة رائعة، من مكان مرتفع على جانب التلّ. لم نر فيها بالطّبع سوى مصابيح الغاز، تنتشر في حلقة على ثلثي الخليج الكبير، على هيئة عقد من الماس، يتلألأ

عبر الظّلام من مسافة نائية، يقلّ ألقه عن ألق نجوم السّماء، لكنّه كان أكثر رقّة وجمالا، في تقاطع أضوائه وانعكاساتها مع بعضها بعضًا، مشكّلة خطوطا وأقواسا، متلألأة بالنور. انتشرت على تخوم البلدة، وما يحيط بها، على بعد أميال، أراضي كامبانا السهلية، صفوفا ودوائر، وعناقيد من الضّوء، تومض كلّها كمجموعة دريّة، تشير إلى عشر قري، سادرة في سباتها. كان أمامي في تلك اللحظة، الشخص المعلّق بذيل الفرس، والخبير بتوقيع كلّ صور الوحشية بالحيوان، دون موجب، قد تلقىّ ما يقرب من أربعة عشرة ركلة وجعلني هذا الحدث فضلا عن مشهد الأضواء الرائع من بعيد، جعلاني مغمورا بالسكينة، إذ انشرح صدري ببدء صعود فيزوفيوس.

بقيّة صعود جبل فيزوفيوس

سيصبح هذا الموضوع القيّم صالحا لكتابة فصل، وسأشرع في كتابته غدا أو بعد غد.

الفصـــل الثّلاثون

«شاهد نابولي، ثم مت». ليس في هذا أيّ بأس، رغم أنّي لست أدري ضرورة أن يموت المرء مباشرة بعد مشاهدته إيّاها، لكن محاولته العيش فيها، فقد تعجّل بأجله بفارق طفيف. أن ترى نابولي كما رأيناها، في أول ساعة من الفجر، من الجانب العلوي لفيوزفيوس، فكأنك ترى لوحة رائعة الحسن. بدت مساكنها الكالحة بيضاء من هذه المسافة، صفوفا من الشرفات والأسطح قد تكدّست فوق بعضها بعضًا، بدءا من مياه المحيط الزّرقاء، حتّى حصن القدّيس «إلمو» الضّخم الّذي احتلّ ذروة الهرم الأبيض الشّامخ. وأضفى على اللّوحة تناسقا وروعة واكتمالا. كان جمالها يجلّ عن الوصف حين تحوّلت البراعم فيها إلى زهور، واحمرّت الزهور بدورها، من أول قبلة للشّمس. ربما حسن بالمرء في تلك اللّحظة أن يردّد: «شاهد نابولي ثم مت». كان إطار اللّوحة ذاته جميلا. يظهر البحر الهادئ في مقدّمته، بفسيفسائيّة شاسعة من ألوان عدّة، وتسبح الجزر المرتفعة في سديم سادر في البعد، وعلى أطراف المدينة حيث كنّا، تبدو قمّة فيزوفيوس المركبّة والشّامخة بأضلاعه القويّة السّوداء، وحمم اللافا الممتدة إلى أسفله لمساحات لا نهاية لها من السّهول، بساط ممتدّ من الخضرة يسحر العين، يمتد إلى ما وراء مجموعة الشجر، والبيوت النّائية، والقرى المغطّاة بالثلوج، حتّى ينشقّ عنها، هدب غيمة، وعزلة غامضة تسود المكان. يظهر ذلك كلّه من الصومعة، بالجانب الأعلى من فيزوفيوس، حيث يستطيع المرء أن يردّد: «تفرّج على نابولي ثمّ مت» لكنك لا تتجاوز الأسوار وانظر إليها مليّا، لأن ذلك يزيل من الشّيء شاعريته. النّاس في عاداتهم أقذار، ما يجعل الطّرقات تعجّ بالقذارة، ويبعث مشاهد قميئة وروائح فجّة. لم يتعرّض مجتمع لظلم بيّن في مواجهته للكوليرا كما تعرض أهل نابولي هؤلاء. وهناك أسباب قويّة وراء ذلك. فالكوليرا بصفة عامّة تقضي على النابوليّ بمجرد إصابته بالوباء، لأنك وكما

تعلم، بأن الطّبيب قبل أن يتمكّن من الخوض في الوسخ، ويصل إلى الدّاء يكون المريض قد قضى نحبه. دأب أفراد الطّبقة العليا على التحمّم كلّ يوم، وهم لذلك بكامل عافيتهم.

تتسع الشّوارع عامة لمرور عربة، وعجيب اكتظاظها بالبشر! يتكرّر برودواي هنا في كلّ شارع، وفي كلّ عطفة وكلّ زقاق! عجبت لتلك الكتل والحشود والتجمعات البشرية، المتدافعة والمهرولة في الطّرقات!

لم نر مثل هذا من قبل، وظنّي بندرة وجوده في نيويورك. افتقرت نابولي إلى الطرق الفرعيّة، وأنها لو وجدت، فلن تتسع في الغالب لمرور رجل دون أن تصدّه صدّا. هكذا يسير الجميع في الشّارع، وحيث يوجد متسعا في الشارع، تتدافع عبره عربات النّقل تجرها الجياد. أعجب لتدافع هذه الأعداد الضّخمة من البشر كلّ يوم ثم لا يندهس أحدهم تحت عربة ويصاب بإعاقة، ذلك لغز يستعصي على الحلّ.

لو كان لأعجوبة أن تضاف إلى عجائب الدّنيا، فهي مقارّ السّكنى في نابولي. أعتقد جازما أنّ أغلبها يبلغ من الارتفاع مائتي قدم! وأنّ الجدران المقامة من الآجر المصقول، تبلغ أبعادها سبعة أقدام. قبل بلوغك الطّابق الأوّل، عليك أن تصعد تسع درجات. كلاّ، ليس تسع بل تزيد عليها أو تقلّ. يوجد قفص طيور من قضبان حديديّة، أمام كلّ نافذة، تتصاعد تدريجيا إلى أعلى حتى تصبح وسط لسّحب سرمديّة تغشي سطح المبنى، وهناك دوما شخصا يطلّ من كلّ نافذة، أشخاصا بحجمهم الطبيعيّ يطلون من الطابق الأول، وتبدأ أحجامهم في التّضاؤل شيئا فشيئا بدءا من الطّابق الثّاني بشكل منتظم، حتّى يبدو الأشخاص في الطّابق الأخير أقرب لطيور أقفاص السّنونو العالية غريبة الشكل، منهم إلى أي شيء آخر. كان مشهد أحد هذه الشقوق الضّيّقة المسمّاة بالشوارع، والتي تمتدّ على جانبيها صفوف من البيوت العالية وتتلاقي معا في مسافة بعيدة ما يشبه خطوط السّكك الحديديّة، وصفوف الثّياب المعلّقة بكلّ الأدوار العليا والمرفرفة بأسمالها فوق حشود البشر المارين تحتها، والنّسوة بثيابهنّ البيضاء وقد جلسن خلف أسوار الشّرفات الحديديّة من الطّابق الأوّل حتّى عنان السّماء، كان مشهدا كهذا يستحقّ بالفعل التّغلغل في التّفاصيل النّابولية بغرض الفرجة:

بقيّة صعود فيزوفيوس

تضمّ نابولي في أحيائها الحاليّة، ستّمائة وخمسة وعشرين ألف نسمة، لكنّني على يقين من أنها لا تشغل من الأرض أكثر من مساحة أيّة مدينة أمريكيّة، تعدادها مائة وخمسين ألفا. ويزيد رغم ذلك أقصى ارتفاع لها في الجوّ على ارتفاع ثلاث مدن أمريكيّة، وهنا يكمن سرّها.

يمكن أن ألحظ هنا على الفور، البون الشّاسع بين الترف والفاقة، والنّعيم والبؤس، بصورة متكرّرة وصادمة، بأكثر مما لاحظت في باريس. يجدر بك التوجّه إلى بوي دي بولون، لرؤية التأنق في أحدث الطرز من الثّياب، وترى العربات الفاخرة بخدمها وحشمها وحوذيها، وبزّات الخدم المذهلة. ثم التّوجه إلى حي الفابورج القدّيس سان أنطوان لرؤية كم البؤس والجوع والرذيلة، والأسمال والأوساخ. حيث يخالط هذا وذاك بعضه بعضًا في طرقات نابولي العمومية. يزاحم بعضهم بعضًا في كل شارع، أطفال عراة في سنّ التّاسعة، وأطفال تأنقوا بلباس أنيق. المزق والأسمال وأزياء غاية في الروعة، عربات تسحبها البغال وأخر تجرها الجياد، متسوّلون وأمراء وأساقفة. يخرج كلّ النابوليين في السّادسة كلّ مساء، ويتوجّهون إلى ريفييرا دي كياجا، (وأيّا كان معناها)، هناك يمكن للمرء الوقوف لساعتين، ومشاهدة، أبهى وأردأ ما وقعت عليه عين بشر، يسيران في ركب واحد جنبا إلى جنب، ولا أشكّ أنّ الأمراء يزيدون عددا على رجال شرطة نابولي. فالمدينة عامرة بهم. إن من يصعد من الأمراء سبع درجات ولا يمتلك أيّة إمارة، سيظلّ محتفظا بعربة تجرّها الجياد ويعاني الجوع، أما الكتبة والفنّيون والرسامون والمومسات، سيذهبون إلى هناك دون أن يتناولوا وجباتهم الأساسية، ويتسوّلون ثمن الركوب إلى الكياجا. يتكدّس صعاليك المدينة وحثالتها، فوق بعضهم بعضًا، فوق عربة كارو كسيحة يجرّها حمار لا يزيد حجمه على هرّة، بينما ترى الدّوق والصّيارفة، في عربات فخيمة تجرّها الجياد، مجهّزة بالمتأنقين من الحوذية، والخدم المرافقين، وقد اتجه الجميع إلى هناك في موكب مهيب، ستشاهد ولساعتي زمن، تدافع بالمناكب بين أصحاب المكانة والثروة من جانب، والبؤس والفاقة من جانب آخر، في ركب حاشد، يعود الكلّ بعد ذلك في سكينة إلى بيوتهم سعداء، تسودهم البهجة والفرح.

ألقيت في الغد نظرة على الدرج الرخامي الفخم في قصر الملك، ذلك الذي قيل إنّه تكلف خمسة ملايين من الفرنكات، وأظنّه قد تكلّف نصف مليون فحسب. شعرت أن الإقامة في بلدة تتوفر فيها وسائل الرّاحة والرّفاهيّة كتلك، شيء طيب بالضرورة. سرت بعد ذلك لمسافة قصيرة مستغرقا في تأملاتي، وكدت أطأ بقدمي مشرّدا كان يتناول غداءه المكون من قطعة خبز وعنقود عنب يجلس على جانب الطّريق، وحين اكتشفت أنّ هذا المهر البريّ الصغير يعمل في متجر للفاكهة، (وقد صحب. لمتجر معه في سلّة، مقابل سنتين في اليوم) وأنّه لا يملك قصرا في الوطن الذّي يعيش فيه، فقدت بعض حماسي فيما يتعلّق ببحبوحة العيش في إيطاليا.

أوحي هذا فورا بالتفكير في وضع الأجور هنا. يحصل الملازمون الأوّل في الجيش، على مبلغ دولار في اليوم، أمّا الجنود النّظاميّون فسنتين يوميا. أعرف موظّفا راتبه، أربعة دولارات في الشّهر. يحصل الطبّاعون هنا على ستّة دولارات ونصف الدّولار راتبًا شهريًا، لكنني سمعت برئيس للعمّال يتقاضى ثلاثة عشر دولارا. إنّ تحوّل مثل هذا الرّجل إلى الثّراء السّريع والمباغت، يجعل منه شخصا أرستقراطيًا مزهوا بنفسه. وما يظهره هذا الرّجل من خيلاء، يفوق أي احتمال.

يذكّرني الحديث في الأجور، بأسعار السّلع، فأنت في باريس تدفع اثني عشر دولارا في دستة قفّازات ممتازة منتجة من جلود الشّاة، هذه القفّازات تباع هنا بالجودة نفسها لقاء ثلاثة دولارات ونصف الدّولار للدّستة. تدفع في باريس خمسة أو ستّة دولارات لقميص قطنيّ ممتاز، ويساوي هنا، في ليجهورن دولارين ونصف الدّولار، وتدفع في مارسيليا أربعين دولارا لقاء معطف كامل للسهرة، حاكه خياط جيّد، لكنّك في ليجهورن تحصل على حلّة كاملة بالقيمة نفسها. تحصل هنا على حلل أنيقة للعمل، بسعر يبدأ من عشرة إلى عشرين دولارا، ويمكنك في ليجهورن الحصول على معطف للعمل، بخمسة عشر دولارا، وسيكلّفك المعطف نفسه في نيويورك سبعين دولارا. تساوي الأحذية طويلة السّاق والمصنوعة من جلود الماعز ثمانية دولارات في مارسيليا، وأربعة دولارات هنا. ترتفع قيمة الحرير النّاعم من صنف ليونز في أمريكا عنها في جنوا، وأغلب ما تشتريه من حرير في أمريكا يصنّع في جنوا، وتستورده ليون وتضع عليه الغلاف الخارجي وتصدّره بعد ذلك إلى أمريكا، ويمكنك في جنوا شراء ما يكفي من حرير عمل عباءة فضفاضة وتدفع فيه خمسة وعشرين دولارا.

ووسوف تسدد خمسمائة دولارا لو اشتريت الكمية نفسه في نيويورك، وهذا ما أخبرتني به السيّدات. تردّني هذه الأمور بالطّبع إلى الوراء، بنقلة بسيطة وطبيعيّة.

بقيّة صعود فيزوفيوس

وهكذا. وحي إليّ الكهف الأزرق العجيب. ويقع على جزيرة كابري، التي تبعد مسافة اثنين وعشرين ميلا عن نابولي. استأجرنا باخرة صغيرة، وتوجّهنا بها إلى هناك، أحاط بنا رجال الشرطة بالطّبع، ووضعنا رهن الحجر الصّحيّ. استفسروا عن توجّهاتنا السّياسيّة، قبل السّماح لنا بالنّزول إلى البرّ. إن هذا المسلك الذى تتعامل به حكومات ضيئلة الشأن كهذه، يعدّ في حدّه الأدني ضربا من السّخف. لقد وصل بهم الأمر إلى وضع شرطيّ، فوق قاربنا، لمراقبتنا داخل حدود كابري. أظنّهم اعتقدوا برغبتنا في سرقة الكهف. إنه كهف يستحقّ السّرقة. يبلغ ارتفاع مدخله الأمامي أربعة أقدام، وعرضه أربعة، ويقع أمام منحدر عمودي شاهق الارتفاع، أي يمثل جدارا بحريًا. تدخل الكهف في قوارب صغيرة، وفوهته مطبقة، بحيث لا تستطيع دخوله وقت ارتفاع المدّ. ستجد عند دخولك أنك محاط بكهف مقنطر، طوله مائة وستين قدما، وعرضه مائة وعشرين، وارتفاعه نحو سبعين. لا يعرف أحد قدر العمق، فأغواره تصل إلى أعماق المحيط. تعدّ مياه هذه البحيرة المنعزلة الرّاكدة، أصفي المياه زرقة وأجملها، ما يفوق أيّ تصوّر. تشبه في صفائها البلّور، وتبزّ في نقاء زرقتها أكثر سموات إيطاليا صفاء. لا قبل لمسحة لونية أخرى أن تضيف لسحرها سحرا، ولا لبريق أن يفوق بريقها حسنا. إلق حجرا في مياهها، ترى ما لا يحصى من زبد رقيق، قد أصدر بريقا يبهر البصر، ويشبه ما يظهر عن الألعاب النّارية الزّرقاء من ومض. اغمر فيها مجدافا، ليتحول نصله إلى لجين لامع مبرغل، به مسحة من زرقة، والق بشخص في الماء فيغلّفه درع يربو في جماله على ما تدرّع به فارس صليبيّ.

توجّهنا بعد إلى إسكيا، لكنني وردت هذه الجزيرة وسئمت الآن. البقاء فيها ليومين، لإجراء بحث عن نزعة الشّر لدى البشر، مع صاحب فندق جراند سينتينيللي، باعتباره

أحد نماذج تلك النّزعة. ذهبنا من ثمّ إلى بروكيدا، ومنها إلى بوتزيوللي، حيث نزل القدّيس بولس إلى البرّ، بعد عودته من ساموس بحرا. وكذلك فعل دان والآخرون. وكانت مصادفة غريبة. بشّر القديس بولس في هؤلاء، لسبعة أيّام قبل أن يعود إلى روما.

تمعنّا ببلاهة محرجة في حمامات نيرو، وآثار بياي وفي هيكل سيرابيس، وكوماي، حيث فسّر الكوماي السيبلي الوحي، وفي بحيرة آرجنانو ومدينتها القديمة الغارقة، التّي لا تزال ظاهرة في أعماقها، وكثيرا من الأماكن المهمة، لكنّ كهف الكلب، كان مصدر اهتمامنا الرئيس، لأننا سمعنا به وقرأنا عنه الكثير. كتب الجميع عن الجروتو دل كين، وعن أبخرته السّامة، بدءا من الكاتب بلايني حتّى سميث، وكلّ من ساق كلبا معه من السوّاح. أمسك به على أرضية الكهف، يختبر به إمكانيّات المكان: يموت الكلب في دقيقة ونصف، والدّجاجة في التوّاللّحظة. وإن من زحفوا إلى هناك من الأجانب لا يستيقظون كافة من نومهم، حتّى يدعون بهتاف.

ولا يستجيبون رغم ذلك للنّداء. إنّ من يخاطر من الأجانب بالرقاد هناك، يتل عقدا بإقامة مستدامة. اشتقت لرؤية هذا الكهف، وقرّرت أن أصطحب معي كلبا، فأمسكه بيدي، وأخنقه قليلا، ثمّ أتابعه بالعدّ، وأزيد في خنقه قليلا حتى أقضي عليه تماما. وصلنا إلى الكهف في الثّالثة بعد الظهيرة، وباشرت في الحال خوض التّجارب. لكنّنا الآن أمام معضلة بري، إذ ليس لدينا كلب.

بقيّة صعود فيزوفيوس

كنّا داخل الصّومعة على ارتفاع يقارب ألفا وخمسمائة أو ثمانمائة قدم فوق سطح البحر، وجاءت سرعة صعودنا على هذا النّحو على غير توقّع بالمرّة. فالميلين التّاليين من الطّريق كانا مزيجا، من صّعود يتسم أحيانا بالسرعة، وأحيانا بغير ذلك، لكنّ هناك سمة واحدة ميّزته طوال الوقت دون تراجع أو تبدل، وهي سمة مشينة من العيب ذكرها أو الخوض فيها. كان ممرّا ضّيقا وعرا، يستشرف مفيضا قديما من اللافا، أي بحرا من الوحل الأسود، تشكل في صور عجيبة، وخليط من البوار والجدب والحطام، كمّا هائلا

من القشور الأرضيّة المنتفخة، والدّوامات العنيفة، والهضاب الصّغيرة المتفرّقة، ومن كتل سوداء متعرجة، ومنزوية ومتشابكة وعنقودية من وحل ينتحل صورة جذور نباتية متشعّبة، وعريش ضخم، وجذوع أشجار، تداخلت وتشابكت معا، واتخذت كلّها أشكالا غريبة، ومنظرا عاما مروّعا، وكان كلّ هذا اليباب الحالك والممتد والعاصف، بما يضم من موحيات رهيبة، حافلة بالنشاط والحركة، بدا كلّه متحجّرا! لقد سرى فيه جمود الموت لحظة فورانه الجنونيّ! وشلّت حركته وترك يحدّق في السّماء، في غضب لا طائل من وراءه إلى الأبد !!

وقفنا آخر المطاف في واد ضيّق مستو، ونشأ هذا الوادي عن مستنقع عجيب، أحدثه انفجار في زمن ضارب في القدم)، علت جنبيه قمّتا فيزوفيوس المتحدّرتين. بدت تلك التي كان علينا تسلّقها، وهي التّي تضمّ البركان النّشط، على ارتفاع ثمانمائة أو ألف قدم، وبدت لعين أي متسلق متعامدة تقريبا من أسفل ومن أعلى، لتؤكّد عجز أيّ بغل يحمل رجلا على ظهره عن تسلّقها.

لو توفّرت رغبة في صّعود ه، فعليك بأربعة من هؤلاء القراصنة، لحملك إلى قمّته، على مقعد فوق محفّة، ولكن بفرض أنهم انزلقوا وتركوك عرضة للسّقوط من عل، أمن سبيل لوقف تدحرجك إلى أسفل. ربّما لاّ يحلّ أجلك على هذا النحو! تركنا البغال، وشحذنا أظافرنا، وبدأنا الصّعود الذّي طالما حدّثتكم به، عند السّادسة إلاّ الثلث صباحا. اتّصل الطريق مباشرة، بمنحدر وعر. تتناثر فوقه قطع غليظة من الحجر الخفّاف، ومع كل خطوتي صعود، نتراجع خطوة إلى الخلف. كان هذا الجانب بالغ الانحدار، حتّى استلزم الأمر توقّفنا كلّ خمسين خطوة، أو ستين، نلتقط خلالها أنفاسنا لوهلة. وكان علينا النظر إلى أعلى، لنري من صعدوا قبلنا، ثم النظر إلى أسفل في خطّ يقارب المستقيم لمن كانوا منهم تحتنا. وصلنا أخيرا إلى القمّة، واستغرقت رحلة الصعود، ساعة وخمسة عشر دقيقة.

كان أول ما وقعت عليه عيوننا، مجرد فوّهة بركان مستديرة، أو بالأحرى خندقا مستديرا، يقارب عمقه المائتي قدم، وسعته أربعمائة أو خمسمائة قدم، حيث يقارب جداره الدّاخليّ نحو نصف الميل، في محيط الدائرة. تشكّل على هذا النحو وسط حلقة دائرية كبيرة، مرتفعا يبلغ مائة قدم متسق ومليء، وتغطّي كلّه بطبقة كبريتية متجمّدة، تزخر

بالعديد من الألوان البرّاقة الجميلة، وقد طوّقه الخندق. وكأنه يطوّق حصنا. أو كما يحيط نهر صغير، بجزيرة صغيرة، وذلك أقرب إلى الشبه. كانت الطبقة الكبريتية مبهرجة تماما، حيث اختلط فيها ألوان الأحمر، والأزرق، والبنّي والأسود، والأصفر والأبيض، كلّها معا في فوضى عارمة، وحيث لم أرى افتقارها إلى ظلّ أو لون أو مجموعة ألوان. وحين بزغت الشّمس عبر وأشعلت هذه الجلوة اللونية العظيمة، جعلت من قمة فيزوفيوس الجبل الإمبراطويّ، تاجا مرصّعا بالجواهر!

لم تكن الفوّهة ذاتها (الخندق. بذلك التعدد اللّونيّ نفسه، بل كانت أيضا في رقّته وصفائه، وبساطة ألقه، أكثر جمالا وروعة في عين النّاظر. إذ خلت صورتها الأصليّة والصّادقة من أيّ بهرج. أجميلة هي؟ يمكن للمرء أن يقف أعلاها لمدة أسبوع، ولا يصاب بسأم! فهي أشبه بمرجة جميلة، اكتست حشائشها الرّقيقة، وطحالبها النّاعمة بغبار لامع، وشابتها بمسحة من اللون الأخضر والأكثر شحوبا، فتتحوّل بالتدريج إلى قتامة ورقة نبات برتقالية، ثمّ تتحوّل مجدّدا إلى البني الأقتم، يخبو بعد ذلك في البرتقالي، ثمّ الذّهبي الأكثر بريقا، ويصل إلى ذروته في الأحمر الورديّ، لزهرة تفتّحت حديثا. وكما غارت أجزاء من المرجة، تقطّعت أجزاء أخرى منها كندف الجليد، وعلقت الفوهات المجوفة بالأجزاء الأولى العميقة، وعلقت الحوّاف التالية بالأخرى، وعلق بالجميع، أشرطة مبرقشة من البلور الكبريتي الزاخر بألوانه الزاهية، ما حوّل دماماتها إلى لوحة رائعة الجمال، وأشكال تنعم بالنور والجمال.

برقت جدران الخندق بركام أصفر كبريتيّ، وباللافا والحجر الخفّاف، متعدّد الألوان. لا يظهر أثر للاشتعال في أيّ مكان، خلا عصف من بخار كبريتي، جاء ساكنا خفّيا من عدد من الشّقوق الصّغيرة والصّدوع، المنتشرة داخل الفوّهة الكبيرة، أتى منسّما إلى أنوفنا مع كلّ شهقة. وقد تضاءل خطر الاختناق لأننا وارينا أنوفنا بالمناديل.

دفع بعض الفتية بقطع من الورق في الفوّهات وتركوها تحترق، وبذلك حققّوا سبق إشعال سجائرهم من لهب فيزوفيوس. وقام آخرون بقلي بيض على صدوع في الصّخور وسعدوا بذلك.

قد يكون المشهد من القمة رائعا، ولكن ذلك يحدث بمجرد تمكّن الشمس من اختراق الغيوم على فترات متباعدة. لذلك فإنّ ما شهدناه من هذه البانوراما الكبيرة التي نستشرفها، كان يأتي على فترات متقطّعة، ولم يحقّق ما نشدناه.

الهبـــــــــوط

استغرق الهبوط من الجبل، أربع دقائق فحسب. وبدلا من سلوك طريق الصّعود الوعر، اخترنا طريقا مغمورا حتّى الرّكبتين، بطبقة من الرّماد النّاعم. فسلكناه بخطى واسعة يكاد يخجل منها منتعل الحذاء طويل السّاق، ذي الفراسخ السّبعة.

يتواضع شأن فيزوفيوس اليوم، لو قورن ببركان كيلويا العظيم، في جزر السّاندويتش، لكنّي سررت بزيارته، لأنّه يستحق المشاهدة.

قيل إنّه إبان إحدى فورات فيزوفيوس الكبرى، أطلق كتلا هائلة من الصّخور، تزن العديد من الأطنان، إلى مسافة ألف قدم في الفضاء، وتصاعد انطلاق الدّخان والبخار بكميّات كبيرة، إلى مسافة ثلاثين ميلا في السّماء، وانبعثت منه سحب الرّماد، وتساقطت على ظهور السّفن لمسافة سبعمائة وخمسوين ميلا في البحر! سأحصل على الرّماد بنسبة خصم معقولة، لو توفر من يرغب في الحصول على ثلاثين ميلا من الدّخان لكنّني لا أحس بقدرة على أن أحقق لنفسي اهتماما طاغيا بالقصّة الكاملة.

الفصل الحادي والثّلاثون

مدينة بومبي المدفونة تحت الأرض

نطقها الصحيح بوم بي إي. كانت لديّ دوما فكرة عامّة، توحي بأنّك حين تهبط إلى بومبي بالمشاعل، على درج مظلم رطب، كما تفعل عند هبوطك إلى مناجم الفضّة ودخولك نفقا مظلما، حيث تعلو رأسك أوحال اللافا، وعلى جانبي النّفق ما يشبه سجونا مهدّمة، قدّت من الصخرالجلمود، وتكاد تقارب البيوت في الالشبه. لكنك لن تقدم على شيء من هذا القبيل. ربما يكون نصف المدينة المدفون تحت الأرض، قد كشف تماما وبدا ظاهرا في ضوء النهار. كما تمتد صفوف طويلة من البيوت المقامة بالآجر الصلد، (بيوت بلا أسطح) كما كان حالها منذ ألف وثمانمائة عام، تسفعها الشّمس اللافحة، وتبدو طوابقها نظيفة تماما. لا يفتقد جزء صغير منها بريقه، أو تفتقر إلى أشكال فسيفسائية لحيوانات أو طيور أو أزهار، نقلُها في أيامنا هذه على سجاجيد لا تعمّر طويلا، وها هم آل فينوس، وأدونيس، وباخوس يمارسون الهوى، ويسكرون، وفي صور شتّى من لَوحات الجصّ على جدران بهو كبير، وحجرة نوم، وهناك شوارع ضيّقة، وطرق فرعيّة أضيق، عبّدت بألواح مسطحة من اللافا الصّلبة، دفعت بها في الأرض عجلات المركبات، بينما غار الآخر بأقدام عابري السّبيل، من أهل بومبي في سالف الأزمنة، وهناك حوانيت لبيع الخبز، ومعابد وقاعات محاكم، وحمّامات ومسارح، طوابقها كلها حكّت تماما وملست، لا توحي أبدا بوجود منجم فضّة غائرا في باطن الأرض. تنتشر في أنحاء المدينة قواعد لأعمدة مهدّمة، وبوّابات بلا أبواب، وأعالي جدران مهدّمة لا حصر لها، وغريب تذكيرها إيّانا بـ «منطقة مشتعلة» في إحدى مدننا، ولو أن هناك، أشجارًا متفحّمة، أو نوافذ محطّمة، أو أكوام من ركام، أو كان يرين على المكان قتامة ودخان، لأكتمل الشبه في الحالتين. لكنّ الأمر لم يكن على هذا النّحو. فشمس اليوم تشرق على بومباي القديمة، كما حدث حين ولد المسيح في بيت لحم، وشوارعها اليوم أكثر

نظافة ممّا شهده أهل بومباي في ريعانها. إنني أدرك ما أتحدث بشأنه، لأنّني لم أرى بعيني على الطّرق الرئيسة والكبرى (شارع التّاجر، وشارع الحظّ)، كيف أنّه خلال مائتي عام على الأقلّ، لم تجر عليها إصلاحات!

كيف عبّدت طرق بعمق خمس أو حتى عشر بوصات، ببلاط سميك، بأجيا. من عربات يمتلكها من يحتالون على دفع الضّرائب؟ ثم ألا تفيدني إشارات كهذه، بأنّ القائمين على الطرق في بومباي، لم يضطلعوا بأعمالهم على نحو سليم، وأنهم إذا لم يتعهدوها بالإصلاح فإنهم لم يقوموا على نظافتها البتة؟ ثمّ أليس من طبع القائمين على الطرق بالفطرة، التقاعس عن أداء أعمالهم، حين تسنح الفرص؟ أودّ أن أعرف اسم آخر من شغل منصبا في بومباي، كي أتمكّن من سحقه. أتحدث هنا بانفعال، لأنّ قدمي قد انزلقت على أحد هذه الطّرق، ودفعني الإحساس بالأسي لدى رؤيتي أوّل هيكل عظميّ ناحل، تلتصق به اللافا والرّماد، إلى تأمل احتمال أنّ يكون هذا الهيكل العظميّ لأحد المتعهدين بإصلاح الطرق.

كلاّ لم تعد بومبي مدينة مدفونة تحت الأرض، بل هي المئات والمئات من البيوت المكشوفة، ومتاهة متشابكة من الطرق، يسهل أن يضلّ فيها المرء طريقه. دون هاد له أو دليل، ولا يجد ملاذا سوى النّوم في أحد القصور المهجورة، التي لم تشهد أمثالنا، منذ تلك اللّيلة من نوفمبر اللّعين، منذ ألف وثمانمائة عام.

مررنا من البوّابة المواجهة للبحر الأبيض المتوسّط، وتسمّى «الباب البحري»، بجوار تمثال قديم محطّم لمنيرفا، لا يزال على سهره الدّائم، وحراسته الدائبة لممتلكات لا تعرف من يصونها، وسرنا في شارع طويل، ثمّ توقّفنا في قاعة محكمة فسيحة. كانت الأرضية نظيفة مستوية، وعلى جانبيها، صفوف ضخمة من قواعد الأعمدة المهدّمة، تناثرت حولها أعمدتها الأيونيّة والكورنثية الرائعة، واستقرّت في الطّرف العلويّ مقاعد القضاة، هبطنا من خلفها إلى زنزانة، كشف الرّماد والغبرة عن سجينين، كانا قد اعتقلا في تلك اللّيلة التاريخية، وعذّبا حتى الموت، ويا لقدر ما أجبرتهما الضرورة على مقاومة تلك الأغلال الرّهيبة، والنّيران تشتعل من حولهما.

توغّلنا بعد ذلك بين عديد من القصور الفارهة الخاصّة، ولم نتمكن من دخولها دون دعوة رسمية قد يتعذر علينا، مكتوبة بلاتينية نجهلها، حيث كان ملاكها يقيمون من أزمنة

قديمة. أقام هؤلاء بيوتهم على نسق واحد. صوّرت الأرضيّات بأشكال عجيبة مزخرفة من الفسيفساء على الرّخام بألوانه المختلفة.

تقع عيناك عند عتبة المدخل على عبارة ترحيب لاتينيّة، أو صورة لكلب، مع الجملة المأثورة «احذر الكلب» وأحيانا تكون لدبّ، أو لأحد آلهة القطعان، عند الرّومان، دون نقش مكتوب. تدخل بعد ذلك ما يشبه ردهة أو دهليز، أمامها غرفة في وسطها حوض رخاميّ كبير، وينابيع ينبثق منها الماء أو فسقيّة، وعلى الجانبين غرف للنّوم، وخلف الفسقيّة غرفة استقبال، تليها حديقة صغيرة، وغرفة للطّعام، ودواليك. كلّ الأرضيّات من الفسيفساء، والجدران كلّها مكسوّة بالجصّ، أو مصوّرة بلوحات من الجصّ، أو مزخرفة بنقوش قليلة البروز، ثمّ تماثيل هنا أو هناك، منها الكبير والصّغير، وبرك سمكيّة صغيرة، ومساقط دافقة للمياه، نبعت من أماكن مجهولة، في قواعد الأعمدة المتسقة، التي أحاطت بالفناء، واحتفظت بنضارة زّهور الأصص وبرودة الهواء. كان أهل بومبي مترفين في عاداتهم وأذواقهم. فما رأيناه في أوروبا لأكثر أنواع البرونز روعة، واردا من مدينتي هيركولانيوم، وبومبي، وهما المدينتان الظاهرتان على سطح الأرض، كما أنّ النقوش الرّائعة والبارزة فوق الأحجار الكريمة، ولوحاتها التي يبلغ عمرها ألفا وثمانمائة عام، هي في أغلبها، أروع من تلك النّفايات الشّهيرة التي صوّرها الرّواد القدامى، منذ ثلاثة قرون، إذ كان البومبيون بارعين في فنون الرسم. بدا من الصّعب أن يثبت الفنّ وجوده منذ ظهور أعمال الأوّلين الفنيّة هذه، وحتّى القرن الحادي عشر، حيث لم يسر حذوها أحد من المحدثين على الأقلّ، ومن الغريب أن تلحظ البون الشاسع الذّي سبق به وثنيو الأزمنة القديمة (في كلّ شيء وبأي معيار)، أجيالا من الرّواد ممّن جاءوا بعدهم. يبدو أنّ ما يزهو العالم به في فنّ النّحت، هو اللاوكون، ومصارع روما العظيم. فشأنهما في القدم شأن بومبي، وقد أميط اللثام عنهما كما أميط عنها اللثام. لكنّ عمرهما الحقيقيّ وزمن ابتكارهما، يخضع للتقدير فحسب. لكنهما على حاليهما من تشقق وبلي، وتاريخهما غير محدد، وقد تراكم وصمهما بالعار على مدار القرون. وما زالا في صمت يسخران من كل الأعمال التي تنافس ما حقّقاه من أعمال بلغت حد الكمال.

كان التّجوال عبر مدينة الموتى الصّامتة القديمة هذه، تزجية طريفة غريبة للوقت (نتسكّع عبر شوارع خالية تماما من البشر حيث كان الآلآف والالآف ذات يوم يبيعون

ويشترون، سائرين على الأقدام أو راكبين، كما أحدثوا الجلبة والضوضاء والبهجة بالمكان. فوضي المرور. لم يكون الناس بالكسالى. فقد كانوا سريعي الحركة في تلك الأيّام، وهناك ما يدلّ على ذلك. كان في المدينة معبد على أحد المنحنيات، وكان المضي بين أعمدة ذلك المعبد من شارع إلى شارع آخر، أقصر من الالتفاف حوله، لاحظ أن هذا الطريق، قد أبلى بنيته أرضيته المعبدة بألواح حجرية ثقيلة، أقدام أجيال عرفت قيمة الوقت! حيث توقفوا عن الإلتفاف، حيث كان سلوك الطريق المباشر أسرع. نتبع في مدننا هذا السّبيل.

ترى في كلّ مكان، أشياء تثير حيرتك حول ما كانت عليه هذه البيوت القديمة قبل حلول ليلة الدّمار، وما يجعلك تستعيد في مخيّلتك، أولئك الراحلين القدامى من أهل البلدة، وتضعهم نصب عينيك. على سبيل المثال: ذلك الدرج الذى أوشك على الزوال، ويتكون من من قالبين من اللافا، سمك الواحد قدمان، وهو المؤدّي إلى خارج المدرسة، والنّوع نفسه من الدّرج يؤدّي إلى حلقة جلوس الكبار في المسرح الرئيس. هرع أجيال الصبية إلى الخروج من المدرسة، وهرع كذلك أجيال من آبائهم أيضا، إلى دخول المسرح، فتركت الأقدام العجلي، بغبارها ووحلها، طيلة ألف وثمانمائة عام، أثرا قد تعرّفنا عليه اليوم. تخيّلت أنّني أستطيع رؤية جموع من السّادة والسيّدات، قد احتشدوا لدخول المسرح، وفي أيديهم التّذاكر المخصّصة لجلوس كلّ منهم، وعلى الجدار قرأت إعلانا، بأسلوب يثير الحرج. «لا توجد لدينا قوائم مجّانية على الإطلاق، لغير رجال الصّحافة!». تخيّلت أنطاعا من شباب البلدة، عالقين بالبوّابة، يرمون بالسبّ واللعان، ويحذرون حدوث مداهمات. دخلت المسرح، وجلست في أحد صفوف المصاطب الحجرية الطويلة، في حلقة جلوس الكبار، ونظرت إلى المكان المخصّص للأوركسترا، وإلى منصّة المسرح المهدّمة، وإلى ما حولها من صفوف ممتدة من مقاصير خالية، وقلت لنفسي: « هذه الدّار لن تقدم شيئا». وحاولت تخيّل دوي. الموسيقى في أقصاه، وقائد الأوركسترا وهو يؤدّي حركة اليدين على هذا النّحو أو ذاك (وقد عاد لتوّه من جولة ناجحة بالأقاليم، لأداء فقرة الوداع، لستّ ليال فقط في بومبي، قبل رحيله إلى هيركولانيوم) وهو يوجه الأوامر على خشبة المسرح، ويحدث تلالا من المعاناة، لكنني لا أستطيع الاستمتاع في دار كهذه، فقد ربطت هذه المصاطب الخالية مخيّلتي بواقع ضبابي. قلت إن هؤلاء الجديرين بوجودهم في هذا المكان قد رحلوامنذ زمن طويل، وأنهم بمرور الزّمن يتحولون إلى تراب، ولن يأبهوا بعد ذلك وإلى الأبد بصغر شأن الحياة

وحماقاتها، «بسبب ما وقع من أحداث إلخ.. إلخ، لن يقدّم عرض اللّيلة ». فأنزلوا السّتار وأطفئوا الأنوار.

هكذا غادرت المكان، وعبرت حانوتا بعد آخر، ومتجرا تلو الآخر، وسرت حتّى آخر شارع التّجار، واستفسرت عن بضائع روما والشّرق، لكنّ التّجار قد رحلوا، فصمتت الأسواق ولم يبق سوى جرار مهشّمة، جبرت كلّها الفرن اللاصق، وخلت مما كانت تحمل من نبيذ، وزيت، ورحل أصحابها. في أحد المخابز طاحونة للبرّ، وأفران للخبيز، يقولون إن أهل بومبي بعد خروجهم من تحت الرماد عثروا في هذا المكان، تلك الأفران على أرغفة جيدة وصالحة للأكل، لم يتح للخبّاز فرصة إخراجها من الفرن، في آخر مرّة ترك فيها حانوته، حيث أجبرته الظّروف.

بدت الغرف الصّغيرة في بيت من بيوت بومبي (وهو البيت الوحيد في بومبي الذى لم يسمح الآن لامرأة بدخوله) والأسرة القصيرة المصممة من بنية صلبة، على حالها الذى كان في العصور القديمة، وعلى الجدران لوحات، بدت وكأنها مصورة بالأمس، حيث يعجز أيّ قلم عن وصفها، وهنا وهناك نقوش متفرّقة باللاتينية، كتبت بألفاظ خادشة للحياء من باب الدّعابة والظرف، نقشت بأيد، يحتمل صعودها إلى سقر وسط عاصفة هوجاء من لهب الجحيم، قبل حلول اللّيلة الموعودة.

وجدنا في شارع رئيس، خزّانا حجريًا ضخما، مزوّدا بميزاب، حيث اعتاد العطشى، والمنهكون القادمين من الرّيف، وضع راحتهم اليمنى عليه، ووضع شفاههم إلى الميزاب، وقد زوّي الحجر السّميك فيه، وتحوّل إلى أخدود بعمق بوصة أو اثنتين. فتأمل ملايين الأيدي، وقد ضغطوا براحتهم على هذا الموضع لعصور وعصور، لينقص حجم الحجر إلى ما صار عليه الآن، رغم أنه لا يقلّ عن الحديد صلابة.

كان لديهم في بومبي لوحة ضخمة تنشر عليها البيانات العامة، وتوضع عليها إعلانات مباريات المصارعين، والانتخابات، وأشياء من هذا القبيل، ولم تكن تلك بالورقة التي تترك عرضة للزّوال، وإنّما، كان ينقش ذلك على حجر يكتب له البقاء. أعلنت إحدى السيّدات، وأظنها كانت تتمتع بالثّراء، عن بيت أو نحو ذلك للإيجار، مزوّدا بحمامات، وبكلّ

التّجهيزات الحديثة، وبنحو مائة حانوت، بشرط ألاّ تستخدم وحداته في أغراض مخلّة بالآداب العامّة.

يمكنك التعرّف على الراحلين من سكان بيوت بومبي، من خلال ألواح حجريّة وعليها نقش بالبيانات، وهي مثبّتة بباب البيت، وبالطّريقة نفسها يمكنك معرفة شاغلي القبور. توجد في كل أرجاء المدينة أشياء تكشف لك عن شيء من تقاليد هؤلاء البشر المنسيّن وسيرهم الذّاتية. ولكن ماذا يترك البركان من مدينة أمريكيّة، إذا أمطرها يوما برماده. يصعب أن يوجدما يخبر بقصّته أو يرمز إليها.

كشف في هذه الدهاليز البومبيّة الطويلة، عن هيكل عظميّ لرجل، في يده عشر قطع من العملات الذّهبية، ومفتاح كبير في اليدّ الأخرى. قبض على ماله بقبضته واتجه نحو الباب، لكنّ عاصفة من اللّهب، أمسكت به فوق عتبة باب مباشرة، فخرّ على الأرض صريعا، كان هناك أمل له للنجاة في دقيقة إضافية ثمينة. رأيت هياكل عظميّة، لرجل وامرأة، وفتاتين صغيرتين. بدت المرأة فاتحة ذراعيها، وكأنها تخشى من هول عظيم، وتصورت إنه يمكن من خلال تفحص وجهها الذّي ضاعت معالمه، أن أتتبّع شيئا من تعبيرات اليأس الرّهيب التي شوهته، حين أمطرت السّماء هذه الشّوارع بوابل من الحجيم منذ أزمنة قديمة. أما الفتاتان والرّجل فيرقدون جميعا ووجوههم فوق أيديهم، وكأنهم كانوا يحاولون مواراتها من الرّماد الذّي طوق المكان. اكتشف في إحدى الغرف عشرون هيكلا عظميّا، كلّها في وضع الجلوس، ولا تزال المواضع المسودّة فوق الجدران تبين صورهم وأوضاعهم الجسمانية وكأنها ظلال. كانت من بينهم امرأة، لا يزال يلتف حول عظام رقبتها عقد، نقش عليه اسمها «جولي دي ديوميدي».

ولكن ربما كان أروع ما قدّمته بومبي للأبحاث الحديثة، ذك التّمثال الضّخم، لجنديّ رومانيّ، قد تدرّع بدرع كامل. لقد أخلص الجنديّ في مهمّته، وللاسم الذى يحمله باعتباره جنديّا رومانيّا، وامتلأ من العزيمة القويّة ما منح ذلك الاسم مجده وعزّته، لقد وقف في نوبة حراسة بباب المدينة منتصبا لا يرمش له جفن، ولم تنل من روحه ألصّامدة نار الجحيم الّذي أندلع أوارها من حوله.

لم نقرأ قط عن بومبي، لكننا نتأمل ذلك الجنديّ، ولا يمكننا الكتابة عنها دون أن يكون لدينا من الإحساس ما يكفل للجندي ما يستحقه من ذكر. فلنتذكّر كونه جنديا، وليس شرطيا، ونثني عليه لهذا السبب. فقد صمد لأنه جنديّ، وقد منعه ذلك من الفرار.

وكان سيصمد أيضا لو كان شرطيا، ولكن لكي يخلد إلى النّعاس.

تفتقر بومبي كلّها إلى وجود سلّم يزيد على نصف دستة من الدّرج، ولم نر بيتا فيها يزيد ارتفاعه عن طابق واحد. فالنّاس لم يحيوا فيها بين السّحاب، كحال أهل فينيسيا وجنوا ونابولي اليوم.

خرجنا من تحت الخبايا المصونة لهذه المدينة التي ترقد في الماضي البعيد، هذه المدينة التي أدركها الزّوال، بكلّ ما يحيط بها من طرز وأساليب فريدة وعتيقة الطّراز، من قرون متناهية في البعد، حيث كان الحواريون يبشّرون بالدّين الجديد، الذى صار قديما بالنسبة لنا، قدم هذه التّلال، وحيث مضينا حالمين بين الشّجر الممتدّ نماؤه بالآكرات عبر شوارعها التي لا تزال تحت الأرض وميادنيها، حتّى دوّت صافرة وهتاف يردد. آخر قطار إلى نابولي»! أيقظني هذان، وذكّراني بانتمائي إلى القرن التّاسع عشر، وبأني لست بمومياء اعتلاها الغبار، وعجّت بالرّماد والأتربة، بعد عمر يقدّر بألف وثمانمائة عام. كان هذا التحّول مرعبا، لأنّ فكرة قطار يأتي بالفعل إلى بومبي القديمة، يصفّر دون انقطاع، وينادي على الرّكاب، بأسلوب يجمع بين الجديّة والحماس، كانت غريبة أن ترقى إلى خيال أحد. ورغم غرابتها فإنها مقبولة ولم تكن عصية على التحقيق.

قارن الحياة ببهجتها وأشراقاتها اليوم، بمشاهد الرعب التي رآها بلايني الأصغر هنا، في التّاسع من نوفمبر عام ٧٩ بعد ميلاد المسيح. حين قاوم كثيرا ليبعد أمّه عن مصدر الخطر، حيث توسّلت إليه بكلّ ما لدى الأمّ من أثرة، أن يتركها، تموت وينجو بنفسه:

«تزايدت حلكة الظّلام، حتّى تراءى للمرء أنه يقف خارج البيت في ليلة ظلماء حالكة، أو بداخل غرفة خبت فيها كلّ الأضواء. سمعت استغاثات النّسوة في كلّ مكان، وعويل الصّغار، وصراخ الرّجال. دعا أحدهم أباه، وآخر ابنه، وثالث زوجته، ولم يكن يميز أحدهم عن الآخر سوى صوته. التمس كثير منهم الموت بعد يأس.

«وتوسل البعض بالآلهة كي تنجيهم، واعتقد آخرون بأنّ هذه هي اللّيلة الأخيرة والأبديّة التي لا بدّ من أن تبتلع الكون.

أمّا وقد بدا لي الأمر على هذا النحو، فقد عزيت نفسي عن الموت القادم بهذه الفكرة «اعتبر»، فالعالم إلى زوال!».

* * *

بعد تنقلنا بين آثار روما الجميلة، بياي وبومبي، وبعد لمحات سريعة من رءوس تماثيل مشوهة ومحطّومة، تقع على امتداد ردهات الفاتيكان السّفلية، شدّني وبقوّة لم تحدث من قبل، شيء بعينه «ذلك هو الشّخصيّة الشهيرة، الخالدة والوهميّة.هناك أناس عاشوا حياة مديدة، في زمن قديم، كدوا كثيرا، وكدحوا كالعبيد، في فن الخطابة، وفي الجنديّة أو في فنون الأدب، وانتهت حياتهم وقضوا، عاشوا في ركب التّاريخ سعداء، لا يعتري شهرتهم زوال. ها هي ذي عشرون قرنا تحلّق بعيدا، فماذا تبقّى من هذه الأشياء؟ نقش باهت على كتلة من الحجر، يعكف عليه المنفرون من جامعوا الآثار، يحاجون به الناس، ويجعلونه مجرد اسم (ينطق خطأ، بلا تاريخ أو رواية أو شعر يتردد، فينال مجرد التفاتة. ماذا يمكن أن يبقى من الجنرال جرانت صاحب الصيت العظيم في الأربعين قرنا القادمة؟ ربّما يرد ما يلي في هذا الشأن، في موسوعة العام ٥٨٦٨ ميلاديّة :

«يوريّاه س. (أو الحرف زد. جرونت، شاعر شهير من الأزمنة القديمة، من إقليم الآزتيك، بالولايات المتحدة الأمريكيّة البريطانية. يتحدث الكتاب عن ذيوعه في العام ١٣٢٨، بعد حرب طروادة عام ٧٤٢ ميلادية، لكنّ العالم «أهأه فوو فوو»، يوضح أنه كان معاصرا لـ «شكاركسباير» الشّاعر الإنجليزي، الذى ذاع صيته بعد حرب طروادة بثلاثة قرون وليس قبلها. وهو كاتب أغنية «أمّاه، هدهديني، كي أنام».

بثت هذه الأفكار في نفسي لواعج الشجن، وسآوي إلى الفراش.

الفصل الثّاني والثّلاثون

١

الوطن، مجدّدا! التأم شمل أسرة السفينة للمرّة الأولى بعد عدّة أسابيع، وتصافح أفرادها بالأيدي على ظهر السّفينة. تجمّعوا من أماكن شتّى، وبلاد عديدة، لم نفتقد منهم أحدا، ولم نسمع بمرض أوحالة وفاة واحدة، ولتتحقق بذلك بهجة التئام الشّمل. تجمّع مجدّدا على ظهر السّفينة، جمهور كبير لسماع أناشيد البحر الجماعية، خلال رفع المرساة، والإشارة بتحيّة وداع لمن وقفوا بالبرّ. ونحن نغادر نابولي على وجه السّرعة. امتلأت المقاعد عن آخرها على مائدة الغداء، واكتملت فرق الدومينو، وكان النّشاط والجلبة في الجانب العلويّ من السّفينة، وفي ضوء القمر السّاحر في اللّيل، يعيدان ذكري الأيام الخوالي، التي لم تكن سوى أسابيع مرّت علينا سراعا، ولكنها تعدّ الآن أسابيع حافلة بالأحداث، والإثارة والمغامرة، وبدت لنا في السفينة أشهرا بل سنينا. لم نكن بحاجة إلى مزيد من البهجة على ظهر سفينة الكويكر سيتي، لأنها ولمرّة وحيدة لم تكن اسما على مسمىّ.

عند السّابعة مساء وبعد أن تحوّل الأفق الغربي إلى لون الذّهب بشمس الغروب، وجعل من السفن البعيدة نقاطا صغيرة، والبدر مبحر عاليا فوق الرءوس، زرقة البحر القاتمة تحت الأقدام، وتأثّر نوع غريب من النور بمختلف هذه الأضواء والألوان القريبة منّا والمحيطة بنا، رأينا من بعد استرمبولي المهيب. تفرّد الملك بشيء من الجلال مهيمنا على البحر اللّجيّ! كساه المدي بأرجوانيّة قاتمة، وأضاف إليه حجابا من سديم موهن الومض، رقّق كثيرا من ملامحه الجامدة، حتّى بدا كأنا نراه عبر نسيج عنكبوت فضّي شفاف. لقد غاب ضوء مشعله، وخبت نيرانه وارتفع منه عمود من الدّخان، وأضاع نفسه في ضوء القمر السّاطع، ما أشار إلى أنّه حاكم مهيمن على البحر، حيّا وليس مجرّد شبحا لميت.

في الثّانية صباحا مررنا سراعا عبر مضيق ميسينا، حيث بهر المكان ضوء القمر، حتّى بدت إيطاليا في جانب، وصقلّية في الجانب الآخر، ظاهرتان لنا، كظهورهما من وسط

شارع كنّا نسلكه. كانت صورة ميسنيا رائعة، تلك المدينة البيضاء كالحليب، والمضاءة كلّها والمؤتلقة بمصابيح الغاز. كانت عددا كبيرا منّا في السّفينة يدخّنون التّبغ، ويثيرون جلبة، ويترقبون رؤية سيكيللا وشاربيديس الشّهيرتين. تقدّم على الفور «العالم ببواطن الأمور» بنظّارته المكبرة الأبدية، وثبت على ظهر السّفينة، كأنّه تمثال ضخم آخر لرودس. كان من الغرابة رؤيته في ساعة كتلك، وما خطر ببال أحد اهتمامه، بأسطورة قديمة مثل سيكيللا، أو شاريبديديس. قال أحد الشباب :

« مرحبا يا دكتور، ماذا تفعل هنا في هذه الساعة من اللّيل، ما الذى ترغب مشاهدته من هذا المكان ؟».

«ما الذى أرغب مشاهدته؟ أنك أيّها الشّاب لا تعرف عنّي سوى القليل، وإلاّ فما كان حريّ تسأل هذا السّؤال. أرغب مشاهدة الأماكن الواردة في الإنجيل».

«هراء.. فهذا المكان لم يرد ذكره في الإنجيل».

« لم يرد ذكره في الإنجيل! هذا المكان لم يذكر.... حسنا، فأيّ مكان هذا، لو أنك تعرفه جيدا ؟».

«عجبا، هذه شيكيللا وشاريبديس».

«سيكيللا وشار..... إنك تمزجهما في كلمة واحدة، لقد ظننت أنّهما سادوم، وعموريّة!».

طوى نظّارته، ومضى إلى الجزء السفليّ من السّفينة. أما العلويّ، فهو الوصف الإخباري لأحداث السفينة. حيث أفقها بعض مصداقيتها حقيقة أن «العالم ببواطن الأمور ليس دارسا للكتاب المقدّس، وأنّه لم يبذل جهدا في تزويد نفسه، بمعرفة الأماكن الواردة في الكتاب المقدّس. يقولون إنّه يشكو في هذا الطّقس الحارّ، من أنّ الشّراب الوحيد المقبول في هذه السفينة، هو الزّبد السّائل. لم يكن يقصد الزّبد بالطّبع، ولكن بسبب سيولة هذه المادّة منذ افتقارنا إلى الثلج، كان من الإنصاف منحه حقّ أن يضع كلمة طويلة واحدة في مكانها الصّحيح، ولو مرة واحدة في حياته. ذكر ونحن في روما أن البابا، كان شيخا مهابا، لكنّه لم يعتقد كثيرا في الإلياذة.

قضينا يوما ممتعا، لإبحارنا بمحاذاة سواحل الجزر اليونانية، حيث انتشرت فيها السلاسل الجبلية، وطغى عليها اللونان الرّمادي والبنّي، والأحمر الفاتح. أحاطت الأشجار بالقرى البيضاء الصّغيرة، الرّاقدة في أحضان الوديان، أو الواقعة على الجدران البحريّة العمودية الشّاهقة.

تابعنا لحظة غروب آسرة، حيث غمرالأفق الغربيّ وهج قرمزيّ صارخ، وألقى بضرام متقد منه بعيدا على صفحة المياه. هناك ندرة في لحظات الغروب الجميلة في هذا الجزء من العالم، أو الآسر منها على الأقّل، فهي تفيض رقّة وصفاء وجنوحا إلى سمات الأنثى. لكننا لم نشهد من لحظات الغروب هنا سوي ما يشبه كثيرا الوهج الساطع المتقد إثر رحيل الشّمس الغاربة، في مناطقنا الشّماليّة البعيدة عن خطّ الاستواء. ولكن ما أهمية غروب الشّمس في أعيننا قياسا بالإثارة الجامحة، التي شعرنا بها لدى اقترابنا، من أشهر مدن العالم! وما شأننا، بصور تترى أمامنا، وكلّ من أجا ممنون، وأخيل، وغيرهما من صناديد الزّمن لقديم، يتقدمون الركب الجليل، عبر أخيلتنا؟ وما شأن لحظات الغروب، بمن هم بسبيلهم إلى استنشاق هواء أثينا والتجول فيها، حقيقة، والسفر من ثمّ إلى القرون الغاربة، ومحاولة جادّة للقاء العبدين، ديوجينوس، وأفلاطون في ساحة السّوق، أو الثرثرة مع أهل الجـوار، بشأن حصار طروادة أو الأعمال الماراثونية العظيمة؟ لقد بغضنا النظر إلى غروب الشّمس.

وصلنا آخر المطاف إلى ميناء بيريه القديم، وألقينا بالمرساة، على مسافة نصف الميل من القرية. ورأينا من مسافة بعيدة سهل أتيكا، وقمة هضبة مربّعة الشّكل، عليها شيء غير ظاهر، لم تستطع عدساتنا المقرّبة رؤيته، كان لأبنية مهدّمة، والقلعة الأثينيّة، وظهر بينهما وهو الأبرز الباراثينون العظيم. بدا الجوّ على هذا النّحو من الصّفاء ووضوح الرؤية، فتميز كلّ عمود فيها عبر التليسكوب، وبدا على الصورة نفسها كلّ ما يحيط بها من آثار. أمكننا على مسافة خمسة أو ستّة أميال من السّاحل، وخلال منظار الأوبرا العادي تمييز أثينا بعض الشّيء، من ناحية الوادي وبالقرب من الأكروبوليس (الهضبة مربّعة القمّة التي تحدّثنا عنها). كـان الجميـع في لهفة، للنزول إلى البرّ، وزيارة هذه المواقع الأثريّة المهمة في أسرع وقت. لم يحدث أن رأينا بلدا تحظى بهذا القدر من الاهتمام بين جميع الرّكاب كهذا البلد.

لكن أخبارا سيّئة قد وردت للتوّ. إذ وفد إلينا قومندان ميناء بيريه بنفسه، في قارب بحريّ، وطلب رحيلنا من الميناء، أو الخروج منه والبقاء أسرى داخل السّفينة طبقا لنظام الحجر الصحّي المعمول به، وذلك لأحد عشر ساعة، نتزوّد خلالها بالإمدادات، ثمّ نبحر بعدها إلى القسطنطينية. كانت تلك أكبر حالة إحباط سبق أن تعرّضنا لها، حيث علينا أن نبقي يوما كاملا والأكروبوليس أمام ناظرينا وعلى مرمي البصر، ثمّ نجبر على الرّحيل دون مشاهدة أثينا. تطلّب الأمر منا استلهام عبارات قويّة تعبّر عن حالتنا تلك، ووصف مانمر به من أحداث.

حملت الأيدي الكتب على ظهر السّفينة، والخرائط والنّظارت المقرّبة، سعيا إلى تحديد تلّة آريوباجوس من بين التلال، وكلّ من تلّة بنيكس شديدة الانحدار، و«تلة المتحف» ودواليك. اختلطت علينا الأمور، واشتدّ الجدل، وازداد نشاط الجماعة. كان أعضاء الكنيسة يحدّقون بانفعال في تلّة، ذكروا أن القديس بولس قد بشر فيها، وادعت رواية أخرى أنها تلّة هايميتوس، وذكرت رواية ثالثة أنّها لتلة «بنتليكون». استطعنا بعد هذه الجلبة كلّها، التوصل إلى حقيقة واحدة فحسب، هو أن التلّة مربعة القمة هي الأكروبولوس رأسا. وأنّ الأثر الضخم الذي يعتليها هو البارثينون، الّذي طالما عرفناه من صورته في طفولتنا من الكتب الدّراسيّة.

حاولنا أن نعرف هويّة من يقتربون من السّفينة، أكانوا حراسا في البيريه، يتسمون بالصّرامة، وما احتمالات ضبط من يتسلّل منا إلى السّاحل، وفي حالة ما لو أقدم أيّنا على المخاطرة ثمّ ضبط، فما يفعلون به؟ وكانت الرّدود محبطة أفادت بأن: هناك حراسة قويّة أو قوّة من رجال الشّرطة، وإنّ بيريه مدينة صغيرة، وأيّ غريب يشاهد فيها سيلفت إليه الأنظار، ويعتقل يقينا. وكان القومندان قد ذكر أنّ العقوبة ستكون مغلّظة، وحين سأل عن غلظتها، ذكر أنّها ستكون شديدة القسوة، وذلك كلّ ما استخلصناه منه.

في الحادية عشر ليلا تسللّ أربعة منا خلسة، وأهل السّفينة نيام، تسلّلوا إلى السّاحل، في قارب صغير، وقد شجّع على القيام بهذه المخاطرة احتجاب القمر وراء السّحب. بدأ اثنان التحرك، أعقبهما آخران واتجه الجميع إلى مكان بعيد فوق تلّ منخفض، بقصد الالتفاف مباشرة حول بيريه، كي نكون بمنأى عن النّطاق الذى تفرضه شرطتها. أشعرني

قطع الطريق خلسة، فوق تلك الهضبة الصّخرية المغطّاة بالنبات الإبريّ الشّائك، أشعرني بأنني أتوجه إلى مكان بغرض السّطو، تحدثت بصوت خفيض مع رفيقي الحالي، حول قوانين الحجر الصحّي، ولم نجد في الأمر ما يبشّر بامل. علمت قبل بضعة أيّام فحسب خلال حديثي مع القبطان، بأنّ رجلا قد اتجه من قبل إلى الشاطئ سباحة، من فوق سفينة كانت خاضعة للحجر الصّحّي، فسجن جرّاء ذلك ستة أسهر، وأنه (أي القبطان. حين كان في جنوا من بضع سنين، وجد قبطانا كانت سفينته تخضع للحجر الصّحي، قد اتّجه في قاربه إلى سفينة مغادرة، ليسلّم رسالة بعث لها إلى أسرته، فحبسته السّلطات ثلاثة شهور جرّاء فعلته تلك، ثمّ طلبت منه ومن سفينته الإبحار، وأنذرته بألاّ يعود إلى الميناء مجدّدا، ما دام حيّا. لم يسفر هذا النّوع من الحديث عن شيء سوى إضافة شيء من همّ كئيب لسرعة اختراقنا الحجر الصّحي، لذلك توقّفنا عن الخوض في هذا الحديث. اجتزنا طريق المدينة الدائريّ بالكامل، دون أن نري سوي شخصا واحدا تفرّسنا بفضول، ولم ينطق بشيء، كما رأينا مجموعة أشخاص راقدين على الأرض أمام أبوابهم يغطّون في نومهم على الأرض. سرنا بينهم، ولم نوقظهم، لكننا يقينا أيقظنا كثيرا من الكلاب، غالبا ما كان واحد أو اثنان في إثر كواحلنا، لا يكفّان عن النّباح، وكانوا في أحيان كثيرة يبلغون عشرة كلاب أو اثنا عشر في وقت واحد. أحدثوا جلبة كبيرة، وأخبرنا أشخاص من ركاب السفينة فيما بعد، بأنّهم استطاعوا تحديد مسارنا على الطريق لوقت طويل، ومعرفة مكاننا، بواسطة نباح الكلاب. أفادنا احتجاب القمر. وظهر القمر جليّا بعد اجتيازنا الطّريق الدّائري، ومرورنا بين البيوت على الطرف الآخر من المدينة، لكننا لم نعد حينئذ نخشى الضّوء. حين اقتربنا من بئر، قريبة من أحد المنازل بقصد الشّرب، لمحنا المالك سريعا، ومضى في طريقه إلى داخل البيت. ترك المدينة النّائمة لنا، وأسجل هذا باعتزاز، لأننا لم نمسّ المدينة بسوء.

لعدم رؤيتنا طريقا نسلكه، اتّخذنا تلاّ عاليا على يسار الأكروبولوس كدليل هاد لنا، ويممنا شطرنا إليه، مباشرة، مخترقين في ذلك كل الموانع، على جزء صغير في البلدة، ربما يفوق وعورة، أية مدينة أخرى تقع خارج ولاية نيفادا الأمريكيّة. كان قطاع من الطّريق مغطّى بحجارة ملقاة صغيرة ملقاة، وطأنا ستّة منها مرّة واحدة، فتدحرجت كلّها. وقطاع آخر منه، أرض حرثت حديثا تتسم بالجفاف والرخاوة. وقطاع ثالث منه، طريق ممتد مزروع بأغصان كرم منخفضة، تشابكت وشكلت وعورة، حسبناها علّيقا. اتّسم السّهل

الأتيكي (الإغريقي)، باستثناء أشجار الكرم، بالوعورة والقفر والجدب، وفكّرت فيما كان يبدو هذا السّهل، أيام مجد الأغريق العظام، قبل ميلاد المسيح بخمسمائة عام.

بالقرب من الواحدة صباحا، وبعد أن تعبنا من السير على عجل، وحلّ بنا العطش، تعجّب «ديني» قائلا: «عجبا كون هذه الأعشاب أشجار كرم»، وفي خمس دقائق، كان بحوزتنا عشرة عناقيد من العنب الأبيض، كبير الحجم، لذيذ الطّعم، وطاب لنا قطف المزيد، حتّى ظهر إلى جانبنا خفية، قادما من بين الظّلال، شبح أسود، قول. «هو». فأسرعنا بمغادرة المكان.

قطعنا طريقا جميلا في زمن عشر دقائق، يختلف هذا الطّريق عن طرق أخرى تعرّضنا فيها للتعثر بين آونة وأخرى، وقادنا هذا إلى السير في الاتجاه الصّحيح. واصلنا السير به حيث السعة واليسر والنعومة والتناسق، وكانت حالته جيدة بوجه عام، تفيأ جانبيه لمسافة ميل أو نحو ذلك، بصفوف منتظمة من الأشجار، ووفرة من عريش الكرم أيضا. دخلناها مرتين وسرقنا كرما، وأتى صياح شخص في المرة الثانية، من مكان خفيّ. فغادرنا المكان مجدّدا. لم نعد ننشغل بالكروم في تلك النّاحية من أثينا.

فوجئنا بعد ذلك مباشرة بقناة حجرية قديمة، مقامة على قناطر، وحين أوشكت جولتنا على النّهاية كان كلّ ما يحيط بنا آثار قديمة. لم نتمكن حتّى تلك اللّحظة من مشاهدة الأكروبولوس، ولا التلّة الكبرى، وتوفرت لدي رغبة في متابعة السير، حتى نطالعهما جيدا في طريقنا، لكنّ الآخرين عارضوني، وواجهنا بذلك مشقة في السير، بأعلى تّل وعر ظهرلنا بغتة، رأينا فوقه تلاّ آخر، تسلّقناه فواجهنا آخر! بذلنا ساعة من الجهد الشّاقّ. سرعان ما وصلنا بعدها إلى صفّ من المقابر المكشوفة، شقّت في الصّخر الصّلد. (استقبل أحد هذه المقابر سقراط لفترة كسجين). درنا بكتف التّل، والقلعة، وسط ما صادفنا من آثار رائعة! أسرعنا نحو وهدة، تقع على طريق منحن، وتوقفنا أمام الأكروبولوس القديم، تعلو رءوسنا أسوار القلعة الضّخمة. لم نتوقف لتفحص كتلها المرمرية، أو لتحديد ارتفاعاتها أو تقدير سماكة جدرانها الضّخمة، ولكن مررنا مباشرة بمجاز مقنطر كبير، يشبه نفق السّكة الحديدية، واتجهنا رأسا إلى البوّابة المؤدّية إلى المعابد القديمة فوجدناها مغلقة! تبيّن أننا هكذا، وبعد كلّ ما واجهناه، لن نرى البارثينون الكبير بأم أعيننا. جلسنا في مكاننا وعقدنا مجلس حرب. توصّل في النهاية إلى أنّ البوابة هي البنية الضعيفة الوحيدة والمقامة من

الخشب، حيث يمكننا تحطيمها، وبدا ذلك أشبه بانتهاك الحرمات، لكننّا كنا قد قطعنا شوطا طويلا، ولدينا رغبات ملحة. لا يمكننا بالطّبع استغفال الحرّاس والعاملين هناك، وكان لا بدّ من أن نصل إلى السفينة قبل طلوع النّهار. لذا داربيننا نقاش. وهذا لا غبار عليه. ولكن حين بدأنا تحطيم البوابة عجزنا عن ذلك. درنا بركن السور، وعثرنا على الجزء المنخفض والبارز من الحصن، وحيث يرتفع من الخارج بقدر ثمانية أقدام ومن الدّاخل عشرة أقدام. تأهّب «ديني» لقياسه وتأهّبنا بدورنا لمتابعة القياس. اعتلا القمّة أخيرا بعد أن وجد مشقّة في تسلقه، لكن انهار بعض ما تخلخل من الحجارة، محدثا دويا كبيرا، في القاعة الدّاخلية. دار على الفور ارتطام أبواب وصياح. سقط «ديني من فوره، من أعلى الجدار، وارتددنا إلى البوّابة في ربكة. استولي زيريكس على هذا الحصن الكبير، قبل ميلاد المسيح بأربعمائة وثمانين عاما، حيث تبعه من جنوده وأتباعه إلى اليونان، خمسة ملايين شخص، ولو سمح لنا الوقت نحن الأمريكيين الأربعة، لاستولينا عليه في خمس دقائق فحسب، دون اعتراض.

دفعت الحامية إلينا بأربعة من اليونانيين. أثرنا جلبة عند البوابة فسمحوا لنا بالدّخول (فساد ورشي)..

عبرنا البهو الكبير، ودخلنا بوابة ضخمة، ووطأنا باقدامنا أرقى أنواع الرّخام الأبيض، وقد بليت ألواحه من كثرة الخطى. ظهرت أمامنا في ضوء القمر الباهر، أفخم ما وقعت عليه عيوننا من آثار. وكان من بينها البروبلاي (الرّواق)، ومعبد منيرفا، ومعبد هيركوليس، والبارثينون الكبير، (حصلنا على أسمائها من كتاب الدّليل اليوناني، الذى يبدو أنّه لا يعرف أكثر من الشخصيات السبع المعروفة أصلا). أقيمت كلّ هذه الأبنية من أنقى أنواع الرّخام الخماسيّ، لكنّه الآن يميل قليلا إلى الحمرة. تعرّضت الأجزاء المحطمة منها للتفتت، فصار أشبه بالسكر المتبلر الناعم. أقيمت ستة تماثيل من الرّخام لنساء يرتدين أروابا فضفاضة، يدعمن رواق معبد هيركوليس. لكن الشرفات وصفوف أعمدة الأبنية الأخرى، تشكلت من قواعد أعمدة دورية (طراز إغريقي معروف. وأيونيّة (طراز يوناني)، لا تزال أخاديدها وحروفها كما هي رغم مرور السنين. وأزمنة الحصار التي عانتها. كان البارثينون، يبلغ من الطول في الأصل مائتين وستّة وعشرين قدما. ومن

العرض مائة قدم، والارتفاع سبعين، وبه صفان مستقلاّن من الأعمدة، في كلّ صف ثمانية أعمدة على كلّ طرف، وصفوف مستقلة يتكون الواحد من سبعة عشر في كلّ جانب، وهذا أروع وأجمل ما أقيم من أبنية.

لا يزال أغلب أعمدة البارثينون، قائمة على أصولها، لكن السّقف قد زال عنه، بعد أن كان مكتملا، منذ مائتين وخمسين عاما، حين سقطت قنبلة على مستودع للذخيرة المخزّنة هنا، فدمره الانفجار وأسقط سقفه. إنني لا أذكر عن البارثينون إلاّ القليل، وأشير هنا، إلى حقيقتين ورقمين، ليكونا عونا لمن لا يتمتعون بقوة الذاكرة.

حصلت عليهما من كتاب دليل الرحلات.

في أثناء تجولنا مستغرقين في تأمل طول هذا المعبد المهيب المبلط بألواح الرّخام كان المشهد المحيط بنا يدفع إلى الغرابة الشديدة. ومضت هنا أو هناك في فوضى عارمة، تماثيل بيضاء لامعة، لرجال ونساء، ارتكنت إلى قواعد من الرّخام، بعضها بلا أذرع والبعض الآخر بدا بلا سيقان أو رءوس، لكنّها تبدو كلها مثيرة للأسى في ضوء القمر. ولنزعة إنسانية مفزعة! انتصبت التماثيل، وواجهت طارق اللّيل الوافد إلى المكان، على كلّ اتجاه، وتفرّسته بعيون متحجرة، ومن زوايا وأركان خفيّة، واختلست النّظر من فوق أكوام الشّظايا إلى الدّهاليز البعيدة، واعترضت طريقه وسط السّاحة العامّة الفسيحة، وأشارت في وقار بأذرع بتراء، إلى الطريق من المعبد المقدس، كما ألقي القمر بضيائه عبر سقف المعبد المكشوف، وفرض طوقا على أرضيته، وظللّ الشّظايا المتناثرة، والتماثيل المحطمة، بظلال الأعمدة الماثلة.

عجبا لعالم زاخر بالتماثيل المحطّمة، المحيطة بنا! صفوف متراصّة وأكداس مكدّسة من التماثيل مبتورة الأطراف، من كلّ الأحجام ومن أجمل فنون الصّنعة، قد تناثرت بالمئات والمئات فوق أرض الأكروبول الشّاسعة ووفرة هائلة من الشّظايا الرّخامية، التّي كانت في الأصل أجزاء من السّقف المعمّد، تغطيها زخارف تصوّر مغانم الحروب والمعارك، والسّفن الحربية ذوات المجاديف الثلاثة أو الأربعة، فضلا عن المهرجانات والمواكب، وكلّ ما يمكن أن يتصوّره إنسان. يذكر التّاريخ أنّ معابد الأكروبول، كانت حافلة بأعمال فنّية عظيمة، لكلّ من براكسايتليس، وفيدياس، وكثير من الرّواد العظام في فنون النّحت، وتشهد بصحّة ذلك تلك الشّظايا الرخامية الرّائعة.

توجّهنا إلى قاعة يفترشها العشب والشَظايا القديمة، تقع خلف البارثينون. أصبنا بهلع، لرؤيتنا من آن لآخر، وجها حجريًا أبيض اللون، يتفرّس فينا بغتة من بين الكلأ، بعيون جامدة. بدا المكان محتشدا بالأشباح. توقعت بعض الشيء روية أبطال أثينا منذ عشرين قرنا، يخرجون من بين الظّلال، ويتسللون إلى المعبد القديم، الذى خبروه جيدا، وأشاروا إليه بالمجد والفخار. كان البدر حينئذ، يحلّق بعيدا في سماء صافية، ونحن نسير وئيدا فوق أسوار الحصن العالية، على غير هدي دون خشية من شيء، ننظر إلى أسفل، لنرى صورة وأية صورة! صورة أثينا في ضوء القمر!

مؤكّد أن من اعتقد من الأنبياء أنّ إشراقات أورشليم الجديدة قد انكشفت له، قد رأى هذه بديلة لها! فهي تقع على سهل منبسط، مباشرة تحت قدميك تترامى أبعادها كلوحة كنا نراها أسفلنا، كمن ينظر من منطاد. لم نر شبيها بشارع، بل كان كلّ بيت، وكلّ نافذة، وكل كرمة معلّقة، وكلّ مسقط، محددا ومميزا تماما، وكأنّنا في وقت الظّهيرة رغم خلوّ المكان من وهج، أو ألق، وما من شيء يدعو إلى كدر أو نفور. غمر المدينة الهادئة نور لطيف، تدفق من القمر دون انقطاع، فبدت كائنا حيًا، ولفّه خدر الصفو والسّكينة. هناك على الجانب الآخر معبد صغير، ومضت قواعد أعمدته الملساء وواجهته المزخرفة، ببريق قوي، كبّل العين كالسّحر، رقت بقربه أسوار قصر الملك البيضاء، من وسط بستان حافل بالشجيرات، رقطت كلّها بوابل تلقائيّ من الأضواء الصّفراء، ووابل من ألق ذهبيّ. فقد بريقه في ضوء القمر، ورقّ ومضه فوق نهر من الخضرة القاتمة كنّجوم شّاحبة في درب اللّبانة. هناك لوحة لا توجد في العالم لوحة بنصف جمالها، تضم أعمدة تعلو الرءوس، لا تزال تحتفظ في بقاياها بالجلال.... مدينة حالمة على الأض...... وعلى المدى بحر فضّي.

وددت لدى تحوّلنا مجدّدا باتّجاه المعبد، لو يستطيع من جلس فيه من المشاهير في الأزمنة العتيقة زيارته مجدّدا والظهور أمام عيوننا المبهورة بشخوصهم، أمثال أفلاطون، أرسطو، سقراط، ديموثين، فوشيون، فيثاغورث، إيوكليد، بيندار، زينوفون، هيرودوتس، براكسايتليس، فيدياس، والرسّام زيوكسس. فأيّة كوكبة تلك من ذوي الألقاب! لكنني أودّ فوق ذلك كلّه، أن يتلمّس ديوجين الشّيخ طريقه، بأناة ومعه مصباحه، جادا في بحثه عن الشخص الوحيد الصّادق في هذا العالم، يهيم على وجهه، وربما تعثّرف في فرد من جماعتنا. قد لا يجدر بي مثل هذا القول. لكنني ما زلت أفترض أنه ربما زال ضوؤه.

غادرنا البارثينون، ليمارس سهره على أثينا، كما كان حاله على مدار ثلاثة وعشرين قرنا من الزمان، ومضينا ثم توقفنا خارج أسوار الحصن. ظهر عن بعد ذلك الضّارب في القدم، والذى يقارب الاكتمال حتى الآن، معبد ثيسيوس، الواقع جهة الغرب متاخما بيما، والتي أرعد منها ديموثينيس بفليبيّاته (خطبه الحماسية)، وأشعل بصوته الهادر حماسة بني وطنه. وظهرت جهة اليمين تلة مارس، حيث ربض الآريوباجوس في العصور السّالفة، وحيث اتخذ القدّيس بولس قراره، وحاجّ من دأبوا من الأثينيين على ترويج الشّائعات، في ساحة السّوق. صعدنا الدّرج الحجري، الذى سبق أن ارتقاه القديس بولس، ووقفنا في المكان مربع الشكل، وحاولنا تذكّر ما ورد بالإنجيل بهذه المناسبة، لكنني ولأسباب بعينها لم أقو على تذكّر العبارات، وعثرت عليها فيما بعد :

«وبينما هو ينتظرهما في أثينا، احتدّت روحه، إذ رأى المدينة، مملوءة أصناما».

« ومع ذلك فإنّه قد حاجّ اليهود في المجمّع اليهودي، وكان يكلّم المتعبدّين منهم، والذين يصادفونه في السّوق كل يوم».

* * * * * *

«وأخذوه وجاءوا به إلى آريوباجوس، قائلين لعلنا نعرف ما هو التعليم الجديد، الذى تتحدث به؟».

* * * * * *

«وقف بولس حينئذ وسط تلّة مارس، وقال أيها الرجال الأثينيون، أراكم من كل وجه كأنكم مدينون كثيرا، لأنني بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم، وجدت أيضا مذبحا مكتوبا «لإله مجهول» فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به».

أعمال الرّسل ٢٤،٢٢

ظهرت بعد فترة قصيرة، رغبتنا في العودة إلى قمرتنا، قبل طلوع النّهار، وأن من الخير أن نحثّ خطانا. حين صرنا على مسافة من الطّريق ألقينا على الباراثينون نظرة وداع، إذ كان ضوء القمر ينسرب بين أعمدته المكشوفة، ويمس حروفها المكتوبة باللّون

الفضي. وأنها ستظل دوما في ذاكرتنا كما بدت لنا في تلك اللحظة، لهذا القدر من الجمال والضخامة والجلال.

بدأنا ننفض عنا مخاوفنا ونحن على الطّريق، وتوقفنا عن الانشغال بالقائمين على الحجر الصّحيّ أو بغيرهم. زدنا جرأة وطيشا حتّى أفلت منا الزمام، ألقيت حجرا على أحد الكلاب، ولم أصبه رغم استملاح الفكرة، حيث يحتمل كثيرا أن يكون صاحبه شرطيا. صار نزقي خارج السيطرة تماما بعد انفعالي بهذا الفشل السّعيد. فكنت من وقت لآخر أثير جلبة بالصّفير، وكان مع ذلك من طبقة لحنية معتدلة. لكنّ الاندفاع يولّد جرأة، فاقتحمت على الفور كرمة عنب، هكذا في ضوء القمر السّاطع، واستوليت على جالون من العنب الممتاز، دون خشية حتّى من ظهور فلاّح يركب بغلا. حذا كلّ من «ديني. وبيرش حذوي، صار لديّ الآن من العنب ما يكفي دستة أفراد، لكنّ جاكسون أيضا قد انتابته بدوره حميّة الجرأة، فأقدم في التوّ على دخول بستان كرم. جلب لنا أوّل عنقود اقتطفه مشكلة. انشقّت الأرض عن قاطع طريق ملتح، أطلق صيحة مدوّية وأخرج في ضوء القمر بندقية قديمة طويلة السّاق. عرّجنا على ميناء بيريه، ليس فرارا كما تعلم، بل حثثنا السير فحسب! أطلق قاطع الطّريق صيحة جديدة، لكنّنا مضينا في طريقنا. كان الوقت متأخرا، ولم يتيسر لنا من الوقت ما يمكننا من التحامق على كلّ غبّي، توفّرت لديه رغبة في محاورتنا بثغاء يونانيّ. ويمكنا حينئذ أن نتحدث إليه من عدمه، لو كنا في عجلة من أمرنا. قال «ديني» على الفور: «هؤلاء الأشخاص يلاحقوننا».

التفتنا خلفنا وتأكدنا من صحة كلامه، وجدنا ثلاثة قراصنة حمقى، يحملون البنادق. أبطأنا السير، كي نمكّنهم من اللّحاق بنا، أخرجت ما أحمله من عنب في الوقت المناسب وألقيت به رغم عني جانبا في الظّلال. لم أكن حينئذ أشعر بخوف بل أحسست بأن سرقة العنب، أمر يجانب الصواب. والأسوأ أنني فعلت ذلك في وجود صاحبه. ليس ذلك فحسب بل وهو برفقة أصدقائه. لحق الأشرار بنا، وفتّشوا صرّة حملها الدكتور بيرش، ورموه بازدراء حين لم يعثروا على شيء معه، سوى صخور مقدّسة من تلّة مارس، ولم تكن تلك من المحظورات. تبيّن شكّهم في أنه يمارس معهم أسلوبا ملتويا، وبدا منهم ميلا لجزّ رءوسنا. لكنّهم تركونا في النّهاية نمضي لحال سبيلنا، مع تحذير أظنّه صيغ بيونانية بليغة. رمونا به في رصانة. توقفوا بعد أن قطعوا خلفنا ثلاثمائة ياردة فواصلنا سيرنا سعداء. لكننا

رأينا وغدا آخر يحمل السّلاح، خرج من بين الظلال، وحلّ محلّهم في ملاحقتنا لمسافة مائتي ياردة. سلمنا هذا لوغد آخر، ظهر من مكان مجهول، وأتى دور آخر في الملاحقة! تناوب على رقابة مؤخّرنا لميل ونصف الميل، حراس مسلّحون! لم يسبق لي أن ارتحلت في وضع مشابه لذلك في حياتي.

مر بعد ذلك وقت طويل، قبل أن نخاطر بسرقة عنب مجددا، وحين أقدمنا على ذلك أثرنا انتباه صعلوك آخر، وتوقفنا تماما عن التفكير في الأمر مجددا. أظنّ أنّ ذلك الشخص الذى كان يسير على الطريق راكبا بغلا، هو الذى أسند تتبعنا لكلّ من أحاطنا من الخفراء من أثينا حتّى بيريه.

كان كلّ حقل يقع على طول الطريق مخفورا بخفير مسلّح، ولا ريب أنّ بعضهم يغطّ في سبات عميق، وكانوا رهن الإشارة رغم ذلك. تبين الصّورة التي عليها أتيكا الآن، مجتمعا قوامه أفرادا مشبوهين. لم يكن وجود هؤلاء الناس هناك، حماية لمتلكاتهم من تعدّى الغرباء، بل لحمايتها من بعضهم بعضا، لأنّ زيارة الغرباء لبيريه وأثينا نادرة، وحين يفعل الغرباء ذلك، إنما يفعلونه في وضح النّهار، ويمكنهم أيضا شراء العنب بمبلغ زهيد لو أرادوا. إنّ الأهالي الحاليين لوصحّ ما يقال عنهم وأظنه كلّه صحيح، مزوّرون، ومصادرون لأملاك الغير.

حين أضفى الفجر حمرة خفيفة على أفق السماء الشرقيّ، وحوّل البارثينون، إلى آلة هارب محطّمة، علقت بالأفق الدريّ، وكنّا قد قطعنا بالتّحديد ثلاثة عشر ميلا من طريق وعرة متعرجة، ووصلنا إلى السّاحل أمام السفن، يرافقنا كالمعتاد، ألف وخمسمائة كلب بيريّ (نسبة إلى بيريه)، ينبحون في أعقابنا. دعونا قاربا، كان على بعد مائتين أو ثلاثمائة ياردة من السّاحل، واكتشفنا في التوّ أنّه تابع للشرطة، ومخصص لمن تسوّل له نفسه، انتهاك الحجر الصّحي والنزول إلى البرّ. حين وصل الحراس إلينا لم يجدوا أحدا في المكان. فتّشوا عبر الشّاطئ، ولكن في الاتّجاه الخطأ، وظهر قاربنا في الظّلام، فاتجهنا به إلى السفينة. كانوا قد التقطوا في السفينة إشاراتنا، فأسرعنا بالقارب دون أن نحدث أصواتا، قبل ظهور قارب الشّرطة، ونعمنا مجددا في الوطن (السفينة. بالأمان. كان أربعة آخرون في لهفة لرؤية أثينا، انطلقوا بعد وصولنا بنصف ساعة، لكنّهم لم يمضوا على السّاحل خمس دقائق،

إلاّ واكتشف رجال الشرطة أمرهم. فضيقوا عليهم الخناق حتّى تعذّر عليهم اللجوء إلى قاربهم، وانتهى الأمر على هذا النّحو ولم تتكرر المحاولة.

بدأنا الاستعداد للرّحيل إلى القسطنطنية، لكنّ بعضنا لم يكن منشغلا بذلك. رأينا في المدينة القديمة التي كان ميلادها قبل المسيح بستمائة عام، كل المعالم المهمة، وهي المدينة التي كان يشار إليها بالقدم، قبل إقامة طروادة، وقد رأيناها، في أبهى حللها. فبأيّ شيء ننشغل، ولم؟

اخترق اثنان من الرّكاب بالأمس الحصار، ونجحوا في ذلك، وعلمنا بالأمر في الصّباح. تسلّلوا من السفينة بهدوء، حتّى إنّ أحدا في السفينة لم يكتشف ذلك لساعات. تحلّوا بجرأة التوغل، داخل بيريه، في ساعة الغسق واستئجار عربة. وتجاوزا خطر إضافة شهرين أو ثلاثة، في السجن إلى ما عدا ذلك من طرائف رحلتهم السّياحيّة إلى الأرض المقدّسة. وإنني أعجب من صفاقة(*) كهذه، لكن المهمّ أنهما قد ذهبا، وعادا سالمين، دون أن يبرح أحدهما مكانه.

(*) كلمة يرددها الحجّاج م.ت.

الفصل الثالث والثّلاثون

لم نعد نرى من أثينا عبر جزر الأرخبيل اليونانيّ، سوى جدرانا بحريّة منيعة، وتلالا وعرة، تحيط بها ثلاثة أعمدة قديمة أو أربعة باقية من معبد قديم، يقف وحيدا، ويرمز إلى ما تحياه اليونان من عزلة في السنوات الأخيرة. لم نشهد أرضا محروثة، بل شهدنا قرى قليلة، خلت من أيّ صورة لحياة نَباتية، أو عشب وشجر، أو حتّى دار منعزلة. ظهر لنا جليًا أن اليونان، صحراء جرداء، تفتقر إلى نشاط زراعي صَناعي، تجاريّ. أما بالنسبة لما يقيم أود الجياع من شعبها ويدعم الحكومة، فهذا لغز يصعب حله.

أعتقد أن اليونان القديمة والحديثة قد صار بينهما بون شاسع، يوضحان ما في تاريخها من مفارقات كبيرة. يحتلّ طفل في الثامنة عشر «جورج الأوّل» ومجموعة هزيلة من شاغلي المناصب في الخارجية، مواقع ثميستوكليس. من ثيميستوكليس. وبيريكليس، ومشاهير العلماء والجنرالات، في عصر اليونان الذّهبيّ. صارت الآن الأساطيل التي أذهلت العالم. وقت كان البارثينون حديث عهد بالحياة، حفنة من مراكب الصّيد الشّاردة، وحيدة الصّاري، وأصبح كثيرون من أبطال الماراثون ومحقّقو المعجزات، قبيلة من العبيد المشردين. تراجع إيلليسوس الشّهير، وكذلك كلّ مصادر ثروة اليونان وعزتها. لم يتعدّ عدد السّكان فيها ثمانمائة ألف نسمة، وانتشرت فيها الفاقة والبؤس، وتفشّى فيهم، ما يغطّي أربعين مليونا من البشر رياء وإفكا بل يفوقونهم. كان الدّخل الحكوميّ في عهد الملك أوثو، يعادل خمسة ملايين دولارا، حصلت من الضريبة بقدر عشر الرّيع الناتج من الأرض الزّراعية، (على الفلاّح تسليم العشر لمخازن الحبوب الملكيّة فوق ظهور البغال، من مسافة لا تزيد على سبعة فراسخ)، ومن الضّرائب الباهظة المفروضة على الأنشطة الزّراعية والصّناعيّة. حاول الطّاغية الصغير أن يحتفظ بهذه الملايين الخمسة، بجيش قوامه عشرة آلاف رجل، ويسدد أجور مئات من المتبطّلين، القائمين على إصطبلات الخيول الأميريّة الكبيرة، ومعديّ غرف نوم من الطّراز الأول، ولكبار المستشارين التّابعين لخزانة الدّولة وكل ما عدا ذلك

من حماقات تنغرس فيها تلك النظم الملكيّة الغبية، بتقليدها الملكيّات الكبرى. ذلك فضلا عن أنّه أنفق في إقامة قصر من الرّخام الأبيض، تكلف وحده خمسة ملايين دولار، والنتيجة ببساطة أنّ عشرة ملايين على دفعتين، تضيع في فترة قصيرة ودون عائد يذكر. لا قبل لخمسة ملايين الوفاء بكلّ هذه الأشياء، ما أوقع أوثو في معضلة.

توجّه العرش اليونانيّ، بسبب لحق به من إخفاقات كبيرة، تمثّلت في شعب مشرد من الأوغاد السّذج، يعاني البطالة ثمانية أشهر في العام لثمانية أشهر في العام، بسبب قلّة الفرص المتاحة للاقتراض، أو الحرمان من الممتلكات بالمصادرة. فضلا عن الخراب الضارب في تلال جرداء، وبواد يفترشها العشب. توجه العرش اليوناني إلى استجداء الأموال لفترة ليست بالقصيرة. عرض العرش على أحد أبناء فيكتوريا، وعلى شباب أصغر سنّا من أبناء العائلة المالكة فيما بعد، ممن لا يملكون عروشا والمفلسين، لكنهم جميعا كانوا بارّين في تجنبهم المكانة المؤسفة مكانة مؤسفة وما يحيط بها من وقار، في سبيل مجد اليونان القديم، برفضهم التعالي على ما تزرح فيه فاقة رهيبة وتردي، بعرش محبّ للبهرجة في أيام هوانها هذه، حتّى وصلوا إلى جورج الملك الدانمركي الشاب وقبله منهم. أتمّ إقامة القصر العظيم، الذّي شاهدته في ضوء القمر بالأمس، ويقولون إنّه يقوم بأعمال أخرى كثيرة، لإنقاذ اليونان.

أبحرنا وسط الأرخبيل المجدب، وفي القناة الضيّقة التي يسموّنها أحيانا الدّردنيل، أو الهيلليسبونت أحيانا أخرى. يعدّ هذا الجزء من البلدة غنيّا بأحداثه التّاريخيّة، ومعدما كالصحاري فيما عدا ذلك من شئون. حين اقتربنا مثلا من الدردنيل، سرنا بحذاء سهول طروادة، وتخطّينا مصبّ السكامندر، رأينا المكان الذّي كانت تحتله طروادة (من مسافة بعيدة)، وحيث لم يعد لها وجود الآن. ولمدينة زال أي أثر لها وقت أن كان العالم ما زال شابا يافعا. لقد زال الآن أيضا أيّ أثر للطرواديين المساكين. ولدوا في وقت متأخر جدا على اللّحاق بسفينة نوح، وسرعان ما رحلوا مبكّرا قبل أن يروا معرض الوحوش في زماننا هذا. رأينا الموقع الذّي كانت تتجوّل حوله سفن أجاممنون. وفي الجزء الدّاخلي من البلاد والبعيد عنا، رأينا جبلا ذكرت الخريطة أنّه جبل «إدا». رأينا داخل هيللسبونت. المكان الذى سجل

فيه أوّل عقد أصلي في التّاريخ، وتم نقضه، حيث استعمل زيروكس الرقة في توبيخ طَرف العقد الثاني. أتحدَث هنا عن جسر القوارب الشَهير الذَي أمر زيروكس ببنائه على أضيق قطاع في هيليسبونت (حيث يبلغ عرضه ميلين أو ثلاثة أميال فحسب).

دمّرت ريح معتدلة السّرعة تلك البنية الهشّة (الجسر)، فدعاهم الملك بعد أن رأى أن توبيخ القائمين على بنائه علنا، قد يأتي بنتيجة طيبة، في بنائه مرة تّالية، دعاهم الملك أمام الجيش وأمر بقطع رءوسهم. كتب في عشر دقائق عقدا جديدا، لإقامة (الجسر).

لاحظ الكتّا. القدامى أن الجسر الثّاني كان رائعا. أمر زيروكس جيشه، الذى كان قوامه خمسة ملايين فرد بعبوره، حتى إذا لم يسقط الجسر عمدا، بمكن، أن يبقى في مكانه للأبد. ولو وبخت حكومتنا، بعض المحتالين من مقاولينا، من وقت لآخر، سيتحقق الهدف المطلوب. رأينا في هيلليسبونت المكان الذَي عبره، لورد بايرون وزوجته، تلك التي كرّست مشاعرها نحوه حتى لم يعد يفرّق بينهما إلاّ الموت، وما عدا ذلك قبض الرّيح على رأى جاك. كانت بالقرب منّا مقبرتان، يرقد في إحداهما أياكس على أحد الشّواطئ وعلى الآخر هيكوبا.

ظهرت أمامنا حصون مائية وقلاع، على جانبي هيلليسبونت، يرتفع فوقها العلم التركيَ بلونه القرمزّي وهلاله الأبيض، وتظهر لنا قرية من وقت لآخر، وقطعانا من الإبل، وعنّ لنا أن نرى ذلك كلّه، حتّى دخولنا بحر مرمرة الكبير، وسرعان ما توارى البرّ عن ناظرينا، فعدنا مجدّدا إلى لعب البوكر والهويست (لعبة من ألعاب الورق).

ألقينا بالمرساة في بوغاز القرن الذّهبيّ أول النّهار. لم يظهر على ظهر السّفينة سوى ثلاثة أو أربعة لمشاهدة العاصمة العثمانيّة الكبيرة. ذلك أن الرّكاب قد اعتادوا عدم الظهور في أوقات كهذه، كي يغتنموا لمحات أولية، من المدينة الأجنبيّة الغريبة، وقد فعلوا خيرا، لأننا لو كنّا وقوفا أمام أهرامات مصر، ما كان لهم أن يعودوا إلى ظهر السّفينة إلاّ بعد الإفطار.

يقع القرن الذّهبيّ على لسان بحري ضيقّ. يتفرّع من البسفور (وهو نهر يظه فيه بعض السعة، يربط بحر مرمرة بالبحر الأسود)، ويقسم المدينة إلى شطرين. تقع كلّ من جالاتا وبيرا على أحد جانبي البسفور، وعلى جانب آخر منه يقع كل من القرن الذّهبيّ وإسطنبول (مدينة بيزنطيّة قديمة). يقع على الضّفة الأخرى من البسفور. كلّ من سكوتاري، وضواحي القسطنطينية الأخرى. تضمّ هذه المدينة الكبيرة مليون نسمة، لكنّ

شوارعها ضيّقة، ومكتظّة تماما بالبيوت، التي لا تغطي أكثر من نصف مساحة الأرض في مدينة نيويورك. بدت لنا من المرساة أو من مسافة ميل شمال البسفور، في أكثر ما رأت أعيننا جمالا. يبدأ تكتّل المباني السكنية في الزّيادة من السّاحل، وتترامى إلى أعالي التّلال الكثيرة، وسط البساتين، الظّاهرة هنا أو هناك، ويظهر أيضا عالم كبير حافل بالمساجد وما لا يحصى من المآذن، تلتقي بالعين حيث نظرت، تتزيّن العاصمة بكل ما يمكن أن يتخيّله المرء من نمط شرقيّ، حين يقرأ كتب الرّحلات إلى الشّرق، التي تصوّر القسطنطينية لوحة رائعة.

لكن ما تحظى به من جمال، يبدأ وينتهي بالمناظر الطبيعية فحسب. فالمرء يلعنها منذ أن يضع قدميه على الشّاطئ، حتّى يعود مجددا. القارب الذى يركبه، لا يؤدي ما هو منوط به. فهو يصلح لذلك في الظاهر، لكنه يفتقر إلى من يوجهه الوجهة الصّحيحة، وسط تيارات عاتية من المياه، تتدفق نحو البسفور من البحر الأسود. قلّة من يستطيعون ذلك هنا حتى في المياه الرّاكدة. كان القارب طويلا من نوع الكنو، خفيف الوزن، ويعرف في البسفور بالكايك، يتسع من أحد أطرافه، ويدقّ من طرفه الآخر كحد سكين، ويعتبرون الطرف الحادّ الطويل، مقدّم القارب، ويمكنك تخيّل قدر ما يدور حوله من دوّامات. لهذا القارب مجدافان، وأحيانا أربعة، ولا دفّة له. تبدأ بتوجيهه وجهة معينة، فتسلك خمسين وجهة قبل بلوغك النهاية. تبدأ بالمجداف في سحب المياه إلى الوراء، يعقبه الآخر في السحب على التوالي، ونادرا ما يمضي الاثنان معا في آن. يحوّل هذا النوع من الإبحار شخصا نافذ الصبر إلى الجنون في أسبوع فحسب. لا شك أن النّوتية هنا، هم الأكثر حمقا وغباء وجهلا على وجه الأرض.

كان الحال على البرّ يدعو إلى تعجب من هذا السّيرك الأبديّ. فالنّاس أكثر من النّحل اكتظاظا في الشوارع الضيّقة، حيث اكتسى الرّجال ثيابا لا تخطر من حيث وثنيتها وغرابتها ببال حائك ثياب، مصاب بهذيان من كثرة إفراطه في الشّراب، وسبعة شياطين. فغرابة الملبس ليست نتيجة فقدان عقل يمكن اغتفاره، أو غرابة أطوار من عته بالغ يمكن التغاضي عنه، أو نزق من مسلك شيطانيّ رهيب يمكن التعامل معه. لم يتشابه اثنان شخصان في زيّ واحد. كانت حفلة تنكّريّة حافلة بكل ما يمكن تخيّله من ثياب. وكلّ فريق يشقّ طريقه في شارع، يعد مشهدا تفصيليا يضم متنافرات صادمة. اعتمر كبار السّن عمائم منفّرة، واعتمر الغالب الأعمّ من الحشد الكافر، غطاء رأس أحمر قاتم يطلقون عليه طربوشا. أما بقيّة ما أسرفوا في ارتدائه من ثياب فحدّث ولا حرج.

الحوانيت هنا مجرّد عشش وصناديق، وحمّامات صغيرة وخزانات ثياب، وحدّث أيضا ولا حرج. تقع كلّها في الطّابق الأرضي. يجلس الأتراك داخلها، رجلا فوق الأخرى، يمارسون التجارة ويدخّنون التبغ من الغلايين الطّويلة. ولا تختلف رائحتهم عن بعضهم بعضًا، رائحتهم تلك.. رائحة الأتراك المميزة، تلك التي تغطّي بقاع الأرض. تكتظ الشوارع الضّيقة أمام هؤلاء بالمتسولين. متسولون إلى الأبد رغم أنّهم لا يجمعون شيئا، أولئك هم ذوي العاهات الغريبة تلك التي انحرفت بصورهم كبشر، وصعاليك يسوقون بغالا محمّلة بالبضائع، وحمّالون يحملون على ظهورهم صناديق الملبوسات الجاهزة التي تشبه في حجمها عربة تجرّها الجياد، وباعة للعنب والبليلة السّاخنة، وبزور اليقطين، وأشياء كثيرة أخرى، يهتفون كالعفاريت، ثمّ ينامون ملء الجفون في سكينة وسط الأقدام المهرولة على الطّريق، وكلاب القسطنطينية المعروفة، وجموع من التّركيات اللائي يسرن صامتات، على غير هدى، وقد رفلن من الذّقن حتى القدم في أردية فضفاضة، ووثقن رؤوسهنّ، بخمر بيضاء، كشفت عن عيونهن فحسب، وعما بطن وخفى من ملامحهن. تحرّكن بين الداخل المقنطرة والمعتمة في السّوق الكبير، ودون كالموتي في الأكفان. حين بعثوا من قبورهم وساروا قدما وسط العواصف والرّعود والزّلازل، التي هزّت كالفاري ليلة صلب المسيح. حري بالمرء أن يرى شارع القسطنطينية، ولو مرّة واحدة في حياته فحسب.

هناك أيضا مربىّ الأوزّ، وقد ساق أمامه مائة أوزّة، يدور بها في أحياء المدينة. ويسعى لبيعها، ومعه قائم خشبّي طوله عشر أقدام وفي نهايته خطّاف، لو حدث. شردت عن سربه أوزة بين فينة وأخرى، وابتعدت، ثم دارت بسرعة بأحد المنعطفات . ورفعت جناحيها ومضت رقبتها الطّويلة، فما عساه يفعل؟ لا شيء، تراه قد تناول قائمه، وسار خلف الأوزة بهدوء يحسد عليه، ثم لفّ أنشوطته حول رقبتها وجذبها إليه، ووضعها في مكانها وسط السّرب، دون جهد يذكر. وجّه أوّزه بهذه. لعصا الطّويلة، بالبساطة نفسها التي يوجه بها شخص قاربا بمجدافه. رأيناه بعد ساعات قليلة، جالسا في الشمس فوق صخرة في ركن، يغطّ في نومه، وسط جلبة السّوق، وأوزه إمّا رابضا بجانبه أو رائغا حوله بسبب سيقان البشر والحمير. عدنا إلى المكان نفسه بعد ساعة، فإذا به جالس يعدّ بضاعته ليعرف الشّارد منها، أو المسروق، كانت الطريقة التي اتّبعها فريدة من نوعها، حيث وضع طرف عصاه داخل

جدار حجريّ طوله ستّة أو سبعة بوصات، وجعل الأوز يتقدَم في طابور طويل بين العصا وبين الجدار، وبذا يسهل عليه عدّها، في أثناء سيرها،حيث لا تخرج واحدة عن الصفّ.

لو أردت أقزاما، أقزام للفرجة فحسب، فاقصد جنوا، أمّا لو وددت شرائهم بالجملة أو القطّاعي فاقصد ميلانو فهناك من الأقزام الكثير. هناك كثير من الأقزام في كلّ أنحاء إيطاليا، لكنه يتراءى لي أنّ الحصاد في ميلانو أوفر. لو شئت رؤية نسبة معتدلة من ذوي العاهات، فاذهب إلى نابولي، أو ارتحل عبر الولايات التابعة لروما. أمّا إذا شئت زيارة مقرّ ومركز ذوي العاهات والمشوّهين معا، فعليك بالتّوجّه مباشرة إلى القسطنطينيةّ. فالشحاذ الذي يستطيع أن يعرض قدما لم يبق فيها سوى إصبع واحد مثير للفزع، يغطّيه ظفر شائه، يعد صاحب ثروة كبيرة، لكن عرضا كهذا لن يلفت انتباه أحد، في القسطنطينية، قد يتعرض الرجل بذلك للفاقة. فمن ذا الذي يلتفت محض التفاتة إليه، وسط المصابين بتشوّهات نادرة والمحتشدين على جسور القرن الذّهبيّ، والذين يعرضون عاهاتهم في أزقّة إسطنبول. وآها لهذا الأفّاك التعس! كيف يمكنه مواجهة امرأة بثلاثة أرجل ورجلا عينه في وجنته؟ وكيف يصاب بحمرة الخجل في حضرة من كانت أصابعه فوق مرفقه؟ وأين يتوارى خجلا، حين يمثل أمام جلالته، قزم في كلّ كفّ من كفيه أصابع سبعة، مع زوال شفته العليا، وزوال فكّه السّفليّ؟ بسم الله! بذلك يعدّ ذوي العاهات في أوروبا مجرد فرية، لأنّ الازدهار الحقيقيّ لهم، هنا في بيرا وإسطنبول .

إنّ هذه المرأة ذات السّيقان الثلاثة، والجالسة على الجسر وبضاعتها حاضرة، لتحقيق أكبر جذب، تملك هذه المرأة ساقا طبيعيّة واحدة، وساقان نحيفان، ملتويان كأنهما لشخص آخر. أعقبها في الطريق رجل آخر مصاب بالعمي، ولون وجهه كشريحة لحم فاسد تغضّن وتجعّد كحمم اللافا، كما شاهت وضاعت ملامح وجهه، بحيث يعجز إنسان عن معرفة ما إن كان يستخدم ثـؤلا كأنف للتنفس من عظام الوجنة أم لا. كان في إسطنبول رجل برأس ضخمة، وجسد طويل بصورة غير عادية، وساقان طولهما ثمانية بوصات، وقدمان تشبهان أحذية الزّحف على الجليد. سافر على هاتين القدمين واليدين، وقد انحنى ظهره وكأن مارد «رودس» يركبه. من العجيب أن يبحث المتسوّل بجدّ عن المناطق المناسبة في القسطنطنية، كي يكسب قوته. أما عبوس الوجه الذي ليس لديه ما يفعله سوى لإصابة في انفجار بأحد المناجم، فسينظر إليه على أنّه مخادع كبير، وأنّ الجنديّ الذي أصيب في جزء

من جسده فحسب، ويسير على عكّازين، فلن يجمع البتّة سنتا واحد. لأنهم سيعطونه حال قطع جزء من رأسه، أو رعايته كيسا دهنيًا كيّ يصير على شاكلة كيس سجّادة.

إنّ أوّل معالم القسطنطينيّة السياحية، مسجد القديسة صوفيا.

عليك قبل زيارته، أن تصطحب أحد أصحاب المقام الرّفيع، وهذا في الحقيقة ما فعلناه. لم نأت بأحدهم، بل أحضرنا معنا أربعة أو خمسة فرنكات للواحد، فالأمر سيّان.

لا ألقي كثير بال بمسجد أيا صوفيا. وأظنّ أنني بحاجة إلى الإعجاب به. لندع الأمر إذن يسير في هذا السياق، لأنّه كان يعدّ في الوثنية أسوأ مخزن للغلال الصدأة. أظنّ أنّ كلّ هذا الاهتمام الذى يحظى به، مصدره أنّه كان في الأصل. كنيسة مسيحيّة، ثم تحوّل إلى مسجد، دون أن يجرى عليه المحمّديون الغزاة تعديلات يعتدّ بها. طلبوا منّي خلع حذائي طويل السّاق، ودخول المكان بجوربي فحسب. أصبت جراء ذلك بنزلة برد. ووقعت في كمين الشّرطة السّرية بتهمة الفساد العام، وإحداث النّجاسة، حتّى إنني أبليت أكثر من ألف زوج من لبّاسات الأحذية في تلك اللّيلة، ولم أبق على واحدة منها.

أيا صوفيا كنيسة ضخمة، عمرها ثلاثة أو أربعة عشر قرنا، وبها من القبح ما يظهرها أقدم من عمرها بكثير. يقال إنّ قبّتها البارزة أجمل من قبّة كاتدرائية القدّيس بطرس، لكنّ قذارتها تفوق روعتها بكثير، مع أنّهم لا يذكرون ذلك. تضمّ الكنيسة في داخلها، مائة وسبعين عمودا يستقلّ كلّ منها بذاته، وكلّها من كافّة أنواع الرّخام النّادر، لكنّها أتت من معابد بعلبك القديمة وهليوبوليس، وأثينا وإفسس، وتبعث في الوقت ذاته على النفور لما أصابها من تشوّهات. كان عمر هذه الأعمدة ألف عام، حين كانت الكنيسة حديثة عهد، وكان التنافر سيصبح مروّعا بالضّرورة، لو لم يقم معماريو أوغسطين، بوضعها في الصّورة اللائقة. شكّلت القبّة كلّها من الدّاخل بنقوش بشعة بالحروف التّركيّة، وزخرفت بفسيفساء ذهبيّة، وبدت في بهارجها أشبه بإعلان عن سيرك متجوّل. غشيت القاذورات والبلى أرضيّتها وسورها الرخاميين، وشوّهت الصّورة في أرجائها، بشبكة من الحبال تتدلّى، من قمّة القبّة الشّاهقة، فضلا عمّا لا يحصى من القناديل الزّيتيّة القذرة المدلاّة من القبة، وبيض النّعام الذّي يبلغ ارتفاعه عن الأرضية ستة أو سبعة أقدام. كان عدد من الأتراك يجلسون القرفصاء، ويقرأون الكتب، ويستمعون إلى الأحاديث الدّينيّة، أو يتلقون الدّروس

كالأطفال، وكان هناك المزيد، في أماكن أخرى، راكعين أو واقفين، ويعاودون الرّكوع من ثم. ثمّ السّجود ثمّ يقبّلون الأرض، ويغمغمون بالأدعية وهم ساجدين، ويواصلون أداء حركاتهم الرّياضيّة، حتّى يدركهم التعب، ذلك إن لم يكونوا أصلا متعبين.

تفشّت القاذورات والأوحال والوضر والظّلمة في كل الأرجاء، وران على كلّ الأماكن ما يشير إلى انتمائها لعصور ضاربة في القدم، بل افتقرت إلى ما يشي فيها بلمسة جمالية، وغشيتها تلك الجماعات الوثنية العجيبة، وعلت الرءوس، رسوم الفسيفساء السقيمة، والحبال المدلاّة بالقناديل، ولا مكان هنا لشيء يظفر بحبّ المرء أو ينل إعجابه.

مؤكد أن المتحمّسين لأيا صوفيا فد اكتسبوا ذلك من كتب الرّحلات، وحيث الكنيسة «أيا صوفيا» في رأى الكثيرين، تعد الأروع في فنّ المعمار، كما يرى الجميع أنها أعظم ما شهد العالم في هذا المجال. أو أنّ أولئك هم خبراء قادمون من أحراش نيوجيرسي، ممن لا يكفون عن تحديد الفارق بين لوحات الجصّ وخراطيم المياه، ويشعرون بعد ذلك بتميّزهم في كبت عواطفهم الجيّاشة تجاه فنون التصوير والنحت والبناء إلى أبد الآبدين.

زرنا حلقات رقص الدّراويش، وكان عددهم واحدا وعشرين. اكتسوا برداء فضفاض طويل فاتح اللّون، مسربل حتّى الكاحل. اتّجه كلّ حين حلّ دوره، إلى الشّيخ الكبير. كانوا جميعا داخل حاجز دائريّ. فانحني له باحترام ثم دار حول نفسه في وجد صوفيّ،وعاد إلى المكان المخصص له داخل الحلقة، ليبدأ في الدوران حول نفسه. حين يعود الجميع إلى أماكنهم مدوّمين، ينفصل أحدهم عن الآخر، بمسافة خمس أو ستّ أقدام. وبذا تكون الحلقة قد أكملها المدوّمون الوثنيون، ثلاث حلقات حول الغرفة كلاً على حدة. يستغرق ذلك خمسة وعشرين دقيقة. يدوّم هؤلاء على سيقانهم اليسرى، ويظلّون يحركون اليمني أمامها بسرعة ثم يلكزون بها الأرضية اللينة. حققّ بعضهم وقتا قياسيًا. ودوّم أغلبهم أربعين مرّة في الدّقيقة، وحقق محترف واحدا وستين تدويمة في الدقيقة، وظل يحتفظ بالرّقم نفسه على مدار الدقائق الخمسة والعشرين. امتلأ رداءه بالهواء وانتفخ حتّى صار كبالون.

لم تصدر عنهم أيّة جلبة، وأمال أغلبهم رأسه إلى الخلف، وأغمضوا عيونهم، وانجلوا جميعا في انجذاب صوفيّ. صاحبهم صوت موسيقىّ منفرّ لبعض الوقت، ولم يكن هناك ظهور لعازفي الآلات. لا يسمح لغير المدوّمين بدخول الحلقة، فالرّجل إمّا أن يكون مدوّما

أو يبقي خارج الحلقة. الذى شهدناه بعد ذلك عرضا آقرب إلى الهمجيّة. إذ جيء بالمرضي، وأرقدوهم على الأرض، وبجوارهم نسوة حملن أطفالهن (طفلا واحدا على صدر أمه)، ثم جاء كبير الدّراويش، وسار فوق أجساد الرّضع.

ويفترض من وطئه صدورهم أو ظهورهم أو الوقوف على أقفيتهم، شفاء لهم من الأمراض. يليق هذا طبعا بأناس، يعتقدون أن شئون حياتهم كلّها، تعبث بها أرواح خفيّة، قادمة من الفضاء، بواسطة المردة والجنّ والعفاريت، ولا يزالون حتّى يومنا هذا يصدّقون قصص الخوارق، الواردة بكتاب ألف ليلة وليلة. ذلك بالضّبط ما رواه لي التبشيريّ الذكيّ.

زرنا الألف عمود وعمود. لا أدري تحديدا ما يقصد بها، لكنّهم قالوا أنها أقيمت لبناء صهريج للمياه. أقيمت في وسط القسطنطينية. عليك أن تهبط درج سلم حجريّ، وسط قفر، لتصل إليها. ستجد أنّك تقف تحت الأرض بأربعين قدما، وسط كمّ هائل من الأعمدة الجرانيتيّة الطويلة، كانت لبنية على الطّراز البيزنطيّ. قف حيث تشاء أو بدّل موقعك كما يحلو لك، تجد أنك دائما في منتصف ما تشعبت منه اثنتا عشرة قنطرة طويلة، وأعمدة ضاعت معالمها لبعد المسافة، وظلمة في المكان. يشغل الآن الصّهريج الخالي من المياه. بضع أشباح من نسّاج الحرير. أراني أحدهم صليبا مجتزءا في أعلى أحد الأعمدة. أظنّه قصد بذلك تعريفي بأنّ المؤسّسة الدينية كانت هنا قبل الاحتلال التّركي، وظننت أنّه قد أشار إلى ما يفيد هذا المعنى، لكنّه بالضرورة كان يجد صعوبة في النطق، ولم أفهم شيئا ممّا قاله.

خلعنا أحذيتنا، ودخلنا تكيّة السّلطان محمود المقامة كلّها بالرّخام، بدت من الدّاخل من أروع ما وقعت عليه عيني من قطع معماريّة مؤخّرا. غطّيت مقبرة السلطان محمود بغطاء من جوخ من المخمل الأسود، أتقن تطريزه بخيوط الفضّة، وأقيم القبر داخل سياج فضّي رائع، وانتشرت بين كلّ الأجناب والأركان، شمعدانات، فضّية قد يزن الواحد منها أكثر من مائة رطل، ثبّتت بها شموع بطول السّاق للواحدة، واعتلى الضّريح طربوش، في أعلاه حلية ماسيّة رقيقة، قال المرافق إنّها تساوي الآن مائة ألف جنيه، وهو في ذلك يكذب كأي تركيّ. كانت عائلة محمود ترقد حول محمود في سكينة.

ذهبنا بالطّبع إلى سوق اسطنبول الكبير (البازار)، ولن أزيد في وصفه عن كونه خلايا نحل بريّ في هيئة حوانيت صغيرة، تعد. بالألوف، ولا ننسى ذكر أنّها تقع كلّها

تحت سقف واحد، وأنّها موزّعة بين بنايات صغيرة ولا حصر لها، تقع في طرقات ضيّقة، مقنطرا أعلاها. خصّص شارع واحد في نوع معين من السلع، واحدا تلو الآخر ودواليك.. فحين ترغب في شراء زوج من الأحذية، عليك التنقل في االشارع بأكمله، وليس عليك أن تجشم نفسك عناء الذهاب للبحث في أماكنه متعددة. ينطبق هذا على سلع بعينها، كالحرير، والتّحف القديمة، والشّيلان .... ألخ. يكتظّ المكان بالبشر طوال الوقت، حيث تعرض وفرة من الأقمشة الشرقية الزّاهية، أمام كلّ حانوت. يعدّ سوق إسطنبول الكبير، مشهدا يستحقّ المشاهدة. تراه زاخرا بالحركة والنّشاط، والتّجارة، والقاذورات والمتسولين والصّعاليك، والبغال والزاعقين من المكاريّة، والحمّالين والدّراويش، والمتسوّقات التركيات من الطبقة الراقية، واليونانييّن، والمحمّديّين، بثيابهم الغريبة وصورهم العجيبة، أولئك القادمين من الأقاليم الجبليّة النّائية. أمّا الرائحة الطّيبة فهي الشّيء الوحيد الذّي لا يشتمّه المرء في السّوق الكبير.

الفصل الرّابع والثّلاثون

مساجد كثيرة. كنائس وجبّانات، وندرة في الأخلاقيّات والويسكي. يحرّم القرآن على المحمّديين شرب الخمور. ولا تترك لهم الغرائز الطّبيعيّة فرصة لالتزام جادة الخلق القويم. يقولون إن للسّلطان ثمانمائة حليلة. يقارب هذا اللجوء إلى الجمع بين أكثر من زوجة. تحمرّ وجناتنا من الخجل ونحن نرى مثل هذا الشيء مسموح به في تركيا. رغم أننا لم نكن نلق لذلك بالا في «سولت ليك».

لا يزال يتمّ بيع الفتيات الشّركسيّات والجيورجيات في القسطنطينية، من قبل ذويهم. لكن ذلك لا يتمّ الآن في العلن. فأسواق العبيد الكبيرة التي قرأنا كثيرا عنها، لم يعد لها وجود (حيث كانت القاصرات تجرّدن من الثّياب لفحص أجسادهنّ. والمزايدة عليهن، والجدل في البيع والشراء، وكأنّهن جياد، يبعن في سوق سلع الموسميّة). فالعرض والبيع يتمّان الآن في السّر. البضاعة حاضرة، لأنّ عودة حاشية السّلطان من القصور الأوروبيّة في الوقت الراهن، تسببت في زيادة الطّلب هذا من ناحية، وبسبب وفرة الغذاء على غير العادة. ما يجعل أصحاب البضاعة بمنأى عن الجوع، ويمكنهم من التمسّك بأعلى سعر وهذا من جهة ثانية، وأيضا بسبب ضعف تحمّل المشترين السّوق. في الوقت الذّي يتيسر للبائعين فيه الصّمود. لو قدّر في ظلّ هذه الظّروف، للصّحف الأمريكيّة، النّشر هنا في القسطنطينيّة، أظنّ أن تقريرها الاقتصادى سيكون على النحو التالي.

قائمة أسعار السّوق الخاصة بفتيات الرّقيق

« أفضل أنواع الشّركسيات، مجموعة مواليد عام ١٨٥٠ بسعر ٢٠٠ جنيه إسترليني. ١٨٥٠عام بسعر ٢٥٠ ج. عام ١٨٥٤ سعر ٣٠٠ج. أفضل الأنواع الجيورجية، لا يوجد.

توجد أنواع من المرتبة الثانية لعام ١٨٥١ بسعر ١٨٠ ج. لدينا من سنّ التّاسعة عشر. وهناك فتيات والاشيات متوسّطات الجودة، معروضات بسعر ١٣٠ حتّى ١٥٠ ج، دون مزايدة في الأسعار، وهناك فتيات في السّادسة عشر (فرز أول) بكميّات محدودة، حتّى أقلّ سعر. هذه المجموعات مستقلّة عن بعضها بعضًا» .

معروض للبيع مجموعة واحدة من الشّركسيات عاليات الجودة، من مواليد ١٨٥٢ حتّى ١٨٥٤ بسعر ٢٤٠. ٢٤٢,٥ حتّى جنيها، ٣٠ مشتر، ٤٠ باحث عن الذّهب في كاليفورنيا، تعويض عن الأضرار حتّى ٢٣ ج، ١٠ بائعين، لا تجد دفعات مقدمة، هناك العديد من الجيورجيات من أصول ممتازة، مولید ١٨٥٢، يمكن التحويل من مالك لآخر، دون توقف. الجيورجيات المعروضات في الوقت الحالي أغلبهن حصاد العام الماضي، رغمَ قلّتهن على غير العادة. يعقب ذلك بفترة بسيطة الحصاد الجديد، لكنّه سيعرض في القريب، يحقق ما نشير إليه أرقاما مبشرة من حيث الجودة والعدد. يمكن في هذا السّياق التأكيد على أنّ الشركسيّات يتمتعن بملاحة نادرة.

أرسل السّلطان المعظّم، قائمة كبيرة بالطلبات لدعم حرملكه الجديد، يتمّ تجهيزها، في بحر أسبوعين، وهذا بدوره يدعم السوق، ويعطي البضاعة الشّركسية، دفعة قوية. ويمكن للاستفادة من معاناة السّوق من التضخم، قيام الخبراء من مضاربينا بالبيع من الباطن. هناك ملاحظات بسيطة بالنسبة لـ «الوالاشيات» .

لا وجود لنوبيّات. بسبب بطء بيعهن.

ورغم خلوّ العرض من الخصيان، فإنّه يتوقّع وصولهم من مصر اليوم بأعداد كبيرة.

أعتقد أن ما ذكرناه يقارب التقرير الاقتصادي، فالأسعار الآن في ذروتها. وأصحاب البضاعة متمسكون بأسعارهم، لكنه قد حدث منذ عامين أو ثلاثة، أن جاء بعض الآباء ممن يعانون الفاقة ببناتهن الصغيرات، إلى هنا وباعوهم بعشرين أو ثلاثين دولارا للواحدة، في وقت ضاقت أمامهم كل السبل، ولكي يقوا أنفسهم وبناتهم شرّ الحاجة. من المحزن تأمل مثل هذه الأمور المحبطة، وأنا مثلا، في قمة سعادتي لارتفاع الأسعار مجددا.

يتميز الاأخلاقيات في المعاملات التجارية هنا بالسوء. فلا قبل لأحد الاعتراض على أن ينحصر مسلك الأتراك واليونانيين والأرمنّ، في الذهاب إلى الكنيسة أيام الأحد المحددة لهم بانتظام، ثم انتهاك ما ورد بالوصايا العشر، بقيّة أيّام الأسبوع. بذا يصبح الغشّ والخداع من أولويات حياتهم، ثم يمارسون حياتهم، ويحسنون من طباعهم حتى يصلوا إلى حد النضج. فالرجل هنا حين يعهد بابن من أبنائه إلى تاجر، للعمل لديه بائعًا محترفًا، لا يأتي ذكره على دماثة أخلاق الابن، أو استقامته، أو أدبه وصدقه وانتظامه في مدرسة الأحد، بل يقول للتاجر: «هذا الولد يساوي وزنه قطعا من فئة المائة، فاعلم بأنه بسبيله إلى الاحتيال على من يتعامل معه من الزبائن أيًا كانوا، ولن تجد من يفوقه جبلة في الكذب من أيوكسان حتّى مرمرة! وتري أيّة تزكية تلك. يخبرني التبشيريون، بأنهم يستمعون إلى مديح على هذه الشاكلة كل يوم. يقول الأتراك عمن ينال إعجابهم. «يا لملاحة هذا المخادع، هذا ولد لا يشقّ له غبار، ويا له من أفّاق ليس له ندّ. دأب الكلّ على الكذب والغشّ. والكلّ يمارسون شتّي أعمال التّجارة. سرعان ما يتعلّم الوافدون إلى القسطنطينية من الأجانب، تلك الخصلة، حيث يمارس عادة الكذب من يعمل منهم لمدد طويلة بالبيع أو الشراء، شأنهم في ذلك شأن اليونانيّ. أذكر في هذا السياق، أنهم أشبه باليونانيين، حيث في هذا المجال يطلق على اليونانيين «أسوأ الآثمين» .

يؤكّد كثير من الأمريكيين المقيمين في القسطنطينية لفترات طويلة، أن الأتراك أشخاص محلّ ثقة. لكنّ قلّة منهم يدعون أن اليونانيين، لديهم من الفضائل ما يمكن لامرئ الكشف عنه، دون أن يتجشم على الأقلّ عناء التّجربة.

إنني على استعداد إلى حدّ ما لتصديق أنّ كلاب القسطنطينية الشّهيرة قد شوهت صورتها بأنها مسيئة للسمعة. وكنت أنقاد دوما إلى الظنّ. بانتشارها بكثافة في الطّرقات حتى تسدّها، فضلا عن تحركها في جماعات منظّمة وفصائل وأسراب، وأنّها تحصّل دوما ما تريده بالقنص الوحشيّ دون تراجع، وأنها تخرس كلّ الأصوات الأخرى بنباحها الليليّ. تختلف الكلاب التي رأيتها هنا عن تلك التي قرأت عنها.

لقد رأيتها بالفعل في كلّ مكان، ولم تكن بالجيش العرمرم. فأغلب ما لقيت منها لم يكن يزيد في مجموعه عن عشرة أو عشرين على الأكثر. منها نسبة لا بأس بها، تغطّ في نومها، ليلا

أو نهارا. أما من لا يفعل منها ذلك فيبدو أنه يتعمده. لم أر في حياتي كلابا بمثل هذا البؤس والضعة والحزن واليأس. وتبيّن لي أن اتهامهم بقنص الأشياء بالقوّة الجبريّة، ظلم بيّن لهم. بدا من الصعوبة أن تتوفر لدي أحدهم قوّة أو طموح عبور شارع، ولم أر أحدهم يسلك هذا المسلك الطموح بعد. تفشّى فيها الجرب، وغشيها الجذام وشوهتها الجروح والنّدوب، وغالبا ما ترى أحدها وقد تساقط شعره، في مواضع محدّدة ومساحات كبيرة، حتّى بدا أشبه بخريطة المقاطعات الجديدة. إنها أكثر الحيوانات إثارة للشفقة والرثاء والحزن، أما الكآبة فتعبير ثابت على وجوهها، ولا برء من قنوط ارتسم على سحنها. يفضّل ذباب القسطنطينية المواضع الصّلعاء في الكلب المريض بالسفعة، على المساحات الأكبر في الكلب السليم، والأماكن المكشوفة تناسب تماما ذباب القسطنطينية. رأينا كلبا من هذا النّوع يحاول التهام ذبابة استثارته، فلم ينهش سوى جسده، وعاودت الذّبابة مناوشته، فتواصل قلقه، ونظر بأسى إلى راعية كلأه، وتطلع بيأس إلى قرعته، وتنهّد من ثمّ، وألقي برأسه فوق كفّيه مستسلما.

تنام الكلاب في الشوارع، في كل أنحاء المدينة. وسوف يبلغ معدّل وجودها أمام كل بناية إلى ثمانية أو عشرة كلاب على ما أعتقد. يوجد بالطبع أحيانا من عشرة إلى عشرين كلبا أمام كل بناية. تلك الكلاب ضالة بلا صاحب، وواضح أنها تفتقد فيما بينها معاني الألفة والتوا د، لكنها تقوم بنفسها بتقسيم المدينة إلى مناطق، وكلاب كلّ منطقة، وسواء كانت كانت بطول بناية، أو عشر بنايات، فعلى كلّ الالتزام بحدود منطقته. وا أسفاه على من يتجاسر منها، ويتخطّي حدود منطقته! لأنه لو فعل ذلك، لسلخ جيرانه فروة رأسة، في ثانية واحدة، هذا ما ذكر. لكنهم لم يظهروا أمامنا شيئا من ذلك.

تنام الكلاب هذه الأيام في الشّوارع. أعتبرها بوصلتي، وهاديا لي. حين أراها خالية البال تنعم بالنّوم، فتروح الناس وتغدو من حولها والأوز، والشّياه، أعرف في التوّ أني لست في الشّارع الكبير حيث يقع الفندق، وأن على مواصلة السّير. تظهر الكلاب في الشّارع الكبير مسلكا يشير إلى يقظتها، ما يوحي بالتزامها إخلاء الطّريق كلّ يوم لإتاحة الفرصة لعبور كثير من عربات الكارو، ويتعرف المرء في لحظة على هذه الإشارة. لا يظهر ذلك على وجه أي كلب من خارج حدود الشارع. أما الآخرون فيغطّون في النّوم ولا يعبأون بشيء، وذلك لكونهم لا يحركون ساكنا حتّى لمرور موكب السّلطان.

رأيت في أحد شوارعها الضّيقة (حيث لا يوجد بها شارع واسع)، ثلاثة كلاب راقدين بطول الشارع. في صف متصل. يفصل كل عن الآخر قدم أو اثنين، رقدوا صفا واحدا من طَرف إلى طرف، فسدوا الشارع تماما من ميزاب إلى ميزاب. مر عبر الطَريق قطيع من مائة شاة، ووصلوا مباشرة إلى الكلاب، فتزاحم مؤخَر القطيع مقدمه، للعبور وقد نفذ صبره. بدت الكلاب متبلدة، وفتحت أجفانها قليلا، حين مسّت أقدام الشياه العجلي أظهرها الصّلعاء، وتثاءبت ثم عاودت الرّقاد خليّة البال. وما من تعبير يفوق هذا صراحة. وهكذا قفز فوقها بعض الشياة بينما تدافع آخرون وسطها، لتمازح ساقا بتلقائية بأظلافها الحادّة. وحين أنجز القطيع الرّحلة، سعلت الكلاب قليلا وسط سحابة الغبار، لكنّها لم تتزحزح بوصة واحدة من مكانها. ظننت أنّي مريض بالكسل، لكنني أعتبر آلة بخارية. بالقياس إلى كلب قسطنطينيّ. ولكن، أليس ذلك مشهد فريد في بلد يأهله مليونا من البشر؟

تقوم هذه الكلاب بدور قمّام المدينة. ذلك هو العمل الرّسمي للكلاب مع ما يحمل من مشقّة. ورغم ذلك فإنها توفر لها سبل العيش. ولكن لاستفادتها جزئيًا من تنظيف هذه الشوارع المقرفة، فإنّ صبرها قد ينفذ. فتلتهم كلّ شيء، وأي شيء في طريقها، بدءا من قشر البطّيخ، والعنب الفاسد، وكلّ ما يندرج تحت أصناف وأنواع القاذورات وما كان يستنكفه أصدقاؤها الرّاحلون والأقربون، فضلا عن أنهم لا ينقطع عنهم الجوع والبؤس، والهزال.

يبغض النّاس قتل الكلاب. ولا يقتلوتها في الواقع. ويقال إنّ الأتراك يكرهون بالفطرة إزهاق روح حيوان أعجم. لكنهم يقدمون على الأسوأ. حيث يركلون. ويرجمون. ويرمون بالماء الساخن تلك المخلوقات الضّعيفة، بالماء السّاخن. حتى تشرف على الموت. ويتركونها من ثم تعيش وتتعذب.

اقترح السّلطان ذات مرّة، التخلّص من كلّ الكلاب هنا، وبدأ تنفيذ الفكرة، لكنها العامّة أطلقوا ما يشبه صيحة رعب أوقفت المذبحة. اقترح بعد فترة طردها جميعا إلى جزيرة في بحر مرمرة، ولم يعترض أحد. فخصّصت سفينة شحن لهذا الغرض. لكنّ حين أذيع ذلك بطريقة أو بأخرى. لم تصل قط إلى الجزيرة. بل ظلت تتقاطر بالليل من على ظهر السّفينة واختفت. ارتفع هتاف آخر وألغيت خطّة النّقل.

وهكذا قدّر للكلاب أن تبق على استحواذها الآمن للشوارع. لست أدّعي أنّ الكلاب لا تنبح في اللّيل، أو لا تهاجم من لا يضع طربوشا أحمر على رأسه. إنني أقول فحسب إنّه لن يكون من اللائق بي، اتهامها بتلك الأفعال الشّائنة، التي لم أرها بأمّ عيني، ولا سمعتها بأذنيّ.

دهشت قليلا لرؤية الأتراك واليونانيين، يداعبون صبيًا، من بائعي الصّحف هنا في بلد العجائب، التي اتخذها العماليق والجن المذكورين في كتاب ألف ليلة وليلة مقاما لهم ذات يوم، وحيث حرست الجياد المجنّحة، والتنين متعدد الرءوس القلاع المسحورة، حيث طار الأمراء والأميرات، على البسط بأمر طلسم مسحور، وحيث قفزت المدن المقامة بالأحجار الكريمة إلى الفضاء في إحدى الليالي بيد ساحر، وحيث أصيبت الأسواق بغتة بإحدى الرّقى، فرقد كلّ مواطن أو جلس مكانه، أو شهر سلاحه أو تقدّم خطوة وظلّ على حاله هذا، دون أن يأتي بحركة أو ينبس بكلمة، وقيل إنه بقي على حاله هذا لمائتي عام.

كان لافتا أن ترى صبيًا يبيع الجرائد في أرض الخيال هذه. وكان هذا في الحقيقة جديدا نسبيًا، على هذه البلاد. نشأت مهنة بيع الجرائد، في القسطنطينية، منذ نحو العام، وجاءت نتيجة اشتعال الحرب بين بروسيا والنمسا.

صدرت صحيفة هنا بالإنجليزيّة هي «اللافنت هيرالد» وهناك عدد من الصّحف اليونانيّة وقلّة من الصّحف الفرنسية التي تظهر ثم تواجه إخفاقا وتقاوم ثم تخفق مجددا. لا تلق الصحف رواجا في ظلّ حكومة السّلطان. إنهم يجهلون الصحافة. يقول المثل: «إن الجهل دوما عظيم». تعدّ الصحيفة في نظر السّلطة، مؤسسة مشينة، ومشبوهة. هؤلاء النّاس يفهمون في الطّاعون لأنّه يقلل في المرة الواحد عددا من البشر بمعدّل ألفي نفس في اليوم الواحد، ويصفون الصحيفة بأنّها إحدى صور الطّاعون الخفيفة. حين تبدأ صحيفة في الشّطط يتمّ قمعها، والانقضاض عليها دون سابق إنذار. ويكتمون أنفاسها، وحين تبعد عن الشّطط لفترة طويلة، تنتابهم الوساوس، وتخنق كسابقتها أيضا، لأنّها في نظرهم تفتح أبواب الشّياطين. تخيّل ذلك المطربش الكبير، في مجلس وقور، برفقة أقطاب السلطنة، يتهجّى بطريقته الصحيفة المغضوب عليها، ويتخّذ في نهاية المطاف قراره الحاسم على النحو التّالي :

«يؤدّي هذا إلى إثارة القلاقل، والمسالمة المريبة، والغموض الشديد، تحظر! أنذروا النّاشر باستحالة قبولنا مثل هذا الحال. ضعوا محرر هذا في السّجن».

تحيط القلاقل بالصّحافة في إسطنبول. تمّ هنا حظر صحيفتين يونانيتين، وواحدة فرنسيّة، خلال بضعة أيام بين كلّ حظر. لا يسمح في الصّحف بطبع أو الإعلان عن انتصارات يونانية. يبعث الطّربوش الأكبر من وقت لآخر بإنذار إلى مختلف محرّري الصّحف. بأن عصيان الكريتيين (اليونان. محظور بالكلّية، ورغم أن المحرر يعرف ذلك جيدا: فإن عليه أن يستمرّ في نشر الإعلان. كانت صحيفة «اللافنت هيرالد» مغرمة بإطراء الأمريكيين، لينحازوا إلى السّلطان، الذي لا يستملح تعاطفنا مع الكريتيين، لذا كان على تلك الصّحيفة أن تتوخى الحذر حتّى لا توقع نفسها في مشاكل. قام المحرّر ذات يوم بعد أن نسي أن يعلن رسميًا عن هزيمة الكريتيين، بطبع رسالة صحفية يختلف مضمونها عن ذلك كلّ الاختلاف، مرسلة من القنصل الأمريكي في كريت، فتمّ تغريمه لهذا السبب، بمبلغ مائتين وخمسين دولارا. نشر بعدها بوقت قصير، خطابا من المصدر نفسه، ووضع في السّجن جزاء ما فعل. أظنّني أستطيع الحصول على وظيفة رئيس تحرير مساعد في جريدة «اللافنت هيرالد»، لكنني سأكون مهموما على طول الخطّ من دونها.

يشمل حظر نشر جريدة هنا، أن يكون الناشر على حافة الإفلاس. لكنني أظنهم في نابولي يتحسبون لمثل هذ الأمر. فالجرائد هناك يتم حظرها كلّ يوم، لتظهر في اليوم التالي تحت اسم جديد.

أغلقت إحدى الصّحف خلال الأيام الخمسة عشر التي مكثناها هناك، ثمّ عادت إلى الظّهور وحدث ذلك مرّتين. يتسم الصبية من بائعي الصّحف، كما هو حالهم في أيّ مكان آخر بالذّكاء. يستغلون حدوث ضعف عام. وحين يرون أن الحال لا يميل إلى الرّواج، يقترب أحدهم من المواطن العادي بطريقة غريبة، ويقول بصوت خفيض: «آخر نسخة يا سيّدي، والسّعر مضاعف. الصحيفة حظرت للتوّ!. يشتري الرّجل الصّحيفة بالطّبع ولا يجد فيها شيئا من هذا القبيل. فيقولون وأنا لست على يقين من ذلك بل يقولون أيضا، إن هناك أحيانا من يطبعون أعدادا كبيرة من صحيفة بداخلها مقال ثوريّ خطير، ويسرعون بتوزيعها على

بائعي الصحف، ثم لا يظهر لهم أثر إلاّ بعد أن يهدأ غضب الحكومة. يحقق ذلك رواجا كبيرا. فالطبع وحروف الطّباعة لا يكلفان كثير عناء.

توجد في نابولي صحيفة إنجليزيّة واحدة، ولها سبعون مشتركا. يحقق الناشر منها الثراء بكل أناة.

لن أظهر رغبة في وجبة غداء تركيّة بعد الآن. كانت أدوات المطبخ، داخل غرفة الطعام الصّغيرة، المتاخمة للبازار الكبير، والمشرعة على الشّارع. كان الطاهي وضر البدن والثّياب، وكذا كان حال الطّاولة العارية. أخذ الرجل كتلة من لحم الكفتة النيئ، وغطّى بها سيخا طويلا ووضعها على راكية فحم. وضعها بعد الشّواء جانبا، فمر كلب للأسف ونال قضمة منها، بعد أن شمها في البداية، والظاهر أنّه تعرّف فيها على صديق عزيز راحل. نزعها الحاتيّ من فمه، ووضعها أمامنا. قال «جاك» ذات ما اعتاد قوله في أثناء لعب الورق «تخطّوا دوري» وتخطي كلّ منا دور الآخر. صنع الطّاهي فطيرة كبيرة من العجين وفردها، وحشاها بلحم النّقانق النيئ، ووضعها في الفرن، ثم أتانا بها. سقطت على الأرض في الوسخ، فالتقطها ومسحها في بنطاله، ثم وضعها أمامنا، فقال جاك. تخطّوا دوري» وفعلنا كما فعل. وضع الرّجل بعض البيض في مقلاة، ووقف مستغرقا في تأملاته، ينتزع بشوكة ما علق بأسنانه من شرائح لحم، ثم استخدم الشوكة في تقليب البيض، وجاء إلينا بالبيض. وقال جاك «تخطّوا دوري» ولحق به الجميع. أسقط في أيدينا، فطلبنا دفعة جديدة من نقانق. أخرج الطاهي سيخه، وقسّم كمّا معتبرا من لحم الكفتة النيئ على السيخ، وبصق في يديه ثم واصل العمل! تخطّى الجميع أدوار بعضهم بعضا هذه المرّة، في نفس واحد. سدّدنا المقابل، ومضينا لحال سبيلنا. ذلك كلّ ما ألمت به بشأن وجبات الغذاء التّركية، ولا شكّ في جودتها، ولكنّ تواجهها بعض الصعاب.

حين أتأمل قدر ما خدعت به من قبل كتب الرّحلا. إلى بلاد الشّرق، أود لحظتها دعوة سائح على مائدة الإفطار. حلمت لسنين عديدة، بأعاجيب الحمّام التركي، وظللت أيضا لسنين عديدة، أمنّي النّفس بمتعة ارتياد أحدها. تخيلت رقادي لأوقات طويلة في الحمّام المرمريّ، واستنتشاق أرج طيوب الشّرق الجميلة التي عبقته، وخوض تجربة غريبة معقدة من شدّ وجذب، وحكّ وغمر بالمياه، من قبل فريق من أشداء عراة، لاحوا كأشباح غامضة

ضخمة، وسط غشاوة البخار، وقد استرحت من ثمّ لحظة على ديوان يصلح لملك، وعانيت من ثمّ مجربة أخرى أكثر رعبا من سابقتها، فربطت آخر الأمر بأقمطة ناعمة من القماش، ونقلت إلى بهو فخم وتمددت على فراش من زغب العيدروس، وأتي غلمان حسني الملبس، يروحونني بالمراوح، بينما خلدت إلى النعاس سادرا في حلم أو محدقا في حبور في ستائر الغرفة وطنافسها ودثرها المخملية وأثاثها الفخم وفي اللّوحات التصويرية، ثم شربت قهوة لذيذة، وفي البسط الوثيرة النّاعمة، والأثاث الفخم، واللوحات التّصويرية، ودخنت الأرجيلة ونعمت في النهاية باسترخاء تام، تدغدغني روائح حسية من مباخر خفية، مشربة بتبغ النارجيلة، وانتحل شدو الينابيع، وقع زخات مطر الصيف.

تلك هي الصّورة التي استوحيتها، عن الشرق من كتب الرّحلات المثيرة. وفي هذه الصّورة احتيال كبير يدعو إلى الخزي. لا يزيد الواقع شبها هنا على المراحل الخمس الشبيهة بجنّات عدن. استقبلوني في قاعة كبيرة، مبلّطة بألواح من الرّخام، أحاطت بها أروقة فسيحة يعلو أحدها الآخر. وافترشت الأروقة بحصير رثّ، وسوّرت بدرابزين عار من الطّلاء، وجهزت بمقاعد مفكّكة ضخمة، مدثّرة بحشايا قديمة بالية، انبعجت بفعل اضطجاع تسعة أجيال سابقة من البشر فوقها. كان المكان فسيحا، مكشوفا، مقززا، قاعته زريبة للماشية، ومرابط أروقته لخيول البشر. خلا مظهر الفتى النّاحل والغلمان أنصاف العراة، القائمين على الخدمة في الحمّام، مما يشي بشيء من رقة أو سحر الشرق. لم ينشر هؤلاء المكان بطيوب منعشة، بل كان الأمر على النقيض. غالبا ما أفصحت عيونهم الشّرهة وهياكلهم الهزيلة عن حقيقة مجرّدة. ساطعة كالشّمس، تشير إلى أنهم في لهفة لما يطلق عليه في كاليفورنيا «وجبة مشبعة».

وضعوني في أحد أدوات التّعذيب، بعد أن نضوت عنّي ثيابي.

لف جائع نجس حول خصره، مفرش مائدة مبهرج. وعلّق بكتفيّ سملة بيضاء. لو كنت حينئذ أتحمم في حوض للاغتسال، لأدركت بالطبع أنني سأتلقى غسلا. كنت حينئذ مرهونا تحت السلّم، وفي فناء زلق، مبلل بالماء، وكاحلي هو أوّل ما وضعت في اعتباري كاحلي. فسقوطي لم يلفت أحد. ولا أشكّ أنهم توقّعوه. يدرج ذلك في قامة الرقة والمشاعر الحسية التي تميّز مظاهر الترف الشرقية. مؤكد أنها تحظي ببالغ الحنان، لكنّ تطبيقه في الواقع لم

يكن سارًا. قدّموا لي زوج قبقاب من الخشب، مسطحان، يعلوان قليلا عن الأرض، مع طوق جلدي يعلو كليهما من الأمام، كي أحكم فيهما قدميّ (لا يصلحا لي، لأنني لا ألبس رقم ١٣ فحسب). تدلت هذه الأشياء بالأشرطة، حين رفعت قدمي، بصورة مقلقة وهبطت أحيانا في أماكن غير مقصودة أو متوقعة، عندما وضعتها مجددا على الأرض، وانحرفت أحيانا إلى طرق جانبية، ما تسبب في خلع كاحليّ من مفصليهما. ورغم أن هذا هو كل ما لدى الشر من ترف، فقد بذلت ما وسعني كي أستمتع به.

وضعوني في جزء آخر من الزريبة، وأرقدوني فوق ما يشير إلى أنها حشيّة مقززة من القشّ، ليست بفارسية أو من قماش مذهّب، بل من شيء زريّ، لم أره في غير أحياء الزّنوج في آركنساس. خلا هذا السجن الرّخاميّ المعتم من كلّ شيء، سوى خمسة نعوش، غير هذا النّعش. كان المكان، يتشح بالسواد، توقّعت أن تتسلل إليّ مناخري عطور آرابي الذكيّة، لكنها تأبّت عليّ. جاءني هيكل عظميّ بلون النّحاس، تدثّر بسملة، وأحضر مصفقا زجاجيًا به ماء. وفي أعلاه غليون تبغ مشتعل، وساق طرية طويلة، طولها ياردة، ألحق بأعلاها فم نحاسيّ. تلك هي نارجيلة الشّرق الشهيرة، التي تظهر في اللّوحات، يدخّنها عظماء الترك في شموخ. بدا في هذا شيء من تّرف. سحبت نفثة منها، وكفت! سرى الدخان إلى أغلب أجزاء المعدة، والرّئتين، ووصل إلى الأجزاء العليا. أطلقت سعلة مدوية، فبدا وكأن فيزوفيوس قد انطلق من عقاله. لأنني في الدقائق الخمس التّالية، كنت أخرج الدّخان من كلّ مسامّي، على شاكلة بيت من خشب يحترق من الدّاخل. لا لتدخين النارجيلة بعد اليوم. كان طعم الدخان كريها، ولا يزال أثر راحة فم ألف كافر مقزز باق على المبسم النحاسي. أصابني إحباط. إنني من الآن فصاعدا وحينما وأينما أرى أحد الأتراك، واضعا ساقا فوق أخرى، ومدخنا النارجيلة والسعادة بادية على وجهه، مرسوما فوق غلاف علبة تبغ من كونيكتيكت، سأدرك أيّ دجال مخاتل هو.

امتلأ هذا السّجن بالبخار السّاخن. حين وصلت درجة حرارة جسدي إلى الحدّ الذى جعلني مهيّأ لتلقي درجة أعلى من السخونة، أخذوني إلى غرفة رخامية، رطبة زلقة، مليئة بالبخار، وأرقدوني فوق مسطح مرتفع عن الأرض في المنتصف. كان جوّ الغرفة شديد

الدّفء. أجلسني المكلف بي في الحال بجوار خزّان من الماء السّاخن، وغمرني تماما بالماء، وضع في يده قفّازا خشنا، وبدأ يحكّ به كلّ أجزاء جسدي. وبدأت من جهتي أشتمّ رائحة منفّرة. كلّما زاد الحكّ ازدادت الرّائحة سوءا، وكان ذلك نذير بسوء، قلت له:

«أدرك أنّ من الخير لي أن أرحل، وأرى ضرورة دفني في التوّ واللّحظة، ودون أدنى تردّد. وربما يكون خيرا لك أن تتحوّل إلى أصدقائي، فالطّقس هنا جدّ ساخن، ولا يمكنني مواصلة ذلك بعد. واصل الرّجل الحكحكة ولم يلق بالا إليّ. سرعان ما أدركت، أنّ حجمي آخذ في التّضاؤل. زادت وطأة قفّازه الخشن، ومن تحته بدأت مع الحكحكة تتبلور أجسام أسطوانية دقيقة، أشبه بالمكرونة. حدّثت نفسي بأنه يستحيل أن يكون ذلك وسخا، فقد كان ناصع البياض، وظل الكحت مستمرا على هذا النّحو لوقت طويل». فقلت في نهاية المطاف:

« هذا أمر جالب للملل، وقد يستغرق حكيّ بهذه الطريقة وقتا طويلا، حتى أبلغ الحجم الذّي تريد، فامض واستعر لك فأرة نجّار، وأنا هنا من المنتظرين. لم يلتفت قطّ إلى ما قلته.

أحضر بعد وهلة، حوضا وصابونة وشيئا بدا لي كذيل حصان. أرغي قدرا هائلا من رغوة الصّابون، وغمرني به من رأسي حتّى قدميّ، دون أن ينبّهني إلى أن أغلق عينيّ، ثم مسح جسدي بذيل الحصان هذا بشيء من الضّراوة. تركني هناك تمثالا من رغوة بيضاء ثلجيّة، ومضى إلى حال سبيله. حين مللت الانتظار، تركت المكان ومضيت أبحث عنه، فوجدته مستندا إلى جدار، في غرفة أخرى، وقد خلد إلى سبات عميق. أيقظته فبدا مرتبكا، وعاد بي إلى هناك، وغمرني بالماء السّاخن، ثمّ ربط رأسي بعمامة. لفّني في مفارش مائدة جافة، وأوصلني إلى خمّ بضلفتين، يقع في أحد الأروقة. وأشار إلى سرير آركنساسيّ (نسبة إلى ولاية أركنساس). اعتليت الفراش، ووردني مجددا هاجس أريج الطيب الآرابيّ الفوّاح، لكنّه لم يفح. خلا هذا الخمّ الأجرد من كلّ ما يوحي إلى شبق الشّرق، الذى كثيرا ما قرأنا عنه في الكتب. بل كان أقرب إلى الإيحاء بمستشفى إقليميّ منه إلى أيّ شيء آخر.

جاء الخادم النّاحل بالنّارجيلة مجدّدا فطلبت منه العودة بها إلى حيث جاء، دون أن يبدّد ثمين وقته في الجدل. جاء بعدها بالقهوة التّركيّة عالميّة الصّيت، تلك التي أسرف في إطنابها الشّعراء جيلا وراء جيل. تعلّقت بها كحلم أخير باق من ترف الشّرق، فكانت خدعة تضاف إلى سابقاتها. كوب صغير الحجم، مليء بالرّواسب، وقهوة سوداء، كريهة

الرّائحة، سيّئة المذاق. استقرّت بعمق نصف بوصة أسفل الكوب رواسب عكرة. ينزلق كلّ هذا إلى حلقك، وتستقر أجزاء منه في الطريق، ما يجلب لك إحساسا بوخز خفيف، يعقبه نباح وسعال لساعة زمن. تنتهي تجربتي مع الحمّام التركي الشّهير عند هذا الحدّ، وبها أيضا ينتهي حلمي بنعيم في مراتب الخلود، التّي لا بدّ من أن تعبرها إليه. هذه خدعة كبرى، ومن يستمتع بها، يصبح مؤهلا للاستمتاع بما يقذي العين والمشاعر. ومن يقوى على تزويقها بالزخرف الشّعري، لقادر على أن يفعل مع أيّ شيء، ما فعله في عالم ممّل نفسه، ويفعل الشّيء ذاته بعالم باعث على الملل والضعة والكآبة والانحلال.

الفصل الخامس والثّلاثون

تركنا اثنا عشر من رّكاب السفينة في القسطنطينية، وأبحرنا عبر البسفور الجميل، وخضنا داخل البحر الأسود. تركناهم في عهدة الدّليل التركي الشهير «موسى فاراواي»، الذى يمكنه إغراؤهم بشراء سفينة عثمانية محمّلة بالورود، والثّياب التّركيّة البديعة، وكلّ ما لا يمكنهم الاستفادة به من أشياء تحمل على الغرابة. ورد في كتب «موري» الهابطة، اسم «موسى فاراواي»، هكذا انتحل الدّليل اللقب. كانت يسعد كلّ يوم بحقيقة أنّه شخصية معترف بشهرتها. لم نستطع رغم ذلك أن نبدّل عاداتنا القديمة، لإرضاء نزعات الأدلاّء الغريبة ولا يمكننا إظهار محاباتهم. بعد أن اعتدناها. لقبناه بفيرجوسون، وتجاهلنا لقبه المدويّ وصيته الّذي يزهو به، وذلك ما كنّا نفعله تحديدا مع من سبقه من الأدلاّء. أصابه ذلك بغضب دفين. أغلب الوقت، رغم أننا لم نكن نقصد به إساءة. بعد أن تأنق، دون أن يلتفت إلى الأعباء المالية. في بنطال فضفاض، ينم عن سقم في الذّوق، وخفاف مخرّمة صفراء، وطربوش أحمر قان، وسترة حريريّة زرقاء، وحزام ضخم من الطراز الفارسي الغريب، لفّ به خصره، وعبأه بمدفعية مسدسّات مطهمة بالفضة يستخدمها رعاة البقر، وتمنطق بسيف رهيب معقوف، وحيد الحدّ، اعتبر لقب فيرجوسون، إهانة له لا تغتفر. أسقط في أيدينا لأن من سبقه لدينا من الأدلاّء قد حملوا الاسم نفسه، والسبب أننا لا نستطيع التعاطي وأسمائهم الأصليّة.

يمكن وصف مدينة سيباستوبول بأنها أقبح مدينة روسيّة، ولكن حري بنا تقبّلها على صورتها هذه، لأنّنا لم نستقبل بحفاوة في أيّ مدينة أخرى كما استقبلنا فيها، ولأننا أحسسنا بأننا لمجرد حملنا الجنسيّة الأمريكية، حصلنا على جوازاتنا وعليها تأشيرات الدّخول. وبمجرّد إلقائنا المرساة، بعث محافظ المدينة بأحد المسئولين إلى السّفينة للاستفسار عن تقديم أية مساعدة لنا، وأنه يدعونا إلى أن نتصرف بكلّ أريحيّة في سيباستوبول، كأننا في وطننا! لو أنك تعرف روسيا، تدرك أنّ هذا امتدادا بالغا للحفاوة. إنهم عادة ما يتوجّسون

من الغرباء، ويبالغون في إثارتهم بتأخير إجراءات الدّخول. من خلال روتين معقّد في الحصول على التأشيرات. ولو كنا نحمل جنسية أخرى. لتعذّر منحنا تصريحا بدخول سيباستوبول، ولغادرناها خلال أيّام ثلاثة.

لكن حدث أن كان لنا حرية التجوّل في المدينة كيفما شئنا. حذّرنا الجميع ونحن في القسطنطينية، بالحرص التام على جوازات السّفر، ومراجعة ما بها من بيانات، وألاّ نغفل عنها لحظة واحدة. وذكروا لنا أمثلة كثيرة عمّن تخلفوا من إنجليز وآخرين في سيباستوبول، بسبب أخطاء بسيطة، لا قبل لهم بها في جوازات سفرهم. فقدت جواز سفري، وكنت أستخدم جواز شريكي في الغرفة، بعد أن بقي في القسطنطينية حتّى أعود. يستطيع أي شخص بسهولة، بمطابقة الأوصاف الواردة في جواز سفره، بملامحي، أن يلحظ شبهي بهيركوليس، بقدر اختلافي وصاحبي في الشّبه. لذا توجّهت إلى مرفا سيباستوبول والرعب والخشية يستحوذان عليّ. وإحساسي بانكشاف أمري ولا محالة، ثم إعدامي بحبل المشنقة.

لكن جواز سفري الحقيقيّ آنئذ كان يرفرف في العلا شامخا، ذلك هو علم بلادنا وليس سواه، حيث لم يسألونا عن شيء سواه.

حضر إلى السفينة اليوم، عدد من السّادة والسيّدات الإنجليز والرّوس، وأمضينا الوقت معهم في حبور وسرور. كانوا يتمتعون جميعا بروح المرح. لم أسمع من قبل ترديدا للغتنا الأمّ بهذا القدر من الرّوعة، كما سمعته يخرج من شفاه أولئك الإنجليز. في هذا الوطن البعيد. تحدّثت إلى الرّوس كثيرا، كي أنال ودّهم فحسب، وتحدّثوا إليّ بالدّافع نفسه، وإنا على يقين من أن الحوارين كانا ممتعين، مع أنّ أيّا منّا لم يفهم كلمة واحدة مما قيل. ورغم ذلك كان أغلب حديثي موجّها للإنجليز. وإنني حزين لعدم تمكننا من اسطحابهم. لم يسألنا أحد عن حمل جوازات من عدمه.

اقترح علينا بعض مسئولي الحكومة، الإبحار إلى أحد المنتجعات المطلة على البحر، ويبعد ثلاثين ميلا، ولقاء الإمبراطور الروسي، الذى. يقضي عطلة يستجمّ فيها في الرّيف. وذكروا أنّهم سيعتبرون قبولنا تأكيدا لما أظهروه نحونا من حفاوة. كما ذكروا أننا لو وافقنا على الذهاب، فلن يبرقوا بذلك إلى الإمبراطور فحسب بل سيبعثوا برّا بموفد خاصّ

ليعلن عن قدومنا. لم يكن الوقت يسمح بذلك، بخاصّة أن وقودنا قد قارب على النّفاذ، لذا قرّرنا أن الأفضل لنا التراجع عن تحقيق متعة غالية، وهي لقاء ودّي مع إمبراطور.

يعدّ ما شاهدناه من بومبي المهّدمة، طيّبا لو قورن بسيباستوبول. يمكنك أن توجّه نظرك حيث شئت فلن تري سوى خرائب، ثمّ خرائب! بيوت محطمة، وجدران مهدّمة، وتلال مثلّمة، مليئة بالصّدوع، ودمار في كلّ مكان! ويبدو المشهد وكأنّ زلزالا قد أتى بقوّته الرهيبة، على كلّ شيء في هذه البقعة الصغيرة. على مدار ثمانية عشر شهرا كاملة، وعواصف الحرب تضرب هذه البلدة العزلاء، وتتركها في النّهاية كأسوأ ما طلعت عليه شمس. لم يفلت بيت واحد من ضرر لحق به، وما عاد حتى يصلح للسكنى بعد. يعجز المرء عن استيعاب مثل هذا الدّمار الشّامل والتام. كانت البيوت تحتفظ بصلابة تراصّ بنيتها الحجرية، حيث دمّر أغلبها بقذائف المدافع الواحد بعد الآخر، وسوي بالأرض، (انهارت أسقفها، من الطّنف حتّى الأساس) ويقف الآن صفّ منها، بطول نصف الميل، يقارب في الشّبه سلسلة لا تنتهي من المداخن المعطوبة. ولم يتبقّ منها شيء يخالف ذلك في الشبه. دمّرت بعض البيوت الكبيرة ذات الواجهتين، شقّت ركائزها إلى نصفين، وسحقت أفاريزها، وفتحت عبر جدرانها فوهات. استدار كثير من هذه الفوّهات بدّقة كبيرة، كأن ذلك من صنع عرّاف. شقّت الأخرىات لمسافة في الدّاخل، ولا يزال أثرها ظاهرا في الحجارة، حتّى إنّه كان من الملاسة والدّقة يبدو وكأنه ملس بالمونة. لا تزال قذيفة هنا أو هناك تلتصق بجدار، وتسقط منها العبرات الحديدية، فتمحو لون الحجارة.

كانت ساحات المعارك متاخمة بعضها بعضًا. حيث يقع حصن مالاكوف على أطراف المدينة الشّرقية. كان الرّيدان (حصن ذو جدارين بزاوية بارزة)، ويقع على مرمي قذائف المالاكوف من أحد جانبيه. وكان انكرمان (حصن أيضا) على بعد ميل منهما، وكانت مسافة البالاكلافا بعيدة، تقطع في ساعة ركوب. قذفت الخنادق الفرنسية من اقتربوا منها، وطوّقت المالاكوف، وكان القذف على المناطق السّفلية المنحدرة، لدرجة تمكن أيّ شخص من الوصول إلى المدافع الرّوسية رأسا، وإلقائها بحجر. تكرر تجمعهم فوق هضبة مالاكوف الصغيرة، ثلاثة أيّام رهيبة، فردّوا عليهم الكرة، بمذبحة شنيعة. استولوا أخيرا على الموقع، وطردوا منه الرّوس، الذين تقهقروا إلى داخل المدينة، لكنّ الإنجليز، استولوا على حصن الرّيدان وردوهم عنه بسور من اللّهب. ولم يكن أمام الروس خيار سوى إعادة الكرة،

واسترداد المالاكوف، أو الموت تحت المدافع. عاودوا الكرّة بالفعل واستولوا على المالاكوف، واستردوه مرتين أو ثلاث، لكن انهيار مقاومتهم حال بينهم وبين تحقيق النّصر. وكان عليهم الاستسلام في النّهاية.

تنعم الآن بالسكينة هذه السّاحات الكبيرة، التي اعتادت هبوب عواصف الدمار، ولا يكاد يسمع فيها صوت بشر، ولا تخيّم عليها سوى الوحشة والصّمت والعزلة التّامّة.

ذهب الكلّ إلى هناك لقنص الآثار القديمة، فليس ثمة ما يمارس سواه. عادوا بالغنائم إلى السفينة قادمين من المالاكوف، والرّيدان والإنكرمان، والبالاكلافا، ومن كلّ الأرجاء، وجاءوا أيضا بقذائف مدفع، وبقضبان تنظيفه، وشظايا القذائف، وفيها من الحديد ما يملأ حمولة مركب شراعيّة. ووصل الأمر إلى أن أتى البعض بعظام معه، بعد أن بذلوا مشقّة في إحضارها من مسافات نائية، واغتموا غمّا شديدا لدى سماعهم الجرّاح يصرّح بأنها ليست سوى عظام بغال وثيران. أعلم أنّ بلاشر لن يفوّت فرصة كتلك، فقد جاء بسلّة تركها على ظهر السفينة، وذهب ليملأ أخرى، أقنعته بعد إلحاح بعدم الذّهاب. لقد حوّل غرفته بالفعل إلى متحف للتوافه، وذلك ما جمعه، طوال ترحاله، وهو الآن يصنف غنائمه. التقطت إحداها بعد وهلة ووجدتها مصنّفة تحت عبارة «شقفة من جنرال روسيّ» قرّبتها من الضّوء أكثر، فلم أر سوى سنتين، وجزءا من عظمة فكّ فرس. قلت محتدّا: «شظية من جنرال روسيّ، أيّ هراء هذا، ألا تعمل عقلك البتّة ؟».

لم ينطق بشيء سوى. «رويدك، فالعجوز لا تميز الفرق بينها». (خالته العجوز).

يجمع هذا الشخص الآثار بعشوائية، ويخلطها بينها، ويصنّفها في سريّة تامّة، دون أية مرجعية يعتد بها، أو تصريح أو حتى مصداقية. رأيته يكسر حجرا إلى قطعتين، ويصنّف أحداهما بالعبارة التالية «شظية من مقبرة آبيلارد وهلويز».

كنت على علم بأنّه يجمع حصيات من الطريق، ويجيء بها إلى السفينة، ويصنفها على أنه جاء به من عشرين موقعا أثريّا، من مسافة خمسمائة ميل. أقف بالطبع ضدّ التعدي على الحقوق، لكن ذلك وحده لن يأتي بنتيجة. وكان لديّ في كلّ مرّة ردا هادئا مفحما .

«إنني لا أبالي. فالعجوز لا تميّز الفرق بينها».

إذا كان قد صادفنا نحن الثّلاثة أو الأربعة حسن الطالع بزيارة أثينا. كان يرضيه عن طيب خاطر، أهداء كلَ من في السفينة من الركاب، حصاة من المكان الذى بشّر فيه القديس بولس على تلّة مارس .

والحقيقة أنه جمع كل هذه الحصيات من الشاطئ أمام السفينة رأسا، لكنه يزعم تلقيها من أحدنا. وبما أن كشفي للخدعة لن يفيد في شيء، كان ذلك يرضيه، طالما لن يضار أحد. يذكر أنّه لا يتوقّع أن يخلو وفاضه من آثار للقديس بولس، طالما وقف على ركام تلّة. حسنا، إنه ليس بأسوأ من آخرين. أرقبهم يكملون عجز مجموعاتهم الأثرية. بمجموعات أخرى، من الفصيل نفسه. لذا فإنني لن أثق مجدّدا بأمور كتلك ما حييت.

الفصل السّادس والثّلاثون

هكذا وصلنا الآن إلى الشّرق الأقصى، بقدر مائة وخمسة وخمسين درجة على خطّ الطّول من سان فرانسيسكو، حتّى إنّ ساعتي فقدت القدرة على مجاراة فارق التّوقيت. أصيبت الساعة بإحباط وتوقّفت من ثم. أظنها فعلت الصّواب، لأنّ فارق التوقيت بين سيباستوبول والسّاحل الباسيفيكي كبير جدًا. حين تدق الخامسة صباحا هنا، يقارب هذا مضيّ أسبوع كامل قبل الانتهاء في كاليفورنيا. فلنا كلّ العذر في ارتباكنا قليلا وفارق التّوقيت. تسبب هذا الخلط والارتباك في الوقت، في قلقي حتّى خشيت أن يظهر عقلي كثيرا من عدم الاهتمام بالوقت. لكنّي حين لاحظت سهولة إلمامي بحلول موعد الغداء، غشيتني سكينة مباركة، وزالت عنّي الهواجس والوساوس.

تقطع المسافة من سيباستوبول إلى أوديسا في عشرين ساعة، ويقع ميناء أوديسا في أقصى الشّمال من البحر الأسود، وقد اتجهنا إليه للتزوّد بالوقود. يقدّر عدد السّكان هناك بمائة وثلاثة وثلاثين ألف نسمة، ويزيد تعدادهم كثيرا على تعداد أيّة مدينة أخرى صغيرة في أمريكا. يعتبر أوديسا ميناء حرّا، ويعتبر أيضا سوقا كبيرة للحبوب، سيّما في هذا الجزء من العالم. تحتشد السّفن على مكلأه، حيث يباشر المهندسون العمل فيه الآن لتحويل المكلأ المفتوح إلى مرفأ اصطناعي فسيح. يكاد يطوّق كلّه بأرصفة حجريّة ضخمة، سيمتدّ أحدها داخل البحر، في خط مستقيم لمسافة ثلاثة آلاف قدم.

لم أشعر في الغالب ولوقت طويل، بأنني في الوطن، إلاّ حين صعدت التلّة ووقفت في أوديسا للمرّة الأولى. إنّه يشبه كثيرا مدينة أمريكية، بشوارعه الفسيحة الممهدة، والطّولية، والدّور الخفيضة التي لا تزيد على طابقين أو ثلاثة، والتي تتسم بالتناسق والسّعة، وتخلو من الزخارف المعمارية يحدّ جنباتها أشجار الخرنوب. (ويسمونها هنا الأكاسيا) وتضجّ شوارعها بالنشاط التجاري والحركة والمتاجر، والمارة المهرولين، وهناك ألفة من نوع جديد

تحيط بالبيوت، وسحابة متحرّكة خانقة من الغبار، كانت أشبه برسالة من وطننا الحبيب، بأنه يصعب علينا الإحجام عن ذرف بعض دموع الشّكر، وأن نكفّ من لعن أسلوب الماضي المشرف للحياة الأمريكية. لم نر سوى أمريكا، ونحن نرنو إلى أول الشارع وآخره، وإلى هذا الطّريق أو ذاك.

ليس ثمّة ما يذكّر بأننا في روسيّا. سرنا لمسافة قصيرة، لننعم بصورة الوطن هذه، مررنا بكنيسة، وحوذيّ، وسمعنا رتم لحن سريع! وتلاشت الصورة المتخيلة! للكنيسة قبةٌ مستدقة ضئيلة الحجم، ومستديرة من الدّاخل عند القاعدة، قاربت في الشبه ثمرة فجل مقلوبة. بدا الحوذيّ متأنقا في تنّورة طويلة، بغير كشكشة مستديرة من أسفل. هذه كلها أشياء غريبة، لم نألفها الكلية، وكذا كانت عربات الجياد، وهـذه يعـرفها الجميع جيدا، ولا داعي لوصفها.

راجعنا كتب الرّحلات لبقائنا هنا يوما وليلة، للتزوّد بالوقود. سررنا لعلمنا أن أوديسا خالية من معالم تستحقّ الزيارة، وبقي أن نستمتع بيوم عطلة خال من المكدّرات، ولم يكن ثمّة ما نفعله سوى التسكّع حول المدينة، وإمتاع أنفسنا. تلكّأنا بالأسواق، وتندرنا بما يلبس أهل الريف من ثياب غريبة، وتمعنا قدر ما وسع أنظارنا في أهل البلاد، واختتمنا اللذة بغواية الآيس كريم. لم نكن نتعاطى الآيس كريم في كلّ مكان، لذا فإننا إذ تعاطيناه فقد غلونا في الفسق. لم نكن في بلادنا نلتفت إلى الآيس كريم، لكننا نعتبره شيئا من الوثنية الآن، لأنه نادر جدا في أجواء الشرق الحارة هذه.

عثرنا على قطعتين من التماثيل فحسب، وهذه كانت نعمة أخرى، كانت إحداها من البرونز وتمثل الدوق دي ريشيللو، حفيد شقيق الكاردينال العظيم. أقيم في أحد المنتزهات الجميلة والفسيحة المطلة على البحر، والذى تنتهي قاعدته عند المرفأ، بعدد كبير من سلم حجري يبلغ مائتي درجة، طوله خمسين قدما، يتسع عرضه تدريجيا بعد كل عشرين درجة حتى القاعدة. بدا الدرج رائعا بصورته على الطبيعة، ولكنه تضاءل من مسافة بعيدة وصار كالحشرات. أذكر هذا التمثال وذلك الدرج، لأن وراءهما قصة. أسس ريشيليو أوديسا الميناء، ورعّاه رعاية الأب لابنه، بذل له من عقله الخصب، وإدراكه الحكيم، ما يحقق أهدافه الكبرى، وأنفق عن طيب خاطر ثروته لتحقيق النتيجة ذاتها، وحقق في مسعاه نجاحا ما كان يمكن أن يتحقق في إحدى المدن الكبيرة في العالم القديم، وأقام هذا الدرج الرّائع من أمواله

الخاصة. وتركه أولئك الذين بذل من أجلهم الكثير، يسير على هذا الدرج نفسه ذات يوم شيخا فقيرا معدما، دون سترة تحمى ظهره. قضى نحبه في سباستوبول بعد مرور السنين بين فاقة ونكران. عقدوا لدى وفاته اجتماعا، وتبرعوا بسخاء، وأقاموا على الفور إحياء لذكراه نصبا تذكاريًا، بديعا، وأطلقوا اسمه على شارع كبير. يذكرني ذلك بمقولة أمّ روبرت بيرنز، حين أقاموا هذا النصب المهيب، إحياء لذكري ابنها :

«آه، يا روبي، لطالما سألتهم الخبز، وها هم يهبوك نصبا».

نصحنا أهل أوديسا بقبول دعوة الإمبراطور والذّهاب للقائه. كما أبرق أهل سباستوبول إلى جلالته فأشار برغبته في إعداد استقبال حافل لنا. وكان علينا رفع المرساة، والإبحار إلى منتجع الإمبراطور البحري. أيّ ارتباك هذا الذّي بسبيلنا إلى الوقوع! وأيّة اجتماعات مهمة بسبيلها للانعقاد، لاختيار أعضاء موقّرين لعقد اللجان! وأيّ إعداد للسترات الرّسميّة، وأربطة العنق الحريريّة البيضاء! يبادرني شعور بينما نشرف على مواجهة تلك المحنة الرّهيبة، التي نوشك على مواجهتها، والتي تجسد في مخيلتي معالم تلك الشخصية السامية الكبيرة، يبادرني شعور بأن رغبتي القوية في محاورة إمبراطور حقيقيّ قد بدأت تتراجع وتذهب أدراج الرّياح. فكيف أتصرف بيديّ؟ وكيف أتصرف بقدميّ؟ وماذا عساي فاعل بنفسي؟

الفصل السّابع والثّلاثون

رست السّفينة في يالتا الرّوسيّة، منذ يومين أو ثلاثة. بدا المكان في نظري أشبه بسلسلة جبلية قممها مثلّثة. تعج الجبال الرّمادية العالية، الواقعة خلفها بأشجار الصّنوبر وشقت بالوهاد، وتظهر في المشهد هنا أو هناك صخرة ضخمة، وتهبط من القمّة إلى البحر، أشرطة طويلة مستقيمة، تشير إلى ممر أحدثه انهيار حدث في أزمنة قديمة، وهذه كلّها أقرب للشبه بما يراه المرء في السلاسل الجبلية، وكأن إحداهما صورة من الأخرى. تحتضن قاعدة أحد المدرجات الجبليّة، قرية يالتا الصّغيرة، ينحدر إلى الخلف، ويرقي جدار التلال، ويبدو كأنه كان يجب أن يهبط في هدوء إلى موقعه الحالي، من مكان أكثر ارتفاعا. غطت هذا المنخفض بساتين شاسعة وحدائق للنبلاء، وتبرز عبر مساحة هائلة من الخضرة اليانعة، ألوان زاهية لمجموعة من قصورهم تنتشر هنا أو هناك كالورود، ويا له من مكان بديع.

كان بصحبتنا في السّفينة قنصل الولايات المتّحدة، قنصل أوديسا. تجمّعنا في الكابينة، وطلبنا أن يخبرنا بالواجب عمله كي نسلك خلال الزيارة المسلك الصحيح، وسألناه أن يفيدنا في ذلك على وجه السّرعة. ألقى خطبة. كان أول ما بادر نا، هبط كدنس على كل نفس متأملة في الخير، وذكر أنّه لم ير استقبالا رسميًا يعدّ لنا (ثلاث همهما. استنكار ردا على القنصل). لكنه أبلغنا برؤيته استقبالات تعدّ في مقرّ الجنرال المحافظ في أوديسا، وأنه قد سمع ذلك من لهم خبرة بالاستقبالات في البلاط الروسيّ وفي قاعات أخرى. وذكر أنّه على دراية بالمحنة التي نحن بسبيل مواجهتها (عاودت الظهور بارقة أمل). ذكر أنّ عددنا كبير، وأن حجم القصر الصيفيّ صغير، مجرد مبني واحد، ولا شكّ أن استقبالنا في الحديقة سيكون بلباس الصّيف، وأننا سنصطف صفًا واحدا، السّادة جميعا في سترات الفراك (طويلة الذيل)، وفي قفّازات بيضاء، وأربطة عنق بيضاء، أماّ السيّدات فسيرفلن في حرير زاهي اللّون، أو شيء من هذا القبيل، وسيحضر الإمبراطور في الثانية عشر ظهرا، ومعه بطانته في أبهي الثّياب، فيظهر هو من بينهم ويسير وئيدا، أمام الصّف وينحني للبعض، ويحدث البعض

بكلمتين أو ثلاث. يجب عند ظهور جلالته، أن تفترّ أفواه ركاب السفينة عن ابتسامة حارّة، ملؤها البهجة والشّمول، وكأنها طفح جلديّ. ابتسامة فيها حبّ وامتنان، وإعجاب وحري بالمجموعة في آن واحد أن تبادر بالانحناء، لا من مذلّة وخنوع بل تأدبا واحتراما، سيدخل بعد الإمبراطور مقرّه بعد خمس عشرة قيقة، ويمكننا بذلك العودة مجددا إلى البيت. شعرنا براحة تامّة، وبدالنا الأمر جدّ يسيرا. ليس فرد في المجموعة، إلاّ اعتقد أنه يمكنه من خلال تدريب بسيط، الانتظام في صفّ، لا سيما أن آخرين ينتظمونه، وليس من بيننا إلاّ وظنّ أن باستطاعته الانحناء دون أن يتعثر في نيل سترته فيكسر عنقه، وتوصلنا في عبارة واحدة إلى الاعتقاد، بأننا قد تماهينا مع كلّ شروط الأداء، باستثناء تلك الابتسامة المعقدّة. قال القنصل أيضا إنه حريّ بنا إعداد رسالة قصيرة للإمبراطور، وتقديمها لأحد مساعديه الرسّميين، ليقدمها بدوره إليه في الوقت المناسب. لذا تقرر إسناد مهمة إعداد الرسالة إلى خمسة من السّادة. في حين كان خمسون آخرون في كافة أرجاء السفينة يجربون الابتسامة وقد مضّهم الأسى. كان مظهرنا العام خلال الاثنتي عشرة ساعة السّابقة على اللّقاء أشبه بحضور جنازة. كلّ من فيها حزين بسبب الوفاة. لكنّه مسرور بانقضائها، حيث كان الكلّ مبتسمون. وكاسفي الفؤاد في آن.

اتجهت إحدى اللّجان إلى الشّاطئ لترقّب حضرة صاحب المقام الرفيع، الجنرال محافظ المدينة، لنعرف منه مصيرنا. وبعد ساعات ثلاث من الترقب القلق، عاد أفراد اللجنة، وأخبرونا، بأنّ الإمبراطور سيقابلنا عند ظهيرة اليوم التّالي، وسيرسل إلينا عرباته، وسيستمع شخصيًا إلى مضمون الرسالة الموجهة إليه. أرسل الدّوق ميشيل بدوره، في دعوتنا إلى قصره. يستطيع أيّ شخص هنا أن يلحظ اتجّاها عامًا يدور في هذا السّياق. مفاده أنّ الصّداقة التي تبديها روسيا تجاه أمريكا، صداقة حقيقيّة، وصلت إلى الحدّ الذى يجعل من مواطنيها العابين، أفرادا جديرين بما أحيطوا به من رعاية واهتمام.

قطعنا في الوقت المحدّد ثلاثة أميال على الطّريق. وتجمّعنا في الحديقة الجميلة المواجهة لقصر الإمبراطور.

شكّلنا حلقة تحت الأشجار أمام الباب، لأنه لم يكن هناك متّسع في البيت، وليسع ثلاثين شخصا بسهولة، وبعد خمس دقائق، خرجت العائلة الإمبراطوريّة، توزّع الابتسامات والانحناءات، ووقفوا بيننا. ظهر من بينهم عدد من الشّخصّيات المرموقة في الإمبراطوريّة، في لباسهم العاديّ. ردد جلالته، مع كلّ انحناءة، كلمة ترحيب. أكرر هنا هذه الكلمات بحذافيرها. لأنها تحمل في طياتها تميّز الشّخصية الروسيّة، التي تعني الكياسة، والأصالة بمعناها الحقيقيّ.

يتمتع الفرنسيون بالأدب، ولكن أدب المناسبات فحسب. تصطبغ مناحي الأدب لدى الرّوس، بصبغة التّوادّ، فتشمل التعبير باللسان والإشارة، ما يجبر المرء على تصديق ما يحملان من صدق. وكما ذكرت بشأن العبارات التي سجلتها كما وردت، حيث كان الإمبراطور يقطع حديثه بين فينة وأخرى يقطع، ليقول بانحناءة :

«صباح الخير، إنني مسرور لرؤيتك، وممتنّ لك، ومغتبط وسعيد بلقائك».

رفع الجميع قبّعاتهم، وتوجّه إلى الأمبراطور بالرسالة. حملها بثبات يحسد عليه، فتناولها الإمبراطور بهيئتها الزريّة، وأعطاها لأحد كبار مرافقيه، لتوضع ضمن المحفوظات الروسيّة في الفرن. شكرنا بسبب الرسالة، وذكر أنّه جد ممتنّ للقائنا، بخاصّة في ظلّ العلاقات الوديّة التي تربط بين روسيا والولايات المتحدة. قالت الإمبراطورة إنّ الأمريكيين مرحب بهم في روسيا، وتمنت أن يلقى الرّوس ذات المعاملة في أمريكا. ذلك ما قيل من حديث، وإنني أوصي به أفرادا يهدون رجال الشرطة بساعات ذهبيّة، كقدوة يحتذى بها في الإيجاز في الحديث، والإلماح. استرسلت الإمبراطورة بعد ذلك في الحديث الودي (بعتبارها إمبراطورة) إلى العديد من السيّدات، اللائي تحلّقن حولها، ودخل عديد من السّادة في حوار عام، ينقطع للتحدث إلى الإمبراطور والدوق والأمراء والأدميرالات، بين لحظة وأخرى. اندمجت وصيفات الشرف من غير تكلّف مع فرد من مجموعتنا أو آخر، وكان منّا من تقدّم وتحدّث إلى ابنة القيصر الجراندوقة الصّغيرة ماري، بتواضعها الجمّ. تبلغ الرّابعة عشر من عمرها، تتميز بشعر لامع، وعينين زرقاوين، وتواضع والملاحة. يتحدث الجميع الإنجليزية.

اعتمر الإمبراطور قلنسوة ولبس سترة بحرية، وبنطالا، وكلها من نسيج الدّريل (القطني أو الكتّاني) الأبيض الناصع. ولم يظهر في حليّ نفيسة أو نياشين أو شارات من أيّة

طبقة. لم تكن قطعة واحدة من ثيابه، تزيد أبهة عن أختها. كان الإمبراطور نحيفا مسرفا في الطول، تظهر عليه شارت العزيمة، رغم علامات الرّضا والبهجة الواضحة. يمكنك بسهولة إدراك رقّة حاشيته ولطفه، كما إنّ هناك ما ينم عن نبل محتده. لا تلمح في عينيه مكرا إذا خلع قلنسوته، وقد لاحظنا ذلك في لويس نابليون.

اكتست كل من الإمبراطورة والجراندوقة حللا بسيطة منقّطة بالأزرق، نسيجها من الحرير الطبيعي، أو حرير الفولار، ولا أدري أيهما الصحيح، مزخرفة بالأزرق، وتمنطقت السيّدتان بحزامين زرقاوين عريضين، ووضعتا ياقات، وأربطة عنق إكليريكية من الموسلين الأبيض، يلبسها رجال الدين، واعتمرتا قبّعتين، مقببتين من القشّ ومحفوفتين بالمخمل الأزرق، ولبستا قفّازين خفيفين بلون البشرة لوقاية الأيدي. خلا حذاء الجراندوقة من الكعبين. لم أطلّع على هذا بنفسي، لكنّ إحدى السيّدات المرافقات أخبرتني به. سرني أن ألحظ احتفاظها بجودة شعرها وحيويته. جدلته في خصلات سميكة مسدلة خلف ظهرها، بدلا من الطّريقة المقززّة التي يطلقون عليها «الشّلال» ولا تشبه الشلال في شيء، إلا إذا تطابق المأبض المغطي بقماش الكنفا والشّلال في الشبه. بالتركيز على ما يرتسم على وجه الإمبراطور من تعبيرات، وما يظهر من رقة على وجه الجراندوقة الشّابة. عجبت من ألا تصل صرامة الإمبراطور إلى ذروتها، بإيعاز من الجراندوقة الشّابة لتحدّ من حالة الاستكانة الشديدة حتى البؤس، تلك التي أدّت إلى ضياع صحاري سيبيريا، حال ناشدته. لاحظت في كلّ مرة التفت فيها نظراتهما، كثيرا مما يمكن أن تستخدمه هذه التلميذة الضعيفة، من قوّة طاغية، لو ابتغت ذلك. قد تتولّي لسنوات طوال حكم روسيا الاستبدادي، هذا الذى تصبح فيه أقلّ كلمة، قانونا يطبق على سبعين مليونا من البشر! تلك مجرّد فتاة، شأنها شأن كثيرات ممن التقيت بهن، ولكن ليس فيهن من حركت في داخلي مثل هذا الاهتمام القويّ والغريب من قبل. يندر أن ينتاب المرء، مثل هذا الإحساس الفريد والغريب في آن، الذى شعرت به هنا في حياة رتيبة كهذه. خلت تلك الأفكار والمشاعر من ابتذال أو ضعف، قد نشأ عن تلك الأحداث والمواقف. بدا غريبا بل أغرب مما تصورت، أن أفكّر، في الشخصية الأبرز ضمن جمع من الرّجال والنساء، يتبادلون الحوار هنا، تحت الأشجار، شأنهم شأن أغلب البشر العاديين في هذا البلد، إنها لرجل يمكن أن يحرك شفتيه فقط، فتنطلق السّفن، وتمخر عباب البحر، وتغشي الحركة العجلي السّهول، ويهرع الرّسل من قرية لأخرى،

وينشر الخبر عبر مئات من البرقيات، إلى أركان الإمبراطورية الأربع، تلك التي تهيمن مساحتها على القطاع السّابع من الكرة الأرضيّة المأهولة بالبشر، لأن هناك ما لا حصر لهم من البشر، متأهبّون لتنفيذ أوامره. لدىّ بعض رغبة، في تفحّص يديه، للتحقق من أنّها من لحم ودمّ، كبقية أيدي البشر. هنا رجل يمكنه أن يفعل ذلك الشيء العجيب، ولو كان الأمر بيدي الآن لطرحته أرضا. الأمر واضح وضوح الشّمس، لكن تبين رغم ذلك أنه يستحيل عليك أن تحطّم جبلا، أو تمحو قارة. فلو التوى كاحل هذا الرّجل، لحمل مليون ميل من البرقيات، ذلك الخبرعبر الجبال، والوديان والبوادي الجدب، وتحت البحر اللّجيّ ولثرثرت بالحدث عشرة آلاف صحيفة، ولو أصيب بمرض خطير، لعرفت أمم الأرض قبل أن يطلع صبح اليوم التّالي، ولو سقط في مكانه، وفارق الحياة، لهزّ سقوطه عروش نصف العالم! ولو أنني على سرقة معطفه، لفعلت. لأنني حين ألتقي برجل كهذا، فإنني أرغب فيما يذكرني بهذا الرّجل.

شاهدنا القصور عامة، بصحبة خادم أو نحو ذلك، بساقين مزركشين بثقوب رائعة، وطلب فرنكا لقاء مرافقته، وبعد تشاور مع الصحبة صار المقابل نصف فرنك في الساعة. اصطحبنا الإمبراطور بنفسه، ومعه أفراد عائلته داخل القصر الخاصّ، ولم يحصلوا على أيّ مقابل، بل بدا أنهما إنما يفعلان ذلك عن طيب خاطر.

قضينا نصف السّاعة نتسكّع داخل القصر، تشدّنا غرفه المترفة، بأثاثها الذى بدا أنه أشاع في المكان جوا من الألفة. وألقت علينا العائلة الإمبراطوريّة تحيّة وداع. وبدأت بعد ذلك تحصي الملاعق.

دعينا بعد ذلك لزيارة قصر الابن الأكبر، أي وليّ عهد روسيا، ذلك القصر المتاخم لقصر أبيه. كان الأمير الشاب غائبا عن القصر، لكن الدوق والكونتيسات والأمراء، اصطحبونا في زيارة المباني الملحقة بالقصر، وتلكّأنا من ثم كما حدث في قصر الإمبراطور، ودار الحوار بزخمه السّابق نفسه.

تخطّت السّاعة الواحدة بقليل، ركبنا إلى قصر الدّوق ميشيل الكبير، والذى يبعد ميلا، تلبية لدعوة، قدمت لنا في السّابق.

وصلنا. بعد عشرين دقيقة من مغادرة قصر الإمبراطور. كان القصر رائعا. تحتضن القصر غياض الحديقة الضَخمة القديمة، بينما تجلس الحديقة في كنف مشهد طبيعي آسر من التلال والجرف، ويطل الاثنان على المحيط الرطب. تضمّ الحديقة مقاعد قديمة، منتشرة هنا أو هناك، منعزلة في أركان بعيدة أحلكتها الظِّلال، حيث تتدفق المياه الصّافية في الجداول، وحيث مداخل البحيرة، بضفافها المعشبة الخلاّبة، وحيث يظهر ومض شلالات دافقة عبر فتحات في دغل من الخضرة الكثّة، وتندفع مياه الجداول الصافية من خلال ما يحاكي تشابك الأفرع فوق جذوع أشجار الغابة، كما ربضت معابد مرمرية مصغَرة، فوق جرف هارية قديمة، تقع عليها نقاط عالية للمراقبة، يمكن للمرء منها استشراف امتداد طبيعي فسيح لمنظر شامل.

صمّم القصر بأفضل الطّرز المعمارية اليونانية، حقّت صفوف أعمدته الضَخمة المحيطة بقاعته المركزية، بالأزهار النّادرة، ما عبّق المكان بأرىجها، وحيث تتوسط ينابيعها نافورة تلطّف من حرارة جوالصّيف، وربّما توالد البعوض بها، لكنّي لا أظنّ ذلك.

خرج الجراندوق، وزوجته الدوقة إلينا، ولم تختلف مراسم الاستقبال عن تلك التي لقيناها في قصر الإمبراطور، واستغرق الحوار في أثناء السير بضع دقائق كما حدث في السّابق. ظهرت الإمبراطورة في الشّرفة الكبيرة، كما بانت الجراندوقة الصّغيرة وسط الحشد. فحرنا بينهما. أتي الإمبراطور بعد دقائق، فوق جواده وكان المشهد رائعا، ويمكنك أن تدرك ذلك لو زرت من قبل قصرا ملكيا، إذا شعرت بأنك من وقت لآخر موضع ترحيب، مع اعتقادي بأنّ الملك لن يتردد بالمرة في طردك لو ضاق صدره بك.

يقترب عمر الجراندوق من السّابعة والثلاثين، وهو الأخ الأصغر للإمبراطور، والشّخصية الأنبل في روسيا، يزيد على القيصر في الطّول، وفي القامة يشبه هنديا، أما هو فيشبّه نفسه بفارس عظيم من الفرسان القدامى، الذّين قرأنا عنهم في قصص الحروب الصّليبية. ويبدو كذلك كشجاع اتسم بالكرم، إذا صرع عدوا في النهر، فإنه يقفز إليه في لحظة ويخاطر بحياته البحث عنه مجدّدا. تبرز الرّوايات التي يحكونها عنه، سمات الشجاعة والكرم فيه. وكان جديرا بذلك الحماس للتأكيد على أن الأمريكيين موضع حفاوة، في القصور الرّوسيّة الإمبراطوريّة. حيث التقانا الرجل على الطريق من يالتا، ورافق ركبنا

وأمر مساعديه بالهرولة هنا أو هناك لإفساح الطَريق وتقديم المساعدة لو تطلَب الأمر. كان تآلفنا به آنذاك أكثر، لأننا لم نكن نعرف هويته. أما الآن فقد عرفناه جيدا، وقدرنا فيه روح التوآدّ، التي جعلته يسدي لنا ما أسداه من خدمة، لا شك أن أيّ جراندوقا آخر كان سيتردد قبل تقديمها، لأن لديه من الخدم والمساعدين الكثير، وكان يمكنه أن يبعث إلينا بهم. لكنّه اختار أن يتحرىّ ذلك بنفسه.

ظهر الجراندوق في زيّ ضابط قوقازيّ أنيق. وظهرت الدّوقة في رداء من صوف اللاما الأبيض، مزّين بمثلثات ودرز حفت بشريط مشعّر أسود، وتعتمر قبّعة رماديّة صغيرة، مريّشة باللّون نفسه. تتسم بالحيوية والشباب والتواضع والبساطة، وتتمتع بأدب جمّ.

سار جمعنا في أرجاء القصر، ورافقهم النّبلاء، في جولات خارج القصر، وأعادوهم إلى القصر في الثانية والنّصف، لتناول طعام الإفطار، وقد أطلقوا كذلك عليه لكننا نعتبره غداء، تكوّن من نوعين من الخمر والشاي والجبن، وشرائح من اللّحم البارد، وقد قدّموه لنا على موائد وسط غرفة الاستقبال، وفي الشّرفات الخارجية، وفي أيّ مكان ملائم، حيث ألغيت المراسم. كانت تلك لنا بمثابة جولة للنزهة. كنا قد سمعنا من قبل أننا قد دعين التناول الإفطار هناك، لكن بلاشر ذكر أن الخبّاز الشّاب، هو الذى اقترح ذلك على صاحب السّمو الإمبراطوريّ. إنني أعتقد غير ذلك رغم أنّه من الممكن أن يقدم عليه. فالخبّاز الشّاب سبب مجاعتنا الأول على ظهر السفينة، ولا ينقطع عنه الجوع. يذكرون أنّه في أثناء غياب ركاب السفينة عن قمراتهم، كان يجول بينها، ويلتهم الصّابون كلّه ولبش الحبال القديمة، ويقولون إنّه يلتهم بين الوجبات الأساسية أيّ شيء، لكنه يفضّل الحبال. إنه لا يحبها على العشاء، بل وقت الغداء، وفي السّاعات الوتر، أو أيّ شيء على هذا النّحو. فهي تشعره بالانقباض، حيث يجد في التهامها صعوبة في التّنفس، وتبقي أسنانه ملتصقة بقطرانها. ربمّا كان الذى اقترح طعام الإفطار هو الخباز الفتي، لكنّي آمل ألاّ يكون قد فعل، وقد انتهت المسألة على خير على أية حال. تنقّل الحشد المرموق بين الأماكن وساهموا في سحق المؤن، وتنشيط الحوار، وتحدثوا إلى الجراندوقة في الشّرفة الكبيرة، وأرضوا شهيّتهم، وشردوا انطلاقا من غرفة الاستقبال.

كان الشاي الذى تناولناه في قصر الجراندوق لذيذا. قدّموا لنا معه ليمونة للعصر أو لبنا مثلّجا، أيهما يفضل الضيف، وكان الليمون هو المفضّل. ورد هذا الشّاي من بلاد الصّين البعيدة، ويفسده نقله بالبحر.

لمّا حـان وقـت الرّحـيل، ألقينا على مضيّفينا الكرام تحيّة وداع، فعادوا إلى غرفهم، في حبور وبشر، ليحصوا ملاعقهم.

قضينا الجزء الأكبر من نصف اليوم في القصر الإمبراطوري، ننعم بالبهجة والرّاحة طوال الوقت، وكأننا ما زلنا في السفينة. سرعان ما سيرد بخاطري، أنّ إحساسي بالبهجة وأنا أحتـضن إبراهيم يشبه شعوري بها في قصر إمبراطور. ظننت أنّ الأباطرة أناس يرهب جانبهم.

لا همّ لهم سوى وضع التّيجان الفخمة على رءوسهم، ولبس العباءات المخمليّة الأنيقة، بشذراتها المرقطة والمحاكة بالصّوف، ثمّ اعتلاء العروش، وتبكيت الخدم، والأتباع من المنزلة الأدنى، والأمـر بإعدام الدّوق والدّوقات. أرى رغم ذلك أنه لو حسن طالع المرء بوقوفه خلف الرّدهات، ورؤيته إيّاهم في البيت ويمارسون حياتهم الخاصّة، وسيعجب كونهم كبقية البشر. إنّهم يبدون في حينها أكثر بهجة من مظهرهم الاستعراضيّ. يبدو ارتداء الثياب والتصرف كالآخرين، أمرا طبيعيا لديهم، وكأنك وضعت قلم صديقك الرصاص في جيبك بعد أن مللت استخدامه. لا يمكنني بعد هذا كله الوثوق بملوك الزخرف والزينة والاستعراض بعد ذلك. فعاقبة ذلك حتما وخيمة. لقد اعتدت أن أدرك فيهم تلك البهجة المثيرة. سأجبر نفسي من الآن فصاعدا، على التزام الجدية وأردد :

«لن يفيد ذلك في شيء، فليس ذلك بطراز من عرفت من الملوك»، سيلح عليّ شعور بأن أتذكر، وهم يختالون حول المنصّة في تيجان مرصّعة بالجواهر ويرفلون في أردية رائعة، أن كلّ عرفت من الأباطرة من قبل بصفة شخصية، قد لبسوا ثيابا جد عادية، ولا يختالون على أحد. وحين يعتلون المنصّة، وقد رافقهم الحرس الخاص المصفّح بالخوذات ودروع الصّدر، وسيكون من واجبي ومبعث رضاي، إبلاغ الجاهل، أنّ أيا ممن أعرفهم، لا يرافقه جنديّ سواء في بيته، أو لحراسته.

يمكن أن يكـون قـد رأوا، أن جماعتنا قد أطالوا البقاء هنا، أو أنهم أقدموا على ما لا يتفق واللياقة، لكن الأمر لم يكن على هذه الصورة. فقد شعر الجميع بأنّهم في موقع المسئولية، وذلك على غير العادة، وأنهم أحسوا بأنّهم يمثّلون الشّعب الأمريكي، وليس الحكومة، لذلك كانوا حريصين على بذل ما وسعهم من جهد لأداء رسالتهم السّامية بأمانة.

لا شكّ من ناحية أخرى أن أفراد العائلات الإمبراطورية، قد أخذوا في حسبانهم أنهم ببثنا مشاعر الودّ، فإنما يقدّمون ذلك لأفراد من الشّعب الأمريكي، وليس لأصحاب المعالي الوزراء أو أصحاب المقام الرفيع، لذلك أعطوا الحدث بالغ الأهميّة، كتعبير عن إبداء صدق النّوايا، والمحبّة، نحو وطن برمّته. تلقينا ذلك على النّحو الّذي قصدوه تحديدا، وليس على أنّه موجّه لنا فحسب.

شعرنا بالزّهو، كوننا استقبلنا كممثّلين للأمّة، ولا ننكر شعورنا بالزهو بوطننا جراء ما استقبلنا به هنا من حفاوة، ليس في ذلك أدنى شكّ.

أحسّ شاعرنا بإحباط شديد، لحظة وصولنا إلى المرساة. حين أعلن عن زيارتنا للإمبراطور، تفجّرت الينابيع من مكنون أعماقه، فكان يمطرنا بما لا يوصف من ثغاء، على مدار أربع وعشرين ساعة. تحوّل قلقنا فيما يمكن أن نفعل إزاء هذه الورطة، إلى حيرة بشأن كيفية التصرف بشاعرنا. توصّلنا في النّهاية إلى حلّ. قدّم له حلاّن بديلان، كان عليه المفاضلة بينهما، فإمّا أن يقسم بأغلظ الأيمان، بأنه لن يقرض بيتا من شعره داخل مقار القيصر، أو أن يظلّ في السفينة، تحت الحراسة، حتى نعود سالمين إلى القسطنطينية. حاول طويلا حلّ المعضلة، لكنّه استسلم آخر الأمر، وكان قرارًا حكيمًا. ربّما ينزع القارئ اللفظ إلى التعرف على عينة من كتاباته. لا أقصد بذلك إساءة في العبيرات، فأنا أستخدم هذا التعبير الآن، لأن القــارئ الــرّقيق، قد اعتاد في الغالب أن أفعل ذلك من باب التجديد والفرفشة ليس إلاّ :

«أجرنا ونقّنا، وانظر في النهاية، من ثم،

تأمل ما ننعم به من آلاء، في أثناء ارتحالنا إلى أورشليم

هناك من يطرح أطروحات، هي الأمثل،

لن يترقب الزمن أحدا، ولن يترقبنا أيضا».

كان البحر طوال اليوم مضطربا على غير العادة، وحظينا منه رغم ذلك بالنشاط والحيوية. كان لدينا على السّفينة ثلّة من الضيوف الخفاف. وفد إلينا الجنرال المحافظ، وحييّناه بتسع طلقات. وكان يصطحب عائلته معه. لاحظت أنّ بساطا قد امتد لقدومه بدءا

من الرافدة الممتدة في البحر. حتى عربته كي يطأه بقدميه، مع أنني لاحظت أنه وهو يباشر مهامه، يسير على غير بسط. وظننت أن يكون لديه ما يطلق عليه المؤمّنون ضدّ الحوادث، بوليشة تأمين على حذائه ضد خطر داهم (الصحيح بوليصة وليس بوليشة. فتلك دعابة لا ترقى إلى مستوي متوسط الجودة)، وقد طلب بناء على ذلك حماية حذائه، ولكنّي تفحّصت حذاءه ولم ألحظ فيه سوادا فوق المعتاد. لعلّ ذلك لنسيانه البساط في المرّة السابقة، لكنه لم يصطحبه معه على أية حال.

أحبّه الجميع جميعا لا سيّما بلاشر، لأنّه كان كهلا يفيض بهجة وانطلاقا. دعاه بلاشر عند رحيله إلى تكرار الزّيارة، وجلب بساطه معه مجدّدا.

وفد إلى السفينة الأمير دولجوركي، والجراند أدميرال، أو الاثنان اللّذان كنا رأيناهما بالأمس في قاعة الاستقبال. كنت في البداية، أنأى بنفسي عن شخصيّات كتلك، لأنني حين أكون في زيارة الأباطرة، لا أميل إلى التقرب كثيرا إلى أناس لم أعرفهم إلاّ لمجرد صيتهم، ولا أقوى على التواصل مع مقوّماتهم السّلوكيّة، ومواقفهم الاجتماعية بالكلية. أرى أنّ من الأفضل أن أكون متحفّظا قليلا في البداية. قلت لنفسي إن الأمراء والكونتات والجراند أدميرالات أناس متميزون ولكنهم ليسوا أباطرة، ولا يمكن للمرء أن يتحفظ مع أقرانه.

أتى البارون رانجل أيضا. ظلّ يشغل منصب السفير الرّوسي في واشنطون، أخبرته عن عمّ لي، سقط منذ عام على عمود فتعرض لكسر. وهي قصّة اختلقتها لكنني كنت أنوي لحظتها، ألا أترك أحدا ينفوق في سرد عجائب المغامرات، وهي مجرّد رغبة في شيء من التجديد. كان البارون ممتازا، بمعنى أنه يتمتع بقدر كبير من ثقة الإمبراطور واحترامه.

أتى برفقة بقيّة الضّيوف، البارون أنجارن ستيرنبرج، وهو أحد النّبلاء الشّيوخ، المحبين للقصف والتعارف، ويعد رجل التقدّم والمشاريع الكبرى، وهو المثال المحتذى به في هذا العصر. كان أوّل مدير لإدارة السكة الحديدية الرّوسية، أي ما يقارب ملكا على خطوط الطّرق الحديدية. دفع في عهده بأمور كثيرة إلى التقدم، وسافر كثيرا إلى أمريكا. يقول إنّه قد سعى إلى تشغيل المذنبين، في الخطوط الحديدية، وحقق في ذلك نجاحا كبيرا، يذكر أن المساجين يعملون بجدّ، وأنهم أشخاص ودعاء مسالمون. صرّح بأنّه يشغّل منهم ما يقارب العشرة آلاف الآن. وبدا في هذا استدعاء آخر لدهائي، فأنا جاهز عند اللّزوم. حيث قلت له

إنّ لدينا ثمانين ألف مسجون، على رأس العمل في خطوط السّكة الحديدية الأمريكية، وكلهم مدانون بعقوبة الإعدام، لجرائم قتل من الدّرجة الأولى. فبهت الرّجل.

قدم الجنرال تود ليبين، (المدافع الشّهير عن سباستوبول إبّان الحصار)، ولفيف من الرتب الأدنى في الجيش، ومن ضبّاط الأسطول أيضا. وعدد من السيّدات والسّادة، ممّن لا يشغلون مناصب مهمّة. أعدّت بالطّبع مائدة صغيرة حافلة بالشمبانيا، وانتهت دون خسائر في الأرواح، وتبودلت الأنخاب والقفشات بعفوية تامّة.

ولم يدر حوار كبير سوى ما يتعلّق بامتنان الأمير والجراندوق، بحسن استقبالنا لهما، وما قدّم لنا المحافظ الجنرال من رد الإمبراطور على خطابنا إليه بالامتنان والشّكر إلخ...إلخ.

الفصل الثّامن والثّلاثون

عدنا إلى القسطنطنية، وغادرناها مجدّدا بالبحر بعد يوم أو يومين، قضيناهما في جولات متعبة حول المدينة، ورحلات في كـايكـوي، بشمـال القرن الذّهبيّ. مررنا ببحر مرمرة، والدردنيل، وخضنا أرضا جديدة جديدة بالنّسبة لنا على الأقلّ. إنّها آسيا. ألممنا بمجرد معلومات مغلوطة عنها، من رحلات سياحية بحرية إلى سكوتاري، والمناطق المحيطة بها.

مررنا بين ليمنوس، ميتيالين، وزرناهما، كما شاهدنا إلبا، وجزر البالياريك. وهي مجرد كتل ضخمة، تغشاها سدم رقيقة من السحاب، بدت من مسافة بعيدة، كأنها حيتان وسط الضّباب، ثمّ يممّنا شطرنا نحو الجنوب، وبدأنا نتعرف على سميرنا الشهيرة.

تسلّى بحارة السفينة طوال ساعات اللّيل والنّهار، في إثارتنا بالتهكّم من زيارة الإمبراطور. وقد صاغوا الفقرة الافتتاحية من خطابنا للإمبراطور على النّحو التّالي :

«نحن جماعة من المواطنين الأمريكيين، نبحر ولا هدف لنا سوى الاستجمام، ولا فخر، وآية ذلك أننا لسنا في مهمة رسمية، ولا سبب للجوئنا إلى المثول بين يدي جلالتكم، سوى الرّغبة في تقديم خالص امتناننا، لسيّد البلاد، الذى ظلّ الصّديق الوفيّ في لحظات السّلم والشّدة في البلد الذى طالما أحببناه».

توج الطّاهي الثّالث، رأسه بحوض قصديريّ لامع، وتجمّل بدثار، من مفرش مائدة، مزرقش ببقع الزّيت وبقايا القهوة، وحمل في يده صولجانا، بدا في غرابته أشبه بوتد الخيمة، وسار فوق سجّادة مهترئة، ثم ربض فوق رحوية المرساة، غير آبه برذاذ البحر المتطاير، وأحاط به ياوره، ومستشاريه، ممّن أكلحت الشمس وجوههم، وعانوا وعثاء السفر، بدءا من منتحل صفة الدّوق إلى أصحاب العزّة الأدميرالات. ظهروا جميعا بمظهر الترف، وما يستغنى عنه البحارة القدامى، من بقايا أو أقمشة مشمّعة أو مدهونة بالقار. تحوّل فريق

الحراسة المناوب في الطّابق السّفلى، إلى سيدات فاسدات، وحجاج بلهاء، في محاكاة فجّة فوق الشّلالات، بالتنانير الواسعة والقفّازات البيضاء من جلود الشّاة، وسترات الفراك، صعودا للدّرج الموصّل إلى سطح السفينة، وانحناءات، وابتكار أسلوب جديد وطريف في التبسّم، لا يظهر به سوى قلة من الملوك.

سحب كناّس ظهر السفينة الوضر، منتحل شخصية القنصل، سحب قطعة متسخة من الورق، وبدأ يتعتع في الإلقاء :

«نحن جماعة من المواطنين الأمريكيين، نبحر بهدف الاستجمام فحسب، ولا فخر، وآية ذلك أننا لسنا في مهمة رسمية، لا سبب لمثولنا بين يدي جلالتكم».

الإمبراطور: «وفيم قدومكم بحقّ الشّيطان ؟».

«ليس سوى الرّغبة في الإعراب عن خالص امتناننا لسيّد البلاد».

الإمبراطور: «أوه، ضع الخطاب، اقرأه للشرطة. أيّها الحاجب، خذ هؤلاء مباشرة إلى أخي الجراندوق، وقدّم لهم وجبة مشبعة. وداعا! أنا سعيد وممتنّ ومبتهج وأشعر بملل. وداعا ثمّ وداعا، اتركوا العزبة! سيذهب سائس الخيول الأوّل، لحصر ما يخفّ حمله من أدوات مهمّة خاصّة بالمقارّ» .

انتهت المشاهد الهزليّة، لتعود مجدّدا، مع بعض ما يطرأ من تعديلات، وتحسينات مبتكرة وغريبة على مواكب الأبّهة والحوار.

كان ذلك الخطاب المملّ يلقى على مسامعنا ليلا أو نهارا. ظهر البحّارة بسحنهم الكالحة عند مقدّم السفينة، ليعلنوا بكلّ تبجّح أنهم: «جماعة من المواطنين الأمريكيين، نرتحل بهدف الاستجمام فحسب، ولا فخر، إلخ»، واتجه عمال الوقود إلى عملهم في أعماق السّفينة، مبررين سواد سحنهم ورثّ ثيابهم بالتّذكرة بأنهم «مجموعة من المواطنين الأمريكيين، يرتحلون بهدف الاستجمام، إلخ» وحين رنّ الجرس في أرجاء الباخرة عند منتصف اللّيل: «ثمّاني رنّات»، معلنا انتهاء مناوبة الميسرة، خرج أفراد حرس الميسرة من مكمنهم يتمطّون ويتثاءبون، ويرددون الصيغة الأبدية نفسها «تمام يا فندم، نحن جماعة

من المواطنين الأمريكيين، نرتحل بغرض الاستجمام فحسب، ولا فخر. يشهد على ذلك وضعنا غير الرّسميّ!».

وبما أنني كنت عضوا في اللّجنة وساهمت في تدبيج الخطاب، جاءتني تلك المساخر، في عقر داري. لم أسمع قط عن بحّار زعم أنه جماعة من المواطنين الأمريكيين، نرتحل بقصد الاستجمام، لكنني وددت تعثّره وسقوطه من أعلى ميمنة الباخرة، لتنقص تلك الجماعة واحدا على الأقلّ. لم أضجر بكلمة واحدة واحدة مما استثارني البحارة به، قد وردت في مقدّمة الخطاب المقدّم للإمبراطور.

يعدّ ميناء سميرنا، أوّل ما عرفنا من آسيا التّاريخيّة. مدينة مكتظّة بمائة وثلاثين ألفا من البشر، قد خلت من ضواح بعيدة شأنها شأن القسطنطينية. اكتظّت على أطرافها الخارجية بالسكان كما هو حال أوسطها، وتركها السكان بعد ذلك بغتة، ويبدو ما وراء السّهل مهجورا. تبدو هذه المدينة نسخة طبق الأصل من أي مدينة في بلاد الشّرق، فبيوت المسلمين فيها معتمة كئيبة، تخلو من وسائل للرّاحة، ككثير من المقابر. وشوارعها متعرّجة، وعرة غير ممهدة، وتشبه من حيث الضّيق درج السّلم العاديّ. تقود المرء شوارعها المتماثلة إلى التيه عن المكان الذى قصده، وتباغته بمواقع لم تكن في حسبانه قط. تمارس فيها التّجارة أساسا في أسواق كبيرة مغطّاة، ومقسمة إلى حوانيت لا حصر لها كأقراص النّحل، يبلغ الحانوت حجم خزينة ثياب عادية، وتنقسم خليّة النحل هذه إلى شبكة من الأزّقة. يسع الزقاق فيها مرور جمل محمّل بالبضائع، وقد أعدت تماما لإرباك الغريب وتعريضه من وقت لآخر للتيه. تنتشر النفاية والحشرات في كلّ مكان، وترقد الكلاب الهزيلة والمثيرة للرّثاء في الطرقات، واكتظّ كلّ زقاق بالبشر، حيث تقع عيناك أينما نظرت على عرض أزياء تنكّري رهيب، وحيث كلّ الورش الصّناعية مشرعة على الطّرقات فيظهر لك الحرفيوّن، وتستمع إلى كلّ ما يخترق الأذن من أصوات، وتعلو أصوات الضّوضاء لإثارة التفات الزبائن وجلبة الشوارع على صوت المؤذّن الذّي يدعو المؤمنين من أوغاد المحمّديين إلى الصلاة، ثم ينصبّ الاهتمام أولا وآخرا بالزّبائن أو بلفت أنظارهم. ولا تتراجع أبدا نفاية المحمّديين، التي لو قورنت رائحتها، بما يبعثه ربع صينيّ، لاقتربت رائحة الأخير من شواء عجل سمين في خياشيم موسر عائد إلى وطنه. ذلك ترف الشّرق، وتلك أبّهته وعظمته! قرأنا عنه في كلّ أطوار حياتنا، لكننا لم نعرفه إلا بعد أن رأيناه بأعيننا. تعرف سميرنا بأنّها

مدينة موغلة في القدم، يرد اسمها كثيرا في الإنجيل، زارها واحد أو اثنين من تلاميذ المسيح، وأقيمت فيها الكنائس الأبوكاليبتية (الواردة في سفر الرّؤيا الأصليّة السبع).

جسّدت هذه الكنائس في الأناجيل على هيئة شمعدانات، وقد ظهر في ظروف بعينها، وعد مشروط، بأن توهب سميرنا «إكليل الحياة». ومفاد هذا الشّرط «أن تحتفظ بقوة إيمانها إلى الأبد». لم يدم إخلاصها للعقيدة طويلا، لكن الحجاج الحاضرين هنا، يعتبرون لتبرئتها أنّها كانت كادت أن تكون كذلك، ويشيرون لتبرئتها أيضا إلى أن سميرنا اليوم تلبس إكليل الحياة، وأنّها مدينة عظيمة، ويعمل اقتصادها بكلّ طاقته، بينما المدن التي تقع فيها الكنائس الستّ الأخريات، والتي لم توعد بإكليل الحياة، قد زالت من على الأرض، وبذا تظلّ سميرنا في رأيهم محتفظة بإكليل الحياة وتلك وجهة نظر اقتصادية بحتة. لقد ظلّت مكانتها على مدار ثمانية عشر قرنا مضت، تراوح بين الازدهار والانهيار، كما ظلّت تحكم من قبل أمراء من جميع النّحل والملل، ولم تنعم بهناءة طوال تلك الفترة، على حدّ علمنا، (لم تنعم البتة خلال تلك الفترات ومنذ أهلت بالبشر)، لأنها كانت قد خلت من مجتمعها المسيحي الصغير «المتمسك بإيمانه إلى الأبد». وكنيستها هي الوحيدة، التي لم تنذر بما ورد في سفر الرؤيا، وهي الوحيدة التي بقت حتىّ الآن.

كان الحال مختلفا مع إفسس التي كانت تضمّ بدورها سبع كنائس وتبعد عنها مسافة أربعين ميلا. لقد أزيلت الشمعدانات السّبعة من إفسوس، وخبا منها النور، ويميل الحجّاج دوما، إلى البحث عن نبوءات في الإنجيل، ولا يجدون منها شيئا في الغالب، ويتحدثون بنشوة وأريحيّة عن المسكينة إفسوس القديمة، كإحدى ضحايا النّبوءة. كما أنّه لا توجد فقرة تحمل وعودا، دون ورود الشّرط وهو دمار المدينة كما ورد في هذه العبارات :

«تذكّري أنك لهذا السبب تسقطين، وتتوبين، وتؤدّين الأعمال الأولى، وإلاّ فسوف ألاحقك سريعا، وأمحو شمعدانك من هذا المكان أو تتوبي» ذلك بيت القصيد، لأنّ الفقرات الأخرى، تتضمّن اطراء خاصّا بإفسس. الوعيد محدّد هنا. ولم يرد في التّاريخ ما يوضح أنّها لم تتب. لكن أسوأ عادات المحدثين من علماء النبوءة، هو ذلك الرّهان النبوئيّ على الشخص الخطأ، بكل فتور وسطحيّة. يفعلون ذلك دون سند من علّة أو منطق. والحالتان السّابقتان أوضح مثال على ذلك.

يتضح أن تلك النبوءات قد وجهت تحديدا إلى كنائس إفسوس، وسميرنا، إلخ، ولا يتراجع الحجاج رغم ذلك عن نسبتها إلى المدن وليس الكنائس. لم توعد سميرنا واقتصادها بإكليل الحياة، بل صدر الوعد لحفنة من المسيحيين، الذي أقاموا كنيستها. فلو كانوا «مخلصين في أيمانهم إلى الأبد» فهم الآن يلبسون الإكليل، ولكن لا قبل للجمع بين إخلاص وتلاعب بالنصوص، جرّ المدينة إلى مشاركة في الوعود التي أوردتها النّبوءة. تشير لغة الإنجيل الموقّرة إلى «إكليل الحياة» الذى سيعكس وميضه ضوء النّهار، لعصور توغل في الأبدية، ولا يشير إلى وجود مدينة هزيلة صنعت بأيدي البشر. سيأتي اليوم الذى توارى فيه التّراب مع مؤسسيها وتطوى طي النسيان، في بضع قرون فحسب وهبت لذات العالم الماديّ، ما بين مهده ولحده.

إنّ أسلوب التفتيش في دلائل النّبوة، حيث لا تتضمن تلك النبوة سوى، لفظ «إذا» يقترب بالمرء إلى حافّة الجنون. لنفرض ولألف سنة من الآن، أنه قد حدث أن تفشّى ظهور بعوضة الملاريا في مستنقع ظهر تلقائيا في مرفأ سميرنا الضّحل، أو أن شيئا آخر كان بسببيله إلى تدمير المدينة، وولنفرض أيضا خلال الفترة نفسها أن المستنقع الذى شغل أرض مرفأ إفسوس الشّهير، وتسبب في اضمحلال موقعه القديم وقفره، قد أصبح أرضا متماسكة خصبة. ولنفرض جدلا أن النتيجة الطّبيعية التي أعقبت هذه الأحداث: أن أصبحت سميرنا أثرا مهدّما، وأن إفسس قد أعيد بناؤها. فماذا سيقول الباحثون في النبّوءات؟ إنّهم سيغضّون الطرف عن واقعنا المعيش، ويقولون: «إنّ سميرنا لم تخلص في إيمانها إلى الأبد» وبذلك حرمت من إكليل الحياة الذّي وعدت به، أما إفسس، قد تابت تصوّروا! لن يمحي عنها شمعدانها. فتامّلوا، هذه الأدلة الدّامغة. ويا لها من. نبوءة عجيبة!».

لقد تعرضت سميرنا للهلاك ستّ مرات، ولوأن تاج الحياة الذّي وعدت به، كان بوليصة تأمين على الحياة، لكان لها أن تحصل قيمتها، بعد أول دمار. لكنّها تحمل ذلك على عاتقها، وبأسلوب لغوي إطرائيّ، لا يشير إليها. أظنّ ورغم مرات الدّمار الست. أنّ خبالي المتحمّسين لتلك النّبوءة، قد وقعوا في خلط وارتباك، وقالوا بتعال تام عن سميرنا وأهلها: «حسبكم، هذا دليل قاطع على صدق النّبوة! فسميرنا لم تخلص إيمانها إلى الأبد! انظروا وقد زال عن رأسها تاج الحياة الذى وعدت به. حقا، هذه أمور تبعث على الحيرة!».

تأتي هذه الأمور بأثر سيء، يدفع بالبشر إلى جدل عقيم في أمور دينية. فضلا عما يحدثه الحمقى من شرّاح ما يرد بالإنجيل أحداث، وأغبياءالوعّاظ والمعلمين، من إضرار بالعقيدة، ما يفوق العقل، ويربو على ما استطاع العقلاء من رجال الدين صدّه مجّددا ما وسعهم من جهد. ليس من الحكمة أن ينطبق «إكليل الحياة» على مدينة تعرّضت للدّمار ستّ مرات. يسير ذلك القسم الآخر من مدعّي العلم على النّهج السيء نفسه، بتحريف النبوءة وجعلها تتذر المدينة نفسها بالهلاك والدمار، في الوقت الذي تنعم فيه بالازدهار الآن، وذلك يحزنهم، حيث تضع الجدل في أمور كهذه في فم الإلحاد.

يشبه هذا القطاع من المدينة النّمط التركي إلى حد كبير، فلليهود حيّ خاص بهم، وللفرانكيين حيّ آخر، وكذلك الحال مع الأرمنيين. الأرمنيّون مسيحيّون بالطّبع. تنعم بيوتهم بالسّعة، والنّظافة والجمال والنّظام، أرضيّاتها معبدة ببلاط مربع من الرّخام الأسود والأبيض، وتضم في وسطها فناء مربّعا، به حديقة غنّاء، ونافورة دافقة، تفتح كلّ أبواب البيت على هذا المنظر. هناك قاعة كبيرة توصّل إلى باب الشّارع، وعنده امرأة جالسة طوال اليوم. يلبس أهلها أحسن ثيابهم في جوّ المساء البارد، ويظهرون بها أمام باب البيت. تظهر في نسائهن ملاحة الوجه، كما يبالغن في النظافة والنّظام، وتبدين كما لو كنّ خارجات للتوّ من علبة قبّعات. تظهر في بعض السّيدات الشّابات ملاحة كبيرة، وحريّ بي قول كلّهن، إذ يفقن جمال الإمريكيات بدرجة واحدة، وألتمس منكم العذر لو خانني التعبير في هذا السّياق. يتسمن أيضا بالودّ الشّديد، فيرددن ابتسامة الغريب إن ابتسم لهن، وينحنين لو انحنى، ويحادثنه لو حادثهن، ولا يتطلّب ذلك تمهيدا، فيمكن للمرء اغتنام ساعة زمن، يتحدّث خلالها إلى فتاة جميلة أمام بيتها، لم يكن قد رآها من قبل، بأريحيّة وعن طيب خاطر. حاولت ذلك، لكني لا أعرف سوى الإنجليزية، والفتاة لا تعرف سوى اليونانية، أو الأرمنيّة، أو لهجة ما، لكننا اجتزنا ذلك بنجاح. أرى في حالات كهذه، أن فهم شخص للآخر لا يمثل عقبة. مارست في مدينة يالتا نوعا عجيبا من الرّقص لم أسمع به من قبل، مع فتاة رائعة، وأسهبنا في الحوار، وأسرفنا في الضّحك، ولم يعرف أحدنا حتّى ما كان يشير إليه الآخر، لكنّ ذلك كان ممتعا. كان الرّاقصون عشرين فردا، وحفل الرّقص بالحركة السرّيعة، واتسم بالصّعوبة. كان جدّ صعبا بدوني. أما بي فكان أكثر صعوبة. انهمكت بعد ذلك في الرقص، ما أدهش الرّوس كثيرا. لكنني لم أتوقف عن التفكير في تلك الفتاة. كتبت إليها بالفعل، لكنني

لم أستطع عنونة الرّسالة، لأنّ اسمها كان من تلك الأسماء المكوّنة من تسع حركات روسيّة ينفصل كلا عن الأخرى. ولا يوجد في حروف هجائنا ما يحمل على ذلك، كما أنني لست من الطّيش، لأسعي إلى الاعتراف بذلك طالما كنت في كامل وعيي، لكنني سأتردد في الاعتراف بذلك في أحلامي، فأستيقظ في الصّباح مصابا بكزاز (تشنج في عضلات الفكّ). أتعرض الآن للنحول، حيث لا أنتظم في تناول وجبات الطّعام، فما زال اسمها الحبيب، يرودني في أحلامي، أتى ذلك بأثره الرّهيب على أسناني، ولم يفارق فمي إلاّ وقد أتي معه بسنّ ناتئ قديم. يزول الكراز بعد ذلك، ويحذف مقطعين أخيرين من الاسم، وفيصبح الاسم مقبولا.

رأينا بالعدسات المكبرة عند مرورنا بشاطئ الدّردنيل، قافلة من الإبل على السّاحل، لكننا لم نقترب من أحدها حتّى وصلنا سميرنا. كانت هذه الجمال أكبر كثيرا في الحجم، من تلك النّماذج الهزيلة التي يراها المرء في متحف الحيوانات. تسير في الشّوارع بخطي واسعة، في صف واحد، دستة من الإبل يقطر بعضها بعضا، وتحمّل ظهورها أحمالا ثقال، يتقدّمها زنجي عجيب الشّكل في ثوب تركيّ، أو عربيّ، فوق حمار صغير، وقد تواري كليّة أو تضاءل وسط تلك الحيوانات الضخمة. أن ترى قطارا من الإبل قد حمّل بالتّوابل الواردة من بلاد العرب، والأقمشة الفاخرة من بلاد فارس، تسير عبر الأزقة الضيقة في السّوق الكبير، وسط الحمّالين بأحمالهم، وتجّار العملة، وتجّار القناديل، وصنّاع الأواني الزّجاجية، والأتراك متصالبي السّاقين، ومدخني النارجيلة الشهيرة، والجموع الرّائحة والغادية في الثّياب الشّرقية العجيبة، فتلك هي الصّورة الحقيقية للشرق. إنّها تعيدك على الفور إلى مانسي من عهد الصّبا، وتجدد حلمك بألف ليلة وليلة، ورفاقك الأمراء، وسيّدك الخليفة هارون الرّشيد، وخدمك المرعبين من المردة والجنّ، وما يثيرونه من دخان وبرق ورعد، ثم يغيبون كما تخبو العاصفة!

الفصل التّاسع والثّلاثون

استفسرنا عن أسود سميرنا فعلمنا أنهاما تبقى من حصن قديم، كشّرت أسواره المحطّمة الضّخمة عن أنيابها للمدينة، من تلّة شاهقة، تقع على أطرافها تحديدا. يطلقون عليها هضبة «باجوس الواردة في الكتاب المقدّس»، وهو المكان الذّي أقيمت عليه إحدى كنائس آسيا السبع، الواردة في سفر الرؤيا التي أقيمت هنا في القرن الأوّل الميلادي، وهي مثوى ومكان استشهاد بوليكارب الجليل، الذى عذّب في سميرنا بسبب عقيدته منذ ألف وثمانمائة عام.

استأجرنا حميرا صغيرة، وذهبنا إلى هناك. شاهدنا قبر بوليكارب، وأسرعنا بالرّحيل.

تأتي الكنائس السبّع هكذا يختصرونها تباعا بالتوالي. ركبنا إلى هناك لمسافة ميل ونصف الميل، تحت شمس تذيب الرّؤوس، وزرنا كنيسة يونانيّة صغيرة، ذكروا أنها أقيمت فوق موقع تاريخي قديم، سددنا رسما بسيطا، وأعطى المرافق لكلّ منّا شمعة صغيرة كتذكار للمكان، وضعتها في قبّعتي فأذابتها الشّمس، وسال الشّحم على قفاي، ولم يعد لديّ منها سوى فتيلة ذابلة حزينة.

جادل البعض بكلّ قوّة في أنّ ورود الكنيسة في الإنجيل، قد قصد به أفراد مسيحيوّن، وليس مبنى الكنيسة، وذكر الإنجيل على ما أظنّ أن هؤلاء الأشخاص كانوا فقراء، أظنهم كانوا في فقر مدقع، بحيث لم تكن لديهم القدرة قطّ على إقامة كنيسة، وكما أنهم لا يجرأون على ذلك في العلن حتى لو استطاعوا إقامتها، ثم إنهم لو كانوا في النهاية قد حصلوا على تصريح بإقامتها، لاقترح العامة بناءها في مكان قريب من البلدة. لكن كهول أسرة السفينة أفحمونا، وسفّهوا من أدلتنا، مع أنهم ثابوا إلى رشهم فيما بعد. إذ ارتأوا أنهم بلغوا من الشّطط الكثير، واتبعوا سبيل الضّلال، واكتشفوا أنّ الموقع المتفق عليه يقع في المدينة.

استطعنا ونحن ركوب عبر المدينة ملاحظة ما يشير إلى موقع كنائس سميرنا الست، تلك التي كانت قائمة هنا، واحترقت أو ضربتها الزلازل.

تتعرض التّلال والصّخور هنا لتصدع يباعد ما بينها، لتكشف الفوالق عن صخور ضخمة، من أحجار البناء ظلت مدفونة لعصور، ورأينا على طول الطّريق بيوت سميرنا وأسوارها الحديثة مرقّطة باللّون الأبيض الظّاهر بقواعد أعمدتها المحطّمة، والأحرف وشظايا الرّخام وعليها نقوش، زينت بها قصور النّبلاء يوما ما، التي تباهت بها المدينة في العصور السّالفة.

بدا مطلع تلّ الحصن شديد الانحدار، فازاداد تباطأنا. لكنّ لفت ما حولنا الأنظار. حيث بلغ ارتفاع الجدار المتعامد مع الجانب الأعلى من الطّريق، عشرة أو عشرين قدما، ذلك في موضع منه فحسب، ويرتفع عن البحر بخمسمائة قدم، وقد كشف الفالق عن ثلاثة عروق من المحار، كتلك التي نراها في عروق الكوارتز الظاهرة في شقّ صخري على الطريق إلى نيفادا أو مونتانا. كان سمك العروق نحو ثمانية عشرة بوصة، ويبعد العرق عن الآخر بقدر قدمين أو ثلاثة، وقد مالت مباشرة إلى أسفل ثم اختفت حيث يلحق الفالق بالطّريق. يعلم الله قدر العمق الذى قد يبلغه المرء لو قام بتفريغها. كان المحار نظيفا كبير الحجم، وحسن الشكل، يشبه في ذلك كلّ أنواع المحار. تلاصق المحار معا، ولم يشرد شيء منه خارج العروق، أعلاها أو أسفلها. كانت كلّ منها مميزة جليّة، ومستقلّة بذاتها، ودون نتوءات ظاهرة. وكانت غريزتي التّلقائيّة كالعادة :

إعــــــلان

«نتقدم نحن الموقّعون أدناه، بإجراء خمسة أعمال استكشافية بعمق هذا العرق الصّخري الحافل بالمحار أو سواه، مائتي قدم لكل (تحتسب منها مائة للاستكشاف)، بكلّ ما يضمّه من تجاويف أو انحرافات أو زوايا، أو نتوءات، أو ميول، والعمل في حدود خمسين قدما على كلّ جانب، إلخ، إلخ، وذلك حسب قوانين المناجم المعمول بها في سميرنا».

كان من الصّعب علىّ أمام تلك الطبقات الطبيعية الصّخرية البديعة، التّراجع عن بحثها. اختلطت المسافات الصّغيرة ما بين المحار بشظايا كثيرة من الخزف القديم، والأواني الفخّاريّة المهشّمة. الآن حانت لحظة البحث عن كيفية وصول المحار إلى هذا المكان؟ لا أستطيع بالطبع معرفة هذا. تشير الأواني الفخّارية والمحار إلى احتمال وجود مطاعم قديمة في هذا المكان. ولكن في أيامنا هذه لم تكن تتوفر لديهم مثل هذه المواقع بأعلى جانب الجبل، لأنّه لم تكن توجد حياة لأشخاص هناك. فضلا عن أنه لا توجد وسط المحار سدادات من فلين زجاجات الشّمبانيا، ولا بدّ من أن يكون هذا قد حدث في عهود سميرنا الزاهرة، حين كانت القصور تغطيّ ربوعها. يمكنني بهذه الاحتمالات الاعتقاد بوجود مطعم واحد. ولكن ماذا عن العروق الثلاثة؟ أكان لديهم مطاعم هناك على مدار أجيال ثلاثة؟ ذلك لوجود قدر قدمين أو ثلاثة من طَبقة صَخرية صَلبة بين طبقات المحار. يتضح أن مسألة وجود مطعم لن تجد تفسيرا.

ربما كانت التّلة يوما ما، في أعماق البحر، وارتفعت بطبقات المحار بسبب زلزال، ولكن ما شأن هذه الأواني الفخّاريّة؟ وما شأن الطبقة السميكة من الأرض الصلبة التي تفصل بينها؟

لن تأت تلك النّظرية بنتيجة. ربّما تكون هذه التلّة، هي جبل أرارات، وأن فلك نوح قد استقرّ هنا، وأنه قد أكل المحار وألقي بصدفه جانبا. لكن ذلك لا يفسّر "اللغز، لأن أمامنا أيضا ثلاث طبقات بينها من التربة الصلبة، ولم يكن هنا سوى ثمانية أفراد من عائلة نوح، لا يقوون على التهام كل هذا المحار في شهرين أو حتى ثلاثة، وهي فترة بقائهم على قمّة الجبل. أما بالنسبة للحيوانات، ففكرة تناولها المحار، تتنافى تماما مع المنطق. بفرضية أنه لم يجد وسيلة لإطعامها على العشاء سوى المحار.

إنّ ذلك يحمل على القلق والأسى، لكنني خلصت في النهاية، إلى فروضية بسيطة، مفادها أنّ المحار قد تسلّق ووصل إلى هناك، هكذا بمفرده. ولكن ماذا كان هدفه من التسلق إلى هذا المكان؟ وماذا كان يرّغب منه؟ وما الذى يجعل أي محار يصعد إليه؟ حيث تسلّق تلة بالضّرورة أمر مهلك ومضني. ونتيجة ذلك الطّبيعيّة، رغبتته في استشراف المكان من عل رغم أن المرء لو عاد لطبيعة المحار، لوجد أنه لا يأبه بالمناظر الطّبيعيّة. فليس للمحار

ولوع بتلك الأشياء، لأنه لا يأبه كثيرا بالجمال. بل يميل إلى الخمول وقلّة الحركة، ولا ينزع حتّى إلى المرح غير العادي أو المغامرة، ولكن يأتي في مقدمة ذلك كلّه أن المحار لا يحبّ المناظر الطبيعية لأنه لا يلتفت إليها، فما الذى توصّلت إليه إذن. الأمر ببساطة أنّني منذ بدأت هذه المسألة، أعني تلك المحاريات الموجود على التلة، في طبقات متناسقة، على ارتفاع خمسمائة قدم من سطح البحر، ويجهل الجميع وصولها إلى هناك، بحثت في كتب الرّحلات وخرجت منها بما يلي: «صحيح أن المحار هناك، ولكن كيف وصل إلى هناك، ذلك هو اللّغز».

حدث منذ عشرين أن لبس جماعة من الأمريكيين ملابس التسلق، وودّعوا أصدقاءهم الوداع الحارّ الأخير، وتأهبّوا للتحليق في الفضاء، عند بادرة من ريح هوجاء، لكن الملاك لم ينفخ في الريح. وواجه بعث ميللر فشلا ذريعا. استاء من ذلك أتباع ميللر، وأنا بدوري لست أشكّ في وجود ميللرا آخر في آسيا الصّغرى، لكنّ يخبرني سيد مهذب، بأنّهم قد أعدوا ليشهدوا نهاية العالم في سميرنا يوما ما، بعد نحو ثلاثة أعوام. دار لغط كبير واستعداد لمثل هذا الحدث قبل ذلك بفترة طويلة، وصحبه باقتراب الوقت المعلوم انفعالات جامحة. صعد عدد كبير من أفراد الشّعب تلّة الحصن في الصّباح الباكر، ليكونوا بمنأي عما سيحيق بالبلدة من دمار شامل، وأغلق كثير ممن هالهم الرّعب حوانيتهم، وتركوا شواغلهم الدّنيوية. لكنّ الجانب الأغرب في هذه الواقعة، أنه في نحو الثّالثة بعد الظّهر، وبينما السيّد الراوي، وأصدقاؤه يتناولون غداءهم في الفندق، هبّت عاصفة هوجاء ممطرة، مصحوبة برعد وبرق، وتواصلت ضراوتها لساعتين، أو ثلاث. كان ذلك أمرا مسبوقا في سميرنا في هذا الوقت من السّنة، أصاب الشكاكون بالهلع. فاضت الشّوارع بالمياه، وغرقت أرضيّة الفندق، وكان لا بدّ من تأخير موعد الغداء. توقفوا عن تناول الطّعام. حين توقفت العاصفة وتركت كلّ منهم مبلّلا بالمياه، وحوّلتهم إلى شعور بالكدر وأنصاف غرقي، هبط من صعدوا التلة، شأنهم في الجفاف شأن كمّ هائل من مواعظ الحضّ على البرّو المحبّة! كانوا يستشرفون العاصفة الرّهيبة من تحتهم، وقد صدّقوا بالفعل، ما أخبروا به من أنّ دمارهم الشّامل المزمع حدوثه، قد أثبت نجاحا باهرا.

يعتبر وجود خطّ للسكّة الحديدية هنا في آسيا، في دنيا الشّرق الحالمة، وفي أرض أساطير ألف ليلة وليلة، أمرا من العجيب أن يخطر ببال، لكن لا يملكون الآن سوى خطّا واحدا، وبسبيلهم إلى إقامة آخر. أتقنت إقامة الخطّ الحالي، وحسنت إدارته، من قبل إحدى

الشّركات الإنجليزيّة، لكنّه لم يحققّ لهم دخلا كبيرا، فقد حمل عددا كبيرا من الرّكاب، لكنّ قائمة الشّحن لم تتضمّن سوى ثمانمائة رطل من التّين!

يصل خط السّكة الحديدية حتّى مداخل إفسس تقريبا، وهي البلدة العظيمة في التّاريخ في كلّ مراحله، والمعروفة لدى قرّاء الإنجيل، وواحدة من البلاد، التي يرجع تاريخها القديم إلى قدم تلك التّلال التي وعظ وبشّر في طرقاتها، تلامذة المسيح. وهي تعود إلى عهود قديمة مبهمة، كما أنها مهد الآلهة الشهيرة في الميثولوجيا اليونانية إنّ فكرة مدّ خطوط للطرق لتخترق مكانا كهذا، وإيقاظ أشباح أزمنة الرّواية الأسطورية في الزّمن القديم، من أحلامهم بالأزمنة الغابرة والمجهولة، تعدّ غريبة بحقّ.

سنبحر في الغد إلى هناك كيّ نشاهد آثارها العتيقة.

الفصل الأربعون

هذا يوم حافل بالإثارة. وضع مدير عام السكّة الحديديّة، قطارا، تحت تصرّفنا، وعاملنا بود بالغ، بمرافقته إيّانا إلى إفسوس، وإحاطتنا بكل الرّعاية. اصطحبنا معنا ما وسعنا من حمير يتوقع ندرتها، وكان عددها ستين حمارا، حشرت في عربات الشّحن، تحسّبا لجولاتنا الكثيرة هناك. شاهدنا من الأزياء الأكثر تنافرا، على طول الطّريق بالقطار. سررت لاستحالة وجود كمّ من المفردات يمكّن من وصف تلك الملابس، وأكون أكثر حماقة لو أني حاولت ذلك.

فوجئنا عند أياسالوك، ووسط البوادي الجدبة، بوجود قنايات أثرية كانت تستخدم في صرف المياه، وبقايا أخرى من هياكل عمرانية ضخمة، تشير بوضوح إلى اقترابنا مما كانت ذات يوم إحدى المدن الإغريقيّة العريقة، ثمّ تركنا القطار وركبنا الحمير، وبصحبتنا مع دعوناهم معنا من الضّيوف، وهم مجموعة من الشّباب المرح من رجال الجيش الأمريكي.

أعدّت الحمير بسروج مرتفعة كثيرا عن الأرض، كيّ لاتحتك بها رجل الراكب. لم يلائم هذا الاحتراز حجّاجنا طوال القامة. خلت الحمير من لجم إلاّ حبلا يتيما، مشدودا إلى شكمها. بدا ذلك الحبل كحلية لها، بحيث لا يهم الحمار سواها، فإن دار جهة اليمين، فعليك أن تتحول بقوّة إلى الجهة الأخرى، ذلك لو توفّر لديك قدرا من الرضا بأن تفعل ذلك، لكنّه سيواصل الاتجاه بك إلى الميمنة في كلّ 'الأحوال. هناك حركة واحدة يمكنك التعويل عليها، وهي أن تترجّل من فوقه وترفع مؤخرته حتّى يتجه رأسه الاتجاه الصّحيح، أو تتأبطه، وتحمله جزءا من طّريق لن يتمكن من صعوده، كانت الشّمس تبعث بضرام كنار الموقد. ظهر من الصّعب أن تفلح لفاعات أو مظلاّت أو سّواتر، في الوقاية من أوارها، ولم يفلح ذلك سوى أن تجعل موكبنا أكثر طرافة. فمن المعروف أن السيّدات كنّ يركبن مفتوحات السّاقين، لأنهن لا يستطعن الثبات على جانب واحد، فوق سروج لا معالم لها، وكان الرجال

يتصببون عرقا وفي حالة مزاجية سيئة، تصطدم أرجلهم بالصّخور، وتطفر الحمير على غير اتجاه سوى اليمين، فيتلقوا عن ذلك قرعا بالهرّاوات، ومن آن لآن تسقط المظلاّت المفتوحة، من فوق منحدر شديد الميلان، لتعلن للجميع أن حاجا آخر قد التقم التراب. فاقت هذه الصّورة في كآبتها كلّ ما شهدناه من قفار منذ فترة طويلة. أعتقد أنّ تلك الحمير لم يخلق مثلها على وجه البسيطة، من حيث البلادة والقذارة، وفساد الغرائز. كنا من وقت لآخر نصاب بالإنهاك، وتنقطع أنفاسنا، فيصبح لزاما علينا التوقّف، فتعود الحمير من ثمّ إلى سيرها الوئيد. قد يؤدّي هذا الجهد وسخونة الشمس إلى النّعاس، فيدخل المرء في سبات، وتستلقي الحمير على الأرض. لن أجعل حماري أبدا، يري مرتعه، لأنه يقضي معظم وقته مستلق، ولا بدّ من أن يموت.

وقف الجميع في الساحة القديمة لمسرح إفسس، أعني ذلك البناء المزوّد بالمصاطب الحجريّة، وتوقفنا نتمعنه. وأظنّنا رأينا منه ما رأيناه في سواه. لأننا لن نرهق أنفسنا بتجميل قفر كبير في بادية. بل إننا نضيف ما وسعنا من شرف إلى الأثر المهيب. بما نحمله من مظلاّت خضراء، وبغال، ومع أن ذلك قليل عليه، إلاّ أننا قدمناه عن طيب خاطر.

أود ذكر عبارة موجزة بشأن الصّورة التي كانت عليها إفسوس في السابق.

يوجد هناك فوق هضبة عالية شديدة الانحدار مشارفة للبحر، أثر مقام من الكتل الرّخاميّة الضّخمة. تقول الرّواية، إنّ القدّيس بولس كان سجينا فيه، منذ ألف وثمانمائة عام. أمامك ومن فوق هذه الأسوار القديمة، أصدق مشهد لقفر من القفور كانت تحتله إفسوس ذات يوم، وهي أكثر المدن مجدا في العصور القديمة، تلك التي كان يحظى فيها هيكل ديانا بروعة البناء، وجمال الصّنعة حيث يأتي على رأس عجائب الدّنيا السّبع.

يأتي البحر من خلفك، وأمامك سهل أخضر منبسط (هو في الحقيقة سبخة)، يمتدّ بعيدا، بين الجبال، وإلى يمين مقدّمة الصّورة، حصن أياسّالوك القديم، ويقع على ربوة عالية، متاخمة مسجد السّلطان سليم القديم، الواقع على السّهل، (أقيم هذاالمسجد فوق قبر القديس «جون» حيث كان كنيسة في السّابق) هناك على البعد تقع تلّة بيون. تجمّعت أمامها كلّ بقايا آثار إفسس القديمة التي لا تزال في موضعها حتى الآن. يفصلها عن مرتفع

كوريسوس الوعر الطَويل، واد ضيق. تتسم الصَورة بالجمال وأيضا بالوحشة، لأن أيّ إنسان لا يمكنه العيش في ذلك الوادي الفسيح، حيث لا يأهله البشر.

ولكن يعجز المرء مع وجود القناطر المنهارة والجسور الضخمة، والأسوار المحطَمة، الواقعة أسفل تلة بيون، يعجز عن تصديق أنّه في يوم ما، كانت تقع في المكان نفسه مدينة تفوق في أشهر الآثار قدما. يصعب تأمل أن تلك الأمور صارت متواردة في عالم اليوم، شأنها شأن ما يرد على لسان ربّة البيت، وأنّها ترجع في التّاريخ وفي الأساطير القديمة إلى هذا الصَمت، وتلك العزلة الكئيبة. إننّا نتحدّث عن أبوللو، وديانا، لقد نشأ هنا من مسخ حنجرة طائر في آلة نفخ موسيقية، فعل ذلك هنا كبير الآلهة «بان»، الذى أقام في كهوف تلة كوريسوس هذه، وهو مقرّ الأمازونيين المفضّل، ومقرّ باخوس وهركوليس وكلاهما قاتل النسوة المصارعات هنا، والسايكلوبس الذين جاءوا بالكتل الرّخاميّة الضّخمة، لإقامة بعض هذه الآثار التي هناك، وهومير وهذا أحد مقارّه الكثيرة، وكايمون أثينا، وألكيبيادس، وليساندر، وأجيسيلوس، زاروا جميعا هذا المكان، كما فعل الإسكندر الأكبر، وهانيبال، وأنتيوكوس، وسكيبيو، ولوكلوس، وسيللا، وبروتوس، وكاسيوس، وبومبي، وسيسرو، وأوجستوس، وكان أنطوني قاض في هذا المكان، وقد ترك كرسيّه في القاعة المشكوفة، في أثناء تحاور المدّعين، ليلحق بكليوباترا، وقد خرجت من الباب، ومن هذه المدينة أبحر الاثنان في رحلات ترويحية، على سفن شراعية، ذات مجاديف ضخمة من الفضة الخالصة، وأشرعة المأرّجة بالعطور الفواحة، وبصحبتهما الخادمات الحسان، والممثّلين، وعازفي الآلات الموسيقيّة، في عصور تبدو وكأنها قريبة، وهي بعيدة بعد التّاريخ عن هذه المدينة، وهنا بشّر الحواريّ بولس، بالدّين الجديد، وكذلك فعل يوحنّا، ويعتقد أنّ الأوّل قد صنع هنا شركا للوحوش، حيث يقول في ١كورنثيان، **XV**. ٣٢ :

«لو أقاتل الوحوش في إفسس كما يقاتل الرجال».

حيث كان كثيرون ممن رأوا المسيح لا يزالون على قيد الحياة، وهنا قضت مريم ماجدالينا (المجدلية) نحبها، وهنا قضت مريم العذراء مع يوحنّا، رغم أنّ روما ارتأت أن من الأفضل نقل جثمانها إلى مكان آخر، منذ ستمائة أو سبعمائة عام، كأنها بالأمس القريب، وحيث احتشد جنود الصليبيين في الشّوارع بالدروع، لينفض الجميع دون نتيجة، وحين

نتحدّث عن الأنهار بمساراتها المتعرّجة، نري ولعا جديدا بكلمة شائعة، إذ نكتشف أن النهر «ميندر أي» متعرج المسار. والواقع أن هذا الوادي الذى هناك، هو الذى أضاف كلمة ميندر بمعنى «نهر» إلى قاموسنا. يشعرني ذلك بتقدّم العمر شأني في ذلك شأن التلال الحزينة وهي تستشرف هذه الآثار وقد علقت بها الطحالب وهذا القفر التّاريخيّ. يمكن للمرء قراءة الأناجيل، والإيمان بما ورد بها لكنّه لا يقوى على الذهاب والوقوف في مسرح الأحداث التّاريخية، ويتخيل أنها أهلت مجددا بالجموع الّتي هاجمت رفاق بولس، وهتفت بصوت واحد. «المجد لنا يا إلهة الإفسوسيين». إنّ فكرة هتاف في قفر كهذا تثير في المرء الرعب.

كانت إفسس هذه، مدينة رائعة. تجوّل في هذه المدينة حيث شاء لك التطواف، ستعثر في هذه السّهول الفسيحة على أروع القطع المرمرية الصغيرة والحافلة بالزخارف، منتشرة بكثافة بين التّراب والوحل، والأعشاب البريّة، أو ظاهرة في الأرض، أو ملقاة فوقها، وكانت في الأصل أعمدة جميلة ذات أخاديد، من الرّخام السّماقي، والمرمر النّادر، وترى في كلّ خطوة تخطوها حروفا كبيرة توخيت الدقة في نقوشها. وقواعد ضخمة، وألواح لامعة محفورة بنقوش إغريقيّة. هذا عالم حافل بالآثار الدّينية النّفيسة، والذّخائر المحطمة والممحوّة. لكن ما شأن هذه الأشياء، إلى جانب العجائب المدفونة تحت الأرض؟ تجد المساجد العظيمة والكاتدرائيات، في كلّ من إسطنبول، ومدريد وبيزا وفي مدن إسبانيا، قد أتت عمدها الضخمة من معابد إفسس وقصورها، وليس عليك سوى أن تنبش الأرض بيدك كي تتحقق من ذلك. يستحيل علينا أن نعرف كنه هذا المجد، حتّى يماط اللثّام تماما عن هذه المدينة الإمبراطوريّة.

رأينا أيضا قطعة هي أروع ما أخرجه فنّ النّحت، وأكثر ما تأثرنا به، (ذلك لأننا لسنا خبراء بالفنّ، ولا نستطيع أن ندفع أنفسنا إلى الانفعال بسهولة بتلك الأعمال)، وتلك الرّاقدة في مسرح إفسس القديم، والتي جعل منها القديس بولس أثرا شهيرا. إنّها تمثال لرجل بلا رأس يلبس درعا، مع صورة لرأس ميدوسا فوق درع الصّدر. لكننا نشعر بقناعة تامّة بأنّ مثل هذا المجد، الجلال، لم يظهرا في قطعة من الحجر من قبل.

في العظمة بناة ذلك العصر التليد! تستقرّ القناطر الضّخمة من هذه الآثار، على دعامات مساحتها خمسة عشر قدما، أقيمت كلّها من كتل رخاميّة صلبة، يعادل بعضها في

الحجم قناة ساراتوجا. والبعض الآخر حجم أريكة في حجرة استقبال. ليست هذه طبقات صخرية رقيقة، أو حوامل أعمدة، محشوّة بالنفايات، بل دعامة كاملة من بنية صخرية مصقولة. أقيمت بالأسلوب نفسه القناطر الضخمة التي ربّما كانت تشكّل بوابات المدينة. صمدت أمام. لعواصف ومرات الحصار على مدار ثلاثة آلاف عام، وتعرّضت لكثير من الزلازل، لكنّها لم تزل باقية على حالها.

حين يحفرون بامتدادها، يعثرون على صفوف متراصّة من الأبنية الضّخمة، تكتمل فيها أدقّ التفاصيل، وكما تركها العماليق السايكلوبيين بعد انتهاء إقامتها. ستقوم شركة إنجليزيّة بالتنقيب عن الآثار في إفسس.

لكنني تذكرت الآن -

قصّة النائمين السبعة (أهل الكهف)

يوجد كهف النّائمين السبعة هناك في هضبة بيون. حدث منذ خمسة عشر قرنا من الزّمان، أن سبعة من شباب إفسس كانوا يجاورون بعضهم في السكنى، وهم ضمن المسيحيين، الذين كانوا يشيعون بالازدراء في تلك الأيام. وصل الأمر إلى أن الملك الطيّب ماكسميليان، وأروي هذه القصّة للصغار الطيبين، بنات وبنين). أقول إن الأمر قد وصل إلى حدّ أن قام الملك الطيب ماكسميليان، وباضطهاد المسيحييّن، وزاد بمرور الوقت من اضطهاده لهم. لذا قال كلّ من شاب منهم للآخر، فلنتأهّب للرّحيل عن هذه البلدة، وتم لهم ذلك بالفعل. لم ينتظروا لتوديع آبائهم وأمهّاتهم أو أي من معارفهم. بل أخذوا معهم أموالا بسيطة مما في حوزة ذويهم، وثيابا خاصّة بأصدقائهم. حتّى يتذكرنهم في الغربة، وأخذوا أيضا كلبا لجارهم مالخوس واسمه. قطمير»، ذلك لأن الكلب وضع رأسه في طوق كان يحمله أحدهم بعفوية، ولم يسعفهم الوقت لتخليصه من الطّوق. وأخذوا أيضا بعض دجاج بدا مبيتا في قنان الجوار، ذلك فضلا عن اصطحابهم أشربة مجهولة كانت على نافذة جارهم البدّال ثمّ رحلوا عن المدينة. خلصوا بعد ذلك إلى كهف عجيب في هضبة بيون، فدخلوا وتناولوا، طعامهم وواصلوا السّفر مجدّدا. لكنّهم نسوا قوارير الشّراب

الغريب، وتركوها في الكهف. رحلوا إلى بلاد كثيرة، وقاموا بمغامرات عجيبة. وكانوا من الشباب العفيف، فلم يفوّتوا فرصة لكسب رزقهم إلاّ اغتنموها. كان شعارهم ينحصر في هذه الكلما. «التّأجيل لصّ الوقت»، لذا فإنهم حين أتوا رجلا، يعيش وحيدا، قالوا انظروا ذلك الذى هناك، دعونا نجرّب الحياة التي يعيشها، وتم لهم ذلك بالفعل. أمضهم طول السّفر ومواجهة الأخطار بعد خمس سنوات من رحيلهم فاشتاقوا للعودة مجددا ورؤية الدّيار القديمة، وسماع ورؤية ما عز أيام شبابهم من أصوات ووجوه. لذلك أقاموا مؤّقتا لدى بعض من التقوهم في الطّريق، ثم استأنفوا العودة إلى إفسس مجدّدا. كان الملك الطّيب ماكسميليان قد تحوّل إلى الدّين الجديد، وانشرح صدر المسحيين لذلك، لأنّهم لن يعودوا بعد إلى الاضطهاد. وصلوا في أحد الأيام عند غروب الشّمس، إلى الكهف الذى يقع على جبل بيون، وقال كلّ للآخر، لنرقد الليّلة هنا، ثم نمضي ونحتفل ونمرح مع أصدقائنا، عند قدوم الصّباح. وارتفع صوت كلّ من السّبعة قائلا إنّها فركة كعب. لذلك ولجوا كوّة الكهف، وكانت قوارير الشّراب المسكر الغريب، قد بقيت للأسف حيث تركوها، فوجدوا أن الزّمن لم يفسد صلاحيتها للشرب. وكان الرحالة على صواب، وتمتعت عقولهم با لرجاحة. وهكذا شرب الفتية القوارير الستّ، فتأمل ما شعروا به من إنهاك شديد، رقدوا على إثره وراحوا في سبات عميق.

قال أحدهم حين استيقظوا من سباتهم، وذلك يوأنّس، ويكني «سيميثيانوس»، قال إننا عرايا من الثياب، وتبين لهم أن الحق يقول. كانوا مجردين من الثياب بالفعل، وأن ما لديهم من نقود، حصّلوها من غريب، التقوا به في طريق العودة، كان ملقى على الأرض، وقد ران عليه الصدأ. كذلك خلا المكان من «قطمير» الكلب، ولم يبق سوى طوقه النّحاسيّ، فبهتوا بما رأوا. لكنهم جمعوا النقود، ولفّوا أجسادهم بأغصان الشّجر، وصعدوا أعلى التلّ، فبوغتوا بما شاهدوا، إذ زال من مكانه معبد ديانا، واختفت أبنية ضخمة من المدينة، وكان الناس من أهلها، يجوبون الشوارع وعليهم ألبسة غريبة لم يألفها الفتية من قبل، بل قد تبدّل حال المدينة كلّها.

قال يوأنّس: إنّ إفسس تبدو على حال مغايرة تماما للتي تركناها عليها. فها هو ذا مبنى الألعاب الرّياضية، وهذا المسرح الكبير، حيث كنت أرى سبعين ألفا يحتشدون فيه. وتلك أرض خلاء، وذلك جرن المعموديّة، حيث كان القديس يوحنا يحفظ أسرارا دينية، وهناك

سجن القدّيس الصّالح بولس، حيث اعتدنا جميعا الذهاب إلى هناك للتبرك بالأغلال القديمة التي قيّد بها، ومعالجة عللنا الجسديّة، إنني أرى قبر الحواريّ لوقا، وها هي من بعيد الكنيسة التي تضم رماد يوحنّا المقدّس، والتي اعتاد مسيحيو إفسس ارتيادها، مرتين في العام لحمل تّراب من مقبرته، كي تتعافى به الأجساد، بعد أن نخرتها العلل وتتطهّر به الرّوح من الخطيئة، ولكن انظروا كيف توغلت أرصفة الميناء في البحر، وكلّ هذه السّفن الرّاسية في الخليج. وانظروا أيضا إلى المدينة وقد ترامت أبعادها، حتّى امتدّت إلى الوادي، خلف جبل بيون، وتأملّوا أسوار أياسّالوك. وعجبا لهذه التّلال وقد حولتها القصور إلى اللون الأبيض، وشيّدت بصفوف من الأعمدة الرّخاميّة. فيا لضخامة ما صارت إليه إفسس!

ويا لعجب ما رأت أعينهم، بعد أن هبطوا من الجبل إلى المدينة، وابتاعوا ثيابا يلبسونها. حين أوشكوا على الذّهاب، عض. البائع بأسنانه ما نقدوه من عملة، وتفحصّها مستغربا، ثم ألقي بها على نضده، وقلّبها في يده، وسمع رنينها، وقال: «هذه عملة مزيّفة». فقالوا له: اذهب إلى الجحيم، وتركوه ومضوا. حين وصلوا إلى بيوتهم القديمة، عرفوها على الفور، رغم ما أصابها من قدم وبلى، فانشرحت صدورهم، وفرحوا بذلك. أسرعوا إلى الأبواب وطرقوها، ففتح لهم أغراب نظروا إليهم في حيرة، قالوا لهم باستياء، ودقات قلوبهم تتسارع، ويكسو وجوههم الشحوب، أين أبي، أين أمّي أين ديونيسيوس وسيرابيون، وبيركليز؟ قال الغرباء الواقفون بالباب، إننا لا نعرف عن هؤلاء شيئا قطّ. قال السّبعة، وكيف لا تعرفونهم؟ منذ متى وأنتم تقيمون هنا، وأين ذهب من كانوا قبلكم؟ قال الغرباء، أيها الفتية، إنكم لمازحون، نحن وأسلافنا نقيم تحت هذه السّقوف، طيلة ستّة أجيال سبقت، وإنّ ما تذكرون من أسماء قد بلت وانمّحت من فوق القبور، وتكل أسماء الراقدين فيها، بعد أن قضوا حياة قصيرة شاء لهم فيها الضّحك والغناء، وقدّرت لهم الهموم والأحزان، وفي نهاية المطاق، وحيث ولّت مائة وثمانون عاما، حلّ فيها صّيف بعد شّتاء، ثم رحل، وتساقطت خلالها أوراق الخريف، فخلدوا إلى رّقاد مع الموتى بعد أن زالت عن وجناتهم الحمرة.

فرّ الشبان الأربعة على الفور من أمام دورهم، وأغلق الغرباء خلفهم الباب. بهت الرّحالة بما رأوا، وتفرّسوا وجوه العابرين، علّهم يعثرون على من يعرفون، لكن الجميع كانوا غرباء عنهم، حيث كانوا يمرون بهم دون أن يرموهم بسلام أو تحيّة.

أسقط في يدهم، ومضهم الأسي. تحدثوا على الفور إلى شخص من أهل المدينة، وسألوه عن ملك إفسس، قال لهم وكيف لا تعرفون، أنّ من يحكم إفسس الآن، هو الملك لايرتوس العظيم؟ فنظر كلٌ إلى الآخر، وزادت الحيرة، وعاودوا سؤاله، عن الملك الطّيب ماكسميليان؟ فتحيّر المدنيّ بدوره من سؤاله، وبدا كمن بهت، قال هؤلاء بالفعل أناس يتطيّرون، ويسدرون في أحلامهم، وإلاّ لعرفوا أن ذلك الملك الذّي يتحدّثون عنه، قد مات منذ ما يربو على المائتي عام.

هنا زالت الغشاوة عن أعين الفتية السبعة، قال أحدهم وا أسفاه لما جرعناه من شراب غريب، أرقدنا بعد إغماء لقرنين من الزّمان، فها هي ديارنا غريبة علينا، وقد رحل أصدقاؤنا عن الدّنيا. انظروا، إنّ اللّعبة مستمرة فدعونا نموت. ذهبوا إلى الكهف بنهاية اليوم، ورقدوا فيه وقضوا نحبهم. ومنذ ذلك اليوم توقّفت في إفسوس، لعبة السفن أب (أي السبعة السباتية وهي إحدى ألعاب الورق)، لأنّ السبعة الذين استيقظوا من رقادهم قد عادوا مجدّدا إلى الرّقاد، وقضوا نحبهم هناك. والأسماء الظاهرة على قبورهم حتّى الآن هي: يوّأنس، وسميثيانوس، وترومبس، وجيفت، وهاي، ولو، وجاك، واللّعبة. وترقد مع النّائمين أيضا القوارير التي كانت تحمل الشّراب العجيب، وفوقها عبارات دينية بحروف قديمة كهذه: أسماء آلهة وثنيّة، من العصور القديمة، مثل رمبانش، وإنجونج.

تلك قصّة السبعة الرّقود، (مع تعديلات طفيفة) وأعرف أنّها حقيقيّة، فقد رأيت الكهف بأمّ عيني.

كان إيمان القدامى بهذه الرّواية صحيحا، حتّى إنّ المثقفين من الرّحالة، قد حشوها، لثمانية أو تسعة قرون مضين، بهلع يفوق الوصف. يسجّل اثنان منهم أنهما، غامرا بدخولها، ثم تراجعا على الفور، حيث لم يجسرا على البقاء فيها وإلاّ خلدا بالضرورة إلى السّبات، وعمّر أحفادهم قرنا من الزمان أو نحو ذلك. وحتى يومنا هذا يفضّل الحمقى من أهل الجوار، عدم الرّقاد في الكهف.

الفصل الحادي والأربعون

آخر ما سجّلته من يوميّات كان في إفسس. نحن الآن في سوريًا ننصب خيامنا فوق المرتفعات اللّبنانيّة. طالت فترة الانقطاع هذه في الزّمن. المسافة. لم نأت معنا من إفسوس بتذكار واحد. فبعد أن جمعنا شظايا من الرخام المنقوش وبعض قطع رقيقة من الزخارف من داخل المساجد، وبعد معاناة وقلق شديدين في حملها على ظهر بغل لمسافة خمسة أميال، كي ننقلها إلى محطّة القطار، أوقف مسئول حكوميّ، كلّ من يحوز أشياء كهذه حتّى يتخلّص منها، فقد صدر إليه فرمان من القسطنطينيّة لتفتيش فريقنا، والتأكد من أننا قد تخلّصنا مما نحمله. جاء ذلك في إطار الحكمة والانضباط، والزجر الحكيم. لكنّ، أثار انفعالنا. لم يحدث قط أن صددت غواية سلب حقوق أجنبي، دون شعور قهريّ بعبثية هذا التصرف. أحسست هذه المرّة بزهو لا يوصف. شعرت بارتياح في غمرة ما صبّت من لعنات على الحكومة العثمانية لما أبدته من صدّ تجاه مجموعة من سيّدات وسّادة محترمين، ساعين للمتعة. قلت: «نحن أناس أحرار الإرادة ولا علاقة لنا بذلك». لم نكن قد تعرّضنا للزجر فحسب، بل للتوبيخ الشديد. فقد اكتشف مطيع الأوامر المسئول. أنّ الأمر السّامي قد طوي في ظرف، يحمل خاتم السّفارة البريطانيّة في القسطنطينيّة، مع أنّ الواجب كان يحتم أن يتم الدفع به من قبل ممثّل الملكة. كان ذلك تصرّف بالغ السوء. فصدور ذلك من جانب العثمانيّين فحسب، يشي إلى كراهيتهم للمسيحيين، وإلى ما يعرف عنهم من جهل مطبق، باتّباعهم أساليب ملتوية للتعبير عن تلك الكراهية، لكنّ حين يصدر ذلك عن مفوّضية بريطانيّة سياسية، ونصرانية متحضّرة، فذلك يلمّح ببساطة إلى أننا صّنف من الرّجال والنّساء يمكن أن يتحمل المراقبة! وهكذا وعت الجماعة الأمر وسايرته على هذا النحو. كانت الحقيقة التي لا تقبل الشك، أن تلك المحاذير كانت تسري على كل المسافرين، لأنّ الشّركة الإنجليزيّة صاحبة الحقّ في التّنقيب عن الآثار في إفسوس، والتي سدّدت مقابلا ماديًا كبيرا لنيلها هذا الحقّ، كانت في حاجة إلى حماية، ولها كل الحقّ في ذلك. ذلك أنّها لا تستطيع تحمل احتفاءها

بمسافرين، قد آساءوا فهم تلك الحفاوة، بخاصة إذا كان المسافرون من ذلك النوع المعروف بالاستهتار بالمسلك المشرّف.

أبحرنا من سميرنا، بنفس توّاقة، إلى المعلم الرّئيس والهدف الأكبر من الرّحلة، وقد صار منّا قاب قوسين أو أدنى، حيث نقترب الآن من الأرض المقدّسة. لم تشهد السّفينة من قبل، حركة كتلك، داخل مخزن السّفينة، بحثا عن صناديق الأمتعة التّي ظلّت حبيسة لأسابيع بل لشهور، وهرولة على ظهرها وفي قاعها غدوة ورواحا، وأساليب صاخبة في الحزم والتفريغ، وبعثرة الكبائن بالقمصان والتّنانير، ونثار يصعب توصيفه وتصنيفه، وحزم للصّرر، وتنحية للمظلاّت والعوينات الخضراء والسواتر السميكة، والفحص الدقيق لأسرجة وألجمة جياد لم تمس بعد، وتنظيف وحشو المسدّسات، وفحص المديَ ذوات الغمد، وترقيع البنطلونات بجلد الغزال المتين.ثمّ التحديق في الخرائط القديمة، والقراءة عن الرّحلات السابقة إلى فلسطين. ما ورد عنها بالإنجيل، والإلمام بمعالم الطّرق، وبذل الجهود في تقسيم الجماعة كلّها إلى مجموعات صغيرة متوافقة، بحيث يمكنهم تحمّل السّفر الطويل الشّاق دون مشاجرات، ثمّ إقامة قدّاس الظهيرة واللّيل في الكبائن، وإلقاء الخطب، وطرح المقترحات البنّاءة، ثم إثارة القلاقل والمشاحنات، وإثارة حالة من الانزعاج الشديد بين الجميع.

لكن ذلك كلّه أوشك على الانتهاء، بعد أن تمّ تقسيمنا إلى ثماني أو ستّ مجموعات، فتفرقنا عن بعضنا بعضا. انفردت مجموعتنا بقبول مخاطرة ما يطلق عليه «الرحلة الطّويلة» بالتوغّل داخل سوريّا، مرورا ببعلبك ثمّ التوجه إلى دمشق، ومنها إلى الطّريق الممتدّ الموصل إلى فلسطين. أزعم أن هذا الجزء من الرحلة كان يحمل قدرا كبيرا من المخاطرة والمشقّة، في ظلّ هذا الوقت الحارّ من السّنة، حتى للأشدّاء، ممّن اعتادوا مكابدة مشقّة ووعورة السير في الخلاء. أمّا المجموعات الأخرى فقررت سلوك دروب الرحلات الأقصر.

شغلنا على مدار الشّهرين الماضيين، بشأن جزء من رحلة الحجّ إلى الأرض المقدّسة.أشير في هذا الصّدد إلى وسائل التنقّل. كنّا ندرك تماما أنّ فلسطين من البلاد التّى لا تتوفّر فيها وسائل لنقل المسافرين. وقد أحاطنا كلّ من قابلناهم علما بأنّه لن يتيسّر لنصف فريقنا العثور على تراجمة ودوابّ. لجأ كلّ منّا ونحن في القسطنطينيّة إلى إرسال برقيّات للقنصيّات الأمريكيّة في الإسكندريّة وبيروت، لإخبارهم برغبتنا في الحصول على تراجمة ووسائل للتنقّل.

خاب أملنا في العثور على جياد للركوب أو حمير أو زراف أو حتّى كانجارو، أيّ شيء. أرسلت ونحن في سميرنا عديدا من البرقيّات. لم تسفر بدورها عن شيء. أبرقنا خشية مغبّة حدوث الأسوأ، لحجز عدد من المقاعد في إحدى المركبات العامّة. المتّجهة إلى دمشق، وجياد تنقلنا إلى منطقة بعلبك الأثريّة. حدث ما كان في الحسبان، حيث سرى انطباع خاطئ في سوريًا ومصر، بأنّ أهل إحدى المقاطعات الأمريكيّة (يعتبرنا الأتراك مقاطعة صغيرة تافهة في ركن بمهجور من العالم)، قادمين عن بكرة أبيهم إلى الأرض المقدّسة، لذا وبمجرّد وصولنا بيروت البارحة، وجدنا المكان محتشدا بالتراجمة، ومزودين بلوازم السفر. عزمنا جميعا على التوجّه إلى دمشق على إحدى المركبات العامة التي تجرها الجياد، ونتحوّل منها إلى بعلبك بحسب اتفاقنا، وذلك لأنّنا توقعنا اللّحاق بالسّفينة، والذهاب إلى جبل الكرمل، والتوغّل داخل الغابات من هناك. ورغم ذلك عدّلنا البرنامج حين وجد ثمانيتنا فيه، إمكانيّة كبيرة وملائمة، في إنجاز الرحلة الطّويلة. لم نكن نشكّل أيّة متاعب من قبل لأيّ قنصل. لكنّنا كنّا مصدر إزعاج لقنصلنا في بيروت. أذكر هذا لأنّني لم يسعني سوى الإعجاب بصبره وطول باله وتأدّبه. أذكر هذا أيضا لأنّني أن بعضا من أفراد رفقة السّفينة لم يظهروا ما استحقّه من جزيل الشّكر عمّا قدّم لنا من خدمات متميّزة.

أجل، اختير ثلاثة أفراد من خارج مجموعة الثمانية لتولّي كلّ ما يتعلّق بالرّحلة. لم يكن لدى البقيّة ما يفعلوه سوى التطلّع إلى جمال بيروت وحسنها، وما احتضنت من دور جديدة وسط وفرة كبيرة من الشجيرات اليانعة، المتناثرة على أرض مرتفعة، انحدرت في نعومة نحو البحر، والنّظر أيضا إلى جبال لبنان المحيطة بها، والتّطلّع إلى تسبّح في المياه الرّقراقة الزّرقاء التي تتلاطم أمواجها باتّجاه السفينة، (لم نتأكّد إن كان لأسماك القرش وجود هناك أم لا). كان علينا أيضا التجوال بمناطق المدينة المتدرجة في الارتفاع والانخفاض، ونطّلع على تقاليد أهل البلد. لم تكن تلك المناظر على ما فيها من جمال وجاذبية، بدرجة ما شاهدناه نفسها من تنوّع في القسطنطينيّة وفي سميرنا، بل أضافت نسوة بيروت عذابا، ففي المدينتين السّابق ذكرهما يضع الجنس الآخر حجابا رقيقا على الوجه يظهر ما تحته، (كما يكشفن في الغالب عن كواحلهن) لكنّ نسوة بيروت ينتقبن بالكامل بخمر سميكة أو سوداء، فيبدين أشبه بالمومياوات، ويكشفن بعد ذلك صدورهنّ للعيان.

تطوّع أحد السّادة وأظنّه يونانيًا تطوّع باصطحابنا في جولة حول المدينة بهدف الفرجة، وذكر أنّ ذلك سيسره كثيرا، لأنّه عاكف على دراسة الإنجليزيّة وراغب في التدّرب على تلك اللّغة.

طلب بعد انتهائنا من الجولة مقابلا لخدماته ذاكرا أنّه تطلّع إلى أن يقدّم له السّادة مقابلا زهيدا من بضع قروش، (ما يعادل مثلا خمسة سنتات). نفذنا ما طلب. بهت القنصل حين سمع بذلك، وأخبرنا بمعرفته الوثيقة بعائلة هذا الشّابّ، وأنّها عائلة عريقة. ذات شأن، وأنّ ثروتها تقدّر بمائة وخمسين ألف دولار! قد يستحي البعض من اللّجوء لمثل مسلك هذا الشاب، ومن الأسلوب الذى تقرّب به إلينا.

أثبتت اللّجنة المكلّفة بإدارة شئوننا فعاليتها، وذكرت أنّ كلّ الجياد معدّة للركوب وأنّ علينا اليوم الاستعداد للسفر اليوم، بالجياد والدوابّ المخصّصة بحمل الأمتعة، والخيام، إلى بعلبك، ثم دمشق، ثم بحيرة طبريّا، ومن هناك نتّجه جنوبا مرورا بالموقع الذى شهد حلم يعقوب والمواقع الأخرى الشهيرة التّي ورد ذكرها في الإنجيل، حتّى نصل أورشليم يعقب ذلك احتمال التوجّه إلى البحر الميّت من عدمه ثم نتجّه للحاق بالسفينة، خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع من الآن في يوبا، مع سداد خمسة دولارات ذهبية عن كلّ يوم، تدفع نقدا، ويقوم التّرجمان بإنهاء كلّ المسائل. ذكروا أيضا أنّنا سنقيم في أحد الفنادق. قرأت من قبل ممثيلا لذلك، ولم أكره نفسي على تصديق كلمة واحدة ممّا قيل لنا. التزمت الصّمت التام رغم ذلك، بل قمت بحزم بطّانيّة وشال كمتاع للنوم، وغلايين وتبغ، وقميصين من الصّوف أو ثلاثة، وحقيبة لحفظ الأوراق، وكتاب الدّليل السّياحي، ونسخة من الإنجيل، فضلا عن منشفة وقطعة صابون، حتى ألق احتراما لدى من يظنني من العرب متنكرا في هيئة ملك.

كان علينا اختيار جيادنا في الثالثة عصرا، بعد أن جاء بها إبراهيم التّرجمان في الموعد المتّفق عليه. وأكون صادقا هنا، لو ذكرت أنّ تلك الجياد كانت من أسوأ ما شاهدت في حياتي من فصيل الجياد، وأنّه قد تجهزت بما يلائم بالضرورة نوعها. جحظت عين أحدها إلى الخارج، وقطع ذيل أخرى حتّى منبت الذيل فصارت كالأرنب، وهي تعتز بذلك، وغار عظام متن ثالثة. بدءا من الرقبة حتّى الذّيل كتلك القناة الغائرة التي اعتدنا رؤيتها في أنحاء روما، وعلت رقبتها كعمود الصّاري الغليظ المائل. الجياد كلّها عرجاء، وظهورها تنضح

بقروح، مع ظهور بعض مواضع مصابة بالجفاف، مع قشور قديمة توزّعت على الجسد كثّ الشعر كبراغيّ نحاسيّة في جذع شجرة. أمّا مشية الجياد فعجيبة تبعث على التأمّل، وحافلة بالتنوّع حيث يتحرّك الرّكب كأسطول في عاصفة. كان مشهدا مرعبا. هز بلاشر رأسه وقال: «سيوقع الوغد نفسه في معضلة، بإخراجه هذه الأقفاص القديمة من المستشفي وهي بهذه الحال، وذلك إن لم يكن قد رخّص له».

التزمت الصّمت. تطابق ما رأيناه مع الوارد في كتاب الدليل، ألم نهتدي به في السفر. انتقيت جوادا بعينه، وكان سبب ذلك أنّي ظننت فيه الحياء، وظننت أنّ حصانا على هذا القدر من الحياء يستحيل أن أغضّ الطّرف عنه.

توقّفنا في السّادسة مساء فوق قمّة جبل رائعة يهبّ عليها النسيم، يطلّ على البحر، وعلى إحدى الوهاد البديعة، التّي أقام بها منذ عهد قديم، بعض أولئك الفينقيين الرّحّل، ممّن قرأنا عنهم كثيرا في الكتب، وكان ذات يوم كلّ ما يحيط بنا من أملاك حيرام، ملك طيرة، ذلك الملك الذى جاء بضلوع من خشب الأرز، في التّلال اللّبنانيّة لبناء أجزاء من هيكل الملك سليمان.

بعد السّادسة بقليل وصل قطار شحن الأمتعة. لم أكن قد رأيته من قبل، ومن حقّي الكامل أن أصاب بدهشة. كان في خدمتنا تسعة عشر رجلا وستّة وعشرين بغلا لحمل الأمتعة! كانت قافلة مكتملة. وبدت أسبه كانت عليه وهي تشقّ طريقها بين المنحنيات والصّخور. حرت في البلوى التي جعلت حشدا كهذا يخصص لخدمة ثمانية رجال. لم تستغرق حيرتي وقتا، فسرعان ما بدأت أصبو إلى علبة معدنية من لحم الخنزير المقدّد وفاصوليا. أقمت كثيرا من قبل في الخيام، وكنت أعرف بالضّبط ما ينتظرنا. تحرّكت، دون انتظار من يقومون على الخدمة، وخلعت السّرج عن فرسي، وغسلت تلك الأجزاء من أطرافه، وعظام عموده الفقريّ البارزة من تحت الجلد، ورأيت لدى عودتي خمس خيام فخمة مستديرة أعدّت. تألقت بالأزرق والذّهبيّ والقرمزيّ، بأسلوب زخرفيّ بديع ' ولم أنطق بشيء. جاءوا بعد ذلك بثمانية هياكل لأسرّة حديديّة صغيرة، ونصبوها في الخيام، ثمّ زوّدوا كلّ سرير بحشيّة رقيقة ووسادة ودثر جيّدة، وملائتين ناصعتي البياض. أعقبوا ذلك بتجهيز طاولة حول وتد الخيمة الأوسط، وضعوا عليها أوان قصديريّة وطسوت، وصابون، ومناشف هي الأنصع خصّصت واحدة منها، وأشاروا إلى جيوب في الخيمة. ذكروا أنّ بإمكاننا وضع

ما خفّ لدينا بداخلها لتكون في متناولنا. ولو احتجنا دبابيسا أو ما شابه، فقد غرزوها في أماكن كثيرة بالخيمة.

كان بسط السجاجيد على الأرض آخر ما قاموا به! علّقت قائلا: «لو أنّ هذا الذى فعلتم تسمونه تخييما، فلا بأس، لكنّه ليس بالصورة التي اعتدتها، فحقيبتي الصغيرة، التّي جئت بها لا تندرج تحت هذا المسمى» .

حلّ المساء، فوضعوا شموعا فوق الطّاولة ثبتّت الشّموع في شمعدانات جديدة لامعة من النّحاس. سرعان ما دقّ الجرس وهو جرس حقيقي. غير مزيّف ودعينا إلى «القاعة». كنت في السّابق أظنّ أن لدينا خيمة أو هكذا كثيرا منها، لكنه جهز هنا الآن لهذا الغرض خيمة واحدة على الأقلّ، لم تستخدم في شيء سوى أنها قاعة للطّعام. كانت من الارتفاع كباقي الخيام ما يجعلها تتّسع لإقامة عائلة من الزّراف. كان المكان وكانت متناسقة تماما ونظيفة وألوانها لامعة في الدّاخل. كانت تشي بروعة المكان. كان كلّ شيء فيها معدًا في أنسب صورة، مائدة لثمانية أفراد، وثمانية مقاعد وثيرة، وفرش للمائدة ومناشف تسخر إلى حد التهكم نقاء وروعة من الأشياء التي اعتدناها في باخرتنا الضّخمة، ناهيك عن أدوات المائدة من شوك وسكاكين، وصحون للطّعام والحساء وكلّ ما يرقى إلى الذوق الرّفيع. كان ذلك مبهرا، ويزعمونه عسكرة في الخيام. تقدّم أولئك الرّفاق الأجلاّء، في بناطيل فضفاضة، وطّرابيش ملفلفة بالعمائم، إلى مائدة عشاء عامرة بالمشويات من لحم الضّأن والفراريج والأورّ، فضلا عن الطّماطم والخبز والشّاي ومالذّمن تّفاح وطاب من عنب. فاق الطّعام في طهوه، ما ظللنا نتناوله لأسابيع، وشكّلت المائدة صورة أروع، بشمعداناتها الألمانية الضّخمة المصنوعة من الفضّة. بذلك فاقت أيّة مائدة شهدت حضورنا منذ فترة. كان هناك أيضا التّرجمان المهذب إبراهيم، الذى جاءنا منحنيا، ومقدّما أعذاره عن كلّ ما واجهنا من وعثاء السفر بالبرّ، كان يستحيل تجنّبه مع طول مسافة الرّحلة، وتعهّد بأن يطرأ تحسّن كبير في قابل الأيّام.

ها قد حلّ منتصف اللّيل. وفي السّادسة صباحا استأنفنا السّفر.

يزعمون أنّ هذا تخييما في الخلاء. وهكذا نحقق فوزا عظيما برحلة حجّ إلى الأرض المقدّسة.

الفصل الثاني والأربعون

نصبنا الخيام، بالقرب من قرية «تمنينة الفوقا»، واضطلع الصّبية عنّا بتبسيط الاسم كثيرا، كي يسهل نطقه. يطلقون عليها «جاكسون فيل» وتبدو غرابة في هذا الاسم هنا في البقاع اللّبنانيّة لكنّه أسهل حفظا من الاسم العربيّ.

«يأتون كالأرواح، وبذا يرحلون.

ستكون اللّيلة حافلة بالألحان.

والرّاغبون في تعكير صفو الصّباح،

سيطووا خيامهم كالعرب،

ويرحلون خلسة في هدوء ».

نلت اللّيلة الماضية قسطا وافرا من النّوم، ولكن وصلت إلى سمعي، دقّات ناقوس الترجمان، وهتافه يدوّي في الآفاق في الخامسة والنّصف صباحا «عشر دقائق لارتداء الثّياب، وتناول الإفطار». سمعت كلاهما. أدهشني، لأنّني كنت في السّفينة لشهر كامل لا أسمع دعوة إلى الإفطار، وحينما كانت تسنح لنا الفرصة لإطلاق المدفع بتحيّة في النّهار، فإنّني لم أكن اكتشفها ألا فيما بعد، في سياق الحوار. ومع ذلك فإنّ الإقامة في الخلاء، حتّى لو كانت في خيمة جميلة فإنّها تبعث في المرء الحركة والنّشاط في ساعات الصّباح، بخاصّة، إذا كان ما يستنشقه المرء هواء الجبال المنعش.

ارتديت ثيابي في عشر دقائق، وخرجت من الخيمة. كانت خيمة القاعة قد جرّدت من أجنابها، ولم يبقّ منها غير السّقف، لذا فإنه حين التففنا حول الطاولة، تمكنّا من استشراف

بانوراما الجبل الرائعة، والبحر والوادي الغائم. رأينا ونحن جلوس، إشراق الشمس تدريجيًا، فتبرقش المشهد بجلوة من شتّى الطبقات اللّونيّة.

تميّزت بالجودة قائمة الطّعام المكوّن من شرائح الضّأن السّاخنة، والدّجاج المقلي، وعجّة البيض، والبطاطس المقليّة والقهوة. زاد من الاستمتاع بها شهيّة ضارية، حرّكتها رحلة اليوم الفائت الشّاقة على ظهور الخيل. طلبت كوبا آخر من القهوة، ولمحت بطرف عيني، القرية البيضاء التّي تركناها وهي تغيب عن العيان وتلاشت الخيام الجميلة كالسّحر! أذهلتنا السرعة التي «يفضّ بها العرب خيامهم»، كما أذهلتنا طريقة جمعهم كمّا هائلا من مخلّفات المخيّم وذهابهم بها دون أن يلحظهم أحد.

كنّا على الطّريق في السّادسة والنّصف، وبدا أن هناك سوريين يسلكون الطّريق نفسه. كان الطّريق محتشدا بقطر البغال وركب الجمال الطّويل. يذكّرني هذا المشهد، بأنّنا كنّا لبعض الوقت نحاول من قبل رسم صورة في أذهاننا للجمل. أمّا الآن فقد اكتملت لدينا صورته. يبدو الجمل في جثوّه على ركبه ومدّ صدره إلى الأمام لتلقّي الأحمال، أشبه بأوزّة تسبح في الماء، وحين يقف على أرجله، يشبه نعامة متعددة الأرجل. تفتقر الإبل إلى الجمال، فشفتها السّفلي تقارب في الشّبه حمّالة بنطال مصرومة(*). للجمل قدم ضخمة مستوية، وثارها كشوكة، ما يجعل أثر قدمه فوق التّراب، أشبه بكعكة تنقصها شريحة. تفتقر الإبل إلى نظام معيّن في الغذاء، لكنّها قد تلجأ إلى التهام بلاطة لو استطاعت. تلتهم الإبل الأشواك الإبريّة النّامية هنا والتّي أظنّها لو غرزت في جلد إنسان فلا شفاء منها إلاّ باللّعان، بل تبدو كمن يتلذّذ بالتهامها، وظنّي أنه يحسن التّقرب إلى الإبل، بإهدائها كيلو من البراغيّ الحادّة على العشاء.

بينما أتحدّث هنا عن الدّواب، سأذكر أن لدي الآن جوادا اسمه «يرشو»، وهو أنثى. رأيت من قبل خيولا رائعة، لكنّها لا تفوق مهرتي هذه روعة.. رغبت فرسا قادرا على الحياء، وحققت هذه مرامي. كان انطباعي أنّ الحياء دليل الحيويّة. فإن كنت على صواب، يكون لديّ الآن أكثرها نشاطا على وجه البسيطة. يصيبها الخجل من كلّ عابر سبيل بتجرد

(*) عذرا لسوقيّة اللفظ. فأيّ كلمة أخرى لم تكن لتفي بالغرض.

شديد. يبدو أن هذا المخلوق مصاب برعب أزلي من أعمدة التلغراف بخاصّة. ومن حسن الطالع أنّ هذه الأعمدة تقع على جانبي الطّريق، لأنني كما هو الحال الآن لم أسقط مرتين متعاقبتين على الجانب نفسه. لأنه لو استمرّ سقوطي على الجانب نفسه لأدركني الملل بعد فترة قصيرة. هلع هذا المخلوق اليوم من كلّ ما رأت عيناه، عدا عريش التّبن. تقدّم إليه بجسارة وطيش مذهلين. وما يملأ أيّ امرئ عجبا رؤيته محتفظا بغريزة التملك لديه في حضور كيس شعير. ستودي تلك الجسارة الشيطانية يوما ما، بحياة هذه الفرسة.

لم يكن جوادي بالفرس السريع، لكني أظنه قادرًا على أن يبلغني الأرض المقدسة. يعيبه شيء واحد فحسب، حيث قطع ذيله عن آخره أو بالأحرى أنه كان أحينا يجد صعوبة كبيرة لدى إناخته فوق ذيله، وكان عليه مكابدة طرد الحشرات الطّائرة بكعوبه، وليس في هذا بأس، إلاّ إنّه حين كان يحاول ذبّ حشرة عن رأسه بقدمه الخلفيّة، كان يأتي الأعاجيب. يتوقّع له يوما ما وضع نفسه في مأزق جرّاء فعلته هذه. كان أيضا يتطاول عليّ بالعضّ، ولست أرى في الأمر غضاضة، فلست أرغب في رؤية فرس يبالغ في التو!د.

أظنّ أنّ مالك هذه الغنيمة، لديه فكرة خاطئة عنها. فهو يظنّ في الفرس الجهل والجموح، في حين أنّه لا يدرج مع هذا الصّنف من الجياد. أعرف أنّ العربيّ لديه مثل هذه الفكرة، لأنّه كان إذا أتى بفرس إلى بيروت لفحصه، يظلّ ناخعا لجامه، هاتفا به بالعربية «حا، ويحك. أترغبي أيّتها البهيمة الشّمطاء في الانفلات، فتحطّمين عنقك؟». في الوقت الذى لم يكن الفرس يلوي على شيء سوى كمن يبدي رغبة في الارتكان إلى شيء والتأمل. كما يلجأ إلى ذلك أيضا حينما لا ينتابه خفر من شيء، أو يضطر إلى مطاردة ذبابة. وكم كانت حيرة صاحبه حين يدرك ذلك.

ظللنا طوال النّهار في الجزء التّاريخي من البلدة. خيّمنا في الظّهيرة لثلاث ساعات، وتناولنا غداءنا في «مكسة» بالقرب من المفرق الواصل بين جبال لبنان و«يبيل الكنيّسة» واستشرفنا وادي لبنان المنبسط والفسيح والشبيه بغيضة. ننصب الليلة الخيام بالقرب من الوادي نفسه. وقد حظينا بإطلالة شاملة منه في المشهد. تمكنّا من رؤية قمّة «جبل

حرمون» الممتدّة والمحدودبة كظهر الحوت. بارزة فوق التلال الشّرقيّة. اغتسلت كلّ الخيام تقريبا. بقطر النّدى المتساقط علينا الآن من جبل حرمون.

يمكننا من بعيد ومن مكاننا. بأعلى الوادي وبالعدسات المكبرة. رؤية صورة ضبابية لبقايا آثار بعلبك العجيبة. والإله المزعوم «بعل جاد» الوارد ذكره في الكتاب المقدّس. كان يوشع ومعه آخر قد أرسلا في مهمّة استخباراتية. وأدخلا أرض كنعان هذه. بواسطة بني إسرائيل. ليقدّما تقريرا عن طبيعتها. أعني أنّهما أنجزا عملهما بنجاح. عادا ببعض عيّنات من عنب هذه البلدة. كما أنهما يظهران دوما في كتب الأطفال المصوّرة. يحملان عنقودا هائلا. مائلا إلى عمود منتصب بينهما. حمولة معتبرة تسع عربة قطار شحن.

بالغت كتب مدارس الأحد في ذلك بعض الشّيء. فالعنب أكثر روعة حتّى يومنا هذا. لكن العناقيد ليست بهذه الضّخامة التّي تصورها الكتب. لقد دهشت لمرآها وتألمت. لأنّ عناقيد العنب الضّحمة تلك. كانت أكثر ما يعجبني في الروايات الدينية المخصصة للأطفال.

أتمّ يوشع مهمّته على خير وجه. وتواصلت رحلات بني إسرائيل. وكان موسى يمسك بزمام السّلطة. ويوشع في قيادة جيش قوامه ستّمائة ألفا من المحاربين. ومن النّساء والأطفال والمدنيين حشود لا تحصى. ولم يكن من بين هذا الحشد الهائل سوى مخبرين اثنين كرّسا حياتهما للحصول على موطأ قدم في الأرض الموعودة. قضيا وأنسالهما في التّيه أربعين سنة. ومضى موسى وهو المحارب الموهوب والشاعر والسّياسيّ والفيلسوف بعد ذلك. إلى بسجاح ولقي مصيره الغامض. حيث لا يعلم أحد أين وري جثمانه الثّري. ذلك أنّه :

«* * * * لم يحفر أحد ذلك القبر

وما رآه أيضا أحد ـ

فأبناء الربّ أزاحوا الثّرى

ووسّدوا الرّاحل هناك!».

شرع بعد ذلك يوشع في شنّ غزواته الرّهيبة. وسوى بالأرض كل ما اعترض طريقه من «يرشو» إلى «بعال جاد» هذه. مثل رّوح الدّمار الحارسة. ذبّح في البشر وبدّد أرضهم. وجعل قراهم أثرا بعد عين. كما قضي على واحد وثلاثين ملكا. قد يزعم البعض حدوث

شيء من هذا القبيل، مع أنه يصعب في الحقيقة الزّعم بقضاءه على الملوك كلّهم. لأنّ تلك الفترة كانت تزخر دوما بالعديد من الملوك، ومنهم يقينا من نجا. قضى إذ على واحدا وثلاثين ملكا، ووزّع ممالكهم بين بني جلدته من الإسرائيليين. وقسّم هذا الوادي الممتدّ أمامنا. فصار يوما هكذا أرضا لليهود. ظلّ اليهود لوقت طويل يقيمون بها. ومضى مع ذلك وقت طويل على قطع شأفتهم منها.

بعد مسيرة ساعة من هذا المكان، مررنا بقرية عربية. بدت أمامنا بيوتها كصناديق متحجرة للملبوسات، حيث تضمّ قبر نوح المغلق بالضبّة والمفتاح. (نوح صانع الفلك). على هذه التلال والوديان ترك الفلك الذى حوى عالم زائل طفا يوما ما. لن أعتذر عما ورد آنفا من تفاصيل لما ذكر من معلومات، لأنّها يمكن في كلّ الأحوال أن تكون جديدة لبعض قرّائي.

أقيم قبر نوح من الحجر ووري بغطاء حجري مستطيل استطعنا بواسطة البقشيش دخول الضّريح. تطلّب الأمر أن تكون بنية الضريح واسعة. فصاحب المقام، الملاّح القديم، كان بذاته يبلغ من الطّول مائتي وعشرة أقدام! و كان ارتفاع الضّريح رغم ذلك أربعة أقدام فحسب. لا بد لصاحب الضّريح من أن يكون قد ألقى بظلّ كظلّ مانع الصواعق. لا يمكن لأحد أن يشكّك في صّحة نسب قبر نوح إلى موقعه، سوى غلاة الشكّاكين. ودّليل ذلك لا قبل لأحد بالاعتراض عليه. فسام ابن نوح كان حاضرا مراسم الدّفن. فعرّف المكان بدروه لأبناء سام، وتوارد التعريف بالتّالى من جيل إلى جيل، حتّى وصلت تلك المعرفة إلى جيلنا الحاضر. ومن دواعي غبطة المرء أن يكسب شرف التعرّف بأفراد عائلة كريمة كتلك، ثم يعقب بالتعرف إلى نوح ذاته.

ومـن الآن فصـاعدا، ستلقى رحلة نوح التّاريخيّة، حظوة من جانبي بالاهتمام بها كلّ الاهتمام.

لو أن هناك من الأجناس من عانى اضطهادا، فإنهم أولئك المحيطين بنا والمتبلين بطغيان الإمبراطورية العثمانيّة اللاإنسانيّ. وآمل أن تسمح أوروبا لروسيا بإنزال بعض العقاب بتركيا دون مغالاة في العقاب، ولكن بما يكفي جعلها تجد مشقّة في العثور على هذا المكان مجدّدا، دون أن تستخدم عصا التنبؤ أو غرفة الغوص. فالسّوريون يعانون فقرا مدقعا، ويفرض عليهم أيضا نظاما للجباية، قد يؤدّي بأمة أخرى إلى العصيان. كانت رسوم

الجباية في السنة الماضية شديدة الوطأة بكلّ المقاييس بل أخذت في التزايد بإضافات كان قد تم الإعفاء منها في أوقات المجاعة في السنوات الماضية. وفوق ذلك كلّه، أعادت الحكومة ضريبة عشر الريع الكلّي للأرض. هذه نصف القصّة فحسب حيث لا يجشّم باشا الباشوية نفسه عناء تعيين جباة للرسوم. إذ يحدد القدر الواجب تحصيله في إحدى المناطق ويلزم باقي المناطق بسداد القيمة نفسها. ويقوم بدعوة الأثرياء معا، لترسو المزايدة على أعلى المزايدين سعرا، فيسدّد للباشا ثمن المحصول في موقع المزايدة، ويبيع المحصول بدوره إلى أصحاب الفئة الأقلّ سعرا، الّذين يبيعونه بدورهم إلى حشد من القراصنة الأدنى سعرا، فيجبر هؤلاء الفلاّح على جلب محصوله الهزيل إلى القرية على نفقته الخاصّة. أثقلت تلك الرّسوم على تنوّعها كاهل المنتج، بحيث لا يتبقى له من محصوله سوى النّذر اليسير. لكنّ الجابي كان يؤجل إعادة ما تبقى له يوما بعد يوم، حيث تتسوّل أسرة المنتج ما تقتات به، فيلجأ المضطهد المسكين نهاية المطاف وبعد إدراكه اللّعبة إلى قول: «خذ الرّبع، أو النّصف أو الثّلثين حسبما تشاء، ودعني أمضي بالباقي، لحال سبيلي» وتلك أكثر أوضاع العيش لا إنسانية.

أناس كهؤلاء، قد جبلوا بطبعهم على العلم والذّكاء والسماحة والحريّة، يمكن أن يتحلوا بالرّضا والقناعة. وأغلب الظنّ أنّهم يطالبون المحتلّ بأن يدرك أنه سيأتي يوم تتحقق فيه نجدتهم وخلاصهم بيد العالم قاطبة. فالسّلطان لا يزال يبدد الأموال السائلة كالماء في إنجلترا وفرنسا، ورعاياه يكابدون مشقة الحصول عليه الآن.

يحيّرني هذا الأسلوب الذى يتبعونه في التخييم بالبرّ. صار لدينا الآن لبَيسات أحذية وحوض للاستحمام، ولم يكشف بعد عمّا تحمله بغال حمل الأمتعة من خبايا. فماذا بعد ؟

الفصل الثّالث والأربعون

عانينا سفرة شاقّة استغرقت زهاء خمس ساعات تحت لهيب الشّمس، وعبر وادي البقاع اللّبنانيّ. تأكّد أن المكان لا يحظي بوفرة من الحدائق، كما ظهر من أنحاء التلّ. كان صحراء جرداء، افترشها العشب النّامي بين الصّخور بحجم كف إنسان. قلّب قاطنوه الأرض في موضع أو آخر وتعهّدوا مؤخرا باستنبات الليل من الحبوب. لكنّ القطاع الأكبر من الوادي عهد به لحفنة من الرعاة، وقطعانهم التّي تكدّ مشقة في الحصول على ما تقتات به، وفرصها لتحقيق ذلك تكاد تنعدم. رأينا على فترات، أكواما من الحجارة الضّخمة مكوّمة على جانب الطّريق، وعرفنا من خلالها التعريفة الجمركية التي كانت تحصّل في زمن يعقوب مقابل عبور الحدود. خلا المكان من كلّ شيء فلا جدران ولا أسوار أو أسيجة، تحمي ممتلكات البشر، سوى هذه الأكوام المتناثرة من الحجارة. التزم الإسرائيليون بقدسيّتها، في العهود التّوراتيّة القديمة، ويعتقد هؤلاء العرب وأنسالهم الاعتقاد نفسه. قد يلجأ أمريكيّ على الفور، من ذوي الأفق المحدود، إلى توسيع نطاق ممتلكاته لقاء ما يؤدّيه من عمل يدويّ يؤدي فترة اللّيل، في ظلّ نظام هشّ مفكك كهذا.

المحاريث الّتي يستخدمها النّاس هنا مجرّد عصيّ بسيطة مدبّبة، كتلك التي كان إبراهيم يقلّب بها الأرض، وما زالوا حتّى الآن يذرّون حنطتهم بها مثلما كان يفعل يكوّمونها فوق أسطح البيوت، ثمّ يذرّون في الهواء حفنا منها بالجواريف، إلى أن تذرو الريح ما انفصل عنها من تبن، وليس من المأمول أن يبتكر هؤلاء شيئا جديدا، أو يتعلّموا شيئا.

أقمنا سباقا رائعا، مضماره ميلا واحدا، وكان منافسنا في السّبق عربيّ يركب بعرا. بلغ من سرعة جيادنا، ما جعلها تحقّق سبقا طيّبا. لكنّ الجمل لحق بها دون مشقّة. جعل الهتاف والصّياح والجلد بالسّياط والتواثب من كل المشاركين، جعلوا السّباق حماسيا، مثيرا ومليئا بالصخب خاصّة.

التفت أعيننا في الحادية عشر بأسوار وأعمدة بعلبك، ذلك الأثر العظيم الذي يعدَ تاريخه سجلاً موثقا. بقي هذا الأثر في موقعه الحالي آلاف السّنين، ليكون مثار إعجاب واهتمام السّائحين، ولا يزال بناته وتاريخ إقامته مجهولين. ومع ذلك فهناك شيء يقيني مؤكد. إنّ تصميمه المعماري، وروعة التنفيذ على نحو ما يراه المرء في معابد بعلبك، لا يضاهيها أو يسبقها عمل صنعه الإنسان خلال العشرين قرنا الماضية اجتمع معبد الشمس العظيم، ومعبد الإله جوبيتر، وعدة معابد أخرى أصغر حجما منهما في مكان واحد وسط إحدى هذه القرى السورية المعدمة، وبدت غريبة في عيون جماعة من أولئك الرّعاع. أسسّت هذه المعابد على قواعد تبلغ في ضخامتها، ما يكفي حمل عالم بأسره أو يكاد، أمّا المواد التّي استخدمت في البناء فهي كتل ضخمة من الحجارة يساوي طول الواحدة منها، طول حافلة كبيرة لنقل الركاب، وقلّة منها إن لم يكن يندر تعادل في الحجم دولاب نّجار نقلت هذه القواعد بواسطى أنفاق مقامة لتسع مرور قافلة من العربات. فلا عجب أن يكتب لبعلبك طول البقاء، على ثوابت راسخات كهذه. يبلغ طول معبد الشّمس نحو ثلاثمائة قدم، وعرض قدره مائة وستّون قدما. يحيط به أربعة وخمسون عمودا لم يبق قائما منها الآن سوي ستّة أعمدة، أما الأعمدة الأخرى فمحطمة فوق قواعدها، ركاما متناثرا شاهدا على روعتها. الأعمدة الستّة سليمة وكذلك قواعدها، الحروف الكورنثية الكبيرة والسقف المعمّد وهناك ستّة أعمدة أخرى رائعة لم يعد لها وجود. يبلغ ارتفاع الأعمدة والسقف المعمّد معا، تسعون قدما وهو ارتفاع عموديّ هائل يصعب على كتل من حجارة إسطوانيّة أن تبلغه بدءا من القاعدة حتّى رأس العمود. ورغم أن المرء حين يطالعها المرء لا يفكر إلاّ فيما تحمله من جمال وتّناسق، تبدو الأعمدة ناحلة دقيقة، أمّا السقف فيبدو بما فيه من دقّة في النقوش، أقرب إلى ما يرقى من أعمال النقش بالجص. وإنّك إذ حديق إلى أعلى طويلا حتى تكلّ عيناك، تلمح قطعا أثرية ضخمة لقواعد أعمدة تتخلل المكان حيث تقف، تجد المسافة بينها ثمانية أقدام. وتعتليها تيجان أعمدة جميلة تبرز منها كأكواخ اصّغيرة، فضلا عن ألواح حجريّة مصطفّة، رائعة النقوش، تبلغ سماكتها أربعة أو خمسة أقدام، ربّما تغطّي بسهولة مساحة بهو عاديّ. تغشاك حيرة حين تفكّر في مصدر هذه الأشياء الرّهيبة، وتستغرق بعض الوقت في إقناع نفسك، بأنّ البناء الرائع والشّامخ الذى ينتصب فوق رأسك، قد تشكّل منها. إنّه عمل معجز بكل المقاييس.

يقل الأثر الباقي من معبد جوبتر ذلك الذى أتحدّث عنه عن مساحته الأصليّة وحجمه أيضا، ويعدّ مقبولا فيما يتعلّق بحالته الرّاهنة. ينتصب صفٌ من تسعة أعمدة لم تصب بسوء على نحو أو آخر. يبلغ ارتفاعها خمسة وستين قدما، وتحمل ما يشبه سَقفا أورواقا يربطها بسقف المبنى.

ركّب هذا الرواق العلوي من ألواح حجريّة ضخمة، نقشت على جانبها السّفليّ نقوش بديعة، ما جعلها تبدو كلوحات الجصّ الرائعة. سقط من هذه الألواح واحد أو اثنين، وحرت مجدّدا في أنّ هذه الكتل الضّخمة من الحجارة المنحوتة والمتناثرة على الأرض من حولي، لم تزد في الكتلة عن تلك التّي فوق رأسي. تميّزت الزخارف داخل المعبد بالإتقان والضّخامة. أيّة روعة تلك التي تبرز روعة فنّون المعمار، حين كان المعبد حديث البناء. وأيّة روعة بدا بها الآن رفيقه الأكثر روعة، بين كمّ هائل من الشّظايا الضخمة المتناثرة حوله، في ضوء القمر!

لا أستطيع إدراك ما اتّبع من أساليب في سحب تلك الكتل الضّخمة من المحتجرات، أو تلك التي اتّبعت في رفعها إلى قمم شاهقة في المكان نفسه الذّي تشغله الآن داخل المعابد. تعد هذه الكتل الحجرية المنحوتة ضئيلة الحجم جدا قياسا بالكتل غير المصقولة التي يتشكّل منها الفناء أو الشّرفة الفسيحة المحيطة بالمعبد الكبير. يبلغ طول أحد أضلاع الفناء، مائتي قدم، ويتكوّن من كتل حجريّة بطول عربة ترام نفسه، أو يزيد عليه. تعلو جدارا ارتفاعه عشرة أقدام أو اثنا عشر. ظننتها كتلا ضخمة، لكنّها تزيد ضئالة في الحجم، مقارنة بتلك التّي شكّلت قطاعا آخر من الفناء. كان هناك ثلاثة منها، ظننت أنّ كل كتلة منها تعادل نحو طّول ثلاث عربات ترام مجتمعة من الطرف إلى الطرف، مع أنّ عرضها وارتفاعها بالطّبع أكبر بقدر الثّلث من عربة ترام. ربما تقارب في الحجم عربتا قطار شحن من أكبر طراز، تضامتا من الطرف إلى الطرف. يقارب مجمّع أطوال الحجارة الثلاث مائتي قدم، وعرضها ثلاثة عشر، اثنان منها طول الواحد أربعة وستين قدما، والثّالث طوله تسعة وستون. أقيموا جميعا داخل الجدار الضّخم، على ارتفاع من الأرض يبلغ عشرين قدما. لم تفارق الحجارة مكانها، ولكن كيف جيء بها إلى هذا المكان، ذلك هو اللّغز المحيّر. أرى أنّ جسم الباخرة يقلّ حجما عن إحدى تلك الكتل الحجريّة. تشبه هذه الجدران الضّخمة من

حيث الشّكل والجمال، تلك الأشياء الهشّة التّي نقيمها من الآجر في أيّامنا هذه. كان جيل من الآلهة والعماليق هو الجدير باستيطان بعلبك منذ قرون عديدة، فأمثالنا اليوم يصعب عليهم إقامة مثل تلك المعابد.

توّجهنا من هناك إلى المحتجر، الّذي نقلت منه الحجارة، ويبعد عنّا قدر الميل ويقع أسفل التلّ.

يوجد هنا صنو أضخم تلك الكتل الحجرية وسط الآثار راقدا في حفرة كبيرة، دون أن يطرأ عليه تغيير، كما تركه عماليق العهود القديمة كي يظلّ، كما ارتأوا، عبرة يعتبر بها من يطمئن إلى الاعتقاد بصغر شأن من سبقه من البشر. يرقد هذا القالب الضّخم في هذا المكان، شكّل وأعدّ للاستخدام من قبل البنّائين كتلة صلبة بعداها أربعة عشر قدما في سبعة عشر، ويقلّ في الطول بضع بوصات عن سبعين قدما! ما يعادل طول عربتان (كاريتتان. سيقت جنبا إلى جنب، على السطح من طَرف واحد منها إلى الآخر، بحيث تترك متسعا لرجل يسير على أيّ من الجانبين.

يستطيع المرء أن يقسم على أن كلاّ من آل جون سميث، وجورج ويلكنسون، وكلّ نكرة آخر على شاكلتهم، ما بين مملكة كوم وبعلبك، سيحفرون أسماءهم النّكرة على جدران آثار بعلبك العظيمة ويضيفون إليها اسم المدينة والبلدة والولاية التّي وفدوا منها، وهذا قسم صحيح لا تشوبه شائبة. ويحزنني ألاّ يسقط شيء من هذا الأثر العظيم، ليسوّي بهذه الزّواحف الأرض، ويبعث فيهم الرّعب، ويجعل أمثا لهم عبرة لمن تسوّل له نفسه ابتغاء تحقيق صيت بوضع اسمه على أيةّ جدران أو آثار تاريخية مجدّدا، وإلى أبد الآبدين.

كان مقبولا، مع ما درجنا، من عادات بالية تخطّيناها، أن نقطع المسافة إلى دمشق في ثلاثة أيّام، اضطررنا إلى اجتيازها في أقلّ من يومين. وتعود ضرورة ذلك إلى أن ثلاثة من حجّاجنا امتنعوا عن السّفر يوم الأحد. وقد توفرت الرغبة التامة بالتمسك بيوم الأحد، لكن هناك ظروفا يعتبر التمسك فيها بحرفيّة النص المقدس إثما، وهذه المسألة موضع نقاش. توسّلنا بالتّعب، وسوء معاملة الدّوابّ، وحاولنا تبيان أنّ جهدها الدءوب يستحق الرحمة في المقابل، وأن كدّها يقابل بالعطف، ولكنّ متى كان تصلّب الرأي يعرف الشفقة عاطفة. وماذا أضافت بضع ساعات طوال إلى أعباء بعض الأوغاد من جامعي الأموال، إذا ما فكّروا مليّا

فيما تتعرّض له أرواح أولئك البشر من مخاطر؟ لم تكن تلك بالصّحبة المأمولة في السفر، والمأمول منها إضافة مزيد من توقير أسمى للعقيدة من خلال قدوة من المخلصين لها. ذكرنا أن المخلّص، قد رحم الدّواب الضّالة، وأنّ من تعاليمه أن الثور الذى يعفى من العمل في الحقل بالضرورة حتّى في يوم الأحد، يجب ألاّ يساق على هذا النحو. ذكرنا أنّ «الرحلة الطّويلة» شاقّة وأيضا محفوفة بالمخاطر، بخاصّة في أوقات الصّيف السافعة، حتّى لو قطعت مراحل الحجّ في الأيام العادية، ولو أصررنا على تحمّل هذا السير الشّاقّ، قد يتعرّض بعضنا للإصابة بالحميّ المنتشرة في البلدة مغبّة ذلك. لم يتزحزح الحجّاج عن موقفهم قيد أنملة. وكان عليهم مواصلة السّير. فليلق البشر حتفهم والجياد، لكنّ المهمّ هو دخولهم الأرض المقدّسة في الأسبوع التالي، حتى لا يحملوا وزر انتهاك حرمة الأحد. بهذا يرتضون ارتكاب وزر في حقّ روح النصّ الدّيني، كي يمكنهم الحفاظ على حرفية النصّ. لم يلتفتوا وهلة لتذكيرنا بأنّ «حرفا واحد قد يؤدي إلى قتل نفس بشرية». أتحدث في هذا الصّدد عن أصدقاء مقرّبين أحبّهم، وهم من خيرة المثقّفين، الدائبين على الصّدق والاستقامة والإدراك، وهم أيضا أولئك الذّين أظهروا تشويههم عقيدة المخلّص. إنّهم يمعنون بقوة في انتقاد عيوبنا، ثمّ يجمعوننا ويتلون علينا فصولا من العهد القديم الزّاخر بالبرّ واللّين والرّفق، ثم يخفّون بعد ذلك إلى سروجهم، صعودا إلى قمم الجبال الوعرة هذه، ومعاودة الهبوط. فلنقارن بين البرّ واللّين والرّفق الواردين في العهد القديم، وبين إرهاق فرس منهك مسكين؟ سلوك أخرق ينسب إلى خلق الله من البشر، لا إلى بهائمه. كان عليّ غضّ الطرف عما احتار الحجّاج المضيّ فيه، بسبب ما يتمتّعون به من تقدير يكاد يصل إلى حدّ التّقديس، لكنّني سأميل كثيرا إلى الإمساك بتلابيب أيّ عضو آخر في المجموعة، يمتطي في أيّ وقت في النهار صهوة جواده فوق تلّ من هذه التّلال المهلكة.

سقنا للحجّاج الكثير من الأمثلة، لعلها تنفعهم، لكنّها ذهبت أدراج الرّياح. لم يسبق لهم أن سمعوا أحدنا يلعن الآخر بثمّة لفظ أما هم فقد دبّ الشّجار بينهم مرّة أو مرّتين. كنا نحبّ سماعهم وهم يتشاجرون، بعد أن يقوموا بزجرنا. كان التّشاجر في القارب، أوّل ما بادر به بعضهم بعضا، بمجرد وصولنا بيروت. لقد ذكرت أني أحبهم، وأنا أحبّهم بالفعل لكنّ ردي في المرّة التي يتلون عليّ فاصلا من التبكيت، أن أسجّله كتابة.

تحوّلوا عن الطّريق الرئيس، غير قانعين بمضاعفة مراحل الحجّ الشرعيّة. وقطعوا مسافة بعيدة لزيارة نبع مهجور يقال له «فيجيا»، حدث ذات مرّة أن شرب منه حمار «باعلام». هكذا كان علينا السّفر بين تّلال وعرة، وفيافي تسفعها الشّمس، وقضاء جزء كبير من اللّيل، سعيا وراء نبع «حمار باعلام» الشريف، وقدس أقداس حجّاج على شاكلتنا. لم أجد فقرة غير هذه أسجلّها في دفتر يوميّاتي :

«استغرق سفرنا عبر الصّحراء ثلاث عشرة ساعة، بدءا بعبور تلال مرعية جدباء، وانتهاء بقفار ووعورة، ونصبنا آخر المطاف خيامنا نحو الحادية عشرة ليلا، عند جدول رقراق، قريب من إحدى القرى السّوريّة. أجهل اسمه وانعدمت لدي الرغبة في معرفته بل كان مبلغ مناي المضّي إلى الفراش. أصيب جوادان بالعرج. جوادي وجواد جاك. وأصيب البقيّة بانهيار تّام. سرت برفقة جاك فوق التّلال لمسافة أربعة أو خمسة أميال، واقتدنا نحن الاثنين الجوادين. حالة مرح ولكنّه من العيار الثّقيل».

إنّ سَفرا فوق صهوات الجياد استمرّ ثلاث عشرة ساعة يعدّ رحلة مميتة، حتى لو كان في بلدة وطقس مسيحيين، وعلى جواد جيّد، ولكنّه إذا حدث داخل موقد مثل سوريا، وفوق سرج أشبه بملعقة خشنة تنزلق إلى الأمام والخلف، وفي كلّ اتجاه، وفوق فرس أعرج منهك، تضطرّ إلى ضربه بالسّوط، ونخسه دون توقّف طوال اليوم، حتّى ينزف دما من جانبه، فيوجعك ضميرك مع كلّ ضربة، حتّى لو كنت شابًا في مقتبل العمر، فإنّ ذلك كلّه يبعث في النفس مرارة، لدي تذكّره، وشعورا بالمقت الشّديد، في نفس إنسان أفنى عمره ملتزما جانب اللّيبراليين.

الفصل الرّابع والأربعون

في اليوم التّالي سيطرت حالة من الاهتياج على الرَجال والجياد في آن. استغرقت مسيرة أخرى ثلاث عشرة ساعة (شملت ساعة الظَهيرة). قطعت فوق تّلال طَباشيريّة جدبة وعبر وديان وشّعاب ضَيّقة جرداء. ذلك ما تقدّمه سوريا. رجفت الحرارة بالجوّ عبر الأرجاء. كدنا نختنق في الأودية الضيقة بسبب الطّقس الخانق. بدت الصّورة ضبابيّة من أعلى التّلال الطّباشيريّة، وكان من الظّلم استنهاض الجياد العاجزة عن الحركة، لكنّ ذلك كان له أن يحدث، حتّى نبلغ دمشق مساء السّبت. شهدنا مقابر قديمة ومعابد غريبة البنية، قدّت من الصّخر الصّلب. وعلت أمام جرف ظاهرة فوق رءوسنا، لكنّنا لم يكن لدينا من الوقت أو القوّة، ما يجعلنا نقدم على تسلّقها ومعاينتها. سيجيب عن تفاصيل أحداث ذلك اليوم، الموجز الوارد في دفتري :

«طوينا الخيام في السّابعة صباحا، وبدأنا رحلة مهلكة، عبر وادي الزبدانا والجبال الوعرة جياد عرجاء، وبومة عربيّة زاعقة، تترنّم وحدها بالشّدو وتحمل قرب الماء الجلديّة الفارغة، لألف ميل إلى الأمام، بلا توقف طبعا فهل يدركها الموت؟ رسم نهير بديع خيطا سميكا مع شجر الرّمّان والتين والسّفرجل والزّيتون. وقضينا ساعة الظّهيرة عند نبع «حمار باعلام الشهير» الكائن في فيجيا، وترتيبه الثّاني في سوريّا من حيث السعة، وتعدّ مياهه الأبرد بين الينابيع التي تقع خارج سيبيريا. لم يرد في كتاب الدّليل السّياحي أنّ حمار باعلام كان قد شرب منه لعلّ أحدهم قد استغفل الحجّاج بهذه المعلومة. تسبّحنا أنا وجاك في النّبع، للحظة فحسب، فمياهه شديدة البرودة. يعدّ هذا النّبع المصدر الرئيس لنهر آبانا الذي يلتقيه بعد نصف ميل فحسب. مكان جميل، يحظى بكثير من الفيئ والبرودة، طالما ظلّ المرء على يقظته ونهر فسيح تندفع مياهه إلى الأمام عن أسفل الجبل لتصبّ في المجري الطّبيعيّ. يقع عنده أثر قديم، مجهول التاريخ يفترض إقامته لعبادة آلهة النبع

أو «حمار باعلام» أو شخص آخر. يحيط بالنبع مأوى قذر للمنبوذين ظهروا في أسمال وقذارة وضعف، وامتقاع في الوجوه بسبب المرض، وقروح وبروز في العظام وتلبد وبؤس واضح في نظراتهم. ويفصح كل عرق وعصب من قمّة الرّأس إلى القدم عمّا بهم من طوي ضار"! بدا ذلك من انقضاضهم على عظمة ملقاة، وإلتهام ما قدّمنا لهم من خبز! كان أولئك يتجمعون حول شخص، يتابعون كلّ لقمة يلتهمها. بنظرات نهمة، ويبتلعون دون وعي لعابهم كلّ مرة يزدرد طعامه وكأنّهم نصف حالمين بأنّ اللقمة الثمينة تنزل إلى حلوقهم هم!

لن أهنأ أبدا بوجبة طعام في هذا البلد المكروب. فالتّفكير في ظّروف كهذه، في تناول وجبات اليوم الثّلاث، أشدّ إيلاما للنّفس من السّفر فوق صهوات الجياد تحت سفع الشّمس. يعاني الجوع من هذا الجمع ستّة عشر طفلا، تتراواح أعمارهم بين عام وستّ أعوام، ولا تزيد سيقانهم طولا على يد مكنسة صغيرة. غادرنا النّبع في الواحدة ظهرا. (استغرقت زيارتنا للنّبع ساعتين على الأقلّ من رحلتنا) ووصلنا إلى موضع محلّة محمّد في دمشق، وهو مكان يستشرف دمشق ويمكننا من استشرافها من هذا المكان قبل استئناف الرحلة قهرا، أتعبتم. عليكم إذن التماس الرياح المرتحلة بعيدا ملقية بالشّظايا فوق البحر».

حين رقّ ضوء النّهار في الشّفق، استشرفنا صورة شملت المكان كلّه. أعتقد أنّني سبق أن قرأت مرّات عديدة، عن أنّ محمّدا حين كان راع صغير للإبل، وفد بمفرده إلى هذا المكان واستشرف دمشق من عل، لأوّل مرة في حياته. وأبدي رأيا مأثورا، ذكر أن الإنسان لا يدخل إلاّ فردوسا واحدا فحسب، وأنه فضّل الذّهاب إلى الفردوس الأعلى. جلس هناك من ثمّ وسدّد عينيه إلى دمشق، تلك الفردوس الأرضيّ. ثم رحل عنها دون أن يلج أبوابها. وقد نصبوا برجا ليحدّد الموضع الذّي حل فيه.

تبدو صورة دمشق جميلة من فوق الجبل. كما بدت جميلة، لمن اعتادوا وفرة النماء، ويمكنني بسهولة تفهّم سبب جمالها الأخّاذ بالضّرورة في عيون لم تألف غير ما حبا الله به سوريّا من جدب وقفر. حري بي الاعتقاد بأنّ السّوريّ يشعر بنّشوة كبيرة، حين يباغت بهذا المنظر لأول مرّة.

يطلّ المرء من أعلى. فيرى أمامه وتحته، سلسلة من المرتفعات الموحشة، نضب فيها النّبات وسفعتها الشّمس، وتحيط بها صحراء رمليّة صفراء مستوية، ناعمة الملس كالمخمل.

ترامت بعيدا بخطوط رفيعة تستخدم طرقا للعبور. رقطت بكائنات زاحفة دقيقة. أدركنا أنّها قوافل الجمال وجماعات المسافرين. وامتدّت في قلب الصّحراء مباشرة رقعة منبسطة من النباتات الخضراء. تحتضن المدينة الكبيرة البيضاء، كجزيرة اللؤلؤ والماس في بحر من الزّمرد. تلك هي الصّورة التي تراها تحتك وقد ترامت لمسافة ترقق منها، وشمس تحيطها بالجلال، ومفارقات شديدة تزيد من مؤثّراتها، ومن فوقها وحولها هواء خامل مسكّن، يروحنها ويجعلها تبدو، جميلة شاردة من عوالم خفيّة نرتادها في أحلامنا، وليست واقعا ملموسا، من عالمنا الحافل بالتبلّد والفظاظة. وحين تفكّر في تحالف بين البوار والفساد والقحط والآفة والشّمس الحارقة والقبح والفزع، وأنّك قطعت المسافات الطّوال لبلوغ بلد مجهول، تظنّ أنّها أجمل وأروع صورة وقعت عليه عين بشر العالم قاطبة. ولو قدّر لي السّفر إلى دمشق مجدّدا، لأقمت خيمتي على محلّة محمّد لمدّة أسبوع، ثمّ رحلت عنها، فلا حاجة إلى عبور أسوار دمشق. ومن حكمة النّبيّ، وهو الذى لم يكن يعرفها، أنه خسم أمره ولم يهبط إلى الفردوس الدّمشقيّ. هناك رواية مأثورة فحواها أنّ الغوطة الشّهيرة التي تحتّل موقعا في دمشق هي جنّة عدن. وقد دبّج الكتّاب المحدثون فصولا عدّة، حوت من الأدلّة ما يشير إلى أنّها حقيقة جنّة عدن، وأنّ نهري فاربر وأبانا هما النهران اللذان أمدا جنّة آدم بالمياه. يمكن أن تكون هكذا ولكنها الآن ليست فردوسا. ويمكن للمرء استشعار السّعادة خارجها، كما يحتمل استشعارها في الداخل. ومن الفساد والبهتان والاستخفاف بالعقول تغاضي المرء عن حقيقة، أنّه قد أطلّ على المدينة الجميلة من أعلى التلّ، وأنّ ما تواري من غياض خلف جدران من الطّين، يليق بغور سحيق، يغشاه التلوّث والقماءة. وحتّى لو أنّ هناك وفرة من المياه النظيفة في دمشق، فإن هذا في حد ذاته سببا كافيا لأن يجعل العربي يعتقد في بركتها وجمالها. إنّ سوريا التي تعاني الجفاف، تعاني أيضا شحّا في المياه. إننا في أمريكا نمدّ خطوط السّكك الحديديّة عبر المدن الكبيرة، ويشقّون الطّرق في سوريا، بالقرب من البرك الصّغيرة الضّحلة المسمّاة بالعيون والتّي لا يكتشفها المسافر، إلا بعد أن يطوي إليها مسافة أربع ساعات. لكنّ نهري فاربر وأبانا الواردين في الكتاب المقدّس (في النّسخة اللاتينيّة فحسب) يجريان عبر دمشق، لذلك فكل بيت في دمشق وكلّ بستان يتمتّع بعين مياهه الجارية الخاصة به، وحري بدمشق وبها غابة من الأشجار، أن تكون في عين بدو الصّحراء احدى عجائب الدّنيا. لا تزيد دمشق في حقيقة الأمر على كونها واحة صحراوية، ولا شيء غير ذلك، وأن المياه لم تنقطع عنها، ولم تضعف خصوبة أرضها على مدار أربعة

آلاف عام. من ذلك نستطيع الآن أن ندرك سبب بقاء المدينة على قيد الحياة، طوال تلك الفترة. ستظل دمشق باقية لا يدركها الزّوال، ما دام سريان المياه إليها، باق على حاله، يجيئها بسهولة من بعيد، وسط قفار قاحلة، وستبقي دمشق حيّة، تبارك أبصار من أدركهم الظّمأ والنّصب من عابري السّبيل.

« مع أنّك قديمة قدم التّاريخ، إلاّ إنّك نقيّة كنسيم الربيع، ونضرة نضارة باقة ورودك، ومأرّجة أرج زهرتك البرتقاليّة..... أيا درة الشرق، يا دمشق ».

يرجع تاريخ دمشق الأوّل إلى عهد إبراهيم، وهي أقدم مدن في العالم. أسّسها غوص حفيد نوح. احتجب تاريخ دمشق العتيق في غياهب القدم. ولو تجاوزنا ما كتب عنها في العشر فصول الأول من العهد القديم، فلن نجد أثرا لحادثة، وقعت على الأرض إلاّ وكانت دمشق حاضرة، تتلقّي أنباء وقوعها. لا ينقطع ذكر دمشق في هذا السّياق، حتّى لو تمكّنت من كشف الماضي المجهول. ذكر اسمها وشيد بمحاسنها في حوليّات كلّ قرن من الزمان على مدار أربعة ألف عام. فالسّنين لدي دمشق لحظات فحسب، والعقود ليست سوى سويعات عابرة في الزّمان. ذلك أنّها لا تحسب الزّمن بالأيّام أو الشّهور والسّنين، بل بالإمبراطوريّات التّي شهدت دمشق ظهورها،وانهيارها وتفسّخها حتّى زالت. إنّها رمز للخلود. شهدت دمشق إقامة بعلبك، وطيبة وكانت شاهدة على فتح إفسوس. ورأت إقامة هذه القرى داخل المدن الكبري، وأذهلت العالم بأمجادها وعاشت لتشهد عزلة هذه المدن وبؤسها، وتركها للبوم والوطاويط. شهدت ارتقاء ممالك بنى إسرائيل ثم اندثارها. وشهدت ظهور الإغريق وازدهارهم لألفي عام ثم سقوطهم. وفي عصورها التليدة شهدت نشأة روما وهيمنتها على العالم، وأفول نجمها من ثمّ. تعدّ بضع مئات من الأعوام، دان المجد والمنعة خلالها لكل من جنوا والبندقية القديمة، تعد بالنسبة لدمشق القديمة الجليلة، مجرد ومضات عابرة لا تكاد تذكر من عمر الزّمن. شهدت دمشق كلّ ما وقع على الأرض من أحداث ولا تزال باقية، إنّها تتأمل عظام نّخرات لألف من الأمبراطوريّات القديمة، وسوف تشهد قبور ألف أخريات، قبل أن تزول. ومعّ أن هناك من يطالب باللقب، إلاّ إن دمشق القديمة من حقّها أن تلقّب بالمدينة الخالدة.

وصلنا أبواب المدينة تحديدا عند غروب الشّمس. يزعمون أنّ المرء يمكنه بالقشيش دخول أية مدينة سورية مسوّرة بعد أن يجنّ الليل، عدا دمشق. لكنّ دمشق بما لها من مكانة جليلة في العالم عبر أربعة ألف عام، مدينة لها الكثير من شخوصها الغامضة القديمة. خلت الطّرقات من المصابيح ويحظر القانون على طوارق اللّيل حمل مصابيح مضاءة، تماما كما كان الحال في الأزمنة القديمة، حين كان أبطال وبطلات قصص ألف ليلة وليلة يسيرون في شوارع دمشق، أو يطيرون إلى بغداد على البسط المسحورة.

جنّ علينا اللّيل بعد عبور سور المدينة بلحظات قطعنا مسافات طويلة عبر طرقات تدهش لاعوجاجها. يبلغ عرض الطّريق ما بين ثمانية إلى عشرة أقدام، أقيمت على جانبيه أسوار مرتفعة من الطّين. وصلنا في النّهاية إلى حيث استطعنا رؤية مصابيح ذابلة الضّوء، منتشرة هنا أوهناك. علمنا أنّنا الآن في قلب المدينة القديمة العجيبة. حططنا الرّحال في نهاية المطاف في شارع ضيّق، احتشد ببغال الأمتعة، وبحشد من عرب قميء الصّورة، وعبر ما يشبه طاقة مفتوحة في جدار، دلفنا منها إلى داخل الفندق. دخلنا قاعة فسيحة مبلطة بالرّخام، تحيط بنا الزّهور وأشجار الزينة من كلّ جانب، انتصب في وسط الصّالة خزان كبير تأتيه المياه من عدّة أنابيب. غادرنا ها ودخلنا الغرف المعدّة لنا بحيث تتّسع الواحدة لأربعة أفراد، انتصب ما بين بابي الغرفتين خزّان للماء البارد النقيّ والجاري إليه دون انقطاع عبر ستّ أنابيب، مصدرها العيون المائية.لم ننتعش بشيء في هذا البلد الحار والكئيب، كما أنعشنا هذا الماء المتلألأ في ضوء المصباح. ولم نسمع أروع وأطيب من خريره الأشبه بوقع زخّات المطر، على أذن من ألف سماعه. كانت الغرفة واسعة ومريحة ومجهزة. فرشت أرضيّتها بسجاد وثير ألوانه تبعث على البهجة. إن ما يبهج النفس، أن تقع عينك مجدّدا على سجّادة، فليس هناك ما هو أسوأ من الأبهاء التّي تحاكي المقابر والمعبدة بالحجارة، وغرف النوم في أوروبا وآسيا والتي لا أعرف أصلها، حيث تجعل المرء يفكّر في القبر طوال الوقت. مدّ بطول أحد جوانب الغرفة ديوان رحب، غطّي بمفرش مزخرف بألون زاهية، بلغ طوله ما بين اثني إلى أربعة عشر قدما، أعدّت أمامه أسرّة سعة فرد واحد، زوّدت بحشايا زنبركيّة، ووضعت كئوس كبيرة تسرّ العين، وموائد مسطوحة بالرّخام. قوبل كلّ هذا التّرف من أناس أضنتهم سفرة اليوم بكل أريحيّة، وكان ذلك خارج توقّعات من ليس بمقدوره توقّع شيء، في مدينة تركيّة حتى لو بلغ تعدادها ربع مليون نسمة.

لا أدرى ولكنّي ظننت أنّهم خصّصوا ذلك الخزّان بين الغرف لماء الشّرب، ولم يطرأ هذا ببالي، حتى غمرت رأسي في عمقه البارد، قلبت لحظتها في الأمر، وندمت لقيامي بالاغتسال رغم روعته، وأوشكت على الذّهاب إلى صاحب الفندق لشرح الأمر.

لكنّ كلبا لولبيّا، قفّاء أثر، من فصيلة البودل، وقف على قدميه ونهش ربلة ساقي في اللّحظة والتّو، وقبل أن أجد فرصة للتّفكير، غمرته في الخزّان حتّى العمق، وحين رأيت خادم الفندق قادما نحوي، يحمل إبريقا، غادرت المكان وتركت الجرو، يحاول تسلّق الخزّان ويحقق فشلا في المحاولة. كنت بحاجة إلى ثأر يشفي غليلي كي تقرّ عيني. ظللت محتفظا بهذه المشاعر، حتّى لحظة ذهابي لتناول طعام العشاء. أمضينا وقتا طويلا، ممدّدين فوق الدّواوين، ننفث الأراجيل، أي الشّبوقة التركيّة طويلة السّاق، ونتبادل الأحاديث حول رحلة اليوم الرّهيبة، وعرفت مجدّدا ما كنت ألّبه من قبل، بأنّه لكي تستمع بالرّاحة، حري بذل بعض الجهد.

أرسلنا في الصّباح في طلب الحمير، واللافت هنا، ضرورة أن ترسل في طلب أشياء كهذه. ذكرت أنّ دمشق حفريّة قديمة، وهي كذلك بالفعل، كنّا نباغت في أيّ مكان آخر، بهجوم كاسح من جيش عرمرم، من مكاريّ الحمير والأدلاء والباعة الجائلين والمتسوّلين، لكنّهم هنا في دمشق يكرهون أن تقع أعينهم على مسيحيّ أجنبيّ، فهم لا يرغبون التّعامل معه على أيّ نحو. لم يكن الفرد قبل عام أو عامين، يطمئنّ لوجوده الدائم في شوارع دمشق، فهي أكثر مواقع المطهرين المحمّديين تطرفا خارج الجزيرة العربية. إنّك حيث ترى هادجي (حاجّا) معمّما بعمامة خضراء في مكان آخر، وهي العلامة التّي ميّز بها إلهي الحجّ إلى مكّة، أظنّك سوف ترى دزينة عمائم في دمشق. ويعدّ السّوريون من حيث الميل إلى الشّر، أسوأ وأحطّ من لقينا من البشر. كان كلّ من التيقناهنّ من المحجّبات، قد كشفن عن أعينهن، لكنّ عددا منهنّ في دمشق تخفين وجوههنّ بالكامل تحت حجاب أسود سميك، ما يجعل المرأة أشبه بمومياء، فإن حدث ولمحنا عينا حاسرة، فسرعان ما تحجب عن أعين المسيحيين الفاسدين. أمّا المتسوّلون فمروا بنا دون أن يستجدوا بقشيشا، ولم ينهض التّجّار من جلوسهم أمام حوانيتهم لعرض بضائعهم لنا بشغف وهم كعادتهم يهتفون بنا: «هيّا جون، أو تطلّع إلى هذا يا هويدجي». بل كان الأمر على النقيض من ذلك ولم نلق منهم، سوى تشييعنا بنظرات الازدراء والصّمت التّام.

صارت الطّرقات الضّيّقة كهفا مزدحما بالرّجال والنّساء في ثياب شرقيّة غريبة. وكانت حميرنا الصغيرة ترتطم بهم ذات اليمين وذات الشّمال. كنّا نشقّ طريقنا بين الدّواب بصعوبة، والصبية تدفعها إلى المضيّ دون رحمة. عدا أولئك المارقون خلفها، يحثّونها نخسا على العدو المتواصل لساعات، لا يدركهم نصب أو تعثّر في أثناء عدوهم خلفها. تقع الحمير على الأرض، وتفلتنا من فوق رءوسها مرّة تلو أخرى، لكنّ ذلك كلّه يمرّ كأن لم يكن، فنعاود الرّكوب والعدو من جديد. ارتطمنا بزوايا حادّة، وبحمّالين بأحمال، وإبل، والأهالي عامة فننشغل بفحص ما أصابنا من كدمات أو جروح، لن تتح لنا فرصة الاعتناء بها مستقبلا. قمنا سرنا ما بين ركوب وسير عبر المدينة، وعبر شارع شهير يطلق عليه «الشّارع المستقيم»، دون أن نلحظ شيئا من تلك الاستقامة إلاّ في النادر. كادت عظامنا تتخلّي عن المفاصل، وبلغنا من الإثارة حد الاهتياج، وشعرنا بآلام في الضّلوع. نشأت عمّا عانيناه، لا أحبّ ركوب ترام في دمشق.

سلكنا الطّريق المؤدّي إلى ما يعرف بداري يهوذا وحننيًا. شعر شاول منذ ثمانية أو تسعة عشر ألف عام، وهو من أهالي طرسوس شعر بمرارة تجاه أتباع الدّين الجديد بوجه خاصّ، فترك أورشليم، وتأهّب لشن حملة ضارية ضدّهم. انطلق «ينفث القتل والوعيد في تلاميذ الرّبّ ».

« حدث في أثناء سيره أنّ اقترب من دمشق، فأبرق حوله بغتة نور من السّماء

وسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له. شاول، شاول، لماذا تضطهدني ؟

وحين عرف أن محدّثه يسوع، قال وقد تملّكه الخوف والحيرة. «يا ربّ ماذا تريدني أن أفعل؟»».

سأله النّهوض على قدميه، ودخول المدينة، وسيجد فيها من يخبره بما يطلب منه. أمّا مرافقوه في السّفر، فقد وقفوا صامتين يسمعون صّوت المتحدّث، ولا يرونه. نهض شاول على قدميه، وهو لا يبصر أحدا، رغم أنّ عينيه كانتا مفتوحتين، فاقتادوه من يده وأدخلوه إلى دمشق، بعد أن دخل الدّين الجديد.

ومكث ثلاثة أيّام في بيت يهوذا لا يبصر، ولا يأكل ولا يشرب.

وكـان في دمشـق تلمـيذ للمسيح، يقال له حننيًا، قال له الربّ في رؤيا: «قم، وامض إلى الزّقاق، الذّي يقال له المستقيم واطلب في بيت يهوذا رجلا طرسوسيًا، يقال له شاول، لأنّه يصلّي».

لم يكن لدى حننيا في بادئ الأمر نيّة للذّهاب، لأنّه سمع من قبل بأن شاول مرتاب في أن تكون فكرة «الإناء المختار» وسيلة ناجعة للتبشير برسالة السّلام. ورغم ذلك فـإنّه طاعة لما أمر به، توجّه إلى ما عرف بـ «الشّارع المستقيم »، (فماذا كان السبيل إلى كيفية الوصول إليه، وكيف وجد سبيلا للخروج منه بعد أن عثر عليه عليه، هذه كلّها الغاز، لا يمكن إدراكها إلاّ بمعرفة أنّه كان يعمل بوحي من السماء). عثر على بولس، وأعاد إليه بصره، ورسّمه كاهنا، ومن هذا البيت القديم الذّي بذلنا جهدا في البحث عنه والذى يقع في الشّارع، الذّي سمّي خطأ بالمستقيم، ومنه انطلق يمارس دعوته العظيمة، وظلّ على ذلك حتّى أدركته المنيّة. لم يكن هذا البيت هو بيت التلميذ الحواريّ الذّي باع المعلّم لقاء ثلاثين قطعة من الفضّة. وأسوق هذا الطّرح لإنصاف يهوذا، الذّي يختلف كلّ الاختلاف عن الرّجل الذّي أشرت إليه للتوّ. كان يختلف تماما من حيث سمات شخصيته، وكان هذا يقيم في دار فخمة، ومن المؤسف أنّنا لا نعرف عن ذلك الرّجل سوى النّذر اليسير.

سقت في الفقرة السّابقة معلومة جديدة لمن لا يطّلعون على تاريخ الإنجيل إلى درجة الافتراء بأسلوب كهذا. وآمل ألاّ يعترض أحد أصدقاء التقدم والثّقافة، أو يتدخّل في مهمتي الدينية الخاصة.

يزيد الشّارع المعروف بالشّارع المستقيم قليلا عن استقامة لولب، وأبعد في ذلك عن قوس قزح. حرص القدّيس لوقاعلى ألاّ يلزم نفسه بهذه التسمية، ذلك أنّه لم يزعم أبدا استقامة الشّارع، بل ذكر أنّه قد أطلق عليه «الشّارع المستقيم». وهو مقطع يحمل على السّخرية الخالصة، وهذه هي الإشارة الوحيدة في الإنجيل، التي تحمل في ظنّي على السّخرية. عبرنا الشّارع المسمّى بالشّارع المستقيم بسلام ثمّ انحرفنا عنه، وعرجنا إلى الدّار المعروفة بدار حننيًا. يثار بعض الشّك بشأن أن جزء من البيت الحقيقيّ، لا يزال قائما في مكانه. البيت عبارة عن غرفة قديمة أسفل مستوى سطح الأرض، طولها اثنا أو خمسة عشر قدما، ويتّضح قدم عمارتها. إذا لم يكن حنانيًا قد أقام في هذا البيت في زمن القدّيس

بولس، فلا بدّ لآخر من أن يكون هو من أقام فيه وهذا وارد أيضا. جرعت شربة ماء من بئر حنانيًا، ومن الغرابة أنّ ماءه كان سائغ الطّعم نقيًا، كأنّه حفر بالأمس. اتّجهنا إلى أقصى شمال المدينة لمشاهدة المكان الّذي تخلّى فيه الحواريّون عن بولس عند سور دمشق في آخر اللّيل لأنّه كان يبشّر بالمسيح علانية ودون خشية من أهل دمشق، حتّى أوشك هؤلاء على الفتك به، وهو ما قد يحدث في أيّامنا هذه للجرم ذاته، ولم يجد أمامه سوى الظّفر بحياته والفرار إلى أورشليم.

ذهبنا لزيارة قبر أبناء محمّد، ومقبرة تنسب إلى القدّيس جورج قاتل التنّين، وجئنا حفرة عميقة أسفل إحدى الصّخور، تلك التّي اختبأ فيها بولس في أثناء فراره، قبل أن يلحق به مطاردوه، ثمّ زرنا المقبرة الجماعيّة، التّي يثوي في ثراها خمسة آلاف مسيحيّ، قام الأتراك بذبحهم عام ١٨٦١. يذكرون أنّ تلك الأزقّة، ظلّت الدّماء مراقة فوقها أيّاما عدّة، وأنّ الرّجال والنّساء والأطفال، قد أعمل فيهم القتل، دون تمييز، وتركت الجثث بالمئات في كلّ أنحاء الرّبع المسيحيّ، ولم يشأ المحمّديّون تدنيس أيديهم بدفن «الكلاب المارقة». امتدّ التعطّش إلى الدماء إلى المناطق المرتفعة من «حرمون والمناطق المقابلة للبنان»، وأنّه خلال فترة قصيرة، ذبح من المسيحيّين خمسة وعشرين ألفا آخرين وأبيدت ممتلكاتهم. ويا لقدر كراهيتهم لمسيحيّ دمشق! يفوقهم الأتراك في ذلك بكثير. ويا لقدر ما سيدفعون من مقابل لقاء ذلك المسلك حين توجّه روسيا مدافعها نحوهم مجدّدا!

ما يبعث في النّفس الرّضا، توجيه اللعان إلى كلّ من إنجلترا وفرنسا بسبب تدخّلهما لإنقاذ الإمبراطوريّة العثمانيّة من السّقوط، الذي كانت تستحقّه عبر ألف سنة. مسّ كبريائي رؤية هؤلاء الوثنيّين، وهم يرفضون تناول طعام طهي لنا، أو يأكلون من صحن سبق أن تناولنا طعامنا منه، أو يشربون من قربة ماء، لوّثتها شفاه مسيحيّينا، إلاّ بعد تنقية الماء عبر خرقة يضعونها على فوّهة الإناء، أو قطعة إسفنج! لا تفوق كراهيتي لصينيّ ما أكنّ من كراهية لهؤلاء المنحطّين من الأتراك والعرب. وحتّى تتهيّأ روسيا لقتالهم مجدّدا، آمل أن تجد كلّ من إنجلترا وفرنسا أنّ الأصوب والأمثل أن يشاركاها في ذلك.

يعتقدون في دمشق أن العالم، قد خلا من أنهار تضارع نهري فاربر وآبانا. ويفكّر الدمشقيّون دوما بهذه الطّريقة. وقد ورد في مل (سفر الملوك الثّاني) أن النّعمان كان يسرف في التباهي بهما منذ ثلاثة آلاف سنة. وكان يقول: «أليس أبانة وفرفر نهرا دمشق

يفوقان في الجمال كل أنهار إسرائيل. لم لا أغتسل بهما وأبل؟». لكن بعض قرانيي فاتهم ما كان عليه النّعمان منذ ثلاثة آلاف عام. كان النّعمان قائدا للجيوش السّوريّة. وكان ذا حظوة لدي الملك، ويحيا حياة كريمة. وكان الرّجل جبّار البأس، مصابا بآفة الجذام. غريب أن يكون البيت الذّي يشيرون إليه الآن هو البيت كان يقيم به، تحوّل البيت إلى مشفى لمرضى الجذام، أولئك الذى يعرضون مّا بهم من تشّوهات مروّعة، ويمدّون أيديهم إلى الزّائر الأجنبيّ طلبا للبقشيش.

لن يعرف المرء قدر فظاعة هذا المرض، حتّى يرى بعينه صوره المروّعة في دار النّعمان القديمة بدمشق، ويطلع على ما يظهر من التواءات شديدة في العظام. وكمّ من الأربطة الملفوفة حول الرّأس والجسد، وتلف وهشاشة العظام.

الفصل الخامس والأربعون

سقطت طريح الفراش خلال السّاعات الأربع والعشرين الأخيرة على وجودنا في دمشق، لإصابتي بوباء الكوليرا الفاتك. وحظيت مع ذلك بفرصة طيّبة ومبررّ طيب بالرقاد فوق الدّيوان الرّحب واغتنام قسط وافر من الرّاحة. لم يكن لديّ ما أفعله في تلك الفترة، سوى الإنصات إلى صوت خرير مياه العيون، وتعاطي العقاقير، وتقيّئها مجدّدا. كان استجماما محفوفا بالمخاطر، لكنّه كان خيرا من السفر عبر سوريًا. تناولت كمّيات من ثلج جبل «حرمون»، وحيث إن شيئا منه لا يتبقى في معدتي، لم يكن هناك جدوى من تناوله، بل كان هناك متّسع دوما لتناول المزيد منه. كنت في نفسي أحس بمتعة، فالسفر عبر سوريًا يحمل سماته المميّزة كالسفر في أيّ بقعة من العالم. ويضيف إلى منظومته السّارة إصابة بالكوليرا أو كسر ساق.

غادرنا دمشق عند الظّهيرة وسلكنا طريقا عبر السّهل بمسيرة ساعتين. وتوقّفت الجماعة من ثمّ لفترة قصيرة تتفيأ ظلال بعض أشجار التّين كي يعطوني الفرصة لأستريح. لم نمرّ طوال سفرتنا بيوم أشدّ قيظا من هذا اليوم. صبّ وهج الشّمس لهبا من نار على الرّءوس كلهب يشتعل من فوّهة غليون. وبدا سقوط أشعتها كوابل لا يفارق الرءوس. يهبط كزخّات المطر من سقف بيت. تصورت أنني أستطيع التمييز بين دفقات الأشعة، واعتقدت بقدرتي على تحديد اصطدام كلّ دفقة منها برأسي. وزمن وصولها إلى كتفيّ. وتوقّع وصول الدّفقة التّالية. كان ذلك رهيبا. اشتدّ وميض كلّ أرجاء البادية، حتّى فاضت عينيّ بقطر من الدمع لا ينقطع. كان لدى الشباب مظلّات بيضاء مبطّنة بخيوط خضراء، وهي نعمة لا تقدّر بثمن. شكرت أقداري لحيازتي مظلّة. ورغم أنّ المسافة المتبقية من الرّحلة تقدّر بعشرة أميال: فإنّ مظلّتي ظلّت مطويّة بين الأمتعة. من الجنون أن السفر في سوريًا دون مظلّة.

أخبرني في بيروت، أولئك الذين حرصوا على إتخامنا بالإرشادات، أنّ السّفر في سوريًا دون مظلّة هو الجنون ذاته. لهذا حزت إحداها.

لكنّي أعتقد أنّ حيازة مظلّة، شيء مقلق في أيّ مكان. إذا كان الهدف منها توقّي الشمس. لم أو عربيًا يطوّق رأسه بطربوش، أو يستخدم مظلّة، أو يحمي وجهه أو عينيه بوقاء، وكان يبدو في الشّمس رائق البال، لا يكدّر صفوه شيء.

لكن أكثر ما رأيت من صور هزلية، انفرد بها مجموعة الثمانية عمّن سواهم. انتظامهم في صف مستقلّ، ولف خرقة بيضاء تشير إلى القسطنطينية في عدّة طيات. حول ما يعتمرون من قبعات، وإسدالها على ظهورهم، ولبس الجميع عوينات بعوينات سميكة خضراء. ملحقة في جانب منها بعدسات طبيّة. وأمسكوا بمظلاّت مبطّنة بخيوط كتّانيّة غليظة تعلو رءوسهم، ولا نستثني من ذلك تباطئ سيرهم بالجياد، كأسوأ من رأيت عصبة من راكبي الخيل على وجه البسيطة، فضلا عن أن بهائمهم قياسا بهرولة الجياد تواجه مشقة رهيبة، وتراهم حين ينتظم أحدهم تلو الآخر في صفّ، محتبسي الأنفاس يسدّدون أبصارهم إلى الأمام ما يشير إلى جديّة واضحة، بغتة تراهم بغتة قد انتفضوا في وضع الثّبات دون موجب. وشدّوا ركبهم، وخفقوا بمرافقهم، خفق ديك يهمّ بالصّياح. يرى المرء هذه الصّورة ماثلة في وضح النّهار أمام عينيه، ويستغرب ألاّ ترسل الآلهة صواعقها، وتسوّي بهم الأرض، وهذا أمر جدّ محيرّ. إنّني أتعهّد بألاّ أدع قافلة كتلك تدخل مسقط رأسي.

يطوى الشباب مظلاّتهم حين تغيب الشّمس، ويضعونها أسفل أذرعهم. وهو انحراف بسيط في الصّورة فحسب، وليس تعديلا لهزليّتها.

لكنّك ستجد نفسك عاجزا عن الإلمام بكل تفاصيل ما عرضت داخل هذا المشهد النّابض بالحركة. ولن تواتك القدرة على ذلك دون أن يكون لك حضور في المكان. فأنت هنا تعايش الألفية الثّانية قبل ميلاد المسيح، أو عصر الآباء الأوّلين السّابق على ذلك العصر أو العهد الجديد ما بعد الميلاد. فالمشاهد الواردة في الإنجيل، تحيط بك من كلّ جانب. ينتشر من حولك لباس الأولين وتري البشر نفسهم بثيابهم الفضفاضة، وخفافهم. وتجدهم في طريقك في الغدوّ والرّواح، فضلا عن ظهور ركب الجمال العظيم نفسه. وما ران على البادية من صمت مطبق وجلال، هذا ما كانت عليه العصور السالفة. لكنّك ترى في خلفية هذا المشهد

العجيب، حضور جماعة من اليانكيين(*) بعوينات خضراء اللون، تهتز مرافقهم بمظلات تتمايل يمنة ويسرة! ها هو دانيال في عرين الأسد وتحت إبطه مظلة قطنية خضراء.

وبالأصالة عن نفسي، أقرّ بأنّ مظلّتي ترقد وسط الأمتعة وبرفقتها عويناتي الخضراء، ولن يبرحا مكانيهما أبدا، وسأبدي بعض توقير لصلاحية الاستخدام الأبديّ للأشياء، فمن السوء إصابتي بضربة شمس، لكن ذلك أفضل أن أبدو مثيرا للضحك.

وإن سقطت إعياء، فدعوني أسقط، سقوطا لا يقلّ منزلة عن سقوط مسيحيّ.

بعد ساعات ثلاث من رحيلنا عن دمشق، وصلنا إلى المكان الذي، تحوّل عنده شاول إلى الدّين الجديد بالكليّة. رنونا بطرف أعيننا إلى البادية السّافعة، وألقينا نظرة أخيرة على دمشق الفاتنة، وهي ترفل في حللها الخضراء اللاّمعة بحلول الليل. أدركنا خيامنا التّي نصبت على مشارف إحدى القرى العربية الزرية، في «جونيزبورو»، واسم المكان الأصلي يبدأ بالطّبع بحرف التعريف ال، أو شيئا من هذا القبيل، لكنّ الصّبية، لا يزالون يتأبوا على التعريف بالأسماء العربيّة أو يحاولون حتّى تكنيتها. حين أقول إنّ تلك القرية من النوع المألوف، فإنني أقصد أنّ ألمح إلى أنّ القري السّوريّة الواقعة داخل نطاق الخمسين ميلا، كلّها سواء بسواء، ويبلغ تشابهها تتطلب ما يفوق فطنة البشر للتّمييز بينها. تتكوّن القرية من عديد من الأكواخ، ذات الطّابق الواحد (بطول إنسان) ومساحة البيت يعادل مساحة صندوق الملبوسات، والكوخ مبنيّ بالطّين، يغطيه سقف مستو من كلّ الجهات، وكلّ الأكواخ مطليّة على غرار واحد بماء الجير. ينتشر السقف نفسه غالبا في أرجاء نصف المدينة السّقف، فيغطي كثيرا من الطرقات، التي يبلغ عرضها في العادة ياردة واحدة. تتجوّل داخل هذه القرى وقت الظهيرة، وأوّل مستقبليك، كلب نابح، يرفع بصره إليك متسلاً ألاّ تبادره بهجوم، ولكنه لا يظهر لك نيّة لإفساح الطّريق، تلتقي بعد ذلك بصبيّ عاري الجسد، رافعا يده في توسل ومردّدا «بقشيش». هو في الحقيقة لا يتوقّع منك سنتا واحدا، بل تعلم ترديد الكلمة، قبل نطقه كلمة «مامي»، وهو الآن لا يستطيع فكاكا من هذه العادة. يجيء بعد ذلك لقاؤك بامرأة، تضع على وجهها حجابا أسود مسدلا ولصيقا بالوجه، وقد كشفت

(*) اليانكي المواطن الأمريكي الأصلي.

عن جزء من صدرها. تلتقي نهاية المطاف مجموعة من الأطفال مقرحي الأعين وآخرين من كلّ المراحل السنيّة. يعانون الهزال والجذام. ويجلسون على التراب بلا حول ولا قوّة. وقد هدّبوا جميعا بخرق قذرة. ويبدو فيهم شبح الفاقة وقد تلوّى وتشابك كغصون الكرم. أولئك هم مستقبلوك على الأرجح. فالأهالي هنا منهم من يرقد خلف الجدار. أو خارجها. أو يرعي قطعان الماعز في السّهول أو حول التّلال. أقيمت القرية بجانب مجرى مائيّ مهدر شحيح. تنتشر حوله نباتات قلّ ينعها. توجد خلف حدود هذه الدّائرة السحرية. وعلى بعد أميال من محيطها. مساحات صحراويّة مترامية يفترشها الرّمل والحصى وتنتج شجيرات ناحلة أشبه بآجام صغيرة.

القرية السّوريّة أكثر قرى العالم مدعاة للرثاء. وهي لا تختلف في ذلك عن البيئة المحيطة بها. ولن أستفيض في شرح كلّ ما يتعلّق بالقرية السّوريّة. لكنّه وتوخيًا للصدق لا بدّ من أن نذكر أنّ النّمرود. ذلك الصّائد العظيم. والوارد ذكره فيما عرف بالكتب التّوراتيّة. قد وري جثمانه في «جونيسبورو». وقد رغبت أن يعرف عامّة القرّاء ما يتعلّق بتحديد موقع قبره. قيل كما ذكر عن «حومر» أنّه قد دفن في أماكن عدّة. لكنّ هذا هو الموضع الحقيقي والثّابت الذى يضم رفاته.

حين تشتتت القبائل الأصليّة. منذ أكثر من أربعة آلاف عام. قطع النّمرود ومعه حشد كبير مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة ميل. واستقرّوا جميعا في هذا المكان الذى أقيمت عليه المدينة الكبيرة فيما بعد. أقام النّمرود تلك المدينة. وشرع أيضا في إقامة برج بابل الشّهير. لكن ظروفا صعبة حالت بينه وبين الانتهاء منه. وصل ارتفاع طوابقه إلى ثمانية طوابق. لم يبق منها سوى طابقين. ظلاّ على حالهما حتّى اليوم وقد انهارت كتلة هائلة من القرميد بفعل الزلازل. وسويت بالأرض. من لدن إله غاضب. فصارت أثرا بعد عين. لكنّ الأثر الضخم سيظلّ باق لعصور. ليحقّر ما أقامته أجيالنا المعاصرة من أعمال تافهة. صارت حجراته ملاذا للأسود والبوم. حيث يثوي النمرود الشيخ تحت التراب طيّ النسيان. في هذه القرية البائسة. تباعد مسافات طوال بينه وبين الشاهد على عمله.

تركنا «جونيسبورو» مع أوّل خيوط الصّبح. وبدا لي أنّنا سنظلّ نرتحل إلى أبد الآبدين بين بواد مترامية وتلال وعرة دون ماء نشربه. توقّفنا عند قرية عجفاء تدعي

«سدّ اليوبا» مقامة في ناحية من الجبل. لكن الترجمان نبّهنا إلى أنّنا إن سعينا في طلب الماء، فقد نتعرّض لهجوم من القبيلة برمّتها، لأنّ أهلها لا يحبّون المسيحيين الغرباء. وكان علينا مواصلة الرّحلة. بلغنا بعد ساعتين سفح أحد الجبال النّائية. والذى يقع على قمّته حصن «بانياس» المهدّم. والذى يعد ولا شكّ. أكثر الآثار ضخامة من هذا النّوع. يبلغ طوله ألف قدم، وعرضه مائتين ويعدّ البناء الأكثر تناسقا، وضخامة في نفس الوقت. يزيد إرتفاع أبراجه ومواقعه الحصينة، عن ثلاثين قدما بعد أن كان يبلغ يوما ستين قدما عن سطح الأرض. تطلّ بريجاته المهدّمة من قمّة الجبل على أشجار السّنديان العتيق والزّيتون، حيث بدا جميل الصورة. مثل هذا الصّنف من الآثار الموغلة في القدم، لا يعلم أحد شيئا عمّن أقامه أو تاريخ إقامته، ويصعب التحقق من ذلك، إلاّ في موضع بعينه، حيث يعرج بنا طريق الجياد صاعدا بين الصّخور الصّلدة، إلى بريجات الحصن العتيق. أحدثت حوافر الجياد حفرا في الصّخر، بلغ عمقها ستّ بوصات، على مدار مئات عديدة من السّنين وهي التّي كان يستخدم خلالها الحصن. جلنا لثلاث ساعات بين غرف الحصن وسراديبه وزنازينه، ووطئت أقدامنا أثر الكعوب الغائرة، لكثيرمن فرسان الصّليبيين، ومن سبقهم من الأبطال الفينيقيين.

هالنا كيف لبنية صخريّة هائلة كهذه أن تتأثّر ولو بزلزال. ولم ندرك كنه القوّة التّي جعلت من بانياس حطاما، لكنّنا بعد فترة توصّلنا إلى مسبّب الدّمار، تضاعفت حيرتنا. لقد نمت البذور التّي كانت تسقط بين الشّقوق داخل الجدران الممتدّة، واشتد عود النّبات الهزيل والهشّ بالتّدريج، فدفع ما بين الصّخور الضّخمة نتيجة ضغطه المتواصل. وتسبّب في دمار أثر عملاق، ظلّ يهزأ بالزلازل حتّى ازدراها. نمت الأشجار بما يعرف عن غصونها، من تشابك والتواء، في كلّ ما يحيط بأسوار الحصن القديمة، ليجمّل وينشر الفيء على شرفات الحصن العلويّة البالية بكم وافر من الخضرة. أطللنا من هذه الأبراج العتيقة على أحد السّهول النّائية الخضراء، المأتلقة بمياه البرك، التيّ تمدّ نهر الأردنّ المقدّس بالمياه. وكان مشهدا محبّبا للنّفس بعد كل ما رأيناه من فياف شاسعة.

مع حلول المساء، بذلنا جهدا في هبوط الجبل، (مرورا بحدائق السّنديان الباشانيّ الوارد ذكره في الإنجيل، حيث كنّا نحث. الخطى كي نصل الى الحدود الفاصلة، ودخول الأرض المقدّسة وهي على مرمى البصر)، وعند سفحه الممتدّ صوب الوادي. دخلنا هذه القرية البانياسية اللعينة، وهي قرية صغيرة في المساحة. نصبنا الخيام، في إحدى مزارع

الزّيتون الكبيرة، والقريبة من مجري مائي رقراق تتزييّ ضفّتاه بأشجار التّين. والرّمّان ونبات الدّفليّ الوارف. وهذا يعدّ فردوسا إذا ما قورن بالقرية.

أوّل ما يبادر المرء إليه، بعد معاناته شدّة الحرارة ووضرالأتربة، اغتنام فرصة للاستحمام. تتبّعنا لمسافة ثلاثمائة ياردة من الخيام، مسار النهير حتّى منبعه في جانب من سفح الجبل، وسبحنا في مياهه التّي بلغت درجة التجمّد، حتّى إنّني لو لم أكن أعلم بأنّها المنبع الرّئيس للنّهر المقدّس، لتوقّعت ضررا منه. سبحنا ساعة الظّهيرة في منبع نهر أبانا القارس وهو «نهر دمشق»، ذلك الذّي كان حسب قول الدكتور ب. سببا في إصابتي بالكوليرا. أصابني مع ذلك بالكوليرا، مقابل أن أستحمّ فيه.

وفد الحجّاج الذّين لا ينهون عن فعل إلاّ فعلوه، وقدوا وجيوبهم محشوة بقطع صغيرة لنماذج من الآثار. آمل أن يكفّ أولئك، عما حطّموه من شظايا من قبر نوح، ومن نقوش بعلبك البديعة، وداري يهودا وحننيا في دمشق، وقبر نمرود، الصيّاد العظيم في «جونيسبورو»، والنّقوش الإغريقيّة والرومانيّة المثبتة على الجدران القديمة ثمّ من حصن بانياس، وهم الآن يفتّتون ويكسّرون الحنايا القديمة التّي غشيها المسيح ذاته! فليحفظ الله قبره حين تغزو هذه القبيلة أورشليم!

لم تكن الآثار هنا بذات شأن كبير. فهذا المكان يضمّ الجدران الضّخمة للمبني المربّع الكبير الذّي كان حصنا يوما ما. وعددا من الحنايا القديمة الضّخمة التّي تآكلت بمرور الزّمن، حتّى تكاد تبين من الأرض، وهناك المجاري المائيّة المبطّنة بالجدران، التي لا تزال مياه الجدول الرّقراق النّابع من نهر الأردنّ، تتدفّق عبرها. يوجد عند سفح الجبل معبد من الرّخام النّادر. أقامه هيرودس وما زالت أجزاء من طوابقه الفسيفسائيّة الأنيقة باقية على حالها حتّى الآن، وهناك جسر عتيق الطّراز من الحجر،أقيم هنا قبل عهد هيرودس. وقد تناثرت الأحرف اليونانيّة الكبيرة في أماكن عدةّ بين الدّروب والبراري، فضلا عن حطام من أعمدة من الرّخام السمّاقيّ. وبعض شظايا من تماثيل منحوتة، وهناك عند الجرف الّذي تتدفّق منه مياه النّبع، توجد نقوش قديمة متآكلة فوق مشاكي مجوّفة داخل الصّخر، حيث عبد الإغريق ومن جاءوا بعدهم من الرّومان الإله «بان» إله الغابات. لكنّ الأشجار والآجام، اعتلت الآن عددا من هذه الآثار، وكذلك حطّت أكواخ حقيرة لقلّة من العرب المارقين، فوق بنية هذا الأثر القديم، ما جعل المكان ينضح بالخمول والإهمال والجهل، وجعل المرء يصعب

عليه. تصديق أنّه في يوم ما، أقيمت مدينة قديمة آهلة بالبشر حتّى ما قبل ألفي عام، فوق هذا المكان. ومع ذلك فقد شهد الموقع حدثا أضافت آثاره، صفحات تلو الصّفحات وفصولا بعد فصول إلى التّاريخ الإنسانيّ.

« أيا بطرس، ابن كنيستي على هذه الصّخرة، لن تقوى عليها أبواب الجحيم. أعطيك مفاتيح ملكوت السّموات، فكلّ ما توثق رباطه على الأرض، يكون مربوطا في السّموات، وكلّ ما تحلّه على الأرض يكون محلولا في السّموات ».

قد تأسّس مبنى كنيسة روما الضّخم، على تلك العبارات رغم قلّتها، وبها تقع هيمنة البابوات الكاملة على شئون البشر الحياتية، وفيها أيضا تكمن قدرتهم شبه الإلهيّة على إلحاق اللعنة ببشر، أو تطهيره من الإثم. لقد كافحت وجاهدت وثابرت لقرون عدّة، للتمسّك بمكانة «الكنيسة الوحيدة الحقيقية» والتّي كانت روما تطالب بهذا الذى منح إيّاها، وستظلّ دائبة على مواصلة الدّور نفسه حتّى النّهاية. تمنح الكلمات الخالدة التّي سقتها، هذه المدينة الأثريّة، كلّ ما تحظى به من اهتمام من الجيل الحاضر.

يبدو من اللافت تماما، وقوفنا على أرض وطأتها من قبل قدم «المخلّص». فالموقف هنا بما يوحي به من واقعية وماديّة تقابلها روحانيّة وأسرارا ربّانيّة وغموض، يجعل المرء يرتبط، تلقائيا بذات الله. إنّني الآن عاجز عن تصديق، أنّني أقف الآن، حيث وقف الربّ، وأتطلّع بعيني إلى الجدول والجبال التّي نظر إليها الربّ، وأحاط أيضا برجال ونساء كسالى، ورأى أسلافهم الربّ، وتحدثّوا إليه أيضا، وجها لوجه، كما يتحدّثون إلى أي غريب. لا أقوى على إدراك ذلك، فقدراتي الاستيعابية تتوارى دوما بين الغيوم، وتتباعد الشّقة بيني وبينها.

صباح هذا اليوم وخلال مائدة الإفطار، جلس كالعادة هذا الجمع البشريّ المزري في جلد، خارج دائرة المخيّم السّحريّة، يترقبّون تلك اللّقيمات، التي تقدم لهم على سبيل الرّحمة لما أصابهم من بؤس. كان منهم الشباب وكبار السّن، والصّفر والسّود، والرّجال طوال وقصار القامة (نادرا ما تقع عين امرئ على رجال بتلك الملاحة، كما يحدث هنا في بلاد الشّرق)، لكنّ كلّ النسّاء والأطفال بدت عليهم الفاقة والبؤس، ومضّهم الطّوى. لقد ذكّرني هؤلاء كثيرا بالهنود الحمر.

حيث يغطي أجسادهم ما خفّ من ثياب، لكنها اتسمت بغرابة المظهر وغرابة الهندام. عرضوا ما تزينوا به من بهرج وحليّ رخيصة، بطريقة بسيطة تمكن من لفت الأنظار. جلسوا في صمت وصبر لا يلين، لمراقبة كلّ حركة تصدر عنا بازدراء، وفظاظة مكبوتة، تماما كما يفعل الهندي، ما يؤدّي إلى إثارة حفيظة الرّجل الأبيض وتململه وقسوة ترغّبه في إبادة القبيلة عن آخرها.

تميّز أولئك المحيطون بنا، بسما، أخرى، لاحظتها من قبل في الهنديّ الأحمر الأصيل، حيث غشيتهم الحشرات الطّفيليّة، وران على إجسادهم الوضر حتّى صار قشورا.

كان الصّغار في حال تدعو إلى الشفقة، فكلّهم مقرحو الأعين، ويعانون أنواعا أخرى من الأمراض. يذكر أنه لا يوجد طفل في بلاد الشرق، إلا وعانى من قروح في عينيه، وأنّ الآلاف منهم يفقدون عينا واحدة أو الاثنتين كلّ عام. أصدّق صحّة هذه المعلومة، لأنّني أرى كلّ يوم الكثير من فاقدي البصر، ولا أذكر أنّي قد رأيت طفلا غير مصاب بقرح في عينيه. ثمّ هل تعتقد أنّ امرأة أمريكيّة قد هان عليها الجلوس وطفلها بين ذراعيها، وتركت الكثير من الذّباب يحوّم طليقا طوال الوقت حول عينيه؟ أرى ذلك كلّ يوم ويقشعر له بدني. التقينا بالأمس امرأة تمتطي بغلا صغيرا، وتحمل بين ذراعيها طفلا، حين اقتربنا منهما ظننت بحق أن الطّفل مصاب بجحوظ في العينين، وتعجبت من سكوت أمّه على هذه الحال. ولكن حين ازددنا اقترابا منهما، اكتشفنا أنّ الطفل لا يعاني جحوظا، بل كانت تطوّق كلّ عين خيمة ذباب بارزة، وهناك ما يبشّر بالمزيد حول أنفه. لقد سرّ الذّباب، وقنع الطّفل، والأمّ بدورها لم تحرّك ساكنا.

بمجرّد علم القبيلة بأنّ طبيبا برفقتنا، بادرونا بجموع وافدة من كلّ الرّبوع. تناول الطبيب ب، المعروف ببرّه، طفلا من امرأة جلست بالقرب منه، ووضع بعض غسول سائل على عينيه المقرحتين. مضت تلك الأمّ وأخبرت القوم قاطبة، فرأيناهم وقد احتشدوا في طرفة عين. قدم الأعرج منهم والضّرير والمجذوم، وكلّ ذي آفة، ومن جبل على الخمول والقذارة والجور كان الجميع حضورا في المؤتمر العام خلال عشر دقائق، وينتظر أن يفد منهم المزيد.

جاءت كل من لديها طفلا مريضا تصطحب طفلها، وكل من ليس لديها استعارت واحدا. كم كان قدر مشاعر الاحترام التبجيل التي أبدوها لتلك القوّة الخفيّة الجبارة. ألا وهو الطبيب! تابعوه وهو يخرج قنانيّه، وفي أثناء ضبطه مقادير مسحوق أبيض، وتابعوه وهو يضيف إليه قطرات من سائل نادر، وقطرات من آخر. ولم يفتقدوا أدنى حركة منه، وأعينهم عالقة به، تنظر بإعجاب لا يحوّله شيء. أظنّهم اعتقدوا أنّه وهب قدرة شبه إلهيّة. حيث كلّ من تناول جرعة من العقار، نطقت عيناه بمشاعر الفرح رغم أنّهم بالسليقة جنس متبلّد جاحد للنّعمة وارتسم على وجهه يقين ثابت لا يتزعزع بأنّه ما من شيء على وجه البسيطة يحول دون تحقيق إبلال مريض.

لقد عرف المسيح كيف يعلم هؤلاء البسطاء من البشر، المصدقين للخوارق، والمبتلين بالمرض، فأبلّ المرضى. تجمّعوا هذا الصّباح، أمام طبيبنا البارّ المسكين. حين ذاع خبره بشأن الطّفل، وطبّق صيته آفاق المدينة، وشيّعوه بأعين الوقار. مع جهلهم حتّى الآن بما قد تحقّقه عقاقيره من فائدة أو العكس. لقد احتشد أسلافهم وكانوا يماثلونهم في اللّون والعادات والسّلوك والبساطة احتشدوا في جمع غفير خلف المسيح، وحين رأوه يحقّق الشّفاء الكامل للمريض بكلمة، فلا عجب في أن يوقّروه. ولا عجب أن تصير أعماله المجيدة حديث القوم. وما من غرابة في أن يبلغ من رافقوه من الجموع أعدادا هائلة لمسافة ثلاثين ميلا من هذا المكان وقد اضطرّوا إلى ترك أحد المرضى طريح الفراش، بسبب عجزهم عن الاقتراب من باب بيته. ولا عجب أن كان الحاضرين في الجليل من الكثرة، حتّى اضطرّ إلى تبشيرهم من على ظهر سفينة راسية، بالقرب من الشّاطئ. ولا غرو أن قطع عليه خلوته في المناطق الصّحراويّة المحيطة ببيت صيدا، خمسة آلاف شخص، وكان عليه إطعامهم بمعجزة، وإلاّ تزعزع إيمانهم وإخلاصهم للعقيدة. ولا غرو أنّه حين حدث اضطراب في إحدى المدن في تلك الأيّام قام الجار ينبأ جاره بهذا المضمون «إنّهم يذكرون أن يسوع النّاصريّ قد أتى» وزّع الطبيب ما لديه من عقار كما ذكرت ولم يعد لديه أيّا منه. ودوى صيته في أنحاء الجليل في هذا اليوم.

كان من بين مرضاه طفل ابنة الشّيخ، وهذا المسكين الصّغير، المثقل بالقروح يعيش في كنف شيخ أميريّ، هو ذلك الشيخ المسنّ والشبيه المومياء، الذى بدا من المرجح أنّه يقطن بيتا مزريا، وليس مقرّا أميريّا يترأس منه قبيلة لأولئك القساة العراة البائسين. لم تكن تلك

الأميرة تتجاوز الثّالثة أو الرابعة عشرة من عمرها على ما يبدو، وكانت تتّسم بملاحة الوجه وجمال. كانت الوحيدة بين من رأيناهن من النّسوة السوريّات، قد عدمت قبح الخلقة، حتى أنها لا تستطيع فغر فاها بابتسامة بعد العاشرة من ليلة السّبت دون أن تنتهك حرمة الأحد. ومع أن طفلها بدا عينة متماسكة لبشر سويّ، فإنّه هناك صعوبة لصنع فطيرة منه، وبدا هذا الشّيء الضّئيل المسكين ينظر بتوسّل إلى كلّ من يقترب منه. كأنه كان يعرف أنّ هذه هي فرصته الأخيرة ولا فرصة بعدها. فهيّج فينا لواعج الرّثاء الحقيقية لا المصطنعة.

لكنّ آخر من بذلت جهدا في الحصول عليه من الجياد، كان يسعى إلى كسر عنقه على حبال الخيمة، وكان عليّ مغادرة المكان كي أثبّته في مطرحه. كنّا أنا وجيريكو، ننتمي إلى مجموعتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى. أظنّ أن هذه الفرس الأنثي الجديد لم يكن من ذلك الفصيل الّذي يجنح كثيرا إلى الجموح. كانت إحدى قدميه الخلفيتين تنثني بطريق الخطأ والأخرى من حيث الثّبات والاستقامة أشبه بعمود خيمة. وكان قد تعرَض في وقت سابق لكسر أنّفه فصار أفطس كالمجرور. تدلّت شفته السّفلى كشفة بعرور، وجدعت أذناه حتى قرب رأسه. أقلقني في بادئ الأمر تعريفه باسم لكنّي في النّهاية، اهتديت إلى تسميته بعلبك لأنه أثر عظيم. لا أقوى على الكفّ عن الحديث عن خيولي. ذلك أنّ أمامي رحلة طويلة شاقّة، كما أنّه كان يسيطر على خواطري حتى انشغلت به كثيرا.

أرضينا الحجّاج بقطع تلك المسافات الشاقة بدءا من بعلبك حتّى دمشق، لكنّ فرسي وفرس جاك، قد أصيبا بالعرج، وكان علينا تركهما والعثور على دابّتين سواهما. يقول التّرجمان إنّ حصان جاك قد قضى نحبه. تبادلنا جوادينا أنا ومحمد وهو شاب مصري، يحمل في وجهه سمت الملوك، ويعمل مساعدا لفيرجيسوننا، وأقصد بفيرجوسون هنا، ترجماننا إبراهيم. لم أختر هذا الفرس لمظهره بطبيعة الحال، بل لأنّني لم ألق نظرة مسبّقة على متنه ولم تكن تتوفر لدى رغبة في ذلك. وقد رأيت من قبل متون أفراس أخرى، تغطّي أغلبها بثور بشعة، من موضع السّرج، وأعلم تماما أنّها لم تكن تتعرّض لغسل أو علاج. يثير السّفر طوال اليوم على ظهور الخيل الغثيان، بسبب قصور في فهم صّحيح الدّين وربط العبادة بتجشّم العذاب. تأكّد لي أنّ فرسي يشبه باقي الجياد، لكن عزائي كان على الأقلّ في جهلي بتلك الحقيقة.

لعلّني أكفّ مستقبلا عن الإسراف في إطراء ولع العربيّ الأعمى بفرسه. تمنّيت في صباي أن أكون أعرابيًا بدويًا، وأن تكون لي مهرة جميلة، ثمّ أدعوها «سليما» أو «بنيامينا» أو «محمّدا»، وأطعمها بيديّ، وأسمح لها بدخول الخيمة، وألقّنها كيفية مداعبتها، والرنّو في شغف إلى جمال عينيها الجاحظتين. وتمنّيت آنذاك أن يقدم أجنبّي على شرائها، ويقدّم لي مائة ألف دولارا ثمنا لها، ثمّ أحذو في ذلك حذو الأعرابيّ، وأقول للأجنبيّ بعد تردّد، بين شغفي إلى المال، ووقوعي أسير غرامي بمهرتي: « فلتبق معي يا جميلتي، واغرب عن وجهي أيّها الغويّ، إنني أحتقر ذهبك». أمتطي صهوتها من ثم، وأنطلق بها عبر البادية كالرّيح.

لكنني أستردّ، تلك المطامح. فلو أن هؤلاء العرب، لا يختلفون عن سواهم من العرب، فإنّ غرامهم بمهرهم الجميلة، محض أكذوبة. لأنّ أولئك الأوغاد، على حدّ علمي لا يحبون جيادهم، وليس فيهم مشاعر للرّأفة بهاغ، ويجهلون كيفية معاملتها، أو رعايتها. إنّ دثار السّرج في سوريًا عبارة عن حشية لحاف، سمكها بوصتين أو ثلاث، لا تفارق متن الفرس ليلا أو نهارا، تعجّ بالوضر ووبر الشّعر، وتنزّ بالعرق وتتشبّع بالماء. ينتج عن ذلك حتميّة إصابة الخيل بقروح. لا يفكّر هؤلاء الأفّاقون مرّة في غسل متن حصان، أو ايواء جواد داخل الخيام، فيصبح عرضة لأيّ من تقلّبات الطّقس. انظروا إلى المسكينة بعلبك، المعرّضة للهلاك، واذرفوا دمعا على ما ضاع عن وجد في سليميّ الخيال.

الفصل السّادس والأربعون

جئنا «دان» بعد نحو الساعة، مرورا بطريق صخريّ وعر، غمر جزء نصفه بالمياه، وعبور غابة من السّنديان الباشاني.

من تلّة صغيرة في السّهل ينساب دون توقف جدول من المياه الرقراقة فيصنع بركة كبيرة ضحلة، ويواصل تدفّقة بقوة، فتزيد سعته. هذه البركة، تعدّ مصدرا مهمّا لمياه نهر الأردن. تجمّلت البركة والنّهير بوفرة من نبات الدفلي اليانع. لكنّ جمال البقعة اللاّفت لن يدفع عاقل للانبطاح على الأرض مغشّيا عليه لفرط انفعاله بجمالها، حسبما تدفع كتب الرّحلات إلى سوريا، النّاس إلى تصديقها. لو انطلقت قذيفة مدفع من هذا المكان، فربّما تتجاوز حدود الأرض المقدّسة، فتضيئها ونحن منها على بعد ثلاثة أميال.

قطعنا مسيرة ساعة فحسب داخل حدود الأرض المقدّسة، وكان من الصّعب، أن نبدي تقديرا بأننا نقف الآن، على أرض تختلف في شيء عن أيّ، أرض أخرى اعتدناها، وأننا نرى أيضا كيف بدأت الأسماء التّاريخيّة، تحتشد بالفعل أمامنا. دان باشان بحيرة هوله منابع نهر الأردنّ بحر الجليل. هذه كلّها على مرمى البصر، إلاّ الأخير، لكنّه ليس بناء عنّا. كانت البلدة الصّغيرة باشان، إحدى الممالك يوم ما، وهي معروفة في الإنجيل بسنديانها، ثيرانها. كانت بحيرة هولة المذكورة في الإنجيل، هي « بحار ميروم ». تحد فلسطين من الشّمال بلدة «دان»، ومن الجنوب بير سبع وعبارة من «دان إلى بير سبع»، ترادف عبارة من «بالتيمور إلى سان فرانسيسكو» ومن «ميامي إلى تكساس» أيضا. يحمل تعبيرنا، وذلك الوارد في الإسرائيليّات المضمون نفسه. أي بشأن بعد المسافة. تقدّر المسافة التّي تقطعها بغالهم وإبلهم البطيئة، من دان إلى بير سبع بسبعة أيّام، وهب أنّها تعادل مائتين وخمسين أو ستّين ميلا، وهذا طول بلدهم الكليّ. لا يمكن قطع هذه المسافة بالطّبع، دون استعداد كبير، وإجراءات معقدّة. إنّ صاحب الرّقم القياسيّ في بلدنا لا يتجاوز في السّفر

مســافــة ثمانين أو تسعين ميلا. يبلغ عرض مساحة فلسطين ما بين أربعين وستّين ميلا، أي أنّه يمكن تقسيم ولاية ميسوري إلى ثلاثة، يعادل كلّ مساحة فلسطين، وتبقى مساحة كافية لجزء رابع، هو الأكبر.

المسافة من بالتيمور إلى سان فرانسيسكو ،تقدّر بعدّة آلاف من الأميال لكنّها ستقطع بالقطار في سبعة أيّام فحسب، حين يزيد عمري عامين أو ثلاثة(*). فإنّ بلغت هذه السنّ، فسأمضي بالضّرورة، عبر القارّة من حين لآخر في عربات القطار تلك، لكنّ السّفرة من دان إلى بير سبع، ستكون ولاشكّ كافية. لأنّها بالضّرورة ستكون أكثر الرحلتين شقّة. ورغم ذلك فإنّه لو يقدر لنا اكتشاف أنّ المسافة من دان إلى بير سبع قد بدت في عين الإسرائيليّين مسافة هائلة لبلد من البلاد، فدعونا لا نتّخذهم سخريًا، بل نردّ عليهم بأنّها كانت وستبقي مسافة عظيمة حال عجز المرء عن اجتيازها بالقطار.

كانت مدينة لايش الفينيقيّة تشغل التلّة الصّغيرة التّي ذكرتها آنفا، استولى على المكان جماعة من متمرّدي زوراه وأشكول، حين كانوا يعيشون، دون أن يتقيّدوا بضوابط، فعبدوا نماذج لآلهة من صنعهم، ومنتحلة من جيرانهم الذّين تخلّوا عن عبادتها. قام يربعام في هذا المكان بصنع عجل من الذّهب ليفتن به أهله، ويحول بينهم وبين الذّهاب إلى أورشليم للتعبّد، في سفرات محفوفة بالمخاطر، فيحقّق بذلك رجوعهم مجدّدا إلى ولائهم الدّينيّ. ومع كامل تقديري لأولئك الإسرائليين القدامى، فإنّني لا أستطيع إغفال حقيقة أنّهم لم يكونوا دوما على درجة من الفضيلة تجعلهم يقاومون إغوائهم بعجل ذهبي. لم يطرأ أيّ تغيير على طباع البشر منذ ذلك الحين.

استبيحت مدينة سادوم منذ أربعين قرنا لعرب ما بين النّهرين، وأسر لوط بين من أسروا، وجيء به إلى هذا المكان، في طريق عودتهم إلى ممالكهم الأصليّة. جاءوا به إلى «دان» وتسلل إبراهيم (أبو الأنبياء) في آخر اللّيل، وكان يلاحقهم خفية، تسلل بين خمائل الدّفليّ النّاعسة، وتحت ظلال السّنديان الوقور، وانقضّ من ثمّ على المنتصرين النّيام، وقضّ مضاجعهم بضربة من سيفه. فكّ أسر لوط واستردّ ما استلبوه من غنائم.

(*) تم مدّ الخطوط الحديديّة بعد تسجيل ما ذكر آنفا.

واصلنا مسيرنا وانتهينا إلى مرج وافر الاخضرار، عرضه خمسة أو ستّة أميال، وطوله خمسة عشر. تمرّ عبره مياه النهيرات التّي ذكرنا أنها منابع نهر الأردنّ الرئيسة، حتّى وصولها إلى بحيرة هوله. وهي بركة ضحلة، يبلغ قطرها ثلاثة أميال، وهناك من أقصي جنوب البحيرة تصرف ما تجمّع من مياه الأردنّ. يحيط بالبحيرة مستنقع فسيح، برزت منه أعواد الغاب. يترامي قطاع كبير من الأرض الخصبة ما بين المستنقع والجبال المحيطة بالوادي، عند أقصي الوادي المواجه لدان، يروي بمياه نهر الأردن، ما يزيد على نصف مساحة الأرض، بها من التماسك والخصوبة، ما يصلح لإقامة مزرعة. يكاد ذلك يبرر ما أظهرته جماعات من المغامرين الرّعاع ممّن استولوا على «دان» من تعصّب دينيّ. حيث قالوا: «ها قد عثرنا على الأرض، ووجدناها صالحة تماما» . وهي بقعة لا ينقصها شيء على وجه البسيطة.

تأكدّ تعصّبهم الدّينيّ، على الأقلّ بحقيقة أنّهم لم تقع أعينهم من قبل على بلدة أفضل من هذه. وكان ذلك كافيا، لجعلها مرتكزا رئيسا لستّمائة رجل فضلا عن أسرهم.

حين هبطنا إلى القطاع السّهلي من المزرعة الدّاناتيّة، جئنا إلى أماكن تمكنّنا من العدو فيها بالجياد. اعتبرنا ذلك حدثا مشهودا.

كنّا لعدّة أيّام من قبل، نواجه مشقّة بالغة في ارتقاء تلال لاآخر لها وتخطّي صخور، وحين بوغتنا بهذا القطاع العجيب من السّهل الفسيح، الخالي من الصخور، أطلق كلّ منّا لفرسه العنان للعدو بسرعة كبيرة، ما جعله ولا شكّ يستمتع إلى أقصى درجة. وما كان يحلم بأنّ يحقّق في سوريا مثل هذه المتعة.

يوجد هنا من الأدلّة، ما يؤكّد وجود عمليات استصلاح للأراضي وهو مشهد نادر في هذا البلد لنحو آكر أو اثنين من الأرض الخصبة، استقامت فوقها عيدان الأذرّة الجافّة، لحصاد آخر موسم، يبلغ العود سمك إبهامك، ووكلّ مستقلّ بذلك. لم تخل أرض كتلك من مشهد مقزّز. فعلى جانب من السّهل يجري أحد الأنهار، وقد غصّت ضفافه بقطعان غفيرة من الشّياة السّوريّة المنفّرة، ظننتها في البداية تلتهم الحصباء التهاما وبكلّ أريحيّة. لم أستطيع أن أقرّر هذه الحقيقة الصّادمة، ولكنّي لم أر ما تلتهمه في المكان غير الحصباء. لم أشكّ مطلقا في الرّعاة، المصورين في لوحات يوسف وإخوته. بدوا طوال القامة، سليمي

البنية، بدوا سمر البشرة. بلحى سوداء داكنة. في شفاههم غلظة وفي عيونهم حدة، وفي سيرهم سمت وقار الملوك. اعتمروا قلانس بألوان مختلفة، تغطّي نصف الجبهة، ذات شراريب منسدلة على الأكتاف، واكتسوا أردية فضفاضة مقلّمة بخطوط سوداء طويلة، ويرى المرء هذا الثّوب في اللّوحات التّي تصّور أبناء الصّحراء، كالحي الوجود. أظنّ أنّه لو سنحت الفرصة لهؤلاء الشّباب، لبيع صغار إخوتهم، لا أشك أنّهم سيغتنموها. لهؤلاء ما كان لإسلافهم نفسه من سلوك وعادات وتقاليد وعمل ومبادئ فضفاضة.

(اقتحموا الخيمة عشيّة أمس، ولم أتوقّع منهم خيرا). جاءوا بصحبة البغال القزميّة، التّي تراها في أنحاء سوريّا، تذكّرك بكلّ لوحات «رحلة إلى مصر»، التّي تصوّر مريم والطّفل الصّغير، يمتطيان ظهري حمارين، وإلى جانبهما يسير يوسف النّجار على قدميه.

لكنّ ما يحدث هنا بالفعل أن رجلا يركب حمارا ويحمل الطفل، وتسير المرأة إلى جوارهما وتلك هي الصورة العامة. وما كان لعاداتهم أن تتبدّل منذ عهد يوسف. ليس في بيوتنا من يحتفظ بلوحة تصوّر يوسف النّجار راكبا ومريم تسير إلى جانبه، لأنّنا سنجد في هذا خروج عن المقدسات، لكنّ السّوريّ المسيحيّ لا يرى ذلك. أعرف أن الصورة التّي قدّمتها آنفا سوف تحملني فيما بعد على النفور.

لم نستطع بالطّبع التوقّف للاستراحة، بعد مسيرة ساعتين أو ثلاث من مغادرتنا المخيّم، مع أننا كنا بمحاذاة الغدير. وهكذا قرّرنا مواصلة التّرحال ساعة إضافيّة. أماسنا الماء، لكن ما يحيط بنا من يباب، قد خلا من أثر لظلّ، وكنّا على شفير الموت احتراقا. «كمن يتفيّأ بظلّ صخرة عظيمة في أرض يباب». لا يفوق هذا التّعبير الوارد في الإنجيل تعبير آخر، ومؤكد أنّه ما لمكان وردناه ينطبق عليه هذا التعبيرالمؤثّر، مثل تلك الأرض السّافعة المكشوفة القاحلة.

إنّك لا تستطيع التوقّف هنا بإرادتك، بل حين تتيسر لديك سبل تحقيق ذلك. فنحن عثرنا على الماء، ولكن لا فيء. مضينا على الطريق وعثرنا على شجرة في النهاية ولكن لا ماء. استرحنا تحتها، وتناولنا غدائنا وانتقلنا إلى هذا المكان المسمّى «عين ملالة» (ويطلق عليه الصّبية بولدوينسفيل). استغرقت رحلتنا القصيرة إليه نصف يوم، لكنّ الترجمان لم يشأ أن نتجه أبعد من ذلك. واختلق كذبة مقنعة، بزعم أن البلدة المتاخمة لهذا المكان يأهلها

عرب اشرار. سيجعلون من رقادنا بينهم تزجية فراغ محفوفة بالمخاطر. كان لا بد من أن يكون وجه خطورة هؤلاء، حملهم بنادق عتيقة صدأة. ذات زناد صلب، أخنى عليها الدّهر. تفوق ماسورتها طول أحدهم. وليس بها محدّدا للهدف. ولا تستطيع حمل أكثر من قشرة من قرميدة. وهي غير مؤمّنة. يحملون في داخل حزام. محكم طويّه حول الخاصرة. مسدّسين أو ثلاثة من ذات الحجم الكبير. ران عليها الصّدأ والبلي. ويتأخر انطلاق رصاصاتها إلى الحدّ الذّي يسمح لك بالإفلات من مرماها. فتنطلق من ثمّ لتشجّ رأس العربيّ. فيا لعظم خطورة أبناء الصّحراء أولئك. عادة ما يدفع الدّم البارد إلى عروقي. قراءة كتب و.م. جرايمز. في وصف كيفيّة إفلاته من البدو. لكنّي أعتقد الآن بقدرتي على قراءتها دون أن يصيبني بهلع. أصدّقه حين لا يأت على ذكر أنه لم يتعرّض لهجوم عليه من قبل البدو. أو أنّهم عاملوه بوحشيّة. لكنّه اكتشف بغتة في فصول الكتاب الأخرى أنهم يتقدمون نحوه. وأنّه طراز جبّار من الرّجال في مواجهة الخطر. وممّن يحاروا فيما سيشعر به أهله في الوطن. وهم يرون أن فتاهم هذا الرحالة المسكين. قد خارت قدماه وزاغت عيناه. وسط تلك المخاطر الرهيبة. وأنه يفكّر لآخر مرّة في بيت الأسرة العريق والكنيسة القديمة الحبيبة. وفي البقرة وأشياء من هذا القبيل. وينتهي الأمر إلى الانتصاب مشدودا فوق جواده. وسحب مسدسه الوفيّ. وإطلاق رصاصة على بدوي يدعي محمّدا. ويترجلّ بعد ذلك عن فرسه. وينقضّ على عدوّه الشّرس. لقد قرّر التضحية بنفسه بشمم وإباء. الحقيقة أن البدو لم يبادروه بشيء لدى قدومه. ولم يحدث منهم تجاهه شيء لافت. ويحيّر المرء. سبب اختلاقه مثل هذه الأشياء. وأنا من جهتي لا أستطيع ترك الأمر على علاته بشأن تعرضه لخطر ماحق. أزاله بجرأة. ولا أستطيع لهذا السّبب. قراءة شيء عن بدو جرايمز. ثم أترك الأمر يمرّ مرّ الكرام. لكنّي أعتقد الآن أن مسألة البدو. محض اختلاق. فأنا أرى الخطر المحدق ويمكنني إفلاته. لن أنسى بالمرّة. تجاسره على الاحتماء ببندقيّته ثم إطلاق الرّصاص.

شهدت هذه الأرض التّي أقيم عليها مخيّمنا. والمتاخمة لنهر ميروم. منذ ألف وخمسمائة عام. أحد معارك يوشع الدّامية. حشد ملك حاصور (بلدة تقع على مرتفع

قريب من «دان») كل شيوخ البلدة معا، ومعهم جيوشهم، وطلب إليهم التأهّب لملاقاة القائد الإسرائيليّ الرّهيب، الزّاحف نحوهم.

« احتشد كلّ هؤلاء الملوك في وقت واحد، جاءوا وحلوا معا، بجوار بحار ميروم لكي يحاربوا إسرائيل، «فخرج الجميع ومعهم جيوشهم، بجمع غفير لا يحصى كالرمال على الشّاطئ».

لكنّ يوشع انقضّ عليهم، وأبادهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد. ذلك دأبه في الحرب، حيث لم يدع فرصة لصحف الخصوم للخوض في شأن الطرف المنتصر في الحرب والطرف الخاسر .

جعل يوشع من هذا الوادي، الذى ينعم الآن بالهدوء، مذبحا مخضّبا بدماء الشّياه الذّبيحة.

في مكان ما من هذا القطاع من البلدة لا أعرف أين يقع تحديدا، دخل إسرائيل معركة دمويّة أخرى تلت المعركة السّابقة بمائتي عام. طلبت دبّورة نبيّة إسرائيل من باراق، بأن يصطحب معه عشرة آلاف رجل، وأن يتوجّه لمحاربة ملك آخر يدعى «يابين»، ذلك لأنّه كان يدبّر لأمر ما. هبط «باراق» من جبل تابور، ويبعد عن هذا المكان مسافة عشرين أو خمسة وعشرين ميلا، وحارب جيوش «يابين»، الّذي كان على رأسه القائد سيسرا. كسب باراق الحرب، وحين أوشك على تحقيق النّصر الكامل كعادته في إبادة فلول جيش العدو المنهزم عن آخرها، فرّ سيسرا هاربا، وعندما أدرك الأخير الظمأ والإعياء، بسبب اجتيازه الطّريق سيرا على قدميه، دعته امرأة تدعي «ياعيل»، يبدو أنّه كان يعرفها جيّدا، دعته إلى دخول خيمتها، كي يستريح، وكان الإعياء قد بلغ بالقائد مبلغا، فآوته إلى الفراش، أخبرها شعوره بالظّمأ ورغبته في كوب ماء، فأتته بلبن، شربه ممتنّا، وراح في سباته مجدّدا، كي ينسي في أحلامه السّارة معركته الخاسرة، وكبريائه المهدور، جاءت على الفور خلسة، وهو نائم، تحمل مطرقة، ثمّ ضربت صدغه بوتد الخيمة الّذي كانت تخفيه، فنفذ من رأسه.

« لأنّه كان غارقا في النّوم ومتعب. فقد لقي حتفه». هذه هي لغة الإنجيل المعبّرة. وهذا مقطع من «ترنيمة دبّورة وباراق» تلك التّي تبارك بها «ياعيل» إزاء ما قدّمته من خدمة جليلة، حيث تقول :

«مباركة على كلّ النّساء ياعيل، يا امرأة حابر القينيّ. على النّساء في الخيام مباركة أنت.

طلب ماء فأعطته لبنا. في قصعة العظماء قدّمت له الزّبد.

مدّت يدها إلى الوتد، وعينها على المطرقة، وضربت سيسرا وسحقت رأسه، شدّخت وخرّمت صدغه: انطرح بين رجليها، وسقط، اضطجع بين رجليها، انطرح، سقط. حيث انطرح هناك. وسقط قتيلا».

لم يعد هذا الوادي مسرحا لأحداث مثيرة كهذه، حيث خلا من قرية عزلاء على طول امتداده لمسافة لا تقلّ عن ثلاثين ميلا من كلّ الجهات. يظهر تجمّع من البدو في خيمتين أو ثلاث. وخلا المكان بصفة دائمة من آهليه. فربّما يقطع المرء عشرات الأميال في هذه الأنحاء، ثمّ لا يعثر في طريقه على عشرة أشخاص.

تحققت على هذه الأرض نبوءة تقول :

«سأبعث في هذه الأرض الخراب، وسيذهل أعدائك، الذّين يسكنون هذا المكان. وسألقى بك بين الوثنيين، وأتبعك بسيف مسلول، لتصير أرضك قفرا ومدنك يبابا».

لا قبل لمن يقف الآن، بالقرب من «عين ملاله» المقفرة، الحقّ بأنّ يدّعي أن النبوءة لم تتحقّق.

وردت عبارة «كلّ هؤلاء الملوك» فيما استشهدت به آنفا من آيات الإنجيل، حيث شدّتني لوهلة هذه العبارة، لأنّها تحمل إلى عقلي، ما كنت أفهم بالخطأ في بلادي. يمكنني بسهولة إدراك أني لوحرصت مخلصا، على تحقيق فائدة مرجوّة من هذه الرّحلة، والتوصّل إلى فهم صحيح لما يرتبط بها من أمور، وفعلى غضّ الطرف عن العديد ممّا تشرّبته من أفكار كثيرة في السّابق تتعلّق بفلسطين. وحريّ بي اتباع أسلوب أبدأ من خلاله، حذف كثير من تلك الأفكار. لقد تعلّمت تضخيم كلّ ما في فلسطين من أشياء، مثل عناقيد العنب التّي جاء الجاسوسان بها من فلسطين. كنت أشطح بأفكاري كثيرا. كانت كلمة فلسطين،

من الغموض بالنّسبة بحيث أوحت إلى عقلي، بأنّها بلد في حجم الولايات المتّحدة الأمريكيّة. لم أدري لذلك سببا، لكنّ الأمر سار على هذا النّحو. لعل سبب ذلك، كان جهلي بأنّ بلدا صغيرا يمكن أن يكون له في التّاريخ مثل هذا الزّخم. أعتقد أنّني قد حرت بعض الشّيء لاكتشافي أنّ سلطان تركيا العظيم، كان مجرد إنسان مثل بقية البشر، وأن على التراجع بأفكاري عن فلسطين إلى درجة أكثر عقلانيّة. يتأثّر المرء في صباه أحيانا بما يتكون لديه من انطباعات كبيرة، يصبح عليه مقاومتها طيلة حياته. «كلّ هؤلاء الملوك». حين اعتدت قراءة هذه العبارة في مدارس الأحد، وجت أنه قد أوحت لي بالعديد من الملوك، الذين تولوا أمر هذه البلاد، وأنهم كانوا يلبسون ثيابا مرصّعة بالجواهر، ويسيرون في مواكب مهيبة، وفي أيديهم صولجانات ذهبية، وعلى رءوسهم تيجانا برّاقة. لكنّ الحال هنا في «عين ملالة »، وبعد اجتياز سوريّا، ثم تمعّن عن قرب، في شخصيّة وعادات هذا البلد، فإنّ عبارة «كلّ هؤلاء الملوك» تفقد زخمها لديّ، لأنّها لا تشي بغير جماعة من القادة البسطاء. يظهر صلفهم من هيئتهم وملبسهم الزري، شأنهم في ذلك شأن هنودنا، الذّين عاشوا أمام بعضهم بعضا ملء السّمع والبصر، بممالكهم الضخمة وهي لا تزيد مساحتها على خمسة أميال مربعّة، ولا تضمّ أكثر من ألفي نسمة.

إنّ كلّ ما قضي يوشع عليه من ممالك، تلك التّي كان يحكمها ثلاثون ملكا، لا تزيد مساحتها على مجمّوع مساحة أربعة من مدننا العادية. وبهذا السّياق، فإنّه كان من الممكن لذلك العجوز البائس، الذى رأيناه في «قيصريّة فيليبيّ» وبصحبته مئات من أتباعه المشرّدين، أن يحمل لقب ملك في الأزمنة القديمة.

في السّابعة صباحا، وحيث أنّنا لم نكن قدرحلنا عن البلدة بعد، كان لا بد للخضرة من أن تأتلق بحبّات النّدى، وللأزهار أن تعبّق الجوّ بعبيرها الفوّاح، وللطّيور أن تشدو بالألحان. لكن، واحسرتاه، على النّدى الغائب، واختفاء الأزهار والأطيار والأشجار. هناك سهل وبحيرة ولا فيء، وخلفهما بعض جبال وعرة. خيام منطرحة على الأرض، وعرب يتناحرون فيما بينهم كالقطط والكلاب، وحقائب وصرر متناثرة كالعادة على أرض المخيّم، والعمل في حزمها فوق ظهور البغال يدور على قدم وساق. أسرجت الخيل وظهرت المظلاّت، ونحن نتأهب الآن لامتطاء صهواتها، ليعاود الرّكب تقدّمه. الآن تختفي مدينة «ملالة»، وتصبح مجدّدا أثرا بعد عين بعد أن بعثت لزمن قصير إلى الحياة من عهدها البائد.

الفصل السّابع والأربعون

قطعنا بضعة أميال من بلدة مهجورة، تربتها بالغة الخصوبة، لكنّها كانت نهبا للأعشاب البريّة، رقعة مترامية من الأرض، تلبس ثوب الحداد والصّمت، لم نلق عبرها سوى ثلاثة من العرب، لا يضعون عليهم سوى قمصان كتّانيّة متسربلة خشنة، تشبه ما بدت عليه الثياب التّقليديّة، التّي يلبسها الصبية الزّنوج في الجنوب في فصل الصّيف. زيّن الرّعاة الثلاثة قطعانهم بمزامير الرّعاة التّقليديّة، وهي آلة من آلات النّفخ، تصدر ألحانا شبيهة بما تصدره الآلة الجهنّميّة من ألحان يرتجلها العرب في شدوهم. لم يبق في مزاميرهم أثر من الترانيم الحلوة التّي سمعها أسلافهم الرّعاة في سهول بيت لحم، وقت كانت الملائكة تترنّم بعبارة «على الأرض السّلام وفي النّاس المسرّة».

كان جزء من الأرض التّي أتيناها لا يشبه الأرض في شيء، بل حفل بالصّخور، البيضاء الضّاربة للصّفرة والمفتّتة، ربّما حدث ذلك بفعل المياه، مع ندرة في وجود حوافّ لتلك الصّخور أو زوايا، عدا الثّقوب والتّجاويف، الموزّعة عليها كأقراص شمع العسل، وفتحات مستديرة، تشكّلها بنماذج عديدة، منها ما يصوّر جماجم غريبة الشّكل. كانت على هذا الجزء من الطّريق، بقايا طريق رومانيّ قديم يشبه طريق «أبين» لا يزال ما رصف من صخوره باقيا في موضعه، وشاهدا على صلابة الرّومان.

أرسلت السّحالي الرّماديّة، سليلة القبور والعزلة وميضا بين الفينة والفينة لدي خروجها ودخولها بين الشّقوق الصّخريّة، أو تلك التي ظلّت ساكنة تتشمّس. يصنع هذا الفصيل من الزّواحف بيتا له هناك، ويسخر مما يظهره البشر من غطرسة، يقيم بيتا له حيث عمّ الرّخاء يوما وحيث ولّى، وحيث حلّ الجمال ثمّ أدركه الذبول، وحيث أعقب الحزن المسرّة، وحيث نشأ الضّياع والصّمت في الكثبان، بعد حياة حافلة بالأبّهة، اكتست السّحالي بلون الرّماد، إشارة إلى آمال قد تبدّدت، ومطامح أدركها الزوال، وأحبّة يثوون تحت

الثّرى. ولو شاء لها أن تتكلّم فلسان حالها: «أقيموا الهياكل لأكون سيّد أطلالها، شيّدوا القصور لأكون ساكنها الوحيد، أسّسوا الإمبراطوريّات لأرثها، وواروا الملاحة، لأرى فيها صنع الهوام، وأنتم يا من تقفون هنا الآن لتلقّنوني مكارم الأخلاق، سأزحف على جثثكم حتّى يدركها الفناء».

زحف بعض النّمل إلى هذه البادية المنعزلة، لا لشيء سوي قضاء عطلة الصّيف، حيث جاءت أسرابه من «عين ملالة»، على مسافة أحد عشر ميلا.

لم يكن جاك اليوم على ما يرام. ومن السهل أن نلحظ ذلك، لكن فتى مثله من ذلك الصنف من النّاس ممن يبوحون بالكثير. أطلق العنان لنفسه بالأمس دون أية كوابح، ولكنه منذ أظهر جديّة في التعلمّ، والاستفادة من كلّ ما أتيح في الرحلة من فرص، لم يلجأ أحد إلى إحباطه بتصيّد أخطائه. اكتشفنا غيابه عن المخيّم لنحو السّاعة ثمّ عثرنا عليه بعيدا على ضفة الغدير، دون مظلّة تقيه حرارة الشّمس اللاّهبة. كان يمكن أن يبدو الأمر عاديًا لو أنّه تعود ذلك، لكنه لم يعتده. كان حين رأيناه، يوشك أنْ يلقى سلحفاة طينية بقطعة من الوحل، كانت حالسة تتشمّس فوق جذع شجرة صغير، فوق الغدير. قلنا له:

« لا تفعل ذلك يا جاك، ما بغيتك من إيذائها، وما جريرتها؟

حسنا، إنّني لن أقتلها، وإن كان حريّ بي قتلها، إنّها مخادعة!».

سألناه شرح السّبب، فأشار بأنّ الأمر لا يستحقّ. كرّرنا السؤال أكثر من مرّة، ونحن في طريق العودة إلى المخيّم، لكنّه ظلّ يردد أن الأمر غير ذي بال. لكننا كررنا عليه السّؤال في ساعة متأخرة من الليل، وهو جالس يفكر فوق فراشه. فقال:

« لا بأس، لا عليكم، لم يعد الأمر يشغل بالي الآن، لكنني لا أميل إلى الحديث اليوم، لأنّني كما تعلمون لا أتحدث في شيء غير مهم، ولا أظنّ أنّ الكولونيل كان حريًا به أن يفعل ذلك بدوره، لكنّه فعل، وأخبرنا اللّيلة الماضية خلال الصلاة في خيمة الحجّاج، فبدا وكأنّه يتلو من الإنجيل أيضا، شيئا يتعلّق بالبلدة التّي تغيض لبنا وعسلا، وبشدو السّلحفاة الّذي كان يسمع في الأرض. ظننت أن الأمر كان مبالغا فيه بعض الشّيء بشأن السّلاحف في نحو أو آخر، لكنني استفسرت من السيّد تشيرش إن كان الأمر هكذا، فردّ بالإيجاب،

وأنا أصدّق السيّد تشيرش. لكنّني جلست هناك اليوم لما يقارب السّاعة، وكدت أحترق في الشّمس، ولم أسمع لها شدوا، وأظنّ أنّني تصبّبت من العرق ضعف حفنة اليد وأصدقكم القول فقد أدرك العرق عينيّ، وسال على أنفي بلا انقطاع. وتعلمون أنّ سروالي أكثر ضيقا من سراويل الآخرين فيا لحماقة باريس لقد تبللت مقعدتنا السّروال بالعرق، ثمّ جفّت مجددا، وبدأت تتيبس وتبلي وتتشقّق وصارت مقزّزة ذلك كلّه ولم أسمع لها شدوا البتّة. قلت في النّهاية. إنّ الأمر كلّه محض خداع، ولا يزيد على كونه أكذوبة. ولو أنّ لديّ شيئا من الإدراك، لعلمت من البداية أنّ سلحفاة طينيّة لعينة، يستحيل أن تشّدو بالغناء. وقلت إنّني لا رغبة لي في إيذاء هذا الكائن، وسأمنحه عشر دقائق يبدأ الغناء عشر دقائق فحسب، وإن لم يفعل، فليذهب بددا. وقفت هناك طوال تلك المدّة أنتظر لعلّه يفعل. لكنّه ظلّ رافعا رأسه خافضها، مكرمشا بشرته باسطها، وكأنّه يكاد يستحضر ما يشدو به، وحين مرّت الدقائق العشر، وأعياني القرح والإعياء، نكّس رأسه اللعينة فوق جديلة وراح في سبات ».

« لقد جعلك طول انتظارك تعاني كثيرا ».

« حدّثت نفسي، بأنّه كان حري بي أن أتوقّع هذا، حسنا، إنّك ياهذا، إن لم تشأ الغناء، فلن تهنأ بسبات البتة، وإنّكم أيّها الصّحاب لو أخليتم ما بيننا، فسأجعله يهرع إلى مغادرة الجليل بسرعة تفوق أيّة سلحفاة أخرى. لكنّني الآن لا آبه بالأمر، وليذهب طيّ النّسيان. فقد ضاق بي الحال».

توقّفنا في العاشرة صباحا عند جبّ يوسف. هذه إحدى الخانات المتبقية من العصور الوسطى، في أحد قاعاتها الجانبيّة، بئر كبيرة بها ماء، مسورة ومقنطرة. تقول إحدى الرّوايات إن هذه البئر هي الّتي ألقى فيها إخوة يوسف أخاهم. وهناك رواية أخرى موثقة، استخدمت جغرافية البلدة، وتحدد مكان البئر في «دوثان»، وهي على مسيرة يومين من هنا. ورغم ذلك ومع اعتقاد الكثيرين بأنّ هذا هو الجب الحقيقي، قد حظي بأهميّته.

يصعب اختيار الفقرة الأروع في كتاب من الكتب. تفوق روعة ما ورد من فقرات جميلة في الإنجيل، لكنّه قد تأكّد أنه لا يوجد بين دفّتيه ما يرقى منزلة على قصّة يوسف العظيمة. تلك التي علمت الكتّاب القدامى، بساطة أسلوب السّرد، وسهولة التّعبير، والمراثي، ويفوق ذلك كلّه، القدرة على النّأي بأنفسهم كليّة عن عين القارئ، وترك السرد الروائيّ منفردا وحده

وكأنّه يخاطب ذاته؛ فشكسبير دوما حاضر في كتاباته لدى قرّائه، ومالكوف ماثل أمامنا ونحن نقرأ عباراته الوقورة، لكنّ كتّاب العهد القديم قد نأوا بأنفسهم عن مجال الرؤية.

ولو أن الجبّ الذى ذكرت، هو الجبّ الحقيقي، فما وقع هناك هو المشهد الذى ألفناه، وتصوّره اللّوحات التّاريخيّة. قام أبناء يعقوب برعي قطعانهم قريبا من هذا المكان. زاد قلق يعقوب على إخوة يوسف، لطول غيابهم عنه، فبعث بيوسف الابن الأثير لديه، لاستطلاع أمرهم، فيما لو أن مكروها قد أصابهم. سار يوسف مسافة ستّة أو سبعة أيّام، وكان شابًا لا يتجاوز عمره السّابعة عشر، عانى مشقّة ذلك الطّريق الطّويل، في أكثر بلاد آسيا وعورة ووحولة ونفورا، ولبس ثوب الشّجاعة، رداءه التّقليديّ الجميل، الزّاخر بالألوان. كان يوسف الأثير لدي أبيه، واعتبر ذلك حمق في عين إخوته، وقد حلم في منامه برؤي، وفسّرها هو بأنّ شأنه، سيعلو على كلّ أفراد أسرته علوّا كبيرا في المنظور البعيد، وكانت تلك حماقة أخرى. لبس أمامهم أحسن ثيابه، وكشف بذلك عن غرور الشّباب الذّي لا يأتي بضرر، باستمراره إظهار تلك الحقيقة أمامهم. أثارت هذه الحماقات، حفيظة إخوته نحوه، فقرّروا عقابه حين تسنح الفرص. عندما رأوه قادما من بحر الجليل، عرفوه وانشرحت صدورهم لمقدمه. قالوا لبعضهم بعضا. «ها هو ذا الحالم، فلنقتله» لكنّ أخاهم رأوبين ناشدهم تركه حيّا، فتراجعوا عن قرارهم، لكنّهم وضعوا الفتي في إسرهم وشقّوا الرّداء الذى طالما ضجروا به من دبر، وألقوا به في الجبّ. لجأوا إلى تركه في الجبّ حتّى يلقى حتفه، لكنّ رأوبين عمد إلى تخليصه سرّا، ورغم ذلك، وحين ذهب عنهم رأوبين للحظات، باعه إخوته إلى بعض التّجّار الإسماعيليّين، المسافرين إلى مصر. تلك هي قصّة الجبّ. والجبّ ذاته باق في مكانه، حتّى يومنا هذا، وسيبقى هناك حتّى تصل إلى هنا التّجريدة القادمة، حافلة بمحطّمي التماثيل، ومنتهكو حرمة القبور، في رحلة على السفينة «الكويكر سيتي»، ولن يجدوا حرجا في نبشها وحملها الى بلادهم. حين نتحرى مسلكهم هذا، نجد أنهم لا يكنّون للآثار التّاريخيّة المقدّسة وقارا، فضلا عن أنّهم يخرّبون ولا يبقون على شيء أينما حلّوا.

أصبح يوسف من الأثرياء، وصار ذا جاه وسلطن، وكما ورد في الأنجيل أنّه كان «سيدا على أرض مصر». كان الحاكم الفعليّ للبلاد وعقلها المدبّر، وصاحب السّلطان، مع أنّ فرعون ظلّ يحتفظ باللقب. كان يوسف من أولي العزم من الرجال ممّن وردوا في العهد

القديم. وكان أنبل هؤلاء وأكثرهم مروءة، باستثناء عيسو، فما الذي يمنعنا إذن من ذكر كلمة طيّبة بحقّ ذلك البدويّ العظيم (عيسو)؟ إنّ جريرته الوحيدة التي تحسب عليه، كونه إنسانا سيء الحظّ.

لماذا يلتزم كلّ شخص، باطراء مروءة يوسف وكرمه إزاء إخوته القساة، دون أن نبخل في ذلك بلغة متقدة بالحماس، ثمّ نلقي على استحياء بقطعة عظم تطري عيسو، جرّاء نبله ومروءته الدائمين بأخ قد جار عليه؟ اغتنم يعقوب وقوع عيسو في عوز شديد، ليستلب منه حقّ بكوريته، بهتانا وخداعا بمباركة أبيه له، فجعل عيسو غريبا في وطنه، وشريدا، وحين التقى يعقوب بعد مرور عشرين عاما، خرّ له يعقوب راكعا على قدمه، خائفا، وملتمسا منه العفو عن عقاب كان يعلم أنّه مستحقّ له. فماذا كان من ذلك المشرّد النّبيل. لقد وقع على عنقه وضمّه إليه! وحين ظلّ يعقوب على شكّه وخشيته، وهو العاجز عن إدراك ما تتحلي به شّخصيّة المرء من نبل، ألحّ عليه بقوله. لأجد نعمة عند سيّدي» أي يرشوه بهديّة من الغنم، فما كان قول ابن الصحراء الجميل؟

« كلاّ. إنّ لي كثير يا أخي. ليكن لك الذّي لك!».

وجد عيسو يعقوب يرفل في الثّراء، محبوبا من بنيه وزوجه، ومحاطا في تجواله بالخدم والعبيد، وقطعان الغنم وركب الجمال، لكنّه ظلّ هو المطارد بغير حقّ من هذا الأخ الذّي صنع مجده. بعد انقضاء ثلاثة عشر عاما على هذا الحدث الديّني المؤثّر، وفد إخوة يوسف وهم ظالموه، غرباء في أرض غريبة، قد مضّهم البؤس والطّوى، وفدوا لشراء ما تيسّر من زّاد، واقتيدوا إلى أحد القصور الملكيّة بتهمة ارتكبوها، تطلّعوا إلى مالك القصر وأخيهم المظلوم، وهم من هلع يلتمسون العفو عما اقترفوه، من حاكم إمبراطوريّة عظمى! فلماذا يضيّع يوسف النّاجي من القتل فرصة للظّهور؟ من منهما إذن الأفضل. عيسو الشّريد المتسامح مع يعقوب الذى ينعم برغد العيش، أم يوسف الملك المتوّج والمتسامح مع من خرّوا هلعا، بعد أن تسبّبت فعلتهم الوضيعة في اعتلائه العرش؟ كنّا قد تسلّقنا جبلا قبل بلوغنا الجبّ بلحظات. وكانت تلوح من هناك وعلى بضعة أميال. رقعة من الأرض، قد خلت من شجرة أو خميلة تمحو بؤس الصّورة، صورة قد يهب ملايين العباد في أقصي بقاع الأرض، نصف ثرواتهم، لمشاهدة بحر الجليل المقدّس من خلالها! لذلك مكثنا لدى الجبّ فترة قصيرة،

ومنحنا خلالها أنفسنا وجيادنا قسطا من الرّاحة، وشفَت أرواحنا للحظات لرؤية الظلّ المبارك للأبنية العتيقة.

نفذ ما لدينا من ماء، لكنّ اثنين أو ثلاثة من المكفهرين العرب، ممن كانوا يهيمون على وجوههم في المكان، بالبنادق الطّويلة، ذكروا أنّهم عدموا شيئا من الماء، وأنّ المكان يعدمه، وأنّهم علموا أن ماء البئر القليل ليس سائغا شرابه، كما أنهم يوقّرون مكانا قدّسه أسلافهم، بحجبه حتّى لا يروا كلابا مسيحيّين يجرعون شيئا منه. أعدّ فيرجوسون رغم ذلك حبلا طويلا من أسمال القماش الصّغيرة والمناديل، يبلغ في الطّول قاع سفينة، فشربنا من ثمّ وواصلنا السير، ونزلنا بعد فترة على تلك الشّواطئ التّي جعلتها قدم المسيح أرضا مقدّسة. تسبحنا في الظّهيرة في بحر الجليل تيمّنا بمياهه، في هذا الطّقس الحارق، وتناولنا غداءنا تحت شجرة تين قديمة منسيّة، تقع بجوار النّبع الّذي يطلقون عليه «عين التّين»، على بعد مائة ياردة من بلدة «كفر ناحوم» الأثريّة. تمنح كل عين تنبع من الصّخور والرّمال في هذا الجزء من العالم لقب «نبع»، ويخرّ العارفون ببحيرات هدسون العظيمة والمسيسبي على وجوههم انبهارا بعظمة هذه العيون، وتعجز ملكاتهم الفكرية عن وصف مناقبها. إذا جمع في كتاب كلّ ما ألقي من شعر وثغاء اطراء بالعيون، وبمشهد هذه المنطقة البديع، سيخرج أعظم مجلّد جدير بالحرق. أرغم الحجّاج المتشدّدون في مجموعتنا، أنفسهم على تناول طعامهم، بعد أن شفت نفوسهم وسعدوا بمجرّد أن وطئت أقدامهم الأرض المقدّسة، فضلا عن أنّهم لم يدمدموا سوى ببعض أناشيد دينيّة مرتجلة، وكانوا قد مضّهم الشّوق كثيرا إلى الإبحار بأنفسهم والتزحلق فوق المياه التّي سبق لها أن حملت قوارب الحواريّين. زادت لهفتهم واشتدّ حماسهم، مع كلّ لحظة فارطة، وبدأ شكّ يراودني في أنّهم وهم على حالهم الرّاهن، قد يحلّون أنفسهم جرّاء نزقهم، من التزام جادّة الصّواب، ويلجأون إلى شراء أسطول كامل من القوارب بغرض الإبحار به، عوضا عن تأجير قارب واحد لساعة زمن، كما يفعل ذوي القلوب المطمئنّة. هالني التّفكير فيما سيحدث من خراب للجيوب، نتيجة أحداث هذا اليوم. لم أستطع كفّ نذير الشّر، الناشئ عن الحماس الدّيني المفرط، الذى يدفع كبار السّن إلى الجنوح للزجّ بأنفسهم في غواية قد تكلّفهم الكثير، وهم يخوضون التّجربة لأول مرة في حياتهم. إنّني لا أشعر الآن بأن لي الحقّ في إبداء استغرابي بأشياء، كانت تشغلني كثيرا.

كان هؤلاء الرجال منذ نعومة أظفارهم يبجلون، ويكادون يعبدون، الأماكن المقدّسة التّي يرونها الآن بأعينهم. ظلّت هذه الصّورة نفسها لأعوام كثيرة تراود أفكارهم بالنّهار، وتغشي أحلامهم بالليل. فالوقوف أمامها مباشرة ودون حجاب وهي ماثلة أمامهم، يرونها رأى العين والإبحار فوق البحر المقدّس، وتقبيل الثرى المقدّس المحيط بها، كانت كلّها مطامح طال ما تعلقوا بها، في حين بدّد جيل ستوات عمره الوئيدة، وترك تجاعيدها تزحف على وجوه شخوصه، ومشيبها يغزو رءوسهم. لقد ودّع هؤلاء، الأهل والأحبّة في الوطن وقطعوا آلاف الأميال وعانوا المشاقّ والمحن كي يشخصوا إلى هذه الصّورة، ويبحروا بالقوارب فوق هذا البحر. فأي عجب في أن يدرك ما شحّب من أضواء استنفذت في تدبّر شئون الحياة اليوميّة، إزاء ما يرونه من نور في أكمل إشراقاته؟ فليبدّدوا ما شاء لهم من أموال. قلت في نفسي من الذّي أتي على ذكر المال في وقت كهذا!

في هذا الإطار من التفكير اتّبعت على الفور هذا النهج من التفكير، بأسرع ما يمكن، حيث أخطو خطي الحجّاج الحثيثة نفسها، وأقف على شاطئ البحيرة وقوفهم، وأبالغ في التحيّات الحارّة التي يرسلونها بعد إبحار القارب بالصّوت والقبّعة. وكان ذلك إنجازا. هرول النّوتيّة الكادحون وسحبوا القارب إلى الشاطئ، وقد نشر أشرعته الثلاثة. ارتسمت البهجة على كلّ الوجوه.

«بكم؟ اسأله يا فيرجوسون عن المقابل! كم يتقاضي مقابل اصطحابنا، نحن الثّمانية إلى بيت سيدا، ذلك الظاهر من بعد، يعقب ذلك مصبّ الأردنّ، ومن ثُمّ إلى المكان الذى هبط عنده الخنزير إلى البحر هيّا أسرع! كما نرغب في المرور بطول السّاحل، والإبحار بحذاء السّاحل مرورا بكل مكان، كلّ مكان، طوال اليوم! يمكنني الإبحار سنة في هذه المياه! وقل له أنّنا سنتوقّف عند المجدل وننتهي بطبريّة. اسأله عن المقابل. أيّ شيء، أيّ شيء مهما بلغ! قل له إنّنا لا نضع كلفة ذلك في حسباننا!». (قلت في نفسي، أعلم مسبقا، بما سيحدث).

فيرجوسون (مقاطعا) «يقول نابليونان أي ثماني دولارات».

تراجع مؤيّد أو اثنان. ورانت لحظة صمت.

«كثير جدًا! سنعطه واحدا».

لن أسلّم بعد ذلك بشيء أصاب الآن برعدة حين أفكّر في أن الأمر قد صار منوطا بالمعجزات إذ إنه في طرفة عين كما تخيّلت، ابتعدت السفينة عن الشّاطئ عشرين ذراعا، وانطلقت بسرعة رهيبة. وقف على الشّاطئ ثمانية من المحبطين، وآه من التفكير مجددا في أمر كهذا، بعد كلّ ما أبداه الجميع من حماس مفرط! فيا لها من نهاية جدّ مخزية، بعد ذلك الصّلف الفظيع من جانبنا! بدا الأمر ينحو كثيرا إلى: هوو! دعني وإيّاه. أعقبه ذلك قول «حصيف» فليحجزه منكم اثنان، ويمكن أن يحجزني فرد واحد. دارت على الفور ولولة في المخيّم وصرير أسنان. قدّم النّابليونان، وأكثر لو تطلّب الأمر، وزعق الحجّاج والترجمان بأجشّ أصَواتهم، مناشدين النّوتية المنصرفين العودة. لكنّهم أبحروا في صمت، غير آبهين بالحجّاج الذّين طال حلمهم بيوم يتزحلقون فيه على مياه الجليل المقدّسة، وينصتون إلى روايته الدّينيّة، مع انبهارهم بأمواجه، بعد أن قطعوا بحرا وبرا، ما لا يعدّ أو يحصى من الفراسخ، لتحقيق ذلك، وأعقب هذا اكتشافهم أنّ ثمن ذلك باهظ. وما قول العرب المحمّديّين الأوغاد وهم يفكّرون في أنّ تلك الأمور، قد أقدم عليها، سادة من دين آخر!

لا بأس، فلم يكن بدّ من الرضوخ وكسب شرف الإبحار فوق جينيساريت. بعد قطع نصف الكرة الأرضيّة لنيل تلك البهجة. ذات يوم شهد هذا المكان، تعاليم المخلّص، وكانت تلك القوارب من الكثرة بين الصيّادين على السّواحل لكنّ القوارب والصيّادين قد رحلوا الآن جميعا. كان لدي يوزيبيوس الكبير أسطولا بحريًا مجهّزا بالمحاربين، حيث كان يبحر في هذه المياه منذ ثمانية عشر قرنا من الزّمان مائة وثلاثين زورقا مقداما لكنّهم بدورهم رحلوا ولم يخلّفوا شيئا وراءهم. لقد حاربوا في هذه البقعة. أمّا الآن فالمعركة لم تعد بحريّة، بعد أن صار عدد قوارب الأسطول التّجاري لبحر الجليل قاربين صغيرين فحسب، من تلك الشّراعيّة الصّغيرة التّي عرفها الحواريون. غاب أحدهما عن أنظارنا، والآخر كان على بعد أميال، يجاوز في بعده النّداء. هكذا امتطينا صهوات جيادنا، ومضينا صوب المجدل. نحثّ الجياد على السير بمحاذاة السّاحل، بحثا عن سُبل تمكنّنا من عبوره! تبادل الكلّ درء مسئوليّة ما حدث عن نفسه وإلقاء التّبعة على الآخر. لم تصدر كلمة واحدة من رفاقنا على السّفينة من الخطّائين، وحتّى إنّ التهكّم المباشر بهم. لم يكن مأمون العواقب في وقت كهذا. فالخطاة الذين وضعوا في المرتبة الدّنيا، وسيق إليهم من العبر ما فيه مزدجر، وعانوا التبكيت مرارا وتكرارا، في أمر تظاهرهم الدّائم بالمسلك الحميد، وتقاعسهم عن تنفيذ الأوامر. وتبادل

البذيء من اللفظ والمحظور، وإصرارهم الدّائم على دعواهم بأنهم بشر أسوياء ككلّ البشر، وأنّهم يسلكون دوما السلوك القويم، وأنّ حياتهم قد صارت عبئا عليهم، لن يظلوا هكذا تحت وصاية حجّاج في وقت كهذا، ويرنون إليهم خلسة بطرف عيونهم، ويرضون بذلك، ثمّ يقدمون على اقتراف آثام أخرى كتلك، إنه لن يخطر ببالهم أصلا أن يقترفوها.

وإلاّ فعلوا العكس، لكنّهم فعلوها، ما جعل منهم أناسا صالحين لدى سماعهم الحجّاج بدورهم يسبّ بعضهم بعضا. أحسسنا براحة جائرة لدى رؤيتهم يتشاجرون فيما بينهم بين فينة وأخرى، لأنه قد تبيّن لنا أنّهم بشر مثلنا يستحقّون الرّثاء.

لاقينا على هذه الحال مشقّة في الوصول إلى المجدل، في الوقت الّذي تعاظم فيه صرير الأسنان ثمّ تراجع من ثمّ تدريجيًا، وأهاجت العبارات الفجة سكون الجليل المقدّس.

خشية مغبّة أن يظنّ امرؤ أنّني أتعمد الاستخفاف، حين أتناول حجّاجنا على هذا النّحو، فإنّني أودّ أن أقرّ بحقّ بأنّي لم أنهج هذا السّبيل. لم يحدث قط أن رضيت بزجر من قبل أناس لا أحبّهم أبدا، ولا أطيق توقيرهم، وما من أحد من هؤلاء الحجاج يجرأ على القول بأنّني تلقّيت زجرهم ببرم، أو كنت حرونا من إنزال عقوبة بي، أو أنّي فشلت في السّعي إلى الاستفادة ممّا قالوه لي. أقول بكل صّدق إنّهم أناس يفضلونني، وأنّهم أيضا كانوا لي نعم الأصدقاء فضلا عن أنّهم إن لم يكونوا يرغبون في أن يكونوا مثار التعريض بهم في الصّحف من وقت لآخر. فلماذا بحقّ الجحيم سافروا بصحبتي، رغم معرفتهم بي، ومعرفتهم بنهجي التحرّزيّ فأنا أحبّ الأخذ والعطاء وذلك إذا كان عليّ أن أعطي، وللآخرين الأخذ. حين هدّد أحدهم بتركي في دمشق إثر إصابتي بالكوليرا، كان يجهل تماما فحوى ما يقول، لأنّني أعرف طابعه الوديّ، والدّوافع النبيلة الراسخة فيه. ثمّ ألم أسترق السّمع إلى تشيرش، وهو حاجّ آخر، حيث يقول بأنّه لن يأبه بمن يمضي ومن يبقى، لأنّه سيظل إلى جانبي حتّى أغادر دمشق على قدمّي، أو أحمل في صندوق لو استغرق ذلك عاما. ثمّ ألم أتغاضي عن تشيرش في كلّ وقت أتناول فيه الحجّاج بقدح. وهل كان عليّ اللّجوء إلى تناوله بصفاقة. إنّني أرغب في استنهاضهم وتمتّعهم بسلامة العقل.

غادرنا بلدة كفر ناحوم، وهي مجرّد أثر بلا معالم. ما حملت من سمات المدن شيئا، وخلت مما يوحي بأنّها كانت مدينة يوما ما، بل هي الآن خلاء بلقعا، غير مأهولة بالبشر كما

كانت في السّابق، بلدة ذات صيت، انبثقت منها شجرة المسيحيّة، واستفاء بأفرعها الوارفة، العديد من البلاد النّائية. ذلك بعد أن مرّ المسيح بتجربة من قبل الشّيطان في البريّة، وبدأ تعاليمه هناك وخلال السنوات الثلاث أو الأربع، التي عاشها بعد ذلك، كان هذا المكان كلّه يكاد يكون موطنا له.

بدأ بإبلال المرضي، حتّى ذاع صيته في الأنحاء، فوفدوا إليه من سوريًا وما وراء نهر الأردن وحتّى من أورشليم، ومن مسافات تقطع في عدّة أيّام، ليبرء سقامهم. أبلّ في هذا المكان قائد المائة الرّومانيّ، وحماة بطرس، وجموعا من المقعدين والعمي، وممن أصابهم الشّيطان بمسّ، وأقام أيضا ابنة بايرس من بين الأموات. أبحر مع تلامذته في قارب شراعيّ، وحين أيقظوه من سباته في أثناء هبوب عاصفة شديدة، أمر الرّيح بالسّكون وانتهر البحر، المضطرب فهدأ من فوره. عبر إلى الضفة الأخرى، بعد إبحار لبضعة أميال، وخلّص رجلين من براثن الشّياطين، التّي اندفعت وسط قطيع من الخنازير إلى البحر. دعا «متّى» من مكان الجباية لدى عودته، وأبرأ البعض، وأحدث من ثمّ جلبة حين شارك العشّارين طعامهم والخطاة. استمرّ بعد ذلك في إبراء السّقام، ونشر التعاليم في أرجاء الجليل، حتّى سافر إلى طيرة، وصيدا. اختار من بين تلامذته، اثني عشر، وأرسلهم خارج البلاد ليكرّزوا بالبشارة الجديدة (العهد الجديد)، وصنع معجزات في بيت صيدا وفي كرزون، وهي قري تبعد أيّاما ثلاثة عن كفر ناحوم. حدثت بالقرب من إحداها، معجزة حصاد شبكة صيد السّمك، التّي كان يفترض سحبها من البحر، وذلك في مناطق صحراوية، متاخمة للقرية الأخرى، التي أطعم فيها الآلاف، بمعجزة أرغفة الخبزالخمسة، والسّمكتين. لعن القريتين معا، فضلا عن لعنه كفر ناحوم، وذلك لعدم الإنابة إلى الله، بعد أن قدّم وهو بين ظهرانيهم، أعمالا عظيمة، وقد تنبأ بهلاكها جميعا. أمّا الآن وقد صارت كلّها أطلالا ما شرح صدور الحجّاج، لأنّهم كالعادة يقابلون بين عبارات الآلهة الخالدة، والظواهر الماديّة، التي تحدث على الأرض. يرجّح أن المسيح قد أشار إلى البشر، لا إلى قراهم القميئة وأكواخهم. إن يوم الدّينونة سيكون عليهم يوما عسيرا، فما علاقة أكواخ من الطّين بيوم الدّينونة؟ لا علاقة لذلك بالنبوءة من قريب أو بعيد ذلك أنّها لن تثبتها أو تنفيها حتّى لو كانت هذه المدن الآن في أحسن أحوالها، وليست الآن موشكة على أن تتحوّل إلى أطلال من الماضي كما تبدو. زار المسيح المجدل، المتاخم لكفر ناحوم، وزار أيضا «قيصريّة فيليبي»، وتوّجه إلى بيته القديم

في «النّاصرة»، ورأى إخوته يعقوب ويوسي، وسمعان ويهودا، وقد يتوقّع المرء أحيانا أن يتم تناول هؤلاء، باعتبارهم إخوة ليسوع المسيح، فمن يا ترى الآن يجد ذكرا لهم، ولو في إحدى الصّحف، أو في خطبة من خطب الوعظ. ومن الذي يستفسر الآن حتّى عن مسلكهم وهم في سنّ الشّباب، وما إذا كانوا يشاركون يسوع الفراش، ويلهون معه، ويمرحون من حوله، ويتشاجرون معه بشأن اللّعب وحول ما يشغل الصّغار من صغائر، فيدفعونه بغضب، غير شاكّين للحظة فيما سيصبح عليه من شأن. من الّذي استفسر حتّى عمّا كان يدور ببال إخوته، وهم يحتفون بلقائه لحظة عودته إلى النّاصرة، ورنوهم طويلا إلى وجهه بعد أن تغيّرت ملامحه، ليتحقّقوا من شخصيّته، ثم قولهم: «إنّه يسوع !». ومن الذي حفل بما مرّ بأذهانهم حين رأوا هذا الأخ، (الذى كان مجرّد أخ لهم، مع أنّه كان في نظر الآخرين غريبا محاطا بالغموض، وكان ربّا، ووقف أمام الله فوق السّديم لا يفصل بينهما حجاب)، يصنع الغريب المعجزات، بالجموع الغفيرة، ممن بهروا بتلك المعجزات. ومن أبه بإخوة يسوع، حال سألوه العودة معهم إلى البيت، وقولهم إن أمّه وأخواته، كن مهمومات لغيبته الطّويلة، وإنّهن سيسعدن برؤية وجهه مجددا. ومن الذي يتقدم حتّى بفكرة عن أخوات يسوع؟ لقد كانت له أخوات. وله ذكريات معهنّ. لا بدّ من أن يغلب ورودها إلى عقله، حال تعرّضه بين غرباء عنه لسوء معاملة، وحال كان بلا مأوى حين قال إنّه عدم مكانا يسند إليه رأسه، وحين هجره الجميع، حتّى بطرس، وحيث وقوف فردا بين أعدائه.

صنع المسيح بعض المعجزات في «النّاصرة»، ولم يبق بها إلاّ لفترة وجيزة. قال النّاس: «أهذا ابن الله! أليس ابن النّجار. إنّنا نعرف أفراد العائلة. نراهم كلّ يوم. ألا يدعى إخوته فلان وفلان، وأخواته فلانة وفلانة. أليست أمّه تدعى مريم؟ إن هذا إلاّ هراء». لم يلعن موطنه، لكنّه أزاح التّراب عن قدمه ثمّ مضى في طريقه. تتاخم كفر ناحوم ساحل البحر الصّغير، وتقع على سهل طوله خمسة أميال وعرضه ميلا أو ميلان، يزيّنه نبات الدّفلى في رقّة، ويعد ذلك تباينا، لو قيس بالتّلال الجرداء والبيد العاصفة المحيطة بها، ولكن المشهد لا يعزي إلى جمال أخّاذ أضفته عليه الكتب، ويستطيع المرء إذا توخّى الحياد والجديّة، استشراف ما فيه من حيويّة جمال.

حرّك فينا شعور بالانبهار شيء يقع أسفلنا، هو ذلك الجزء المتضاءل في بقعة من الأرض، وهو الّذي أخرج النبتة المسيحيّة الزاهرة الآن. بدأت الرّحلة الأطول التّي قام بها

المخلص. من هذا المكان حتّى أورشليم، بمسافة تقدر من مائة إلى مائة وعشرين ميلا. يليها في الطول تلك الرّحلة التّي قام بها من هذا المكان حتّى صيداء، وتقدّر بستّين أو سبعين ميلا.

بدلا من تباعدها بعضها عن بعض كما قد يوحي بذلك إعلاء الأمريكيين شأن بعد المسافات؛ فإنّه قد تحققّت الشّهرة الأكبر لتلك الأماكن دون سواها، وذلك لظهور المسيح فوق كل ما هو ماثل أمامنا هنا من بقاع. ما جعلها ملء العين والبصر. على مرمى طلقة مدفع من كفر ناحوم. وبغضّ النّظر عن رحلتين قصيرتين أو ثلاث قام بهما المخلّص، فإنّه قضى حياته وبشّر بعهده الجديد، وقدّم معجزاته في نطاق مساحة لا تزيد على مساحة مقاطعة اعتياديّة في الولايات المتّحدّة. ذلك أقصي ما يمكنني عمله لاستيعاب هذه الحقيقة المذهلة. كم يتكلّف امرؤ من مشقّة في قراءة مئات من صفحات التّاريخ كلّ ميلين أو ثلاثة كي يتحقّق من أن الأماكن الفلسطينيّة الشّهيرة متاخمة لبعضها بعضا. وكم من مشقّة وحيرة أن تراها محتشدة على دربك.

وصلنا إلى قرية المجدل في الوقت المحدّد.

الفصل الثّامن والأربعون

ليست المجدل بالبلدة الجميلة. هي سورية في كل شيء، والأحرى القول إنها بلدة تنضح بالقبح، والجهل، والانحطاط، والقلق، والوضاعة. وقد أجهد كلّ الكتّاب أنفسهم في التدليل على أنّها ذلك الطراز من المدن الذى تجمّلت به بلد من عهد آدم. وكأنّهم حقّقوا بذلك سبقا. يبلغ عرض طرقات المجدل ما بين ثلاثة أقدام إلى ستّة، يفوح منها عطن القمامة المقزّز. يتراوح ارتفاع الدور فيها ما بين خمسة إلى سبعة أقدام. أقيمت كلّها على نسق عشوائيّ واحد، يبعث في النّفس النّفور، وتشبه صناديق الملبوسات. لصقت جوانبها بالجصّ الأبيض، وتزيّن أعلاها وأسفلها جيّدا بأقراص من روث الإبل، وضعت هناك لتجفّ. هذا يضفي على المبنى طابعا بطوليا تقليديا، يشير إلى قذائف المدفعيّة، ويمنحها سمة قتالية بارزة. حين قام الفنّان بتنسيق، أدواته بدقّة تضع في الحسبان ضبط النسب، لوضع رقائق الجصّ الصّغيرة والكبيرة في صفوف تبادليّة، بوجود فراغات فيما بينها روعي فيها الدّقة ما جعلني لا أجد بحقّ ما يفوق بهجة النظر إلى أعمال الجصّ السّوري المفعمة بالحركة. زخرف السّقف المسطّح بكمّ لا بأس به من الأشكال والرّسوم الطّبيعيّة بالجصّ. بعد معالجته وتعريضه للجفاف مدّة طويلة. تبقى هكذا في أماكنها لتكون متاحة للاستخدام في المستقبل، لاستخدامها كوقود. خلت فلسطين تماما من الأخشاب، فلا يوجد منه حتّى ما يوقد كحطب، كما أنّها عدمت مناجم الفحم. ولو دققت في الوصف، فإنك ستدرك الآن، أنّ كوخا مربّعا، مسطّح السقف، أتقن طلاؤه بالجصّ، وحصّنت وأحيطت قمم جدرانه بما جفّ من روث الإبل، يضفي على المنظر الطبيعيّ، ملمحا مفرطا في الحسن والبهجة، لا سيّما حين يحرص المرء ألاّ يفوته، التعلق بذيل هرّة أينما ذهبت حول الأبنية، فهناك متّسعا لجلوسها. خلا الكوخ السّوري من نوافذ أو مداخن لتصريف الهواء، حين اعتدت قراءتي بأنّهم تركوا رجلا طريح الفراش، ممدّدا بطول سطح بيت من بيوت كفر ناحوم، كي يكون بارزا في حضور المخلّص، ظننت أن بيت هذا الرجل، كان مقاما من ثلاثة طوابق، وحرت من أنّهم

بهذه الحيلة العجيبة التي أدرك الآن مغزاها كان يمكن أن يتسببوا في كسر عنقه، مع أنّه كان بإمكانهم، سحبه من كعبيه، ثم إلقائه برمّته من فوق البيت دون أن يحدثوا كثير قلق به. لم تخضع فلسطين لأيّ تغيير.

لم يتغيّر فيها شيء سواء في المسلك، أو العادات أو في العمران.

لم يظهر أثر لبشر في أثناء دخولنا المجدل. اللّهم إلاّ وقع الجياد، الذّي حرّك الكسالى من أهل البلدة، فهرع الجميع كهولا، ورجالا ونساء، وصبية وبنات، وعمي وخبالي، ومعوّقين، والكلّ شعثا غبرا، في أسمال رثّة موحلة، تكاد تستر أبدانهم، فضلا عن وفود متسوّلين، اتخذوا حرفة التسول بالفطرة أو بالتدريب. كيف آن لجمع غفير كهذا، من المعذّبين والشّعث الاحتشاد، وعرض ما بهم من قروح وندوب للعيان، ويشيرون في ذلة إلى أطرافهم وما أصابها من بتر أو التواء، ويستجدون البرّ بعيون رجيّة! لقد استحضرنا روحا، لا قبل لنا بصرفها. أمسكوا بأهداب الخيل، وتشبّثوا بركبها وما تدلّى من أعناقها، وسدوا كلّ المنافذ، في غير خشية من خطورة حوافر الخيول. انفجروا في صوت جماعي ناقم، وهتاف جماعي كافر، «بقشيش، يا حاجّي، يا حاجّي، بقشيش». لم يسبق لي أن مررت بعاصفة كتلك.

بعد سداد البقشيش مقرحي الأعين من أولاد وبنات سمر بدينات ذوات وشم منفّر مطبوع على الذّقون والشّفاه، مررنا في صفّ منتظم عبر طرقات المدينة، بجوار عديد من الرّسوم الجصّية الفاتنة، حتى انتهينا إلى سياج يحتضنه نبات العلّيق، وأثر قديم يبدو رومانيًا، كان ذات يوم بيتا حقيقيًا للقدّيسة مريم المجدليّة، صديقة وتابعة يسوع. أكّد المرشد لنا هذه الحقيقة، وكذلك فعلت. فأنا غير قادر على ذكر النّقيض، والبيت ماثل أمامي في وضح النّهار. اقتطع الحجّاج قطعا تذكاريّة صغيرة من الجدار الأماميّ، كما هي عادتهم النّبيلة، ثمّ واصلنا السّير.

أقمنا الخيام في هذا المكان، داخل أسوار مدينة طبريّة. دخلنا مع حلول اللّيل المدينة، وتطلّعنا إلى أهلها، ولم نعبأ بالبيوت، فخيّر لنا أن نرنو إلى أهلها من مكان بعيد. كان أهلها من اليهود والعرب والزّنوج، قبيحي الخلقة، حيث آفة طبريّة القذارة والفاقة. تضع الشّابّات بوانئهن من الحليّ، في سلك متين، منحن من قمّة الرّأس إلى الفكّ، وهي عملات

فضّية تركيّة. جمعنها الواحدة إثر الأخرى، أو ورثنها. ولم تكن غالبية تلك العذاري من الثريّات. لكنّ قليلات منهن كنّ يتعاملن معه على استحياء شديد بطريق الحظّ.

رأيت ما تستحقه الوارثة من ميراث شرعي، ووأستطيع الزعم وأتجاسر على قول إنه يعادل تسعة دولارات ونصف. لكنّ تلك حالات نادرة. حين تمرّ بإحداهن، تجدها تتظاهر تلقائيا بالخيلاء. إنها لن تطلب بقشيشا منك. ولن تسمح لتقرّب في غير محلّه. تبدي وقارا ماحقا، وتنصرف في هدوء تام إلى استعمال مشطها حاد الأسنان، وتقرض نسقا واحدا من الشّعر، وكأنّ وجودك كعدمه بالكلية. فلا طاقة للبعض برغد العيش هنا.

يزعمون أنّ طوال الأنف، ناحلي القامة، معتمري القبّعات المزرية، ذوي الشعر المجدول والمدلّى إلى الآذان، هم أولئك الفريسيّون الكهول، المعروفون بمباهاة الناس بأخلاقهم، والذّين قرأنا عنهم في الأناجيل المقدّسة، يبدون ذلك في الظّاهر. إنّ مجرد الحكم عليهم من الشّكل العام فحسب، يجعل المرء يشكّ بسهولة في أن استقامتهم تلك سمة يتميزون بها.

اخترت من بين عدّة مصادر موثّقة، معلومة تتعلّق طبرية. تأسّست طبريّة على يد هيرودس أنتيباس، قاتل يوحنّا المعمدان، وسميت باسم الأمبراطور تايبيريوس. هناك اعتقاد بأنّها مقامة الآن فوق مكان أقيمت عليه منذ عصور سحيقة، مدينة كانت قد شهدت تقدّما في العمران، ويشهد على ذلك جمال الأعمدة الرّخاميّة، المنتشرة في أرجاء طبريّة، وعلى شاطئ بحيرة طبريّة جنوبا. حملت هذه الأعمدة من قبل نقوشا إلاّ إنّها الآن تكاد تكون قد طمست رغم متانة الأعمدة. ورغم صغرها؛ فإنّها الأبنية التّي تجمّلت بها. كانت تحظى بالتناسق وليس الضّخامة. لم يأت ذكر مدينة طبريّة الحديثة هذه، إلاّ في العهد الجديد، وليس القديم.

عقد في هذا المكان آخر سانهدريم (المجلس الأعلى لليهود القدامى). حيث كانت طبريّة على مدار ثلاثمائة عام هي حاضرة اليهود في فلسطين. إنّها إحدى المدن المقدّسة الأربع عند الإسرائيليّين، وهي أيضا بالنّسبة لهم مثل مكّة لدى المحمّديّين، وأورشليم لدى المسيحيّين. وكانت المقرّ الدّائم لكثير من المثقّفين والحاخامات المعروفين، وهنا مثواهم الأخير، وبجانبهم يثوي خمسة وعشرون ألفا من بني جلدتهم من اليهود، ممّن قطعوا المسافات الطّوال.

لمجاورتهم حيث أقاموا، ومشاركتهم الثّرى حيث رحلوا عن الحياة. قضي الحاخام الأكبر ابن إسرائيل ثلاث سنوات هنا في الربع الأوّل من القرن الثّالث، والآن يضمّه الثّرى.

لا يعادل بحر الجليل الشهير كبحر في الطّول بحيرة تاهوي بكلّ المقاييس(*)، فهي أطول منه بقدر الثلثين. وإذا تناولنا سمة الجمال، نجد أنّ هذا البحر، إذا قورن بتاهوي، يعد كخطّ الأفق الممتد إلى السماء مقارنة بقوس قزح. لا قبل لمياه هذه البركة المعتمة، أن توحي بصفاء مياه بحيرة تاهوي الرقراقة، ولا علاقة لهذه الآكام من الصخور والرّمال الصّفراء، والوعرة والخفيضة، والتي تجرّدت من أيّ مشهد واضح، بالذّري المرتفعة التّي تحدّ «تاهوي» كالجدار، والتي تكتسي واجهاتها الجدارية المتراصّة والمتصدعة بالسّنديان المهيب، الذى يبدو متضائلا بالتّدريج كلما ارتقى إلى أعلى، حتى يخال المرء أنّ السنديان قد تناهى إلى عشب وشجيرات، حين وصل إلى الذّري، فيلحق بما لا ينقطع عنه من جليد. رنت العزلة والسّكون على تاهوي، كما رنتا على بحيرة جينيساريت هذه، لكنّ عزلة إحداهما تفيض بهجة وفتنة بينما يرين على الأخرى عبوس ونفور.

يشهد المرء مع أوّل خيوط النّهار، نزالا صامتا بين الفجر والظلمة، على صفحة مياه تاهوي، بشكل لافت، ولكن حين تتواري الظّلال ويكشف الشّاطئ عن مفاتنه في ضوء الظّهيرة المبهر، إحداها تلو الأخرى، وحين يطوق السطح السّاكن كقوس قزح بخطوط عرضيّة زرقاء وخضراء وبيضاء، تقدّر بنصف المسافة من المحيط حتّى المركز، وحين يتمدّد صاحبنا في قارب، في ظهيرة صيف خمول، بعيدا في مكان تبدأ عنده زرقة راسبة في الأعماق، وحيث يدخن غليون سكينة، ويختلس النّظرات الكسلى، من أسفل حافّة قبعته، إلى الجرف النّائية والقطع الجليديّة الصّغيرة، وحيث ينسرب القارب باتّجاه الشّاطئ، صوب المياه الفضّيّة، فيسترخي على مؤخره، ويحدّق الآن في الأعماق البلّوريّة، يتفحّص فيها ألوان الحصى، ويتفرّس بعينه الجيوش السّمكيّة، الزّاحفة في ركب بعمق مائة قدم، وحيث ينظر في الليل إلى القمر والنّجوم، وحيث اكتست صدوع الجبل بالسّنديان، لتبرز عباءاته البيض،

(*) أتخذ جمال بحيرة تاهوي مقياسا لمقارنته بأيّة بحيرة أخرى، وسبب ذلك، ولعي بها، ثمّ ما تحمله لي من ذكريات سارّة، ويصعب أن أذكر بحيرات أخرى وأنسى تاهوي. (م. ت.)

وقننه شديدة الانحدار، ثم يتوّج امتداد المشهد الظّلاميّ الكبير، بذرى الجبل الوامضة والمكشوفة، وقد عكست صفحة مياه البحيرة تفاصيل هذا المشهد الجميل، والحافل بالرّقة والوفرة، فيبدأ الولع الفاتر عند طلوع الصّبح، يتزايد بحدّة، إلى أن يبلغ تجاذبا معه، لا قبل لأحد بمقاومته.

توشك الطّيور والسّناجب على الشّاطئ، والأسماك في الماء أن تحوّل هذه العزلة إلى النّقيض، لكنّها لم تكن بتلك العزلة التّي تشعر المرء بالرّهبة، فتعال إلى الجليل لتستمتع بذلك، إن لم تكن هذه البوادي غير الآهلة بالبشر، وهذه الهضاب الجدباء، التّي يستحيل أن تحرّك الوهج عن تخومها الكئيبة، فتخبو وتتلاشى في منظور غامض، وذلك اليباب المنفّر في كفر ناحوم، والخمول المسيطر على قرية طبريّة، الراقدة في ظل ستّ سعفات من جريد النّخيل الضّامر، وذلك المنحدر النّائي المقفر، والذّي صنعت عنده معجزة الخنزير المهرع إلى البحر، والذى لا أشك أنه ارتأى أنّ خيرا له بلع شيطان أو اثنين مع الموت غرقا، من بقائه حيّا في ذلك المكان، ثم هذه السّماء الحارقة، والعارية من الغيوم، ؛ ا ' ، عيرة الحزينة التّي لا لون لها، ولا إبحار بها، مستكينة داخل ما يحفّ بها من تلال رملية، وضّفاف منحدرة خفيضة، فتبدو مفتقرة إلى الشّاعريّة والخيال (هذا إذا استثنينا من ذلك تاريخها المشرف) كأيّ قيمة معرفية في الديانة المسيحيّة إن لم هذا كلّه، يهدهدني ما قبل النّوم، فظني ألاّ شيء يا أماه.

لكنّني بالضّرورة لن أقدّم دليل اتّهام، ولن أسمع من الدّفاع شيئا. يوضّح و.م.سي جرايمز الأمر كالتّالي:

«ركبنا قاربا يبلغ بنا الضّفة الأخرى. كان عرض البحر لا يزيد على ستّة أميال. أمّا جمال المشهد، فإنني رغم ذلك لا أستطيع أن أوفّيه حقّه، ولا يمكنني تخيل المكان الذى سدد الرحالة أبصارهم إليه، ممن وصفوا مشهد البحيرة بالنفور والافتقار إلى الجاذبيّة. إنّ أوّل سماتها المميّزة، الحوض العميق الذّي تضمّه، ويقدّر عمقه ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة قدم من كلّ الجهات، عدا الطّرف الأقصى منها، فهو الأكثر عمقا، ناهيك عن منحدر ضفافها المائل، المفروش كلّه بالينع والنّماء، والذّي تفرّق وتفرّع بالأودية والمجاري المائية، حيث تتخذ لها مسارا، عبر أركان الحوض، لتكوّن أودية خفيضة مشرقة، أو فجوات مظلمة،

تتسَم الضـفـاف القريبة من طبريّة بالوعورة، حيث تظهر فوقها المقابر القديمة، التي تواجه مداخلها المياه. لقد اختاروا لدفن موتاهم، تلك البقاع الكبيرة، كما فعل المصريّون القدامى، وكأنّهم كانوا يتدبّرون اللحظة التيّ يصل فيها صوت الله إلى أسماع الراقدين في القبور، فيبعثون من فورهم، فلتقع أعينهم على مشاهد رائعة الحسن. هناك تباين تام بين ما يرين على الجهة الشّرقيّة من وحشة المرتفعات وقفرها، والبحيرة الزّرقاء العميقة، وبين مّا تتمتع به الجهة الشّمالية من مهابة وجلال حيث يطلّ «حرمون» على البحر، رافعا تاجه الأبيض، بشموخ تلّ قد شهد خطي الرّاحلين عبر مائة جيل. هناك شجرة على الجهة الشّرقية الشّماليّة من شاطئ البحر، هي الوحيدة الظّاهرة بحجمها الطّبيعي، من مياه البحيرة، عدا بضع نخلات عزلاء في مدينة طبريّة، والشّجرة في عزلتها هذه، تجذب من الانتباه ما يفوق غابة. إنّ ما ظهر به المشهد الكلّي، كنّا نتوقّعه تحديدا ونرغب في أن تظهر به صورة جينسارت، من حيث الجمال الأخاذ، بل والسكينة التّامة. الجبال أيضا يغشاها السّكون».

في هذه الصورة الوصفية تبسيط للأمور، قصد به التضليل. لكنّها إذا جرّدت من ممّا حوى من بهرج وأشرطة وورود، لن تجد تحته سوى هيكلا عظميًا.

ولو جرّد مما أشرنا إليه، فلن يخلّف غير بحيرة عرضها ستّة أميال، لا لون لمائها، تنحدر ضفافها الخضر انحدارا شديدا، ولا تتجمّل بشجيرات. في أحد أطرافها المجردة من الخضرة، صخور بشعة، تتخللها فجوات لا تكاد ترى، ولا أهميّة لظهورها في الصّورة، وفي الجهة الشّرقية «جبال قفر موحشة»، (كان يجدر به قول تلال خفيضة جرداء). في الشّمال جبل يسمي «حرمون»، يغطّيه الجليد، ويميّز الصّورة «السّكون»، وملمحها البارز، شّجرة وحيدة.

لا قبل البتّة لسذاجة بتجميل صورة، في عين من يحيا الواقع.

يحقّ لي إجراء تصويب ما ذكر من أباطيل، بخاصّة ما ورد في الفقرة السّابقة عن لون مياه البحيرة. تميل مياه بحيرة جينسارت إلى الزّرقة العادية، حتّى لو استشرفناها من ارتفاع شاهق، من بعد خمسة أميال. ويصعب قبول وصفها مطلقا بالزّرقة الخالصة، عن قرب (ذلك للمبحر على سطح البحيرة)، أي الزّرقة المائلة إلى الدكنة. أريد تقديم

وجهة نظر، وليس تصويبا، بأن جبل حرمون لا يمكن اعتباره ضخما مهيبا على الإطلاق، ويمكن اعتباره كذلك إذا قسناه بجيرانه الحاليين. ذلك هو الأمر برمّته. لن أعترض على هذا الشّاهد، لو جزّ جبلا لمسافة خمسة وأربعين ميلا، ليضفي جاذبية على الصورة. فلعله استطاع ذلك، فضلا عن أنّ الصّورة التي يصفها تتطلب منه أن يفعل ذلك.

يبرز سي.و.إ. في كتابه. حياة في الأرض المقدّسة) ما يلي:

« يمتدّ بحر جميل الصّورة، بين تلال الجليل. حيث الأرض التي كانت ذات يوم مملوكة لزبولون ونفتالي، وآشر ودان. تنفذ زرقة السّماء إلى أعماق البحيرة، والماء بارد سائغ الطّعم. تمتدّ على الجهة الغربية، مروج خصبة فسيحة وترتقي الشواطئ الصخرية في الشّمال، لتبلغ الذّري الجليديّة لجبال حرمون. ومن الشّرق وعبر السّديم، ترى سهول بيريا الشّامخة، التّي تنتهي إلى سلاسل جبليّة وعرة، تقود العقل عبر دروب عديدة وتضعه صوب أورشليم المقدّسة. تتفتّح الزّهور في هذا الفردوس الأرضّي فيحاكي حسنها وينعها تماوج الأشجار، ويشنّف الأذن شدو الأطيار، وتهدل القمريّة بلحن رقيق. وترسل القبّرة العرفاء شدوها إلى الأعالي، ويلهم اللّقلق الحزين الوقور، العقل بالفكر، ويهديه إلى السّكينة والتدبّر، كانت الحياة هنا في الماضي هنيئة ساحرة، فلا فقير فيها ولا غنيّ، أو سيّد وتابع. كان في السابق عالم تسوده البساطة والعفويّة والجمال، أما الآن فيهيمن عليه البؤس والوحشة».

لا يخلو هذا التصوير من السّطحيّة فحسب، بل هو أسوأ ما وقعت عليّه عيني. ذلك أنّه يقدم صورة تفصيلية لما يطلق عليه «فردوسا أرضيًا» ثم يختتم ذلك بمعلومة رهيبة، مفادها أنّ هذا الفردوس «صورة من البؤس والوحشة».

قدّمت نموذجين واضحين في هذا السّياق، لنوع الشهادة التّي أدلى بها أغلب من قاموا بزيارة المنطقة من الكتّاب. يقول أحدهم «لا أستطيع أن أوفّي المشهد حقّه من الجمال»، ويلجأ بعد ذلك إلى التّورية بنبح عبارات برّاقة، لو عرضت للبحث، لن يرشح عنها غير بركة مطمورة بالمياه، وشيء من قفار جبليّة، وشجرة يتيمة. أما الآخر وبعد ما بذل من جهد جهيد وبالمفردات نفسها لإقامة فردوس أرضيّ، فضلا عن «لقلق عبوس مكتئب» يفسد هذا كله في النّهاية بتشويش على الواقع المروّع.

يتركّز اهتمام كلّ الكتّاب تقريبا حول الجليل، وبحيرته، كي تصطبغ الصّورة بصبغة جمالية. ليس الأمر على هذا النّحو فحسب، بل إنّهم لا يتراجعون عن مواصلة ذلك بالوتيرة نفسه. فما نقل عن قصد من انطباعات تتعلق بالمشهد، يأتي مواكبا لحرص الكاتب على ذكر ذلك بسّاكسونيّة سّاذجة. لكنّ التحليل الدّقيق لهذه التفاصيل، سيوضح أنّ ما ركبوه من مفردات، ليس جملية بذاتها، ولا يمكن صياغتها في تراكيب لغوية تتسم بالجمال. فمشاعر الحبّ والإجلال التي أحسها بعض هؤلاء تجاه ما كانوا يتحدثون عنه من مشاهد، أجّجت أخيلتهم وانحرفت بآرائهم، بل إنّ ما كتبوه من أباطيل ترضيهم، كان في كلّ الأحوال مرهونا بمشاعر وفائهم التام للمكان.

حذا آخرون حذوهم في الكتابة خشية مغبّة الاعتراض عليهم لو ذكروا العكس درج آخرون على النّفاق، وتحروا الدّقة في التمويه. ولو بودر أحدهم بسؤال ما، لردّ من فوره، بأنّ من الصّواب ومن الخير الحرص على ذكر الحقيقة. يقولون ذلك في كلّ الأحوال، رغم جهلهم بمغزي السّؤال!

لكن لماذا لا يتحرى الناس الصّدق بشأن هذه المنطقة من العالم، أفي الصّدق ما يضرّ؟ أيتطلّب الأمر دائما مواراة وجه الحقيقة؟ خلق الله الجليل وما يحيط بها على صورتها الحالية. فهل هي وقف على السيّد جرايمز، ليحسّن بها كتابه.

أرى من خلال السّياق العام لكلّ ما قرأت من كتب، أنّني على يقين من أنّ كثيرين ممّن زاروا هذه المنطقة مؤخّرا، كانوا من أعضاء الكنيسة المشيخيّة البروتسانتيّة، وقد أتوا سعيا وراء أدلّة تدعم معتقدهم الخاصّ. فرأوا من وجهة نظرهم أن فلسطين مشيخيّة بروتسانتيّة، وكانوا مستعدّين لترتيب أفكارهم على أن تكون فلسطين هي تلك التي يعرفونها وحدهم هم، يواكب ذلك احتمال جهلهم بها، فحماسهم الدّيني قد أعمى بصائرهم. وآخرون من المعمدانيّين، قدموا إلى فلسطين سعيا وراء أدلّة تؤيّد مذهبهم وتقول بأنّ فلسطين معمدانية، أمّا الكاثوليك، والمنهجيّين، والأسقفيّين، فجاءوا بدورهم سعيا وراء أدلّة تؤيد مذاهبهم المختلفة، وتؤكّد أنّ فلسطين كاثوليكيّة، منهجيّة أسقفيّة. حفلت مواقف هؤلاء بالغبن والتعصّب، مهما حسنت نّواياهم، ذلك لأنّهم قدموا إلى هذا البلد، وقد أعدّوا أحكاما مسبّقة، وتخلّت عنهم جرأة الكتابة بحيادية والبعد عن الأهواء، كما لو كان الأمر

رهنا بالكتابة عن ذويهم. قدم حجّاجنا إلى فلسطين ومعهم أحكاما مسبّقة. تبيّن ذلك من أحاديثهم منذ أن فارقنا بيروت، وأكاد أجزم كتابة، بما سيدور بينهم بمجرّد رؤيتهم «تابر»، و«النّاصرة»، و«يرشو»، و«أورشليم». فالكتب التي سيلطّخون بها أفكارهم، متوفّرة لديّ. يدبّج هؤلاء الكتاب بالصّور الوصفيّة، ويبتكرون الملحميّات. وتجاريهم في ذلك قلّة، حيث يرون بعين الكاتب وليس بأعينهم، ويتكلّمون بلسانه لا بألسنتهم.

لقد أدهشني ما ذكره الحجّاج عن «قيصريّة فيليبي»، بما حوى ذلك من معارف. وعثرت عليه، بعد ذلك فيما كتبه روبنسون. سحرني ما ذكروه حين باغتت جينيسارت أبصارهم، وما حوت من روعة. وطالعت ذلك لدى السيّد تومبسون في كتابه «الأرض والكتاب». كانوا في الغالب يتحدّثون بلسان طليق مطمئن لا يطرأ على مفرداته تعديل. وأفصحوا عن السبب من وضع رءوسهم على حجر في «بريتل» كما فعل يعقوب، ومن إغماض أبصارهم الكليلة، وتمنّيهم هبوط ملك من السّماء على سلّم، وصار الأمر هزليًا. لكنّني تعرفّت في النّهاية، على الرّأس المتعبة والعيون الكليلة. لقد اقتبسوا الفكرة والكلمات والمضمون، وإشارات الوقف، من جرايمز. سيذكر الحجّاج فلسطين لدى عودتهم إلى أرض الوطن، لا كما بدت لهم، بل كما رآها تومبسون وروبنسون وجرايمز، مع قليل من التعديلات الّتي توافق مذهب كلّ حاجّ.

أمّا الآن فقد أوى كلّ الحجّاج والخطاة والعرب إلى فراشهم، وبقي المخيّم رابضا في مكانه. إن العمل دونما أنيس ممّل. فمنذ أن دوّنت ملاحظاتي الأخيرة، ظللت لنصف السّاعة جالسا خارج الخيمة. فالليل هو الوقت الأنسب لرؤية الجليل. ولا شيء ينفّر من جينيسارت، وهي راقدة تحت النّجوم. تكاد جينيسارت بتألقها الصّادر عن تلألأ كوكبة النّجوم المرقّشة لسطحها، تكاد تجعلني أندم لأنّي لم أرضوء النهار الفجّ وقد سقط عليها. إن تاريخها، وارتباطها بالذّاكرة والخيال، هما أجمل ما يرى النّاس منها، فضلا عما ينسجاه من سّحر حولها، لتبدو رقيقة، في ضوء الشّمس الثّاقب. لذلك فإننا نادرا ما نشعر بقيود. تنحو أفكارنا دوما صوب هموم الواقع المعيش، وتأبى تمعّن أشياء تبدو غامضة وخيالية. لكنه بانقضاء النّهار، كان لا بدّ لمن فقد حسّية المشاعر، من الوقوع أسير ما تبعث به أضواء النّجوم السّاكنة من قوي خفيّة. تستلب الرّوايات القديمة من المكان ذاكرته، وتلازم أحلام يقظته، فتلجأ مخيلته إلى إلباس كل المعالم والموجودات، لباس الخوارق. فيسمع وقع مجاديف وهميّة، في ارتطام الأمواج بالسّاحل، وأصوات أشباح في جلبة اللّيل الخفيّة. وفي

هبوب النسيم العليل يسمع خفق أجنحة خفية. تبحر سفن وهميّة، ويبعث موتى العشرين قرنا الماضية من القبور، وفي هزيم رياح اللّيل تكتشف ترانيم العصور السالفة، مجدّدا قدرتها على النّطق.

ليس للجليل في ضوء النّجوم حدود ظاهرة، سوى أفق السّماء الفسيح. ومسرحا يشهد أحداثا عظيمة، ويعدّ ليشهد ميلاد عقيدة قادرة على تحقيق خلاص العالم. وَيشهد شخصيّة جليلة أسند إليها الوقوف على ساحته، والدّعوة إلى تعاليمه السامية. لكن المرء في ضوء الشمس عادة ما يقول. ليكن هذا كلّه من أجل ما قدم من أعمال مجيدة، ولأجل ما نطق به من كلمات في هذه الأكرات القليلة الصّحراويّة الوعرة منذ ثمانية عشر قرنا. كي تدقّ اليوم الأجراس في جزر البحر النائية، فتتجاوز أبعاد ومسافات قارّات تحتضن محيط هذا العالم الكبير؟

ولا يدرك المرء ذلك إلاّ حين يكون اللّيل قد وارى ما تنافر من أشياء، وأقام مسرحا معدّا لتقديم دراما عظيمة.

الفصل التّاسع والأربعون

عاودنا التسبَح في بحر الجليل فجر أمس، وكررّنا ذلك في الصَباح. لم يكتب لنا الإبحار فيه، لكنّ السَباحة فيه مرّات ثلاث، تعادل رحلة بحرية، أليس كذلك. ظهر في الماء سمك وفير، لكنّنا كنا نفتقر إلى أدوات إضافية في رحلة الحجّ هذه، بل إنّ كتب «حياة الخيمة في الأرض المقدّسة»، و«الأرض والكتاب». وكلّ ما يرد في هذا السّياق من وصف في الأدبيّات الأخرى لا وجود فيها لأدوات صيد السّمك. ولا وجود لسمك في قرية طبريّة. وقد رأينا رأي العين، اثنين من الرعاع، يدليان بشباكهما في الماء، لكنهما لم يكونا يحاولان قط إلتقاط شيء.

لم نرتد حمامات البخار القديمة، التّي تقع على مسافة ميلين من طبريّة، ولم تكن لديّ رغبة في ارتيادها. أظهر هذا الأمر بعض غرابة. وأغراني بالسّعي إلى كشف سبب اللامبالاة غير المبرّرة. كان من السّهل تبيّن السبب، حيث أتي «بلايني» في كتبه على ذكر هذه الحمّامات. كنت أحمل شيئا من نفور لا سبب له، نحو كلّ من بلايني والقدّيس بولس، لأنّه يبدو كأنني لا أستطيع استكشاف مكان، أستطيع بلوغه بمفردي. وهناك ما يوحي بأنّ القدّيس بولس كثيرا ما تردّد عليه، وأن بلايني كثيرا ما أتى على «ذكره».

امتطينا الجياد في الصَباح الباكر، وشرعنا في الرحيل. كانت تتقدّم الموكب شخصيّة غريبة، ظننته قرصانا. ذلك لو أن قرصانا قد ظهر من قبل فوق اليابسة. كان هذا الشخص عربيا، طويل القامة، داكن البشرة كهنديّ أحمر. وكان شابا لنفرض أنّه في الثلاثين من عمره. أحكم لفّ رأسه بلفاع حريريّ، مخطّط باللّونين الأصفر والأحمر. تدلّت من أطراف اللّفاع أهداب غزيرة، مسدلة بين كتفيه. كانت تلهو مع الرّيح. انسدل من عنقه حتّى ركبتيه، ثوب ذو طيّات كثيرة. كان في الأصل راية مرصّعة بالنّجوم ومخطّطة بخطوط منحنية ومموجة ومطبوعة بالأبيض والأسود. برزت من مكان ما خلف ظهره ساق طويلة لأرجيلة تركيّة (شبوقة). تجاوزت أعلى كتفه اليمنى، ووضع على ظهره بميل. يمتدّ إلى ما فوق

كتفه اليسري. بندقيّة عربيّة من عهد صلاح الدّين، مطهّمة بشرائح من فضّة نضّدت من أول المقبض حتّى نهاية ماسورتها الطويلة. طوق خاصرته بنطاق. يبلغ طوله ما لا يحصى من الياردات بشكل متقن. لكنّه مع الأسف كان من نوع فقد رونقه، هو ذلك الطّراز الوارد من بلاد فارس الغنيّة، لمعت في ضوء الشّمس بين طيّات الحزام، مدفعيّة رهيبة مكوّنة من مسدّسات الخيّالة القديمة، المغطّاة بالنّحاس، ومقابض مديّ حادّة براقة. كان هناك المزيد من الأقربة الفارغة للمزيد من المسدّسات، ملحقة بحزام عجيب مضفّر، مصنوع من جلد الماعز القديم، ووبر الصوف الفارسيّ، الّذي يلحظه المرء عادة في ظاهر سّرج، ويتدلى أسفله وسط كمّ من الخيوط الطّويلة، المعّلقة أمام شوكة ركاب الفرس الحديديّة التّي تشدّ ركبتي الفارس إلى أعلى ذقنه، ذلك الخطّاف المعوجّ مدببّ الأطراف. حمل سيفا محدبا بحدّ واحد، مطليا بقشرة من الفضّة الرديئة. لا يعرف عفوا عن الأعداء. لا بدّ لمن يلمحه من أن يرجف منه هلعا. يعتبر هذا الأمير فاسد الذوق ذو الأهداب، وصاحب حقّ الامتياز بركوب المهرة، واقتياد الفيل إلى إحدى قرى الرّيف، يعتبر فقيرا معدما، لو قيس بهذا الخليط المتنافر من الوريثات، كما أن ما يظهره هذا الشّخص من خيلاء واضحة، ناشئة عن افتقار شّديد إلى القناعة إذا ما قورن بالسكينة الوقور، يعدّ قناعة مهيمنة على الآخر.

«من هذا؟ ما هذا ؟» ظلّ ذلك السؤال يتردّد بين الجميع على التّوالي.

«إنّه حارسنا! فالمنطقة من الجليل حتّى مسقط رأس المسيح، مطوّقة بأشراس البدو، ولا يسرهم في هذه الحياة سوى ذبح وطعن وتشويه وقتل أشخاصا مسيحيّين دون جريرة، والله معنا».

«استأجر فرقة من المسلّحين، أتدفع بنا وسط مشردين من قبائل البدو الرّحّل!

أما من حلّ لورطتنا الكبرى سوى هذا البرج العتيق ؟».

ضحك التّرجمان. لا من مزحة أو ما شابه. فالحادث أن المرشد أو الحمّال أو الترجمان لم يعش أيّ منهم مطلقا وفي داخله من الترحيب بدعابة الحد الأدني. حتّى لو كانت من الميوعة والمباشرة. ما إن ألقيت فوقه لسوّته كما يسوّى طابع البريد ضحك التّرجمان، وتشجّع من ثمّ بفكرة كان يختزنها في رأسه، ثم تحوّلت إلى فرط انفعالات وغمزات بالعين.

أن يضحك المرء في حالات الشّدة تلك، فذلك أمر مشجّع. أمّا حين يغمز بعينه. فهذا يؤكّد عودة الطّمأنينة إليه. تكرّم علينا أخيرا، وذكر أنّ حارسا واحدا يكفي لحمايتنا، لأنّ هذا الشّخص بالذات لا غنى عنه البتّة. ومفاد ذلك أن ما يحمله من مكانة أدبيّة، ستجعل له مهابة كبيرة في عيون البدو.

ذكرنا له بدورنا أنّنا لسنا بحاجة إلى حارس، فإن كان تافه غريب الأطوار قادرا على حماية ثمانية مسيحيّين ضدّ ما يواجههم من أخطار، وبرفقتهم تابعين من الخدم العرب، فالأولى بأفراد تلك المجموعة حماية أنفسهم بأنفسهم. هزّ رأسه مستريبا في الأمر. طلبت منه أن يفكّر في الأمر فحسب، ويرى كيف سيبدو ذلك في عين أمريكيّين كاملي الأهليّة، مضوا على استحياء عبر هذا القفر الموحش، في حماية هذا العربيّ المتنكّر. هذا الذي لو طارده رجل حقيقي، لأودى بحياته في أثناء فراره من البلد. اتّسم الموقف بالمهانة والخسّة والخزي. لماذا إذن طلب منّا قبل قدومنا إلى هذا المكان التزوّد بمسدّسات البحريّة، وهكذا وصل بنا الحال إلى أن تفرض علينا حماية من زبالة الصّحراء، هذا المرصّع بالنّجوم؟ ذهبت كلّ هذه المناشدات أدراج الرّياح، بعد أن افترّ ثغر الترجمان عن ابتسامة، وهزّة من رأسه.

اتّجهت نحو مقدّمة المسيرة وبادرت بالتّعرّف على سليمان الملك، في كامل أبّهته، وطلبت منه أن يوضّح لي سبب تأبّده المستدام ببندقية، ران على زندها الصدأ، وصفّحت وموّهت وأحيطت بالفضّة من كلّ جانب، لكنّها انحرفت للأسف عن أيّ استواء. لتشبه في ذلك عصا البليارد ٤٩ التي يتصادف وجودها الآن ضمن أدوات اللّعبة، في إيواءات عمّال المناجم القديمة في كاليفورنيا. تآكلت فوّهتها من صدأ القرون من كثرة بردها بالمبرد، شأنها في ذلك شأن فوّهة مدخنة الفرن المتآكلة. أغلقت عينا وتفحصتها من الدّاخل بالأخرى. رأيت صدأ الحديد، قد تسبب في تقشّرها في الداخل، ما جعلها أشبه بمرجل سفينة بخاريّة قديم. استعرت منه المسدّسات الضّخمة، وفحصتها. أصابها بدورها صدأ من الدّاخل، كما أنها لم تزوّد بذخيرة لقرن من الزّمان. عدت إلى مكاني، وكلّي شجاعة. وناديت الدّليل ثمّ طلبت منه طرد هذا الحصن غير الحصين. فجاء بعدها الخبر اليقين. حيث الرّجل يعمل وكيلا لشيخ طبريّة وأنّه مصدر من مصادر الدخل الحكوميّ. وأنّه بالنسبة إلى إمبراطوريّة

طبريّة كالجمارك لأمريكا. وأنّ الشّيخ هو الذى يفرض الحرّاس على الرحّالة، وهو الذى يتقاضى منهم مقابلا لذلك، يمثّل إيرادا سهلا، تسدد عن طريقه الأجور، وأحيانا يدخل ضمن إيرادات الخزانة العامّة، ويقدّر بخمسة وثلاثين أو أربعين دولارا في العام.

اكتشفت الآن سرّ المحارب، وأدركت الغرور الأجوف الكاشف عمّا فيه من ضعة. ضقت به، وبالجرأة غير مأمونة العواقب التي يظهرها ركب الفرسان، الزّاحف في قفار الصّحراء المحفوفة بالأخطار، وتهكّمت بتنبؤاته الوهميّة باحتمال مواجهتنا الوبال وسوء المآل. المحدقان بنا من كلّ جانب ترامت أمامنا عند تسلقنا ربوة عالية، بلغ ارتفاعها مائتي قدم عن البحيرة (لا تفوتني في هذا السّياق، الإشارة إلى أنّ البحيرة يصل انخفاضها عن سطح البحر الأبيض المتوسّط بقدر ستّمائة قدم، ولن يفوت البتّة أحد الرحّالة، تنميق شّظية المعلومات هذه في كتاباته). ترامت بانوراما لأرض، ربّما تكون أسوأ ما يمكن أن تظهر به أرض نفورا وكآبة. ازدادت رغم ذلك أهميّتها التّاريخيّة، حتّى أنّ ما كتب فيها من صفحات، لو نشر فوقها، لغطّى رصيفا عن آخره. كان جبل حرمون من بين البقاع التي تضمها هذه البانوراما، فضلا عن التّلال المتاخمة لقيصريّة فيليبي، ودان، ومنابع الأردنّ، وبحار ميروم، وطبريّة وبحر الجليل، وجبّ يوسف، وكفر ناحوم، وبيت سيدا، والمشاهد المفترض أنّها شهدت موعظة الجبل، وإطعام الجموع، ومعجزة شبكة الصّيد، والمنحدر الذّي هبط فوقه الخنزير إلى البحر، ومداخل الأردنّ ومخارجه، وصافد، والمدينة الواقعة فوق التلّ، وهي إحدى المدن المقدّسة عند اليهود، والمكان الذّ يعتقدون بأنّ المسيح المنتظر، سيظهر عليه حين يأتي لخلاص العالم، وجزء من ساحة معركة حطّين، حيث الموقع الذّي قاتل عليه الصّليبيون آخر حروبهم، حيث اجتازوا السّاحة وهم في ألق المجد، وأتمّوا رسالتهم العظيمة الخالدة، وذلك المشهد الوارد في الروايات الدينية، لجبل «تابر»، الذّي شهد تجلّي الرّب، يظهر من جنوب الشرق منظرا طبيعيّا أوحى إليّ بفقرة أوردها في هذا السّياق (لا شكّ أنها غير مكتملة في الذّاكرة):

«لأنّه لم يدع الإفراميّون إلى المشاركة في غنائم الحرب مع العمّونيّين، جمعوا جيشا كبيرا لمحاربة يفتاح، قاضي إسرائيل، الذّي علم بزحفهم إليه، فجمع كلّ رجال إسرائيل، وحارب بهم أتباع إفرايم، وأجبرهم على الفرار، ولكي يؤكّد انتصاره، وضع حرّاسا من جيشه، على مخاوض الأردنّ المختلفة، وأصدر أوامره إليهم بألاّ يعبر أحد النّهر، قبل أن

يردّد كلمة «شبّوليت». ولأنّ رجال إفرايم من قبيلة مختلفة، فقد عجزوا عن نطق الكلمة النطق السّليم، فكانوا يردّدون بدلا منها كلمة «سبّوليت». فتأكّد لهؤلاء أنّهم من الأعداء، وكلّفهم ذلك أرواحهم. وسقط في ذلك اليوم، اثنان وأربعون ألفا منهم على مختلف مخاوض «نهر الأردنّ».

سرنا وئيدا، شاعرين بالسكينة على طريق القوافل العظيم، الواصل بين دمشق وأورشليم حتّى مصر. مخلّفين وراءنا «لوبيا» والقرى السّورية الصّغيرة الأخرى، وحططنا الرّحال، بطريقتنا المعتادة فوق أعلى مكان بين الرّوابي الصّغيرة والتّلال، وتوارينا خلف ذلك الصّبار العملاق «رمز الأرض اليباب» بشوكه الإبريّ الشّبيه بمطرقة. ووصلنا أخيرا إلى ساحة معركة حطّين.

بدت لنا ساحة كبيرة وعرة، كأنّها معدّة لتكون ميدانا للقتال. في هذا المكان واجه القائد المظفّر صلاح الدّين جيش الصّليبيّين، منذ تسعمائة عام، وقطع شأفتهم من فلسطين منذ ذلك الحين وحتّى وقتنا هذا. اتّفق على عقد هدنة بين الطّرفين المتحاربين ولكنّنا إذا عدنا إلى دليل الرّحلات، نكتشف أنّ رينولد الكاتالوني، سيّد كيراك، قام بخرق الهدنة بشن غارة على إحدى القوافل الدّمشقيّة، ورفض إعادة التّجّار وبضائعهم حين طلب منه صلاح الدين ذلك، استاء صلاح الدّين كثيرا من مسلك أفّاق وضيع متغطرس، فأقسم أن يذبح رينولد بيده، أيّا كانت وسيلة تحقيق ذلك أو كيفيّة العثور عليه. تأهّب الجيشان للحرب ووضع قادة الصّليبيّين تحت إمرة ملك أورشليم الضّعيف، أجبرهم بحماقته، على مواصلة الزحف الطّويل والمضني، تحت الشّمس الحارقة، دون ماء أو مرطّبات، وأمرهم بالعسكرة على هذا السّهل المكشوف. قام فرسان المسلمين بالالتفاف، حول أقصى الشّمال من جينيسارت، يحرّقون ويدمّرون كلما تقدموا، وأقاموا معسكرهم أمام جيش العدّو. بدأ القتال عند الفجر، وبعد حصار لهم من كلّ الجهات من قبل قوّات الأمير الحاشدة، قاوم فرسان الصّليبيين دون أمل في النّجاة بأرواحهم، ناضلوا باستماتة، دون أن يحققوا نتيجة تذكر، وكان لفارق العدد والقوّة، ناهيك عن الظّمأ القاتل، الفضل في ألاّ ترجّح كفّتهم. مع حلول الظهيرة اخترقت إحدى فرقهم الباسلة صفوف المسلمين، وسيطرت على قمّة أحد التّلال الصغيرة، وبعد التفافهم حول راية الصّليب، عاودوا الكرّة بمهاجمة مؤخّرة جيش العدّو.

لكنّ قدر القوى المسيحيّة المشئوم كان قد تقرّر نهائيًا. شهد غروب الشّمس صلاح الدّين أميرا على فلسطين، وغطّت أكوام من جحافل فرسان الصليبيّين أرض المعركة، وسيق كلّ من ملك أورشليم، وقائد جماعة فرسان الهيكل، ورينولد الكاتالوني أسري إلى خيمة صلاح الدين. عامل صلاح الدّين اثنين من الأسرى، معاملة الملوك، وأمر لهم بالمرطّبات. حين مدّ الملك يده بالشّربات المثلّج إلى كاتالون، قال السّلطان: «أنت الذى سيقدّم إليه الشّراب ولست أنا». ثمّ تذكّر ما تعهّد به، وذبح الفارس الكاتالوني المهزوم بيده.

يستعصى على الفهم أن تكون هذه الرّبوة قد ضجت يوما بالألحان العسكريّة، واهتزّت بوقع خطى المحاربين. يصعب إدراك أن هذا القفر كان آهلا بأرتال الفرسان الزّاحفة، وأن تستنهض نبضاته الخاملة، هتافات النّصر، وصرخات الجرحى وبريق السيف والعلم، فضلا عن احتدام وطيس القتال. يستحيل حتّى تصوّر أن يكون هذا القفر قد تجمّل، بالمواكب العظيمة الحافلة بالحركة والنّشاط.

وصلنا «تابر» بسلام، يتقدّمنا دارعا عجوزا ينتحل صفة حارس. لم نصادف بشرا عبر الطّريق، باستثناء بعض الخطرين من البدو. تقف «تابر» وحدها في عزلة، حارسا عملاقًا على سهل إزدرايلون المحيط بها، وهو سهل أخضرّ متسق، مزدان بالصّنوبر الجافّ، وحافل بالجمال. ترتفع «تابر» عن هذا السّهل بنحو أربعة عشر قدما. يعد السهل أحد معالمها البارزة، ويسرّ النظر إليه العين كثيرا، ذلك إذا ما قورن برتابة صور البوادي السّورية المنفّرة. صعدنا الطرّيق المنحدر حتّى قمّته، عبر مساحات بهيجة من الزّعرور والسّنديان. قارب المشهد المستشرف من قمته الشّاهقة حدّ الجمال. بدا أسفله سهل أزدرايلون المنبسط الفسيح، وقد رسم على الحقول ما يشبه رقعة شطرنج، واحتشد في استواء ونعومة بنقاط بيضاء منتشرة حول أطرافه تمثّل القرى التي تحده، وخطوط سوداء باهتة، تنتشر في كلّ مكان، واختطها بلون أسود باهت، خطوط متعرّجة تمثّل الطّرق والممّرات الوعرة. حين يكتسي هذا السهل بنضارة الربيع، فحري بأن يشكلّ لوحة ساحرة. يرتفع متاخما لأطرافه الجنوبيّة «حرمون الصّغير»، والذّي يمكن الظفر من قمّته بلمحة من «جلبوي». أمّا «نابن» الشّهيرة بمعجزة بعث ابن الأرملة إلى الحياة بعد موته، و«إندور» الشّهيرة بعروض ساحرتها، فقد ضمهما إطار الّوحة. يقع ناحية الشّرق وادي الأردنّ، ووراءه جبال جلعاد، و«جبل الكرمل» في الغرب، وحرمون في الشّمال والنّجاد الباشانيّة وصافد، المدينة

المقدّسة. بيضاء وامضة تقع فوق رعن عال من جبال لبنان وجانب من بحر الجليل بالأزرق الفولاذيّ والجزء العلويّ من هضبة حطّين، وجبل الطّوبات التّاريخيّ. الشّاهد الصّامت على آخر المعارك الباسلة لجيوش الصليبيين. دفاعا عن الأرض المقدّسة ضمّت اللّوحة هذا كلّه. إنّ إلقاء نظرة سريعة على المعالم الصّامتة لهذا المشهد الحافل. داخل إطار الطّبيعة البديع، عبر حنية نافذة من الحجر المهدّم العتيق. من عهد المسيح. يبثّ في النفس شعورا بالغبطة، ويستحقّ تسلّق جبل بهدف المتعة. جرى بالمرء الوقوف على رأسه لمشاهدة اللّوحة الأجمل في غروب الشّمس، ورسم منظر شامل داخل إطار مجسّم سميك ماثلا أمامك. كي تستنبط منه كلّ ما حوى من جمال. يتعلّم المرء ألاّ ينسى البتّة هذه الحقيقة الأخيرة، في الأرض التي تحاكي مدينة الخيال. إنّه بستان سيّدي الكونت بلافيتشيني، بالقرب من جنوا. تمضي متجوّلا لساعات بين تّلال وأودية صغيرة. احتالت ببراعة على أن تترك انطباعا بأن الطّبيعة هي التّي شكّلتها وليس الإنسان، وبعد أن تتبع الدروب الملتوية، ستباغت بوجودك فوق مجموعة من مساقط المياه والجسور العتيقة، وكاشفا بحيرات أجمية لم تكن تتوقعها، فتسير وئيدا بين حصون القرون الوسطى المنهارة. في نسخة مصغّرة، ظهرت فيها عوامل الزّمن. مع أنّها لم تقم إلاّ منذ اثنتى عشرة عاما. وتجد نفسك وسط مقابر قديمة متهالكة، هشّمت وشوّهت قوائمها الرّخامية عمدا. من قبل الفنّان الحديث الذّي أقامها. لم يخطر ببالك أنّ قدميك ستتعثّر في القصور الدّمى. تلك التّي صنعت من موّاد نادرة ومكلفة. فتعود مجدّدا للوقوف فوق كوخ فلاّح، لا يوحي أثاثه الخرب البتّة، بأنّه قد صنع للاستخدام. وتتوغّل هنا وهناك وسط غابة، ممتط حصانا خشبيا مسحورا، تحرّكه قوى خفيّة، ثمّ تجتاز الدّروب الرومانيّة، مارّا تحت أقواس النّصر المهيبة، وتأوي إلى الجحور الغريبة. فترشّك أرواح خفيّة بزخات المياه، من كلّ اتّجاه محتمل. حتّى الزهور التي تلمسها بيديك، تفاجئك بدشّ من الماء، وتبحر في قارب عبر أحدى البحيرات الخفيّة، بين القناطر والكهوف، المزدانة بالرّواسب الكلسيّة، ومنتقلا في يوم صحو إلى بحيرة أخرى، تحدّها ضفاف منحدرة يملؤها العشب، وتزدهي بقوارب النّبلاء، المبحرة عند المرسى، متفيئة نموذجا لهيكل مرمريّ مصغّر، يطفو فيئه على سطح المياه الرقراقة وتنعكس نصبه البيضاء وأحرفه الكبيرة المتقنة، وأعمدته المجوّفة على أعماق البحيرة السّاكنة. تنتقل من

ثمّ من عجيبة لأخرى، متفكّرا طوال الوقت بأن آخر المشاهدين بالضّرورة هو أوّلهم. وأنّ الأوّل قد احتفظ بإعجابه للأخير. لكنّك لن تراها حتّى تطأ بقدمك أرض الشّاطئ، مارًا بغابة من الزّهور النّادرة، جمعت من كلّ بقاع الأرض، وتقف أمام باب هيكل آخر.

كان على الفنّان أن يستخدم كلّ مقوّمات عبقريته في هذا المكان، ويفتح أبواب أرض الخيال على مصراعيها. إنّك تنظر عبر لوح زجاجيّ بسيط، مضبّبا بصفرة، فتبادرك وفرة كبيرة من أوراق النّبات الراجف، وعلى بعد عشر خطوات منك، وسط فتحة قديمة أشبه ببوابة، شيء شائع تماما في ذاته، لا ينحو إلى إثارة شكوك حول دهاء الإنسان في التخطيط لشيء ما، تبرز فوق أرضيّة البوّابة، وبصورة مزرية، بضع أوراق عريضة من شجر استوائيّ، وأزهار يانعة. تلمح بغتة عبر هذه البوّابة الضّخمة السّاطعة، لوحة، هي الأكثر شحوبا ورقّة وصفاء، جمّلت يوما حلم قدّيس يحتضر، منذ رأى يوحنّا، أورشليم الجديدة، وامضة فوق الحجب الرّبانيّة. ترقّش البحر اللجيّ، بأشرعة متمايلة، ولسان بحري بارز رفيع الطّرف، تعلوه منارة، وخلفه مرجة متحدّرة، ووراء هذا كله جزء من «مدينة القصور» القديمة، بما حوت من تلال، ومنتزّهات، وقطع وبيوت ضخمة، وخلف هذا كله، كتلة جبلية هائلة، انفصلت تخومها تماما عن بحر وسماء، وعلا ذلك كله قطعا من السحب ورقائق تسير على غير هدى، طافيه فوق بحر ذهبيّ. فالبحر من ذّهب، والمدينة من ذّهب، والجبل والسماء والمرج، كلّ ذلك بما يحوي من غنى ورقّة وصفاء، صيغ من ذّهب وكأنّه قطعة من فردوس. لم يأت فنان القدرة على تصوير جمالها الآسر، دون تلك المرآة المغبرّة، بإطار صادف صوغه الدقّة، فيحتويها داخل بقعة سحريّة، ويحذف منها كل ملمح من قبح، فهي لوحة لا تقلل أبدا من مشاعر الانتشاء. تلك هي الحياة، وذيل الأفعى لا يفارقنا أبدا.

لم يكن يشغل بالنا سوى العودة إلى «تابر» القديمة، مع أن الأمر كان مشحونا بالملل، وإنني لا أستطيع التوقّف كثيرا عنده، وأتخلىّ عن مشاهد، من الأفضل تذكّرها. أظنّني سأتجاوزها بصورة ما. لا يوجد في تابر ما يجذب المرء (باستثناء تسليمنا بأنّها شاهد على تجلّي الرّبّ) خلا بعض آثار عتيقة خربة، تراكمت هناك على مدار عصور التاريخ الإنسانيّ، من أيّام جدعون الهمام، فضلا عن أفراد شاركوا بالأمس القريب في بعث ثلاثين قرنا من الزّمان، في عهد الصّليبيين. تضمّ تابر المعبد اليوناني، ويطيب فيها تذوّق طعم القهوة، ولكنّ لا أثر فيها لقطعة من الصّليب الحقيقيّ، أو عظمة باقية من قدّيس جليل، كي يتصدّيان

لعقول الكسالى، ويوجهانهم إلى مسارات أجدى. إنّ أيّ كنيسة كاثوليكيّة لا تضمّ آثارا مقدّسة، لا أضعها ضمن مشاغلي.

يذكّرنا سهل إزدرايلون «ساحة صراع الأمم»، بيوشع، وبن حدّاد، وشاول، وجدعون، وتامرلين، وتنكريد، وقلب الأسد، وصلاح الدّين، وملوك الفرس الأشدّاء، وأبطال مصر الأسطوريّين، ونابليون، أولئك الذّين قاتلوا على ساحته. فإن استطاع القمر بما له من سحر، بعث ما لا يحصى ممّن قاتلوا، على هذه السّاحة المترامية، من قبور القرون السّحيقة، وإلباسهم الثياب التّقليديّة الغريبة بالمئات من الأمم التّي ينتمون إليها، ثم دفع هذا الجيش العرمرم زحفا فوق السّهل، مزدانا بالرّايات الخفّاقة وشارات البسالة، والرّماح اللامعة، فإنّني أستطيع البقاء هنا زمنا، يتاح لي خلاله رؤية ذلك الموكب الخيالي. لكنّ سحر ضوء القمر ليس سوى ضرب من الوهم، ومن يصدّقه يعاني الإحباط والأسي.

توجد على المنطقة السّفلى من «تابر»، وعلى حدود إزدرايلون قرية ديبوريتش المزرية، حيث عاشت دبّورة، نبيّة إسرائيل، وهي قرية شبيهة بالمجدل في كلّ شيء.

الفصل الخمسون

هبطنا من جبل «تابر»، واجتزنا وهدة إنحداريّة، وسلكنا طريقا وعرا، أشدّ انحدارا، يؤدّي إلى النّاصرة التي تبعد عنا قدر ساعتي زّمن. تحسب وحدات القياس في بلاد الشّرق بالسّاعات لا بالإميال. فللحصان الجيّد قطع ثلاثة أميال على أيّ طريق. لذلك فالسّاعة هنا دائما تعادل ثلاثة أميال. تسئمني طريقة القياس هذه، لأنها لن تضيف حتّى لو ألمّ بها المرء كليّة، إلى قدراته العقليّة شيئا، اللّهم إلاّ إذا توقّف وحوّل السّاعة الوثنيّة إلى أميال مسيحيّة، كما يفعل البعض فيما ينطق من كلمات بلغة أخرى، فهؤلاء سيدركون التعامل بها ولكن ليس إلى درجة تمكّنهم من التقاط معناها في وهلة. تقدّر هنا المسافات التّي يقطعها الإنسان سيرا على قدميه أيضا بالسّاعات والدّقائق، مع أنني لست على دراية بكيفية احتسابها إنك في القسطنطينيّة تبادرالنّاس بسؤال على هذا النحو: «كم تبعد القنصليّة عن هنا؟»، فيأتيك الجواب: « نحو عشر دقائق»، «كم تبعد وكالة لويدز؟»، «ربع ساعة»، وكم يبعد الجسر السّفلي ؟»، «أربع دقائق»، ثمّ لا تستطيع استيعاب الطريقة كتلك. لكنّي أظنّ أنّه حين يطلب إنسان هناك سروالين، يقول إنّه يرغبهما ربع دقيقة إلى السّاقين، وتسع ثواني حول الخصر.

كان ضروريا وعلى مدى ساعتين، سيرا على الطّريق من «تابر» إلى النّاصرة، رغم وعورته وضيقه الشّديدين، لقاء قطر الجمال، وقوافل البغال ما بين «يرشو» و«جاكسونفيل». نلقاها في هذا المكان بعينه وليس سواه. لم تكن الحمير تتسبب في أيّة عقبات لصغر حجمها، حيث يمكنك تجاوزها قفزا. لو أنّ جوادك خفيف الحركة، لكن الجمل يفتقر إلى القدرة على القفز. يعادل طول الجمل، طول أيّة وحدة سكنيّة في سوريّا. ويمكن الزّعم بأنّ الجمل أطول من إنسان عادي، بقدر قدم أو اثنين، ويقارب أحيانا ثلاثة أقدام. تصل حمولته هنا ما يقارب في الثّقل قدر مغلاقين، على كلّ جانب. وتبلغ سعة حمله، حجم عربة لنقل البضائع.

تخيّل وقوف مثل هذا الشيء، عالقا في مجاز ضيّق. لا يبرح الجمل مكانه لمرور ملك. تراه يسير الهوينى، متشامخا، دافعا إلى الأمام بركائزه اللّينة، في خطى نشطة منتظمة كبندول السّاعة، سواء أكان عليه قهر ما يواجه على الطريق من عقبات، أم يغالب ما ينوء به من أحمال.

كانت رحلة مملة على ظهور الجياد، تسببت في إنهاكها. اضطررنا إلى تجاوز ألف وثمانية عشر حمارا قفزا، عدا فردا في مجموعتنا، أسقطته الجمال عن سرجه، أكثر من ستّين مرّة. تبدو هذه عبارة بليغة، لكن الشاعر يقول: «تبدو الأشياء على غير حقيقتها». لا أستطيع الآن الانشغال بشيء يجعل الإنسان يزداد هلعا، سوى جملا ليّن الخطى. يتسلّل خلف هذا الشخص، ويلثم أذنه بشفته السّفلية الباردة المفلطحة. فعل الجمل ذلك من أجل شاب، كان مدلّى فوق سرجه مستغرقا في تفكير عميق. نظرالشاب إلى أعلى، فلمح الهيئة المهيبة، تحوّم فوقه، وبذل جهودا مضنية لتحاشيه، لكنّ الجمل لحق به، وضربه في كتفه، قبل أن يتمكّن من الإفلات منه. ذلك كان الحدث السارّ في السفرة هذه.

نصبنا الخيام، عند بستان زيتون، قريب من نبع مريم العذراء، وجاء ذلك الحارس العربيّ العجيب، لجمع البقشيش لقاء خدماته، عن مرافقتنا من طبريّة وعن درئه ما خفي عنّا من أخطار، بأسلحته الرّهيبة. كان التّرجمان قد سدّد لسيّد هذا الحارس ما طلبه، لكنّ ذلك لم يأت بشيء، لأنّك هنا إن استخدمت من يعطس لك، فإنّه يختار شخصا يعينه على العطس، وعليك أن تسدد للاثنين. كم بدا الأمر صادما لهؤلاء، حين أصغوا إلى ما قدم لهم من حلول بهذه العبارة، « مجّانا، ودون مقابل». ولو تغير هنا شيء في العادات والسّلوك، فإن ما رود بالإنجيل من مجاز، يؤكّد أنّ شيئا من هذا لم يحدث.

دخلنا دير اللاّتين (الكاثوليك، الكبير، المقام فوق ما يعرف من الروايات الدينية القديمة ببيت العائلة المقدّسة، هبطنا سلّما من خمسة عشر درجة، تحت سطح الأرض، وتوقفنا عند كنيسة صغيرة، مزيّنة باللّوحات المطرّزة بالنسيج، والمصابيح الفضّيّة، واللّوحات الزّيتيّة. أشير من موضع في الأرضيّة الرخاميّة عليه صليب وضع أسفل مذبح الكنيسة، إلى المكان الذى جعله قد، العذراء موضعا مقدّسا، ووقفت عنده لتلقّي بشارة الملاك. كم بدا مكانا على هذا النحو من البساطة والتّواضع الشّديدين، شاهدا على الحدث الكبير! إنّه المكان نفسه

الذّي شهد البشارة التّي حملها الملاك، إلى السيّدة العذراء، وهو حدث راسخ في الذاكرة، من خلال زيارة أضرحة مقدّسة شهيرة، وهياكل أوغسطينيّة (نسبة إلى القدّيس أوغسطين) تنتشر في أرجاء العالم المتحضّر.

جعل أمراء الفنّ هذا الحدث، مبلغ طموحهم، بإثبات جدارتهم في تصوير هذا الموضع على لوحات الكنفاه، وهو المعروف بتاريخه لدي الأطفال في كل مدينة وبيت وكوخ في البلاد المسيحيّة النّائية، وهومكان يكابد آلاف البشر المشاق من أجل أن يروه بأعينهم، ويعتبرون رؤيتهم له مغنما لا يقدّر بثمن. يسهل تأمّل أفكار كهذه. وقد وجد صعوبة في الارتقاء بالحدث إلى المكانة التي يستأهلها. أستطيع التخلّي عن مكاني فوق السّرج، وقطع بضع آلاف من الأميال راجلا، وتخيّل ظهور الملاك، ذي الأجنحة الظليلة، والوجه الوضيء، والرّنوّ إلى النّور السّماويّ الهابط على وجه العذراء، وقت هبوط البشارة بميلاد المسيح على أذنيها من فوق العرش الإلهيّ. يستطيع أي شخص من وراء المحيط أن يفعل هذا كلّه، لكنّ قلّة هنا هي القادرة على ذلك. رأيت الفجوة الصّغيرة التّي ولج منها الملاك، ولم أستطع الدفع بجسدي خلالها. فالملائكة التّي أعرفها ليست سوى كائنات صنعها خيال مضطرب، لا تصلح أن توضع في مشاكي من حجر أصمّ. يوظف الخيال بطريقة أفضل في الفضاءات البعيدة. أشكّ أنّ إنسانا يمكنه الوقوف داخل كهف البشارة، فينشغل عقله المسكون بأخيلة وهميّة، بجدرانه الحجريّة الصمّاء.

قادنا الرهبان إلى أحد الأعمدة الجرانيتيّة، وكان مدلى من السّقف، ذكروا أنّ المسلمين غزاة النّاصرة، قاموا في محاولة يائسة بشطره نصفين، في أثناء هدمهم كهف المختلي، لكنّ العمود ظلّ على نحو خارق، معلّقا في الهواء، غير مدعوم بشيء، داعما للسّقف منذ ذلك الحين، وسيبقى داعما له. أجد هذه الرّواية غير عصيّة على التصديق، لو قسمت بيننا نحن الثّمانية.

لم يكن هؤلاء الكرام من الرّهبان اللاتين، يوفوننا حقّنا، فان كانوا قد اضطلعوا باصطحابنا لمشاهدة الأفعى النّحاسية القائمة في البراري، فيمكنك عقب ذلك إدراك حيازتهم العمود الذّي أقيمت فوقه، فضلا عن الحفرة التّي أقيم فوقها العمود. إن ما في حوزتهم بالفعل، غار البشارة، وهو جدّ متاح وقريب قرب حلقوم من فم، لديهم أيضا مطبخ العذراء، وغرفة الجلوس، وهو المكان الذّي كانت تتابع فيه مريم ومعها يوسف النّجار، لهو المخلص الطفل بالدّمي اليهوديّة، منذ ثمانية عشر قرنا. ذلك كلّه ماثل أمامنا وتحت سقف واحد.

فضلا عن تلك الكهوف المحاطة بالسّكينة والسّعة والطّهر. يبدو لافتا أنّ الشّخصيّات، وثيقة الصّلة بالعائلة المقدّسة، قد عاشت دوما في الكهوف، سواء كان ذلك في النّاصرة أو بيت لحم، أو في إفسوس العظيمة. ولم يفكّر أحد من جيلهم في زمانهم أن يحذو حذوهم.

حتّى لو فعلوا ذلك، فكهوفهم الآن أدركها الزّوال، وأعتقد أنّنا بحاجة إلى الوقوف حيارى أمام أعجوبة بعينها. بخاصّة بما أتناوله عن الكهوف. فحين فرّت العذراء من بطش هيرودس، اختبأت في أحد من كهوف بيت لحم، ذلك الكهف الذّي كتب له البقاء حتّى اليوم. ولقي قاتل الأبرياء حتفه في كهف أيضا. وولد المخلّص في كهف وزار الحجّاج كلا الكهفين.

وغريب حقّا أن تحدث تلك الوقائع التّاريخيّة كلّها في كهوف، حيث كان ذلك من حسن الطّالع. فالبيوت الكبيرة، لا بدّ من أن تئول يوما إلى السقوط، لكنّ كهفا بالذّات وقد شقّ في الصّخر الحيّ، كان لا بد من أن يكتب له البقاء. يبقى بعد ذلك أنّ الرواية الخاصّة بهذا الكهف. محض اختلاق، لكن ما يجب أن يشكر عليه الكاثوليك، وجود هذا الكهف. لأنّهم حين عثروا على موقع مفتقد، اتخذ صفة القداسة من خلال حادثة توراتية، أقاموا عليه دون تردّد كنيسة ضخمة يكاد يكتب لها الخلود، وحفظوا ذكرى ذلك المكان ليكون مثار امتنان الأجيال القادمة. ولو ترك للبروتستانت، إنجاز عمل عظيم كهذا، ما كان يمكننا الاهتداء إلى موقع أورشليم، يصبح بالتالي من يقدر على الذّها. إلى هناك والوصول إلى النّاصرة، كمن أوتي من المعارف الكثير من أجل هذا العالم. يدين العالم للكاثوليك سعيهم حتّى باحتيال مقبول، إلى شقّ هذه الكهوف غير الثابتة تاريخيا داخل الصّخر، فمن المرضي تماما أن تنظر إلى كهف، صدق النّاس لقرون، أنّه الكهف الّذي أقامت فيه العذراء، وهم لا يتصوّرون مقرا سواه في أيّ مكان بطول النّاصرة وعرضها، وهناك مجال رحب في البلدة، ولا سبيل لأحد التخيّل، فلا يوجد موضع بعينه يلفتك، أو يثير انتباهك، ويدفعك إلى إعمال فكرك. لا يمكن لذاكرة الحجاج أن تمحى، ما دام ذلك الصّخر الصلد باق، وكان الرّهبان القدامى من الحكمة، بحيث أدركوا كيفية الجذب من خلال رواية مقبولة، ستحتفظ بالأثر ثابتا في مكانه إلى الأبد.

زرنا المواقع التّي عمل بها يسوع بمهنة النّجارة لمدّة خمسة عشر عاما، والموقع الّذي حاول فيه أن يلقّن التعاليم داخل كنيس يهوديّ، وهو المكان الذى طرد منه بمكنسة. تقام الكنائس الكاثوليكيّة الصّغيرة، فوق هذه المواقع، وهي بمثابة واق لشظايا الجدران العتيقة

المتبقية. قام حجّاجنا بقطع شظايا تذكاريّة. زرنا كنيسة صغيرة حديثة العهد، تقع وسط المدينة. أقيمت بالقرب من جلمد صخريّ. يقارب في الطّول الاثني عشر قدما. وفي السّماكة أربعة أقدام.

اكتشف الرّهبان منذ بضع سنين. أنّ الحواريّين قد جلسوا فوق هذه الصّخرة ليستريحوا، في أثناء عودتهم من كفر ناحوم سيرا على الأقدام. سارع الرّهبان إلى حفظ هذا الأثر. فالآثار القديمة تحقق مزايا كبيرة. فمن المتوقّع أن يسدد الزوار مقابل مشاهدتها، ويفعلون ذلك عن طيب خاطر. إننا نستملح الفكرة. فليس أسوأ لضمير المرء من تجنّب سداد ما عليه من مال. سيطيب لحجّاجنا كثيرا، بإخراج السّناج الأسود والريشة، وكتابة أسمائهم على تلك الصّخرة. ولن ينسوا بالطّبع ذكر البلدان الأمريكيّة الّتي قدموا منها، لكن الرّهبان لم يسمحوا لهم بشيء من ذلك، لذلك وتوخيًا للحقّيقة، فقد وجب التّنويه إلى أنّ أفراد مجموعتنا، نادرا ما لجأوا إلى سلوك هذا المسلك، مع أنّ لدينا في السفينة من لم يفوّتوا فرصة كهذه. خطيئة حجّاجنا الكبرى، ولعهم بالقطع التّذكاريّة. وأظنّهم في هذه اللّحظة، عاكفين على قياس أبعاد تلك الصّخرة بالبوصة، وزنتها بالطّنّ. ولن أتراجع عن الزعم، بأنّهم سيعودون اللّيلة إليها ويسعون إلى حملها معهم.

يعدّ نبع العذراء الوحيد الّذي تقول عنه الرّواية القديمة، إنّ السيّدة مريم العذراء اعتادت السّقاية منه عشرين مرّة في اليوم، وهي لم تزل بعد فتاة، وتحمل الماء في جرّة على رأسها. يتدفّق الماء عبر صنابير على واجهة جدار بيت قديم تقع بمعزل عن بيوت القرية. لم يزل بنات النّاصرة يتجمعن حوله بالعشرات، ولا ينقطع ضحكهن بصخب، أو مرحهن. ليست بنات النّاصرة بالجميلات. عيون بعضهنّ برّاقة نجلاء، لكنّ وجوههن أبعد عن الجمال. ترتدي تلك الفتيات زيًا نمطيًا، فضفاضا، لا سمة له، ولا لون بعينه، ويصعب هندمته في حالته المزرية هذه. تتزينّ من الفود إلى الفكّ، بخيط عجيب، معقود بعملات قديمة، على طريقة حسناوات طبريّة. ويحملن في معاصمهنّ وآذانهن مشغولات نحاسيّة. لا ينتعلن أحذية أو جوارب. ويمكن اعتبارهنّ أكثر من وجدناهنّ آدميّة وأفضلهنّ طباعا. لكن الذي لا يحتمل الشّكّ أنّ تلك العذاري الأسرات يفتقرن كثيرا إلى الملاحة.

قال أكثرنا حماسا بين الحجاج «طالعوا تلك الهيفاء الرّشيقة! انظروا إلى جمال محيّاها البريء.. الشبيه بوجه العذراء»

أعقبه حاج آخر بقوله: «تطلّعوا إلى تلك الهيفاء الرّشيقة، يا له من وجه ملائكيّ رائع الحسن، شبيه بوجه العذراء».

قلت بدوري: «هي ليست هيفاء، بل قصرة القامة، وليست مليحة، وإنما دميمة، وأؤكد أنّها لبقة تماما ولكنها صخّابة».

عقّب الحاجّ الثالث والأخير قائلا: «يا لها من فتاة رشيقة هيفاء، يا لوداعة العذراء في محيّاها الملائكيّ».

حضر كلّ المحلّفين وحان وقت بحث القرارات، الخاصّة بوجهات النّظر هذه. عثرت على الفقرة التّالية، ترى من كاتبها، إنّه دبليو. إم. جرايمز:

«سلكنا ونحن على ظهور الجياد، طريقا مؤديّة إلى نبع الماء، لنلقي نظرة أخيرة على نساء النّاصرة، وهن صنف من النّساء فريد، يتمتّعن بجمال خارق، لم نر مثله في بلاد الشّرق. حين اقتربنا من جمع أنثويّ، تقدّمت من مريم، وهي فتاة في التّاسعة عشر. قدّمت لي كوب ماء. أظهرت في حركتها قدرا من الرّشاقة والشّموخ. تسمّرنا في أماكننا، من ملاحة وجهها الشبيه بوجه العذراء. باغت «وايتلي» شعور بالظّمأ، فناشدها كوب ماء، وشرب الهوينى، وعيناه تتخطّيان حافة الكوب وتعانقان حور عينيها، النجلاوين، فحدقت بفضول يفوق فضوله. أراد «موري رايت» الشّرب من ثمّ. لبّت الفتاة مطلبه فتعمد سكب الماء كي يقدم على طلب كوب آخر، حين أتت إليّ، وقد أدركت اللّعبة، فنطقت عيناها بالبهجة وهي تحدّق فيّ، ضحكت ملء شدقي، وشاركتني بضحكة لعوب، دأب عذراء ريفيّة في أحد أقاليم البرتقال، تقت إلى لوحة لها. ستصير مادونا، تلك التي يوصف محيّاها بملاحة فتاة ناصرية، ستصير «موضوعا للجمال»، و«متعة أبديّة».

ذلك نوع العقاب الذي طالما انتقموا به من فلسطين. فأوصني من فضلك بالكاتب «فينيمور كوبر» كي أجد ضالتي في «ملاحة الهنود الحمر»، ولا تنسي «جرايمز» لأعثر عنده على ملاحة الوجوه في رجال العرب، وليس نسائهنّ. علينا جميعا التّسليم بأنّ العذراء مريم، كانت جميلة، ولا يعقل أن تكون على النّقيض من ذلك، ولكن أيعقب ذلك أن نلتزم بالكشف عن معالم الجمال في نسوة النّاصرة الحاليين؟.

أحبّ دائما الاستشهاد بفقرات من جرايمز، بسبب ميله الشّديد إلى الإثارة والخيال، ولأنّه يجنح كثيرا في سرده إلى هذين العنصرين، ولقلّة حرصه على توخي الصدق من عدمه! هكذا تراه يبثّ في قارئه الخوف، أو يثير غضبته أو إعجابه.

لقد مضى بين أرجاء هذا البلد المسالم، وهو لا يرفع يده عن مسدّسه، والأخرى عن منديل في جيبه. ولحظة بكائه فوق موضع مقدّس، هي نفسها التّي يهمّ فيها بقتل عربيّ.

صادفته في فلسطين أحداث عجيبة، فاقت ما واجهه هنا من قبل أيّ رحّال، منذ رحيل «مونسوشن».

تسلّل خارجا من خيمته آخر اللّيل، في «بيت يين»، دون أن يلحظ خروجه أحد، ثمّ أطلق النّار على من ظنّه عربيًا، كان ممدّدا فوق صخرة، على مسافة بعيدة بعض الشّيء، فقتلت الرّصاصة ذئبا. إنه يرسم هنا وقبل إطلاقه الرصاص مباشرة، صورة دراميّة، كي يبث الرّعب في نفس القارئ كعادته :

« أكان خيالا، أم كنت أرى هدفا متحرّكا، فوق الصّخرة. فلو كان الهدف على رجل فلماذا لم يوقع بي، لقد تلقّى إصابة رائعة! أطلقتها وأنا أقف، وعليّ برنسي الأسود، أمام الخيمة البيضاء. انتابني شعور بإصابتي بطلقة في حلقي، أو صدري أو رأسي. ذلك شخص متهوّر.

رأوا بدويين وهم في الطريق إلى جينيسارت.... ثم :

« نظرنا إلى مسدّساتنا، وأخرجناها في هدوء تامّ، وأخفيناها في شيلاننا» ألخ. ودائما بدم بارد .

صعد أحد تلال السّامرة، أمام وهدة صخريّة، وأطلق على جمع من الرّجال الرّصاص، فطرحهم أرضا، يقول:

«لم يكن لي أن أفوّت الفرصة، للفت العرب إلى دقّة الأسلحة الإنجليزيّة والأمريكيّة، وقدر ما يحيق من خطر بمن يفكّر في مهاجمة الفرانكيّين المسلّحين، وأظنّ أنّ درس هذه الطّلقة لن يضع سدى».

قدّم في «بيتين» لسائقي البغال من العرب من تابعيه. قطعة أدبيّة من زبدة أفكاره.... ثمّ يعقب :

« خلصت مع نفسي إلى عهد مقدّس، بأنّه لو حدث مجرّد عصيان آخر للأوامر. فسوف أجلد المسئول عنه. جلدا لم يحلم به من قبل، ولئن فشلت في تحديد المسئول عن ذلك. فسوف أجلد الجميع، سواء نفذ العقاب بيد مسئول حكوميّ أو نفّذته بيدي».

إنّه رجل لا يشقّ له غبار.

اجتاز على جواده طريقا وعرا شديد الانحدار. من قلعة «بانياس» حتّى أحد بساتين السّنديان، بوثبات خاطفة، متخطّيا بفرسه ثلاثين قدما في وثبة واحدة. لن أتمكن من إحضار ثلاثين شاهدا من العدول. لأثبت أنّ إنجاز بوتنام الشّهير في سباق الخيل، يتواضع أمام هذا السبق الكبير.

انظر إلى الأداء التمثيلي، الذّي لا يحيد عنه. وهو يطالع بعينه أورشليم. كما الحارس اليقظ، ويده لا تفارق مسدّسه.

«وقفت على الطّريق ويدي فوق عنق فرسي. وقصدت بعين كليلة رسم الخطوط الأوليّة للأماكن المقدّسة، واستغرق الأمر وقتا كي تثبت الصورة في ذهني، لكنّ انهمار العبرات حال بيني وبين ذلك. كان برفقتنا خدمنا المحمّديّين، وراهب لاتينيّ، وأمريكيّان. والكل كانوا يحدّقون فيها بفيض من الدّموع ».

لو أنّ رهبان اللاّتين والعرب قد أجهشوا فعلا بالبكاء، فإنّني على يقين تامّ من أنّ الجياد بدورها قد فعلت ذلك وبذا تكتمل اللّوحة.

لكنّ الضـرورة حين ألحّت عليه. فقد استطاع أن يثبت كالصّخر، قام شابّ مسيحيّ من وادي لبنان، بسرقة مبلغ تافه، وهو عشرة دولارات. وكان عليه بوجه خاصّ أن يثبت أنّ المحمّديّين، لا يقدمون على السّرقة، وأنّ المبلغ يعادل ثمن بارود ورصاصة. اتّهم هذا الشاب بالسّرقة أمام أحد الشّيوخ. ووقف يشاهده في أثناء تلقّيه العقاب بالفلقة الرّهيبة. انظر إلى قوله :

« طرح هذا الشّخص (موسي) أرضا، على ظهره، في طرفة عين، بين صراخ وعويل وولولة. لكنّه أقصى إلى السّاحة المواجهة للباب، حتّى نتمكّن من متابعة الأمر برمّته ونتأكّد من تنفيذ العقوبة. [illegible] أحدهم فوق ظهره، وجلس آخر على رجليه، ليثبّت قدميه، بينما قام ثالث، بالضّرب على باطن قدميه بكرباج(*) من جلد الخرتيت، وكان صوت الكرباج يجلجل في الجوّ مع كلّ ضربة. انتابت «مورّرايت» المسكين حالة من الاستياء الشّديد، أمّا نعمة ونعمة الأخرى (أمّ وأخت موسى) فطفقتا تلطمان وجهيهما، وتولولان وتتوسّلان وتعانقان ركبتيّ وركبتي هوايتلي، بينما انبرى أخوه يملأ الجوّ عويلا، فاق عويل موسي، حتّى يوسف بدوره ركع على ركبتيه، متوسّلا منّي الصّفح، وكان بيتوني آخر السّاعين إلى الحادجّي (يقصدني)، طالبا العفو عنه، بيتوني ذلك النذل الذّي ترك حقيبة الطّعام في بيته، وكان آخر المستنكرين لما حدث هذا الصّباح.

أوقفت العقوبة بعد الجلدة الخامسة عشرة، لإنكاره أنّه الفاعل، ترقبا لسماع اعترافه. رحل بعد ذلك جرايمز والذين معه، وتركوا عائلة مسيحيّة بأكملها، في مغرم تلقى العذاب الأليم، بينما كان شيخ المحمّديين يؤدي ما ظنّه الواجب.

« توسّل إليّ يوسف مجددًا لحظة تأهبي لركوب الفرس، لكي أتدخّل في الأمر رأفة بهم، لكنّي نظرت إلى الجمع من حولي، ولم أجد في داخلي ذرّة شعور بالرأفة بهم ».

إنّه يضع اللّمسات الأخيرة في لوحته بشعور مباغت بالمرح ينمّ عن خفّة ظلّ، تتنافى تماما مع ما حلّ بالأمّ وأبنائها من مصاب.

وهذه فقرة أخرى.

«أطرقت برأسي مجدّدا، فالبكاء لا يحطّ من شأن المرء هنا في فلسطين. انتحبت حين رأيت أورشليم، وبكيت وأنا مضطجع تحت ضوء النّجوم في بيت لحم، وبكيت فوق شواطئ

(*) الكرباج سوط يستخدمه العرب لتوقيع العقاب بالجلد، وموضع الضّرب رسغ القدمين، وغنيّة عن الذكر، وحشيّة الجلد بالسّوط. يشبه من حيث ثقله موثق الدّابّة، ومن حيث المرونة المطّاط الهندي طوله في العادة أربعون بوصة تقريبا، ويقلّ تدريجيا في التخانة عن البوصة حتّى يستدقّ في آخره. تترك الضّربة الواحدة به أثرها في الحال على المتّهم. (من كتاب جولة مصر بالصندل لجرايمز)

الجليل المباركة. لم يرتخ تشبثّي باللّجام، ولا ارتعش إصبعي على زناد المسدّس، حال ركوبي فرسي وحمله في يدي، على شاطئ البحر الأزرق. (نحيب)، «وما أظلمت تلك العبرات عيني، ولا أطفأت كلّ لواعجي قطّ، فدع من يتهكّم بعواطفي، ينهي هذا الفصل الآن، لأنّه لن يجد فيما يناسب ذوقه سوى قلة من رحلاتي عبر أرجاء الأرض المقدّسة».

لا يدركه الملل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يرعوي عن مواصلة السباحة ضد التيار.

إنّني أدرك أنّ هذا يعتبر ملخصًا جيّدا وشاملا لكتاب السيّد جرايمز. لذا فإنّه من المناسب والمنطقّي تناوله بالبحث، لأنّ كتاب «حياة البدو في فلسطين»، يعد نموذجا، لما كتب عن فلسطين وأنّ ما يوجّه له من نقد يغني عن نقد الكتب جميعا.. وإنّني في الوقت الذّي أناقش فيه الكتاب بطاقة استيعابيّة، كممثل لبقية الكتب، فإنّني أتجاوز حدود اللّياقة بمنح الكاتب والكتاب لقبان متخيّلان، وربّما وجب عليّ من باب الذّوق القيام بذلك في كلّ الأحوال.

الفصل الحادي والخمسون

يعود ما تحظى به النّاصرة من اهتمام كبير، إلى أنّها لا تزال تحمل المعالم نفسها كما تركها عليها يسوع، ولأنّها تدفع بالمرء دوما إلى أن يحدث نفسه بأنّ الصبّي يسوع كان يقف يوما، عند هذه البوّابة، أو يلعب في هذا الشّارع أو يلمس بيده هذه الحجارة، أو يهيم فوق هذه الكثبان الرّمليّة. يمكن لمن يرغب في إظهار براعة في الكتابة عن المسيح في صباه، أن يخرج كتابا، يشدّ اهتمام الشّباب والكهول على حدّ سواء. أرى بعيني هذا الاهتمام الكبير الّذي شهدناه في النّاصرة، يفوق كل ما جذبنا في كفر ناحوم وبحر الجليل. لم نستطع التوقف أمام كفر ناحوم إلاّ لتكوين فكرة غير مكتملة عن الشّخصيّة الجليلة الّتي مشت فوق أمواج البحر المزبدة، وكأنّه يسير فوق اليابسة، وهو الّذي مسّ بيده الأموات فبعثوا إلى الحياة، ينطقون الكلمات. إنّني أقرأ بفكر جديد ما دونته من عبارات من العهد الجديد الأبوكريفي الصّادر عام ١٦٢١ (اقتباس):

«لمست العروس المسيح، فبرأت من بكم أصابها السّحرة به. شفيت فتاة مجذومة بالماء الذّي عمّد به المسيح وهو طفل، لتصبح تابعة ليوسف ومريم. شفي ابن أمير مجذوم بالأسلوب نفسه».

«برأ الشّاب الذّي سحر وتحوّل إلى حمار، بمعجزة وضع المخلّص وهو طفل على ظهر الشابّ، وتزوّج بفتاة أبرأت من الجذام، فيشكر شهود المعجزة الرّبّ».

«في الفصل السّادس عشر يوسع المسيح الأبواب بمعجزة، ويفتح مصاريعها، كما يوسّع أسطال اللّبن والمناخل والصّناديق، ولا يفعل الشّيء ذاته مع تلك التّي صنعها يوسف النّجّار، فلم يكن بارعا في حرفة النّجارة. الملك يأمر يوسف بصنع كرسيّ للعرش، فيستغرق يوسف عامين في صنعه، ويخرجه أقل شبرين ممّا طلب منه، يستاء الملك من ذلك، فيهدأ

المسيح غضبته، ويطلب منه جذب أحد طرفي كرسيّ العرش بينما يقوم هو بجذب الطّرف الآخر، فيحقّق بذلك القياس المطلوب».

«في الفصل التّاسع عشر: اتّهم يسوع بإلقاء صبيّ من فوق سطح أحد البيوت، فيجعل الصبيّ بمعجزة يتحدّث إليه ويبرّأه من التّهمة، ثمّ يأتي بماء لأمّه، ويكسر الإبريق، ويجمعه بمعجزة في عباءته، ويجيء به إلى البيت».

« يبعث إلى أحد المعلمين، فيرفض النّطق بحروف الهجاء، ويضربه المعلّم بالسّوط، فتشل يد المعلّم».

ألحق بهذا الكتاب المعروف بالأناجيل المرفوضة، رسالة من القدّيس كليمنت إلى الكورنثيين، ظلّ يعمل بها في الكنائس، واعتبرت أصلية على مدار ألف وأربعمائة أو خمسمائة عام. يأتي في سياق هذه الرّسالة ذكر طائر العنقاء الخرافيّ.

١- لتمعّن ذلك النموذج العجيب للبعث، والمعتمد في بلاد الشّرق، ولنقل في الجزيرة العربيّة.

٢- كان هناك طائر بعينه يقال له العنقاء، لم يذكر الرّواة عنه سوى أنّه في فترة معيّنة ظهر من نوعه طائر واحد فحسب، عاش ما قدّر بخمسمائة عام، حين شعر بدنو أجله وعرف أنّه قد أشرف على الهلاك، بنى له عشّا من اللّبان والمرّ وبعض التوابل الأخرى، حتّى إذا حلّت ساعة رحيله، دخل العش وقضى أجله.

٣- لكنّ لحمه بعد أنّ تعفّن، خرجت دودة من جسده، تزوّدت بأجنحة بعد أن عاشت على عصارة الطائر الميّت، وحين اكتمل نموّها التقطت العشّ الذّي يضمّ عظام أبيها، وحملته من جزيرة العرب إلى بلد يعرف بهليوبوليس في مصر.

٤- طارت به ذات يوم صحو على مرأى من البشر، ووضعته على مذبح الشّمس، ثمّ عادت أدراجها إلى حيث أتت.

٥- يفتّش الرّهبان بعد ذلك في سجلاّت الزّمن، فيجدوا أنّها عادت الى هناك بنهاية الأعوام الخمسمائة بالضّبط.

يا لها من دقّة تكللها الجدية وليس سواها، لا سيما أن الأمر هنا يتعلّق بعنقاء. تتضمن ما يحكي عن طفولة المسيح من فصول قليلة، تحكي عن طفولة المسيح، أشياء كثيرة، تبدو عبثية، لا تستحق الحفظ. وهناك مع ذلك كمّ كبير في أجزاء المجلّد الباقية يمكن قراءته على أنه كتاب مقدّس جيّد. هناك مقطع واحد، لا يستحقّ الرّفض، لأنّه يشير إلى ما ينبئ في وضوح تامّ بالمسار العام الذى ستكون عليه الهيئات التّشريعيّة والنّيابيّة للولايات المتّحدة الأمريكيّة

١٩٩. «إنّهم يعلون من قدر أنفسهم، وكأنّهم رجال حكماء، ومع أنّهم حمقى، فإنّهم أيضا سيبدون رجال علم».

أعرض هذه المقتطفات كما عثرت عليها. والمرء في أماكن عدّة يعثر داخل الكاتدرائيّات الفرنسيّة والإيطاليّة على المأثورات القديمة الخاصّة بالشّخصيّات التّي لم يرد ذكرها في الإنجيل، وبالمعجزات التّي لم ترد بين دفّتيه. لكنّها جميعا مذكورة في العهد الجديد الأبوكريفي هذا، ورغم أنّها قد حذفت الآن من إنجيلنا الحديث؛ فإنّه قد زعم العمل بها كأحد الأناجيل على مدار قرنين أو خمسة قرون مضت، واحتلّت مكانة سامية، شأنها في ذلك شأن أيّ إنجيل. يجب قراءة هذا الكتاب قبل زيارة أيّ من تلك الكاتدرائيّات المهيبة، مع ما تحتويه من تراث نادر، أجرى عليه الحظر أو طواه النّسيان.

فرضوا علينا قرصانا آخر في النّاصرة، حارسا عربيّا آخر لا يشقّ له غبار. ألقينا نظرة وداع على المدينة، وقلوبنا عالقة بها، علوق عشّ زنبور بماء كلس على منحدر تل. غادرناها في الثّامنة صباحا، ونزلنا عن صهوات الجياد وقصدناها سيرا على طريق خاصّ بسير الدّواب، تراءي لنا في إعوجاجه كلّولب، وانحناء كقوس قزح. أعتقد أنّه الطّريق الأسوأ من حيث التضاريس، عدا آخر يقع على جزر السّاندويتش، التّي تحمل ذكراها مرارة في النّفس، وربما فاقه وعورة طريقان على سلسلة مرتفعات نيفادا. غالبا ما يلجأ الفرس في هذا الطّريق الضّيق إلى الحرص في الاحتفاظ التّوازن، حال تخطّيه الصخور الصّلبة، فيمدّ قدميه الأماميّتين، إلى أقصى مسافة، ويهبط ارتفاعا يفوق طول قامته، ما يجعل أنفه تقترب من الأرض، وذيله إلى أعلى، ويشبه في هذا الواقف على رأسه، ولا يمكنه في هذا الوضع الاحتفاظ بشموخه. أكملنا أخيرا ذلك الهبوط الطّويل، واتجهنا نحو سهل إزدراليون العظيم.

سيطلق على بعضنا الرصاص قبل أن نكمل هذا الحجّ. فقد قرأ الحجّاج كتاب «حياة البدو»، وهم في ذلك يلزمون أنفسهم بالبقاء على حالة لبس ثوب بالبطولة. فلا يرفعون أيديهم عن مسدّساتهم، ويخرجونها بين الفينة والفينة، وعلى غير توقّع منك، يسحبونها في طرفة عين، ويسدّدونها نحو بدو لا وجود لهم، ويستلّون مديّهم ويفتعلون عراكا داميا مع بدو وهميّين. لم يفارقني الإحساس بخطر محدق، جراء تلك النّوبات العصبيّة العفويّة المباغتة، ولا أستطيع بالطّبع معرفة كيف أتجنّبها. فإن صادف ولقيت حتفي في أثناء إحدى نوبات هياج الحجّاج الانفعالية هذه، فالأجدر بالسيّد جرايمز أن يفصل في الأمر ويجيب عن ذلك إجابة شافية، لأنّه المحرّض الأوّل على ذلك قبل وقوع الواقعة. إذا اتّخذ الحجّاج هدفا بعينه، ثمّ أطلقوا النّار على شخص ما، فذلك لا غبار عليه، ولا غضاضة منه، لأنّ المستهدف لن يكون عرضة لخطر ما، بل أنا الّذي سأكون هدف لأولئك القتلة العشوائيّين. أكتفي برؤية إزدرايلون عما سواه من أماكن، فأرضه مستوية، وصالحة للعدو بالجياد. إنّه يعيد إلى أذهان الحجّاج حماقة مسلكهم المثير. حين يسير المرء بفرسه وئيدا في الشّمس، مستغرقا في تفكير عميق، تجد الكلّ في آن، قد هرعوا عدوا إلى المكان، ناخسين بمناخسهم ظهور جياد كوادح، مقرحة المتون بارزة العظام، أو زاعقين بها، حتّى تعلو حوافرها رءوسهم، ويوشك بذلك أن يحمّ أزيز الوغي، فتنطلق قذيفة البطاطا، من مسدّس، وتحدث دويّا مكتوما، ويمضي فارغ الطلقة مغرّدا عبر أجوار الفضاء. الآن وقد بدأت رحلة الحجّ هذه، فإنني أزمع المضّي فيها حتّى شوطها الأخير، رغم أنه لا شيء يبعث النفس على الرّضا، سوى فرط شجاعة، أبقتني ثابتا على ما أهدف إليه حتى اللحظة. إنّني لا أخشى البدو، ولا ألقي لهم بالا، فلا البدو أو سواهم من العرب، قد أظهروا ميلا لإيذاءنا بنا، بل إنّ من أخشى هم رفاقي أنفسهم.

قطعنا على الطّريق إلى أقصى أطراف السّهل، مسافة قصيرة فوق أحد التّلال، ووجدنا أنفسنا في «إندور» الشهيرة بساحرتها. ما زال أحفادها يقيمون في إندور، وهم أكثر الجماعات استنفارا وجموحا. انسربوا خروجا من جحور النّحل الطّينيّة زرافات زرافات، ومن أكواخ على صورة علب الملبوسات، ومن كهوف منقورة في الجبل تحت أرفف صخريّة، ومن صدوع في الأرض. تخلّى المكان في خمس دقائق عما كان يرين عليه من صمت وعزلة قاتلين، وانبرت طغمة الصّارخين والزّاعقين، تتشبّث جاهدة بسيقان الجياد، وتسدّ علينا الطّريق. بقشيش! بقشيش! بقشيش! يا حاجّي، بقشيش! ها هو ذا المجدل يظهر لنا

مجدّدا! لكنّ الفارق الوحيد هنا، كان تلك العيون الكافرة التي امتلأت حقدا وشراسة. يبلغ عدد السّكان هنا مائتين وخمسين فردا. وعدد ساكني الكهوف الصّخرية يفوق نصفهم. تتميّز «إندور» بما يغشاها من قذارة وهمجيّة وانحراف خلقي. إنّنا الآن لا نأتي على ذكر كلّ من المجدل وديبوريّة، لأنّ «إندور» تأتي على رأس القائمة. وهي أحطّ من أيّ مستوطنة هنديّة. يتّسم التلّ الصّخري بالجدب، ولا أثر فيه للينة من كلأ، خلا شجرة تين وحيدة، اتخذت مقرا لها، شقّا مقلقلا بين الصّخور، بالقرب من فجوة لكهف مظلم، اتّخذته ساحرة إندور الحقيقيّة مقراً لها. يقول المأثور إنّ شاول الملك جلس في هذا الكهف، بعد أن انتصف اللّيل، ذاهلا مقشعرّ البدن، حين تزلزلت الأرض، وهزم الرّعد بين التّلال، ثم ظهر شبح النبيّ الراحل، وسط النّار المشتعلة والدّخان، لبثّ الطمأنينة في قلبه. تسلّل شاول إلى هذا المكان، حينما أوى جيشه إلى الرّقاد، ليستطلع قدره المنتظر، في معركة الغد. رحل مهموما ليلقى العار والموت.

تقطر عين ماء بين الصّخور، من داخل فجوات الكهف المظلمة، وكنّا عطاشا. تعرّض أهل «إندور» لنا للحؤول دون دخولنا الكهوف. لم يكن يعنيهم ما وضر بهم من وسخ، وما التحفوا به من أسمال، وما غشيهم من هوام ومن جهل مطبق، وما اهتموا بالقضاء على ما بهم من فاقة، بل جلّ همّهم، الظّهور بمظهر التقى أمام إلههم، أياً كان هذا الإله، حيث تقشعرّ أبدانهم ويعتريهم الهلع من شفاه مسيحيّة تنجّس عين ماء، تجرعه حلوقهم الطّاهرة. لم تكن بنا رغبة في جرح أدنى مشاعرهم، أو التّحامل عليهم، لكنّ ما لدينا من الماء كان قد نفذ، هكذا ونحن في أوّل النّهار، وحلوقنا تحترق ظمأ. استنبطت في تلك اللحظة، وتحت هذه الظّروف، قولا مأثورا، لاقى في الحال قبولا، فحواه. «أن الضرورة تبيح المحظور». مضينا إلى الماء وارتوينا.

رحلنا آخر الأمر عن الغوغاء، مخلّفين إيّاهم أزواجا وزرافات، وسرنا صفوفا منتظمة فوق التّلال، المسنّون في المقدّمة، يليهم الأطفال، ومن خلفهم الفتيات، وسار الأشاوس إلى جانبنا، لمسافة ميل، ولم يغادرونا سوى بعد ضمنوا آخر ما استطاعوا ابتزازه من «بقشيش». وصلنا «نايين» في ظرف ساعة، وهي المكان الذي أقام المسيح عنده، ابن الأرملة من الموت. تعدّ «نايين» كالمجدل مع فارق بسيط، هو أنّها غير آهلة بالبشر من أيّ نوع. تقع بعد دخولها بمائة ياردة مقبرة حقيقية، ولم أكن أعلم أنّ شواهد القبور المسطّحة

على الأرض في سوريا، خاصّة باليهود. يتراءى لي أن المسلمين، لا يسمحون لهم بإقامة شواهد عا- قبورهم. يكتسي قبر المسلم بطبقة سميكة من الجصّ، ويدهن كله بماء الكلس. في أقصى -ركن من أحد أجنابه، بروز قائم، اتّخذ صورته الحالية بعد أن أضيفت إليه محاولات زخرفية بدائيّة. يفتقر القبر في المدن غالبا إلى المظهر المميز، الذي يشير إلى القبر كمكان لدفن الموتى، كشاهد رخاميّ ظاهر الطّول والنّحالة، وأن تراعى الدقّة في تجديده وطلائه وزخرفته. اعتلت قامة هذا القبر الإسلاميّ، عمامة، وأجري نقشه وتشكيله، بما يشير بوضوح إلى مكانة المتوفّي في الدّنيا. عرضوا لنا قطعة صغيرة من الحجر، زعموا أنّها جزء من أحد مصراعي البوابة الّتي جيء منها بابن الأرملة المتوفّي، عند لقاء يسوع بالموكب، وذلك منذ قرون عديدة.

«حين اقترب من باب المدينة، وجد شخصا محمولا على نعش، كان وحيد أمّه الأرملة، ومعها جمع غفير من أهل المدينة».

«رقّ لحالها حين رآها وطلب منها أن تمسك عن البكاء، وتقدّم من ثمّ، ولمس بيده النّعش، تسمّر حاملو النّعش في مكانهم، وقال: أيّها الشّاب، إنني أقول لك، قم».

«وكان الذي أدركه الموت، قد بدأ يتكلّم».

سيطر خوف على الجميع، ومجّدوا الرب، قائلين: «لقد ظهر بيننا نبيّ عظيم، وتفقّد الله شعبه».

يقام الجامع الصغير، فوق المكان الذي تقول الرّواية القديمة، إنّ بيت الأرملة كان يشغله. جلس أمام بابه، اثنان أو ثلاثة من كبار السنّ من العرب. قام الحجّاج بتكسير القطع التّذكاريّة بعد دخولنا المسجد، مع أنّهم كي يتمكّنوا من ذلك، كان لا بد من وطأ سجاجيد الصّلاة بأقدامهم. بدا ذلك التصرف في نظر كبار السّن من العرب، وكأنّك تمزّق من نياط قلوبهم. تسبّب وطأ فرش الصّلاة بالأحذية وهو ما لا يجرأ على فعله أعرابيّ في جرح مشاعر أناس لم يرتكبوا نحونا أيّة جريرة. هب أنّ جماعة من الأجانب المسلحين، شرعوا في دخول كنيسة في قرية من القرى الأمريكيّة، وقاموا بتكسير قطع زخرفية من درابزين المذبح، إرضاء لفضولهم، وصعدوا المنبر، ووطأوا الإنجيل والدّثر بأقدامهم؛ ذلك

ىع الفارق في الحالتين. حيث يعد الأمر في الأولى انتهاكا لحرمة مكان جليل من أماكن العبادة التّابعة لنا، وفي الأخرى انتهاك حرمة مكان عبادة وثنيّ.

هبطنا من التل مجددا إلى السّهل، وتوقّفنا فترة قصيرة عند بئر. لا ريب أنّها من عهد إبراهيم. تقع في بقعة صحراويّة. أحيطت بسور من الكتل الصّخرية المكعّبة. بارتفاع ثلاثة أقدام عن الأرض. بدت على الصورة نفسها التّي تظهرها اللّوحات الدينية. وقف بعض الإبل حول البئر. بينما ناخت أخرى. كانت هناك مجموعة من الحمير الصّغيرة الأليفة. يسعى جماعة من الصّغار العراة داكني البشرة، إلى محاولة تسلّقها بصعوبة، بجذب ذيولها، أو الجلوس عند مؤخّراتها، منفرجي السّاقين. اكتست العذارى الحفاة، سمراوات البشرة مع الصفرة، دعجاوات العيون، المسمّلات، والمزينات بأساور نحاسيّة، وأقراط رخيصة، وقد ثبّتن، جرار الماء فوق رءوسهنّ، أو أنهمكن في سحب الماء من البئر. يجاورهنّ قطيع من الغنم، وقف ينتظر الرّعاة لملأ الحجارة المجوّفة بالماء كي يرتوي القطيع. وقد تآكلت الحجارة وشاهت كثيرا كتلك التي سوّر بها البئر. لطول حكّ ذقون ...اش الدّواب بها عبر أجيال. جلس العرب بهيئتهم الغريبة، في وجوههم عبوس، ينفثون دخان الأرجيلة التّركيّة طويلة السّاق. طفق آخرون، يعبئون زقاقا من جلود الحملان العارية من الصّوف بالماء، حتى امتلأ. الزّقوق عن آخرها، وانتفخت بالماء وبرزت سيقانها الخلفيّة القصيرة، عن حجمها العادي، لتصير كجيف الحملان الطّافية على الماء بعد غرقها. ظهرت هنا إحدى لوحات الشّرق الكبيرة. طالما طالعتها كثيرا بعين الوقار من خلال نقوش نادرة على المعدن الأملس، لكنّ تلك النّقوش خلت من قفار ووضر وهلاهيل. وسحن منفّرة، وعيون مقرحة، وآفات نبات، وجهل تنطق به الوجوه، وتسلّخات جلدية تعلو ظهور الحمير، وثغاء ذميم بألسنة عجماء، وعطن إبل، وإيحاءات بوضع حمولة طنّين من البارود، تحت تصرّف المجموعة، وما يمكن أن يحدثه ذلك من إثارة عقب تفجيرها، وإضافة ما يلزم اللوحة من جذب حقيقي، يسعد المرء حال استدعائها في ذاكرته، حتّى لو عاش ألف عام.

تظهر مشاهد الشّرق الحقيقيّة، بصورتها المثلى، في زخارف محفورة على المعدن. ولا يمكن لي بعد الآن الوقوف طويلا أمام تلك اللّوحة التّي تمثّل ملكة سبأ في زيارتها لسليمان. سأقول في نفسي، تبدين بحال طيب يا سيدتي، لكنّ قدمك متّسخة، وعطن البعير يفوح منك.

تعرّف الآن عربيّ جموح، يسوق قافلة بعير في فيرجوسون، على صديق قديم، فاندفع كل نحو الآخر، وانقض على رقبته، وتبادل وجها الملتحيان بما ران عليهما من وضر، قبلا على الوجنات. أشار ذلك في التو، إني ما كنت أعتبره دائما مجرّد صورة قديمة من صور الحوار بين أهل الشرق. أشير هنا إلى حادثة قام المسيح خلالها بزجر فريسيّا، أو آخر، وتذكيره بأنّه لم يتلقّ منه «قبلة ترحاب». يبدو لي من غير المقبول، ضرورة تبادل الرجال القبل، لكنّني الآن أعي أنهم يفعلون ذلك. هناك أيضا علّة لذلك، حيث هذا التقليد أمر شائع وطبيعيّ. فالنّاس دأبوا على تبادل القبل، ولا قبل لرجل بأن يجنح رجل إلى تقبيل امرأة من بلدته، هكذا طواعية وحسبما شاء. لا بدّ للإنسان من أن يزداد علما من خلال السّفر. صارت الآن وبمرور الأيّام، فقرات الإنجيل التي لم تكن تلقي اهتماما لديّ في السّابق، صارت الآن تحمل لي في طيّاتها مضمونا ذا شأن.

«جلنا بسفح الجبل».

«حرمون الصّغير» مرورا بحصن «فوله» الصّليبيّ القديم، واختتمنا جولتنا بـ«شونيم». تعدّ شونيم مجدلا آخر، مع فارق بسيط ذلك لو أتينا على ذكر الرسم بالجص وما سواه. يقول المأثور الدّينيّ إن هذا المكان، هو مسقط رأس النبيّ صاموئيل، وإنّ المرأة الشّامونيّة، أقامت هنا بيتا صغيرا، فوق سور المدينة لإيواء النبيّ أليشع. سألها إليشع عما تنتظر منه لقاء هذا الصّنيع، وهو سؤال طبيعيّ تماما، فهؤلاء النّاس درجوا على تقديم الصّنائع والخدمات، وانتظار مقابلا ماديّا لها. كان إليشع يعرف هؤلاء حقّ المعرفة. لم يكن ليقتنع بأنّ بناء حجرة متواضعة، من قبل أحدهم، كان لمجرّد إحياء صداقة قديمة، ودون غرض أيّا كان. يبدو هذا في ظاهره، خروج عن حدود اللّياقة، ليس لغلظة ما طرحه إليشع من سؤال، ولكنّ لأنّه هكذا بدا لي. ردّت المرأة بأنّها لا تنتظر منه شيئا. سرّ قلبه بما أبدته من صلاح وأثرة، وبشرها بنبوءة طيّبة بأنّها سوف تحمل بمولود صبيّ. تلك كانت مكافأة كبرى لكنّها لم تكن لتحمد منه ذلك لو أنّ المولود كان أنثى فالبنات هنا لا يعتدّ بهنّ كثيرا. جاء المولود ذكرا، وشبّ عن الطّوق، وصار قويّا يافعا، ثم مات. أعاده إليشع إلى الحياة، حدث ذلك هنا في «شونيم».

عثرنا هنا على غيضة وارفة رطبة، تثمر شجر اللّيمون. يميل المرء دوما إلى الإطناب في الجمال حال نضوبه. لكنّ هذه الغيضة بدت جميلة في عيني، ولا أبالغ في قولي هذا، لكنّها

كانت جميلة بالفعل. يجب أن تذكر شونيم دوما بالخير، ذلك أنّها قدّمت لنا الفيء المفوّف، بعد طول مشقّة واجهناها في رحلة حارّة طويلة. استرحنا، وتناولنا غدائنا، وتبادلنا الحوار، ونفثنا الغلايين، على مدى السّاعة ثم ركبنا الجياد، وواصلنا المسير.

حين اقتربنا من سهل «يزريل»، التقينا نصف دستة من الهنود (الحمر) البدو. وهم يتطافرون في المكان على جياد هرمة متهالكة، ويحملون في أيديهم حرابا طويلة، يرشقون بها أعداء متخيّلين، ويتصارخون، وهلاهيلهم ترفرف مع الرّيح، وكانوا يتصّرفون بطريقة هي أقرب كثيرا إلى مسلك المجانين فاقدي الأهليّة. جاء في نهاية المطاف دور أبناء البدو المشردين، ممن انطلقوا كالرّيح فوق السّهل، على صهوات «مهرات جيادهم الحسناوات»، التّي كثيرا ما قرأنا عنها في الكتب والتي طال تشوقنا كثيرا لرؤيتها. ظهرت التقاليد هنا في صورتها الطبيعية. كان هذا عرضا مجسّما حريًا بالمشاهدة، حفل بالمهلهلين المشردين، والمهر العربيّة، ناتئة العظام، طويلة الرقاب، كالأكصور في متحف (الأكصور زحّافة قديمة)، تلك المحدودبة كالجمل العربّي وحيد السنام!

أن تحظى بلمحة من ابن البادية الأصيل، فكأنّك تجرّده من الطّابع البطولي، إلى الأبد، وأن تتأمل جواده، فذلك توسل بالغ منك لتجريد الفرس من طاقمه، وسقوط العربي إثر ذلك حطاما.

وصلنا للتوّ إلى مدينة قديمة خربة، على أحد التّلال، هي مدينة «يزرعيل».

أقام الملك آخاب ملك السّامرة (كانت على عهده مملكة عظيمة تقارب مساحتها نصف مساحة رود أيلاند)، في مدينة «يزرعيل»، واتخذها عاصمة له، أقام بالقرب منه رجلا يدعى نابوت، كان يملك كرما. طلب الملك من نابوت أن يعطيه الكرم، أو يبيعه إياه فرفض الأخير طلبه. كان من الحمق في ذلك الوقت، مشاركة أحد في إرث آخر مهما قدّم له من مقابل، وكان الإرث حتى لو افترضنا أن تنازل عنه، يئول إلى صاحبه مجدّدا، أو إلى ورثته بعد غلاق عام يوبيليّ (العام اليوبيلي الفضّي يقدّر بخمسة وعشرين عاما، والذّهبي بخمسين) يبدأ من تاريخ التّنازل. مضى ابن الملك المدلّل بعد ذلك إلى فراشه، ولزمه، وأدار وجهه إلى الحائط مهموما. جاءت الملكة إليه، وهي شخصّية مكروهة، وكان، سمها في تلك الأيّام وحتّى يومنا، يلاك بالسوء والخزي. هرعت إليه مستفسرة عمّا به، فأعلمها بخبره. ذكرت

«يزبل» أنّ باستطاعتها أن تأتيه ببستان الكرم، ثم مضت تزوّر رسائل بتوقيع الملك، وتبعث بها إلى النبلاء وأهل الرأى، وأمرتهم بسرعة استدعاء نابوت، ومثوله أمام الشّعب لأمر خطير. ثمّ أوعزت إلى شاهدي زور، بأن يشهدا على كفره، وفعل الشّاهدان ما أمرا به، فرجمه النّاس بالحجارة أمام باب المدينة حتّى الموت. أتت الملكة وقالت للملك «اسمع، ها قد تخلصنا من نابوت، فامض إلى بستان الكرم واستولى عليه». هكذا استولى «آخاب» على بستان الكرم ودخله لفرض حيازته له. لكنّ النبيّ «إليشع»، جاء إليه هناك، وأنبأ الملك بما سيحدث له ولزوجته «يزبل»، وأخبره بأنّ الكلاب ستلعق دمه، وتلتهم لحم «يزبل» بجوار سور «يزرعيل». قتل الملك بعد فترة في إحدى المعارك، وكان الكلاب تلعق دمه، الوقت الذّي كانت مياه بركة السّامرة تلتهم عربته الحربيّة. أعقب ذلك بعدّة سنوات، أن زحف «يهو» ملك إسرائيل لقتال «يزرعيل»، بأمر من أحد أنبياء ذلك العصر، ألقى إحدى خطبه التي شاعت بين النّاس في تلك الأيّام، والتّي تحمل زجرا مبينا، حيث قتل عددا كبيرا من الملوك، وقتل رعاياهم، وحين وصل إلى المكان المشار إليه، رأى «يزبل»، وقد وضعت الزينة وتجمّلت بأبهى الثّياب، رآها تطلّ من إحدى نوافذ دارها، فأمر بأن يلقي بها من النّافذة. نفّذ أحد الخدم ما طلب منه، فسحقها فرس «يهو» تحت حوافره، مضى «يهو» بعد ذلك لحال سبيله وجلس لتناول طعامه، وقال في الحال، امضوا، وواروا جثمان هذه اللّعينة التراب، فهي ابنة ملك. تأخّرت كثيرا مشاعر الشّفقة التّي أبداها «يهو» نحوها، لأنّ النبوءة قد تحقّقت، والتهمتها الكلاب، ولم يعثروا منها إلاّ على جمجمة، وقدم وأطراف من كفّيها.

خلّف آخاب الملك الراّحل وراءه أسرة بائسة، وقتل «يهو» من يتامى الأسرة، سبعين ولدا، ثمّ قتل أقارب العائلة ومعلّميهم وأصدقاءهم وأتباعهم، واستراح أيضا إثر ذلك، وحين صار على مشارف السّامرة، التقى اثنين، أربعين رجلا، فاستفسر عن هويّتهم، قالوا إنّهم إخوة لملك يهودا، فقتلهم جميعا، وعندما دخل السّامرة، قال إنّه سيظهر إخلاصه الشّديد للربّ، فجمع كلّ من يألّه «بعال»، من بشر أو رهبان، وتظاهر أمامهم بأنّه بسبيله إلى قبول عبادتهم تلك، وتقديم قربان كبير لإلههم، وحين ظلّوا على صمتهم، ولم يجدوا ما يدافعون به عن أنفسهم، أمر بقتلهم عن آخرهم، واستراح المبشّر الصّالح «يهو» مجدّدا. عدنا إلى الوادي، واتجهنا نحو نبع يسمّى «عين جالوت»، وكانوا يطلقون عليها «عين يزرعيل»، وهي بركة مياه مربّعة بطول مائة قدم، وعمق أربعة أقدام، وبتيّار مائي شحيح يصبّ فيها من

أسفل حيد ناتئ من الصّخور، ويقع هذا المكان في عزلة تامّة. أقام جدعون خيمته في هذا المكان، خلف «شونيم» حيث مرقد الديانييّن والأمالكيّين وكلّ «أبناء الشرق، أولئك الذين كانوا «كثرا كالجـراد، لا تحصى أعداد إبلهم، كما لا تحصى من الكثرة رمال الشاطئ». ذلك يعني أن عدد الرجال كان يقدّر بنحو مائة وخمسة وثلاثين ألفا، عدا ما كان لديهم من وسائل للتنقّل.

باغتهم جدعون في اللّيل ولم يكن معه سوى ثلاثين رجلا، ووقف في مكانه يشهد الرّجال يذبّح بعضهم بعضا، حتّى سقط في المعركة مائة وعشرون ألفا صرعى على أرض القتال.

خيّمنا في «جنين» قبل أن يجنّ اللّيل، واستيقظنا في الواحدة صباحا، وواصلنا التّرحال، وكشف لنا ضوء النهار ونحن نحث السير، عن موقع تشير أكثر الرّوايات رجاحة إلى أنّه موقع الجبّ الذّي ألقي فيه الإخوة أخاهم يوسف، وقرب الظّهيرة، وبعد زحف وئيد فوق سلسلة متعاقبة من قمم جبلية، تكتسي ببساتين التّين والأشجار، وعلى مرمى البصر من مسافة تبعد عن البحر الأبيض البادي بعيدا عنا بنحو أربعين ميل، وبالتوجّه صوب المدن المقدّسة العتيقة، التّي نظر أهلها بشراسة إلى ركبنا المسيحيّ، وأبدوا ميلا إلى ترجمة تلك النّظرات عمليّا، قذفنا بالحجارة، وصلنا إلى التّلال المتفردة بالقبح والانبطاح، والتّي أكدت خروجنا من الجليل، ودخولنا النّاصرة أخيرا.

تسلّقنا تلاّ مرتفعا لزيارة مدينة السّامرة، حيث المكان الذّي يحتمل أن يكون هو الذى أتت منه المرأة التي تحاورت مع المسيح عند جبّ يوسف، ولا شك في أنّ ذلك المكان، هو الذّي جاء منه السّامريّ المعروف بصلاحه، ذكر أن هيرودس العظيم قد جعل من هذا المكان مدينة مهمّة، وأنّ عددا لا بأس به من الأعمدة المقامة بالحجر الجيريّ لصلب، بارتفاع عشرين قدما، والتي تكاد تخلو من عيوب في الصّنعة في الشّكل أو الزخرفة، قد أشار إليه كتّاب كثيرون لتأكيد ذلك، لكنّها ربما لا تعتبر في اليونان القديمة بهذه القيمة من حيث الضخامة.

ينفرد سكان هذا المخيم خاصة بسوء السّلوك، وقد ألقيت الحجارة على جماعتين من حجّاجنا منذ يومين أو نحو ذلك، ممّن أحدثوا إشكالا باستعراض مسدّساتهم، حيث لا موجب لاستخدامها، ويعد هذا في أقصى الغرب خطأ يستوجب العقاب، وحتما هو كذلك في أيّ مكان آخر، يدرك الفرد في الأقاليم الجديدة التّابعة للولايات المتّحدة الأمريكيّة، أنه إذا

وضع يده على السّلاح، فلا بد من استخدامه، في ذات اللّحظة، وإلاّ أردي قتيلا في مكانه. كثيرا ما عكف هؤلاء الحجّاج على قراءة جرايمز.

لم يكن لدينا ما نفعله في السّامرة سوى شراء حفنات من العملات المعدنية الرّومانية القديمة بقدر فرنك للدّستة. والتطلّع إلى كنيسة الصّليبييّن المهدّمة وفيها سرداب كان ذات يوم يضمّ جثمان يوحنّا المعدان. نقل هذا الأثر منذ زمن طويل إلى جنوا.

وقعت السّامرة ذات يوم تحت حصار رهيب، في زمن إليشع. بأمر من ملك سوريًا، خرجت أنباء من قبيل أنّ رأس الحمار، كانت تباع بثمانين قطعة من الفضّة وأنّ الجزء الأعلى من كومة روث الحمام بخمس قطع.

أشارت حادثة وقعت في تلك الفترة الصّعبة، إلى ما يعطي المرء فكرة جيدة عمّا استشرى من إحباط بين الناس داخل هذه الجدران المتهالكة.

ذات يوم والملك يتريّض فوق أسوار الحصن، «هتفت امرأة قائلة» الغوث، سيّدي، الغوث أيّها الملك' قال الملك: ما خطبك، أجابته بأن امرأة قالت لها أعطني ابنك، كي نأكله اليوم، فأعطيك ابني لنأكله غدا!! هكذا قمنا بطهو ابني، ثمّ أكلناه، وفي اليوم التّالي قلت لها «أعطني ابنك لنأكله، فأخفت عنّي ابنها» .

أعلن النبيّ إليشع، أنّه خلال أربع وعشرين ساعة، لا بدّ للأسعار من أن تهبط إلى أدنى مستوى لها، أو تكاد، ونفذ هذا بالفعل. أنهى الجيش السّوريّ حصاره ولاذ بالفرار، لسبب أو آخر. خفّت حدّة المجاعة إلى أن تلاشت، وتحطّم أمل كلّ أفاق وضع رهانه على روث الحمام، ولحم الحمير.

سررنا لمغادرة هذه القرية القديمة، بجوّها الحارّ وغبرها، ثم واصلنا الرحلة. توقّفنا للاستراحة في السّاعة الثانية، وتناول الغداء في «شيكيم»، القديمة بين مرتفعات «جيريزيم» و«إبال» التّاريخيّة، حيث ورد في كتب العهود القديمة الدينيّة أنّ اللّعنات والبركات كانا يتنزّلان من المرتفعات على جموع اليهود الغفيرة التي وقفت تحتها.

الفصل الثّاني والخمسون

تخضع أراضي الوادي الضّيق الذى تقع عليه «نابلس» أو«شيكيم»، لعمليّة استصلاح كبيرة، فتربتها سوداء خصبة. وتروى بوفرة من المياه، تنتج وفرة من المحاصيل الزراعية، مقارنة بالتّلال الجدباء المطلّة عليه من كلّ جانب. أحد هذه التّلال يعرف بجبل البركات، ويعرف الآخر بجبل اللّعنات. ويعتقد أهل الحصافة، السّاعين وراء ما يؤكد النّبوءة بأعجوبة يكشف عنها، تؤكّد أن جبل البركات يتمتّع بالخصوبة الشديدة، بينما يتسم الآخر بشدة الجدب. وأنا رغم ذلك لا أرى في هذا فرقا كبيرا بين الاثنين.

تتميّز شيكيم بأنّها من الأماكن التّي أقام بها يعقوب النّبيّ. وأنّها كانت حاضرة تلك القبائل،التّي نأى أهلها بأنفسهم عن ذويهم من بني إسرائيل. وتوارثوا حيلا بعد جيل، تلك المعتقدات الدّينيّة التّي لا تتفق وعقيدة الإسرائيليّين القدامي. أقامت هذه العشيرة في «شيكيم»، في ظلّ تشدّد دّيني. وأنشأوا قليلا من العلاقات التّجارية والإنسانيّة، مع جيرانهم من أيّ جنس أو عقيدة. لم يزد عددهم لقرون، عن مائة أو مائتين. لكنّهم مع ذلك ظلّوا متمسّكين بولائهم لمعتقدهم القديم. وأبقوا على ما لديهم من محافظ وطقوس. بإسهابهم في ذكر العائلة والنّسب القديم' يباهي النّبلاء والأمراء أنفسهم. بقدرتهم على استرجاع سلالات. قضت منذ بضع مئات من السّنين. ويعد ذلك بالنّسبة لتلك الحفنة من الأسر المؤسّسة القديمة في شيكيم من البساطة، بحيث يمكنهم ذكر آجدادهم في الحال وبالتسّلسل، ولا يخطئون ذكر واحد منهم قضى منذ آلاف السّنين. ويتقفون أثر السلالة زمنا ضاربا في القدم. تنتاب المتأخرين في بلدة، توصف المائتا عام فيها بالقدم، حيرة حين يسعون إلى ذكر ذويهم! إنك في هذا المكان تلقى التوقير. وتجد روح العائلة وتجد ما يستحقّ الذكر عن نسب عريق. لا تزال هذه الفئة القليلة البائسة والمفاخرة بأنسابها، تلك البقيّة الباقية من مجتمع كان يوما يحظى بشأن كبير، لا يزالون يحتفظون بدأبهم على اعتزال النّاس. ويحيون سنّة

أجدادهم، يعملون كما كان آباؤهم يعملون، ويفكّرون بالطّريقة التّي كانوا بها يفكّرون، ويشعرون بمشاعرهم، ويتعبّدون أمام معالم العبادة نفسها التي كانوا عليها، وبالمسلك القديم نفسه . الأسلوب الأبويّ الذى درج عليه آباؤهم الأوّلون منذ ثلاثين قرنا من الزّمان. وجدت نفسي أحدّق باستغراب في كل عابر سبيل، ينحدر من هذه السّلالة العجيبة، كمن يحدّق في ماستودون حيّ (حيوان منقرض شبيه بالفيل)، أو حيوان الميجاثيريوم (حيوان منقرض)، قد تحرّك في فجر الخليقة المدلهمّ، أو كمن يري عجائب العالم المجهول ما قبل زمن الطّوفان.

كان من بين ما حفظ بعناية وفي حالة جيّدة، من مخطوطات دينيّة ضمن أرشيف هذا المجتمع الغريب، إحدى نسخ كتاب الأحكام والعبادات (النّاموس) اليهوديّ القديم، الذّي يذكر أنّه أقدم وثيقة على الأرض، نسخ على رقّ جلديّ، وعمره أربعة آلاف عام. لن تطل إلقاء نظرة عليه بغير البقشيش. قلت أهمية هذا الكتاب من أهميّة في الآونة الأخيرة، بسبب شكوك، أثارها حوله فريق كتّاب الرّحلات إلى فلسطين، بعد أن ارتأوا أنّهم وحدهم الجديرون بإثارة تلك الشّكوك. يذّكرني في هذا السّياق، انفرادى بالحصول من الكاهن الأكبر في هذا المجتمع السامريّ بعد لأي، على وثيقة سريّة، لا تزال تتمتّع بزخمها الضّارب في القدم، ولها قدر كبير من الأهميّة، وإنّني بسبيلي، لنشرها فور الانتهاء من ترجمتها.

قدّم يشوع وصيّته الأخيرة إلى بني إسرائيل في «شيكيم»، ودفن كنزا نفيسا في سرّية تامة، تحت شجرة سنديان، في تلك الفترة نفسها. ظلّ السّامريون، ممّن يعتقدون الخرافات، في خشية دائمة من تقفّي أثر الكنز والكشف عنه، وتراءى لهم أنّ أشباحا رهيبة خفيّة هي التّي تحرسه.

توقّفنا بعد نحو ميل ونصف الميل، عند سفح جبل «أبال» أمام ساحة صغيرة مربّعة ومحاطة بجدار صخري مربّع، مطليّ كلّه بماء الجير الأبيض، وفي أقصى أحد أطراف هذا السّور، مقبرة مقامة على الطّريقة الإسلاميّة. إنها قبر يوسف، وكفى، ولا موثق أفضل من هذا.

عند احتضار يوسف النّبيّ، تنبّأ بخروج بني إسرائيل من مصر، عقب وفاته بأربعمائة عام، واتّخذ من قومه موثقا بأنّهم حين يخرجون من مصر، إلى أرض كنعان، عليهم أن يحملوا عظامه معهم ويوارونها في تراب أجداده، فالتزموا بالموثق.

«دفنوا رفات يوسف التي جاءوا بها من مصر، في أرض شيكيم، في قطعة أرض، كان يعقوب قد اشتراها من بني حمور، أبو شكيم، بمائة قطعة فضة».

إنّ بضع قبور على ظهر الأرض، تستحقّ ما يبديه، عديد من كلّ أجناس البشر، ومن مختلف النّحل والملل، من إجلال، كما يستحق قبر يوسف.

«فالسّامريون واليهود والمسيحيون والمسلمون، الكلّ على السواء، يشيّعون قبر يوسف بالوقار، ويشرفون بزيارته». ذلك قبر يوسف، الابن الوفي، والأخ المتسامح والمحبّ، والرّجل العفيف، والأمير الحكيم والقائد. إنّ مصر قد تأثّرت بسلطانه، ويعرف العالم قصته.

في قطعة الأرض هذه نفسها، والتّي اشتراها يعقوب من بني حمور، لقاء مائة فضّة، يقع قبر يوسف. شقّ البئر في جلمود الصّخر بمساحة تسعة أقدام مربّعة، وبعمق تسعين. تحقّق هذه القطعة المطمورة في الأرض، والتّي ربّما سقط فيها الناس عن غير قصد، تحقق من الشّهرة ما يجعل ذكرها واردا على الألسنة، من الأم إلى الأبناء وبين بسطاء الناس في أقصى بقاع الأرض، لتفوق في ذلك صيت البارثينيون، وأهرامات مصر.

وقف يسوع بجانب هذا الجبّ، وتحدّث إلى امرأة، من أبناء ذلك المجتمع السامريّ العريق والفريد الّذي أتحدّث عنه، وأخبرها بشأن ماء الحياة. وكما أنّ النّبلاء الإنجليز لا يزالون يعتزّون في تقاليدهم الأسريّة بقضاء جدّ محبّب لهم يوما بأكمله مع هذا الملك أو ذاك منذ ثلاثمائة عام، فحريّ بأحفاد السامرية، الذين يعيشون في «شيكيم»، المفاخرة بمداخلة جدّتهم هذه مع المخلّص، والتي استغرقت زمنا قصيرا، مع وضع الفارق الزمني في الحالتين في الحسبان. إنّني لا أرجّح أن يغضّوا الطّرف عن فارق زمني كهذا. طباع السّامريّين كطباع كلّ البشر، ومن طباع البشر تعلّقهم الدائم بالشهرة.

قام أبناء يعقوب بقطع شأفة أهل «شيكيم»، بسبب ارتكاب جرم في حقّهم، يمسّ شرف العائلة.

تركنا جبّ يعقوب، وواصلنا المسير وئيدا حتّى السّاعة الثامنة، حيث بقينا على صهوات الجياد لتسع عشرة ساعة كاملة، حتّى حلّ الإنهاك بالجياد. دخلنا من فورنا الخيام

التّي تحدد لنا الإقامة فيها، وتقع داخل إحدى القري العربيّة، ثمّ ورقدنا من فورنا على الأرض. كان يمكننا الإقامة في أفخم الدّور، ولكن ظهرت بضع موانع حالت بيننا وبين ذلك.أقلها، امتلاؤها بالهوام. وقذارة طوابقها، وحاجتها عموما إلى المنظّفات. فحجرة النّوم الوحيدة التي يضمّها البيت، تسكنها عائلة من الماعز. وفناؤها يقيم به حماران. لم نشعر بما يقضّ مضاجعنا خارج الخيام. اللّهم إلاّ جماعة من الشّعث الغبر، من سكّان القرية الفضوليين، من مختلفي الأجناس والأعمار. وقد أحاطوا بنا أسرابا، وبشكل تلقائي، وأداروا الحوار معنا، وانتقدونا بعبارت مزعجة حتّى انتصف اللّيل.

لم نلق بالا لما يثار حولنا من جلبة، فقد حلّ بنا التّعب، ولا شكّ أنّ القارئ يدرك، استحالة لجوئك إلى الفراش والعيون تلاحقك. استيقظنا في الثّانية، ثم شرعنا في الترحال. هكذا يبتلي النّاس بالتراجمة، الذّين لا همّ لهم في الحياة سوى مناقرة بعضهم بعضا.

مررنا عند طلوع النّهار، بشيلوه، حيث المكان الذي استقرّ عليه تابوت العهد لثلاثمائة عام، والتّي سقط على أبوابها، وكسر عنقه، ذلك العجوز الصالح «إيليا»، بعد أن أبلغه الرّسول، في أثناء عودته العجلى من المعركة، بهزيمة شعبه، وموت أبنائه، وفوق ذلك كلّه، استلاب عزّ إسرائيل، وأملها وملاذها، ألا وهو تابوت العهد، الذّي جاء به الأجداد من مصر. يثير سقوطه وكسر عنقه في ظروف كتلك، بعض الشكّ. لم تكن «شايلوه» في أعيننا مثير. شعرنا بالفتور كوننا لم نتوقّف عن الحركة، ولم نغنم قسطا من الرّاحة، كما غشينا إحساس بالنّعاس، ما جعلنا لا نكاد نستقرّ فوق متون الجياد.

أتينا بعد فترة قصيرة، إلى مكان مليء بالآثار المهدّمة، مطموسة المعالم، والذّي ما زال يحمل اسم «بيت إيل». كان يعقوب مضطجعا في هذا المكان، فرأى رؤيا عظيمة، فيها الملائكة يصعدون إلى السّماء، وهم يرمون بنظرات خاطفة، بيتهم المبارك عبرأبواب السّماء المشرعة.

التقط الحجّاج ما بقي من الأثر المقدّس، وحثثنا بعد ذلك الخطى صوب هدف رحلتنا الصّليبيّة، ألا وهو أورشليم الجديدة.

كلّما زادت الوعورة والجدب، اشتدّت حرارة الشّمس، وصار المشهد العامّ أكثر كآبة ووحشة، لن يبق أثر للشّظايا الحجريّة المنتشرة في كل مكان، من هذا الجزء من العالم. طالما قامت المنشآت الخاصّة والفردية المتخصصة في تكسير الصخور بشغل مواقع لا يفصلها

عن بعضها بعضا سوى عشرة أقدام مربّعة فحسب، وسوف تواصل عملها لقرن قادم من الزّمان. ندر العثور على شجرة أو شجيرة في كلّ الأنحاء. كادت البلدة تخلو حتّى من شجر الزّيتون، ومن الصّبار، صديق التّربة القاحلة الدائم. لا يرقى منظر طبيعيّ في إصابة عين النّاظر بالكلل، يفوق ما يحيط بالدّروب الموصّلة إلى أورشليم، ولاختلاف بين الطرق والبلدة المحيطة بها، كثرة الصّخور في الأولى.

عبرنا، رامه» و«بروت» ورأينا على الجانب الأيمن، قبر النّبيّ صاموئيل، جاثما فوق ربوة تشرف على المكان. لا تزال أورشليم بعيدة عن مرمى البصر. انطلقنا وقد مضّنا الشّوق. توقّفنا هنيهة عند «نبع البيرة» القديم، ولم نلق بالا إلى حجارته التّي بليت وتآكلت، من ذقون ما وليّ من دّواب عطاش، على مدار قرون عديدة، لأنّنا كنّا في لهفة لرؤية أورشليم. تسّلقنا التلّ بعد التلّ، وشرعنا كما هي العادة في مدّ أعناقنا، لدقائق قبل بلوغ القمّة، لكن ذلك كان يعقبه في كل مرّة خيبة أمل، وفلم يزل هناك مزيد من التّلال الرابضة، مع تزايد في ضبابيّة المشهد، وعزّ على المدينة المقدّسة الظّهور.

أخيرا وحين انتصف النّهار، ظهرت من بعيد ثلم قديمة جدار، وقناطر مهدّمة، بدأت تحدّد لنا معالم الطّريق. تسلّقنا تلاّ آخر بمشقة، فرفع قبّعته عانيا كلّ حاجّ وكلّ خطّاء. ها هي أورشليم!

بدأ ومض المدينة الجليلة يظهر تحت الشمس، قابعة فوق تّلالها الأبدية، بيضاء، مقبّبة راسخة، مجتمعة في كتلة واحدة مطوّقة بأسوار قائمة مرتفعة. يا لها من مدينة صغيرة الحجم! ما علّة ذلك، وهي لا تزيد في المساحة على قرية أمريكية، تعدادها أربعمائة ألف نسمة، ولا تزيد على أية مدينة سوريّة عادية تعدادها خمسة وثلاثين ألفا من البشر، وعدد سكان أورشليم أربعة عشر ألفا فحسب. ترجّلنا عن الجياد وظللنا ننظر إلى الوادي الفسيح لساعة أو يزيد، دون أن يتخطّي ما نطقنا من جمل على اثنتي عشرة، وتمعنّا معالم المدينة الخارجيّة، تلك التي تبث اللّوحات التّصويريّة حبها في نفوسنا ونفوس البشر أجمعين منذ بواكير سنواتهم الدّراسيّة، وحتى يقضوا نحبهم. استطعنا من خلال هذه المعالم، التعرّف على برج «هيبيكوس»، و«المسجد العمري»، و«باب دمشق» و«جبل الزّيتون»، و«وادي يهوشافاط»، و«برج داود»، و«بستان جثيسمانيّ»، واستطعنا من خلال تلك المناظر الطّبيعيّة خاصّة تحديد الكثير والكثير مما سواها من أماكن، لم نكن من قبل قادرين على معرفتها.

إنني أسجّل هذه المعالم في هذا السّياق باعتبارها أثرًا تاريخيًا. لا كحقيقة تقلل من قدرها، لم تسقط حتّى عبرات حجّاجنا. لست أظنّ أن فردا من جماعتنا، قد خلا عقله من أخيلة وأفكار وذكريات، أهاجها تاريخ المدينة الجليلة العظيم، الجاثمة أمامنا. لكنّنا لا نزال لا «نسمع لأحدهم نحيبا» .

لا حاجة الآن إلى النّحيب. فلطالما سالت العبرات خارج هذا المكان. تزخر الأفكار التي يوحي بها هذا المكان بالشّعر والسمو. ويأتي الجلال في المقدمة. فأفكار كتلك لا تجد، في المشاعر المكنونة ما يليق بها من تعبيرات.

شققنا طريقنا بعد الظّهيرة في الطّرقات الضّيقة الملتوية، القريبة من باب دمشق، القديم والشّهير. وأحاول الآن لساعات، إدراك أنّني بالفعل داخل المدينة التي يطبق صيتها الآفاق منذ القدم. والتّي فيها أقام سليمان. وكلّم فيها إبراهيم ربّه. ولا تزال المدينة قائمة على أصولها، ولا تزال الجدران التّي شهدت واقعة الصّلب قائمة هناك.

الفصل الثّالث والخمسون

استطاع مناً من حثّ الخطي، اجتياز أسوار أورشليم، والتجوّل في المدينة في ساعة. ولم أجد غير ذلك دليلا، أقنع به أحدهم بصغر حجم المدينة. بدت المدينة بمظهرها الخارجيّ تحمل طابعًا مميّزا. حيث ظهرت على صورة هضبة مدورة معزولة بها ما لاحصر له من قباب، فتشبه بذلك باب سجن، مثبّتة به رءوس مسامير. يضمّ كلّ بيت من بيوتها ما بين قبّة واحدة إلى ستّ قباب رحبة خفيضة، وملصقة بالجصّ الأبيض، تتوسّطه أو تتجمع فوق السقف المسطّح. يستشرف المرء من إحدى التّلال أينما نظر، حشدا من البيوت المتلاصقة (تبدو متلاحمة إلى الحدّ الذى لا يكشف في الصّورة عن وجود للطرقات بالكلية، ما يجعل المدينة تبدو مصمتة)، حيث يرى أكثر مدن العالم تكتّلاً، باستثناء القسطنطينية. تبدو المدينة وكأنها يمكن تسقيفها، من المركز إلى المحيط، بصحون فناجين مقلوبة. لا يعارض رتابة المشهد سوى «المسجد العمريّ الكبير»، وبرج «هيبيكوس»، وبناية أو اثنتين أخريين ترتفعان داخل البروز المشرف على المكان تكوّنت الدّور فيها من طابقين. تظهر فيها متانة البناء، إذ طليت من الخارج بالجير أو اكتست بالجصّ. يبرز قفص شبكيّ من الخشب، أمام كلّ نافذة في البيت. يلزم حتّى يستعيد شارع من شوارع أورشليم عافيته مجددًا، ورفع قفص دجاج، وتعليقه أمام كلّ نافذة في زقاق آهل من الأزقّة الأمريكيّة.

رصفت شوارع أورشليم بالحجارة بصورة غاية في الإعوجاج والوعورة دوما، ما يجعل الشّارع يبدو لصق الآخر حتى ينتهي بعد مائة ياردة يقطعها حاج، ما دام راغبا في السير فيه. يبرز من الطّابق السّفلي، في كثير من البيوت، سقف رواق أو سقيفة، معلّقة دون أن تسندها دعامة من أسفل.

رأيت مرات عديدة وأنا في الجهة الأخرى من الشّارع، هررا تتقافز من سقيفة لأخرى، حين تفزع الى شيء ما. تستطيع الهررة قطع ضعف هذه المسافة قفزا، ولا تتجشّم في ذلك

جهدا. أذكر ذلك لأبيّن مبلغ ضيق الشّوارع هنا. فإذا تمكن الهرّ من القفز بين هذه السقوف، فلا يستحقّ الأمر شرحا لمبلغ ضيق الشّوارع، بالنّسبة لعربات النّقل، فهذه العربات لا تستطيع اختراق شوارع الأرض المقدّسة.

يتكوّن سكّان أورشليم من المسلمين واليهود، واللاّتين والأرمنّ والقبط والأحباش، والسّوريين، واليونان الكاثوليك، وقلّة من البروتسنانت. يقدّر من أقاموا الآن من الفئة الأخيرة في مهد المسيحيّة هذه بمائة نسمة. يصعب حصر ما تنتمي إليه وما تنطق به قوميات وألسنة، تلك الأطياف البديعة التي تآلفت ضمن القائمة المذكورة. أرى ضرورة، أن مثلت كلّ الألوان والأجناس والألسنة من أنحاء العالم، ضمن الأربع عشر ألف نسمة، المقيمين في أورشليم. إنّ انتشار مظاهر البؤس والفاقة والتشرّد والتسوّل والوضر، وكلّ ما يشير إلى وجود للحكم الإسلاميّ، ما يؤكّد أنّه يفوق بكثير راية الهلال ذاتها. يبادرك هجوم كاسح في كلّ مكان، من مرضى الجذام والشّلل والعمى والجهل المطبق، ولا يعرفون من لغات العالم قاطبة سوى كلمة «بقشيش». يتراءى للمرء وهو يرى جموع المقعدين ممّن فقدوا أطرافهم، والمشوّهين، والمصابين بأمراض مختلفة، ممن احتشدوا حول الأماكن المقدّسة، يسدّون الأبواب، بأنّ الأيّام الخوالي قد عادت، وأنّه يتوقّع نزول ملاك الربّ في أيّ لحظة في بيت سيدا، ليحرّك المياه الرّاكدة. إنّ أورشليم تثير الشّجن والأسى والوحشة. لم تعد لديّ الرغبة في الحياة في أورشليم.

يبدأ المرء جولته بالطّبع بالقبر المقدّس. يقع القبر داخل المدينة المقدّسة، بالقرب من الباب الغربيّ، هو ومكان الصّلب معا. وكلّ ما عداهما في الواقع ويرتبط بحميميّة بالحدث الجلل، قد تجمّع بحذق تحت سقف واحد، هو قبّة كنيسة القبر المقدّس.

يري الدّاخل إلى المبنى عن يساره، وسط حشد المتسوّلين المعتاد، بعض الحرّاس الأتراك، وسبب وجودهم فحواه أنّ المسيحيّين قاطبة من مختلف الطّوائف ليس لديهم ما يفعلونه سوى مقارفة الشّجار بعضهم بعضا، بل والتّعارك أيضا في هذا المكان المقدّس، لو ترك لهم الحبل على الغارب. أمامك لوح من الرخام يواري خلفه، حجر المسح بالزّيت، الذى سجيّ فوقه جسد المخلّص، استعداد الدفنه، وقد ارتؤي ضرورة إخفاء الطّاولة الحجرية

على هذا النّحو، لصيانتها من التعرض للفناء. انهمك الحجّاج في اقتطاع شظايا منه للعودة بها إلى ديارهم. يليه مباشرة سياج دائريّ، يحدّد المكان الذي وقفت فيه العذراء، وقت مسح المخلّص بالزّيت.

لدى دخول القاعة العظيمة، التّي تعلوها القبّة. ظهر أمامنا، الموقع الأقدس في المسيحيّة، ألا هو قبر يسوع. يقع الضريح وسط الكنيسة، أحاط بالقبر الواقع مباشرة تحت قبّة الكنيسة الكبيرة، ما بدا أنّه مصلّى صغير، أقيم من الحجر الأبيض والأصفر بشكل يوحي بالغرابة. يوجد داخل الكنيسة الصّغيرة هذه، أو المصلىّ جزء من ذات الحجر الذّي كان يقف فوقه الملاك عندما أتت مريم إلى المكان مع أول خيوط الفجر. وقد دفع إلى داخل القبر من الباب. دخلنا بإحناء الرءوس، إلى الضريح وهو القبر ذاته. تبلغ مساحة القبر ستّة أقدام، في سبع. تمتدّ الطّاولة الحجريّة التّي سجىّ عليها جثمان المخلّص، من طرف الحجرة إلى طرفها الآخر، وتشغل نصف مساحته الحجرة. ووريت الطّاولة بلوح رخاميّ، بلى بفعل شفاه المقبّلين من الحجّاج. يستخدم هذا اللّوح الآن كمذبح كنسيّ. يتدلّى فوق اللّوح الرخاميّ، ما يقرب من خمسين مصباحا من الذّهب والفضة، لا ينقطع عنها الضّوء، بعكس المكان الذى انتهك بالحلّي الرخيصة والزخارف البالية.

لدى جميع الطّوائف المسيحيّة عدا طائفة البروتسانت، كنائس صغيرة، مقامة تحت سقف كنيسة القبر المقدّس بغرض أداء الصّلوات، وكلّ طائفة تحتفظ بكنيستها، ولا يغامر أحد تابعيها بتجاوز مكان عبادته. وذلك يؤكّد في النّهاية، استحالة تجمّعهم معا في مكان واحد حول قبر مخلّص البشرية نحو السّلام. خلت كنيسة السوّريين من سمات الجمال، فالقبط أدنى السوريين شأنا. ليس هناك سوى كهف كبير معتم، شقّ برعونة في صّخر «تلّ كالفاري» (تلّ الجمجمة وهو مكان صلب المسيح) في أحد أجنابه، حفرت مقبرتان عتيقتان، قيل إنّهما مرقدا «نيكوديموس»، و«يوسف الآرامي». لاح أمامنا بغتة، خلال جولتنا بين الجدران الضّخمة والأعمدة، في جزء آخر من الكنيسة الكبيرة، جماعة من الرّهبان الإيطاليّين، بمسوحهم السوداء، وهيئتهم البوهيميّة، وفي أيديهم الشّموع، يردّدون التّراتيل الكنسيّة باللاّتينيّة، ويؤدّون ما بدا أنّه طقس دينيّ، حول قرص رخاميّ أبيض، وضع على الأرض. ظهر المخلّص لمريم المجدليّة في هذا المكان بعد بعثه من الموت، في صورة بستانيّ، وبجانب هذا القرص المستدير، حجر يشبهه على هيئة نجمة. وقفت مريم فى وقت وقوع

الحدث نفسه، في المكان الذى وقف فيه الرّهبان لأداء طقسهم الدّيني. يظهر هؤلاء الرّهبان في المكان الذى يشاءون الظهور به في كلّ أرجاء المبنى، وفي أيّ وقت شاءوا. ترى ومض نسوعهم، في العتمة لا ينقطع، ليزيد الكنيسة القديمة المظلمة حلوكة، بأكثر ممّا تلحّ به الضّرورة، حتّى لوّ أن المكان لقبر..

اصطحبونا إلى المكان الذّي ظهر فيه مخلّصنا لأمّه بعد بعثه. هنا لوح من الرّخام يحدّد بدوره،الموضع الذّي عثرت فيه القدّيسة هيلانة على الصّلبان، بعد حادث الصّلب بنحو ثلاثمائة عام، وبناء على هذه الخرافة، أجّج هذا الكشف الكبير شعورا طاغيا بالابتهاج. لكنّ تلك الخرافة لم يكتب لها أن تعش طويلا، لأنّ سؤالا واحدا قد طرح نفسه. «تري أيّ من هذه الصّلبان، ذلك الذّي حمله المخلّص؟ وأيّها حمله اللصوص؟». صار الشكّ في أمر على هذه الدرجة من الأهمية يدور حول أيّ من هذه الصّلبان الأحقّ بالتّبجيل، يشكل أزمة رهيبة، بعد أن تحوّلت الفرحة إلى أسي. ولكن متى عاش راهب جليل في هذا المكان، لم يثر ببساطة هذه القضية التي لم تبرح مكانها؟ سيكشف أحد هؤلاء قريبا عن خطّة تصبح معيار الإجابة الصحيحة. وقعت إحدى نبيلات أورشليم فريسة مرض عضال، فأمر الرّهبان الحكماء بإحضار الصّلبان الثّلاثة إلى فراشها كلاً على حدة، فتمّ لهم ذلك. حين وقعت عيناها على الصّليب الأول، أطلقت صرخة وصل صداها أبعد من باب دمشق، وقيل إنّها وصلت جبل الزّيتون، وضاعت الصّرخة في الفضاء. أصرّ الرّهبان على إبرائها، وأمروا بإحضار الصّليب الثّاني، دخلت مباشرة حين رأته في نوبات تشنّجيّة مرعبة، بلغ من حدّتها استدعاء ستّة رجال أشدّاء للسيطرة عليها. أصبح الرّهبان الآن في خشية من إحضار الصّليب الثّالث. وبدأوا يخشون احتمال عثورهم على الصلبان الخطأ، وأن الصّليب الحقيقيّ ليس بين الصّلبان الثلاثة. ومع ذلك وحين رأوا المرأة، أوشكت على الاحتضار، بسبب حالتها المتربية ووشوكها على المنية، توصّلوا إلى أن الصّليب الثالث، لن يكون له سوي أثر تهدئتها، لترحل عن الدنيا بنفس مطمئنة. وهكذا جاءوا بالصّليب الثّالث، ورأوا معجزة تحدث أمامهم! انتفضت المرأة من فراشها وبدت عليها الغبطة والانشراح، واستردّت عافيتها. لا يسعنا هنا سوى تصديق القصّة، لأنّ ذلك القطاع من أورشليم الذّي شهد الحدث، ما زال هو الآخر راقدا في مكانه ولم يبرحه. ولا موضع لشكّ البتة. حاول الرهبان أن يعرضوا أمامنا عبر ستارة صغيرة، شقّة من عمود الجلد الحقيقيّ، الذى شدّ

فوقه وثاق يسوع حين قاموا بجلده. لكنّنا لم نتمكّن من رؤيته. حيث ما خلف السّتارة معتم. ومع ذلك فقد احتفظوا هنا بعصاة. ليقوم الحاجّ بدفعها عبر فتحة في السّتارة. حتى لا يراوده شكوك حول عمود الجلد الحقيقي خلف الستارة. ولا قبل له من بعد. بخلق أي مبرر للشك في حيث يمكنه التحقق باللمس. يمكنه تحسسه جيدا كما يتحسس كلّ الأشياء. لم تبعد عن المكان كثيرا. تلك المشكاة التّي احتفظوا فيها بقطعة من الصّليب الأصل. لكنّه اختفت من المكان في القرن السّادس عشر. يزعم رهبان اللاتين. سرقتها منذ زمن طويل. من قبل رهبان آخرين من طائفة مغايرة. تبدو تلك الرّواية عصيّة على التّصديق. لكننّا على يقين من أنّ تلك القطعة. قد سرقت. لأننا بدورنا رأيناها بأمّ أعيننا. في العديد من الكاتدرائيّات الفرنسيّة والإيطاليّة.

لكن أكثر ما لفتنا من آثار. ذلك السّيف النّاصع القديم. الخاص بالقائد الصليبيّ جودفري البولوني. جودفري ملك أورشليم. لا يستطيع أحد أن يثرثر بما يحدثه سيف آخر في المسيحيّة من سحر كما يحدث هذا السيف وبينها سيوف قديمة في أوروبا يمكنها استثارة تلك الرؤي الوجدانيّة في ذهن النّاظر إليها أو يروي روايات بطولية شأنها شأن ما يروى عن بطل الأيّام الخوالي. إنّه يحرّك في المرء ذكري الحروب المقدّسة. التّي ظلّت خاملة في ذهنه لأعوام. ويحشد أفكاره من خلال الصّور الموضوعة على طوابع البريد. وبها تقدّم الجيوش والمعارك ومواصلة الحصار. إنّه يحدّثنا عن بولدوين. وتانكريد. والقائد صلاح الدّين. وريتشارد قلب الأسد. دأب أبطال الملاحم الصّناديد بتلك السّيوف نفسها على شطر إنسان. ليذهب مجازا. نصفه في طريق. والنّصف الآخر في طريق مغاير. أطار هذا السّيف في الأزمنة القديمة. رقاب المئات من فرسان المسلمين. حيث برع جودفري في استخدامه. هكذا سحره جنّي يعمل في خدمة سليمان الملك. فإن تهدّد سيده خطر دقّ التّرس وأصدر دويا تحذيريّا. وقضّ مهاجع النائمين. كان يحدث في أزمنة الرّيبة أو عصور الظّلام. أن يخرج من غمده ويتّجه مباشرة صوب الأعداء. ليكشف عن جادّة الطّريق. ويسعى أيضا إلى مطاردتهم وحده. لا يستطيع مسيّحيّ أن يتظاهر بأنه لا يعرفه. ويأبى أن يصيبه بأذي. ولا قبل لمسلم الادعاء بأنّه لن يخرج من غمده ويزهق روحه. لقد صحّت هذه الرّوايات من بين كثير من الشّروح الواردة في الرّوايات الصّحيحة. التّي يحتفظ بها الطّيبون من رهبان الكاثوليك

القدامى. لا أستطيع الآن نسيان سيف جودفري القديم فقد جرّبته في مسلم، وشطرته نصفين كما تشطر فطيرة العسل.

حيث تلبّستني روح جرايمز. ولو قدّر لي امتلاك جبّانة لقطعت دابر كلّ الكافرين من أورشليم. جفّفت السّيف من الدّماء وأعدته إلى الكاهن، فلم أشأ أن يدنّس الدمّ المتخثّر المواضع المقدّسة، التّي أرجنت ذات يوم نقائه منذ ستّمائة عام، وذلك أنذرهم به جودفري قبل أن تغرب شمس حياته.

جئنا وسط عتمة كنيسة القبر المقدّس، إلى كنيسة صغير أو، شقّت في الصّخر، أطلق عليها لقرون عديدة «سجن مخلّصنا». رأينا تحت مذبح بجوار الباب، زوجا من الحجارة، تستخدم موضعًا للسّيقان، وهذه الأشياء، يطلق عليها «أدوات وثاق المسيح»، وقد أطلق عليها ذلك للغرض الذّي استخدمت من أجله.

تعدّ الكنيسة اليونانيّة، الأبهي والأفخم، بين الكنائس الكائنة داخل كنيسة القبر المقدّس، ومذبحها كمذابح كلّ الكنائس اليونانيّة، وهو عبارة عن ستارة مرتفعة تمتدّ دون حائل عبر المصلى، وقد زيّنت الكنيسة باللّوحات والزخارف البارزة. علّق من سقفها عدد كبير من المصابيح الذّهبية والفضّيّة، باهظة التكلفة.

كان المعلم الرئيس للمكان، عمودا قصيرا يرتفع عن منتصف أرضية الكنيسة الرّخاميّة، ويشير تحديدا إلى مركز الأرض. تخبرنا أكثر ما يعوّل عليه من روايات، بأنّ هذا المكان، قد عرف بمركز الأرض، منذ عصور، وأنّ المسيح حين كان على الأرض، أبطل كلّ ما كان يثار من شكوك حول هذا الأمر إلى الأبد، بعد أن نطق بملء فيه، ما يؤكّد صحّة الرّواية. انظر إلى مقولته بأنّ هذا العمود قد انتصب فوق مركز العالم. لو تغيّر مركز العالم، يغيّر العمود موضعه تلقائيا. تحرّك العمود ثلاث مرّات مختلفة طواعية، في أزمنة مختلفة ثلاث، أصيبت الأرض خلالها بتقلّبات شديدة، وتطايرت إلى الفضاء، كتل ضخمة، وربّما أجزاء كبيرة من الجبال، فقلّل ذلك من محيط الأرض، وتغيّر بالتّالى مركزها، درجة أو درجتين. كان هذا حدثا لافتا، وفيه مزدجر شديد، لأولئك الفلاسفة الذّين يدفعوننا إلى الاعتقاد، باستحالة تطاير أيّ من أجزاء الأرض إلى الفضاء.

أنفق أحد أهل الشكّ أولئك، مبلغا كبيرا، حتى يقنع نفسه بأنّ هذاالمكان مركز الأرض، فصعد إلى قبّة الكنيسة ليستيقن من ذلك. حال أهدته الشّمس ظلاّ ساعة الظّهيرة. عاد إلى حيث كان، بعد أن اكتملت قناعته. كان النّهار في ذلك اليوم، ملبّدا بالغيوم، ولم تلق الشّمس بظلال قطّ. لكنّ الرّجل اقتنع بأنّ الشمس إذا أشرقت، وصنعت ظلالا فلا يمكنها أن تصنع أيّا منها من أجله. لم يكن لثغاء أولئك المنكرين التراجع عن تقفي أدلة كهذه. أمّا غير المتعصبين، ممن تقبلوا الأمر عن اقتناع، فقد تمسّكوا بيقين، لم يكن لشيء أن يزعزعه قطّ.

ولئن توفرت الرغبة في إيجاد أدلّة أكبرمن تلك التي سقتها، لإقناع الحمقى والمتشدّدين، بأنّ المكان هو مركز الأرض الأصلي، فالأدلة متوفّرة هنا. يكمن أكبرها، في حقيقة أنّ التراب الذى خلق منه آدم قد أخذ من تحت هذا العمود. ويمكن التأكد من هذا بالإشارة إلى مسألة محسومة، حيث من غير المرجّح أنّ يخلق أول إنسان، من السمة الأدني شأنا للأرض، حال تيسّر كليّة الحصول على ما يحمل السمة الأعلى فيها من مركز الأرض. لعلّ هذا صادما لأيّة عقلية متأمّلة. ذلك أنّ آدم الذى خلق من طين لازب، وقد استخرج من هذا المكان نفسه. يعد دليلا كافيا، تؤكّده حقيقة أنه عبر ستة آلاف عام، لم يظهر من البشر من استطاع إثبات أن ذلك القبر، ليس هو القبر الذى ووري فيه آدم.

كان من محاسن الصّدف وجود مرقد آدم أبي البشر على يمين هذه الكنيسة، وتحت سقفها. لا جدال بالفعل في أنّه ووري تراب هذا المكان، وليس سواه، لأنّه لم يثبت حتّى الآن ما يخالف تلك الحقيقة.

قبر آدم! أيّ عبارة مؤثّرة، هأنذا هنا، في بلد غريب ناء عن أرض الوطن والأصدقاء، وعن كلّ من يهمه أمري، ثمّ أكتشف في النهاية قبر قريب لي. صحيح أنّها ليست بالقرابة الحميمة، ولكنّها تبقى مع ذلك قرابة فحسب. لقد أثارت غريزة الطبيعة التّي لا تخطئ، ما بها من قدرة على التعارف. تدفّق ينبوع مشاعري الوجدانيّة نحو أغواره الأعمق. فأفسحت مجالا لمشاعري المضطربة، وأسندت رأسي إلى عمود. أجهشت بالبكاء. ولا يخجلني البكاء فوق قبر قريب مسكين. فدع من اختلس النّظر إلى حالتي الشّعوريّة هذه، يضع خاتمة هذا الفصل، لأنّه سيجد في ترحالي عبر الأرض المقدّسة قليلا مما يتفق وذائقته.

لم يكتب لذلك العجوز النّبيل العيش حتّى يراني، يرى ولده. أمّا بالنسبة لي فوا أسفاه على أني لم أعش كي أره. مات مثقلا باليأس والشّجن، قبل أن آتي إلى الدنيا بستّة آلاف صيف وجيز. فلنتقبّل الأمر بجلد، ولنكن على يقين من أنّه الآن في حال أفضل حيث وجد، ولنطمئن بالنا بأنّ فقده يعدّ ملحقا أبديًا لنا.

عقب ذلك اصطحبنا الدّليل، إلى مذبح، كان قد أهدي إلى روح القائد الرّوماني، الذى أوفد لحضور تنفيذ الحكم بصلب المسيح، وهو أيضا الّذي حين رأى انشقاق غطاء الهيكل في الظّلام، في اللّيلة التّالية لواقعة الصّلب، ورأى انشقاق صخرة جلجثة «جمجمة» شطرين، وحدوث الزّلزال، ودويّ الرّعود في السّماء، ووهج البروق المشئوم، وخروج الموتى بأكفانهم من القبور إلى شوارع أورشليم، اهتزّ فرقا وقال: «هذا بالفعل، ابن الله». وقف القائد الرّومانيّ، في المكان المقام عليه هذا المذبح الآن، يري المخلّص بعينيه، ولا يفصل بينهما شيء، ويسمع بإذنه كلّ ما وقع من خوارق. تحدث عن ذلك في أرض تقع في محيط تلّة «كالفاري». دق رّهبان الهيكل في هذا المكان عنق القائد بسبب ما نطق من كلمات اعتبرت تجديفا.

اعتادوا في هذا المذبح الاحتفاظ، بأعجب ما رأت عين من آثار، يحمل من قوّة السّحر ما يفتن النّاظر إليه، ويجعله ملتبسا، ومحدّقا فيه لساعات. ليس هذا الأثر سوى ختم بيلاطس النّحاسيّ، المطبوع على صليب المخلّص، وقد ضمّ عبارة «هذا ملك اليهود». أظنّ أن القدّيسة هيلانة أمّ قسطنطين، قد عثرت على هذا الأثر الرائع، في أثناء وجودها في هذا المكان في القرن الثالث بعد المسيح. لقد جابت أنحاء فلسطين، وصادفها دائما حسن الطّالع، حين عثرت العجوز الصّالحة، والمتفانية في سبيل عقيدتها، على هذا الشّيء الوارد ذكره في إنجيلها القديم أو الجديد. كان عليها مواصلة البحث عنه، ولم تتوقّف حتّى عثرت عليه. لو كان هدف البحث آدم ذاته، لعثرت عليه، ولو كان التّابوت (تابوت العهد)، لاكتشفته أيضا، وإن كان يشوع أو جولياد، لوجدتهما. عثرت على الأثر الّذي أتحدّث عنه، في هذا المكان، القريب من الموضع الذّي وقف عنده القائد الرّومانيّ. يوجد هذا الختم النّحاسيّ في إحدى كنائس روما.

ذلك أثر فريد يستطيع أيّ شخص رؤيته. مررنا بالقرب من سلّم من بضع درجات، ورأينا المذبح مقاما فوق البقعة نفسها التّي يقول الصالحون من الرهبان الكاثوليك، انّ الجنود اقتسموا في هذا المكان ثياب المخلّص.

هبطنا إلى كهف واسع. يقول السّفهاء، إنّه كان يوما ما، صهريجا للمياه. صار الكهف الآن كنيسة صغيرة، للقدّيسة هيلانه. يبلغ طولها واحدا وخمسين قدما وعرضها أربعة وثلاثين. يوجد داخل الكنيسة كرسيّ من الرّخام، تعوّدت هيلانه الجلوس عليه، للإشراف على العمّال في أثناء أعمال الحفر، والتنقيب عن الصّليب الأصل. في الكنيسة مذبح قد أهدي للقدّيس ديماس، ذلك اللّصّ التّائب. هناك تمثال جديد من البرونز، للقدّيسة هيلانة، يذكّرني بالمسكين ماكسميليان الذي أردي قتيلا بالرّصاص مؤخّرا، وكان قد أهدى التّمثال إلى الكنيسة، حين أوشك على الرحيل لاعتلاء العرش في المكسيك.

هبطنا اثنتي عشرة درجة في الصهريج القديم، إلى كهف مهدّم، نحت كلّه من الصّخر الحيّ، هدمته هيلانة خلال بحثها عن الصّليب الأصل. لقد قدّمت في هذا المكان نموذجا للعمل الشّاق، واستحقت ما أجذل لها من عطاء. حيث كوفئت بالعثور، خارج هذا المكان على إكليل الشّوك، ومسامير الصّليب، والصليب الحقيقي ذاته، وصليب اللّص التّائب. وحين أدركت أنّها عثرت على كلّ ما كانت تبحث عنه، أوشكت على التوقّف، فأبلغت في حلم رأته، الاستمرار في البحث يوما آخر، وفعلت ذلك، وكانت سعيدة الحظ، حيث عثرت على صليب اللّص الآخر.

لا تزال جنبات هذا الكهف تذرف الدّمع الحارّ في ذكري ما وقع في كالفاري، ما تسبّب في تأوّه الحجّاج ونشيجهم، فتساقطت الدّموع الحارة عليهم من عيون الصّخر الباكي. يطلق الرّهبان على هذه الحجرة «كنيسة اكتشاف الصّليب»، وهو لقب في غير محلّه، لأنّه يقود الجاهل إلى تصوّر، أنه إقرار ضمنيّ من قبيل أنّ عثور هيلانة على الصليب الحقيقيّ رواية ملفقة.

ولكن من دواعي السّرور أن يصل إلى علمنا رغم هذا كله، أنّ العقلاء لم يبدوا شكّا في أيّ من تفاصيل الرّواية.

يمكن لأيّ من رهبان هذه الكنائس، أو من مختلف الطّوائف زيارة كنيسة القبر المقدّس، كي يبكوا المخلص الكريم ويمجدوه ويصلوا من أجله لا يسمح بدخولها لفئتين اثنتين، في آن، لأنهما في صراع دائم.

واصلنا التجوّل داخل كنيسة القبر المقدّس الجليلة، وسط جماعات الرّهبان المرتّلين، بمسوحهم الطويلة الخشنة، وخفافهم، والحجّاج من مختلف المشارب والألوان بألبستهم الوطنيّة الغريبة، تحت الحنايا المعتمة، وعلى امتداد الجدران العالية والأعمدة، ووسط ظلمة الكنيسة المعبّقة بالأبخرة والدّخان، ونقاط الضّوء الشّاحب من عديد من الشّموع ما بين وميض مباغت لضوئها وخبوّ، أو تلك التّي تركت هنا أو هناك على المداخل البعيدة، كوهج مستنقعيّ(*)، وانتهاء بكنيسة صغيرة يطلق عليها «كنيسة السخرية»، تحت مذبحها شظية من عمود رخاميّ، هو المقعد الذّي أجلس عليه المسيح، وهو يتلقّى لعنات الجند، وسخريتهم بمنحه صفة ملك، وإلباسه إكليلا من الشّوك، ووضع قصبة في يده، ثم قيامهم بعصب عينيه، وضربه، ورميه بالسّخرية بقولهم «تنبّأ بمن يضربك». تعد الرّواية التّي حدّدت مكان واقعة السّخرية، أقدم الرّوايات. قال الدّليل إنّ سايوولف هو أوّل من أفصح عن تلك الحقيقة، ولست أعرف سايوولف هذا، ولكن لا يسعني رفض ماساقه من دليل، ولا يسع أحد أن يفعل ذلك.

اصطحبونا لرؤية مرقدي كلّ من جودفري العظيم، وأخيه بولدوين أول ملوك أورشليم من الصّليبييّن، بجوار الضّريح المقدّس الذّي ناضلا طويلا ببسالة كي يخلصاه من أيدي الكفّار، لكنّ المشاكي التي ضمّت رماد هذين الشهيرين كانت فارغة. زال حتّى غطائي المقبرتين، وقام بتدميرهما جماعة من المتشدّدين من الكنيسة اليونانيّة، لأنّ جودفري وبولدوين كانا من الأمراء اللاتين، وظلاّ ملتزمين بعقيدتهما المسيحيّة على مذهب يخالف مذهبهما في بعض أمور.

في أثناء جولتنا توقّفنا أمام قبر ملشيسيديك! ذلك ولا شكّ هو الملك الذّي عاصر إبراهيم، وفرض عليه إتاوة، وقت أن لحق بآسرى لوط، وصادر ممتلكاتهم. كان ذلك منذ نحو أربعة آلاف عام ومات ملشيسيديك بعد ذلك بقليل، وظلّ قبره بحالة جيّدة.

كان أوّل ما يرغب الإنسان في مشاهدته، لدى دخوله كنيسة القبر المقدّس، الضريح المقدّس ذاته، وهو بالفعل أول ما تقع عليه عينه. يعقب ذلك شوقه الكبير لرؤية الموقع الذّي صلب فيه المسيح.

(*) الوهج المستنقعي مصباح يصنع من قرعة على هيئة وجه إنسان.

لكنّهم يبقون مشاهدته حتى آخر الجولة. ذلك القبر هو شرف المكان الأعلى. يشعر المرء بالوقار ويستغرق في التأملات، حين يقف أمام قبر المخلّص. ولا يمكن لإنسان أن يشعر بشعور مغاير في مكان كهذا، كما يستحيل عليه الاعتقاد بأنّ السيّد مسجّى فيه الآن، حيث ينحرف به ذلك التأمل تماما، عن اهتمامه بالمكان. حيث يهتم بالمكان الذى وقفت فيه مريم في قطاع آخر من الكنيسة، وحيث وقفت مريم المجدليّة، وحيث سخر الرّعاع من الربّ، وحيث مكان جلوس الملاك، والمكان الّذي عثر فيه على إكليل الشّوك، وعلى الصّليب الحقيقيّ، والموضع الّذي ظهر عليه المخلّص بعد البعث، يطالع المرء كلّ هذه الأماكن باهتمام، ولكن بقناعته نفسها التّي أبداها نحو القبر، وهو أنّ هذه الأماكن لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وأنّها أماكن مقدّسة مختلقة من قبل الرّهبان. لكنّ مكان الصّلب يختلف عنها من حيث الأثر، لأنّ المرء هناك يكون على يقين تامّ، من أن المكان ذاته، هو الذى أسلم المسيح الرّوح عنده. يتذكر فيه أيضا أنّ اسم المسيح قد طبّق الآفاق، قبل دخوله أورشليم بوقت طويل، ويعرف أنّه لذيوع صيته تبعته جموع غفيرة دون تراجع، ويدرك أنّ دخول المسيح المدينة قد أثار في الناس مشاعر جيّاشة، وأنّ استقباله فيها كان حافلا، ولن يتردد في إدراكه بأنّ المسيح حين صلب، كانت الأكثريّة في أورشليم قد آمنت بحقيقة، أنه ابن الله. إنّ إعداما في العلن لشخصيّة عظيمة كتلك، كاف في حدّ ذاته، لجعل موقع تنفيذ الحكم، مكانا تاريخيّا على مرّ العصور. أضف إلى هذا أنّ أحداثا كهبوب العاصفة، وحلول الظّلمة، والزّلزال، وشقّ غطاء الهيكل، وخروج الموتى من القبور قبل أوان خروجهم، قد تجمّعت كلّها لدمغ وقوع الإعدام والمشهد المصاحب له، في ذاكرة أكثر الشّهود غبنا. سوف يخبر الآباء أبناءهم بالحدث الجلل، ويشيرون إلى وقوعه في هذا المكان، وينقل الأبناء إلى أبنائهم ما حكاه الآباء، ويصبح من اليسير، مطّ(*) فترة الثلاثمائة عام، وهي الفترة التي أتت بعدها هيلانة وأقامت في كالفاري كنيسة لتحيي ذكرى موت ومواراة المسيح، ليحفظ هذا المطّ المكان في ذاكرة النّاس، دام للكنيسة البقاء، منذ ذلك الحين. لا يثار شكّ حول مكان الصّلب.

(*) هذه العبارة من بنات أفكار جرايمز، وتأتي بأثرها الطيّب، وقد استعرتها من كتابه «الحياة في الخيام».

ربمًا في ذلك الوقت، لا يزيد عدد من عرفوا بمكان دفن المخلص على ستّة أشخاص. كما أن دفنه لم يكن بالحدث الرهيب. ويمكننا مع ذلك في كلّ الأحوال التماس العذر لمن لا يعتقد في القبر، لا في مكان الصّلب. سوف لا يبقى أيّ أثر. بعد خمسمائة عام من الآن، في هضبة الملتجأ الشّهيرة، لكنّ أمريكا ما زالت تعرف مكان ساحة المعركة، وموقع مطاردة الأرانب. كان صلب المسيح في أورشليم حدثا عظيما في التّاريخ، وقد استمدّت هضبة كالفاري شهرتها منه، لكي تذهب طيّ النّسيان خلال فترة وجيزة قدرها ثلاثمائة عام. تسلّقت درج الكنيسة الموصّل لهضبة صغيرة محاطة بالصّخور، حتّى وصلت إلى قمّتها، وأطللت على المكان الذّي انتصب فيه الصّليب الأصلي. وتطلّعت باهتمام كبير فاق اهتمامي بأي شيء آخر على سطح الأرض. لم أستطع إقناع نفسي بأنّ الفجوات الثلاث التّي في أعلى الصّخرة، هي الفتحات الأصليّة التّي انتصبت فوقها الصّلبان الثلاثة، لكنني كنت مقتنعا بأن تلك الصّلبان أقيمت في مكان ليس بعيدا عن هذا المكان، ذلك أنّ بضعة أقدام، كفارق محتمل في المسافة، لا يهمّ في شيء.

حين يقف إنسان أمام موضع صلب المخلّص، يضع نصب عينيه أنّ المسيح لم يصلب في كنيسة كاثوليكيّة، كما أن عليه أن يذكّر نفسه، من حين لآخر، بأنّ الحدث الجلل، قد وقع أمام العيان وليس في زنزانة معتمة، ومضاءة بالشّموع، في ركن صغير قصيّ، بأعلى درج كنيسة، داخل زنزانة مرصّعة بالجواهر ومزيّنة بالترتر اللامع، بذائقة منفّرة.

توجد أسفل مذبح كنسيّ رخاميّ على هيئة طاولة، فجوة مستديرة بالأرضية، تقع أسفلها فجوة أخرى، هي التي انتصب عليها الصّليب الأصلي. كان أوّل ما يبادر كلّ منهم به، الجثوّ على رُكبتيه، وتناول شمعة وتفحّص هذه الفجوة. يحدث هذا الاستطلاع الغريب بقدر من الوقار، لا يمكن تثمينه من قبل شخص لم ير الحدث بأمّ عينه. يقترب بعد ذلك بالشّمعة من لوحة للمخلّص، قد أتقن نحتها فوق لوح مجسّم من الذّهب، ومطهّم في روعة ومرصّع بالماس وعلّقت اللوحة فوق الفجوة التّي بداخل المذبح، وسرعان ما يتبدّل لدى المرء وقاره، إلى إعجاب باللّوحة ذاتها. ينهض من ثمّ من مكانه. فيواجه بلوحات متقنة للمخلّص، وفيها ملامح وجوه الأشرار، بعد أن شدوا على صلبانهم. خلف المذبح، وزهت اللّوحات بجلوة ألوان في بريق المعدن. يعقب ذلك أن يلتفت المرء نحو اللّوحات القريبة منها، وهي للعذراء، ومريم المجدليّة.

ثمّ التحول إلى صدع في الصّخرة الحية، نتج عن زلزال وقع وقت الصّلب، وعلى امتداد ما شهده المرء من قبل في جدار أحد الكهوف السّفلي، ينظر من ثمّ. إلى خزانة للعرض، بداخلها تمثال لوجه العذراء، فينبهر بكنز عظيم من الدّرر النفيسة، والحليّ، المعلّقة بكثافة حول الوجه، كأنّها تواريه تقريبا كالثوب. كان يؤذي العين والقلب. كلّ ما يحيط بالحجرة من حلي رخيصة خاصّة بالكنيسة اليونانيّة، فتنحرف به عن تدبره أن هذا هو مكان الصلب جلجثة هضبة كالفاري. إن آخر ما يشاهده، وأوّل ما رآه أيضا، ذلك المكان الذى انتصب فوقه الصليب الحقيقي. سيربطه ذلك بالمكان ويجبره على التطلع إليه مرة أخرى، بعد أن يكون قد أرضى فضوله وفقد كلّ اهتمام بما يرتبط به من موجودات أخرى.

بهذا أنهى الفصل الخاص بكنيسة القبر المقدّس، أقدس مكان على وجه البسيطة عند ملايين من البشر، رّجالا ونّساء وأطفال ونّبلاء ووضعاء، أحرارا كانوا أم عبيدا. بتاريخها منذ البداية، بمنشآتها الضّخمة، تعدّ كنيسة الضّريح المقدس أشهر البنايات في المسيحيّة. ورغم ما تضمّ من معروضات جانبيّة تافهة، ومظاهر خادعة من كلّ صنف، لا يليق بها؛ فإنها لا تزال عظيمة وقورة جليلة، حيث شهدت موت الرّب، وقد ظلت مقدساتها على مدار خمسة عشر قرنا، مبلّلة بدموع الحجّاج، من كلّ أصقاع الأرض، ولأنّ أكثر من مائتي فارس من أجرأ الفرسان، وأبرع من حملوا السّيف، قدّموا حياتهم فداء وسعيا لضمها، وتطهيرها من دنس الكفّار. شبّت حرب، حتّى في أيّامنا هذه. تكلّفت الملايين وأريقت فيها أنهار من الدّماء، بين دولتين متحاربتين، طالبتا بالانفراد بحقّ إقامة قبّة جديدة فوقها. التّاريخ حافل بما يتعلّق بكنيسة القبر المقدّس القديمة، مليء بالدّماء التّي أريقت، كي يبقى ما احتفظ به الناس من إجلال ووقار، للمستقر الأخير، للحليم، الوديع اللّطيف، الكريم، أمير السّلام.

الفصل الرّابع والخمسون

نقف الآن في شارع ضيّق مجاور لبرج أنطونيو، قال المرشد: «جلس المسيح واستراح. فوق هذه الحجارة المتراكمة هناك»، قبل أن يرفع إلى الصّليب. هذه بداية طريق الأحزان، أو «طريق البليّة». ألقت المجموعة نظرة على المكان المقدّس ثم واصلت السير. مررنا تحت قنطرة «شبيه عيسى»، ورأينا النّافذة التّي أطلّت منها زوجة بيلاطس محذّرة إيّاه، بأنّه لا طائل من اضطهاد رجل الاستقامة. لا تزال النّافذة تحتفظ برونقها رغم عمرها المديد. رأينا المكان الذّي استراح المخلّص عنده للمرّة الثّانية، ومكان رفض الدّهماء تسليمه قائلين: «ليكن دمه على رءوسنا، وأبنائنا من بعدنا إلى الأبد». يقوم الكاثوليك الفرنسيسكان ببناء كنيسة لهم على المكان نفسه. وإنّهم سيضموا بما يكنّوا من وقار تجاه الآثار المقدّسة، تلك القطع الصغيرة من الجدران القديمة التي عثروا عليها هناك، إلى الكنيسة الجديدة. شاهدنا بعد ذلك المكان الذّي سقط عنده المسيح على الأرض، لإحساسه بالأرهاق جرّاء حمله الصّليب الثّقيل، ثم مكان ارتطام الصّليب بعمود جرانيتيّ ضخم سقط من أحد الهياكل القديمة، فانشطر العمود نصفين. وهذه الرّواية على عهدة الدّليل. ورواها لنا في أثناء توقّفنا أمام العمود المهشّم.

اجتزنا شارعا، ووجدنا أنفسنا قبالة الدّار القديمة التّي أقامت فيها القدّيسة فيرونيكا. حيث مرّ المخلّص بجوار بيتها، فخرجت إليه، وتحدّثت إليه بما يليق بامرأة، تحمل في قلبها عطفا وإشفاقا، غير هيّابة بوعيد واستهجان الرّعاع. فجفّفت وجهه من العرق بمنديلها. سمعنا كثيرا بالقدّيسة فيرونيكا، ورأينا صورتها تقف إلى جوار الكثير من السّادة، وكان كأنّه لقاء بصديق قديم، لم تكن تتوقّع قدومه إلى بيتها، في أورشليم. الشّيء الأغرب في ذلك الحدث، والذّي كان سببا في ذيوع صيتها، أنّها بعد أن جفّفت العرق بمنديلها بقي أثر وجه المخلّص كاملا على المنديل، وكتب له البقاء حتّى يومنا هذا. أدركنا هذا في أثناء زيارتنا

إحدى كاتدرائيّات باريس، ورؤيتنا المنديل هناك، ورأيناه أيضا في إسبانيا، وفي كاتدرائيتين في إيطاليا. تكلّفك رؤية المنديل في كاتدرائيّة ميلانو خمسة فرنكات. وفي كاتدرائيّة القدّيس بطرس في روما، ربما هناك استحالة في مشاهدته بالكلّية.

لا يوجد من الرّوايات ما يؤكّد صحّة ما ورد عن فيرونيكا ومنديلها، كما ورد تفصيليًا في هذه الرّواية.

رأينا في الرّكن التّالي ثلمة عميقة في البناء الحجريّ الصّلد لأحد البيوت، ولم نلتفت إليه، لكّن المرشد ذكر أن مرفق المسيح هو الذّي أحدث هذه الثّلمة بعد أن تعثّر في هذا المكان ووقع على الأرض. أتينا بعد ذلك إلى فجوة أخرى في جدار صخريّ، ذكر المرشد أنّ المخلّص سقط عندها أيضا وأحدث مرفقه تلك الفجوة.

هناك أماكن أخرى شهدت سقوط المخلّص، وأخرى استراح عندها لكنّنا عثرنا هذا الصّباح على أكثر المعالم أهمّية في التّاريخ القديم، وذلك في أثناء السير في طريق متعرّجة تؤدّي إلى كالفاري، إنّه حجَر ممَيّز في أحد البيوت. كان الحجر متماسكا وملتئما بما جعله يحمل وجها غريبا يقارب في الشّبه وجه إنسان، زال عنه بروز الوجنتين، بسبب تقبيل الحجّاج من أقاصي الأرض له. استفسرنا من الدّليل عنه فذكر أنّ تلك ذاتها «حجارة أورشليم». التّي ذكرها المسيح حين استنكر آخرون تركه الناس للنّاس يهللون بعبارة «المجد لله»، وحين قام برحلته التّاريخيّة ودخل المدينة على ظهر حمار. قال حاجّ لو أن النّاس قد توقّفوا عن التّهليل بعبارة «المجد لله. لفعلت الحجارة ذلك. ران على الدّليل صمت تامّ. ثمّ قال في تؤدة: «هذه أحد الحجارة التّي هلّلت». لم تفلح محاولة قلقلة إيمان هذا الشخص التلقائيّ، هكذا فهم الأمر.

وصلنا أخيرا إلى إحدى العجائب الكبري، واللاّفتة كثيرا، إنّه بيت البائس المعنّي، والمعروف في القصّة والأنشودة على مدار ثمانية عشر قرنا من الزّمان بـ «اليهوديّ التّائه». وقف في يوم الصّلب التّاريخيّ، عند هذه البوابة القديمة وذراعيه في وسطه، ناظرا إلى الجموع الحاشدة في أثناء زحفها، وحين همّ المخلّص، وقد أدركه الإعياء بالجلوس، كانوا يدفعونه في غلظة، ويقولون له: «واصل السّير»، قال الرّب: «وواصلوا السّير أنتم أيضا». لم يكفّوا عن مواصلة السير منذ ذلك الحين وحتّى وقتنا هذا. يعرف العالم قاطبة كيف أنّ الكافر الذّي تنزلت اللّعنات على أمّ رأسه، لا يزال هائما على وجهه في أرجاء العالم

جيئة ورواحا، على مدار السنين، ساعيا إلى الاستقرار حيث عزّ عليه، وملتمسا الموت ولكن هيهات، ومتلهّفا إلى التوقّف في مدينة أو قفر أو في البوادي الموحشة، غير أنّه لا يصغي السّمع إلى غير وعيد بعينه لا تراجع عنه، بألاّ يتوقّف عن المضي على الطّريق! يقولون كما ورد في الرّوايات القديمة بأنّه حين استولى تايتوس على أورشليم، نشر أحد عشر ألفا من اليهود في شوارعها، وعلى الطّرق الفرعيّة، وشوهد اليهودي التّائه، حين حمى وطيس المعركة، وبدا وميض فئوس الحرب، راغ منها، وحين التمع بريق السّيوف الفاتكة، قطع عليها الطّريق، وكشف صدره لنّصال تصلصل ورماح تئزّ، أمام كلّ سلاح توعّده بالهلاك، ثمّ استراح، ولكنّ ذلك لم يحقّق ما يصبو إليه، وخرج من المجزرة معافى البدن. يقال إنّه بعد مرور خمسمائة عام، انضمّ إلى جيش محمّد حين أوقع الدّمار بجزيرة العرب، ثمّ انقلب عليه، آملا بهذه الوسيلة أن يلقي حتفه باعتباره خائنا فعاود الخطأ في حساباته. لم يبق من الأحياء سوي واحدا، حيث كان الوحيد من جيش الأعداء الذّي لم تكن لديه رغبة في الحياة. سعى إلى المنيّة، بعد ذلك بخمسمائة عام في الحروب الصّليبيّة، فعرّض نفسه للطّاعون والمجاعة، في «إسكالون». فرّ مجدّدا، وفشل أيضا في أن يلقى حتفه. لم تأت تلك المصائب المتكرّرة بغير نتيجة واحدة، هي أنّ ثقته بنفسه قد تزعزعت. منذ ذلك الحين واليهوديّ التّائه يمارس باستمرار نوعا من اللّهو الخفيّ. في أكثر الوسائل نجاعة، أملا في تحقيق رجائه. تطلع قليلا إلى مرض الكوليرا، وفي السّكك الحديديّة، وكاد أن يرقي اهتمامه إلى اتباع الطّرق الجهنميّة، في العقاقير السّامّة. بدا الآن كهلا عبوسا في عمره هذا، ونأى بنفسه عن الانغماس في أي من وسائل اللّهو، ناهيك عن أنّه أحيانا ما ارتاد ساحات تنفيذ أحكام الإعدام، وصار مغرما بحضور الجنازات.

شيء واحد فحسب لا يستطيع تجنّبه، هو المضّي سائرا في كل أرجاء العالم حيث شاء له، مع ضرورة أن يثبت أنه حضر إلى أورشليم، كلّ خمسمائة عام. حضر هنا منذ عام أو اثنين، للمرّة السّابعة والثلاثين منذ صلب المسيح في كالفاري. يقولون إنّ كثيرا من الكهول من المقيمين هنا، رأوا اليهوديّ التّائه آنئذ، كما رأوه هنا قبل ذلك. كان يبدو دوما على الهيئة نفسها، كهلا، ناحلا، زائغ البصر، مثبّط الهمّة، ناهيك عن أنّه بدا مثل الباحث عن شخص ما، وربّما تاق إلى لقاء بعض أصدقاء مرحلة شبابه لكنّ أغلبهم رحل عن الدّنيا الآن. لا يكفّ عن التسكّع في الطّرقات القديمة، يلفّه شعور بالوحشة، فيضع علامته على جدار هنا أو هناك، وينظر إلى الأبنية القديمة بشيء من الألفة المشوبة بالحنين، ويواري

قطرات الدّمع، وهو يقف على عتبة بيته القديم، فأيّ دمع مرير هذا ! كان يحصّل إيجار بيته، ويعاود الرّحيل. كان يري واقفا بالقرب من كنيسة القبر المقدّس. في ليالٍ مقمرة عدّة، لأنّه لقرون، استملح فكرة أنّه لو تمكّن فحسب من دخولها، لوسعه أن ينال قسطا من الرّاحة. لكنّه حين يبادر بالدّخول، توصد الأبواب في وجهه بعنف، وترجف الأرض، وتتحوّل كلّ أضواء أورشليم إلى شحوب مخيف! يفعل هذا كلّ خمسين عاما، ولا يطرأ على عليه تغيير، ولا رجاء، سوى العجز عن التوقّف عن عادة دأب عليها لمدّة ثمانية عشر قرنا. السّائح القديم الآن، يواصل تجواله، فكيف وهو يرى ثلّة من الحمقى أمثالنا، نطوف العالم، ونتظاهر بالحكمة، ونتصوّر أنّنا كشفنا عن الكثير من مقوّماتها! وكيف يقبل أن يزى ازدراء له من قبل جهلة أغبياء، راضين بما درجوا عليه من جهل، بتطوافهم حول العالم على هذا النّحو، في وقت مدّت فيه خطوط السكك الحديدية، ويسمّون هذا ترحالا. انتابني شعور بالدهشة حين أشار الدّليل إلى المكان الذّي ترك عنده اليهوديّ التّائه، علامته المعروفة، فوق جدار :

«س. ت. ١٨٦٠ إكس».

إن كلّ ما أمطت عنه اللّثام بشأن اليهوديّ الضّال، يمكن التأكد منه بالرجوع إلى دليلنا.

يشغل المسجد العمريّ الكبير، والسّاحة المرصوفة المحيطة به، ربع مساحة أورشليم. يقعان فوق هضبة «موريّة»، مكان هيكل سليمان. يعتبر المسجد موضعا أقدسا لدى المحمّديّين خارج مكّة. منذ عام أو نحو ذلك، لم يكن في وسع مسيحيّ دخول باحة المسجد طواعية، أو بالمال، لكنّ الحظر قد رفع، ودخلنا بالبقشيش.

لست بحاجة إلى وصف ما للمسجد من جمال أخّاذ، وفتنة آسرة وتناسق، اكتسب بهم صيته، لكنني لم أر فيه شيئا من ذلك. يرى المرء هذه الأشياء، بنظرة خاطفة، ولا يكتشف المرء جمال المرأة الحقيقيّ، إلا بتكرار النّظر إليها بعد أن تتوثّق علاقته بها، وتنطبق تلك القاعدة على شلّالات نياجرا، والجبال الشّاهقة والمساجد بوجه خاصّ.

تعدّ الصّخرة الكبيرة التّي تتوسّط باحته، معلمه الرّئيس. فوق هذه الصّخرة، قدّم إبراهيم ابنه قربانا لله، وهذه الرّواية صحيحة من جميع الوجوه، ويمكن أن نعول عليها على الأقل من أغلب الرؤايات. وقف الملاك فوق هذه الصّخرة أيضا، وأنذر أورشليم بالعقاب، وأقنعه داود بالصّفح عنها. لمحمّد علاقة وثيقة بهذه الصّخرة، فمنها صعد إلى السّماء،

حاولت الصّخرة اللّحاق به، وقد صادف حسن الطّالع وجود جبريل الملاك في تلك اللّحظة، فأمسك بها، ولولا ذلك لصعدت الصّخرة إلى السّماء. يمكن رؤية أثر أصابع الملاك، غائرة بعمق بوصتين على الصّخرة وهي باقية حتّى اليوم.

كانت الصّخرة الضّخمة معلّقة في الهواء دون أن يدعمها شيء قطّ. أخبرنا الدّليل بهذا، وذلك يدعو للاستغراب. ترك أثر لقدمي محمّد في الصّخر الجلمود في الموضع الذّي حلّ فوقه. يمكنني من هذا الأثر الحكم بأنّه كان في الثّامنة عشرة من عمره، ولكن ما أريد أن ألفت إليه، أنّه في أرضيّة التجويف الواقع أسفل الصّخرة، يوجد لوح حجريّ يغطّي كوّة، لها أهمية خاصة لدي المحمّديين، لأنّها تؤدّي إلى جهنّم، حيث إن كل روح تنتقل من هذا المكان إلى السماء، لا بّد من أن تمرّ عبر هذه الكوّة. يقف محمّد في المكان، ويرفعهم من شعورهم ليقصيهم عنها. يحلق المسلمون رءوسهم، إلاّ من خصلة يحرصون على تركها، كي يمسك بها النبيّ. ذكر الدّليل أنّ المحمّدي الصّالح، يعتبر نفسه هالكا، لو فقد الخصلة المتبقية على فروة رأسه، أو حلّ أجله قبل أن تنبت سواها. يتوقّع أغلب من لقيتهم منهم ملعونا ولا ريب، ذلك إذا لم يجدوا وسيلة أخرى يتخلّصون بها من ذنوبهم.

لأزمنة عدّة سابقة لم يكن يسمح لامرأة بدخول الكهف، الذّي يغطي الكوّة. سبب ذلك أنّ امرأة ضبطت مرة، وهي تثرثر بكلّ ما يدور فوق الأرض من أحداث، لأوغاد من البقاع السّفلية في باطنها، ووصل ذلك إلى إفشائها بكلّ شيء دون تحفّظ، ولم تخف عنهم شيئا، حتّى إنّهم قبل أن تغرب الشمس، كان كان أهل المناطق السفلية في الأرض قد ألّموا بكل ما يدور على ظهرها، ولفظت المرأة أنفاسها الأخيرة في اللّحظة ذاتها.

زيّن المسجد من الدّاخل بالجدران الرّخاميّة الملوّنة، وبالشّرفات، والنّقوش الفسيفسائيّة المتقنة. للأتراك طابعهم الخاصّ في تجميل الآثار المقدّسة، ولهم باع في ذلك تماما كالكاثوليك. أرانا الدّليل الدّرع الحقيقيّة، التّي كان يتدّرع بها ربيب محمّد وخليفته، والقوس الخاصة بعمّه أيضا. تزيّن السّور الحديديّ الكبير، المحيط بالصّخرة بآلاف المزق من القماش، ربطت به من الخارج، كي لا ينسى محمّد، من ربطوها من مرتادي هذا المكان والمعتقدين به، وكان الأفضل أن يعقبوا ذلك بربط خيوط حول إصبعه من باب التّذكرة.

يقع خارج المسجد مباشرة معبد مصغر، يرمز إلى المكان الذي اعتاد كلّ من داود وجوليات، الجلوس عنده للقضاء بين النّاس[*] تتناثر في أماكن كثيرة حول مسجد عمر، أجزاء من مذابح وأعمدة غريبة الشّكل، وشظيات من الرّخام، أبدع زخرفتها، وكلّها بقايا نفيسة من هيكل سليمان. استخرجت هذه الشّظيات من كلّ الأغوار في باطن الأرض، ومن بين ركام تلّة «موريّة». أبدى المسلمون دوما، رغبة في الحفاظ عليها وتوليها بالرّعاية. في وسع الجميع، مشاهدة تجمّع اليهود عند الجدار السّابق لهيكل سليمان، والذي يطلق اليهود عليه «جدار المبكي»، كلّ يوم جمعة ورؤيتهم يبكون مجد صهيون البائد، ويمكنهم رؤية جزء من الهيكل لا يدور حوله جدل، وهناك شبيه له، يتكوّن من ثلاثة أو أربعة قوالب من الحجر، مركب أحدها فوق الآخر. يبلغ كلّ حجر طول آلة البيانو ذات السّبعة أوكتافات[* *]. وسماكته تعادل ارتفاع الآلة نفسها. وقد أشرت من قبل إلى أنّ الحظر لم يرفع إلاّ منذ عام أو اثنين، عن دخول نفاية مسيحيّة على شاكلتنا، المسجد العمريّ ورؤية أعمال الرّخام النّادر، الذي كان يزين الهيكل من الدّاخل قبل أن يلحق به الدمار. تبدو الزّخارف المصوّرة على الشّظايا الرخامية بديعة ذات طابع مميّز، تضفي على ما تحمل من حلي زخرفية جاذبيّة كبيرة. يتصادف أن يرى المرء هذه الشّظايا المقدّسة، حيثما اتّجه، بخاصّة في المسجد الأقصى المجاور، حيث توخيت الدقّة في إقامة أعداد كبيرة من جدرانه الدّاخليّة بها، بهدف الحفاظ عليها. بليت وشاهت هذه القطع الحجريّة بمرور الزّمن، وهي تشير بوجه حزين إلى تلك الأبّهة التّي كثيرا ما دأبنا على ذكرها كأسمى ما وقعت عليه عيوننا من أشياء في هذا العالم، وتعيد إلى الذّاكرة، لوحات لموكب يعرفه كلّ المبدعين، «تظهر فيه الإبل المحمّلة بالتّوابل والكنوز، والجواري الحسان، المقدّمة لحريم لسليمان على سبيل الهدايا، وموكب طويل، للدّواب التّي أسرف في زركشة سروجها، وللمحاربين، وملكة سبأ في عربة، تصوّر «أبّهة الشّرق»، تحمل هذه الشّظايا الرائعة قدرا من الأهمية يفوق بكثير، ما يمكن أن يحمله ذلك الكمّ الكثيب الهائل من الحجارة التي يقبّلها اليهود في مكان المبكي لآثم لا يرتدع.

(*) أخبرني حاجّ بأنّ المكان ليس لداود وجوليات، بل لداود وشاول، وأدرجت معلومتي المذكورة آنفا على عهدة الدّليل، وعليه أن يعرف ذلك. (مارك توين)

(* *) يتكوّن الأوكتاف من وحدة من ثمانية أصابع للبيانو. (المترجم)

لا يزال عدد كبير من أعمدة الهيكل القديم، يرقد تحت الأرض المقدّسة وتحت أشجار الزّيتون والبرتقال المزروعة، تمثل دعامات للمسجد الأقصى. هناك أيضا حنايا ضخمة موضرعة هناك، تلك التّي مرّ منها براق النبي الرّهيب سالما. يسرّنا أن نعرف أن نصاب بخيبة أمل، في أنّنا ما حلمنا قطّ أن بإمكاننا رؤية أجزاء من هيكل سليمان الحقيقيّ، ونحن لا يعتورنا ظلّ من شكّ في أنّها فرية من صنع الرّهبان.

أتخمنا بالمشاهد التّاريخيّة، ولم يعد هناك ما يلفت انتباهنا، عدا كنيسة القبر المقدّس. بقينا فيها، منذ طلوع الشّمس حتّى اللّيل دون أن نشعر بضجر، لكننا مللنا ما عداها بسبب كثرته، وتكدّسه من حولك في كلّ خطوة تخطوها، وما خلا مكان في محيط أورشليم، إلاّ وكان له مكانته التّاريخيّة وحسّه النّابض. سررنا باغتنام فرصة القيام بجولة، لمسافة مائة ياردة فحسب، دون أن يرافقنا دليل، يسرف في الحديث عن كلّ حجر تطأه قدمك، ثم تراه وقد عاد بك إلى الوراء، لأزمنة سحيقة، حتى يبلغك اليوم الذّي حقّق فيه هذا الحجر أو ذاك ذيوع صيته.

يبدو من الصّعوبة بمكان أن أجد نفسي فيها مستندا للحظة إلى جدار أثري متطلّعا في فتور إلى بركة بيت سيدا التّاريخيّة. لا أظنّ أنّ تكدّس هذه الأشياء في مكان واحد، كان تقليلا من شأن ما تحتفظ به من أهميّة وجذب.

لكنّنا للحقيقة المرّة وكنا ولعدّة أيّام نشرد في الأنحاء نستخدم خلالها أبصارنا وأسماعنا، بشعور أداء للواجب يفوق أيّ سبب أسمى وأرفع. غلبنا شعور بالسّعادة، بأنّه قد حان الوقت للعودة إلى الدّيار، والكف عن الشعور بالأسى نحو الآماكن التاريخية يكثّف الحجّاج زياراتهم في يوم واحد.

يكثّف الحجّاج زياراتهم في يوم واحد. يمكن للمرء إتخام نفسه بالمشاهد، فضلا عن وجبات التحلية. فمنذ صباح هذا اليوم وبعد أن الإفطار، شاهدنا من الآثار ما يكفي مؤنة عام من المشاهدة، لو تمكنّا من مشاهدة مختلف المواقع بتمعّن، وتدبّرناها بوعي. زرنا بركة حزقيال، التّي التقى عندها «داود» زوجة «يوريّا»، لدى خروجها من البركة، ووقوعه في غرامها.

غادرنا المدينة من باب يافا، وعلمنا طبعا الكثير فيما تتعلّق بحصن «هيبيكوس».

سرنا بالجياد عبر وادي «حنّوم»، بين بركتي «جيحون»، بطول القناة التّي أمر سليمان بحفرها، والتي لا تزال تنقل المياه إلى المدينة حتى اليوم. ارتقينا تلّة محامي الشّيطان، التّي تسلّم فيها يهوذا نطع الفضّة الثلاثين وتوقّفنا لحظة تحت شجرة، يقول الأثر إنّ يهوذا شنق نفسه عليها.

عاودنا هبوط الوهدة. وبدأ الدّليل بدوره، تقديم اسم وتاريخ كلّ ما وطأته أقدامنا من جلاميد وركام. «هنا كانت ساحة للدّماء، وهذه الكتل الصّخرية، كانت أقداسا وهياكل لمولوخ، وهنا قدّموا أبناءهم قرابين له، وهناك باب صهيون، ووادي تايروبان، وتلّة أوفل، وهنا الطّريق الموصّل إلى يهوشافاط، وعن يمينك «جبّ أيّوب». جئنا إلى وادي يهوشافاط، وتواصل حكي الدليل. هذا جبل صهيون وهذه تلّة الإهانة، ومعتزل الأكواخ الذى صار قرية سيلوم، وهذا، وذاك، وكلّ الأماكن، بستان الملك، ويقع أسفل شجرة زكريّا الوارفة، حيث لقي الكاهن مصرعه، وهناك جبل موريّة، وجدار الهيكل، وخلفهما بستان جثسيماني، وقبر مريم العذراء، وهنا بركة سيلوم». اقترحنا الترجل عن ظهور الجياد، وإرواء ظمأنا، ونيل قسط من الرّاحة. لقد نال منا التعب بعد سّفر دون راحة لأيام عدة، وتقبّل الجميع هذا الاقتراح بارتياح.

تعدّ البركة مصرفا مغطّى يتدفّق بالمياه النظيفة، وتأتيه من مكان أسفل أورشليم، مرورا بنبع العذراء، أو إنه يستمدّ مياهه من النبع، ويصل إلى هذا المكان عن طريق نفق ضخم البنية. لا ريب أن البركة قد بدت بالضبط بما كانت عليه في عهد لسيمان، وبالكآبة نفسها التي اعتادتها النسوة في الشرق، في النزول إلى البركة، يحملن جرار الماء، فوق رءوسهنّ، وذلك ما فعلنه منذ ثلاثة آلاف عام، وما سيصررن على فعله نفسه، في الخمسين ألف عام القادمة، لو بقيت أيّهنّ على وجه الأرض.

تركنا المكان، ووقفنا بنبع العذراء. لم تكن مياهه تصلح للشّرب، ولم نجد في المكان، ما يبعث على الرّاحة، بسبب فيلق المتسوّلين من بنات وبنين، لم تنقطع مضايقاتهم في طلب البقشيش. طلب الدّليل منّا، إعطاءهم بعض المال، فاستجبنا له، لكنّه حين أخذ يصف، مبلغ معاناتهم الفاقة، وسوء الحال والمآل، لم نشعر قط بأننا ارتكبنا خطأ كبيرا، بوضع العراقيل أمام طلب المزيد، وحاولنا استرداد ما قدّمنا، ولم نفلح.

دخلنا بستان جثسيماني، وزرنا قبر العذراء، وكلاهما زرناه من قبل. ولا يتفق أن آتي على ذكرهما الآن. وإن كنت سأفعل في الوقت المناسب.

لا أستطيع الآن ذكر جبل الزّيتون وارتباطه بأورشليم، والبحر الميّت، وجبال موآب، وباب دمشق، والشّجرة التّي استنبتها جودفري ملك اورشليم هناك. حري بالمرء أن يشعر بالسّعادة، حين يتحدث عن هذه الأماكن. ولن أستطيع ذكر أي شيء عن العمود الحجريّ البارز، فوق يهوشافاط، من جدار الهيكل كالمدفع، إلاّ إن المسلمين يعتقدون، أنّ محمّدا سيعتليه، حين يعود ليحكم العالم. ولن يحكمه للأسف من مقرّه في مكّة، دون أن يجور على أرضنا المقدّسة. تقع بجوار العمود البوابة الذهبية، الواقعة في جدار الهيكل، وهذه البوابة كانت جزءا من أحد القبور في زمن الهيكل، ولا تزال على حالها حتّى الآن. قام حاخام اليهود الأكبر من قديم، بإطلاق كبش فداء في البراري، ليمحو بذلك ما ارتكبه اليهود من خطايا، على مدار اثني عشر شهرا. ولو تطلّب الأمر الآن إطلاق كبش فداء، فلن يتجاوز جثسيماني، لأنّ المشردين البؤساء هنا سيزدردونه(*)، بكلّ ما يحمل من آثام وخطايا.

لن يثنيهم عن ذلك شيء، فشرائح لحم الضّأن والإثم، كافيان تماما لسدّ أودهم. يطالع المسلمون البوّابة بعيني الحقد والقلق، فقد ورد في الرواية القديمة أنّ الإسلام سيسقط بسقوطها، فتسقط الأمبراطورية العثمانيّة من ثمّ. لم أحزن قطّ وأنا أرى البوّابة القديمة، قد بدأت في التّداعي.

عدنا إلى الديار مجدّدا، منهكي القوى، أوشكت الشمس على سلقنا.

شعر الجميع رغم ذلك براحة بال كبيرة، فقد علّمتنا تجاربنا في أوروبا، لقد علّمتنا تجاربنا المشتركة، أن هذا التعب سيزول قريبا وتزول معه سخونة الجوّ والظمأ وثرثرة الدليل المملّة، ومضايقات المتسوّلين، لتبقى بعد ذلك الذّكريات السّارة في أورشليم، ذكريات سنستدعيها دوما، باهتمام يزداد بتوارد السنين، ذكريات تتفق لها سمات الجمال، ويزول عنها، آخر ما تراكم في عقولنا من مكدّرات، فلا يجد له طريقا للعودة. ليست أيّام الصّبا بأسعد

(*) هذا أحد التعبيرات المفضّلة لدي الحجّاج. (مارك توين)

من أزمنة ما بعد الموت، لكنّنا نطالعها بحسرة، لأننا قد نسينا بالفعل عقابنا في المدرسة، وما انتابنا من حزن بسبب فقدنا اللّعب أو تحطم طائراتنا الورقية، ولأننا نسينا كل ما في عهد التطويب من أحزان وحرمان، ولا نذكر منها غير السّطو على بساتين الفاكهة، ومشاهدة المبارزين بالسّيوف الخشبيّة، وعطلات صيد السّمك. إنّنا راضون. ويمكننا الانتظار. فالجائزة قادمة. ستصير أورشليم، وتجارب اليوم ذكرى آسرة لدينا، لعام من الآن. ذكرى لا يمكن شراؤها بالمال.

الفصل الخامس والخمسون

كانت النتيجة مرضية في النهاية. لم يعد أمامنا في أورشليم ما يستحقّ المشاهدة، سوى داري «دايفز» و«لازاروس»، المذكورين في القصص الشّعبيّة، فضلا عن مقابر الملوك والقضاة، والمكان الذّي رجم عند. أحد تلامذة المسيح بالحجارة حتّى الموت، وقطعت رأس آخر، والحجرة والمائدة اللّتين شهدتا العشاء الأخير، وشجرة التين، التي أذبلت بلعنة من يسوع، وعدد من الأماكن التّي تجاور جثسيماني، ثم جبل الزّيتون، وأربعة أو خمسة عشر مكانا أثريًا في مواقع مختلفة في المدينة نفسها.

أوشكنا الآن على الانتهاء من كلّ مراحل الرّحلة. ألقت طباع البشر الآن بظلالها. وبدأ الجهد الشّاق والتّعب المضني، يحدثان بنا أثرهما الطبيعي. بدآ يسيطران على كلّ طاقات أفراد المجموعة ويثبطان هممهم. نشعر الآن بأمان تام، إزاء أيّ إحساس بالفشل في أيّ من مراحل الحجّ. وشعر الجميع بأنّ البدء بالصّيام من الآن وقبل موعده سينزلهم منزلة رفيعة. غشيهم بعض خمول. وصاروا يتأخرون عن مائدة الإفطار، ويطيلون الجلوس إلى مائدة الغداء. جاءنا من دروب قصيرة ثلاثون أو أربعون حاجًا من السفينة، ما أدّى إلى الانغماس في تبادل القيل والقال. أظهروا ميلا في أوقات الظّهيرة الحارّة، إلى الرّقاد في الفندق على الدّواوين الباردة، والتّدخين، والتحدّث بشأن تجاربهم السعيدة وقد مضى عليها شهر أو شهران أو نحو ذلك، حتّى إنّ قيامهم هكذا مبكرا باستيحاء عدد من الرّحلات، ما كان يبعث أحيانا على الضيق، والسخط أحيانا أخرى، ولا يحمد في الغالب عقباه، كان يبدأ بتجاوز الحد الأدني من الذكريات المملة تصبح علامات بارزة في ذاكرة الفرد. اختنقت صافرة الضّباب، وسط مليون من أصوات هزيلة، لا تسمع على بعد بناية في المدينة. بل ليسمعها البحّار في البحر اللّجّي، وهو ما لا تقدر على بلوغه آلاف من الأصوات الهزيلة. حين يكون المرء في روما، فكلّ القباب عنده سواء، لكنّه حين يقطع مسافة اثني عشر ميلا، تتلاشى المدينة عن ناظريه، وتبقى كنيسة القدّيس بطرس، بارزة فوق السّهل المنبسط. مثل

بالون منتفخ ثابت لا يتحرك. وحين يتجوّل المرء في أوروبا، فالأحداث اليوميّة كلها لديه سواء. وإذا رحل عنها شهرين، وأصبح منها على مسافة آلاف الأميال، يبرز في ذهنه ما يستحقّ الذكر من أحداث، ويتلاشى منه ما لا يستحقّ ذلك لانعدام أهميّته»..

كان الميل إلى الثّرثرة والتّدخين واللهو تصرفات غير محمودة. كان لا بدّ من الحدّ من التجاوزات وإلاّ تفشّى الفساد. إنّ ممارسة اللّهو مطلوبة في ذاتها، وإلاّ حدث تثبيط للهمم. لاحت في الذّاكرة كلّ من «يرشو» و«الأردنّ»، وتطلّب الأمر ترك بقية أورشليم، دون زيارة، لفترة قصيرة، ذلك بعد أن تحقق الهدف المرجوّ من الرحلة حتّى الآن. نشطت في العروق دماء جديدة، كان كلّ من ركوب الجياد، والسفر فوق السّهول، والنّوم على فرش في الخلاء، كان كلّه خيالا قد شغل للحظة بهذه الأشياء. وكان يحزّ في النّفس، رؤية هولاء المتحضّرين من الرّجال، يبدون استعدادا طيّبا للعيش في الخيام، والانطلاق في البوادي. إنّ غريزة البدو لا تختلف كثيرا عن سواهم من البشر. فقد نشأت هذه الفطرة منذ خلق آدم، وانتقلت إلى الأجيال التالية عبر الآباء الأولين، ولم تتوصل الحضارة بعد جهود حثيثة عبر ثلاثين قرنا من الزّمان، إلى وسيلة لمحوها من داخلنا بالكلّية. إنّ في غريزة البدويّ لسحرا، لو جربه إنسان، ليعاود تّجربته مجدّدا. لا قبل لهنديّ أحمر بتلقين غريزة البدوي البتّة.

بعد أن تمت الموافقة على رحلة الأردن، أبلغ الترجمان الجميع بذلك.

وقفت القافلة في التّاسعة صباحا أمام باب الفندق، بعد تناول الإفطار. حل اضطراب بالمكان، وانتقلت شائعات، تشي بقيام حرب، في كلّ الأنحاء. ذكر أنّ مسلّحين من البدو الخارجين على القانون، قد خرجوا في وادي الأردنّ، وفي البوادي المتاخمة للبحر الميّت لإبادة الوافدين. اشتبكوا مع فرقة من سلاح الفرسان التّركيّ في معركة، وانتصروا عليهم، وقتلوا منها بعض الأفراد. احتجزوا أهالي إحدى القرى، وأغلقوا منطقة عسكريّة تركيّة، كانت تتخذ حصنا قديما مقرّا لها، قريبا من «يرشو»، وفرضوا عليهم حصارا، وزحفوا نحو أحد المخيّمات التّابعة لمرافقينا في الرّحلة، يقع بالقرب من الأردنّ. ونفذ الحجّاج بأرواحهم، بالفرار خلسة، واللّجوء إلى أورشليم، في جنح الظّلام. أطلقت النّار على أخرين من المجموعات التّابعة لنا، من كمين، كما شنّ هجوم عليهم في وضح النّهار، وتبادل الطّرفان إطلاق النّار، ولم تقع مذبحة لحسن الحظّ. تحدّثنا مع حاجّ، ممّن أطلقوا إحدى القذائف، وعلمنا على لسانه، أنّ ما أنقذهم من الهلاك المحقّق، وسط هذا الخطر الدّاهم.

ليس سوى رباطة جأش الحجّاج، وغلبة أعدادهم، وقوّة عتادهم. وصلت أخبار بأن القنصل العامّ، أمر بضرورة عدم توجّه المزيد من الحجّاج إلى الأردن، حتّى ينتهي الوضع القائم.

مع انتفاء الرغبة لديه، في ذهاب مزيد من الحجّاج إلى، دون مرافقة من حارس مسّلح همام واحد على الأقل، وهنا يكمن أصل المشكلة. ولكن ماذا نفعل والجياد تقف بباب الفندق، وكل شخص مدرك سبب بقائهم هناك؟ وماذا أنت فاعل الآن. أقر بأنّك خائف، وتنسحب مهيض الجناح؟ يصعب ذلك. ليس هذا من الشهامة في شيء، بخاصّة أنّ هناك نسوة كثيرات. يمكنك أن تسلك مسلكنا قائلا: إنّك لست بخائف من مليون بدويّ، وإنك قررت المضيّ إلى هناك، ووقررت بتؤدة بينك وبين نفسك، أن تحتل موقعا غير بارز في مؤخرّة الموكب.

أظنّ أنّه كان حري بنا جميعا، عقد العزم على التزام الخطّ التّاكتيكي، لأنّه قد تبيّن بأننا بهذا الوضع لن نبلغ «يرشو»أبدا. اشتهر جوادي بالتلكؤ، لكنّي لا يمكنني بشكل ما، البقاء به في المؤخّرة، كي أنجو بنفسي. كان يسعي دوما نحو المقدّمة، فأشعر في لحظات كهذه بشيء من الخوف، وأنحني لأثبّت السّرج في موضعه، ولا أفلح في ذلك. كان آخرون يكثرون أيضا من تثبيت سروجهم، ويفشلون بدورهم. لم أمرّ من قبل بمثل هذه المشكلة مع السّروج. كانت تلك هي المرّة الأولى التّي يقع فيها أيّ منهم في مثل حالة الفوضى هذه خلال ثلاثة أسابيع، ووصلوا في النّهاية إلى إحساس بالفشل. حاولت السّير على قدميّ على سبيل التّجربة، حيث جرّبت ذلك كثيرا في أورشليم، في أثناء البحث عن الأماكن المقدّسة، لكن هذه التّجربة صادفها الفشل أيضا. عانت المجموعة كلّها، الدّخول في تجارب، فلم تمرّ خمس عشرة دقيقة إلاّ وكان الجميع سائرين على أقدامهم، ولي في ذلك أيضا فضل السّبق، وساد شعور بالإحباط.

حدث ذلك، بعد أن تجاوزنا «بيت هاني»، توقّفنا عند قرية بيت هاني، التّي تبعد عن أورشليم قدر الساعة. شاهدنا قبر «لازاروس»، وداره القديمة الواقعة وسط القرية. يبدو أنّ «لازاروس» هذا كان مالكا للعقارات. تسبّبت الرّوايات التّي كانت تتناول «لازاروس» في مدارس الأحد، في ظلمه ظلما بيّنا، فقد تركت لدينا انطباعا آنذاك، بأنّه كان فقيرا معدما. عبثت تلك الروايات بعقولنا باعتبار أنّه لم يكن هناك ما يميّزه، سوى تمسكه بالفضيلة وليست الفضيلة طبعا كالمال. كانت داره مكوّنة من ثلاثة طوابق، مقامة من الحجر لكنّ تراكم النّفايات بمرور السّنين، أخفت معالم الدّار كلها، عدا الطّابق العلويّ. أعطونا شموعا.

هبطنا بها إلى غرف معتمة، أشبه بالزّنزانات، في هذه الغرف جلس يسوع يتناول طعامه مع مارتا ومريم المجدليّة، وتبادل معهما الحديث، بشأن أخيهما، مررنا بتلك الغرف المظلمة القديمة سريعا، ولم تلق من اهتمامنا الكثير.

حظينا بلمحة من قمّة الجبل، من البحر الميّت، راقدا كحجاب شفّاف أزرق على سهل الأردن، ونحن في طريقنا الآن إلى شعبة جبليّة ضيّقة، تقبع وسط جدب وعزلة وحرارة شديدة، حيث لا أثر فيها لكائن، عدا حيوان السّمندل وهذا مجرد احتمال. بعثت هذه الشعبة فينا إحساسا بانقباض ووحشة ونفور. إنّها القفر الذّي كان يوحنا ينشر فيه تعاليمه، ويغطّي جسده بالكامل بوبر الإبل، لكنه لم يتمكن جلب الجراد وعسل النّحل البريّ معه إلى هذا المكان. تمهّلنا في السّير على الطّريق، في قلب هذه الوحشة، وتراجع الجميع إلى المؤخّرة، يحرسنا اثنان من الوجهاء من شباب شيوخ العرب، وقد تزوّدا بحمل شحنة سفينة من السّيوف، والبنادق والمسدّسات، والخناجر وكانا يتسكّعان في المقدّمة.

« بدو ».

ارعوي الجميع، وتواروا في ثيابهم، كما تتوارى سلحفاة الطّين. كان الدافع الأوّل لديّ، هو الزحف إلى المقدّمة والقضاء على البدو. أعقبه دافع بالتّقهقر إلى الخلف، الرصد أيّ قادم من هذا الاتّجاه، وراهنت على تبنّي الدّافع الثّاني، وحذا الباقون حذوي. لو شن البدو هجوما من اتّجاه البوصلة هذا، فإنهم سيدفعون ثمنا باهظا لحماقتهم. وستحدث مشاهد مليئة بالفوضى وإراقة الدّماء لا يستطيع قلم وصفها، وكان لنا تعليق فيما بعد على هذه الخطّة. تفهّمت تماما فكلّ منا كان يعرف ما سوف يفعله تلقائيا، وبوحشيّة كتلك التّي تجمع بين جدّة وابتكار غير مسبوق، يعزّ على المرء إدراكهما. ذكر رجل أنّه تفتّق ذهنه بعد تروّ، بألاّ يبرح مكانه إن دعت الضرورة، وأنّه لن يفرّط في بوصة واحدة، وسيبقي متربّصا، بصبر لا يلين، حتّى يتمكّن من حصر حبال القيد فوق سترة أول بدويّ أسير، ويعيد حصرها، ثمّ يتركه في النهاية لينال جزائه. أمّا الآخر فقرر أن يبقي راسخا في مكانه حتّى تصير رمية الرّمح الأولي، على مسافة بوصة من صدره فيروغ منها، ثم يقبض عليها بيده. لست بحاجة إلى ذكر الطريق التي سيسلكها مع ذلك البدويّ حامل الرمح. تتجمّد الدماء في عروقي حين أفكّر في أمور كهذه. نوي آخر سلخ فروة رأس من يقع في يده من البدو، والعودة بغنم أحد أبناء الصحراء حليقي الرءوس، إلى وطنه أحياء، على سبيل التّذكار. لكنّ حاجا متزمتا،

طقّ الشّرر من عينيه، وران عليه صمت. وومضت مقلتاه بضوء رهيب. لكنّ شفتيه ظلّتا على حالهما مطبقتان. ازداد ضجره، بعد أنْ وجّه إليه سؤال.

بتعلق بما سيفعل لو وقع في قبضته بدويّ؟ أيرديه قتيلا بالرّصاص؟ افترّ فاه عن ابتسامة تشي بازدراء مقيت، وهزّ رأسه. أيقدم على طعنه بمدية ؟. هزّة تالية من رأسه. أيقطّعه إربا، ثم يسلخ جلده؟ أوه، يا للهول، ماذا هو فاعل به؟

«التهمه».

لم تزبد شفتاه بغير ما ينفّر من كلم. أيّ قواعد لّغوية ينطق بها سفّاح كهذا؟ أحسست بالرّضا، لأنّني قد استثنيت من مواقف دمويّة كتلك، والحاصل أن أحدا من البدو لم يقدم على مهاجمة مجموعتنا الرّهيبة من المؤخرة، ولم يحدث أن شنّ أحد منهم هجوما من المقدمة. لم يكن الوافدون الجدد سوي مزيد من العرب الحفاة، الأشبه الجيف، والمسربلين بالقمصان. لقد أرسلوا لتقدّم رَكبنا، عن بعد، والتّلويح ببنادقهم العتيقة، والصّياح والزّعيق، وسلوك مسلك المجاذيب، وهذا في ذاته إرهاب لكلّ غزاة البدو، ممّن يقطعون علينا الطّريق. كيف وصل العار إلى الحدّ الّذي يحعل مسيّحييّن مسلّحين، يجبرون على السّفر في حماية حارس حشرة كهذا، يكون لنا وقاء من الأوغاد المتسللين في البوادي بهدف السلب، أولئك المطاردون سفاكو الدماء، الذين يتظاهرون دوما بالطّيش وهم لا يجرأون على ارتكابه. يجب أيضا أن أذكر في هذا السّياق، أنّنا لم نر بدوا طوال الرّحلة كلّها، ولم تزد حاجتنا إلى حارس عربيّ، عن طلبنا لزوج من أحذية الرّحلات الجلديّة، أو زوج قفّازات بيضاء من جلد الماعز. أما بشأن البدو، الّذين هاجموا بشراسة مجموعات الحجّاج الأخرى، فقد أسند إليهم القيام بهذه المهمة من قبل حرّاس هذه المجموعات، وقد أبحروا من أورشليم، للقيام بمهمّة ظرفيّة مسندة لهم كبدو. التقى الطّرفان أمام عيون الحجّاج، بعد أن وضعت المعركة أوزارها، وتناولوا معا طعام الغداء ووزّعوا فيما بينهم ما إبتزوه من بقشيش، لحظة الخطر المحدق، ثمّ رافقوا الرّكب بأكمله، عائدين إلى دورهم في المدينة. يقال انّ ما يقضّ مضجع حارس عربي، ما يحدثه البدو والشّيوخ معا من شجار حول الدّخل المشترك. ولا شكّ في صحة جانب كبير من هذا الطرح.

زرنا عين إليشع الحلوة، (ما زالت تحتفظ بعذوبتها حتّى الآن)، وهي العين التّي مكث عندها لبعض الوقت ثمّ ساعدته الغربان على الهرب.

لا تعد يرشو من الآثار التّي تستحقّ المشاهدة. حقق يوشع نصرا مؤزرا في السبع مرات التي زحف لمبادرتها بالهجوم، منذ نحو ثلاثة آلاف عام، ودمّرها بمزماره، إلى أن تركها خرابا يبابا. أفشلت اللّعنة التّي حلّت بها محاولة إعادة بنائها مجددا..

قام أحد الملوك، بمحاولة لإبطال اللّعنة مع سوء تقدير منه للعواقب. فأصيب بمرض عضال جرّاء اجترائه. ستظلّ «يرشو» خلوا من الآهلين بها، رغم أنّ موقعها من أفضل ما شهدناه من مواقع في فلسطين تصلح لإقامة مدينة.

دفعونا إلى مغادرة الفراش في الثّانية صباحا، وهو نموذج آخر لطيش لا مبرّر له، ومحاولة غبيّة من ترجماننا، لبزّ أحد منافسيه. كانت المسافة إلى الأردن من «يرشو» لا تزيد على ساعتين. ورغم ذلك قمنا بارتداء ملابسنا، وصرنا على الطّريق، ولم يكلّف أيّهم خاطره، بالنّظر إلى ساعته لمعرفة الوقت، وهكذا سرنا متثاقلي الخطي، في جوّ اللّيل القارس، نهفو إلى نار التّدفئة، ودفء الأسرّة، وما عداهما من سبل للرّاحة.

لم نتبادل معا أيّ حوار، فالنّاس لا يتحاورون، وهم يغالبون النّعاس والبرد والتّعب. أطرقنا برءوسنا فوق السّروج، وانتبهنا من غفوتنا، خشية المباغتة باكتشاف الرّكب وقد غاب في الظلام الحالك. دبّت الحيوية فينا واليقظة من جديد، حتّى بدت تخوم المدينة المظلمة تظهر في الأفق مجدّدا. كان يصدر أمر بين الفينة والفينة، بصوت خفيض، آت من آخر الصّف «انتظموا معا في الصفّ، فالبدو يحدقون بنا من كلّ اتّجاه»' يا لها من رعدة مزلزلة، دبّت في أوصال المرء.

وصلنا إلى النّهر الشهير، قبل الرّابعة، تمكّنا في حلكة اللّيل من الخوض فيه، دون أن نره، انتابت البعض حالة مزاجية سيّئة. ترقّبنا طلوع النّهار، لكنه لم يطلع، غادرنا المكان في الظّلام وافترشنا الأرض، وغفونا فوقها لمدّة ساعة، وسط الآجام، وأصبنا بنزلات برد. كانت إغفاءة مكلفة، لكنّها رغم ذلك كانت لنا استثمارا جيّدا، لأنّها أزالت من وعينا اللّحظات المريرة، وجعلتنا بصورة ما في حالة مزاجية أفضل، بمجرّد أن وقعت أعيننا على النّهر المقدّس.

خلع كل حاج مع ظهور خيط الفجر الأوّل، ثيابه، وخاض في تيّار الماء الحالك، منشدا:

« أقف على ضفاف الأردن العاصفة،

وألقي بنظرة حنين شجيّة

إلى أرض كنعان، والبلد السعيد،

حيث تقع ممتلكاتي».

لكنّ شدو الحجّاج لم يطل، فالماء كان مثلّجا، توقّف الحجاج عن الإنشاد، وأسرعوا بالخروج من الماء.

وقفوا على الضّفة، مقشعرى البدن، شابهم همّ وكدر، وكانوا بحقّ في حال تستحقّ الرّثاء، إذ ضاع حلم آخر وأمل طال ما تعلقوا بهما، بعد أن ظلّوا يمنّون أنفسهم بعبور الأردن، كما عبره الإسرائيليّون حين دخلوا أرض كنعان، بعد رحلتهم الطّويلة في الصّحراء، ويمنّون أنفسهم بعبور موضع الحجارة الاثني عشر، في ذكري ذلك الحدث الكبير، ولو فعلوا ذلك، لتخيلوا بدورهم صورة تقدّم الرّكب الطّويل من الحجّاج، وسط المياه المنشقّة، حاملين تابوت العهد المقدّس، ومهلّلين «المجد لله»، ومنشدين أناشيد الشّكر والحمد، كان كلّ يمنّي نفسه بأن يكون أوّل العابرين، وها هم بعد أن أوشكوا على تحقيق الأمل المنشود، قد وجدوا تيارا جارفا من المياه الثّلجيّة.

قدّم جاك عندئذ خدمة جليلة لهم، مضى بطيش لافت، دفعه طبعا غرور الشّباب، وشقّ طريقه عبر الأردنّ، فحلّت البهجة بالجميع، خاض الكلّ خلفه مياه النّهر، ووصلوا إلى ضفته الأخرى وتوقّفوا هناك، لم تكن المياه في أيّ موضع في النّهر، تصل إلى الصّدر، ولو زاد منسوبها عن ذلك لما وسعنا إنجاز هذا العمل البطولي بسبب شدّة التيّار، واحتمال انجرافنا معه، فيصيبنا إرهاق شديد، ونتعرض للغرق قبل بلوغنا موضعا يمكننا اللجوء إليه، والصّعود إلى البرّ، حقّقنا ما كنّا نصبو إليه، وجلس الجمع القانط، مترقبا من جديد طلوع شمس النّهار، فالكلّ يتطلّع إلى تأمّل مياه النّهر، فضلا عن إحساسه بها، لكنّ لحظات السّلوى رافقها إحساس بشدّة البرودة، ملأنا بعض علب الصّفيح بمياه النّهر المقدّس، واقتطعنا بعض قصبات من فوق ضفافه، ثمّ ركبنا الجياد، وبارحنا المكان مكرهين لنقي

أنفسنا من التعرّض للتجمّد حتّى الموت. وهكذا رأينا الأردن غارقا في الظّلمة. ألقت آجام تحف بالضّفاف بظلالها على مياهه المضطربة (تصفها الترتيلة بأنّها. عاصفة»، وهو التّعبير الذّي يتفق وسعة الخيال) ولم نتمكّن من رصد سعة مجرى النّهر بأعيننا. ورغم ذلك عرفنا من تجربة خوضنا النّهر، أنّ شوارع كثيرة في أمريكا، تساوي ضعف سعة مجرى الأردن.

طلع الصّبح علينا، بمجرّد تأهّبنا للرّحيل، وبلغنا في ساعة أو اثنتين البحر الميّت. لم يظهر أمامنا في كلّ هذه المساحات المترامية من الصّحاري السّافعة التي تحيط به، سوى العشب، وتفّاح البحر الميّت الذّي أطنب الشّعراء كثيرا في حسنه، والذّي لو شججته فلن تجد سوى فتات كالحة من غبرة أو رماد..

وما وجدناه كان غير متجانس تفّاح مرّ الطّعم، بل كان مرّ الطعم عند تناوله. وربما لم يكن يحمل أتربة لعدم نضجه. ظهر وميض التّلال الجدباء والفيافي، بقوة في ضوء الشّمس، فوق المناطق المحيطة بالبحر الميّت، حيث لا يعمرها كائن، أو يظهر فيما يحيط بها ما يسر الناظر إليها، بل قفارا موحشة تبعث في النفس الكآبة، ويرين عليها صمت مقيت، واكفهرار، وإحباط يدفع إلى استحضار الجنازات والموت في الذاكرة.

يتصف البحر الميّت بصغر حجمه، وصفاء مياهه، وعمقه المفروش بالحصباء، وضحالة في عمقه، حتّى مسافة من الشّاطئ. تغطّي ضفافه كميّات من القار. ويفوح المكان برائحة كريهة. تعلّمنا من مطالعاتنا في الكتب، أنّ أول غطسة في البحر الميت، يتبعها شعوربالألم، حيث تشعر بجسدك، وكأنّه وخز بغتة بملايين الإبر المحمّاة. فتظهر على البشرة قروح تبدأ من الرأس حتى القدم، وتتعرّض لوطأة تلك الآلام أيّاما عدّة. جاءت تلك الأفكار بشعور بخيبة أمل. قفزت مجموعتنا المكوّنة من ثمانية أشخاص، إلى الماء في آن، تبعتنا مجموعة أخرى، ولم تصدر عن أحدنّا صرخة ألم واحدة. لم يشك أحد من علة، سوى إحساس بوخز بسيط في مواضع كانت البشرة تعاني فيها من قبل حكّا في الجلد، ولم يستمر الوخز سوى فترة قصيرة. شعرت بألم في وجهي استمرّ لساعتين، لتعرّضي لحرارة الشّمس، بعد سباحة في البحر مدّة طويلة، حتّى التصق الملح ببشرتي.

أبدا، لم تقرحنا مياه البحر بقروح، أو تغطّت أجسادنا برواسب رخوة. تلقانا برائحة كريهة، ولم تكن موحلة أيضا ولا يسعني الكشف عن أنّنا لم نشتمّ في حقيقة الأمر أسوأ

مما أزكم دوما أنوفنا في كل ربوع فلسطين. فقد كانت رائحة مميزة فحسب، لم تكن كريهة إلى هذا الحدّ، لأنّه كان في جعبتنا من صنوف الرّوائح الكثير. لم نشتمّ رائحة. ونحن في الأردنّ، يرقى إلى ذلك الأريج الذّي أزكم أنوفنا في أورشليم، ولم نشتمّ أرىجا في أورشليم، كذلك الذّي أزكم أنوفنا في النّاصرة، أو طبريّة، أو فيليبي، أو في أيّ من تلك الأماكن الأثرية الواقعة في الجليل. فنحن دوما نستبدل السيء بالأسوأ، وها نحن نغتسل الآن.

كان حمّاما مسليًا. لم نتمكّن من الغوص في الماء. يمكن للشخص التمدد بطوله الكلّي على ظهره، وذراعيه فوق صدره، وجسده كلّه على خط. يمتّد من جانب الفكّ إلى ما بعد منتصف خاصرته، ومنتصف ساقه، وسيبقى خارج المياه، عبر عظمة الكاحل. ويمكنه رفع رأسه تماما لو أراد. لا يمكن الاحتفاظ بهذا الوضع طويلا. حيث يختلّ وزنك وتنقلب وجهك إلى أسفل وظهرك إلى أعلى. يمكنك الاضطجاع كليّة على ظهرك، ورأسك خارج المياه، وساقاك إلى أعلى وركبتيك إلى أسفل، وتحتفظ باتزانك بيديك. يمكنك الجلوس بمدّ ركبتيك إلى مستوى ذقنك، وتضمهما بذراعيك، ولكن عليك أن تدور بجسدك في الحال. لأنّك ستفقد التوازن على الفور، بسبب ثقل رأسك. يمكنك القيام بجسدك، في مياه تغطّي رأسك، ولن يصل الماء في المسافة من منتصف صدرك حتّى أعلى رأسك. لكنّك لن تتمكّن من الاحتفاظ بهذا الوضع. لأنّ الماء سرعان سيطفو بقدميك حتى السطح. لن تستطيع العوم على ظهرك وتحرز أيّ تقدمٍ في الحركة لأن قدمك مثبتّة بعيدا فوق سطح الماء. ولا يدفعك إلى أعلى سوى كاحلاك. لو رغبت في العوم، على وجهك، فجدّف الماء، تجديف قارب ذي عجل دوّار. ولن تنقلب لثقل رأسك. يفشل الحصان في العوم أو الوقوف في البحر الميّت لثقل جزئه العلويّ، حيث ينقلب في الحال على أحد جانبيه. تحمم بعضنا في الماء، لأكثر من ساعة، ثم خرجوا من الماء، وقد تكلّست أجسادهم بالملح، حتّى التمعت شأنها في شأن ندف الجليد. قمنا بكشط الملح من أجسادنا بمنشفة خشنة، وركبنا الجياد، تؤرجّنا رائحة من صنف شنهير مستحدث، لم تكن مع ذلك، أكثر فجاجة من تلك التّي ظللنا نستمتع بأريجها الفوّاح لعدّة أسابيع. كان في هذه الرائحة من الجدّة والفجاجة ما جعلنا نفتتن بها. تومض بلورات الملح على شاطئ البحر، فتبدو كطبقة براقة من الجليد، في الأماكن التي تغطّت الأرض بها.

كنت أحسب في صباي، أن نهر الأردنّ يبلغ من الطّول أربعة آلاف ميل، ومن العرض خمسة وثلاثين ميلا. لم يكن طوله في الواقع يزيد على تسعين ميلا. وبجعل المر جاهلا

لنصف الوقت اتجاه الضّفة التي يقف عليها بسبب تعرّج النهر الشّديد. إنّك حين تقطع مسافة تسعين ميلا في البحر، فكأنك قطعت خمسين فوق اليابسة. لا تزيد سعة البحر الميّت على سعة برودواي في نيويورك. ها هو ذا بحر الجليل، والبحر الميّت، لا يزيد أيهما في الطول على عشرين ميلا، وعرضه عن ثلاثة عشر.

ظننت أيضا، في أثناء الدراسة في مدارس الأحد، أنّ قطر أحدهما يبلغ ستين ميلا.

يخلّ السّفر والتجربة، باللّوحات العظيمة، ويستلبا منا أكثر ما أعجبنا به في صبانا من روايات دينية قديمة. لا بأس إذن، ولمضيا حيث شاءا. رأيت مملكة سليمان قد تضاءلت، للتعادل في الحجم ولاية بنسيلفانيا، وأظن أنه يمكنني الزعم بأنّ البحار والنّهر قد أخذا أيضا في التّضاءل في عينيّ. في أثناء السير تمعنّا ما يحيط بنا، ولم نعثر على أثر لحبّة البلّور المشرشرة أو البلورة الخاصّة بزوجة لوط. وسبّب ذلك خيبة أمل لنا. طال ما عرفنا قصّتها الحزينة لسنوات عدّة، وقد تركت فينا هذه القصّة أثرا كبيرا لما توحي به من محن إنسانية. لكنّها الآن مضضت إلى عالم آخر، ولم تعد باقية في أذهاننا بالصّورة نفسها التي كنّا نتخيلها، وهي تلوح في الصّحراء، لتذكّر السّائح بما حاق بالمدن من دمار.

يصعب وصف الرحلة المروّعة التّي بدأناها بعد الظّهيرة، في الطريق من البحر الميّت إلى «مارس سابا»، فمجرّد التّفكير فيها الآن يشعرني بخيبة أمل. ضربتنا الشّمس حتّى أسالت دموعنا مرّة أو اثنتين، احتبست فيها أنفاسنا، لعبورنا الأودية الضيّقة المنحدرة، والتّي لا شجر فيها ولا نبات، وكأنّنا نصطلي بنار مستوقد. ظننت أن الشّمس قد ألقت علينا بحممها، حتّى استحال جلوس أحد في وضع ثابت تحتها، وتوارى منها الجميع، بالانحناء فوق السّروج. كان يوحنا يبشّر بالدين الجديد في هذا القفر، وتطلّب ذلك جهدا مضنيا. كم بدت أبراج وأسوار «كفر سابا» جميلة في أعيننا من أول نظرة.

توقّفنا اللّيل كلّه عند هذا الدير الكبير، ضيوفا على الرّهبان الكرام. تعدّ «مارس سابا» الواقعة فوق صخرة عظيمة، مهجعا للبشر، مرتفعة أمام جدار جبليّ عمودي، تعد عالما من البني الضّخمة، ترتفع مصطبة تلو الأخرى، في تراكب علويّ، أشبه بأعمدة متراصّة، تستمرّ في التدرج والانسحاب إلى الخلف، بالصورة التي يراها المرء في اللّوحات التّي تصوّر عيد بلشازار، وقصور الفراعين القديمة. ليس فيما يحيط بالمكان مأوى سواه يلجأ إليه البشر.

أنشأت «كفر سابا»، منذ أزمنة قديمة، على يد أحد النساك، الذى كان يعيش، في الماضي في كهف في الجبل تحيط به الآن جدران الدّير ،الذّي تفضّل الرّهبان بالسّماح بزيارته. إنّ وجبة هذا النّاسك الذّي أسرف في إيلام جسده، مكونة من الخبز والماء. لانسحابه نهائيًا من أيّة له علاقة بالمجتمع، ومن زخرف الحياة الدنيا. وقد أحدث دأبه الدّائم على الصّلاة وتأمّله الديني عن طريق العقل، في محاكاة كثير من تلامذة المسيح له. نقرت في الجرف المواجه للدّير، جحور في الصّخر، خصّصت لإقامتهم.

جميع المقيمين في كفر سابا، وعددهم سبعون فردا، كانوا من النّسّاك الزّاهدين. يلبسون الخشن من الثّياب، أو القبّعات الدميمة الشبيهة بمداخن المواقد، الخالية من الحواف. فضلا عن سيرهم حفاة الأقدام. لا يتناولون من الطّعام إلاّ ما يسد رمقهم من الخبز والملح، ولا يشربون غير الماء. يستحيل عليهم تخطّي أسوار الدّير، أو النظر إلى امراة، أو السماح لها بدخول كفر سابا، بأيّ تعلّة أو سبب.

عزل بعض أولئك أنفسهم عن الدّنيا في هذا القفر على مدار ثلاثين عاما. لم تصل إلى أسماعهم، طيلة هذه المدّة الرهيبة، ضحكة طفل، أو صوت امرأة يسعد النّفس، ولم يروا دمعة بشر أو ابتسامة، وما عرفوا لهم أفراحا أو أتراحا قطّ. خلت قلوبهم من ذكريات الماضي، وعقولهم من أحلام بالمستقبل. نأوا بأنفسهم عن كلّ ذي قيمة أو جمال أو وجدان، وصدّ كلّ ما ينعم به البشر من صور، وكلّ ما يشنّف آذان البشر من ألحان. فأوصدوا بوّاباتهم الضّخمة، وسدّوا أسوارهم المنيعة إلى الأبد. تركوا كلّ نعمة أحلّت للنّاس، واستبقوا مظهرا قوامه الكذب والسّخف. لا تعرف شفاههم القبل، أو الشّدو بالغناء، ولا تعرف قلوبهم حبا أو كراهية، ولا تجيش صدورهم بوجدان. «إنّ لي وطنّ وراية».

أنّهم أولئك السّائرون أمواتا. سجّلت هنا أفكاري الأولية هذه، لتلقائيتها في هذا الطّرح، ليس لصوابها، أو لأنّ من الأصوب تسجيلها. من اليسير على الكاتب القول: «إنّني فكّرت على هذا النّحو أو ذاك، حين وقعت عيني على هذا المشهد أو ذاك» والواقع أن تفكيرهم في هذه الأشياء الرائعة كان لاحقا. لا يرجح أن يكون انطباع المرء الأوّلي عن الأشياء بالغ الدّقة، رغم أنه ليس جرما أن يعمل المرء فكره فيما يشاهده أو يسجله كتابة ثم يخضعه للتعديل فيما بعد. هؤلاء النسّاك أموات. بكلّ المقاييس في أمور عدّة وليسوا في العموم، ومن غير اللائق أن أواصل مبادرتي بانتقادهم، أو أنه حريّ بي أن أكرّر عبارات نقدهم وأتمسّك

بها. حاشا وكلاّ. فقد أحسن النساك وفادتنا. إنّ في نفوسهم. ما يشي بإنسانيّتهم. فقد أدركوا أنّنا غرباء ومن طائفة البروتستانت. ولم يستغربوا ذلك. أو يظهروا من جانبهم صدودا. بل تجاوزت سماحتهم الكبيرة كلّ تلك الاعتبارات.

كان سهلا أن يروا فينا أناسا. قد مضّهم الجوع والظّمأ والنّصب. وذلك كاف لفتح أبوابهم لنا. والترحيب بنا. وألا يتصدّوا لنا باستفسارات. أو يظهروا شيئا من التّعالي لقاء ما أبدوا من كرم نحونا. ولم يلتمسوا إزاء ذلك اطراء من أيّ نوع. في أثناء إعدادهم المائدة لنا وفرش الأسرّة وجلب ماء الغسل. كان الهدوء فيهم سمتا ظاهرا. لم يلتفتوا إلى ما قلناه من أنهم يوقعون ظلما بأنفسهم. وأنّ لدينا من الرّجال من يمكننا إسناد مثل هذه الأمور إليهم. توفرت لنا الرّاحة بعد عناء. وجلسنا إلى مائدة العشاء بعد موعدها المقرر. بادرنا بالتجول بأرجاء المبنى مع النّساك. وجلسنا من ثمّ. على شرفاته الشّاهقة المكشوفة. ونفثنا التّبغ ونحن نستمتع بالهواء الرطب. وبمشهد البراري وغروب الشّمس. اختار واحد أو اثنين غرفا للنّوم. تتوفّر فيها وسائل الرّاحة والدّفء. واستدعت غريزة البداوة في الباقين. النّوم على الدّيوان الفسيح الممتّد عبر البهو الكبير. فقد بدا ذلك وكأنّه رقاد في الخلاء. بما يحمل من بهجة شديدة وجاذبية. ونلنا بذلك استراحة ملكية.

حين دعينا إلى مائدة الإفطار. شعرنا كما لو أننا نوع مختلف من البشر. فهذه الوفادة كلّها. قدّمت دون مقابل. وكان بوسعنا عن طيب خاطر تقديم مقابل لقاء ما فعلوه. حيث لم يكن هناك ضرورة لذلك. حتى لو كنا أشخاصًا معدمين أو طفيليين. فالبائس والمعترّ. يعاملان سواء بسواء في كلّ أديرة الكاثوليك في فلسطين. لطالما أكننت في نفسي كراهية. لكل ما هو كاثوليكيّ. حيث كنت أتقفّي مثالبهم. وأغضّ الطرف عما لهم من مناقب. لكنّ شيئا واحد الآن يدعوني إلى الرّغبة في ألاّ يغيب عن بالي البتّة عرفاني الكامل أنا وباقي الحجّاج بالفضل. نحو هؤلاء الرّهبان. ورهبان كلّ الأديرة في فلسطين. فأبوابهم مفتوحة دوما للجميع. ولا تنقطع حفاوتهم عن وافد. سواء تغطّي بأسمال. أو رفل في حلل. إنّ بركة الأديرة لا تقدّر بثمن لدى الفقير. ويمكن للحاج المفلس. سواء كان بروتستنتيا أو كاثوليكيًا. التجوّل بطول فلسطين وعرضها. ووسط قفارها الجدباء. ولا يفتقد بعد ذلك توفير وجبات الطّعام الكاملة له. والفرش النّظيفة. في كلّ اللّيالي. داخل هذه الأبنية. أما ميسورو الحال منهم. فغالبا ما تعرّضوا لضربات الشّمس. وحمّى المدن. فيصبح الدّير

ملاذهم الأخير. يبدو السّفر إلى فلسطين مبعثا للرّضا، إذا لم تتراجع وفادة وكرم هؤلاء، تلك الوفادة التّي لا يقدر أحد على الاضطلاع بها. سيظهر أفراد مجموعتنا، فضلا عن باقي الحجّاج استعدادا دائما، وعن طيب خاطر، لتبادل وشرب الأنخاب، من أجل أن يتحقق الرّخاء، والحياة المديدة لآباء الأدّيرة الفلسطينية.

بعد الراحة واستعادة النّشاط، انتظمنا في صفّ واحد، ومضينا نحثّ السير فوق مرتفعات يهوذا الموحشة، مارّين بسلسلة من التّلال الوعرة، وعبر ممرّات جبلية يخيّم عليها صمت أبديّ وعزلة، حتّى إنّ من التقى ناهم، فترة ما بعد الظّهيرة، من جماعات مبعثرة من الرعاة المسلّحين، ممن كانوا يسعون خلف قطعان الشّياه والماعز الجبليّة، لم يطرقوا في هذه اللّحظة المكان. لم نر من الأحياء سوى دابّتين، من الظبية المعروفة برشاقة الحركة. بدوا لنا كالصغار لكنّهما تجاوزا المسافة كقطار سريع. لم أر من الدّواب ما يفوقها سرعة، ذلك إن لم أكن قد نسيت بقر الوحش فوق مروجنا الرحبة.

وصلنا في التّاسعة أو العاشرة، سهل الرعاة، ووقفنا داخل بستان، من أشجار الزّيتون، مسوّر بجدار، حيث تابع الرّعاة قطعانهم في الليل منذ ثمانية عشر قرنا، حين أتاهم جمع من الملائكة، بأنباء تبشّر بميلاد المخلّص. تبعد بيت لحم عن يهوذا بقدر ربع الميل، وقد سطا الحجّاج على بعض قطع من السّور الحجريّ ولاذوا على عجل بالفرار.

لم يخرج سهل الرّعاة عن كونه بادية من البوادي، معبّدا بالحجارة الرخوة، وقد خلا من النّبات، ولا تنقطع عنه الشّمس اللافحة. لن يعيد إلى شجيراته وزهوره الحياة، ويردّ إليه جماله الزّائل، سوى الألحان الملائكيّة، التّي عرفها في الماضي. ولن تتحققّ معجزة كتلك، بغير قوّي السّحر. اصطحبونا داخل كنيسة الميلاد الضّخمة في بيت لحم والتّي أسسّتها القدّيسة «هيلانة»، منذ خمسة عشر قرنا من الزّمان، إلى مكان تحت الأرض، داخل تجويف كبير شقّ في الصّخر الجلمود. كان ذلك المكان شاهدا على ميلاد المسيح. ثبّت في أرض الكهف، نجم فضّي، يحمل نقوشا باللاتينية، تشير إلى ذلك الحدث. اجتلى بقبلات الحجّاج. الموقّرين. زيّن الكهف بالصّورة النّمطية المقزّزة نفسها، التّي لا تخطئها العين، في كل الأماكن المقدّسة في فلسطين. اتّضحت أكثر في هذا المكان تلك الخصومة والخلاف. شأنهما

في ذلك شأن ما بان لنا في كنيسة القبر المقدّس. استحال على الرّهبان اللاتين واليونان، الدّخول من النّفق نفسه للرّكوع عند مهد المخلّص، بل أجبروا على التراجع والعبور من ممرات أخرى. وإلاّ دبّ بينهم شجار وصراع فوق أقدس مكان على الأرض.

ليس لديّ ما أقترحه من أفكار بهذا الشأن، بخاصة في الموضع الذّي شهد أوّل أعياد الميلاد المجيد، وهي العبارة ردّدها النّاس في العالم قاطبة.

منذ ذلك الوقت، قام صديق طفولتي «سانتا كلوز» بأولى جولاته، لإسعاد ومواصلة إسعاد البيوت العامرة بالبشر. وقت الضّحى من أيّام الشّتاء القارس، جاب الكثير من المناطق النّائية دون توقّف. إنّني أمسّ بلمسة خاشعة، ذلك الموضع الحقيقي لرقاد الرّضيع يسوع. لكنّني أعتقد... كلاّ...لا داعي.

ليست تقوى على أن تفكّر في صحّة هذا المكان، بأكثر من قدرتك على أن تفعل ذلك تجاه أيّ مكان أثريّ آخر في فلسطين يدعوك إلى تمعّنه، لأنّ من يحيطوا بك من المتسوّلين والمقعدين والرّهبان لن يمكّنوك من تأمّل شيء سوى البقشيش. لحظة تحسّ أنّ الأفضل لك تأملّ ما يربطك بالمكان.

سررت بمغادرة هذا المكان. وسررت بسيرنا بين الكهوف، في المكان الذّي كان «يوزيبيوس» يدون فيه بقلمه، و«جيروم» يصوم. ووسط اثنى عشر كهفا آخر متميّزا، ثمّ أدركنا التّعب. ضمّت كنيسة الميلاد، أماكن مقدّسة أخرى شأنها شأن كنيسة القبر المقدّس، حتّى إنّها تضمّ الكهف الذّي شهد هيرودس يأمر بذبح عشرين ألف طفل، حين كان يسعى طبعا وراء قتل المخلّص الطفل.

مضينا إلى كهف اللّبن، ذلك الذّي توارت فيه مريم لفترة، قبل الرّحيل إلى مصر. كانت جدران الكهف قبل دخولها ملطّخة بالسّواد، لكنها في أثناء إرضاعها الطّفل سقطت على أرض الكهف نقطة من لبن الرّضاع، فتحوّلت حلكة الجدران إلى اللّون الأبيض النّاصع. التقطنا كثيرا من شظايا الحجارة، لأنّه يعرف في بلاد الشّرق أنّ العاقر لا تحتاج سوى أن تلمس بشفتيها هذه الحجارة ليزول عنها العقم. التقطنا المزيد منها، كي نحقّق لمعارفنا من ربّات البيوت ما يسعدهنّ. فارقنا بيت لحم، وفارقنا القوّات التّابعة لها من المتسوّلين، المحيطين بالآثار، بعد الظّهيرة، وبعد قضاء بعض الوقت عند بيت «راحيل»، حثثنا السّير

نحو أورشليم، بأسرع ما يمكن. لم يسبق لي أن سررت إلى هذه الدرجة، بالعودة مجددا إلى البيت. ولم أستمتع با[illegible]ة قدر استمتاعي بها خلال الساعات الأخيرة على قلتها.

كانت الرّحلة إلى كلّ من البحر الميّت والأردن وبيت لحم قصيرة، لكنّها مرهقة، ويستحيل أن تجد مثل هـذا الطّقس اللافح، وهذه العزلة المقبضة والإعياء في أيّ مكان من العالم.

تدعوني أكثر ما يعرف من مقوّما. الفطنة، إلى ضرورة ذكر كذبة بيضاء متداولة، والقول بأنّني كففت نفسي مكرها عن النّظر إلى أيّ مكان تاريخيّ في فلسطين. كلّ شخص يردّد هذا القول، لكنّي وبشيء من المباهاة، أشكّ، في كلّ كلمة يردّدها هؤلاء. لكنّي أقسم غير حانث، بأنّي لم أسمع أحدا من حجّاجنا الأربعين، يردّد شيئا من هذا القبيل، فهم أجدر وأوفى الوافدين إلى هذا المكان. إنّهم سيردّدونه لدي عودتهم مباشرة إلى الدّيار. ولكن ماذا يحول يمنعهم من ذلك. فهم لا يرغبون في التحزّب ضد أتباع لامارتين، وأتباع جرايمز. لا يقرّ أحد بأن يرفض أناس مغادرة أماكن، كادت الحياة فيها جحيما لا ينتهي، بسبب حشود مقلقة من المتسوّلين، والباعة الجائلين، المتشبثين بأكمام النّاس أو بذيول معاطفهم، والزاعقين في آذانهم، فضلا عن ترويعهم، باستعراض القروح البشعة، والتشوّهات. لذلك يسعد المرء بالرّحيل. سمعت ممّن لا يدركون معنى الحياء، بأنهم يسعدون بالابتعاد عن محافل السيدات، لأنّ صدورهم لانزعاجهم، من الشّراء بجانب أسراب من الشّابات الحسناوات. فاستبدل لهم أولئك الحوريات، بعجائز شمطاوات، مشرّدات، واستبدل الأجساد الرّشيقة بالأعضاء الضّامرة الملتويّة، والأيدي النّاعمة بالمشوّهة الرّهيبة المندّبة، والأصوات الشّجيّة، بتلاطم الضّجيج، الصادر عن ألسنة زلقة، ثم انظر ما يمكن أن يؤدّي إليه الاعتراض الدّائم على الرحيل في هذه الظروف مجتمعة. كلاّ، فإن من الصّواب في قولك بأنك كنت معارضا، وأن تلحق قولك بما رسخ في ذهنك من أفكار «تتدافع في عقلك للنطق بها»، لكنّ الصّواب هو القول بأنّك لم تكن مكرها، وقد اكتشفت أنه يستحيل عليك التفكير في الرحيل، مع أن ما يبعث النّفس على الرضا التام، أن يكون من غير اللائق أن تذكر ذلك.

إنّنا لا نفكر في الأماكن المقدّسة بل نفكّر في الفراش، بعد أن يكون قد زال عنّا الضّجيج، ولفح الحرارة، والاضطراب، ونعاود في المخيلة وحدها زيارة آثار الماضي الدينية الجليلة، ونستدعي مواكب الفرسان المتخيلة من الزمن الغارب.

الفصل السادس والخمسون

الآن وقد انتيهنا من زيارة كلّ ما يقع في محيط أورشليم من أماكن مقدّسة، ومررنا بها من قبل ولم نزرها، حين ارتحلنا إلى نهر الأردن، وفي الثالثة ما بعد الظهيرة، انتظمنا الموكب، وتوجهنا صوب باب دمشق المهيب، بعد أن توارت عن أعيننا إلى الأبد، أسوار أورشليم. توقّفنا فوق تلّ ناء، وألقينا النّظرة الأخيرة عليها وأرسلنا إلى المدينة المقدّسة تحيّة وداع بعد أن كانت لنا نعم المأوى.

أمضينا ساعات أربع، في هبوط التلّ دون توقّف. وتابعنا السير في ممر ضيّق خاص بسير الجياد، امتدّ عبر طبقات من الكتل الصّخريّة، وحين تمكننا من قبل من اجتياز هذا الطريق، فقد تفادينا طريق القوافل الطّويل، والمزدحم بالبغال والإبل المحمّلة بالبضائع وحين لم تنمكن هذه المرة، عانينا مشاكل الارتطام بالجدران الصّخريّة المرتفعة، وأصيبت سيقاننا بكدمات بسبب الأحمال العابرة. حدث ذلك مع جاك مرّة أو مرّتين. أمّا «دان» و«مولت»، فقد حظيا بالنّصيب الأكبر منه. سقط أحد الجياد فوق الصّخور الدّبقة، ونجت الجياد الأخرى بالكاد. ورغم ذلك كلّه فإن هذا الطّريق، يعتبر من أصلح ما رأيناه من طرق عبر فلسطين، وقد يكون أصلحها. لذلك لم نضجر به.

كنا نمر أحيانا بوهاد صغيرة، وغياض مثمرة، من التين والبرقوق. والرّمان ونحو ذلك، لكنّ الجدب والوعورة والبوار والشّعور بالانقباض، كانت كلها تطغي على المشهد، ارتفعت أبراج هنا وهناك، بأعلى المنحدرات، وبدا لنا تعذّر تسلقها. كانت هذه الصورة شأنها شأن فلسطين في القدم، أما تلك الأبراج فقد أقيمت في العهود القديمة، لتتلاءم ودواعي الأمن في مواجهة الأعداء.

عبرنا الجدول الذّي قدم لداود بالحجر الذّي قتل به جولیات. واستشرفنا السّاحة نفسها التّي شهدت المعركة الشهيرة. مررنا بأثر قوطيّ قديم، حميل الصورة، دق بلاط

أرضيته بوقع أقدام جنود الصّليبين البواسل، ثم مضينا بالجياد عبر قطاع من بلدة، قيل إن شمشون كان يوما ما يتخذها موطنا له. توقّفنا وقضينا اللّيل كلّه، برفقة الرهبان الطيّبين، في رامله، واستيقظنا في الصّباح، وقطعنا من الطّريق شوطا طويلا، ومنها إلى يافا، أو يوبا، حيث السّهل مسطح تماما، وخال من الحجارة، فضلا عن أنّ تلك كانت آخر سفرة لنا داخل الأرض المقدّسة.

انتهت هاتان الساعتين أو الثّلاث، وتمكننا والجياد المنهكة من اغتنام فرصة الراحة ونيل قسط وافر من النوم. شهد هذا السّهل، قول يشوع: «توقّفي أيّتها الشّمس فوق جبيون، وأنت أيها القمر توقف فوق أيالون». حين أشرفنا على الوصول إلى يافا، حفّز الفتيان الجياد، فانطلقت في سباق حقيقيّ، بعد أن صعب علينا المرور بتجربة كهذه، مذ تسابقنا بالحمير في جزر الآزور.

قدمنا أخيرا إلى بستان كبير، مزروع بأشجار البرتقال، يقع عند مدينة يافا الشّرقية، مررنا بأسواره، وعاودنا السيّر عبر دروب ضيّقة، ووسط جموع الأسمال المتحرّكة الغفيرة، ورأينا مشاهد أخرى. ومررنا بتجارب كنا قد ألفناها من قبل. ترجّلنا من الجياد للمرّة الأخيرة، ورأينا الباخرة راسية، في عرض البحر، متجهة نحو المرساة! علامة التعجّب هذه سببها إحساسنا بالتعجّب، بمجرد أن رأينا السّفينة. لقد انتهت رحلة الحج الطويلة، وبدا يسري فينا بصورة ما إحساس بالرضا.

(راجع للاطّلاع على وصف يافا، المعجم الجغرافي الشّامل). عاش سمعان الدّبّاغ في هذا المكان من يافا. مضينا إلى بيته فكل الحجّاج يزورون بيت سمعان الدباغ. رأى بطرس رؤيا في أثناء رقاده فوق سطح بيت سمعان الدباغ، رأى دوّاب الأرض كلّها مدلاّة في ملاءة كبيرة. أبحر يونس من يافا، حين طلب منه الرحيل، ليقدم نبوءة ضدّ نينوي، لا شكّ أنها ليست بعيدة عن البلدة التي ألقى الحوت يونس عندها، بعد أن اكتشف أنّه كان متقاعسا. كان يونس من العصاة، يتصيّد أخطاء الآخرين، ويكثر من الشّكاية والتذمّر، وربّما استحق ما رمي به من إثم. اتخذت الألواح الخشبيّة التّي استخدمت في إقامة هيكل سليمان، طريقها إلى يافا، طفوا في أرماث، ولم تزد سعة الفتحة الضيقة لمرورها إلى الشّاطئ من داخل الصّخور القريبة من سطح الماء عن بوصة، أو تزيد بدرجة تقللّ من خطورة إبحارها إلى هناك آنئذ. يشير هذا الميناء الوحيد الصالح للعمل إلى حالة الخمول التّي يحياها أهل

فلسطين. ليافا تاريخ،نابض بالحركة، لا يسعنا تناوله في أيٍّ من فصول هذا الكتاب. لعلّ القارئ حين يزور إحدى المكتبات الكبيرة، ويذكر اسمي هناك، فإنه سيزوّد بكتب تتضمن المعلومة الأوفى عن يافا.

بهذا تنتهي رحلة الحجّ. حري بنا الشعور بالرضا، لأنّنا أمتعنا أبصارنا بالمناظر الطّبيعية الخلاّبة، ولأنّنا إذا لم نفعل ذلك كنّا سنظلّ نشعر بخيبة أمل كبيرة، بخاصّة في هذا الوقت من السّنة. يعلّق صاحب كتاب «حياة في الأرض المقدّسة» على ذلك بما يلي:

«ستبدو الأرض المقدّسة على نحو كبير من الملل والرتابة. في نظر أولئك الذّين اعتادت أعينهم نضارة الزّهور، ودفق الأنهار، وتنوّع التّضاريس، لكنّ لا بدّ لنا من أن نأخذ في الاعتبار، أنّها تبدو على نحو آخر يختلف عن ذلك كثيرا في عيون الإسرائيليين، بعد مسيرة مضنية على مدار أربعين عاما في تيه الصّحراء».

سنتفق جميعا على صحّة ما ذكر آنفا دون اعتراض. فهي إذن «مملّة بالفعل، داعية إلى النّفور ». ولا يوجد سبب كاف لوصفها بالنّقيض.

يهيمن على كل الأراضي مشهدا كئيبا، وأظنّ أنّ فلسطين حري بأن تكون الأمير. التّلال جدباء، باهتة، تفتقر إلى جمال الصورة. تهدب وديانها الصحراوية المترامية، خضرة ضعيفة، ما يضفي على صورتها معاني الأسى والكآبة. يرقد البحر الميّت وبحر الجليل، وسط سهل مترام. وتل، ما لا يوحي إلى مستشرفهما بشيء من بهجة أو جاذبيّة، أو جمال ترتاح إليه العين أو صورة رقيقة، سابحة في غيم أرجواني. أو مرقّش بقتام الغيوم. يتسم كل تخم بالخشونة، وكلّ معلم بالوضوح، وما من جديد يلوح في الأفق، ولا قطاع من الأرض يحمل قدرا من فتنة. فهي أرض يباب تثير الأسى وتوجع القلب.

ورغم ذلك كلّه، فإنّه حري برقاع وقطع صغيرة منها أن تنعم بجمال موفور، عند اكتمال نضارة الربيع، بل أن تصبح أكثر جمالا إذا ما قورنت، بالقفار المترامية المحيطة بها من كلّ جانب. ستهفو نفسي كثيرا إلى رؤية البقاع المحيطة بنهر الأردن، و«شيكيم» «وإزدرايلون»، و«أيا لون»، وحدود الجليل، حين يحلّ عليها الربيع، لكن هذه الرّقاع قد تبدو مجرّد غياض كالدمى، تقع على مساحات شاسعة من يباب وقفر لا نهاية لهما، حتّى لو أتاها الرّبيع.

تقبع فلسطين وسط الخرائب ووبر الإبل، تخيم عليها رقية من لعنة، تبوّر حقولها، وتبدّد طاقتها. غمر البحر المكتئب الآن السّهل بمياهه. حيث أقام سدوم وعمورية قبابهما وحصونهما، ولا حياة لكائن في مياهه المرة، حيث تقف طبقة من الهواء السّام فوق سطحه الساكن دون حراك. لا ينمو فوق ضفافه سوى العشب البريّ، وقطع متناثرة من الغاب، وتلك الفاكهة الفجّة التّي تمني الشّفاه الجافّة بأمل ترطيبها، ولكنّها تتحوّل إلى رماد من اللّمسة الأولى، تبدو النّاصرة مكانا مهجورا. يحيط بمخاضة نهر الأردن، التّي دخل عن طريقها جموع الإسرئيليين، الأرض الموعودة وهم يردّدون أناشيد الفرح. لا يجد فيها المرء الآن سوى مخيّما زريًا، يقيم به الحمقى من بدو الصّحراء، وهو المكان التّي تحطّ عليه «يرشو» المصابة باللعنة، أثرا بعد عين، خرائب ينبعث منها الدّخان، تماما كما تركها يشوع منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف عام، وترقد بيت لحم وبيت هاني بين الفاقة والبؤس، ولا شيء الآن حولهما يذكّر المرء، بأنّهما يوما ما قد أدركا شرف السمو بظهور المخلّص، ثمّ ذلك المكان المقدّس الذى كان الرّعاة عنده يسعون بقطعانهم، في اللّيل، حيث أنشدت الملائكة بالسّلام على الأرض وفي النّاس المسرّة، حيث لا يطرقهما الآن مخلوق، ولا يباركهما معلم يسر العين. لقد فقدت أورشليم الشّهيرة، تلك التي تحمل أقدس الألقاب التّاريخية، فقت مكانتها القديمة، وصارت قرية معدمة. لم يعد هناك من كنوز سليمان، ما يحفّز على زيارة ملكات الشّرق لها، وللهيكل العجيب الذّي كان مناط مجد وعزّة إسرائيل بعد زواله، وبعد أن رفع شعار العثمانيّين على المكان الذّي رفع عليه الصّليب المقدّس في اليوم الذّي ذكرته في التّاريخ كلّ حوليّات العالم. خلا بحر الجليل الشّهير من النشاط التجاري، وهو الذّي كان مرسى لكلّ سفن الأسطول الرّوماني. والذّي أبحر فيه تلاميذ المخلّص بقواربهم، حيث هجره من كرسوا حياتهم للحرب والتجارة، وصارت ضفافه قفرا يرين عليه السّكون. صارت كفر ناحوم بدورها، أثرا بعد عين، والمجدل أصبح مأوى للمشردين من العرب، وقد محى أى لاف فيها، صوت المخلّص، وتناولوا الخبز الرّباني. وهذه كلها ترقد في صمت العزلة، ولا تسكنها غير الطّيور والثّعالب المفترسة.

فلسطين هي البؤس والبشاعة، وفلماذا يتوجب تكون على النّقيض؟ أيمكن للعنة الربّ أن تجمّل بلدا ؟.

لم تعد فلسطين اليوم شغل العالم الشّاغل. إنّها مقدّسة في الشّعر والرواية الدينية القديمة إنّها أرض الأحلام.

الفصل السابع والخمسون

كان بمقدور فلسطين، أن تكون مملكة تحتلّ مكانتها مجددا في عرض البحر. شعرنا بالرّاحة، ونحن نلقي عن كواهلنا كلّ دواعي القلق، فالاستفسارات التّي كانت تلحّ علينا من قبل فيما يتعلّق بأماكن الزيارة، ومدّة البقاء، ومدى استحقاق زيارة المكان من عدمه، وقلقنا بشأن حالة الجياد، وأسئلة من نوع. هل ننزل للتسبّح في الماء؟»، « هلاّ تناولنا طعام الغداء. »، وكم يتبقي أمامنا من أميال بالملايين، نزحف خلالها تحت سفع الشّمس اللّعينة تلك، يا فيرجوسون؟». شعرنا بالرّضا لتنحية كل دواعي القلق البسيطة والمضنية في ذات الوقت، عن كواهلنا، كانت بالنّسبة لنا كأردية من فولاذ. كلّ منّا مكبّل بها بنحو أو آخر، وهو الآن يشعر، براحة مؤقّتة، لطرح كلّ ما يشغل البال ويربطنا بأيّ التزام. لم نعد ننظر في البوصلة الآن، حيث لم نعد نأبه بوجهة السفينة، لدرجة أنّها بعدت عن اليابسة بسرعة كبيرة. إنّني أرغب حين أشرع في السفر مجدّدا، أن أسافر على سفينة سياحية. لا يمكن بالنسبة لنا أن نشتري بالمال وعلى سفينة عجيبة، ووسط وجوه غريبة. ذلك الإحساس بالرّضا التّام والشعور بأننا في موطننا مجددا، حين اعتلينا ظهر سفينة. الكويكر سيتي سفينتنا وبعد أداء حجّ مضني. دائما ما كنّا نشعر شعورا مميّزا في كلّ مرّة نعود فيها إلى السّفينة، وشعورا خاصّا قد انتفت لدينا الرغبة في التفريط فيه.

خلعنا قمصاننا الصّوفيّة الزرقاء، وتخلّصنا من مناخسنا، ومن أحذية الرحلات، الثّقيلة، ومن مسدّساتنا العطشى للنزّال، وسراويلنا الخارجية ذوات الرّقع الجلديّة بالمقعدة، وحلقنا ذقوننا، وعدنا إلى ملبسنا المسيحيّ، فعل الكلّ ذلك عدا جاك الذّي استبدل كل ملابسه إلاّ بنطال الرّحلات. لأنّ مقعدته ذات الرقعة الجلدية كانت سليمة، وكذلك سترته البحريّة، وقد ساعدت ساقاه الرّفيعتان والطّويلتان، في جعله مثار جاذبية أينما حلّ

على مقدّم السفينة مستشرفا المحيط من فوق إطار عدستي نظارته. وردت ببالي نصائح أبيه الأخيرة له قبل السّفر حيث قال:

« ولدي، لقد أو شكت الآن على السّفر، برفقة زمرة لامعة من السّادة والسيّدا ت، ممن نالوا حظًا وافرا من العلم والثّقافة، واكتمل لديهم حسن السّلوك والعادات، بانتمائهم إلى مجتمع صالح. فاصغ إلى قولهم، وتدبّر أسلوبهم في الحياة، وتعلّمه. الزم إزاءهم التأدّب، والطّاعة. «وقّر كلّ رفقائك في السّفر، حتّى لـو فشـلت في كسـب ودّهـم. لا تتجاسر يا جاك ما حييت بالظّهور علنا، على ظهر السّفينة بمظهر لا يليق لك الظّهور به في غرفة استقبال أمك، بالبيت» .

يستحقّ الأمر التّضحية بأيّ مقابل لو أقدم والد هذا الشّاب يوما، على الصّعود إلى ظهر إحدى السّفن، ورؤيته واقفا في مقدمتها، في سترة بحريّة، معتمرا طربوشا أحمر، وبنطالا بمقعدة جلديّة، متأملا المحيط في سكينة. ويندر من ثمّ أن تشهد حجرة استقبال أيّ شخص، مثل هذا المشهد النّادر.

اقتربنا من الوصول إلى مصر، بعد رحلة سارّة، ومهجع طيّب. رأينا عن بعد، من خلال غيوم شمس الغروب قباب الإسكندريّة ومناراتها. نزلت برفقة «جاك» إلى قارب واتّجهنا إلى السّاحل، بمجرّد أن رست السّفينة. كان الوقت ليلا، وقنع الباقون بالذّهاب للمبيت في الفندق وزيارة مصر القديمة بعد الإفطار. وذلك ما فعلوه نفسه في القسطنطينية، بعد أن كانوا يهتمون كثيرا بزيارة البلاد حديثة العهد، لكنّ نفاذ صبرهم الذّي دأبوا عليه في عهد الصّبا قد زال عنهم، وأدركوا أنّ من الحكمة، التعامل مع الأمور بيسر وأريحيّة، لأنّ الأقطار القديمة لن تغادر أماكنها، ويمكن أن تنتظرهم إلى ما بعد الأقطار.

حين قدمنا إلى الجسر، رأينا جيشا من الصّبية المصريّين، يقتادون حميرا لا يزيد طولها على طول الواحد منهم، وكانوا يترقّبون الوافدين. لأنّ الحمير تعدّ في مصر وسيلة للنّقل، فضّلنا السّير على الأقدام، ولم نستطع المرور واجتياز الطّريق، بعد احتشاد الصبية حولنا صاخبين، مميلين حميرهم في طريقنا مباشرة، غير عابئين بوجهتنا. كانوا لناما طيّبين، وحميرهم على الشّاكلة نفسها. اعتلينا ظهور الحمير، والصّبية من خلفنا، يدفعونها إلى سباق محموم، كما صار الحال معنا في دمشق. أظنّ أن ركوب الحمار يفضل أيّ ركوبة أخرى.

فالحمار رشيق الحركة، وليس سريع اللهاث. ويسهل قياده رغم عناده، ولا يقدر الشيطان ذاته على ترويضه، وهو مريح ومريح جدًا. فحين يدركك التّعب من ركوبه، تستطيع وضع قدمك على الأرض ثمّ تتركه يمضي من تحتك إلى حال سبيله.

عثرنا على الفندق والغرف المحجوزة. وسعدنا بأنّ أمير ويلز، كان أحد نزلائه، وكان التّنويه بذلك قد وضع على لافتات في أنحاء الفندق. ومنذ ذلك الحدث، لم ينزله أحد من الأمراء حتّى لحظة نزولنا أنا وجاك. مضينا إلى جولة نحن الاثنين، في وسط المدينة، فوجدناها عامرة، بالمباني التّجارية الكبيرة، وشوارعها فسيحة متأنّقة، تضاء بغاز الوقود. تذكّرك الإسكندريّة في اللّيل بقطعة من باريس. عثرنا أخيرا أنا وجاك على حانة تقدّم المرطّبات، وبذلك أقفل باب التّحريّات لتلك اللّيلة. كان الطّقس شديد الحرارة، وقد حرمت عين جاك رؤية المرطّبات لعدّة أيام، وصار من العبث، التّفكير في ترك الحانة إلى أن يحين موعد إغلاقها.

وفدت في الصّباح القبائل الأمريكيّة الشّاردة إلى الشاطئ، وطوّقت الفنادق، واستولت على كلّ الحمير، وما قدّم لها من حناطير مكشوفة. مضى الرّكب الحافل، مباشرة إلى القنصليّة الأمريكيّة، ثم إلى الحدائق الغنّاء، ومسلّات كليوباترا، وعمود بومبي (السّواري)، وقصر نائب الخديوي، ونهر النّيل، وبساتين النّخيل الباسق. كان لدى أحد سارقي الآثار مطرقة، فحاول اقتطاع شظية من إحدى المسلّات، ففشل، جرّب الأمر ذاته في عمود بومبي، فأعيته المحاولة. انتشرت حول العمود الضّخم، مجموعة من تماثيل «أبو الهول»، يحمل كلاّ وجه إنسان، وقدّت التماثيل من صخر الجرانيت المصري، الذي يفوق الفولاذ صلابة، لم يفلح الزّمن عبر خمسة آلاف عام في أن ينال من معالمها الدّقيقة.

تواصلت المحاولات التّخريبيّة من جانب سارق الآثار بعزم لا يلين، وتصبّب مقابل ذلك عرقا غزيرا، وكان لا بدّ من أن يسعى بعد ذلك إلى محو القمر من الوجود. كان الآخرون يرقبونه في سمت مصحوب بابتسامة وقور، لطالما ضاقوا بهما ذرعا. ولسان حالهم يقول له: «أغربي عن وجوهنا، أيّتها الحشرة التّافهة، فما كنّا أبدا لنتظاهر بالخوف من أمثالك، فلطالما رأينا العديد ممّن على شاكلتك، عبر عقود مرّت هباء، وكانوا يفوقون عدد الرمال التّي تقف فوقها، فهل تركوا شائبة أو أثرا؟».

راح عن بالي ذكر مستعمري يافا. لقد صعد إلى السفينة، في يافا أربعون فردا من الرّجال والنّساء، والأطفال والشّباب والفتيات، والشّباب حديثي العهد بالزّواج، وبعض مّن تخطّوا أعمار الشّباب. إنني أشير هنا إلى مستعمرة «يافا آدامز» الواقعة في يافا. كان آخرون قد رحلوا عنها من قبل. وكنا قد تركنا هناك السيّد آدمز وزوجته وآخرين وعددهم خمسة عشر شخصا، لم تساعدهم الظّروف على المغادرة ليس لافتقارهم إلى المال، بل لأنّهم لم يكونوا يعرفون وجهة لهم، أو مصير، وذلك كل ما قدّمه الوافدون من إفادة. كان أولئك الأربعون، يعانون في البداية شدّة الفاقة، وكانوا طوال الرحلة إلى مصر يصابون بدوار البحر بسبب رقادهم الدّائم على ظهر السّفينة، ممّا زاد من بؤسهم، وهذا ما لاحظته. ظل شابّ منهم أو شابّان واقفين. استطعنا استخلاص معلومات قليلة عن هذه الجماعة بالضّغط عليهما. صرحوا بها مجبرين، في عبارات متشظية، لأنّه بعد احتيال زعيمهم عليهم بصورة مخزية، أحسّوا بالمهانة والبؤس، والنّاس تحت ظروف كتلك، لا يميلون إلى الحديث.

تعرّضت المستعمرة لفشل ذريع، وقد ذكرت أنّ شيئا كهذا يمكن أن يطرأ من وقت لآخر. يقيم النبّي آدامز في يافا، وكان يعمل من قبل في حرفة التمثيل، ثمّ زاول مهنا أخرى كثيرة بعد ذلك، وصار مورمونيًا وقام بعمل تبشيريّ. لا يكفّ عن الترحال والمغامرة، ويقيم في يافا، مع حفنة من مريديه البائسين. كان الأربعون الذين انضمّوا إلينا، مفلسين تماما، باستثناء البعض، وكانت لديهم رغبة في الوصول إلى مصر. كان لا بد من أن تنعدم لديهم، الرغبة في السؤال عن شيء أو الاهتمام بشيء، سوى الفرار من جحيم يافا، والتطّلع إلى النذر اليسير من شئون الحياة. لأنّه بعد أن وجهت مناشدات كثيرة، إلى مؤسّسات البرّ في نيوإنجلاند، من قبل غرباء من بوسطن، وبعد تدخّل من أحد المكاتب الخاصّة بتلقى التبرعات المالية من أجل مستوطني يافا، تمّ التبرع بدولار واحد فحسب. قدّم لي القنصل العام فقرة في الصّحيفة التي نقلت الحدث، وأوردته في هذا السّياق، وتوقّفت الدّعوة للتّبرع، وأغلق المكتب المشار إليه. دلّ ذلك على أنّ الحكماء في نيوإنجلاند، لم يندموا على الخلاص من أولئك الواهمين، ولم يبدوا أدنى رغبة، في تكليف أحد بإعادتهم مجدّدا إلى نيو إنجلاند. بقي أن الوصول إلى مصر بالنّسبة لأولئك المستعمرين التعساء، هو أقصى تطلعاتهم.

تحقّق لهم ذلك، فنزلوا من السفينة إلى شاطئ الإسكندرية. استفسر السيّد موسى س. بيتش، من صحيفة النيويورك صن من القنصل العامّ، عن المبالغ المطلوبة لعودة هؤلاء

إلى بلدتهم «مين»، عن طريق ليفربول، فذكر أنّها تبلغ ألفا وخمسمائة دولارا من العملات الذهبيّة، قدّم السيّد بيتش شيكا بالمبلغ، من ماله الخاص، وبذلك أدركت مشكلة مستعمري يافا النّهاية(*) يروي عن مدينة الإسكندريّة أنّها تبدو على شاكلة المدن الأوروربيّة، ولم يمض وقت طويل حتّى مللنا هذا الزعم. ركبنا عربات السكّة الحديدية، وقدمنا إلى القاهرة القديمة، تلك المدينة التي تعد نموذجا أمثل لمدن الشّرق. لا يكفي أن تحرر عقل امرئ من خطأ اعتقاده الجازم بأنّه في قلب العروبة. حيث لا يرى في أيّ اتجاه على طرقاتها الضيّقة وحوانيتها المجوّفة كأقراص النّحل، سوى حشود من الإبل ذات السّنامين، والإبل العربيّة ذات السّنام، وسود البشرة من المصريين، والأتراك، والأحباش السّود، منهم من اعتمر العمامة، وتمنطق بالأحزمة، ومؤتلقين في تشكيلة رائعة من الثّياب الشرقيّة، وتعددية متدرجة من الألوان. نقف الآن أمام فندق شبرد، أسوأ الفنادق على وجه الأرض، عدا واحد في إحدى مدن أمريكا. يفضّل الاطّلاع على هذه الصّورة الأدبيّة، التّي سجّلتها من قبل في مفكّرتي، لندرك أنّه يمكنني الآن تحمّل فندق شبرد، فقد كنت نزيلا في فندق لا يختلف عنه كثيرا في الولايات المتّحدة، وخرجت من هذه التّجربة حيّا أرزق .

نزلت للمبيت في بنتون هاوس، وقد عرف بجودته، لكن ذلك ليس بكاف، تماما كما أعي أني شاب حسن الخلق، وهذا أيضا ليس بكاف. كلانا تغيّرت سماته بمرور الوقت. فأصبح بنتون هاوس يتسم برداءته، ويحتاج إلى جهد جهيد ليعود إلى سابق عهده. فجهنّم مليئة بفنادق أفضل من بنتون.

كنت هناك في ساعة متأخرة من اللّيل، وأخبرت موظّف الفندق، برغبتي في توفير إضاءة قويّة، كي أتمكّن من القراءة لساعة أو ساعتين من الزّمن. حين وصلت بصحبة خادم الغرف إلى رقم ١٥ (بعد مرورنا بردهة معتمة مفروشة بسجّادة بالية، باهتة، استهلكت في أماكن عدّة، ورقّعت بأسمال بالية من فرش الموائد الكالحة، والأرض تغور

(*) دلّ هذا العمل العظيم على البر، دون رياء أو سمعة، وأظنّ أن الحدث لم يرد ذكره قط في أيّة صحيفة. ومن المفيد الآن التنويه إلى أنّه بعد مرور عدّة أشهر من سرد الرواية المذكورة، نسب إلى شخص آخر اضطلاعه بإنقاذ مستعمري يافا، وهذا حال الدّنيا. (م.ت.)

وتطقطق تحت قدمَي من أثر السَير). أشعل الخادم شمعتين من الودك المستنفذ، بطول بوصتين، مثيرتين للأسى والرِّثاء، اشتعلتا بزرقة، وطقطقتا من ثم، فخار عزمهما، وأدرك ضوؤهما الزَوال. أعاد الخادم إشعالهما، فاستفسرت منه إنّ كان هذا كل ما بعث به موظَف الفندق من ضوء. فأجاب: «أوه كلاّ، إنّ لديّ أخرىات هنا» وأخرج بوصتين من الودك فقلت: أشعلهما، فحري أن أتناول واحدة كي أتبيّن بها الأخرى، فعل ذلك لكنّ النتيجة أتت برعب يفوق رعب الظّلمة ذاتها. كان خادم الغرف يجمع بين اللّؤم والظّرف، ويتمتع بأدب جمّ، ويتحلّى برحابة صَدر. ذكر أنّه سيذهب إلى مكان ما، فيستلب لي مصباحا. أتى صوت صاحب الفندق من الرّدهة يسعى خلف الخادم، بعد ذلك بعشر دقائق، قائلا :

«أين تذهب بهذا المصباح ؟».

«يريده رقم ١٥ يا سيّدي ».

«لم؟ إنّ لديه طاقما من شمعتين. أيرغب الرّجل في إضاءة الفندق. أيريد.

موكبا من المشاعل. ما الذّي يرمي إليه إذا؟».

«إنّه لا يرغب في الشّموع لذاتها يا سيّدي. إنه يبدي رغبة في مصباح'».

« فيم ينفرد دون الجميع بهذه الرغبة؟ إنّني لم أسمع بهذا من قبل، ماذا يمكن أنّ يفعل بهذا المصباح».

« حسنا، هو يريد القراءة على ضوئه فحسب» .

يريد القراءة، أليس كذلك. ألا تكفيه ألف شمعة، كي يتزوّد بمصباح. إنني في حيرة مما قد يسبّبه هذا الشخص من شرور برغبته في مصباح. آته شمعة أخرى ثمّ إذا ـــ

«ولكنّه يريد مصباحا.... إنّه يزعم أنّه بسبيله إلى حرق المبنى العتيق عن آخره، إذا لم يأت مصباحا». (لم يصدر عنّي شيئا كهذا).

«أودّ أن أراه فاعلا ذلك الآن. حسنا، خذه إليه، لكنّي أقسم رغم ذلك بأن في هذا إهدار للوقت، واستطلع الأمر إذا لم تتمكن من الكشف عن السبب الحقيقي في رغبته هذه»

ذهب يزمجر. ولا يزال في حيرة يعد استغراب من مسلك رقم ١٥ المنفلت. كان المصباح بحالة جيدة لكنّه كشف عن أمور غير جيّدة. كشف فراشا يعلو صحراء غرفة. فراشا حافلا بأودية وتلال. وأن عليك أن تكيف جسدك مع التّضاريس التّي تركها من أقام في الغرفة قبلك. وذلك قبل أن تأوي إلى الرقاد. وذلك فضلا عن سجّادة سبق أن مرّت بأوقات سعيدة. ومنضدة مقزّزة. تقع في ركن ناء من الغرفة. فوقها حوضا للاغتسال يثير الغثيان. وإبريقا حزينا تتساقط عبراته عبر أنف مكسور. ومرآة مشروخة من الوسط. تحوّلك إلى وحش أقلّ بشاعة. وورق لحائط. تقشّر بالطّول. تنهّدت في حسرة. وقلت له: هذا رائع. ألا تظنّ أنّ بوسعك الآن أن تأتني شيئا أقرأه ؟

ردّ الخادم «أوه. بالتّأكيد. إنّ صاحب الفندق لديه عددا من الكتب». ذهب قبل أن يعرف. نوع ما أفضّل من كتب. كما أن تعبيرات وجهه أفصحت. عن ثقة كبيرة في قدرته على القيام بما كلّف به. بادره الرّجل الكبير بهجوم مباغت.

«ماذا أنت فاعل بهذه الكومة من الكتب؟» .

«يريدها رقم ١٥ يا سيّدي».

«رقم ١٥. أليس كذلك؟ سيطلب بعد ذلك حوضا للتدفئة. يعقبه ممرّضة. خذ إليه كل ما في الدّار. زوّده بساقي. وعربة للأمتعة. وخادمة للغرف! أصدقك القول لو قلت إنّني لم يسبق أن رأيت شيئا من هذا القبيل. ما كان قوله في سبب رغبته في هذه الكتب».

«يرغب في قراءتها. وهذا يكفي. لا يبدو أنّه يريد التهامها. حسبما أظنّ».

«يريد قراءتها. هه. هذا المعتوه اللعين يرغب في قراءتها في هذه الساعة من اللّيل. لا بأس. إنه لن يتمكن منها».

«لكنّه يقول إنّه مصرّ على ذلك. وأنّه للتوّ سيلجأ إلى الشّكاية والصّراخ. والجلبة. وإلى رفع لا داعي. ولا حاجة لذكر ما ينوي فعله لو لم يحصل عليها: لأنّه مخمور ومتهوّر ومختلّ. ولن يهدئ من ثورته سوى هذه الكتب الملعونة». (لم تصدر مني تهديدات. ولم أكن على الحال التّي نسبها الخادم إليّ).

«امض الآن إذن لكنّي سأكون متواجدا، إنه لو أطلق صاخا، سألقي به من النّافذة مع أول صوت يصدر منه».

مضى السّيد الكبير إلى حال سبيله، مدمدما كالعادة. تميّز هذا الخادم بشيء عجيب. وضع على الفراش مجموعة من الكتب ملء ذراعيه، ثم قال: «أتمنّى لك ليلة سعيدة». قالها بلسان الواثق من قدراته، كأنّه كان يدرك أنّ تلك الكتب بالتّحديد، هي النّوع المفضل لديّ، وخيرا فعل. غطّى اختياره كلّ مجالات المعرفة، واحتوت المجموعة. الكامل الكبير في اللاهوت، للسيّد الدكتور كاننجز، والتّشريعات المعدّلة لولاية ميسوري في القانون، الكامل. الطبيب البيطريّ الكادحون في البحر، الرّواية لفيكتور هوجو، أعمال شيكسبير في الشّعر. لن أتراجع أبدا عن إعجابي بمراوغة وذكاء الخادم الموهوب.

لكنّي أظنّ أن كل الحمير في المسيحيّة ومعظم الصبية المصريين، يقفون بالباب الآن، وتدور بعض جلبة هناك، لا يمكن حصرها في لغة معترف بها، نحن الآن على وشك بدء زيارة أهرامات مصر الشّهيرة، وحمير الرّحلة، تحت الفحص، وسأذهب، لاختيار أحدها قبل أن يتمّ انتقاء كلّ الدّواب.

الفصل الثّامن والخمسون

الحمير كلّها بحالة جيّدة، حظيت بالقوّة والتأنق والسّرعة، وأكد ذلك إعدادها، وهي أفضل ما صادفنا من حمير في أيّ مكان، وأكثرها انتقاء، وإن كنت لا أدري كنّه انتقاء هذه. لكنّ تلك هي حالة الحمير على أيّة حال. بعضها كان بلون الفأر الفاتح، وآخر كان منها الأبيض، والأسود، وألوان أخرى. البعض كان حليقا تماما، إلاّ من خصلة تركت في نهاية الذّيل. حلق شعر الحمير الأخرى على هيئة أرض فضاء جميلة المنظر، حيث خطّطت أجسادها بخطوط منحنية. ترك الشّعر في أحد هذه الخطوط على حاله، وجزّ الخط الآخر عن آخره بمجزّة. كان قد أجري حلقها حديثا، وبدت مفرطة في التأنّق. شابه عدد منها الحمر الوحشيّة (الزبرا)، وتلوّن بألوان الطّيف، الزّرقاء والحمراء والصّفراء، وكان جمالها يجلّ عن الوصف. اختار جاك ودان حمارين من بين هذا الطّاقم، حيث ذكّراهما بسادة إيطاليا القدامى. كانت السّروج مبطّنة، على شكل حامل مرتفع عن الأرض، كتلك السروج التي شاهدناها في إفسوس وسميرنا. كان سائقو الحمير من الفتية المصريّين الشّباب المعروفون برشاقة الحركة، ممّن يقدرون على ملاحقة الحمير وحثّها على الحركة دون توقف لنصف يوم كامل ودون شعور بكلل. حين اعتلينا ظهورها، التف حولنا كثير من المتفرّجين، فالفندق كان محتشدا بالإنجليز المسافرين إلى الهند بالبرّ، والجنود المتأهّبين للحملة الأفريقيّة ضدّ ملك الحبشة ثيودوروس. لم تكن مجموعتنا كبيرة العدد، ولكّننا حين انطلقنا بالحمير عبر دروب العاصمة أحدثنا جلبة تصدر عن خمسمائة رجل، وأبدينا نشاطا كبيرا وخلقنا جوّا من الإثارة، بالقدر نفسه. لم يتمكّن أحد نا من قياد حمار، فاصطدم البعض بالإبل، والبغال والدّراويش، والمجاذيب والأفنديّة، والمتسوّلين، وكلّ ما عدا ذلك من أشياء، صادفتها في الطريق. مع انعطافنا من أحد الشّوارع، الفسيحة المؤديّة إلى القاهرة القديمة، اتّسع مجال السّير أمامنا. ألقت صفوف باسقة من نخيل البلح، محيطة بالبساتين على طول الطّريق.

بظلالها الوارفة، وبثّت في الجو الانتعاش والرطوبة. أحدثنا حالة وقتية من النشاط، وصار الرّكض بالحمير أكثر جموحا، وانفلاتا وروعة. آمل أن أعيش هذه التّجربة مجدّدا.

طالعنا من مكان على جادّة هذا الطّريق، بعض مشاهد مخزية، ومعبّرة عن عفويّة أهل الشّرق. ظهرت فتاة تبدو في الثّالثة عشرة من عمرها، على الطّريق العام، مكتسية بثوب حوّاء قبل السّقوط. حسبناها في تلك السنّ، لكنهن في الواقع لا يزدن عن التّاسعة من عمرهنّ. كنا نرى بين الفينة والفينة، رجالا عراة، قويّي البنية، يستحمّون في النّهر، ولا يحاولون ستر أجسادهم. جنح الحجّاج رغم ذلك إلى قضاء ساعة في التعرّف على هذه العادة الجميلة، وتحول الأمر في النهاية إلى مجرّد لفتة عابرة، لمن أفرط في الفرجة.

بعد أن بلغنا القاهرة القديمة، جمع رفقة المخيّم الحمير، وألقوا بها جميعا على ظهر قارب صغير، بشراع على شكل مثلّث. لحقنا بهم، وانطلق القارب بنا جميعا. اكتظّ القارب بالبشر والحمير، وكان على اثنين من النّوتيّة، الصّعود والهبوط، بين الكتلة المحشورة، لضبط أشرعة القارب. واضطرّ العامل على الدّقة إلى إزاحة ثلاثة حمير أو أربعة عن طريقه، وقت إدارة ذراع الدّفة أو دفع مقبضها. ولكن لماذا ينزعج منا هؤلاء؟ لم يكن في وسعنا فعل شيء، سوى كف الحمير، عن الاحتكاك بنا، فضلا عن رصدنا مشهد نهر النيل الخلاّب.

ظهرت فوق جزيرة عن يميننا، آلة يسمّونها مقياس النّيل (نيلو متر)، وهي عمود من الحجر، يستخدم في تحديد مستوي ارتفاع النّهر، ومراقبة ألاّ يزيد منسوبه على اثنين وثلاثين قدما، فيسبّب ذلك ندرة في المياه، أو ترقب إمكانية حدوث فيضان يغمر الأرض لو بلغ منسوبه أربعين قدما، أو بلوغه ثلاثة وأربعين قدما فيهلك جرّاء ذلك الحرث والنّسل والحصاد، ولكن لم يسعهم حتّى شرح كيفية حدوث هذا كلّه، كي نضيفه إلى معلوماتنا. لا يزال يظهر من مكان على الجزيرة نفسها، ذلك المكان الذّي عثرت فيه ابنة فرعون على موسى الرضيع بين سيقان البردي، يقع بالقرب من المكان الذّي أبحرنا منه الموقع الذّي أقامت فيه العائلة المقدّسة حين اتّخذت من مصر مقاما مؤقّتا لها، حتّى ينتهي هيرودس من ذبح الأبرياء. هناك موضع الشّجرة ذاتها، التّي استراحوا في ظلّها، بمجرّد وصولهم إلى مصر، وظلّت الشجرة في مكانها حتى وقت قريب، لكنّ نائب الخديوي، أرسلها إلى أوجيني، إمبراطورة فرنسا مؤخّرا. جاء ذلك في الوقت المناسب، وإلاّ ظفر الحجّاج بها.

كان النَيل في هذه المنطقة غرَينيّ، سريع التيّار، ولا يحتاج كثير جدل لو اعتبرناه كالمسيسبي، من حيث السّعة.

تسلَقنا الضَفة المنحدرة، المشرفة على مدينة الجيزة، تلك المدينة الغارقة في البؤس، وامتطينا مجدّدا ظهور الحمير، وحثثنا السّير في طريق يمتدّ لثلاثة أو أربعة أميال، فوق جسر مرتفع، ذكروا انَه يعدّ لمدّ خطّ للسكك الحديديّة، ينوي السّلطان إقامته دون سبب يذكر، سوى استخدام إمبراطورة فرنسا له. حين تفد ضيفة على السّلطان، ويمكنها بهذا أن تجد سهولة في زيارتها للأهرامات. ولو دلّ هذا الأمر على شيء فإنّما يدلّ على كرم الشّرق الأصيل، ومن دواعي سروري أنّنا قد منحنا امتياز ركوب الحمير بدلا من السّكك الحديدية.

بدت لنا الأهرامات من أميال قليلة، تشمخ فوق النّخيل، بارزة المعالم، جليلة مهيبة، سبحت في غلالة من سديم، استوحي منها كل إيحاءات الحجر الأصمّ، وجعلها تبدو مجرّد سراب سادر في حلم، وأبنية يمكن عودتها إلى الوجود في صفوف من حنايا مبهمة، أو أعمدة مزدانة بالزخارف، وأخضعها ونحن نرنو إليها بأبصارنا لمزيد من التحّولات. في أشكال رائعة البناء، فتلاشت في روعة، وذابت في الجوّ المتقلب.

تركنا الحمير عند نهاية المرسى، ومضينا في قارب شراعيّ، عبر أحد أفرع النّيل أو أحد روافده، حيث ألقت رمال الصّحراء الكبرى لها جسرا، قائما كالجدار، على امتداد حدود السّهل الغريني الواقع على النّهر. أتت بنا مسيرة شاقّة في لفح الشّمس، إلى سفح هرم خوفو الأكبر. كان المشهد له في نفوسنا وقع السّحر. الهرم كتلة هائلة من الحجارة، ظاهرة التموّج. بدا كلّ جانب من جوانبه مترامي الأبعاد، على هيئة مصاطب فسيحة مدرجة إلى أعلى، تضيق بالتّدريج كلما اتّجهنا صعودا، لننتهي على ذروة الهرم المستدقة في الفضاء. بدا حجّاج سفينة «الكويكر سيتي» رجالا ونساء، كالحشرات الزّاحفة حول جوانبه الشاهقة، فضلا عن سرب دقيق من الجراد الأسود، يلوّحون ببطاقات تذكاريّة (أقصد مناديل) من ذروة الهرم.

فرض علينا بطبيعة الحال حصار من قبل، رهط من مفتولي العضلات من المصريين، الرّاغبين في الاتّفاق معنا على جرجرتنا إلى قمّة الهرم، علما بأنّهم يفعلون ذلك بكلّ السائحين، لن تستطيع بالطّبع سماع ما تنطق من كلمات، بسبب ما يحيط بك من لجج. ذكر الشّيوخ

أيضا أنّهم متعهدو المجموعات السياحية الوحيدون. وأنّ أيّ اتّفاق لا بدّ من أن يتمّ معهم، وأنّ أية نقود لا بّد من أن تسدّد لهم شخصيًا، وألا يبتزّ أيّنا من قبل أحد سواهم. وتمّ الاتفاق بالطّبع على ألاّ تتردد كلمة بقشيش البتّة على لسان أحد الّثام المجرجرين إلى قمّة الهرم.

هذا هو النظام المتبع هنا. اتفقنا معهم بالطّبع، وسدّدنا ما اتفق عليه، وسلّم المبلغ في يد المجرجرين إلى القمم، حيث تم ابتزاز آخر للمال، وأعيد السداد على سبيل البقشيش، بدءا من سّفح الهرم إلى قمّته. كان سبب الإذعان في السداد، تعمّدهم تفريقنا عن بعضنا بعضًا على امتداد المسافة الشّاسعة لجانب من جوانب الهرم. وما كان لنا من معين إذا دعت الضّرورة إلى طلب العون، فضلا عن أن هراقلة المجرجرين، طلبوا البقشيش برقّة غامرة، وتدلّل يغريان بالسّداد، يغلّفوهما بنظرات الوعيد والتّهديد بإلقائنا إلى السّفح، ما دعانا إلى الإذعان والقبول. علت كلّ مصطبة قدر ارتفاع مائدة الطعام، ونظرا لتعدد المصاطب، لجأ العرب إلى الإمساك بالأذرع، والقفز عاليا، من مصطبة لأخرى، وانتزاعها، دافعين إيّانا دفعا إلى رفع الأقدام، إلى الصدور. كانوا يسرعون في أداء هذه الحركة، ووبواصلونها لدرجة دفعتنا إلى الشّعور بالغثيان. فمن يزعم بعد ذلك بأنّ تسلق الهرم ليس ضربا من استعادة النّشاط والحيويّة، والبهجة، والقدرة على تحمّل المشاقّ، وشدّ العضلات، وخلخلة المفاصل، وتطهير النفس والبدن وتزجية لقتل الفراغ، ببذل الجهد؟ ناشدت اللّثام الكفّ عن ليّ أطرافي في كلّ اتّجاه، وكررت المناشدة وألححت في الرّجاء، وأقسمت لهم غير حانث بأنّني لا أبتغي بزّ أحد في الصعود إلى قمّة الهرم، وبذلت ما وسعني من رجاء لإقناعهم بأنني لو كنت آخر الصّاعدين سأكون أكثرهم شعورا بالامتنان والرّضا الأبدي، وتوسّلت إليهم، ورجوتهم ودعوت من أجلهم، كي يسمحوا لي بالتوقّف لحظة لالتقاط الأنفاس، لحظة واحدة فحسب، فما استجابوا، بغير مزيد من تقافز مرعب، أطلق مدفع من خلفي من قبل متطوّع من غير المدرجين على القائمة، واكبه دفع لا يلين برأس متوعّدة، بتعريض ما أحظى به من دعم سياسيّ للبدد والفناء.

سمحوا لي مرتّين بدقيقة واحدة كفرصة لالتقاط أنفاسي، سهدت ابتزازا للبقشيش، بعدها تواصلت رحلة الصّعود المجنونة إلى فمّة الهرم. رغبوا في التفوق على المجموعات الأخرى في الصعود، ولم يعبأوا باغترابي أو تقديمي قربانا على مذبح طموحهم الدّنس. ولكنّ وسط لحظات الأسي، تبرز على غير توقّع بشائر الفرح. وغشيني حتى في تلك

اللحظة الخالكة شعور برثاء رقيق، لأنّني كنت أعلم أنّه ما لم يلجأ هؤلاء المحمّديون إلى التّوبة، فسيذهبون مباشرة إلى الجحيم يوما ما، وأنّهم لن يتوبوا أبدا لأنّهم لن يتخلّوا عن وثنيّتهم. بعثت هذه الفكرة في نفسي الطّمأنينة، وبثّت في شعور بالبهجة. فألقيت بنفسي على قمّة الهرم وقد نال منّي الإعياء والتّعب منالا.

لكن شعوري بالفرح والبهجة الشّديدة قد طغوا على ذلك.

امتد بحر من الرمال الصّفراء، من إحد الإتجاهات،حتّى أطراف اليابسة، يلفه الوقار والصّمت، وعدم الخضرة، وزاد من وحشته افتقاره إلى وجود أيّ شكل من أشكال الحياة، وترامت من تحتنا على الجانب الآخر، جنّة مصر، بمساحات شاسعة من الخضرة، اخترقها النّهر الأفعواني، ورقطت بالقرى، ورسم أطر تلك المساحات الشّاسعة، خط رفيع، من مجموعات عنقودية متباعدة من شجر النّخيل، ترقد في سبات في بيئة ساحرة، حيث لا صوت في المكان ولا حراك. برزت أعلى أشجار النّخيل، في المنتصف، كتلة مقبّبة، مستدقة من أعلاها، تومض عبر غلالة رقيقة من الغيوم، وتلوح في الأفق البعيد، دستة أهرامات جميلة الصّورة. بدت مطلّة على ممفيس القديمة، وعلى بعد أقدام منّا، كان ذلك الصّامد أبو الهول، يتطلّع إلى الصّورة من فوق عرشه في الرّمال بالرّزانة والحلم نفسهما اللذين طالعها بهما منذ خمسين قرنا كاملة من الزّمان.

عانينا عذابا لا يستطيع أن يصفه قلم، جراء إلحاح في طلب البقشيش، نطقت به عيون العرب، وانهمر من شفاههم دون توقّف. فيم كان سعى هؤلاء إلى إحياء تقاليد الآباء التّي تؤكّد عظمة المصريّين القدماء؟ وفيم السّعي إلى استدعاء مصر في الذاكرة، وهي تتابع رمسيس حتّى مقبرته في الهرم، أو تتابع الحشد الإسرائيليّ الطّويل، الراحل عبر تلك الصّحراء؟ لماذا يشغلون أنفسهم بذلك كلّه؟ لقد فاق هذا الأمر كلّ احتمال، وعلى المرء أن يرتب أفكاره مسبقا، وإلاّ اضطر إلى ذلك فيما بعد.

اقترح العربيّ صاحب التقاليد، وبطريقته التقليديّة، أن يعدو من أول سفح خوفو، ويقطع ثمن الميل من الرمال الفاصل بينه وهرم خفرع، ثم الصّعود إلى قمّة الهرم، والعودة إلينا على قمّة خوفو، في زمن يستغرق تسع دقائق، ويمكن أداء تلك الخدمة برمّتها لقاء دولار واحد فحسب. بادرت بقول، دعوا العربيّ وابتزازه يمضيان إلى الجحيم. ولكن، انتظروا.

كان الثّلث العلويّ من هرم خفرع، مغطّى بطبقة من رخام أملس كالزّجاج. طرأت لي فكرة خبيثة. فالعربيّ سيتعرّض بالضّرورة لكسر عنقه لو أقدم على ذلك. قلت لهم أتمّوا الاتّفاق بسرعة ودعوه يبدأ العدو، بدأ العدو، ووقفنا نرصده. استهلّ باجتيازه الجانب المترامي من الهرم، بقفزة تلو الأخرى، كالوعل. بدأ يتضاءل حجمه شيئا فشيئا حتّى أصبح قزما ضئيل الحجم يتحرّك أعلى وأسفل ثم تلاشى تماما عن أنظارنا.

حيث وثب إلى الجانب الآخر من الهرم، الزّمن. أربعون ثانية ثمانون مائة يا للبهجة، ها قد لقي حتفه بالفعل. دقيقتان دقيقتان وربع، ها هو يمضي. تلك حقيقة، حقيقة مؤكّدة. يبدأ الآن في التضاءل التدريجيّ. مؤكّد أنّه هو. يجتاز مسافة الأرض المستوية. بدأ التسلّق بالقفز مجدّدا، صاعدا، صاعدا، حتّى بلغ أخيرا الغطاء الرّخاميّ الأملس، يسعى الآن لتسلّقه. لكنّه معلّق به بطرف قدمه وأصابع يديه، معلقّ به كحشرة. تقدّم ببطئ على نحو أو آخر، متجها نحو اليمين. ثم زاحفا إلى أعلى يمنة ويسرة، ما زال يواصل الزّحف، توقّف في النّهاية هناك، وبدا قزما أسود فوق قمّة الهرم، ملوّحا بلفاعه القرمزيّ! اتّجه زاحفا إلى أسفل، باتجاه المصاطب الخشنة، رفع كاحليه ودار في لمح البصر. غاب عن أنظارنا في التوّ. لكنّه ظهر بغتة تحتنا، راكبا مطيّته، بعزم لا يلين، وتوسّطنا بعد ذلك بهتاف المحارب. استغرق من الزّمن ثماني دقائق، وأربعين ثانية. لقد حقّق الفوز، وعاد معافى سليم البدن. كان فوزه إخفاقا ذريعا لي. قلبت في الأمر مليّا، لقد حلّ به التّعب الآن، ومؤكّد أنه يشعر بدوار. سأراهنه بدولار آخر.

استهلّ العدو مجدّدا، وأنهى الرّحلة، خلص إلى الغطاء الرّخامي الأملس. كنت على وشك الظّفر به، لولا شقّا لعينا ساهم في إنقاذه. عاد إلينا مجدّدا سليما معافي البدن. استغرق من الزّمن ثماني دقائق وأربعين ثانية.

قلت لدان. «سلّفني دولارا، يمكنني الآن تحقيق الفوز بالرّهان».

مضى الحال من سيء إلى أسوأ، فقد فاز بالرّهان مجدّدا، في زمن استغرق ثماني دقائق وثمانية وأربعين ثانية. نفذ صبري وركنت إلى اليأس، ولم تعد النّقود تحقّق شيئا لي، قلت له. «سأعطيك يا مائة دولار يا سيّد، على أن تهبط الهرم برأسك، وإن لم تكن تختار

وضع شّروط، فحدّد رهانك، إنّني أستنكف أن يتحمّل أحد أن ينفق نيابة عني، سأظل في مكاني هنا، وأراهن عليك بالمال طالما بقي لدي دان سنت واحد».

أوشكت الآن على كسب الرّهان، وكان ذلك العرض للعربيّ فرصة مواتية، فكّر مليًا لوهلة، وتخيّلت إنّه سيوافق على العرض، لكنّ أمّه، وصلت في التو واللحظة، وتدخّلت في الأمر. تأثّرت لنحيبها، ذلك أنّي لا أستطيع تحمّل بكاء امرأة، قلت لها إنّي سأعطيها مائة دولار، وتقوم بدورها بالصعود معه. لكنّ ذلك أيضا، صادف خيبة أمل، لأنّ العرب في مصر أثمانهم مرتفعة بدورهم، ويغالون في قيمة لا يستحقّها هؤلاء اللّئام.

أضاء التّرجمان شموعا، وولجنا فتحة عند قاعدة الهرم، يلاحقنا دهماء العرب الخبالي، ويكرهوننا على قبول خدمات لم نطلبها. شدّونا عبر قناة ضيّقة مائلة إلى أعلى، ويقطرونا بقطرات شموع الشحم. لم يزد سعة القناة وارتفاعها، عن قناة ساراتوجا، وقد طبّقت بجدارين وسقف، وعبّدت أرضها بقوالب من صخر الجرانيت المصريّ، عرضه يعادل عرض دولاب ثياب، وسمكه يعادل ضعف سماكته، وثلاثة أبعاده من حيث الطّول. واصلنا الصّعود وسط ظلمة خانقة، حتّى ظننت أنّنا اقتربنا صعودا، إلى قمّة الهرم، وصلنا من ثمّ إلى حجرة الملكة، وبعدها مباشرة إلى حجرة الملك. كانت هذه الغرف الكبيرة، مقابر للدّفن. شيّدت بجدران من كتل هائلة من الجرانيت الأملس، وأحكم ضمّ بعضها إلى البعض الآخر. يقارب القالب الحجري من حيث الحجم بهو بيت. أقيم وسط غرفة الملك تابوت حجريّ ضخم، يشبه حوض استحمام منزليّ. تجمّعت من حوله مجموعة غريبة من أجلاف العرب، والحجّاج بوضرهم، وثيابهم القديمة البالية، وقد رفعوا الشّموع في الظّلمة إلى أعلى وتبادلوا الحوار، وأسقط الضّوء الضّبابيّ، هالة معتمة، على أحد سارقي الآثار دون رادع، وهو ينقر بمطرقته الدنّسة تابوتا مقدّسا.

شققنا طريقنا للخروج إلى الهواء الطّلق والشّمس السّاطعة، وإلى ثلاثين دقيقة من الزّمن التقينا خلالها عربا غبرا، بالأزواج والعشرات والأفواج، ونقدناهم البقشيش كالعادة، لقاء ما قدّموا من خدمات أقسموا بأنّهم تطوعوا بتقديمها لنا، ولم نعلم بها نحن، وبعد أن تلقّى كل فريق نصيبه، عاد إلى مؤخرّة الموكب، ثم أتوا في الوقت المعلوم، بقائمة جديدة، ولتسوية الحسابات القديمة. تناولنا الغداء في ظلة الهرم، ووسط الجماعة الطّفيلية، وذهبت أنا وجالك، للقيام بجولة قصيرة. تبعنا بالنّباح فريق من المتسوّلين. أحاطوا بنا

شهد ميلادها، وازدهارها، وشهد أيضا زوالها، يتأمل الأفراح والأتراح، والموت والحياة، والعظمة والانحطاط، على مدار خمسة آلاف عام، تمرّ وئيدا. إنّه الذّاكرة، في استعادة أحداث الماضي وتأملها وصوغها في الواقع المرئي والماديّ. سيحسّ كل من يعرف معنى الرّثاء في ذكري أيّام خلت وبشر رحلوا عن الدّنيا، ولم يمض على رحيلهم غير أعوام قليلة، سيحسّ بشيء من الارتياح، وهو يتابع ما تنطق به هاتان العينان من رثاء، وما تتطلع به في ثبات إلى أحداث وقعت قبل أن يدون للإنسانيّة تاريخ، وقبل أن يعرف الإنسان النواميس، أحداث وقعت في تلك الفترة، وأنماط حياتية استهلّت نشاطها في عصر لفّه الغموض، عصر لم يعرف فن الشّعر والرّواية إلاّ بالكاد، حيث زال عنها نمط حياتيّ بعد آخر، وخلّف لنا ناسكا حالما، يحيا الآن عصرا تسوده الغرابة، ومشاهد عجز عن إدراكها .

إنّ «أبو الهول» عظيم في معتزله، مهيب في عظمته، لافت فيما يكتنف سيرته من أسرار. وهناك فيما يحمل هذا الوجه الحجري من مهابة طاغية، ووذاكرة ناقدة لكل ما قامت به كلّ الأجيال من أعمال، ما يكشف للمرء عمّا سيشعر به حين يقف في حضرة الله الرهيبة يوم الحساب.

هناك أشياء لا بدّ من الوقوف عندها لأنّها تمسّ سمعة أمريكا، ربّما وجب ألاّ يصرّح بها، ولكن يحدث أحيانا أن يكون في تلك الأشياء ذاتها ما يجدر أخذه بعين الإعتبار، ليصب ذلك في مصلحة الأمريكيّين أنفسهم. ظهر ونحن وقوفا أمام التمثال ثؤلول أو بثرة أو شيء من هذا القبيل على فكّ «أبو الهول»، وسمعنا كالمعتاد طرق مطرقة، وأدركنا الأمر في التوّ. كان أحد السّذج من ذوات الأربع من جماعتنا أقصد سارقي الآثار قد تسلّق التّمثال، وحاول كشط قطعة تذكاريّة، من وجه أعظم ما صنعت يد إنسان. لكنّ التّمثال الشّامخ كان يتأمّل ما مضى من عصور، بما عهده نفسه من زرانة، غير آبه بحشرة تافهة، تعبث بفكّه. كافح الجرانيت المصريّ على مرّ العصور عوامل الزّمن من عواصف وزلازل، ولم يتأثّر بطرق مطرقة رحالة أغبياء، وجوّالة يهوون جمع القطع التّذكاريّة. أصابه في محاولته تلك الفشل، بعثنا بشيخ لتوقيفه، لو وسعه ذلك، أو تحذيره، فقوانين مصر تجرّم مسعاه، وتعاقبه بالحبس أو الغرامة أو الضّرب بالفلقة. تراجع عن فعلته ومضى إلى حال سبيله.

نحت «أبو الهول» الذى يبلغ، على ما أذكر، مائة خمسة وعشرين قدما طولا، وستّين قدما ارتفاعا، ومحيط رأسه مائة قدم واثنين، نحت من كتلة حجريّة تفوق الفولاذ صلابة،

وهي تساوي طول فندق الشّارع الخامس، وتلك الكتلة من الحجر كانت بهذا الحجم قبل أن يتبدد ربعه أو نصفه، (حسبما تقتضي أعمال النّحت)، أي ما يعادل نصف كتلته الأصلية قبل الشروع في نحته.

سجّلت هذه الملاحظات والأرقام، كي أستلهم، ما بذل فيه من جهد، روعي فيه الدّقّة البالغة، والتّناسق والاكتمال، وكلّها تتطلّب الكثير. يبلغ هذا النوع من الحجارة، قدرا كبيرا من الصّلابة، جعلت معالم التّمثال الدّقيقة والظّاهرة، باقية على حالها بما كنت عليه نفسه من بروز، لم يطرأ عليها أيّ تحوّل، ناهيك عمّا تعرّضت ولا زالت تتعرض له من عوامل الجو على مدار ألفي عام أو ثلاثة. هل استغرق العمل في التّمثال مئة عام من الشّغل الشّاق؟ هذا وارد.

طرأ ما حال بيننا وبين زيارة البحر الأحمر والسّير فوق رمال جزيرة العرب. لا يسعني وصف مبلغ روعة جامع محمّد علي. أقيمت جدرانه الدّاخليّة كلّها من المرمر السّميك اللامع، ولا يسعني الحديث عن الطّيور التّي تبني لها أعشاشا،في حنايا الثّريّات الضّخمة، والمعلّقة بالمسجد، ومبلغ انتشار تلك الطّيور في أرجاء المكان، مغرّدة بأعذب الألحان. في غير خشية من أن يتعرّض لها أحد بأذي، فاجترائها على المكان، متاح لها، وحقوقها مصونة، حتّى لو عمل المسجد دون إضاءة، ولا يسعني سرد ما روي ولا يزال يتوارد، بشأن مذبحة القلعة. ولا أرغب في هذا السّياق في التماس العذر للمماليك، أو تناول قصّة المملوك الوحيد الذّي نجا من المذبحة، والذى قفز بحصانه من فوق أسوار القلعة، على ارتفاع مائة قدم، لأنّني لست بصدد شيء من هذا القبيل، فأنا بدوري أستطيع أفعل ذلك، ثمّ لا يسعني الحديث عن بئر يوسف الذّي حفره في هضبة القلعة، في قلب الصّخر، والذّي يحتفظ حتّى الآن بجودته، ناهيك عن وجود البغال نفسها، التّي كان قد اشتراها لسحب ماء البئر (بسلاسل لا نهاية لها، فلا تزال البغال عند البئر حتّى الآن، وهذه بدورها أدركها الإعياء، ولا يسعني الحديث عن الأجران التّي أقامها يوسف لتخزين سنابل القمح، وكيف أن المضاربين قاموا ببيعها، بثمن زهيد، غير مدركين لما سيحدث من عجز في الحنطة في كلّ أنحاء البلاد، وكان حريا بهم تخزينها، ولا يسعني ذكر، شيء عن مدينة القاهرة، تلك المدينة الغريبة العجيبة، بسبب كثرة ما كتب عنها في هذا السّياق، من مبالغات وحشو، في الحديث عن مدن الشّرق التّي سبق أن تحدّثت عنها بالفعل، ولا يسعني ذكر القافلة الكبيرة التي تتجّه للحجّ إلى مكّة كلّ عام، لأنّني

لم أشهدها بعيني، ولم أتعرّف على كيفية اصطفاف النّاس في صفّ واحد طويل وسجودهم على الأرض، ليطأ رئيس البعثة الصّف بقدميه، لدى عودته من مكّة، وبلوغه نهاية الصّف، ليحقق خلاص السّاجدين من ذنوبهم، وذلك أيضا لم أره بأم عيني.

ولا يسعني في هذه العجالة ذكر السكّة الحديديّة، لأنّها مثل أيّ سكك حديديّة أخرى، لكنّي في هذا السّياق، أذكر هذا الوقود الذّي يستخدمونه في إدارة القاطرة، والمكوّن من الموميّات التّي مضى عليها ثلاثة آلاف عام، بعد شرائها بالطّن، أو بالمقبرة خصّيصا لهذا الغرض، وقد سمعت قائد قاطرة جاهل يقول عنه: «وسحقا لهؤلاء الأوغاد، فهم لا يحرقون منه ما يعادل سنتا، سحقا للملك(*)»، كما أنني في غنى عن ذكر، مجموعة المخروطيّات الطّينية، المتلاصقة معا، كأعشاش الدّبابير، فوق ألف كومة تعلو ارتفاع مؤشّر منسوب النّيل متناثرة بطول مصر وعرضها، إنّها تلك القرى التّي تسكنها الطّبقات الدّنيا من الشعب، أوذكر المساحات الشّاسعة من الأراضي الخضراء، التّي يزرع فيها القمح بوفرة، والتّي تسرّ برؤيتها العين، كلّما نظرت إليها، عبر صفاء جوّ مصر واعتداله، فضلا عن ذكر صورة الأهرامات من مسافة خمسة وعشرين ميلا، فالصّورة فائقة الشّفافية، ويعجز قلم يعوزه استلهامها عن رسم أطرها الأساس، وذكر حشود النّسوة سود البشرة، وهن يتدفّقن نحو عربات السكك الحديدية لحظة توقّفها القصير في أحدى المحطات، يبعننا ماء الشّرب، أو عصير الرمّان الأحمر، وعن جموع الملوّنين، بثيابهم الغريبة، التي تزيّن معرضا بأكمله وجدناه قائما على قدم وساق، في موقف بربريّ آخر للسكك الحديدية، أو الحديث عن صيامنا على رطب البلح، في مشهد طبيعيّ خلاّب طوال هذه الرّحلة القصيرة، ووصولنا أخيرا إلى مدينة الإسكندرية، وجلبتنا وتجمّعنا أمام محطة القطارات، وانتقالنا إلى السفينة بالقوارب، مخلّفين وراءنا أحد الرّفاق (اتّخذ وجهته أوروبا قبل عودته إلى الوطن)، ثمّ رفع المرساة، واتّجاهنا شطر الوطن في نهاية المطاف، بعد رحلة طويلة، ثمّ لقائي بجاك لحظة غروب الشّمس وحوارنا حول أقدم بلد عرفه العالم، ووقوفنا معا في خشوع، داخل غرفة التّدخين، وافتقادنا الرّفيق الذّي غاب عنّا ليلة كاملة، وأنّنا لن نشعر براحة في غيابه. لن

(*) ذكر لي أن هذه الحادثة قد وقعت بالفعل، وأذكرها هنا كما وردت علي لسان صاحبها، كما أنّني مستعدّ لتصديقها، فأنا أصدّق أيّ شيء.

أبوح بكلمة واحدة فيما أوردته من أحوال. ولن أكتب سطرا واحدا. ذلك أنّ ذلك سيوضع في كتاب مختوم. لم تقع عليه عيني من قبل ولكنّ تعبير الكتاب المختوم هذا. يساق هنا. لأنّه تعبير متداول.

سررنا بزيارة البلد الذى كان بمثابة الأم للحضارة الإنسانيّة. والذّي علم اليونان لغتها. ومنها تعلّمها الرّومان. ومنهما تعلّمها النّاس كافّة. البلد الذى استطاع أنسنة بني إسرائيل بعد خيبة أملهم. لكنّها سمحت لهم بالرّحيل عنها. وهم أدنى حالا من المشرّدين.

لقد سررنا برؤية هذا البلد الذّي كان لديه معتقد تنويريّ. يؤمن بثّواب وعقاب ما بعد الموت. في الوقت الذّي لم يكن في عقيدة بني إسرائيل ما يبشّر بأمل في حياة ما بعد الموت. سررنا بالبلد الذّي عرف صناعة الزّجاج قبل أن تعرفه إنجلترا بثلاثة آلاف عام. واستطاع تلوينه. بطريقة تفوق ما توصّلنا إليه الآن في هذا المجال. وهو البلد الذّي عرف الطّبّ والجراحة. الذين لم يتوصّل إليهما العالم إلاّ مؤخرا. وكان لديه من أدوات الجراحة. ما يتمّ ابتكاره حديثا. والبلد الذّي حقّق سبقا كبيرا في توفير متطلّبات الحياة الأساسيّة. ووسائل الرفاهية. التّي لم نطوّرها. ونحقّق تراكماتها في أزمنتنا الحديثة. إلاّ على نحو تدريجيّ. والتّي ادّعينا استحداثها. وعرف الورق منذ قرون عزّ على التّاريخ ذكرها. وقبل أن نحلم به. وعرف مساقط المياه قبل أن تخطر ببال نسائنا. ووضع نظام الدّراسة الكامل في المدارس العامّة. قبل مباهاتنا بإنجازاتنا في هذا المجال بزمن ضارب في القدم. ذلك البلد الذّي برع في تحنيط جسد الميّت. وجعله يكاد يتحدّى الفناء. وهو ما لم نستطع التوصّل إلى الكشف عن إسراره حتّى الآن. وبني المعابد التّي تسخر من مرور الزّمن. وتبسم امتعاضا من ضخامة بعض مبانينا الذّي نشير إليها بالبنان. ذلك البلد الذّي عرف كلّ ما يمكن الآن أن نعرفه. بل وأكثر منه والذّي سار في طريق الحضارة الفسيح والممتدّ في فجر الخليقة. قبل أن نولد بعصور طوال. ما ترك بصمة لارتقاء العقل. وتطوّره. على وجه «أبو الهول» الخالد. ليخزي به كلّ الهازئين به. حين زالت الأدلة التي تشير إلى ذلك. أولئك الذّين ربما يسعون إلى إقناع العالم بأنّ مصر الإمبراطوريّة. كانت تتلمّس خطاها في الظّلام في عصور مجدها التّليد.

الفصل التّاسع والخمسون

نحن الآن في عرض البحر، كان علينا المرور بالشرق كله، وقطع سواحل البحر الأبيض بالكامل أيضا واجتياز عرض الأطلنطي كلّه، في رحلة طويلة استغرقت عدة أسابيع عدّة. وكان من الطبيعي أن نركن إلى ما عهدناه في البقاء بالبيت من مسلك حياتي يبعث على الرّتابة والملل، فقرّرنا الرّكون إلى السكّينة والتصرف بتؤدة، والتوقّف عن التسكّع هنا أو هناك لعشرين أو ثلاثين يوما. لم يتجاوز تجوالنا في السفينة ما بين مقدّمها والمؤخرة. إلاّ إن ذلك كان مشهدا يبعث على الراحة، لأننا كنّا متعبين، وفي حاجة إلى فترة راحة طويلة.

ركنّا تماما إلى الراحة والكسل، كما يؤكدّ ذلك قلّة ما دونت من يوميّات، وفيه أيضا دلالة على الوضع الحالي. ومن الحمق أن نكتب يوميّات ونحن في عرض البحر.

تابع من فضلك النّماذج التّالية :

* الأحد: أداء الطّقوس الدّينية المعتادة، عند دقّ الجرس أربع دقّات. أداء طقوس اللّيل أيضا. لا للعب الورق.

* الاثنين: يوم جميل، تصحبه أمطار غزيرة. يجب جزّ شعر المواشي التي اشتريناها من الإسكندريّة، حيث يرسو الماء في فجوات عميقة ما بين الكتفين، وفي مناطق متفرقة على الظّهر. وكان الأفضل ألاّ تكون أبقارا فهي تسرف في شرب الماء وتهدر اللّبن. البؤس والكآبة باديان تحت المطر على نسر الشؤم المسكين(*) منذ رحيله عن سوريا. حيث حطّ

(*) أهدى بعد ذلك إلى الحديقة المركزيّة.

على أداة رفع المرساة. يبدو أنه كان له رأيه الخاصّ في الرحلة البحريّة، لو اختصر في لغة من اللغات وكتب لهذه اللغة البقاء، لوقفت سدًا منيعا يعوق مسار أكثر أنهار العالم سعة.

* الثلاثاء: استحالة التوقف في منطقة متاخمة لمالطا. الكوليرا. طقس جدّ عاصف. أصيب كثير من الأجانب، بدوار البحر، وانعدام الرّؤية.

* الأربعاء: لا يزال الطّقس على حالته السّابقة، من السّوء. ألقت العاصفة بطائرين إلى البحر، فصعدا إلى ظهر السفينة، دفعت الريح أيضا بأحد الصقور، فظلّ يدور حول السفينة عدة مرات رغبة منه في أن يستقر، بكنه كان يخشى الناس. بلغ به التعب حدا أجبره على أن يحطّ فوق السفينة وإلاّ تعرض للهلاك. توقّف مرارا فوق السّارية الأمامية، لتدفه به الريح، وأمسكه هاري في النهاية. البحر مليء بالسمك الطّيّار. كانت أسراب كبيرة منه، تندفع بغتة فوق الأمواج، لمسافة مائتين أو ثلاثمائة قدم، ويسقط ثم يختفي.

* الأربعاء: رست السّفينة على السّواحل الجزائريّة في أفريقيّا. مدية جميلة. خلفها مروج خضراء جميلة. توقّفنا هناك نصف يوم ثم رحلنا. لم يسمح لنا بالهبوط إلى البرّ، رغم إظهار شهادة بخلوّنا من الأمراض. كانوا يخشون الطّاعون المصريّ.

* الجمعة: لعب الدّومينو، صباحا. لعب الدومينو بعد الظّهر. التريّض مساء، على ظهر السّفينة. أعقب ذلك الاشتراك في لعبة تؤدّى في مشاهد تحزيريّة.

* السّبت: صباحا، دومينو. بعد الظّهر، دومينو. مساء، دومينو. تريّض على ظهر السّفينة. أعقب ذلك الدّومينو.

* الأحد: صلاة الصّباح، أربع دقّات من الجرس. صلاة المساء ثماني دقّات. على الوتيرة ذاتها، حتّى منتصف اللّيل. يلي ذلك الدومينو.

* الاثنين: صباحا، دومينو، ظهرا،دومينو، مساء، تريّض على ظهر السّفينة. مشاهد تمثيلية تحزيريه. أعقبتها محاضرة الدكتور سي. دومينو.

* دون تاريخ: رسوّ على ساحل مدينة كاجلياري الجميلة في سردينيا، توقّفنا هناك حتّى منتصف اللّيل، ولكن لم يسمح لنا بالنّزول إلى البرّ برفقة هؤلاء الغرباء الملاعين، الذين يفوح منهم العطن، حيث لا يغتسلون، وذلك كي لا يتعرضوا للاصابة بالكوليرا.

* الخميس: رست السّفينة على ساحل مدينة ملقا الجميلة في إسبانيا والتّي تضمّ الكاتدرائيّة الأسقفيّة. اتّجهنا إلى الشاطئ في قارب القبطان، ولم نهبط إلى البرّ أيضا، فقد حالوا بيننا وبين ذلك بسبب الحجر الصّحي. بعثت برسالتي على الصحيفة، فالتقطوها بملقاط، وغمروها بمياه البحر، ثم قاموا بتطهيرها بالبخار الرديء، ففاحت منها رائحة إسبانيّة تزكم الأنوف. استفسرنا عن فرص تجاوز المتراس، لزيارة الهامبرا في جزيرة جرينادا، قالوا إنّها مخاطرة كبري، قد تصل إلى عقوبته ١٨ إلى الإعدام شنقا. أبحرنا عصرا.

«هكذا تمرّ الأيّام دواليك، واستمرّ الحال هكذا بضعة أيّام. رسونا في النّهاية على ساحل جبل طارق».

يذكّرني الحال بجريدة أسّستها ذات يوم، مع مطلع العام الجديد، حين كنت شابّا يافعا، متأثرا بوهم الرّغبة في إقامة مشاريع عصية على التّحقيق، ما كان يطلق عليه مشاريع الإصلاح. تلك التّي أسستها العجائز والجدّات، لصالح اللاهين من الشّباب، خلال تلك الفترة من السّنة، وتكليفهم بأعمال غير اعتياديّة، كانت تواجه بالفشل الذّريع، وتثبّط همّة الفتى، وتمحو ثقته بنفسه، وتعطّل فرص نجاحه في الحياة.

* الاثنين: استيقاظ، اغتسال، عودة إلى الفراش.

* الثلاثاء: استيقاظ، اغتسال، عودة إلى الفراش.

* الأربعاء: استيقاظ، اغتسال، عودة إلى الفراش.

* الخميس: استيقاظ، اغتسال، عودة إلى الفراش.

* الجمعة: استيقاظ، اغتسال، عودة إلى الفراش.

* الجمعة التّالي، كالجمعة السّابقة.

توقّفت عن الكتابة في تلك الفترة لشعوري بخيبة أمل. فقد بدت الأحداث المجفلة في مجال عملي من النّدرة الشديدة، بحيث تلزمني بتسجيل اليوميات. ومع ذلك فإنني لا أزال أتأمّل بكل فخر، أني أقدمت على الغسل، حال استيقاظي من النّوم، حتّى وأنا في تلك السنّ المبكّرة، ولن أتجاسر على مواصلة كتابتها بعد. فقد تواصل فقدي الثّقة في نفسي.

اضطرّت السفينة للبقاء في جبرالتار، لمدة أسبوع، للتزوّد بالوقود، لمواصلة رحلة العودة إلى الوطن.

سيدفعنا البقاء هنا إلى الإحساس بملل شديد، لذلك أقدم أربعة منّا على تجاوز متراس الحجر الصّحي، وأمضوا سبعة أيّام سارة في سيفيل، بكوردوفا كاديز، وتجوّلوا بين المشاهد الريفية الآسرة في الأندلس، بستان إسبانيا القديم. وكانت تجارب الأسبوع السّار، من الوفرة والتّنوع، ما يفوق حصرها في فصل قصير، ولم أفرد لها مساحة كبيرة لأنّني سأتجاوز عنها كلّها.

الفصل الستّون

في العاشرة أو الحادية عشر في صباح أحد الأيّام، وجدنا أنفسنا على الطّريق إلى كاديز، حيث أبلغنا أنّ السّفينة ستبقي في المرسى لساعتين أو ثلاث، ولا يمكنها البقاء لفترة طويلة بسبب الحجر الصّحّي. عدنا سريعا إلى السفينة وخلال ساعة، كانت المدينة البيضاء وشواطئ إسبانيا، قد غابا عن أنظارنا، خلف أمواج البحر، وغابت اليابسة أيضا، ما أثار فينا مزيد من الشّجن.

تقرّر في اجتماع عام، شابه صخب، عقد داخل الكابينة الرّئيسة، استحالة ذهابنا إلى ليشبونه، بسبب توقّع تعرّضنا للحجر الصّحر هناك. قمنا في أثناء حضورنا الاجتماع، بكلّ ما يخطر ببال، بدافع النّعرة الوطنيّة القديمة، بدءا من استبدال القائم على تنفيذ برنامج الرّحلة، وانتهاء بالتّذمّر من الشّراشف وقلّتها. أتذكّر الآن شكاية أحد الرّكّاب بشأن أداء مطبخ السّفينة. فالقهوة المقدّمة كانت تزداد سوءا على مدار ثلاثة أسابيع، وصارت في النّهاية لا تمتّ إلى فصيلة القهوة بصلة، وتبدلت من حيث الشكل إلى مجرد ما. لا لون له، ذلك ما ذكره الشّاكي. ذكر أنّ رقّة قوامها بدت بطول بوصة في العمق حول حافة الكوب. حين اقترب من المائدة ذات صباح، رأى ببصره الثاقب الحافّة الشفافة، قبل أن يبلغ مقعده. رجع شاكيا ذلك للقبطان دنكان بتكبر. ذكر أنّ القهوة مقزّزة. فأراه القبطان قهوته. بدت جيدة نوعا ما. ازداد هياج أوّل المتذمّرين عن السّابق، حيث شجب الصورة التي تميّز مائدة القبطان عن غيرها من الموائد. أسرع بالعودة إلى مكانه، وتناول كوبه ووضعه على الطّاولة شاعرا بالانتصار، وقال له:

«أيّها القبطان دنكان، جرّب هذا المزيج مرّة فحسب».

اشتمّ الرّجل رائحة السّائل ثمّ تذوّقه، وتبسّم في رقّة وقال.

«ذلك السّائل أسوأ من أن يطلق عليه قهوة. لكنّه شاي على الأرجح».

اشتمّه المتمرّد التّعس. وتذوّقه، وعاد إلى مقعده. بعد أن جعل من نفسه عنوانا للغباء أمام الجميع. ولم يعد إلى فعلته هذه مجدّدا، وتقبل فيما بعد كلّ ما يقدّم إليه دون تذمّر.

عادت الحياة الآن على ظهر السّفينة إلى سالف ما عهدناه، حيث توارت اليابسة تماما عن الأنظار، وسار الحال على وتيرة واحدة عدّة أيّام، لا يختلف فيها يوم عن الآخر، وكلّ منها كان مبعث رضا لي. رسونا أخيرا على مكلأ «فانشال»، بالجزر الرّائعة التّي نطلق عليها الماديرا. بدت على نحو مفرط في الجمال، حيث اكتست بالخضرة اليانعة، وتشكّلت فواقها البركانية إلى أضلاع، ورقّطت بأكواخ بيضاء ورقّشت بشقوق عميقة مؤرجنة، وزهت منحدراتها المائلة بضياء الشّمس، ونقّطت بظلال. تداعت فوقها من أسراب الغيوم السّابحة في الفضاء، وتوّجت تلك اللّوحة الآسرة بقمم شاهقة زحفت عليها هدب متثاقلة من الغيوم.

لكنّنا لم نتمكّن من الهبوط إلى البرّ. ومكثنا طوال اليوم نترقّب. ولعنّا من يفرض الحجر الصّحي. وعقدنا اجتماعات حاشدة ستّ. حشدناها بمسلسل من النقاش المتقطع، ومقترحات وئدت في المهد، وتعديلات لم تسفر عن شيء، وقرارت ماتت إعياء قبل أن تحقّق الغاية منها. أبحرنا حين جنّ اللّيل.

قدرنا عقد أربعة اجتماعات عامّة في الأسبوع للرّحلة. وبدأنا ننهج دوما هذا السبيل، وغالبا ما كنّا ننخدع، بأننا خلال الفترات الطويلة الفاصلة، نتوصّل إلى قرار مقبول، ما كان يشعرنا بالبهجة، فنقوم برفع العلم، وإطلاق إحدى الألعاب النّاريّة.

مرّت أيّام وليال، ولاحت من بعيد، جزر بيرمودا الرّائعة، اجتزنا القناة الأفعوانيّة، وتوغّلنا هنا وهناك، وسط جزر الصيف المضيئة، واسترحنا في النّهاية في ظلّ العلم البريطانيّ، بعد أن استقبلنا بحفاوة. لم نكن نمثّل كابوسا هنا، كالذى سبّب إزعاجا أهل التحضر من إسبان وإيطاليّين، خشية إصابتهم بمرض الكوليرا المرعب. أعادت إلينا الحيوية والنشاط عدة أيّام قضيناها وسط الخمائل الجميلة، والبساتين المزهرة والكهوف المرجانيّة، ومشاهد رائعة في مياه البحر الزّرقاء، والتّي ينعطف مسارها جيئة وذهابا، لتظهر تارة وتختفي أخرى، عبر دغل متشابك من أوراق النّبات اللاّمعة. بعد طول تبلّد وخمول عانيناهما فوق

المحيط. تجهّزنا لآخر مراحل الرّحلة، وهي الألف ميل الأخيرة، للوصول إلى نيويورك، أمريكا، الوطن.

دعونا أصدقاؤنا البرموديّون إلى حفل وداع، حسب ما اتفّق في البرنامج، وكان الزّنوج يمثّلون غالبيّة ممن ألفناهم وتوثّقت عرى المودّة فيما بيننا مجدّدا.

كانت الغالبية مَن تآلفنا بهم من الزّنوج، وقد تواصل بيننا الود الكبير. قلت الغالبية، فمن عرفناهم من الزّنوج يتجاوز من عرفنا من البيض، لأنّ لدينا كمّا من الأشياء في حاجة إلى الغسل، كثيرا، لكنّنا أقمنا صداقات مع أشخاص ممتازين من البيض، ووجب أن نذكرهم دوما بالخير.

أمسكنا منذ لحظة إبحارنا، عن كلّ مسببا، الخمول، واتّبعنا منهجا مخالفا للسّابق، ظهر في تنظيف الكبائن، وحزم الأمتعة، ما لم نكن نعيرهما اهتماما، منذ رحيلنا عن بيروت، وانشغل الكلّ بشئونهم الخاصّة. كان علينا عمل قوائم بالمشتروات، ألحقت بها الأسعار، لتسهيل إجراءات الجمارك. وكان لا بدّ من تـوزيع ما اشتـركنا في سر.نه بكمـيات كبيرة كلّ بحسب مشترواته، ثمّ أسقطنا ما أعدم من ديون من القوائم وسوّينا الحسابات، ووضعنا الملصقات على صناديق الأمتعة، والحقائب. وتواصل الاضطراب والجلبة طوال فترات النّهار.

تصادف وقوع أوّل ما واجهناه من حوادث. كان أحد الرّكاب يمشي عبر ممّر، وسط الأحمال الموضوعة على الأرض في ليلة عاصفة، فانزلقت قدمه في رزّة غطاء باب أهمل غلقه في الأرض، فكسرت عظمة كاحله. وكان ذلك أوّل ما واجهنا من أحداث مؤسفة، بعد أن قطعنا قبل ذلك مسافة عشرين ألف ميل، في الرّحلة برّا وبحرا، وفي أجواء مغايرة، دون أن يصاب أيّنا بجرح أو مرض عضال، ودون أن تحدث حالة وفاة واحدة، بين خمسة وستين راكبا، وقد صادفنا التّوفيق طوال الوقت. ذات ليلة ونحن في القسطنطينيّة، صعد أحد البحّارة إلى ظهر السّفينة ثم اختفى، وأثير شكّ في أنّ يكون قد قصد الدخول إلى الصّحراء واحتمال ضئيل بتوجّهه إلى الشّاطئ. لكنّ قائمة الرّكاب كانت مكتملة، ولم يسقط منها اسم راكب من المسّجلين على الرحلة قطّ أخيرا وذات صباح جميل، لفّ البخار ميناء نيويورك ووقف الجميع على ظهر السّفينة بالزيّ المسيحيّ، نزولا على أمر منهجيّ متّبع، حيث مال البعض

إلى البعض إلى الظّهور باللّباس التّركي. لاحظ الحجاج من اهتزاز شراع السّفينة ووسط تلويح بالمناديل، وترحيب بالأصدقاء، أنّ السفينة والميناء يتصافحان مجدّدا بالأيدي، ليعلنا عن انتهاء رحلة عجيبة، آمين..

تذييل

أدرج هنا مقالا، قمت بكتابته لصحيفة الهيرالد نيويورك، ليلة عودتنا. ذلك أنّ عقدي مع الناشرين من جهة كان يلزمني بذلك، ومن جهة أخرى لأنه يعد ملخصا مناسبا ودقيقا إلى حد ما، وشاملا للرحلة الطويل على السفنة، وأنه يوضح سلوك الحجّاج في الخارج، وحيث إن بعض الرّكاب يلعنونني لكتابته فإنني أرغب من عامة القراء، تقدير تحمل المرء تبعات عمل لا طائل من ورائه، أوقعه في أحبولة إطراء أناس لا يستحقون الإطراء وهذا من جهة ثالثة. لقد اتهمت بالهرولة إلى نشره وقد تضمن هذه الاطراءات، وذلك لم يحدث. أحيانا ما كنت أكتب رسائل إخبارية للهيرالد، لكنّي أيضا حين قمت بزيارة مكتب الصّحيفة، لم أذكر في ذلك اليوم شيئا عن كتابة رسالة لهذه الناسبة. لقد ذهبت إلى مكتب جريدة التربيون، للتأكد من الرغبة في كتابة مثل هذا المقال، لأنني أنتمي منذ فترة إلى هيئة تحرير تلك الجريدة، وذلك ببساطة كان ضمن ما كنت منوطا بأدائه للجريدة. كان مدير التّحرير غائبا عن المكتب في هذا اليوم، ولم أعد أولي هذا الأمر اهتماما. وحين ورد إليّ في المساء طلب الهيرالد بكتابة مقال، لم أتعجّل الأمر. الحقيقة أنّني قد ترددت لفترة، لأنّي لم أجد ميلا لكتابة اطراءات حينها، وكنت أيضا أخشى الخوض في شأن الرّحلة، حتى لا أستدرج إلى استخدام أسلوب إطرائي مختلف. فكرت رغم ذلك، في أنّه من الأصوب والأجدر بي مسايرتهم وكتابة كلمة رقيقة، تطيب خاطر الهادجيز. حيث إنهم أناس قد أدّوا الفريضة، ولا يمكن لمن لا يهتم بالأمر، أداء تلك المهمّة كما يؤديها هادجي مثلي، وبناء عليه، فإنّني قمت بتدبيج مقال لهذه المناسبة. قرأت المقال، ثمّ أعدت قراءته، وأرى أنه إذا لم يتضمن عبارة اطراء واحدة في القبّطان والسّفينة والرّكاب، فإنّ ذلك يرجع إلى عجزي عن استنباطها. وإن لم يكن هذا الفصل مصدر فخر أيّ فريق، بأن لديهم من يكتب عنهم، فإن رأيي يجانب الصواب. وفي ضوء هذه الملاحظات، أترك الأمر لحكم القارئ النّزيه.

عودة المسافرين من الرحلات إلى الأرض المقدّسة

قصـــة الرّحلــة الطويلة

* * * *

السيّد محرّر جريدة الهيرالد :

لقد انتهت سفينة «الكويكر سيتي» البخارية، من رحلتها الرائعة أخيرا وعادت إلى رصيف مرفأها القديم، الواقع في آخر شارع وول ستريت. نجحت الرّحلة في بعضها، ولم تنجح في البعض الآخر. اندرجت في الأصل تحت مسمّى «رحلة ترفيهيّة»، لكنّها لم تبد لنا في الحقيقة كذلك، ولم يكن بها ما يدّل على ذلك. يعرف النّاس أنّ الرحلة السياحية عادة مـا تضمّ جماعة، من الشّباب، المحبّين للهو والقصف، ومن الذين يحلو لهم الرّقص، والغناء وممارسة الحبّ، مع ما تيسر من إرشاد ديني. أما انطباعات الناس فرادي وجماعات عن الإعداد الجيّد لجنازة، فيصبّ بالضّرورة في وجود جثمان ونعش وعربة للموتى، ومشيّعين من أهل الميّت، ومشيّعين من ذوي القربى والأصدقاء، ورهط من الكهول يلفّهم الوقار، ويبطل الطّيش، ضف إلى ذلك حضور صلاة الجنازة والخطبة الدّينيّة. كان ثلاثة أرباع ركّاب «الكويكر سيتي»، وبين سنّ الأربعين والستّين! أشار ذلك إلى أن رفقة النزهة في انتظارك! حمل ذلك إلى الظنّ بأن يكون الربـع الباقي من الفتـيات الـشّابات. كان الأمـر على النّقيض، لأن هذا الرّبع كان يضمّ جماعة من العزّاب المنكودين الكهول، وطفل واحد عمره ستّة أعوام. فإن قدرنا متوسط أعمار الحجّاج المسافرين على «الكويكر سيتي» بالخمسين عامـا. فهـل بلغ امرؤ من الجنون، ما يدفعه إلى تصّور، أن شيوخا أجلاّء في رحلة ترفيهية، قد أقدموا على الغناء والرّقص والضّحك والتندّر، والتعامل بطيش مأثّم. أذكر من خلال تجربتي، أنهم قد أثموا قليلا في تلك الأمور. لا أشكّ أنّ الأمر هنا داخل الوطن، قد فسر على اعتبار أنّ هؤلاء الكهول اللاّهين قد أسرفوا في الضّحك والقصف والغناء، فضلا عن الصّخب بدءا من مقدم السّفينة وانتهاء بمؤخّرها، وأنهم مارسوا لعبة الاستغمايّة، وأداروا حلبات رقص الفالس، والرّقص الجماعي الشّعبيّ، على إيقاعات الموسيقى، في أمسيات قمريّة، في مؤخر السفينة، وأنهم في لحظات مختلفة خلال أوقات الفراغ، قد سجلوا موجز أو اثنين لليوميات، بتدبير مسـبق، مـنذ مغـادرتـهـم أرض الـوطن، وانصرفوا بعد ذلك إلى ممارسة ألعاب الورق.

مثل الهوكسيت والبوكر. تحت أضواء مصابيح الكبائن. لو سلمنا بحدوث هذه الأشياء، نكون قد ارتكبنا خطأ كبيرا..فركّاب السفينة الموقّرون لم يكونوا من اللاهين. لأنّهم لم يمارسوا لعبة الاستغمّاية. أو لعب الورق، كما أنهم للأسف الشديد. لم يركنوا إلى كتابة يوميّات مملة، لأنّ أغلبهم يكتب الكتب. كما إنّهم لم يقصفوا. ولم ينهمكوا في حوار عبثي. ولم يرددوا الأناشيد، باستثناء صلاة اللّيل الجماعيّة. كانت الرّحلة السياحية كنيسا يهوديًا، ورحلة جنائزيّة بغير جثمان. وليس ثمّة ما يبعث على النشاط في جنازة بغير جثمان).

غلب علينا ألاّ نشنف آذاننا بضحكة عفويّة، نابعة من القلب خلا مرّة واحدة خلال سبعة أيّام سواء كان ذلك في الأماكن المذكورة على ظهر السّفينة أو داخل الكبائن. وحين أصغينا السمع إليها، قوبل ذلك ببعض رثاء عميق. رقص المسافرون مرّات ثلاث، على فترات متباعدة، وحدث ذلك منذ فترة طويلة. طويلة (بدت لنا دهرا)، أدّتها مجموعة واحدة مكوّنة من ثلاث سيّدات وخمسةّ سّادة. ولفّ الرّجال المناديل حول أذرعهم، لتحديد جنسهم، وضبطوا إيقاع خطواتهم، على صفير مزمار الميلديون [آلة أورغن مزماريّة صغيرة] الحزين). لكنّ صفير هذا الأرغنّ الصّغير اعتبر إثما. فتوقّف الرقص إثر ذلك.

لم يلعب الدّومينو إلاّ بعض حين. جعل منه كثير من الباحثين في شئون الأرض المقدّسة من اليوسفيين والرّوبنيين والكتّاب إحدى الضرورات للتّرويح عن النّفس. فلعبة الدّومينو تتسم بالبراءة والاعتدال. شأنها في ذلك شأن أيّ لعبة ترويحية أخرى في الدّنيا. باستثناء ذلك اللّهو الخفيّ، الذّي يطلقون عليه كروكيت، فهي لعبة لا تمكّنك من إسقاط الكرة في جيب الطّاولة، ولا يتكرر ارتدادها بشيء كالبليارد وحين يدركك التّعب لا يشغل مكانك أحد، ولا يتوفر خلالها من المرطّبات ما يبلّ ريقك. لذا فإنها غير محبّبة للنّفس. لعبوا الدّومينو حتّى ضجروا به، فالتفتوا إلى تبادل القيل والقال فيما بينهم، حتّى يحين موعد الصّلاة. كانوا يهرعون إلى مائدة الطّعام، بشكل لافت، بمجرّد سماعهم الجرس، إن لم يحل بينهم وبين ذلك إصابة أحدهم بدوار البحر. تلك كانت صورة الحياة اليوميّة على ظهر السّفينة. وقارا وحشمة، وتناولا لوجبات الطّعام، ولعبا للدّومينو، وأداء للصّلوات. وقيلا وقال. لم يكن في الرّحلة ما يمتّ إلى الترفيه بصلة، لكنّ ذلك كلّه قد انتهى الآن. وأنّنا حين نسترجعه في الذّاكرة، نجد أنّ صورة من أخنى عليهم الدّهر من شيوخ أجلاّء، هي الأبرز

في رحلة ترفيهيّة، عمرها ستّة أشهر، كي تزيد الذّاكرة انتعاشا. كان الخطأ هو الإعلان بأنّها «رحلة سياحية كبرى إلى الأرض المقدّسة »، وكان الأفضل كثيرا تسميتها «الموكب الجنائزيّ الكبير، المتجه إلى الأرض المقدّسة ». أثرنا جوّا من الإثارة إينما حللنا، في أفريقيا وأوروبا وآسيا، ويفترض بي أن أضيف أنّنا قد أحدثنا ندرة في الأشياء. لم يكنّ أيّنا قد ذهب إلى تلك الأماكن من قبل، وكلّنا جاء من قاع المجتمع، وبدا السّفر لنا حدثا غير مسبوق، أجّج فينا الحماس، وربطنا بسجايا فطريّة كامنة فينا، وحال بيننا وبين التزام السلوك الحميد، والتّقاليد المرعيّة. كان اهتمامنا يتركّز في إدراك أنّنا أمريكيّون. أمريكيّون حتّى النّخاع، اكتشفنا أنّ عددا هائلا من الأجانب، لم يسمع عن أمريكا إلاّ بالكاد، وعرف أكثرهم أنّ أمريكا مجرد أقليم يأهله جماعة من الهمج، يقع في أقاصي الأرض، دخل مؤخّرا حربا ضدّ طرف ما. أشفقنا من جهل العالم القديم بنا، لكنّنا لم نتخل قيد أنملة عن كبريائنا. سيظلّ العديد من المجتمعات المتخلّفة الواقعة على الجزء الشّرقي من العالم، يذكر لسنوات، تلك الغزوة التّي شنّها جمع من الهمج في عام ١٨٦٧ الميلاديّ. يطلقون على أنفسهم «أمريكيين» ويتصّورون أنّ لهم الحقّ في المباهاة بذلك، بصورة لا يقرّها أحد. تسبّبنا عامة في إحداث نقص بالأشياء، لأن القهوة المقدّمة على «الكويكر سيتي» لم تكن تطاق، هذا من جهة، ولأن الخدمة الأساسية أحيانا لم تكن قطعا من المستوى الأوّل، ولأنّ المرء بصورة طبيعيّة يسأمه الجلوس مدّة طويلة في المكان نفسه على ظهر السفية، وتناول طعامه من الأطباق نفسها.

طغى الجهل على شعوب تلك الدّول الأجنبيّة. أبدوا استغرابهم من الملابس التّي جئنا بها من أحراش أمريكا، ولفتهم في بعض الأحيان تبادل الحوار بيننا بصوت عال، في أثناء التواجد على مائدة الطّعام. لاحظوا حرصنا في إنفاق المال، واستطاعتنا بكلّ ارتياح الحصول على مقابل كل فرنك ننفقه، وحرصنا أيضا على تأكيد هويّتنا. تطلّعوا إلينا في باريس باستغراب، وتفرّسوا فينا حين بادلناهم الحوار بالفرنسيّة! وفشلنا تماما في دفع أولئك الأغبياء على فهم لغتهم الأمّ. تحدّث أحد رفاقنا في الرّحلة إلى صاحب حانوت، وكان يطلب زوجا من القفّازات فقال له بفرنسيّة لا تمت إلى الفرنسية بصلة «اهدأ بالا، فربّما نأتي إليك يوم الاثنين»، ثمّ هل تصدّق أنّ صاحب الحانوت لم يفهم ما قاله الرّفيق. يبدو لي أحيانا أنّ هناك اختلافا بين فرنسيّة الباريسيين، وفرنسيّة «الكويكر سيتي».

أينما ولّينا وجوهنا، تفرّس النّاس فينا، ولم يكن أمامنا إلاّ أن نبادلهم ذلك. فقد جعلناهم بعامّة يشعرون بصغر شأنهم، قبل أن يبدوا تبرما بنا، وسحقناهم بعظم شأن أمريكا. تكيّفنا والعادات والسّلوك وبصفة خاصّة أساليب الحياة في مختلف الدّول التّي زرناها. حين هممنا بالرّحيل عن جزر الآزور، اعتمرنا قلانس كبيرة الحجم، واستخدمنا من الأمشاط رفيع السّنّ، واعتمرنا طرابيشا من نوع رديء ذات شراريب مدلاّة أشبه بخصلة شعر من رأس هنديّ أحمر. لدى عودتنا من طنجة الأفريقيّة، بهذه الأزياء لفتنا الأنظار في فرنسا، وظنّ الإيطاليّون هكذا من النظرة الأولى أننا غاريبالديّون، من مثيري القلاقل. خصّصوا قاربا حربيًا لكشف ما يطرأ على مظهرنا التقليديّ من تغيير. أثرنا في روما ولولة، وهو ما فعلناه نفسه في أيّ مكان آخر، حين كنا نرتدي ملابسنا كاملة. لم نظهر بثياب جديدة في اليونان، فاليونانيون يفتقرون إلى التنوع في هذا المجال. تغير مظهرنا كثيرا في القسطنطينيّة. ظهرنا هناك بالعمائم والسّيوف المقوسة، والطّرابيش، ومسدّسات الفرسان، والتّنانير القصيرة، والأحزمة، والسّراويل الفضفاضة، والخفاف الصّفراء، ويا له من منظر بديع! نبحت علينا كلاب القسطنطينيةّ (إسطنبول الآن) ملء فكاكها، ويبدو أنّها فشلت في تقديرنا حق قدرنا، فقد تبلّدت حواسها لدى وصولنا. لم تستطع مهاجمتنا، بعد دفعنا لها وصدّها عنّا.

اتّجهنا بعد ذلك إلى عمل زيارة لقيصر روسيا دون سابق معرفة به، وكأنّنا كنا نعرفه منذ قرن أو نحو ذلك. حين انتهت زيارتنا، تجهّزنا بتشكيلة رائعة من الثّياب الرّوسيّة، ورحلنا مجدّدا بمظهر أجمل ممّا كنّا عليه في السّابق. انتقينا في سميرنا شيلانا من وبر الإبل، وأشياء أخرى من باب التأنّق ونحن في فارس، انتهت رحلتنا الرّائعة في فلسطين. وآه من فلسطين. فالنّاس فيها لا يلبسون من الثّياب، ما يستأهل الحديث بشأنه. رضينا بهذا، وأمسكنا عنه. ولم نجرّب أو يسع أحدنا إلى ارتداء زيّهم الوطنيّ. لكنّنا أبهرنا أهل هذا البلد، بتلك الثّياب العجيبة، أينما توغلنا فيه. جبنا أرجاء الأرض المقدّسة، من قيصريّة فيليبي، حتّى أورشليم، والبحر الميّت، في موكب غريب من الحجاج، يجول بالمكان بعفويّة، تمشي بوقار وأبّهة، ويتزود بأغطية عوينات خضراء سميكة، ويسير الهوينى، مستفيئا بمظلاّت زرق، وممتط في خيلاء، ظهور جياد كسيحة تستحقّ الرّثاء، وما سواها من حمير وبعير، جاءتنا من سفينة نوح، بعد أحد عشر شهرا عانينا فيها دوار البحر وقلّة الزّاد والزوّاد. لو أنّ بني إسرائيل، قد تناسوا البعثة التّي قامت بها فرقة جدعون الموسيقيّة، من أمريكا إلى

فلسطين، لوجب أن تحلّ بهم لعنة أخرى، أو يمحوا من الأرض. فربّما كان هذا المشهد أكثر إبهارا للعيون الباكية.

لا بأس حيث أوينا إلى فلسطين الوطن. سهل علينا إدراك أنّها كانت المعلم الرّئيس لرحلتنا. إنّنا لم نأبه بأوروبا، فقد مررنا باللّوفر مرور الكرام، وبيتيه، وأوفيتسي والفاتيكان، وبكلّ معارض وكنائس البندقيّة، ونابولي، المزدانتين باللّوحات الرّائعة والرسوم الفريدة، وجلنا بالكاتدرائيّات الإسبانيّة، وذكر البعض أنّ أعمال الروّاد العظيمة أبرزت ما للعبقريّة من قدرات خلاّقة (قرأنا ما يرادف ذلك من أقوال في كتاب المرشد السّياحيّ) مع أنّنا أحيانا ما قبلنا الفكرة الخطأ. وقد ذكر آخرون أنّها لوحات زيتيّة مزرية أخنى عليها الدّهر. أمعنّا في تفحّص التّماثيل القديم منها والحديث، في كلّ من فلورنسا وروما، وفي كلّ مازرنا من معالم أثريّة، وأطرينا على ما يستحقّ منها الإطراء، وإذا لم نفعل، ذكرنا أنّنا فضّلنا عليها مشاهدة الهنود الحمر المتسكّعين أمام متاجر التّبغ الأمريكيّة. لكنّ الأرض المقدّسة أثارت فينا، النّعرة الدّينيّة. شارك الجميع في مشاعر الاحتفاء بشواطئ الجليل القاحلة، وتأملنا تابر والنّاصرة والتهبت مشاعرنا في يزرعيل والسّامرة. بحماس «يهو» الدّينيّ، أثرنا شغبا، شغبا حقيقيًا وسط الأماكن المقدّسة في أورشليم وسبحنا في البحر الميّت، ونهر الأردنّ غير عابئين بكون بوالص التأمين ضدّ الحوادث تتضمّن تلك المخاطر من عدمه، وجئنا بجرار فخّاريّة عديدة معبأة بالماء الكريم، من هناك. لأنّ البلدة من يرشو إلى جبال موآب، كانت معرضّة لشحّ في المياه هذا العام. كان القطاع الأكبر من الرّحلة كلّها مخصّصا للحجّ، وذلك ملمحها العبوس ولا شك. كانت مصر الجميلة بعد فلسطين المكفهرّة، تحتفظ لنا ببعض معالم الفتنة، رميناها بلمحة، وتأهّبنا للعودة إلى الدّيار. لم يسمحوا لنا بالنّزول إلى البرّ في مالطة بسبب الحجر الصّحي، وحدث الشّيء نفسه في سردينيا، والجزائر وسواحل أفريقيا، وملقا إسبانيا وقادش، وجزر الماديراس، ما جعلنا نضيق ذرعا بالأجانب، ونديرلهم ظهورنا، ونقفل عائدين إلى الوطن. أظنّنا لم نتوقّف سوى في بيرمودا، لأنّها كانت مدرجة ضمن برنامج الرّحلة. لم نأبه بشيء في أي مكان زرناه على الإطلاق، فكلّ همنّا كان العودة إلى الوطن. كان الحنين إلى الوطن وباء انتشر على ظهر السّفينة، لو علمت بخطورته السّلطات هنا في نيويورك، لفرضت علينا حجرا صحيًا.

انتهت رحلة الحجّ العظيمة. فوداعا لها ولذكراها الجميلة. وأستطيع ذكر ذلك بكلّ أريحيّة. وأنني لا أحمل غلاً تجاه أحد من المسافرين على الرّحلة أو ضغينة. كان من الركاب أو الموظفين العاملين عليها. فأنا الآن أنعم بوجودي داخل الوطن. والأشياء التّي كنت أبغضها بالأمس، أحبّها اليوم. سيسعني في قادم الأيام التفكّه بالجميع. لو دفعتني إلى ذلك روح الفكاهة أتمّت الرّحلة برنامجها المقرّر. واقتنعنا ببراعة من قاموا على إدارة شئونها. فوداعًا.

مارك توين

إنّني أعدّ ذلك اطراء. إطراء رغم أنّي لم أتلق عنه كلمة شكر واحدة، من قبل الهادجيز، ولم أذكر سوى عين الحقيقة، حيث أقول إنّ كثيرين منهم، قد احتجّوا على ما ورد بالمقال. وإنني سعيا لنيل رضاهم. كرّست لرسم تلك الصّورة الأدبيّة ساعتين من وقتي. بذلت فيهما من الجهد الكثير. لذا لن أقدم مجددا على أداء مأثرة.

خاتمــــة

بينما كنت أجلس في بيتي في سان فرانسيسكو، منشغل البال، حيث انصرم على ختام رحلة الحجّ التاريخية زهاء العام، خلصت إلى الإقرار بأنّه بمرور الأيّام، قد تحوّل تدرجيا ما احتشد برأسي من ذكريات بشأن الرحلة إلى شعور بالرضا، بعد أن زال عنها ما تراكم من أحداث مكدّرة صافنّاها في أثناء الرّحلة، ولو حدث الآن أن رفعت سفينة الكويكر سيتي مرساتها، بقصد الإبحار على الرّحلة ذاتها، فلن يحول شيء بيني وبين دواعي سروري بأن أكون أحد ركّابها، بصحبة القبطان نفسه والحجّاج أنفسهم، وجماعة الآثمين أنفسهم. كوّنت علاقات ممتازة بثمانية أو تسعة من المسافرين (إذ صاروا لي أصدقاء مقرّبين). وكانت لي أيضا علاقات طيّبة ببقية الركاب الخمسة والسّبعين على الرّحلة. أمضيت بالبحر فترة كافية، جعلتني أدرك، أن ذلك المعدل كان سليما مائة بالمائة. إنّ طول البقاء في البحر، لا يظهر فحسب مثالب الإنسان، ويضخمها، بل يرقى بأخرى، لم يكن يشك يوما أنّه يمتلكها، بل ويخلق أيضا سمات جديدة. إن رحلة في البحر، استغرقت اثنا عشر شهرا، لكفيلة بأن تجعل من الإنسان العادي نموذجا كبيرا في التدني الخلقي. ولو كان من جهة أخرى، يتحلّي بمناقب حميدة فنادرا ما تدفعه النفس إلى إظهارها على متن سفينة، بأيّ صورة تؤكد ذلك. إنّني مقتنع الآن بطيبة حجّاجنا الكهول على اليابسة، ومقتنع أيضا بأنهم سيكونون في الرّحلة القادمة أكثر طيبة من ذلك، بصورة أو بأخرى، وبأكثر ممّا كانوا عليه في رحلتنا الكبري، وأقول في هذا السّياق ودون تردّد، بأنّي سأكون ممتنًا، لصحبتي إيّاهم لو أبحروا مجدّدا. حيث يمكنني على الأقلّ التعايش مع حفنة من أصدقائي القدامى وهم أيضا في وسعهم الاستمتاع بصحبة مرافقيهم. فالركاب على السّفن ممنقسمون إلى مجموعات.

سأقول في هذا السياق، إنّني سأرحل أيضا مع مجموعة من المسافرين من المعمّرين ما فوق التسعمائة عام، دون حاجة للتنقل بين السّفن والرّفاق. كما يفعل المسافرون

بطريقتهم المعتادة، فهؤلاء يشعرون بالأسى لتعلّقهم بسفينة ثم تركها، وبرفاق تفرقت بهم السّبل بعد فراقهم. حيث إنّهم حين يكتشفون حبّهم لسفينة، يحتّم الأمر عليهم تركها، والانتقال إلى أخرى، ويكون ارتباطهم برفيق طيّب، مواكبا لفراقه لهم.

يواجه هؤلاء مصاعب جمّة خلال تجربتهم تلك، كونهم يسافرون على سفينة يحسّون فيها بأنهم غرباء، مع صحبة غريبة عنهم لا يألفونهم، ويتجشّمون كالعادة مغبّة سطوة يفرضها عليهم ضبّاط سفن أخرى، ويعانون رزالة الخدم العاملين عليها، ثمّ يتكرّر ذلك مرّات ومرات، في الشّهر الواحد. يعانون أيضا حزم أمتعتهم، وفضّها وفتح الصّناديق وغلقها عبر محنة تتمثل في المرور بالجمارك، ومعاناة ضرورة التزامهم بكمّ هائلا من الحقائب على الأرض، ونقلها من منطقة إلى أخرى. إنّني أفضّل السفر بالبحر برفقة شيوخ أجلاّء على معاناة يتجشّمها المرء على هذا النّحو. لم نحزم أمتعتنا سوى مرتين، الأولى وقت إبحارنا من نيويورك، والثّانية حال عودتنا إليها. كنّا إذا نزلنا إلى البرّ، نحسب عدد الأيّام التّي سنمكثها، وما سوف نحتاجه من أمتعة، ثم نسجّل ذلك في أرقام دقيقة، ونحزم لهذا الغرض حقيبة أو اثنتين، ونترك صناديق متاعنا على ظهر السفينة. اخترنا رفاقنا من كبار السّن، ومن الأصدقاء ذوي الخبرة، وتواصلنا معهم. لم نعتمد في الرّحلة على الغرباء قطّ. غالبا ما دعت الضّرورة إلى التماس العذر للذّين ابتلوا بالسفر بين غرباء، وافتقادهم من يشاركهم همهم من الأصدقاء، أو يسرّي عنهم. بعد عودتنا برا كانت السّفينة هي أوّل ما وقعت عليه أعيننا من بعد، وحين رأيناها راسية بالمرسى، والعلم يرفرف فوقها، شعرنا بإحساس العائد إلى موطنه بعد لأي. حين صعدنا إلى ظهر السفينة، زالت عنّا الهموم والمتاعب، لأنّ السّفينة كانت لنا دارا، فيها غرفة الإقامة ذاتها، تلك التّي ألفنا الإيواء إليها، ليعاودنا الأحساس بالرّاحة والأمن والسكينة. لم أكتشف عيبا في الأسلوب الذّي أديرت به الرّحلة. نفذ البرنامج بدقّة، وأثار هذا دهشتي، لأنّ المشاريع الكبيرة، تقدّم وعودا كثيرة لا ينفّذ منها سوى القليل. الأفضل أن يخطّط لهذه الرّحلة كلّ عام، وأن يتمّ الترتيب لها باستدامة. قدّر لسفر الرّحلات أن يتعرّض للأهواء، والتعصّب الأعمى، وضيق الأفق. كثيرون من بني جلدتنا، يلحّون في طلب السّفر لهذه الأسباب. لا يمكن للمرء أن يكتسب الرؤى الواضحة والحكيمة والمفيدة، بالرّكون إلى الكسل، في بقعة صغيرة من العالم، طوال حياته انتهت الرّحلة، وصارت حدثا من الماضي، لكنّ تنوّع الصّور فيها والأحداث، سيظلاّن عالقين بذاكرتنا لقادم الأعوام.

كنّا كمن يحلّق في الفضاء دون توقّف. لغير وهلة، نلتقط خلالها لمحات سريعة، من عجائب نصف الكرة الأرضيّة، ولم نتمكّن من تلقي أو الخروج بانطباعات عما أسعدنا الحظ برؤيته من أشياء. لكنّ رحلتنا الخارقة في الفضاء، لم تكن لتذهب سدى، لأنّ ما اكتسب من صور، يرقى بذاته على ما التبس لدينا من ذكريات مشوشة، وستظل على اكتمالها في غلالة لونية شفيفة، بعد أن يكون قد تلاشى ما يحيط بإطارها من حواش.

سنذكر شيئا من فرنسا المبهجة، ومن باريس أيضا، وقد بزغ ومضهما بشهاب باهر، وتلاشتا مجدّدا، ليصعب علينا معرفة الماهية والمكان. سنذكر دوما كيف رنونا إلى جبل طارق الضخم، وقد تألق في جلوة لونية صافية من شفق غروب الشّمس على إسبانيا، سابحا في بحر ألوان الطيف. سنعاود في أخيلتنا رؤية ميلانو، وكاتدرائيتها الوقورة، مع كمّ لا حصر له من الرّخام يغطّي أبراجها الوضيئة. ونرى كلا من بودوا، وفيرونا، وكومو، مرصّعة بالنّجوم. والبندقيّة النّبيلة تطفو فوق فيض من مياهها الرّاكدة، في عزلة وصمت وتعاسة، تندب حالها البئيس، وتسدر في استعادة ذكريات أساطيلها القديمة في الحرب والانتصار، وما غاب عنها من مواكب حفلت بمظاهر الأبّهة والفخار.

ولا يمكننا نسيان فلورنسا ونابولي، ولا ما أنبأت به السّماء بلاد اليونان من طقس مشرق، ومؤكّد أنّنا لا ننسى أثينا ومعابد الأكروبوليس المهدّمة، ولا ننسى روما الجليلة، ولا السّهل الأخضر الذّي يطوّقها، ليفصل بين القبح فيها والجمال، ولا الحنايا القديمة المتباعدة فوق السّهل، والتّي تغطّي أغصان الكرم فتحات وشقوق ثلمها. سنذكر كنيسة القدّيس بطرس، ليس كما يراها المتجوّل في شوارع روما، متصوّرا تطابق قبابها، بل كما يراها مجتمعة، بعد أن تغيب عن الصّورة كلّ بنية قبيحة الشّكل، وتلوح قبّة واحدة، تشمخ في شفق الغروب، وتكلّل بالعزّة والمجد، وقد برز إطارها العلوي لتبدو كالطّود.

سنذكر القسطنطينيّة والبوسفور، وعظم ضخامة بعلبك، وأهرامات مصر، والصورة الضّخمة والملامح الرّقيقة لوجه «أبو الهول»، وسنذكر سميرنا الشّرقيّة، وأورشليم المقدّسة، ودمشق درّة الشّرق، وفخر سوريا، وجنّة عدن في الأساطير، وموطن أمراء الجنّ في قصص (ألف ليلة وليلة)، والعاصمة الأقدم على الأرض، والمدينة الوحيدة بين دول [illegible]

التّي احتفظت بالاســم والموقع، ونظرت في صمت إلى ما ظهر من ممالك وإمبراطوريّات عبر أربعة آلاف عام نعمت خلالها بالعزّ والأبّهة عبر عمرها القصير. ثمّ أدركها الزّوال وطواها النّسيان.

المؤلف فـى سطـور:

مـــارك تويـــــن :

اسمه الحقيقىّ صامويل لانجورن كليمنز. ولد في ٣٠ نوفمبر عام ١٨٣٥ لأحد التّجار في فلوريدا، ميسورى، وترتيبه السّادس بين سبعة أبناء. انتقل أبوه وهو في سنّ الرابعة إلى هانيبال ميسورى، وهو ميناء يقع على نهر المسيسبى، وقد ألهمته كتابة رائعتيه «مغامرات هاكلبرى فن"، و"مغامرات توم سوير"، إخراج بقيّة أعماله بأسلوبه السّاخر نفسه. كانت ميسورى في ذلك الوقت تشتهر بمدينة العبيد (إشارة إلى تجارة الرّقيق في تلك الفترة)، وعرف عن توين مناقشة أوضاعهم في كتاباته والدفاع عنهم. أقام في هذه المدينة ما يعرف "بالمؤسّسة الاجتماعيّة للعبيد". وهى التى سيتناولها في أغلب كتاباته كموضوع رئيس بعد ذلك .

المترجم فى سطور :

عبد الباقي بركات :

- حاصل على بكالوريوس التجارة. كليّة التجارة جامعة حلوان / يونيو١٩٧٢ .
- حاصل على دبلومة في اللغة الإنجليزيّة من الكلية البريطانية للتعليم عام ١٩٧٦ .

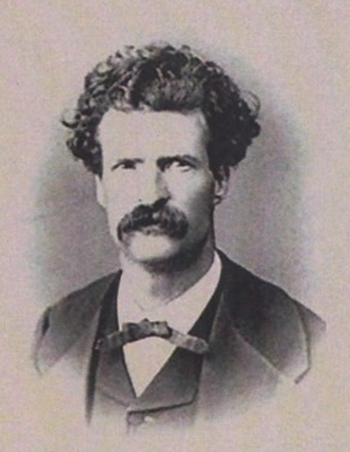
أعمال مترجمة :

- رواية الحرف القرمزي　　الكاتب الأمريكيّ ناتانييل هووثورن.
- مسرحية الحرف القرمزي　　الكاتبة الأمريكية فيليس ناجي.
- في قلب أمريكا　　ناعومي والاس.
- رحلة الحجّاج إلى الأرض المقدّسة　　مارك توين
- مسرحية الشاب من أطلنطا　　الكاتب الأمريكي هورتون فوت.
- مسرحية غدا　　الكاتب الأمريكى هورتون فوت.
- رواية يانكي من كونيكتيكت
- في بلاط الملك آرثر　　مارك توين

أعمال شعرية :

* الموت هدرا　١٩٧٨ .
* الدرويش　١٩٧٩ .
* مسرحية «بارتيتا» ١٩٨٤.

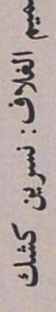
التصحيح اللغوى : سـمـاح حـيـدة
الإشـراف الفنـى : حسـن كـامـل



جاء صدور هذا الكتاب إبان الانتهاء من الحرب الأهلية الأمريكية؛ حيث شهد مناخ هذه الفترة تحولات فكرية وثقافية وعلمية ودينية خطيرة، خاصة أن أوروبا كانت قد بدأت إرهاصات ثورتها الصناعية مع ما واكبها من أحداث كبيرة، وظهور رواد لحركة التنوير والانطلاق نحو التغيير.

ومنذ ظهور هذا الكتاب حتى اليوم لم يتوقف الجدل حوله، ومهما كان رأى القارئ فى الكتاب والكاتب، فإننا لا نستطيع أن نغفل أهمية ما ورد فيه من قضايا تتعلق بنا مباشرة، وتمس العقيدة والسلوك والمناخ الذى كانت تحياه المنطقة العربية فى ظل الحكم العثمانى.

الكتاب يعد من أدب الرحلات؛ حيث تبدأ الرحلة من نيويورك لتجوب الشرق والبحر المتوسط، وتنتهى بفلسطين، فهو محاولات لإثارة قضايا تهم القارئ العربى المسلم والمسيحى.




Exclusive
For
www.ibtesama.com